# الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

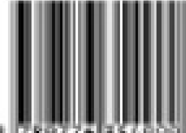


الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨









 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

# الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء التاسع عشر




بسم الله الرحمن الرحيم

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥).

{اُدْعُ} النَّاس يَا مُحَمَّد {إِلَى سَبِيل رَبّك} دِينه {بِالْحِكْمَةِ} بِالْقُرْآنِ {وَالْمَوْعِظَة الْحَسَنَة} مَوَاعِظه أَوْ القول الرقيق {وجادلهم بِالَّتِي} أَيْ الْمُجَادَلَة الَّتِي {هِيَ أَحْسَن} كَالدُّعَاءِ إِلَى الله بِآيَاتِهِ وَالدُّعَاء إِلَى حُجَجه {إِنَّ رَبّك هُوَ أَعْلَم} أَيْ عَالِم {بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيله وَهُوَ أَعْلَم بِالْمُهْتَدِينَ} فَيُجَازِيهِمْ وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْقِتَالِ وَنَزَلَ لَمَّا قُتِلَ حَمْزَة وَمُثِّلَ بِهِ فَقَالَ ﷺ وَقَدْ رَآهُ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانك[1].

---

(١) قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل: ١٢٥]، أي:" ادعُ -أيها الرسول- أنت ومَنِ اتبعك إلى دين ربك وطريقه المستقيم، بالطريقة الحكيمة التي أوحاها الله إليك في الكتاب والسنة، وخاطِب الناس بالأسلوب المناسب لهم، وانصح لهم نصحًا حسنًا، يرغبهم في الخير، وينفرهم من الشر".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {ادْعُ} يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته {إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ} يقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام {بِالْحِكْمَةِ} يقول بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي ينزله عليك {وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكّرهم بها في تنزيله، كالتي عدّد عليهم في هذه السورة من حججه، وذكّرهم فيها ما ذكرهم من آلائه".

**قال البغوي:**" {بالحكمة} بالقرآن، {والموعظة الحسنة} يعني مواعظ القرآن، =

وقيل: الموعظة الحسنة هي الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب، وقيل: هو القول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعنيف".

قال الزجاج:" جاء في التفسير: «الحكمة»: النبوة، و «الموعظة»: القرآن".

قوله تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]، أي:" وجادلهم بأحسن طرق المجادلة من الرفق واللين".

**قال الطبري:**" يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك".

**قال البغوي:**" وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن، أي: أعرض عن أذاهم، ولا تقصر في تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق".

وفي قوله تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]، وجوه:

**أحدها:** يعني: أعرض عن أذاهم إياك. قاله مجاهد.

**الثاني:** بأن توقظ القلوب ولا تسفه العقول.

**الثالث:** بأن ترشد الخلف ولا تذم السلف.

**الرابع:** على قدر ما يحتملون.

وفي الحديث: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

الخامس: المعنى جادلهم بالقرآن. حكاه ابن الجوزي عن ابن عباس.

السادس: بلا إله إلا الله. حكاه ابن الجوزي عن ابن عباس أيضا.

السابع: جادلهم غير فظ ولا غليظ القلب في ذلك. ألن لهم جانبك. قال الزجاج.

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥]، أي:" إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين".

=

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين في السبت وغيره من خلقه، وحادّ الله، وهو أعلم بمن كان منهم سالكا قصد السبيل ومَحَجة الحقّ، وهو مُجازٍ جميعهم جزاءهم عند ورودهم عليه".

قال ابن الجوزي:" ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وفيه بعد، لأن المجادلة لا تنافي القتال، ولم يقل له، اقتصر على جدالهم، فيكون المعنى جادلهم فإن أبوا فالسيف فلا يتوجه نسخ".

وذكر مكي بن أبي طالب بعد ذكر قول النسخ: "وهذا لا يجوز نسخه لأنه انتهاء إلى ما أمر الله به، والكف عما نهى الله عنه، فالآية محكمة".

* قوله (ادع) فعل أمر موجه إلى محمد ﷺ ابتداء ولنا أيضا، فنحن مأمورون بالدعوة إلى الله سبحانه وليس رسولنا ﷺ فقط، ودل على هذا آيات وأحاديث صحيحة، أذكر من الآيات (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (آل عمران: ١٠٤).

وأما من الأحاديث فأذكر قوله ﷺ "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (صحيح مسلم ج١/ ص٦٩)

- (ادع) حذف ذكر المفعول به؛ إبرازا لأمر الدعوة؛ لأن السياق سياق أمر بالدعوة إلى سبيل الله، وليس سياق تعيين المدعوين، وأيضا فإن حذف ذكر المفعول به - في هذا السياق - يدل على التعميم، أي أن الدعوة إلى الجميع.

- (سبيل ربك) أي الطريق التي أمر الله - سبحانه وتعالى - عباده أن يسلكوها حتى يرضى عنهم.

- (ربك) إضافة السبيل إلى "الرب"؛ دلالة على أن الداعي إلى الله سبحانه مرعي

=

=

بعناية الله ولطفه، لما في اسم "الرب" من معاني العناية والرعاية. والكاف للخطاب، وهو عائد إلى النبي محمد ﷺ؛ تكريما له.

- (بالحكمة) وأصل "حكم" في اللغة: المنع؛ ولذا سمي لجام الدابة: حكمة الدابة.

والحكمة تمنع صاحبها من الوقوع في الخطأ؛ ولذا فهي: الإصابة في القول والفعل، وأعلى حكمة على الإطلاق ما أوحى الله به إلى أنبيائه، وهو في حقنا: الكتاب والسنة.

**وقيل**: إن الحكمة هي الكتاب والسنة فقط؛ لقوله تعالى (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة... ) (الإسراء: ٣٩). وهذا ليس صحيحا؛ فقد قال رسول الله ﷺ: "إن من الشعر حكمة" (صحيح البخاري ج٥/ ص٢٢٧٦)

**وقيل**: هي الحجج العقلية أو ما كان في هذا المعنى، وذكر بعض المفسرين اصطلاحات "المنطق".

وهذا ليس صحيحا؛ لأن الحكمة لا تنحصر في القول، بل الحكمة تكون بالفعل أيضا، ويتحدد معنى الحكمة في القرآن وفق السياق الذي جاءت فيه، ولكن لا تخرج معانيها عن الإصابة في القول والعمل.

والحكمة في الدعوة إلى الله تكون باختيار الوقت المناسب والزمان المناسب والمكان المناسب والأسلوب المناسب والوسيلة المناسبة والقول المناسب، وهكذا.....

ويفسر بعض المعاصرين بأن الحكمة هي اللين في الدعوة، وهذا تفسير لجزء من معاني الحكمة.

- (والموعظة الحسنة) اختلف في معنى الوعظ، فقيل: الكلام الذي تلين له القلوب. وقيل: زجر مقترن بتخويف.

=

=

والمعنى المستنبط من قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) (النحل:٩٠)، هو: أن الوعظ أمر وكذلك زجر، لأن الآية اشتملت على الأوامر والنواهي، فالوعظ نصيحة وإرشاد يبرز فيه معنى التذكير، وانظر في قصة نوح - عليه السلام - في "سورة هود": فلما سأل نوح - عليه السلام - ربه في شأن ابنه، قال له ربنا سبحانه وتعالى (... يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) (هود: ٤٦) أي: (أعظك)؛ لما سبق من إعلامك (... احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) (هود:٤٠) وكذلك قوله تعالى (يعظكم لعلكم تذكرون) يبين العلاقة بين الموعظة والتذكير.

- (والموعظة الحسنة) أمر الله - سبحانه وتعالى - بالوعظ الحسن وليس بأي وعظ؛ لأن من الوعظ والتذكير ما ليس بحسن، بل هو منفر، ومنه ما ليس له تأثير في النفوس.

- ولكن أليست الموعظة الحسنة من الحكمة، فلماذا ذكرت بعد ذكر الحكمة؟

الموعظة الحسنة من الحكمة؛ لأنها من جملة الصواب والحق، ولكن الحكمة أوسع؛ لأنها تكون في كل الأقوال من مواعظ وغيرها، وفي كل الأفعال، ولكن أفردت الموعظة بالذكر بعد الحكمة من باب ذكر الخاص بعد العام للأهمية.

وتكون الموعظة بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة والسلف الصالح والعلماء والشعراء والقصص والوقائع والتاريخ والحقائق العلمية والأسلوب المؤثر وهكذا، وأسلوب الوعظ يختلف عن أسلوب التعليم؛ لأن أسلوب الوعظ يراعى فيه جانب القلب والتذكير والتأثير، بخلاف أسلوب التعليم الذي يغلب جانب العقل على جانب القلب.

=

=

- (وجادلهم) لم يأت النص "وادعهم" لأن الواو عطفت الفعل (جادلهم) على (ادع) وليس على (والموعظة)، علما بأن المجادلة تصب في بحر الدعوة، ولكن الفرق الدقيق بينهما أن هدف الدعوة الأول هو إدخال الناس في الإسلام؛ ولذا فإن الدعوة تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وأما الهدف الأول للجدال والمحاججة هو دفع الخصوم وإقامة الحجة، وبعدها يأتي هدف اقتناع المجادل بالحق؛ ألا ترى - رحمك الله - أن المسلمين يفرحون عند إفحام خصومهم من الكفار ولو لم يهتد منهم أحد؛ لأنهم حققوا الهدف الأول من الجدال، وإذا دخل أحد إلى الإسلام بسبب هذا الجدال فإن الفرحة عندهم تكتمل، وأما عندما يدعوا المسلمون غيرهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فإنهم لا يفرحون بمجرد الدعوة وإنما بحصول الاستجابة.

- (بالتي هي) الضمير "التي" متعلق بـ (جادلهم)، وهناك محذوف تقديره "وجادلهم بالمجادلة التي".

وضمير "هي" عائد على المجادلة، وللضميرين "التي" و"هي" دلالتهما على التأكيد على القول الأحسن في المجادلة، فلو قلنا في غير التنزيل "وجادلهم بالأسلوب الأحسن أو القول الأحسن" لما كان له وقع التعبير بالضميرين "التي" و"هي"، وتأمل معي - رعاك الله - الفرق بين النصين لتعلم روعة النص القرآني (وجادلهم بالتي هي أحسن).

- (أحسن) صيغة تفضيل يستفاد منها أن لا نجادل الكفار المجادلة الحسنة، بل علينا أن نجادلهم المجادلة الأحسن.

وصيغة التفضيل من حسن هي: أحسن، أما مؤنث حسن: حسنة، وصيغة التفضيل منها: حسنى، جاء النص (بالتي هي أحسن) وليس "بالتي هي حسنى"؛ لتضمين المجادلة معنى القول.

=

=

- ولكن لماذا جاء الأمر بالموعظة الحسنة وليست الحسنى، بينما جاء الأمر بالمجادلة بالأحسن وليس الحسن؟

جاء الأمر كذلك؛ لأن قليل اللين يفي بالغرض في الموعظة، بينما في المجادلة فإن قليل اللين لا يفي بالغرض، بل لا بد من الكثير منه؛ لما في المجادلة من المحاججة ومقارعة الخصوم مما يسبب نفور الخصم وتجلده أمام الحق، بينما الموعظة ليس فيها هذه المصادمة.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الثالثة: قوله تعالى: {وجادلهم بالتي هي أحسن}.

اختلف المفسرون في هذه الآية على أربعة أقوال:

**أحدها**: أن المعنى جادلهم بالقرآن.

**والثاني**: بلا إله إلا الله، والقولان عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

**والثالث**: أعرض عن أذاهم إياك.

ثم ذكر بإسناده عن مجاهد {وجادلهم بالتي هي أحسن} قال: يقول أعرض عن أذاهم إياك.

**والرابع**: جادلهم غير فظ ولا غليظ وألن لهم جانبك، قاله الزجاج.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف. وفيه بعد، لأن المجادلة لا تنافي القتال، ولم يقل له، اقتصر على جدالهم، فيكون المعنى جادلهم فإن أبوا فالسيف فلا يتوجه نسخ. ا.هـ

وقد ذكر النحاس دعوى النسخ في ناسخه (١٨٥) دون أن يدعم قوله بأي دليل عقلي أو نقلي.

- (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أي: يا محمد ادع فقط ولا تحزن على الكافرين؛ لأن الله هو أعلم بهم فيضل من يستحق الضلالة

=

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ

=

ويهدي من يستحق الهدى.

- (إن ربك) (إن) لتأكيد مضمون القول، والتعبير بـ "الرب" وإضافته إلى النبي ﷺ لتأنيسه وتسليته وإكرامه.

- (إن ربك هو أعلم) فلا أحد أعلم من الله سبحانه وتعالى، وضمير الفصل "هو" للدلالة على أن الله - سبحانه وتعالى- هو الأعلم وحده.

- (وهو أعلم بالمهتدين) وليس "بمن ضل عن سبيله وبالمهتدين"، بل أعيد ذكر ضمير الفصل "هو" والفعل "أعلم" ترسيخا لعقيدة أن الله - سبحانه وتعالى - العليم وحده، وجاء التفريق بالعطف بين المهتدين والضالين؛ لبيان أن المهتدين شيء والضالين شيء آخر.

- تقدم ذكر الضالين على المهتدين؛ لأن سبب الحزن الحاصل للنبي ﷺ وللدعاة من بعده إنما هو بسبب الضالين، ولأن الكلام تسلية وتأنيس تقدم ذكر الضالين لإزالة سبب الحزن والضيق.

وقيل تقدم ذكر الضالين على المهتدين: لتهديدهم. وهو قول مقبول، ولكن القول بأن التقديم للتسلية أولى؛ لأن معنى الآية أي: يا محمد ادع إلى سبيل ربك فقط ولا تحزن على الكافرين؛ لأن من يضل فإنما يستحق الضلالة ومن يهتدي يستحق الهداية.

- جاء التعبير عن الضالين بالفعل "ضل" وعن المهتدين بالاسم "المهتدين"، (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)؛ لأن الضلال أمر حادث على الفطرة، وإنما ولد الناس على الفطرة فضلوا بعدها، وأما الهداية فهي الأصل؛ ولذا جاء التعبير عنها بالاسم، وأيضا فإن الاسم "المهتدين" يتضمن الوصف بالهدى أقوى مما يتضمنه الفعل، وهذا تزكية للمهتدين.

(١٢٦).

{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ} عَنْ الِانْتِقَام {لَهُوَ} أَيْ الصَّبْر {خَيْر لِلصَّابِرِينَ} فَكَفَّ ﷺ وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ رَوَاهُ الْبَزَّار[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم قال فلما كان يوم فتح مكة فأنزل الله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) فقال رجل: لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: كفوا عن القوم إلا أربعة).

أخرجه الترمذي (٣١٢٩)، والنسائي في تفسيره (١/ ٦٤٠)، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥/ ١٣٥)، والطبراني (٣/ ١٤٣)، وابن حبان (٤٨٧)، والحاكم (٢/ ٣٩١)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٩)، والضياء في المختارة (١١٤٣) والحديث حسنه الترمذي، وصححه ابن حبان، والضياء، والحاكم، وأقره الذهبي، وقواه الحافظ في الفتح (٧/ ٤٣٠)، وقال الألباني في الصحيحة (٢٣٧٧): هذا إسناد حسن رجاله كلهم صدوقون وفي بعضهم كلام يسير، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده حسن، وحسنه صاحبا الإستيعاب (٢/ ٤٣٠ - ٤٣١).

وعن أبي هريرة؛ قال: إن النبي ﷺ نظر يوم أحد إلى حمزة بن عبد المطلب وقد قتل (وفي رواية: حين استشهد)، ومثل به فرأى منظرًا لم ير منظرًا قط أوجع لقلبه منه ولا أوجل، فقال: "رحمة الله عليك، قد كنت وصولًا للرحم فعولًا للخيرات، والله لولا حُزْنُ مَنْ بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى يحشرك الله من بطون السباع -أو كلمة نحوها- أما والله- عَلَيَّ ذلك-؛ لأمثلن بسبعين كمثلتك"؛ فنزل جبريل =

=

عَلَيْهِ السَّلَامُ على محمد ﷺ بهذه السورة، وقرأ: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)} حتى ختم السورة، وكَفَّرَ رسول الله ﷺ عن يمينه، وأمسك عما أراد.

أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣، ١٤)، والبزار (١٧٩٥ - كشف)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٤٣)، والآجري في الشريعة (١٧٨٥)، والحاكم (١٣/ ١٩٧)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٨، ٢٨٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢/ ٦٧٩، رقم ١٨٣٠)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (ص ٨٨، ٨٩، رقم ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧)، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٩١، ١٩٢) وفي الوسيط (٣/ ٩١) والحديث سكت عنه الحاكم فتعقبه الذهبي بقوله: قلت: صالح واه، وضعفه ابن كثير (٤/ ٦١٤): بقوله: هذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحا -هو ابن بشير المري- ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث، وكذلك ضعفه الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٩)، وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٣٠): في إسناده ضعف، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٥٥٠)، وضعفه صاحبا الإستيعاب (٢/ ٤٣١).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: لما وقف رسول الله ﷺ على حمزة فنظر إلى ما به، قال: "لولا أن تحزن النساء ما غيبته، ولتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطيور حتى يبعثه الله مما هنالك"، قال: وأحزنه ما رأى به، فقال: "لئن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم"؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} إلى قوله: {يَمْكُرُونَ} ثم أمر به فهيء إلى القبلة، ثم كبّر عليه تسعًا، ثم جمع عليه الشهداء، كلما أتي بشهيد وضع إلى حمزة فصلى عليه وعلى الشهداء معه، حتى صلى عليه وعلى الشهداء اثنتين وسبعين صلاة، ثم قام على أصحابه حتى واراهم، ولما نزل القرآن عفا رسول الله ﷺ وتجاوز وترك

=

=

المثلة.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٥٢ رقم ١١٠٥١): ثنا الحسن بن علي المعمري ثنا أحمد بن أيوب بن راشد البصري ثنا عبد الأعلى عن ابن إسحاق ثني محمد بن كعب القرظي والحكم بن عتيبة عن مقسم ومجاهد عن ابن عباس به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ١٢٠): "وفيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف".

وتعقبه العلامة الألباني في "الضعيفة" (٥٤٩): "لم نجد من صرح بتضعيفه من الأئمة المتقدمين، ولا من وثقه منهم! نعم؛ أورده ابن حبان في "الثقات" وقال: "ربما أغرب"، وهذا ليس بجرح، كما أن إيراده إياه في "الثقات"، ليس بتوثيق معتمد؛ كما سبق عليه مرارًا، فالحق أن الرجل في عداد مجهولي العدالة؛ ولذلك لم يوثقه الحافظ في "التقريب" ولم يضعفه، بل قال فيه: "مقبول". اهـ.

وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٢٨٨)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٩٢) من طريق يحيى الحماني ثنا قيس بن الربيع عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ يوم قتل حمزة ومُثّل به: "لئن ظفرت بقريش لأمثلن بسبعين رجلًا منهم"، قال: فأنزل الله ﷻ: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} الآية.

فقال رسول الله ﷺ: "بل نصبر يا رب"؛ فصبر ونهى عن المثلة.

وهذا منكر؛ فيه ثلاث علل: الأولى: ابن أبي ليلى؛ صدوق سيئ الحفظ جدًا. والثانية: قيس بن الربيع؛ ضعيف أيضًا. والثالثة: الحماني حافظ متهم.

ووجه نكارته: أن فيه مخالفة للمتن السابق؛ كما هو واضح، على أنه يمكن القول بحسن السند السابق؛ لأن أحمد ذا روى عنه جمع، ووثقه ابن حبان فهو قريب من

=

=

درجة الحسن -والله أعلم-.

وأخرجه الآجري في "الشريعة" (٣/ ٣٦٣ - ٣٦٥ رقم ١٧٨٤ - ط الخراز) من طريق الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد عن ابن عباس؛ قال: لما انصرف المشركون عن قتال أُحد؛ أشرف رسول الله ﷺ على القتلى، فرأى منظرًا ساءه؛ فرأى حمزة رضي الله عنه قد شق بطنه، واصطلم أنفه، وجدعت أذناه، فقال: "لولا أن تجزعن النساء وتكون سُنّة بعدي؛ لتركته حتى يحشره ﷻ من بطون السباع والطير، ومثلت بثلاثين منهم مكانه". ثم دعا ببردة فغطى بها وجهه فخرجت رجلاه، فغطا بها رجليه فخرج وجهه، فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجليه من الإذخر، ثم قدمه فكبر عليه عشرًا، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع إلى جنبه فيصلي عليه، ثم يرفع ويجاء بآخر فيوضع وحمزة مكانه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى يومئذ سبعين، فلما دفنهم وفرغ منهم؛ نزلت هذه الآية: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} إلى قوله ﷻ: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ}؛ قال: فصبر رسول الله ﷺ ولم يعاقب ولم يقتل. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ الحسن بن عمارة؛ متروك.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ١٧٩) وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه.

وأخرج الدارقطني في "سننه" (٤/ ١١٨) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٩١) - من طريق الحكم بن موسى ثنا إسماعيل بن عياش عن عبد الملك بن أبي عتيبة أو غيره عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد عن ابن عباس؛ قال: لما انصرف المشركون عن قتلى أُحد انصرف رسول الله ﷺ، فرأى منظرًا أساءه؛ رأى حمزة رضي الله عنه قد شق بطنه واصطلم أنفه وجدعت أذناه، فقال: "لولا أن يحزن

=

=

النساء أو يكون سُنّة بعدي لتركته، حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير، لأمثلن مكانه سبعين رجلًا"، ثم دعا ببرده فغطى بها وجهه فخرجت رجلاه، فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجليه شيئًا من الإذخر، ثم قدمه فكبّر عليه عشرًا، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا أو فرغ منهم؛ نزلت هذه الآية: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} إلى قوله: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ}؛ فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد. قال الدارقطني: "لم يروه غير إسماعيل بن عياش، وهو مضطرب الحديث عن غير الشاميين". وهو كما قال؛ فالحديث ضعيف.

وعن الشعبي؛ قال: لما كان يوم أُحد وانصرف المشركون، فرأى المسلمون بإخوانهم مثلة سيئة؛ جعلوا يقطعون آذانهم، وآنافهم، ويشقون بطونهم، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن أنالنا الله منهم؛ لنفعلن؛ فأنزل الله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)}، فقال رسول الله ﷺ: "بل نصبر".

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٨٩ رقم ١٨٥٩١)، والطبري في "جامع البيان" (١٤/ ١٣١، ١٣١، ١٣١، ١٣٢) من ثلاثة طرق عن داود بن أبي هند عن الشعبي به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عطاء بن يسار؛ قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات في آخرها، نزلت في المدينة بعد أُحد حيث قتل حمزة ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: "لئن ظهرنا عليهم؛ لنمثلن بثلاثين رجلًا منهم"، فلما سمع المسلمون بذلك؛ قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط؛ فأنزل الله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)} إلى آخر السورة.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٤/ ١٣٢): ثنا ابن حميد ثنا سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار به. الأولى: ابن حميد متهم بالكذب. والثانية: ابن إسحاق مدلس وقد عنعن. والثالثة: جهالة أصحاب ابن إسحاق. والرابعة: الإرسال.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} قال: أمرهم الله أن يعفوا عن المشركين، فأسلم رجال لهم منعة، فقالوا: يا رسول الله! لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب؛ فنزل القرآن: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)}، واصبر أنت يا محمد ولا تكن في ضيق ممن ينتصر، {وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} ثم نسخ هذا وأمره بالجهاد.

أخرجه الطبري (١٤/ ١٣٢): ثني يونس ثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: (وذكره). وسنده ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف عبد الرحمن.

* قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} [النحل: ١٢٦]، أي:" وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا".

قال مجاهد:" لا تعتدوا".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره للمؤمنين: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة".

وفي قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} [النحل: ١٢٦]، وجهان:

أحدهما: أنها نزلت في قتلى أُحُد حين مثلت بهم قريش. قاله عامر، وقتادة، وعطاء بن يسار، وابن جريج.

=

=

والقول الثاني: أنها نزلت في كل مظلوم ان يقتص من ظالمه، قاله إبراهيم، وابن سيرين، ومجاهد.

قال ابن سيرين:" إن أخذ منك رجل شيئا فخذ منه مثله".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: ١٢٦]، أي:" ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل".

**قال الطبري:**" ولئن صبرتم عن عقوبته، واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إليه، حتى يكون هو المتولى عقوبته {لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر احتسابا، وابتغاء ثواب الله، لأن الله يعوّضه مِنَ الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظلمه إياه من لذّة الانتصار".

وللمفسرين في حكم هذه الآية، قولان:

أحدهما: أنها نزلت قبل «براءة»، فأمر رسول الله ﷺ، أن يقاتل من قاتله، ولا يبدأ بالقتال، ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد. قاله ابن عباس، والضحاك.

**والثاني**: أنها محكمة، وأنها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظلم منه. قاله عامر الشعبي، وإبراهيم النخعي، وابن سيرين، وسفيان الثوري.

وروي عن مجاهد، " {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم} يقول: لا تعتدوا يعني: محمدا وأصحابه".

قال ابن الجوزي:" وعلى هذا القول يكون المعنى: ولئن صبرتم على المثلة لا عن القتال. وهذا أصح من القول الأول".

**وقيل**: إن هذه الآية منسوخة بالقتال، والصحيح - والذي عليه الجمهور - أن الآية محكمة ولا تتعارض مع آية السيف؛ لأن النبي ﷺ لم يترك الجهاد بل فتح مكة وأذعن أهلها لجيش المسلمين، والآية تتكلم عن العفو فيمن يصلحه العفو

=

=

كأهل مكة؛ فإنهم دخلوا بالإسلام.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الرابعة: قوله تعالى: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين}.

للمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها (نزلت) قبل براءة، فأمر رسول الله ﷺ، أن يقاتل من قاتله، ولا يبدأ بالقتال، ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد. قاله ابن عباس والضحاك.

أخبرنا عبد الوهاب، قال:أنبأناأبو الفضل بن خيرون، وأبو طاهر الباقلاوي، قالا:أنبأنا أبو علي بن شاذان، قال:أنبأنا أحمد بن كامل، قال: حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي عن أبيه عن جده عن ابن عباس رضي الله عنهما {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم} فقال: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقاتل من قاتله، ثم نزلت براءة، فهذا من المنسوخ، فعلى هذا القول، يكون المعنى: ولئن صبرتم عن القتال، ثم نسخ هذا بقوله: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}.

**والثاني**: أنها محكمة، وأنها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظلم منه. قاله الشعبي، والنخعي، وابن سيرين، والثوري.

أخبرنا عبد الوهاب، قال:أنبأنا أبو طاهر، قال:أنبأنا ابن شاذان، قال:أنبأنا عبد الرحمن بن الحسن، قال:أنبأنا إبراهيم بن الحسين، قال: بنا آدم قال بنا ورقاء عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم} يقول: لا تعتدوا يعني: محمدا وأصحابه. وعلى هذا القول يكون المعنى: ولئن صبرتم على المثلة لا عن القتال. وهذا أصح من القول الأول ا.هـ

ولم يعد هذه الآية من المنسوخات النحاس، ولا مكي بن أبي طالب.

- (وإن عاقبتم) وجاء النص بـ "إن" وليس بـ"إذا"؛ تقليلا من حوادث رد العقوبة حثا على العفو؛ لأن"إذا" تستعمل فيما هو محقق الوقوع، و"إن" تستعمل فيما

=

=

هو مشكوك في وقعه، وقد تقع "إذا" مكان "إن" لغرض بلاغي، كقولك للبخيل تحثه على الإنفاق: إذا أنفقت في سبيل الله فإن الله يخلف ما أنفقت.

- (عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أي إن انتقمتم من الكفار فانتقموا قدر اعتدائهم ولا تزيدوا على ذلك.

- (عوقبتم به) أي عاقبكم الكفار به على دعوتكم إلى سبيل الله. وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن المهم هو وقوع العقوبة وليس تعيين من وقعت منه العقوبة.

ولا داعي أن نقول إن (عوقبتم) مشاكلة لـ (عاقبتم)؛ لأن ما فعله الكفار للمؤمنين هو عقوبة منهم للمؤمنين على دعوتهم حقيقة وليس من باب المشاكلة اللفظية.

- (ولئن) اللام موطئة للقسم، و"إن"حرف شرط، و لام (لهو) واقعة في جواب القسم، وهذا القسم إنما هو للتأكيد على خيرية العفو على الانتقام.

- (خير للصابرين) أي: خير لكم. وأقيم (للصابرين) مقام الضمير، حثا لهم على العفو بأنهم إذا فعلوه استحقوا هذا الاسم المتضمن لوصف الصبر.

- ويستدل بهذه الآية في مسألة الظفر، وهي: إذا ظلم رجل بأخذ ماله ولم يستطع أن يثبت ذلك، واستطاع أخذ ماله بطريقة لا تقع عليه فيها العقوبة ولا على أحد آخر ولا يتعدى على حرمة أحد، كدخول بيت لم يؤذن له بدخوله، فهل يجوز له استيفاء حقه؟

اختلف الفقهاء في ذلك، واستدل المبيحون بهذه الآية وبغيرها ممن في معناها، واستدل المحرمون بحديث " أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك "

وقد حسن بعض العلماء هذا الحديث بمجموع طرقه، نظرا لمتابعة قيس بن الربيع لشريك، ولشاهد من طريق أيوب بن سويد.

ولكن في هذا التحسين نظر، فإن قيس بن الربيع لم يتغير حفظه فقط بل قد أدخل عليه ابنه أحاديث ليست له فحدث بها، وكذلك فإن أيوب لم يكن صدوقا يخطئ

=

=

فقط، بل كان يسرق الحديث، فقد حدث بالرملة أحاديث عن ابن المبارك ثم جعلها بعد ذلك عن نفسه عن ابن المبارك، وقال النسائي فيه: ليس بثقة.

قال ابن الملقن: "حديث أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك. رواه أبو داود والترمذي والحاكم من رواية أبي هريرة. قال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم على شرط مسلم، وله شاهد فذكره. وأعله ابن حزم وابن القطان والبيهقي، وقال أبو حاتم: منكر، وقال الشافعي: إنه ليس بثابت عند أهله، وقال أحمد: هذا حديث باطل لا أعرفه عن النبي – صلى الله تعالى عليه وسلم – من وجه صحيح. فقلت له طرق ستة كلها ضعاف كما أوضحتها في الأصل" (خلاصة البدر المنير ج٢/ ص١٥٠)

ولكن إن صح الحديث فإنه خاص بالأمانة؛ لما روي عن عائشة ﵂ قالت: قالت هند أم معاوية لرسول الله ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل علي جناح أن آخذ من ماله سرا؟ قال: خذي أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف (صحيح البخاري ج٢/ ص٧٦٩).

فقد أجاز النبي ﷺ لهند وبنيها أن يأخذوا حقهم من غير علم والدهم إن قصر في دفعه إليهم.

جاء في (إعانة الطالبين ج٣/ ص٨٣): "وله – أي للشخص – بلا خوف فتنة عليه أو على غيره أخذ ماله استقلالا للضرورة من مال مدين له مقر مماطل به أو جاحد له أو متوار أو متعزز، وإن كان على الجاحد بينة أو رجا إقراره لو رفعه للقاضي؛ لإذنه ﷺ لهند لما شكت إليه شح أبي سفيان أن تأخذ ما يكفيها وولده بالمعروف، ولأن في الرفع للقاضي مشقة ومؤنة، وإنما يجوز له الأخذ من جنس حقه، ثم عند تعذر جنسه يأخذ غيره، ويتعين في أخذ غير الجنس تقديم النقد على غيره"

=

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧).

{واصبر وما صبرك إلا بالله} بتوفيقه {ولاتحزن عليهم} أي الكفار وإن لَمْ يُؤْمِنُوا لِحِرْصِك عَلَى إيمَانهمْ {وَلَا تَكُ فِي ضَيْق مِمَّا يَمْكُرُونَ} أَيْ لَا تَهْتَمّ بِمَكْرِهِمْ فَأَنَا نَاصِرك عَلَيْهِمْ[1].

---

=

وقال بعض العلماء: إن كان السبب ظاهرا كالزوجية والأبوة والبنوة جاز له الأخذ، وإن كان غير ظاهر كالقرض وثمن المبيع لم يجز له الأخذ. وقولهم هذا مبني على تصحيح حديث " أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك " وجمعا بينه وبين حديث هند.

- استنبط العلماء من هذه الآية المماثلة بالقصاص، فمن قتل بحجر قتل بحجر، ومن قتل بسيف قتل بسيف، واستدلوا بما روي عن أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أن يهوديا رض رأس جارية بين حجرين، قيل: من فعل هذا بك، أفلان أفلان؟ حتى سمي اليهودي، فأومت برأسها، فأخذ اليهودي فاعترف، فأمر به النبي ﷺ فرض رأسه بين حجرين (صحيح البخاري ج٢/ ص٨٥٠) وهذا قول جمهور العلماء.

(١) قوله تعالى: {وَاصْبِرْ} [النحل: ١٢٧]، أي:" واصبر -أيها الرسول- على ما أصابك مِن أذى في الله حتى يأتيك الفرج".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واصبر يا محمد على ما أصابك من أذى في الله".

قال مقاتل:" قال للنبي- ﷺ-: وكانوا مثلوا بعمه حمزة ابن عبد المطلب- عَلَيْهِالسَّلَامُ- {واصبر} على المثلة البتة".

قوله تعالى: {وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ} [النحل: ١٢٧]، أي:" وما صبرك إلا بالله، فهو
=

=

الذي يعينك عليه ويثبتك".

قال السمعاني:" أي: بمعونة الله".

**قال الطبري:**" وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله، وتوفيقه إياك لذلك".

قال مقاتل:" يقول: أنا ألهمك حتى تصبر فقال النبي- ﷺ- للأنصار: "إني قد أمرت بالصبر البتة أفتصبرون"؟ قالوا: يا رسول الله، أما إذ صبرت وأمرت بالصبر فإنا نصبر".

قوله تعالى: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [النحل: ١٢٧]، أي:" ولا تحزن على مَن خالفك ولم يستجب لدعوتك".

قال مقاتل:" إن تولوا عنك فلم يجيبوك إلى الإيمان".

قال السمعاني:" أي: لا تحزن على أفعالهم وإبائهم للإسلام".

**قال الطبري:**" يقول: ولا تحزن على هؤلاء المشركين الذين يكذّبونك وينكرون ما جئتهم به في آن ولوا عنك وأعرضوا عما أتيتهم به من النصيحة".

قوله تعالى: {وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: ١٢٧]، أي:" ولا يضقْ صدرك بما يقولون من السَّفه والجهل، ولا بما يدبرون من المكر والكيد".

**قال الطبري:**" يقول: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل، ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة، مما يمكرون: مما يحتالون بالخدع في الصّد عن سبيل الله، من أراد الإيمان بك، والتصديق بما أنزل الله إليك".

قال مقاتل:" يقول: لا يضيقن صدرك {مما يمكرون}، يعني: مما يقولون، يعني: كفار مكة حين قالوا للنبي- ﷺ-: أيام الموسم هذا دأبنا ودأبك وهم الخراصون وهم المستهزءون. فضاق صدر النبي- ﷺ- بما قالوا".

قال السمعاني:" {مما يمكرون} أي: يشركون، وقيل: مما فعلوا من الأفاعيل".

وقرأه بعض قرّاء أهل المدينة: «وَلا تَكُ فِي ضِيقٍ»، بكسر الضاد.

=

=

وفي الفرق «ضِيقٍ»، بالفتح والكسر، قولان:

أحدهما: أن «الضيق» بالفتح: ما قل، وبالكسر: ما كثر، قاله أبو عبيدة.

**الثاني**: أن «الضيق» بالفتح: ما ضاق عنه صدرك، و «الضيق» بالكسر، ما يكون في الذي يتسع مثل الدار والثوب وأشباه ذلك، قاله الفراء.

قال ابن الجوزي:" هذه الآية متعلقة بالتي قبلها فحكمها حكمها، وقد زعم بعض المفسرين أن «الصبر» هاهنا منسوخ بآية السيف".

* قوله (واصبر) يا محمد، لعلو شأنك، ولرفعة منزلتك، فعليك أن تفعل الأحسن لا الحسن، والأكمل لا الكامل.

- (وما صبرك إلا بالله) لعلم الله - سبحانه وتعالى - بشدة هذا العفو على نفس النبي ﷺ - لما لاقاه من أذى عظيم على مر سنين - مد له يد العون والتوفيق، ولأن الله هو وحده من يعين على الصبر فاستعن به وحده.

- (ولا تحزن عليهم) أي الكفار بسبب إعراضهم عن الذكر بعد إذ جاءهم، لأن من رحمة النبي ﷺ شفقته على الكفار، قال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) (الكهف: ٦) وقال تعالى (... إن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون) (فاطر:٨)

وقيل (ولا تحزن عليهم) أي المؤمنين لما أصابهم من أذى. وهذا بعيد؛ لأنه لا يتوافق والسياق؛ وتأمل قوله تعالى (ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون).

- (ولا تك في ضيق مما يمكرون) أي: يا محمد لا يضق صدرك بسبب مكرهم.

- (في ضيق) أي مبالغا في الحزن، وهذا مستفاد من حرف الجر "في"، أي نهاه أن يكون حالا في الضيق كمن حل في مكان فكان محيطا به. أما مطلق الحزن الذي لا

=

إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨).

{إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا} الْكُفْر وَالْمَعَاصِيَ {وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} بِالطَّاعَةِ وَالصَّبْر بِالْعَوْنِ وَالنَّصْر[1].

---

=

تخلو منه النفس البشرية فليس منهيا عنه.

- (ضيق) قرئت (ضيق) بالكسر، وهما - على المشهور - لغتان بمعنى واحد. وفرق بعضهم بينهما.

- (مما يمكرون) أي: "من ما". و"من" سببية، و"ما" إما أن تكون اسما موصولا، ويكون المعنى: "بسبب الذي يمكرون"، أو تكون "ما" مصدرية، ويكون المعنى: "بسبب مكرهم ".

- (يمكرون) والتعبير بالمضارع لا بالمصدر لحكاية الحال الواقعة في ذلك الزمن، وللدلالة على ما يحدث في المستقبل من المكر. وما زال الكفار يمكرون ويمكرون.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا} [النحل: ١٢٨]، أي:" إن الله سبحانه وتعالى بتوفيقه وعونه وتأييده ونصره مع الذين اتقوه بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى".

قال الماوردي:" أي ناصر الذي اتقوا".

قال السمعاني:" يعني: اتقوا المناهي.. [وقوله]: {مع} بالحفظ والنصرة والمعونة".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره {إِنَّ اللهَ} يا محمد {مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا} الله في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدّم عليها".

قال الحسن:" اتقوا فيما حرم الله عليهم".

قال مقاتل:" {إن الله مع الذين اتقوا} الشرك في العون والنصر لهم".

=

=

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨]، أي:" ومع الذين يحسنون أداء فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته".

قال مقاتل:" يعنى: فى إيمانهم ".

قال السمعاني:" بأداء الفرائض".

**قال الطبري:**" يقول: وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه، والقيام بحقوقه، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه".

قال الحسن:"وأحسنوا فيما افترض عليهم".

ذكر الماوردي عن بعضهم:" من اتقى الله في أفعاله أَحْسَنَ إليه في أحواله".

قال محمد بن حاطب: "كان عثمان رضي الله عنه من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم محسنون".

قال قتادة:" ذكر لنا أن هَرِم بن حَيان العَبْدِي لما حضره الموت، قيل له: أوص، قال: ما أدري ما أُوصي، ولكن بيعوا درعي، فاقضوا عني ديني، فإن لم تف، فبيعوا فرسي، فإن لم يف فبيعوا غلامي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}، ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال بَلْ نَصْبِرُ.

* قوله (إن الله مع الذين اتقوا) (إن) للتأكيد على مضمون الآية، ومعية الله – سبحانه وتعالى – هي معية النصرة والتأييد.

– (الذين) جاء التعبير بالاسم الموصول للتنويه بمكانة المتقين والمحسنين.

– (اتقوا) أي: فعلوا الواجبات وابتعدوا عن المحرمات.

– (والذين هم محسنون) الواو للعطف، أي: إن الله مع الذين هم محسنون. ولم

=

=

يأت النص " والمحسنون" بل (والذين هم محسنون) إعلاء لشأنهم، ورفعا لقدرهم.

- (محسنون) أي: يفعلون الأحسن لا الحسن، فإن أمر المعاقبة بالمثل حسن، ولكن العفو هو الأحسن.

- لماذا جاء التعبير عن المتقين بالفعل الماضي (اتقوا)، بينما جاء التعبير عن المحسنين بالاسم (محسنون)؟

جاء التعبير عن المتقين بالفعل الماضي (اتقوا) إشارة إلى أن فعل التقوى قد وقع لهم وتحلوا به، فهم أهل عراقة بالتقوى؛ ولذا استحقوا معية الله سبحانه وتعالى.

بينما جاء التعبير عن المحسنين بالاسم (محسنون) رفعا لشأنهم؛ لأنهم أهل العفو؛ والتعبير بالاسم أقوى؛ لأن الاسم (محسنون) يحمل في تضاعيفه الوصف بالإحسان للموصوفين أكثر مما يحمله الفعل؛ ورفع مقام المحسنين أكثر من المتقين؛ لأن المحسنين متقون وزيادة. وفي هذا ترغيب بالعفو.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها قوله تعالى: (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (النحل: ١١ - ١٣). يسأل عن توحيد آية (في الآية) الأولى والثالثة وجمعها في الآية الثانية المتوسطة؟ وعن تعقيب الأولى بقوله: (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وتعقيب الثانية بقوله: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) والثالثة بقوله: (لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)؟

والجواب عن السؤال الأول: أن الإشارة بقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ) في الآية الأولى إلى المنزل من السماء في قوله: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ

=

=

شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) (النحل: ١٠)، ثم قال: (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) (النحل: ١١) أي ينبت لكم بالماء المنزل من السماء - مع وحدته في الصفة - ضروب الأقوات والفواكه وأنواع الثمرات فقيل: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) بالإفراد، لأن الإشارة إلى الماء أو إلى إنبات أنواع الثمرات المختلفات في الطعن والألوان مع وحدة المادة من الماء وهو واحد، وكذلك الآية الثالثة الإشارة فيها إلأى الجنس الواحد الواقع عليه لفظ (ما) من قوله: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُه) فأفرد هذا الضمير أيضاً لرجوعه إلى ((ما)) الواقعة على جنس واحد مبثوث في الأرض يشتكل على أنواع مختلفة في الطعوم والألوان، فأفرد لفظ الآية لما أفرد لفظ الضمير لوقوع ذلك على الجنس الذي عبرت عنه ((ما))، وهو جنس واحد، فاقتضى ذلك إفراد آية. وأما الآية المتوسطة فالإشارة فيها إلى خمسة أشياء مختلفة، أحيل عليها في الاعتبار، وسخرت لنا تسخيراً به قوام معشنا وصح أحوالنا ومعرفة حسابنا، وهي الليل والنهار والشمس والقمروالنجوم، وكل واحد من هذه تتسع جهات النظر فيه والاعتبار بعجائبه، فالليل للسكون والراحة والنهار للاكتساب والتصرف والسياحة، والشمس للإضاءة والتسخين، والقمر للنورية والترطيب والتكوين، وبكلا النيرين معرفة الشهور والسنين، (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) (يس: ٤٠)، والنجوم للاهتداء في ظلمات البراري والبحار، وجهات الاعتبار بهذه الخمس يفوت الإحصاء، فللإشارة إلأى هذه المتعددات جمع فقيل: (لآيات).

والجواب الثاني، وهو وصف المعتبرين في الآية الأولى بالتفكير وفي الثانية بالعقل وفي الثالثة بالتذكير: أن إنبات الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومختلف الثمرات بالماء المنزل من السماء مع كونه واحداً والمنبت مختلف الأنواع والطعوم والمنافع أمر يوصل إلى تعرفه وارتباطه باستعمال الفكر في ذلك وإن لم

=

=

يطل، بشرط السلامة من الغفلة، فيحصل بمجرد الفكر على عظيم المعتبر. وأما تسخير الليل والنهار إلى ما ذكر معهما فلا يكتفي في (معرفة) ذلك والحصول على الاعتبار به بمجرد الفكر، فإن العلم بتسخير هذه مما يغمض ويخفى إلا على ذوي البصائر والفطن السليمة والعقول الراجحة، فلم يقنع التفكر هنا بل وصف المعتبر بها بما هو فوق الفكر، وتأصل ما تعقب به موضوع الاعتبار في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ) (البقرة: ١٦٤)، إلى قوله: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤)، لما كان في الاعتبار بما انطوت عليه الآية غموض وخفاء قيل: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، وأما الآية الثالثة وهي قوله: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) (النحل: ١٣) ببدأة الفكر السالم، فقصد التذكير كاف في حصول الاعتبار بذلك. فإذا تأملت ما ذكرناه ألفيت ذلك كله وارداً على أجل مناسبة، وعملت أن كل آية من هذه الثلاث لا يناسبها إلا ما أعقب به.

الآية الثانية من سورة النحل قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل: ١٤)، وقال في سورة الملائكة: (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (فاطر: ١٢).

وفي هذه الآية ثلاث سؤالات: الأول: لم أخر المجرور وفي سورة النحل فقيل: (مَوَاخِرَ فِيهِ) وقدم في السورة الأخرى فقيل: (فِيهِ مَوَاخِرَ)؟ والثاني: زيادة الواو في قوله: (لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) في سورة النحل وسقوطها في سورة الملائكة؟، والثالث: زيادة ((منه)) في سورة النحل في قوله: (وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) وسقوط ذلك في سورة الملائكة)؟

=

=

والجواب عن الآول: أن أية النحل بنيت على تاخير المجرورات عما تعلقت به، وجرى الكلام جريا واحدا للتناسب والتشاكل، فقيل: لتأكلوا منه، وتستخرجوا منه، ومواخرفيه. ولو قيل هنا: فية مواخر وتقدم المجرور على العامل فبه وهو مواخر اسم فاعل مجموع من المخر وهو شق السفينة الماء بحيزومها لما ناسب ما تقدم مما بنيت الآية عليه وتقدم فى المجرورين قبله.

أما اية الملائكة فمبنية على تقدم المجرور على ما به تعلق (قال تعالى): (ومن كل تاكلون لحما طريا)، وتأكلون العامل فى المجرور الذى هو كل متاخر عنه، فناسب ذلك تأخر العامل أيضا فى المجرور الثانى ليتناسب الكلام ببناء أخره على ما بنى أوله ولم يكن ليصح ما لا يتناسب.

والجواب عن السؤال الثانى: أن أية النحل مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم وقد اجتمع فى قوله تعالى: (وهو الذى سخر البحر) الآية، مجموع الآمرين من الاعتبار وابداء النعمة بتسخير البحر وأكل اللحم الطرى منه واخراج الحلية للباس ومخر السفن اياه للمنافع والاكتساب، فهذهنعم جليلة، وفى كل منها مجال للاعتبار ومتسع للتفكير والنظر، فلما كان من مقصود هذهالآية تعداد النعم ناسب ذللك عطف بعضها على بعض لانه مظنة اطناب وتفصيل، فقيل: (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضله) (النحل: ١٤)، والمجرور متعلق بفعل التسخير، واستخراج الحلية، وجرى السفن والابتغاء من فضل الله.

وأما أية سورة الملائكة فبينت على ابداء القدرة وجليل الحكمة ألا ترى قوله: (وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) (فاطر: ١١)، ثم قال: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) (فاطر: ١٢)، فهذامقصود به الاعتباروالتعريف بانفراده سبحانه بخلق ذلك

=

=

ابداء النعم وجليل الاحسان، ولكن مقصود الآية وبناءها على ما ذكرنا، ثم تجرد باقى الكلام للتعريف بالانعام والامتنان فقال تعالى: (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) (فاطر: ١٢)، فتعلق المجرور الذى هو لتبتغو باسم الفاعل المجموع اى سخرة للابيتغاء من فضلة، فالابتغاء هنا منجر طي الكلام، والامتناء مقصود، ألا ترى أن مخر السفن كأنه ليس لشيء الا للابتغاء، فلما تعلقت اللام بمواخر من حيث تحمل اللفظ معنى الفعل لم يصح دخول الواو، ولم يكن كأية النحل، فافترق القصدان، ولم يلائم كلا من الموضعين الا الوارد فيه.

والجواب عن السؤال الثالث: أن معنى الكلام فى قوله (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) (فاطر: ١٢) مستقل، لا ابهام فيه ولا احتمال لآن تقدير الكلام: من كل البحر أكلكم واستخراج الحلية للباس فالكلام فى قوة المبتأوالخبر، لايوهم خلاف ما ذكر، وأما قوله: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) (النحل: ١٤) فلو سقط هنا المجرور الذى هو ((منه)) لكان مجالا للاحتمال، لو قيل: وتستخرجوا حلية لم يكن بالنص فى أن استخراج الحلية من البحر وان كان ظاهرا الا أن هذا القدر من الاحتمال منقدح هنا وغير منقدح فى أية الملائكة لآنة لا انقداح فيها للاحتمال فورد كل على ما يجب، والله واعلم.

الآية الثالثة من سورة النحل قوله تعالى: (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) (النحل: ١٢)، وفى سورة الزمر: (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) (الزمر: ٧٢)، وفى سورة المؤمن: (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) (غافر: ٧٦)، للسائل أن يسأل عن زيادة اللام فى اية النحل وسقوطها فى الآيتين الآخريين وما وجه ذلك؟

=

=

والجواب عن ذلك: أن أية النحل تقدمها ثماني أيات أو نحوها في ذكر هؤلاء المقول لهم: (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) وفي وصفهم من لدن قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (النحل: ٢٤) الى قوله: (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) (النحل: ٢٩)، وتلك اطالة في ذكرهم، والاستيفاء يناسبه التأكيد باللام المشيرة الى معنى القسم، وأما الآيتان في سورة الزمر وسورة المؤمن فان المتقدم في الاولى منهما قوله: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا) (الزمر: ٧١) الى قوله (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) (الزمر: ٧٢)، وذلك كلام قد جمع الى الوجازة أنة لم يذكر من كفرهم مثل ما ذكر في المذكورين قبل أية النحل من ردهم المنزل بقولهم: (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) وتلك مقالة شنعاء من كفرهم، فناسب الايجازالواقع قبل أية الزمر مع أجمل فيها من كفرهم بسقوط اللام من قوله: ((فبئس)). وأما أية سورة المؤمن فلم يقع ايضا قبلها استيفاء التعريف ما وقع في سورة النحل ولا نص من شنيع مرتكبهم على غير التكذيب، فناسب ذلك سقوط اللام كما في سورة الزمر، وورد كل على ما يجب ويناسب.

الآية الرابعة قوله تعالى: (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (النحل: ٣٤)، وفيسورة الزمر: (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) (الزمر: ٥١).

ووجه ذلك، والله اعلم: استدعاء التناسب في كل من الموضعين، وقد ورد قبل أية النحل قوله تعالى مخبرا عن المشركين: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل: ٢٨)، (ثم استمرت الاية الى قوله: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل: ٣٢))، ثم صرف الكلام الى كفار العرب في توقفهم عن الايمان فقيل: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) (النحل: ٣٣)، ثم قيل: (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ

=

قَبْلِهِمْ) (النحل: ٣٣)، والمرادمن قال: (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) (النحل: ٢٨) ومن كان على مثل حالهم فقيل بناء على قولهم: (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ)، (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) (النحل: ٣٤)، وتناسب هذا أبين تناسب.

وأما أية الزمر فقد وقع قبلها قوله: (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (الزمر: ٤٧) الى قوله: (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الزمر: ٤٧و٤٨) وبعد هذا: (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)، ثم قال: (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ (يعنى كفار العرب)

سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) (الزمر: ٥١)، فقد وضح وجه التناسب فى الآيتين، وعكس الوارد لا يناسب، والله اعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (النحل: ٥٣ – ٥٥)، (وفى الروم: (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (النحل: ٣٣ – ٣٤))، وفى العنكبوت: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (العنكبوت٦٥ – ٦٦)، للسائل أن يسأل عن وجه تكرر اللام فى قوله: ((وليتمتعوا)) في سورة العنكبوت ولم يتكرر فى الآيتين الآخريين؟ وهل بين أية العنكبوت وأيتى النحل والروم فرق فى ذلك يوجب تكرار اللام حيث ذكر ام لا؟ وهل قوله فى سورة العنكبوت: (إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) يعم جميع المذكورين فى ذلك؟ وقال فى الآيتين الآخريين: (إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ) فخص بعضهم ولم يعم فهل لذلك

=

موجب؟ فهذان سؤالان.

والجواب: أن هذه اللام فى قولة تعالى: ((ليكفروا))، ((وليتمتعوا)) لام مقصود به التهديد والوعيد كقوله تعالى: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) (فصلت: ٤٠) و (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) (هود: ٩٣) وقوله (وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) (الكهف: ٢٩). واذا تقرر هذا فقوله تعالى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ ٠٠٠) (النحل: ٥٣ - ٥٤) خطاب يعم ولا يخص، واذا كان الخطاب يشمل العام الكثير فأبعد شيء أن يكونوا فى تلقيه على حد واحد، بل يكون منهم المقبل والمعرض، فعلى هذا الحكم ورد فى سورتى النحل والروم (إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ)، لان ما تقدم من الخطاب الاخبارى فى قوله: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) الى قوله: (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ)، وفى قوله فى الروم: (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) الى قوله: (ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ) عام غير خاص، فقد تفصل تلقيهمنوافترقت احوالهم بشاهد جرى العادة الذى لا ينكسر. واذا تقرر هذا فالوعيد لا يعمهم معنى، بل يخص الفريق المسمى وان عم بلفظه تخويفا لمن عدا ذلك الفريق وليكون ارهب للجميع وان تفصلت احوالهم.

اما قوله تعالى فى سورة العنكبوت: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ) (العنكبوت: ٦٥) فليس هؤلاء كل الناس، ولا يتناول الخطاب غير من ذكر، فقوله بعد: (إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

يتناول جميع من شمله الضمير فى قوله ((ركبوا)) وظاهر الخطاب تساوى هؤلاء فى مرتكبهم، فالوعيد شامل لجميعهم ومتناول جملتهم، فحسن توكيد الوعيد لشموله لهؤلاء المخصومين فقيل: ((وليتمتعوا))، ولم يحسن في المذكورين في آيتي النحل والروم لتفصيل أحوالهم، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

=

=

الآية السادسة: غ - قوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (النحل: ٦٠)، وفي سورة الروم: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم: ٢٧)، للسائل أن يسأل عما زيد في آية الروم من قوله: (فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) مع أن ذلك مفهوم من الآية الأخرى وملعوم (لايمكن خلافه) وإن يقع به إفصاح في اللفظ؟

والجواب أن ذلك إنما جرى بحسب مقتضى المقصود في كل من الآيتين، أما آية النحل فقد تقدمها قوله تعالى: (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ) (النحل: ٦٠)، فقوبل بحسب التفصيل ومقتضى التقابل بقوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (النحل: ٦٠)، فتطابق الكلام وتناسب موزانة لفظ وجليل تقابل، ولم يقع قلبها ذكر السماوات والأرض، فلم يكن ليناسب ذلك ذكرهما بعده.

وأما آية الروم فتقدمها قوله ﷻ: (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) (الروم: ٢٦)، ثم قال بعد: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الروم: ٢٧)، ووضوح التناسب في هذا غير محتاج إلى زيادة بيان.

الآية السابعة منها قوله تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (النحل: ٦١)، وفي سورة الملائكة: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (النحل: ٦١)، فيهما سؤالان: أحدهما، قوله تعالى في الأولى: (بظلمهم) وفي الثانية (بما كسبوا) والثاني، قوله في الأولى (عليها) وفي الثانية (على ظهرها).

والجواب: أن آية النحل تقدمها قوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) (النحل: ٥٨ - ٥٩)، فإشارة الآية إلى وأدهم البنات - وهو

=

أعظم الظلم وأشنعه إذ لم يتقدم للمؤودة جريمة ولا شبهة يتعلق بها قاتلها – ناسب هذا ذكر الظلم، فقال تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ)، والضمير في عليها للأرض، يفهمه سياق الكلام، فناسب ما أشير إليه من عظيم ظلمهم التوبيخ بذكر الظلم في قوله: (بظلمهم). ولما لم يتقدم في آية سورة الملائكة إفصاح بذكر الظلم بل تقدمها قوله: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ) (فاطر: ٤٢ – ٤٣) إلى قوله: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ) (فاطر: ٤٣)، فأشير إلى اجترامهم وسيء اكتسابهم بنفورهم ومكرهم السيء، فناسب ذلك قوله: (بما كسبوا) وقيل هنا: (ما ترك على ظهرها) والضمير للأرض يسره السياق كالأول، وقيل: (على ظهرها) ليناسب في طول تركيبه قوله: (بما كسبوا)، كما ناسب قوله (عليها) في الآية الأولى قوله: (بظلمهم) في قلة حروفه تناسب التوازن والتقابل، فورد كلّ على ما يجب.

الآية الثامنة منها قوله تعالى: (وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل: ٦٥ – ٦٩)، في هذا ثلاثة سؤلات: الألو إفراد ((آية)) في الثلاثة مواضع مع أن الثاني منها قد تفصل فيه الاعتبار بذكر الأنعام ولبنها وذكر ثمرات النخيل والأعناب وما يتخذ منها، فيسبق في الظاهر أن الواجب جمع آيات بخلاف الآية الأولى والثالثة (فقد) أفردت فقيل: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، والسؤال الثاني: ما وجه ختام

=

الأولى بقوله: (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)، والثانية (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، والثالثة: (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)؟ والسؤال الثالث: ورود ضمير الأنعام مفرداً في قوله: (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ)، وما الفرق بين هذا وبين الوارد في سورة المؤمنون: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا) (المؤمنون: ٢١) والجواب عن السؤال الأول أن قوله: (لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، راجع إلى قوله: (ومن ثمرات النخيل والاعناب).. الآية، وذلك اعتبار باتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والآعناب وهو نوع واحد، وقد أفرد فى قوله: (تتخذون منه) فجاء افراد أية عن ذلك، واما اخراج اللبن من بين الفرث والدم في الآنعام فلا يرجع اليه قوله (ان فى ذلك لآية) اذ قد اغنى عن ذلك قوله: (وان لكم فى الآنعام لعبرة نسقيكم)، فقوله ((لعبرة)) كاف عن ((أية)) ومغن ذلك الغنى. فلا حاجة للجميع بينهما، وانما مرجع أية لما ذكر من المتخذ من ثمرات النخيل والآعناب كما تبين، فليدفع هذا السؤالجملة. وكذلك الآية الآولى الاعتبار فيهابالماء المنزل من السماء، والاعتبار فى الثانية بما تضمنت من أمر النحل والايحاء اليه بما ذكر، فالاعتبار فى كل منها انما وقع بنوع مفرد، وما وقع من تفصيل فمصرفه الى حال أو وصف مع وحدة النوع.

واجواب عن السؤال الثانى: أن وجه مناسبة قوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [النحل: ٦٥] لقوله: (وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [النحل: ٦٥]... الآية، بناء ذلك على المتصل به من قوله: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [النحل: ٦٤]، ثم قال: (وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)، فاتصل ذكر انزال الكتاب بانزال الماء، وما سماه رحمة الا لرحمته عباده به، وماء السماء رحمة، وقد سماه بذلك، وبالمنزل من الكتاب يتذكر اعتبار الرحمة (بالماء) المنزل من السماء، ولا يحتاج في ذلك إلى كبير تذكر، بل التنبيه على إنزاله بالوارد في الكتاب مع مساهده

=

=

منافعه كاف في العتبار، وفي إحياء الأرض به بعد موتها أوضح شهادة لإحياء الموتى وإخراجهم لما وعدوا به، فالتحم الكلام، وتناسب النظم والمعنى. وإنما تحصل ثمرة الكتاب المنزل بسماعه، ولذلك نهي المعرضون عنه أتباعهم فقالوا: (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ) (فصلت: ٢٦) وقال في قسم من رحم بسماعه من الجن: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي) (الجن: ١و٢)، وإنما يستجيب سامعه إذا كان غير معرض، فإذا لم يصغ إلى اعتبار ما أعقب به من إنزال السماء، فلهذا الالتحام أعقبت الآية المذكورة بقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)، والله أعلم.

وأما الآية الثانية فلما وقع فيها ذكر السَّكَر في قوله: (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا) (النحل: ٦٧) وذلك حكم لا يمكن الوصول إلى مرفة سببه ولا تعليله بطريق الحواس، ولا يوصل إلى ذلك بجهة تفكر أو اعتبار، عبر بقوله: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) إذ العقل يسلم إمكان ما لا تعلم له على مما ليس بمحال، فيكون مما ينفرد تعالى بعلمه، ويعجز البشر عن فهمه. وأما الآية الثالثة فمحل ومجال للتفكر ومتسع للاعتبار فناسبه قوله: (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

والجواب عن السؤال الثالث: أي قوله: (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) (النحل: ٦٦) بإفراد الضمير وتذكيره مراد به الجنس، وقد حكى سيبويه، رحمه الله، أن من العرب من يقول: هو الأنعام، وعليه حمل آية الأنعام في تذكير الضمير، وورد في سورة المؤمنون على التأنيث والجمع لما بني على ذلك من قوله: (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) (المؤمنون: ٢١ - ٢٢)، فنوسب بضمير الأنعام ما أتبع به من الضمائر في قوله: فيها، ومنها، وعليها. فورد بصورة التأنيث والجمع.

=

=

الآية التاسعة من سورة النحل قوله تعالى: (وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (النحل: ٧٠)، وفي سورة الحج: (ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) (الحج: ٥)، للسائل أن يسأل عن زيادة ((من)) في قوله: (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) وسقوطها من آية النحل مع اتحاد المعنى، هل ذلك لسبب حامل يقتضي زيادتها هنا وسقوطها هناك؟

والجواب: أن سبب ذلك - والله أعلم - التناسب وتشاكل النظم ومراعاة اللفظ ألا ترى إلى تكرر ((من)) في قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج: ٥)، فقد تكررت لفظة ((من)) هذه في هذا الآية في ستة مواضع، الخمسة منها قبل قوله: (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) والواحدة بعدها، وكلها محرزة معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله: (من بعد) إذ النظم مع سقوطها (ملتئم) والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمها، فاستعاها سياق آية الحج للتشاكل والتناسب في النظم، ولم يكن في آية النحل ما يستدعيها إذ لم يرد ما يقتضيها، فورد كل على ما يجب ويناسب، ولا يمكن العكس والأولى في قوله: (من البعث) لابتداء الغاية وما بعدها للتبعيض إلا التي في قوله: (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ) فإنها زائدة رعياً للفظ لا النافية، وإن كانت هنا مزيدة.

الآية العاشرة من سورة النحل قوله تعالى: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) (النحل: ٧٢)، وفي العنكبوت: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

=

=
النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ) (العنكبوت: ٦٧)، للسائل أن يسأل عن ثبوت الضمير المنفصل المبتدإ في قوله: (هُمْ يَكْفُرُونَ) في آية النحل وسقوطه من آية العنكبوت مع أن المعنى متحد والعبارة متكررة أعني قوله: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ.... ) الآية، فما وجه ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن الوارد في آية لانخل راجع إلى من قدم ذكرهم في قوله: (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) (النحل: ٥٦)، وفي قوله: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ) (النحل: ٥٧) إلى قوله: (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (النحل: ٦٠)، وقوله: (وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) (النحل: ٧٢)، فلما كان قوله: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) راجعًا إلى ما تباعد أتى بضميرهم المشعر بالبعد هو ضمير الغائبين فقيل: ((هم))، وارتفع بالإتيان به توهم عودة ضمير يُؤمنون إلى المقول لهم: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً).

فإن قيل: لو قيل تؤمنون وتكفرون على الخطاب لكان للمخاطبين بقوله: (لكم)) أما على وروده على طريقة الإخبار عن الغائبين فلا يوهم ما ذكرت فلا ضرورة تدعو إلى ضميرهم. قلت: هذا لو لم يكن الالتفات من فصيح كلام العرب، وهو الرجوع عن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب وإلى المتكلم كقوله:

تطاول ليلك بالإثمد ونام الخلي ولم ترقدِ
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمدِ
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن أبي الأسودِ

فتأمل كيف التفت في قوله: (وبات وباتت له ليلة)) بعد الخطاب بقوله: (تطاول ليلك.. ) ((ولم ترقد))، (فرجع) الخطاب إلى الغيبة. ثم قال: (وذلك من نبأ جاءني) - فرجع إلى المتكلم، وإنما خاطب بكل ذلك نفسه، وفي الكتاب العزيز
=

=

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) (يونس: ٢٢)، فقوله: (وَجَرَيْنَ بِهِمْ) رجوع من الخطاب إلى الغيبة، وفي الكتاب من ذلك كثير. فإذا تقرر أن الالتفات من فصيح كلامهم فما يمنع من احتمال أن يفهم قوله: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) على أنه راجع إلى المخاطبين بقوله: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) على طريقة الالتفات رجوعاً من الخطاب إلى الغيبة، فجاء قوله: (وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ) بضمير الغائبين رافعاً لهذا الإبهام وما للمعنى المقصود بالكلام من رجوعه إلى من تقدم ذكره، فهذا موجب ورود هذا الضمير المبتدأ هنا.

أما قوله في سورة العنكبوت: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ) (العنكبوت: ٦٧)، فكرمهم لا يرجع شيء منه إلى متقدم قبله فيتباعد عنه بل هو مستقل بنفسه، والمعّنيون بوقله: (أَوَلَمْ يَرَوْا) هم المراد (بقوله) (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ)، وليست هذه الآية مثل آية النحل فيما إلى ما احتيج هناك، فكل من الآيتين وارد على ما يجب ويناسب، ولا يمكن عكس الوارد على ما تمهد، والله أعلم.

الآية الحادية عشرة: غ - قوله تعالى: (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل: ٧٨)، وفي سورة المؤمنون: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) (المؤمنون: ٧٨)، وفي سورة الملك: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) (الملك: ٢٣)، فورد في هاتين الآيتين نفي شكرهم على المعروف من هذه العبارة أو تقليله بمقتضى اللفظ، وورد في آية سورة النحل ترجي (شكرهم) مع اتحاد المقصود من إبداء عظيم النعمة بالإسماع والإبصار، فللسائل أن يسأل عن الفرق؟

=

=

والجواب، والله أعلم: أن آية النحل مبتدأة بقوله تعالى: (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) (النحل: ٧٨)، فناسب هذا - لكونه وصف حال قبل تعيين التكليف وورود الترجي لأن يكون منهم الشكر لذكره إياهم في حال لم يتهيؤوا فيها بعد لقبول أمر أو نهي أو إعراض عن ذلك، ولا يتعلق بهم التكليف، فناسب هذا ذكر الترجي.

أما الآيتان بعد فالإخبار فيهما عن أحوال من استوفى سن التكليف وعقل الخطاب (وشاهد العضات) وفهمها، وتكرر عليه التذكار فلم يجد عليه شيئا، ألا ترى أن قبل آية المؤمنون (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ) (المؤمنون: ٧٦)، إلى ما اتصل بهذا.

فقد صدر عن هؤلاء التعامي فخالف الوارد في آية النحل، فناسب ذلك هنا نفي شكرهم.

وأما آية الملك المخاطب بها من قيل له تعريفاً وتوبيخاً (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ) (الملك: ٢٠) إلى قوله: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ) (الملك: ٢٣)، والآي مشيرة إلى موالاة إنعامه سبحانه على عبادة وإدرار أرزاقهم إلى ما يجري مع هذا، فناسب ذلك الحين لم يجد عليهم مستمر إحسانه ومتوالي إنعامه أن نفى تعالى شكرهم، فقد وضح التناسب في هذه الآي، ووردت كل واحدة منها على ما يجب، وإن عكس الوارد غير مناسب.

الآية الثانية عشرة: غ - قوله تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ) (النحل: ٧٩)، وفي سورة الملك: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ) (الملك: ١٩)، فورد في الأولى: (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ) وفي الثانية: (إِلَّا الرَّحْمَنُ) ومقصود الآيتين في التنبيه على الاعتبار بعظيم قدرته تعالى وعلى حكمته في تسخير الطير في جو السماء وتسخير

=

الهواء وتهيئة (لذلك) بتقدير العزيز الحكيم مقصود واحد، للسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن آية سورة الملك لما انطوت على ذكر حالين للطائر من صفة جناحية وقبضهما، وهما حالتان يستريح إليهما الطائر، فتارة يصف جناحية كأنه لا حركة به، وتارة يقبضهما إلى جنبيه حتى يلزقهما بهما، ثم يبسطهما ويقبضهما موالاة بسرعة كما يفعل السابح، فناسب هذا الإنعام منه تعالى وورد اسمه الرحمان. أما آية النحل لم يرد فيها ذكر هذه الاستراحة فقيل هنا: (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ) (النحل: ٧٩)، وتناسب ذلك وامتنع عكس الوارد بما تبين، والله أعلم.

الآية الثالثة عشر: غ - قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) (النحل: ٨٤)، وفي آية سادسة من هذه: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) (النحل: ٨٩)، ففي الأولى (مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ) وفي الثانية (فِي كُلِّ أُمَّةٍ)، وفي الأولى: (شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) وفي الثانية: (شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ)، فللسائل أن يسأل عن موجب الاختلاف في الآيتين؟

واعلم أن الآية الأولى متفق فيها على أن المراد بها الأنبياء، عليهم السلام، مع أممهم، وكل نبي شاهد على أمته ولها بإيمان مؤمنها وكفر كافرها، ولم يختلف المفسرون في هذا، وإنما السؤال في الآية الثانية لاختلافهم فيها، فأكثر المفسرين لم يفرق بينها وبين الأولى فيما قصد بها، وأن نبينا محمداً ﷺ شاهد على أمته كشهدة الرسل على أممهم، ثم إن هذه تضمنت زائداً على ذلك حسبما نبينه،

=

وأشار بعضهم إلى الفرق بين الآيتين من غير تحرير ولا ركون إلى توجيه يعتمد، فأقول - وأسأل الله توفيقه: إن هذه الآية لثانية المراد بها تخصيص نبينا محمد ﷺ بالإفصاح فيها - ما شاركت فيه الأولى - بما منح من الكتاب العزيز وعظيم النعمة عليه وعلى أمته، فاتسؤنف وقوله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا). وكرر ليبنى عليه ما بعد من قوله: (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ... ) الآية، فهذا من قبيل قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا) (الأعراف: ٩٠)، وقد تقدم هذا قوله تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ) (الأعراف: ٨٨)، فكرر: (قَالَ الْمَلَأُ) ليبني عليه ما اتصل به، ونحو هذا قوله تعالى: (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) (البقرة: ١٥٠)، وقد تقدم أمره عليه السلام، (بهذا) إلا أنه أعيد ليبنى عليه ما بعد من قوله تعالى: (وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) (البقرة: ١٥٠) ليفهم وحيث ما كنتم من البلاد أو المواضع التي خرجتم إليها، ولم تكن الآية المتقدمة لتعطي ذلك إلا باعتماد من غير تحرير، فلم يكن بد من إعادة ما ذكر ليتحرر المعنى المراد من الآية، وقد مر بيان ذلك في سورة البقرة عند ذكر الآية المشار إليها. ومن نحو هذا في الإخبار قوله تعالى: (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ) (المؤمنون: ٣٥)، فكرر (أنكم) ليبنى عليه (الخبر) بالإعادة والإخراج بما بعد من قوله في أول الآية: (إنكم)، وهو مرتكب بليغ متكرر في الكتاب العزيز، فكذا الوارد في هذه الآية من قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ)، تكرر لعظيم ما بني عليه وقصد الإخبار والبشارة من قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: ٨٩). فلما بين هذا الإنعام العظيم وبين الحاصل طي الآية المتقدمة من مخوف الوعيد، أعقب به التعريف فيها بالشهادة، من قوله تعالى: (ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ

=

=

لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) (النحل: ٨٤)، إلى ما تلا هذا. فالآيتان فيما أعقبتا به، وأنيط بكل واحدة منها، معرفتان بالحال في الطرفين، الأولى معقب فيها التخويف والتهديد بأشد الوعيد، والثانية أعقب مخوف تهديدها بترجي السلامة من مهول وعيدها بما اتبعت به، مما يفهم البشارة والتلطف والإنعام بقوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: ٨٩). بعد ذكر نبينا ﷺ. المراد بهذا الخطاب التعريف بشهادته لأمته مفصحاً بالإشارة إليه تخويفاً وتعظيماً، وبالإنعام بما أولاه ومنح أمته من الرحمة بالكتاب المهيمن على سواه من الكتب والمبين لك شيء والهدى والرحمة والبشرى، أوزعنا الله شكر نعمه، وجعلنا من أمة هذا النبي الكريم بمنه.

ولما كان قوله تعالى: (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) (النحل: ٨٩) حاصلاً منه تعقيبه، ﷺ، وتحقيق كونه الشهيد على أمته، وكونه من أنفسنا ورد ما قبله محرراً فيه ذلك الغرض من تحقيق ذلك الحكم، من أن كل نبي قبله إنما كان من أنفس القوم المرسل إليهم ذلك الرسول لا من غيرهم، وهو الشهيد عليهم، وحقق ذلك في الثانية بما يحرزه حررف الوعاء الذي هو ((في)) ويقتضيه من استحكام الإخبار بكون الشهيد من نفس الأمة، لأن قوله: (مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ) يحتمل أن يراد به أن يكون منهم في مذهب أو جامع بينهم وبينه، من غير أن يكون من أنفسهم، أما قوله: (فِي كُلِّ أُمَّةٍ) فأنص في الاتصال واللزوق، لاسيما بما اتبع به من قوله: (مِنْ أَنْفُسِهِمْ)، فطوبق بين المتقابلين من قوله: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) (النحل: ٨٩) وقوله: (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) (الحل: ٨٩)، فقد وضح ما باينت هذه الآية (به الآية)، وبانت جلالة هذا النظم العجيب، وأن ما توهم تكراره ليس بتكرار، إذا كان مقصود ما أعيد مما (تقدم) ذكره الشهيد لما بني عليه. فتحصل من هذه الآية العظيمة جليل الاعتناء بهذا النبي الكريم ﷺ تأنيسه، مالآية

=

=

في قوله تأنيساً للأمة وإعلاماً بعظيم مكانته ﷺ: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) (التوبة: ١٢٨) فهذا – والله أعلم – فصل ما بين الآيتين، وقد بان فيه التناسب، وجلالة النظم، وحسن الالتئام، والله أعلم بما أراد.

فصل: لم يتعرض لهذه الآية أكثر المفسرين، ومن تعرض منهم لها ألحقها بالأول، وقد وقفت في التفسير الكبير المنسوب للإمام أبي الفضل بن الخطيب، وقد تعرض لهذه الآية فأورد مأخذ الإمامية بأن كل عصر لا يخلو من إمام معصوم، وذكر تخريج الآية عندهم، ثم محله، واتبع بأن قال: فثبت أنه لابد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم، ثم حكى عن أبي بكر الأصم أن المراد بالشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أجزاء الإنسان تشهد عليه، وهي: الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان، قال والتدليل عليه أنه قال في صفة الشهيد: أنه من أنفسهم، وهذه الأعضاء لا شك أنها من أنفسهم وذكر أن القاضي أجاب عن هذا من وجوه: الأول أنه تعالى قال: (شهيد)) فيجب أن يكون غيرهم، والثاني أنه من كل أمة فوجب أن يكون ذلك الشهيد من الأمة وآحاد الأعضاء لا يصح وصفها بأنه من الأمة، هذا حاصل ما وقع في هذا التفسير، ولم يقع فيه تعرض لشيء من ألفاظ الآية، وتنزيل هذه المآخذ على الآية، وأخذها من أبعد شيء، وقد ذكرت في ذلك منزلاً عن الآية ما أراه الأولى في المراد بها، والله أعلم.

وأما قول الإمامية: إنه لا بد في كل عصر وقرن من إمام معصوم يشهد عليها في القيامة فباطل، وقد كفانا وجه فساده من تقدم، وقول الأصم بعيد لما قاله القاضي، وأما ما اعتمده أبو الفضل فبعيد أيضاً، فيه ما يشبه الصغو إلى قول الإمامية، وقد ورد في الصحيح أن الرسل هم الذين يشهدون على أممهم، وعلى ذلك حمل المفسرون قوله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (النساء: ٤١)، ولا فرق بين هذه الآي، والله أعلم.

=

=

الآية الرابعة عشر وهي من تمام ما قبلها: غ - قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: ٨٩)، وفيما بعد من هذه السورة: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: ١٠٢)، فورد في الأولى زيادة (رحمة) مع اتحاد المقصود في الموضعين من وصف الكتاب، وهذا يظاهر الوارد في الموضعين، فيسأل عن ذلك؟

والجواب عن ذلك أن الأولى مقصود بها بشارة وإنعام لا يشوبه غيره، وقد تبين ذلك، أما الثانية فوارده مورد الزجر والتعنيف لمن لم يؤمن مع البشارة للمؤمنين، ألا ترى ما تقدمها من قوله: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) (النحل: ١٠١)، فجووبوا عن هذا بقوله: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) (النحل: ١٠٢)، أي قل لهم يا محمد هذا الكلام، وورد بعدها: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) (النحل: ١٠٣)، فاكتنف الآية المذكورة ما يفهم التعنيف لهم والوعيد على مرتكبهم، ووضح أن المقصود لم يتحد في الآيتين كما يوهم للبادي من ظاهرهما، وأن زيادة قوله: (ورحمة) في الأولى مناسب لمقصودها من البشارة والإنعام المجرد عن اتصال ما يفهم تعنيفاً أو وعيداً، ولم يكن ورود ذلك ليناسب الوارد في الثانية، فورد في كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الخامسة عشرة قوله تعالى: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٦)، وقال بعد (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧)، وفي آية الزمر: (لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الزمر: ٣٥)، فورد هنا ((الذي))

=

=

مكان ((ما) في الآيتين في سورة النحل، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية النحل الأولى لما افتتحت بما الموصولة في قوله تعالى: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ)، والمراد بها الإطلاق والعموم، كانت في هذا الموضوع أولى من لفظ ((الذي)) وإن اشتركا في الموصولية، إلا أن ((الذي)) لا تفارق الموصولية، فهي كأنها أعرق في التعريف من ((ما))، لخروج ((ما)) عن الموصلية من حيث إنها تكون حال اسميتها شرطاً واستفهاماً، ولا يفارقها العموم والإطلاق في هذين الموضعين، ولا الإبهام إذا كانت صفة أو نكرة موصوفة أو تعجباً، وبالجملة فالإطلاق أملك (بها)، وهو هنا مقصود، وأما (الذي) فلا تفارق الموصولية، والعهدية فيها أغلب من الجنسية، فما في الآية أحرز للمقصود منها فوردت فيها، وتكررت في قوله: (وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ)، ومعنى الحصر والتعميم فيهما واحد، والكلام مراعى فيه معناه، وكأن قد قيل: كل ما عندكم ينفد وكل ما عند الله باق، ولفظ ((ما)) أجرى هنا من ((الذي)) لما يحرزه من معنى الإطلاق، ولما تقرر من التزامها العموم في الشرط والاستفهام، وأنها لا تمنع الاشتراك حال إبهامها فيما عدا الموضعين. ومن أهل النظر من يطلق العموم بمعنى منع الشركة، والذي لا يقول هذا لايمكنه إنكار الإبهام الإطلاقي وكيفما قيل فإن معنى التوسعة لا يفارقها، وليست ((الذي) كذلك، فكانت ((ما)) أملك بالمعنى المقصود في الموضع، ثم ناسبها وجرى معها ورودها في قوله: (بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، ولم تكن ((الذي)) لتناسب فجاء كل على ما يجب.

وقوله في الآية الثانية: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) (النحل: ٩٧)، الآية جارية مجرى الآية التي قبلها، و ((من)) أقرب لها من ((الذي)) لما بينهما من الاشتراك في المعاني التي لا تشاركها فيها ((الذي))، ألا ترى أن ((الذي)) لا تكون استفهاماً البتة، ولا نكرة موصوفة ولا مبهمة، إذ لا يفارقها التعريف. فإن

=

=

قلت قد يدخلها معنى الشرط في نحو قوله: الذي يأتيني فله درهم، وهو المسوغ لدخول الفاء في خبرها في مثل هذا المثال ففيها إذ ذاك عموم. قلت ذلك متوقف على شروط معلومة، ولو لم يتوقف ذلك على شرط لبقي اشتراك فيما لا تدخل فيه ((الذي)). فمن على كل حال أجري مع ما يناسبها وما انجر معها من تقوية قصد الاستغراق من قوله: (مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)، وهذا المنجر في هذه الآية يقابل تكرار ما في الآية قبل، هذه كتلك بهذا النظير من غير فرق، فلم يكن ليناسب ذلك ورود ((الذي)) مكان ((ما)) في قوله: (بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، فتناسب هذا كله أوضح شيء، ولا يمكن في هاتين الآيتين ورود لفظ ((الذي)) مكان ((ما)) لمن لحظ المراعى في الآية من عليّ، نظم الكتاب العزيز، واعتبر التناسب الذي يعجز البشر عن محافظه رعية، ولا يمكن الوفاء به بوجه إلا في كتاب الله سبحانه.

وأما آية الزمر فوارده في معنى الخصوص المقصود به طائفة بعينها ألا ترى ما قبلها من قوله تعالى: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) (الزمر: ٣٣)، والمراد بالذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، ولاذي صدق به متقدمو أصحابه ممن سبق وحسن تصديقه كأبي بكر، رضي الله عنه، ومن قارب حاله وجرى في (نحو) مضماره، وهؤلاء مخصوصون لا يشاركهم في حالهم غيرهم، وفيهم ورد ما بعد، وإليهم ترجع الضمائر من قوله: (هُمُ الْمُتَّقُونَ)، وقوله: (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (الزمر: ٣٤)، وقوله: (لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ) (الزمر: ٣٥)، فلم يكن ليصلح هنا غير الأداة العهدية، فجاء ((بالذي)) في الموضعين من قوله: (لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الزمر: ٣٥)، ولم تكن ((ما)) لتناسب هنا لما تقدم، فجاء كل على ما يجب ويناسب، ولا يمكن فيه عكس الوارد في الضربين على ما تقدم، والله سبحانه أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٢٩٤-٣١٠).

# سورة الإسراء[1]

---

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على أقوال.

**أحدها**: أنها مكية جميعها. قاله ابن عباس، وبه قال يحيى بن سلام، والماتريدي، وأبو الليث السمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكي بن ابي طالب، والواحدي، والبغوي، وابن كثير، والسيوطي.

قال الفيروزآبادي: "السورة مكية باتفاق".

قال ابن الجوزي: "هي مكية في قول الجماعة".

**الثاني**: أنها مكية إلا ثلاث آيات: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ} [الإسراء: ٧٦]، نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وقد ثقيف وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء، وقوله: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ} [الإسراء: ٨٠]، وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ} [الإسراء: ٦٠]. قاله ابن عطية، والقرطبي.

**الثالث**: أنها مكية إلا خمس آيات نزلت بالمدينة: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي} [الإسراء: ٣٣]، {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا} [الإسراء: ٣٢]، {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} [الإسراء: ٥٧]، {أَقِمِ الصَّلَاةَ} [الإسراء: ٧٨]، {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى} [الإسراء: ٢٦]. قاله الحسن.

**الرابع**: أنها مكية إلا ثمان آيات: من قوله تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا} [الإسراء: ٧٣]، إلى قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء: ٨٠]. قاله ابن عباس أيضا، وقتادة.

الخامس: أنها مكية كلها إلا تسع آيات فمدنيات، وهن: «٦٠، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٠، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩». قاله مقاتل.

السادس: أنها مكية إلا إحدى عشر آية، فمدنيات، وهن: «٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، =

=

ومن آية (٧٣) إلى غاية آية (٨٠) ». قاله الزمخشري، والفخر الرازي، وابن جزي الكلبي.

* آياتها مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيّين وعشر عند الباقين. وكلماتها أَلف وخمسمائة وثلاث وستُّون. وحروفها ستَّة آلاف وأَربعمائة وستون. والمختَلَف فيها آية واحدة {لِلأَذْقَانِ سُجَّداً}.

فواصل آياتها أَلِف إِلاَّ الآية الأُولى، فإِنَّها راء.

* أسماء السورة.

تسمى سورة «الإسراء» وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير، ولم نقف على أحاديث تدل على تسمية الرسول-ﷺ- أو صحابته هذه السورة باسم سورة «الإسراء»، وإنما اشتهرت به، وكتبت في المصاحف، منذ تدوين اسماء السور في اوائلها، ومن المفسرين الذين صرحوا بتسميتها بسورة «الإسراء»، الأخفش، وأبو الليث السمرقندي، والقاسمي، والألوسي، والسخاوي، وغيرهم.

وجه تسميتها بسورة «الإسراء»، أنها افتتحت بذكر قصة إسراء الرسول-ﷺ- من مكة إلى القدس ليلا على البراق، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١]، وقصة الإسراء هي المعجزة الباهرة التي خص الله تعالى بها نبيه تشريفا له، وقد اختصت هذه السورة بذكر هذه الحادثة فسميت بها.

وتسمى سورة «بني إسرائيل» اشتهرت بسورة «بني إسرائيل»، ودوّن هذا الاسم في كثير من المصاحف، وقد ثبت تسميتها في الأحاديث الصحيحة في كلام الصحابة- رضوان الله عليهم-، منها:

- عن عبد الرحمن بن يزيد، قال: سمعت ابن مسعود رضي الله عنه، قال: " في بني إسرائيل، والكهف، ومريم: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي".

=

=

- عن أبي لبابة، قال: "قالت عائشة: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر".

- عن ابي عمرو الشيباني، قال:" صلى بنا عبد الله الفجر، فقرأ بسورتين الآخرة منها بنو إسرائيل".

- عن ابن عباس -رضي الله عنهما، قال:"نزلت سورة بني إسرائيل بمكة".

كما عنون لها بعض المفسرين في تفاسيرهم كمقاتل، والطبري، والزجاج، والماتريدي، والثعلبي، ومكي بن ابي طالب، والسمعاني، وابن الجوزي، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني، والالوسي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي، وغيرهم.

وترجم لها البخاري، والترمذي، والحاكم، وورد هذا الاسم في كتب علوم القرآن مثل جمال القراء، والبصائر، ونظم الدرر، والإتقان.

ولم نقف على حديث مرفوع إلى النبي -ﷺ- سماها بسورة «بني إسرائيل».

سميت سورة «بني إسرائيل»، لأنها ذكر فيها من احوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها، إذ اوردت السورة قصة تشردهم في الأرض مرتين بسبب فسادهم، حيث استولى عليهم قوم أولي بأس وهم «الآشوريين»، ثم استولى عليهم قوم آخرين وهم «الروم»، قال تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الإسراء: ٤] آلى آخر الآيات.

قال البقاعي في سبب التسمية:" وأما بنو إسرائيل فمن أحاط أيضاً بتفاصيل أمرهم في سيرهم إلى الأرض المقدسة الذي هو كالإسراء وإيتائهم الكتاب وما ذكر مع ذلك من أمرهم في هذه السورة عرف ذلك".

وتسمى سورة «سبحان» كما عرفت تسمية هذه السورة بـ «سورة سبحان»، وعنون لها بعض المفسرين كابن عطية، والثعالبي، وأورد هذه التسمية بعض المفسرين

=

=

في تفاسيرهم، كيحيى بن سلام، وابن أبي زمنين، ومكي بن ابي طالب، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، والسمين الحلبي، وابن رجب، والشوكاني، وابن عاشور، وغيرهم، وقد عدّها السخاوي، والسيوطي، في كتابيهما من بين أسماء السورة، وذكرها البقاعي، والفيروزآبادي.

ولم نقف على حديث او أثر في تسمية السورة بهذا الاسم، إنما هو اسم احتهادي من علماء التفسير وعلوم القرآن، استنبطوها من مضامين السورة.

وقد سميت هذه السورة: «سورة سبحان»، لافتتاحها بهذه الكلمة، وذلك في قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١].

قال البقاعي:" أما «سبحان»، الذي هو علم للتنزيه فمن أظهر ما يكون فيه، لأن من كان على غاية النزاهة عن كل نقص، كان جديراً بأن لا نعبد إلا إياه، وأن نعرض عن كل ما سواه، لكونه متصفاً بما ذكر".

* مقصود السّورة ومعظم ما اشتملت عليه: تنزيه الحقِّ تعالى، ومعراج النبىّ ﷺ، والإِسراءُ إِلى المسجد الأَقصى، وشكر نوح عليه السلام، وفساد حال بنى إِسرائيل، ومكافأَة الإِحسان والإِساءَة، وتقويم القرآن الخلائق، وتخليق اللَّيل والنَّهار، وبيان الحكمة فى سير الشمس والقمر ودَورهما، وملازمة البخت المرءَ، وقراءَة الكتب فى القيامة، وبيان الحكمة فى إِرسال الرّسل، والشكوى من القرون الماضية، وذكر طلب الدّنيا والآخرة، وتفضيل بعض الخَلْق على بعض، وجعل برّ الوالدَيْن والتوحيد فى قَرَن واحد، والإِحسان إِلى الأَقارب، والأَمر بترك الإِسراف، وذمّ البخل، والنَّهى عن قتل الأَولاد، وعن الزِّناء، وقتل النَّفس ظلماً، وأَكل مال اليتيم، وعن التكبّر، وكراهية جميع ذلك، والسّؤال عن المَقُول والمسموع، والرّد على المشركين، وتسبيح الموجودات، وتعيير الكفَّار بطعنهم فى القرآن، ودعوة

=

=

الحقِّ الخَلْق، وإجابتهم له تعالى، وتفضيل بعض الأَنبياءِ على بعض، وتقرّب المقرّبين إِلى حضرة الجلال، وإِهلاك القُرَى قُبيْلَ القيامة، وفتنة النَّاس برؤيا النبىّ ﷺ، وإِباءُ إِبليس من السّجدة لآدم، وتسليط الله إِيّاه على الخَلْق، وتعديد النِّعم على العباد، وإِكرام بنى آدم، وبيان أَنَّ كلّ أَحد يُدْعَى فى القيامة بكتابه، ودينه، وإِمامه، وقَصْد المشركين إِلى ضلال الرسول ﷺ وإِذلاله، والأَمر بإِقامة الصّلوات الخمس فى أَوقاتها، وأَمر الرّسول ﷺ بقيام اللَّيل، ووعده بالمَقَام المحمود، وتخصيصه بمُدخل صدق، ومُخْرج صدق، ونزول القرآن بالشفاءِ، والرّحمة، والشكايةُ من إِعراض العبيد، وبيان أَنَّ كلَّ أَحد يصدر منه ما يليق به، والإِشارة إِلى جواب مسأَلة الرّوح، وعجز الخَلْق عن الإِتيان بمثل القرآن، واقتراحات المشركين على رسول الله ﷺ، وتفصيل حالهم فى عقوبات الآخرة، وبيان معجزات موسى، ومناظرة فرعون إِيّاه، وبيان الحكمة فى تفرقة القرآن، وآداب نزوله، وآداب الدعاء وقراءَة القرآن، وتنزيه الحقِّ تَعالى عن الشريك والوَلَد فى {الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً} إِلى قوله: {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيْرًا} .

* المتشابهات: قوله: {وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً} وخصّت سورة الكهف {أَجْراً حَسَنًا} ؛ لأَنَّ الأَجر فى السّورتين الجَنَّة، والكبير والحَسَن من أَوصافها؛ لكن خُصّت هذه السّورة بالكبير بفواصل الآى قبلها وبعدها، وهى (حصيراً) و (أَليمًا) و (عجولاً) وجُلّها وقع قبل آخرها مَدّة. وكذلك فى سورة الكهف جاءَ على ما يقتضيه الآيات قبلها، وبعدها وهى (عِوَجًا) وكذا (أَبداً) وجُلّها ما قبل آخرها متحرّك. وأَمّا رفع (يبشِّر) فى سبحان ونصبها فى الكهف فليس من المتشابه.

قوله: {لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلاها آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً} وقوله: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُوراً} وقوله:

=

{وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلاها آخَرَ فتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُومـًا مَّدْحُوراً} فيها بعض التشابه، ويُشْبه التكرار وليس بتكرار؛ لأَنَّ الأُولى فى الدّنيا، والثانية فى العُقْبى، والخطاب فيهما للنَّبىّ ﷺ، والمراد به غيره، كما فى قوله: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر} وقيل: القول مضمر، أَى قل لكلِّ واحد منهم: لا تجعل مع الله إلهـًا آخر فتقعد مذمومـًا مخذولاً فى الدّنيا وتُلْقى فى جهنَّم ملومـًا مدحوراً فى الأُخرى. وأَمّا الثانية فخطاب للنبىّ ﷺ وهو المراد به. وذلك أَنَّ امرأَة بعثت صبيّـًا لها إِليه مرّة بعد أُخرى، سأَلته قميصـًا، ولم يكن عليه ولا له ﷺ قميصٌ غيره، فنزعه ودفعه إِليه، فدخل وقتُ الصّلاة، فلم يخرج حياءً، فدخل عليه أَصحابه فرأَوه على تلك الصِّفة، فلاموه على ذلك، فأَنزل الله تعالى {فَتَقْعُدَ مَلُومـًا} يلومك النَّاس {مَّحْسُوراً} مكشوفـًا. هذا هو الأَظهر من تفسيره والله أَعلم.

قوله: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هاذا القرآن "لِيَذَّكَّرُوا}، وفى آخر السّورة {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هاذا القرآن" مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} فزاد، (للنَّاس) وقدّمه على القرآن، وقال: فى الكهف {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هاذا القرآن لِلنَّاسِ} إِنما لم يذكر فى أَوّل سبحان (للنَّاس) لتقدّم ذكرهم فى السّورة، وذكرهم فى (الكهف) إِذ لم يَجْر ذكرهم، وذكر النَّاس فى آخر سبحان، وإِن جرى ذكرهم؛ لأَنَّ ذكر الإِنْس والجنّ جرى معـًا، فذكر (للنَّاس) كراهة الالتباس، وقدّمه على {فِي هاذا القرآن} كما قدّمه فى قوله: {قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هاذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} ثمّ قال: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هاذا القرآن} وأَمّا فى الكهف فقدِّم {فِي هاذا القرآن} لأَنَّ ذكره أَجلّ الغرض. وذلك أَنَّ اليهود سأَلته عن قصّة أَصحاب الكهف، وقصّة ذى القرْنينْ، فأَوحى الله إِليه فى القرآن؛ وكان تقديمه فى هذا الموضع أَجدر، والعناية بذكره أَحرى وأَخلق.

قوله: {وقالوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامـًا وَرُفَاتـًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقـًا جَدِيداً} ثمّ أَعادها فى

=

آخر السّورة بعينها، من غير زيادة ولا نقصان؛ لأَنَّ هذا ليس بتكرار؛ فإِنَّ الأَوّل من كلامهم فى الدّنيا، حين جادلوا الرّسول، وأَنكروا البعث، والثانى من كلام الله حين جازاهم على كفرهم، وقولهم ذلك وإنكارهم البعث، فقال {مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً}.

قوله {ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا} وفى الكهف {ذَلِكَ جَزَآؤُهُم جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا} اقتصر هنا على الإشارة؛ لتقدّم ذكر جهنّم (ولم يقتصر عليها [فى الكهف] وإن تقدم ذكر جهنّم) بل جَمَع بين الإشارة والعبارة؛ لمّا اقترن بقوله: (جنّات) فقال: {ذَلِكَ جَزَآؤُهُم جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا} الآية ثمّ قال: {إِنَّ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفردوس} ليكون الوعد والوعيد كلاهما ظاهرين.

قوله: {قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ} وفى سبأ {قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِ الله} لأَنه يعود إِلى الرّب، وقد تقدّم ذكره فى الآية الأُولى، وهو قوله: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ} وفى سبأ لو ذكر بالكناية لكان يعود إِلى الله، كما صرّح، فعاد إِليه، وبينه وبين ذكره سبحانه صريحاً أَربع عشرة آية، فلمّا طال الفصلُ صَرّح.

قوله: {أَرَأَيْتَكَ هاذا الذي} وفى غيرها {أَرَأَيْتَ} لأَنَّ ترادُف الخطاب يدلّ على أَنَّ المخاطب به أَمر عظيم. وهكذا هو فى السّورة؛ لأَنّه - لعنه الله - ضمِن احْتِنَاكِ ذريّة آدم عن آخرهم إِلاَّ قليلاً. ومثل هذا {أَرَءَيْتَكُمْ} فى الأَنعام فى موضعين وقد سبق.

قوله: {وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى} وفى الكهف زيادة {وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ}؛ لأَنَّ ما فى هذا السّورة معناه: [ما منعهم] عن الإِيمان بمحمد إِلاَّ قولُهم: أَبعث الله بشراً رسولاً، هلاَّ بعث مَلَكاً. وجهلوا أَنَّ التَّجانس يورث التَّوانس، والتغاير يورث التَّنافر. وما فى الكهف معناه: ما منعهم عن الإِيمان والاستغفار إِلاَّ

=

=

إِتيانُ سنَّة الأَوّلين. قال الزَّجاج: إِلاَّ طلب سنَّة الأَوّلين (وهو قولهم: {إِن كَانَ هاذا هُوَ الحق} فزاد: ويستغفروا ربَّهم، لاتصاله بقوله: سنة الأَولين) وهم قوم نوح، وصالح، وشعيب، كلُّهم أمروا بالاستغفار. فنوح بقوله: {استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً} وهود يقول: {وياقوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ} وصالح يقول: {فاستغفروه ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} وشُعيب يقول: {واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} فلمّا خوّفهم سُنَّةَ الأَوّلين أَجرى المخاطبين مُجْراهم.

قوله: {قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [وكذا جاءَ فى الرعد] وفى العنكبوت: {قُلْ كفى بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً} كما فى الفتح {وكفى بالله شَهِيداً} {وَكفى بالله نَصِيرًا} {وَكفى بالله حَسِيْبًا} فجاءَ فى الرّعد وفى سبحان على الأَصل. وفى العنكبوت أَخَّر {شَهِيداً} لمّا وصفه بقوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض} فطال.

قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ} وفى الأَحقاف {بِقَادِرٍ} وفى (يس) {بِقَادِرٍ}؛ لأَنَّ ما فى هذه السّورة خبر أَنَّ، وما فى يس خبرُ ليس، فدخل الباءُ الخبر، وكان القياس أَلاَّ يدخل فى حم؛ لكنَّه شابه (ليس) بترادف النفى، وهو قوله: {أَوَلَمْ يَرَوا} {وَلَمْ يَعْيَ} وفى هذه السّورة نَفْى واحد. وأَكثر أَحكام المتشابه ثبت من وجهين؛ قياساً على باب مالا ينصرف وغيره.

قوله: {إِنِّي لأَظُنُّكَ ياموسى مَسْحُوراً} قابل موسى كلَّ كلمة من فرعون بكلمة من نفسه، فقال: {وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُوراً}. بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٨٨-٢٩٦).

وقد أخرج البخاري (٤٩٩٤) عن عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابنَ مسعود ﵁ قال في بني إسرائيل، والكَهْف، ومَرْيم: [إِنَّهُنَ مِنَ العِتاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِن

=

## بسم الله الرحمن الرحيم(١)

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١).

---

=

تِلادي].

والعتاق: هو كل ما بلغ الغاية في الجودة. وجاء في اللسان: "وهن من تلادي" يعني السورة، أي من قديم ما أخذت من القرآن، شبههن بتلاد المال. وهو: المال القديم الأصلي الذي وُلِدَ عندك.

المقصود هنَّ من أحبِّ السور إليه، ومن الكنوز الأولى التي تعلمها من القرآن.

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها تقول: [كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يُفْطِرَ، ويُفْطِرُ حتى نقولَ: ما يُريد أن يصومَ، وكان يقرأ كلَّ ليلة: "بني إسرائيل"، و"الزُّمَر"] أخرجه أحمد (٦/ ٦٨، ١٢٢)، والترمذي (٢٩٢٠، ٣٤٠٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٤٨)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٣٧٢)، وابن خزيمة (١١٦٣)، والحاكم (٣٦٢٥) والحديث قال عنه الترمذي: حسن غريب، وحسنه الحافظ في نتائج الأفكا، وقال ابن خزيمة في صحيحه: باب استحباب قراءة بني إسرائيل والزمر كل ليلة استنانا بالنبي ﷺ إن كان أبو لبابة هذا يجوز الاحتجاج بخبره فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح، فتعقبه العلامة الألباني في تعليقه على صحيح ابن خزيمة فقال: إسناده صحيح وأبو لبابة الذي لم يعرفه المصنف قد عرفه ابن معين وقال ثقة واسمه مروان الوراق البصري وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث صحيح دون قوله: " كان يقرأ " فحسن.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{سُبْحَان} أَيْ تَنْزِيه {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} مُحَمَّد ﷺ {لَيْلًا} نُصِبَ عَلَى الظَّرْف وَالْإِسْرَاء سَيْر اللَّيْل وَفَائِدَة ذِكْره الْإِشَارَة بِتَنْكِيرِهِ إلَى تَقْلِيل مُدَّته {مِنْ الْمَسْجِد الْحَرَام إلَى الْمَسْجِد الْأَقْصَى} بَيْت الْمَقْدِس لِبُعْدِهِ مِنْهُ {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْله} بِالثِّمَارِ وَالْأَنْهَار {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتنَا} عَجَائِب قُدْرَتنَا {إنَّهُ هُوَ السَّمِيع الْبَصِير} أَيْ الْعَالِم بِأَقْوَالِ النَّبِيّ ﷺ وَأَفْعَاله فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْإِسْرَاءِ الْمُشْتَمِل عَلَى اجْتِمَاعه بِالْأَنْبِيَاءِ وَعُرُوجه إلَى السَّمَاء وَرُؤْيَة عَجَائِب الْمَلَكُوت وَمُنَاجَاته لَهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ أُتِيت بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّة أَبْيَض فَوْق الْحِمَار وَدُون الْبَغْل يَضَع حَافِره عِنْد مُنْتَهَى طَرَفه فَرَكِبْته فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْت بَيْت الْمَقْدِس فَرَبَطْت الدَّابَّة بِالْحَلْقَةِ الَّتِي تَرْبِط فِيهَا الْأَنْبِيَاء ثُمَّ دَخَلْت فَصَلَّيْت فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْت فَجَاءَنِي جِبْرِيل بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْر وَإِنَاء مِنْ لَبَن فَاخْتَرْت اللَّبَن قَالَ جِبْرِيل أَصَبْت الْفِطْرَة قَالَ ثُمَّ عُرِجَ بِي إلَى السَّمَاء الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل قِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيل قِيلَ وَمَنْ مَعَك قَالَ مُحَمَّد قِيلَ أَوَ قَدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ قَالَ قَدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَم فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِالْخَيْرِ ثُمَّ عُرِجَ بِي إلَى السَّمَاء الثَّانِيَة فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل فقيل مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيل قِيلَ وَمَنْ مَعَك قَالَ مُحَمَّد قِيلَ أَوَ قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا بِابْنَيْ الْخَالَة يَحْيَى وَعِيسَى فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِالْخَيْرِ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلَى السَّمَاء الثَّالِثَة فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيل فَقِيلَ وَمَنْ مَعَك قَالَ مُحَمَّد فَقِيلَ أَوَ قَدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ قَالَ قَدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُف وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْر الْحُسْن فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلَى السَّمَاء الرَّابِعَة فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيل فَقِيلَ وَمَنْ مَعَك قَالَ مُحَمَّد فَقِيلَ أَوَ قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيس فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بنا السَّمَاء الْخَامِسَة فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ

جِبْرِيل فَقِيلَ وَمَنْ مَعَك قَالَ مُحَمَّد فَقِيلَ أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاء السَّادِسَة فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيل فَقِيلَ وَمَنْ مَعَك قَالَ مُحَمَّد فَقِيلَ أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاء السَّابِعَة فَاسْتَفْتَحَ جبريل فقيل مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيل قِيلَ وَمَنْ مَعَك قَالَ مُحَمَّد فَقِيلَ أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِث إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيم فَإِذَا هُوَ مُسْتَنِد إِلَى الْبَيْت الْمَعْمُور وَإِذَا هُوَ يَدْخُلهُ كُلّ يَوْم سَبْعُونَ أَلْف مَلَك ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى سِدْرَة الْمُنْتَهَى فَإِذَا أَوْرَاقهَا كَآذَانِ الْفِيلَة وَإِذَا ثَمَرهَا كَالْقِلَالِ فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أمر الله ما غشيها تغير فَمَا أَحَد مِنْ خَلْق الله تَعَالَى يَسْتَطِيع أَنْ يَصِفهَا مِنْ حُسْنهَا قَالَ فَأَوْحَى الله إِلَيَّ مَا أَوْحَى وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلّ يَوْم وَلَيْلَة خَمْسِينَ صَلَاة فَنَزَلْت حَتَّى انْتَهَيْت إِلَى مُوسَى فَقَالَ مَا فَرَضَ رَبّك عَلَى أُمَّتك قُلْت خَمْسِينَ صَلَاة فِي كُلّ يَوْم وَلَيْلَة قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبّك فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيف فَإِنَّ أُمَّتك لَا تُطِيق ذَلِكَ وَإِنِّي قَدْ بَلَوْت بَنِي إِسْرَائِيل وَخَبَرْتهمْ قَالَ فَرَجَعْت إِلَى رَبِّي فَقُلْت أَيْ رَبّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْت إِلَى مُوسَى قَالَ مَا فَعَلْت فَقُلْت قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا قَالَ إِنَّ أُمَّتك لَا تُطِيق ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبّك فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيف لِأُمَّتِك قَالَ فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِع بَيْن رَبِّي وَبَيْن مُوسَى وَيَحُطّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ يَا مُحَمَّد هِيَ خَمْس صَلَوَات فِي كُلّ يَوْم وَلَيْلَة بِكُلِّ صَلَاة عَشْر فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاة وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ فَإِنْ عَمِلَهَا كتبت له سيئة واحدة فنزلت حتى انتهت إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْته فَقَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبّك فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيف لِأُمَّتِك فَإِنَّ أُمَّتك لَا تُطِيق ذَلِكَ فَقُلْت قَدْ

رَجَعْت إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْت رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظ لِمُسْلِمٍ وَرَوَى الْحَاكِم في المستدرك عن بن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله ﷺ رأيت ربي عز وجل[1].

---

(١)قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} [الإسراء: ١]، أي:" تنزَّه وتقدَّس عما لا يليق بجلاله، اللهُ العليُّ الشأن، الذي انتقل بعبده ونبيه محمد ﷺ في جزءٍ من الليل".

**قال الطبري**: يعني:" تنزيها لله، وتبرئة له مما نحله المشركون من الإشراك والأنداد والصاحبة، وما يجل عنه جل جلاله، الذي سار بعبده ليلا من بيته الحرام إلى بيته الأقصى".

قال ابن كثير:" يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} يعني محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه {لَيْلا} أي في جنح الليل".

و «الإسراء» و «السُّرى»: "سير الليل، قال الشاعر:

**ولَيْلَةٍ ذَاتِ دُجىً سَرَبْتُ ... ولَمْ يَلِتْنِي عَنْ سُواها لَيْت**".

**قال الزمخشري**:" «سبحان»: علم للتسبيح كـ «عثمان» للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده".

وفي قوله تعالى: {سُبْحَانَ} [الإسراء: ١]، ثلاثة وجوه التفسير:

**أحدها**: تنزيه الله تعالى من السوء، وقيل: بل نزه نفسه أن يكون لغيره في إسراء عبده تأثير.

عن موسى بن طلحة، عن النبيّ ﷺ "أنه سُئل عن التسبيح أن يقول الإنسان: سُبْحان الله، قال: «إنزاهُ الله عَنِ السُّوءِ» ".

**الثاني**: معناه: برأه الله تعالى من السوء، قال الأعشى تبرءا وتكذيبا لفخر علقمة:

=

=

**أقول لمّا جاءني فَخْرُه سبحان مِنْ علقمةَ الفاخِر**

قال ابن قتيبة:" أراد: التبرؤ من علقمة".

قال أبو عبيدة:" «سُبْحانَكَ» تنزيه للرب، وتبرؤ".

قال الأخفش:" «سبحان» في التفسير: براءة وتنزيه".

قال الماوردي:"وهو ذكر تعظيم لله لا يصلح لغيره، وإنما ذكره الشاعر على طريق النادر، وهو من السبح في التعظيم وهو الجري فيه إلى أبعد الغايات".

وذكر أبان بن ثعلبة:"أنها كلمة بالنبطية «شبهانك» ".

**الثالث**: إن «سبحان» في هذا الموضع بمعنى: «عجب»، وتقدير الآية: عجب من الذي أسرى بعبده ليلاً. قاله الكلبي، ومقاتل، وقد وافق على هذا التأويل سيبويه وقطرب، واستشهد بقول الأعشى السابق:

**أقول لمّا جاءني فَخْرُه سبحان مِنْ علقمةَ الفاخِر**

وأن معناه: عجبٌ من علقمة الفاخر.

قال ابن قتيبة:" وقد يكون تعجب بالتسبيح من فخره؛ كما يقول القائل إذا تعجب من شيء: سبحان الله، فكأنه قال: عجبا من علقمة الفاخر".

قال الماوردي: "ووجه هذا التأويل أنه إذا كان مشاهدة العجب سبباً للتسبيح صار التسبيح تعجباً فقيل عجب، ومثله قول بشار:

**تلقي بتسبيحةٍ مِنْ حيثما انصرفت وتستفزُّ حشا الرائي بإرعاد**

وقد جاء التسبيح في الكلام على أربعة أوجه:

**أحدها**: أن يستعمل في موضع الصلاة، من ذلك قوله تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} [الصافات: ١٤٣]. أي: من المصلين.

**الثاني**: أن يستعمل في الاستثناء، كما قال بعضهم في قوله تعالى: {أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا

=

=

تُسَبِّحُون} [القلم: ٢٨]،أي: لولا تستثنون.

وقال السمعاني: معناه: " أي: هلا قلتم إن شاء الله تعالى، ووضع التسبيح ها هنا موضع المشيئة؛ لأن التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل سوء".

**الثالث**: النور، للخبر المروي عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «لأحرقت سبحات وجهه»، أي: نور وجهه.

**الرابع**: التنزيه، روي عن النبي -ﷺ- أنه سئل عن التسبيح فقال: «إنزاهُ الله عَنِ السُّوءِ» ".

قال الزمخشري:" فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر «الليل»؟ قلت: أراد بقوله: {ليلا} بلفظ التنكير: تقليل مدة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشأم مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية. ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: «مِنَ اللَّيْلِ»، أى: بعض الليل، كقوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً} [الإسراء: ٧٩]، يعنى: الأمر بالقيام في بعض الليل".

قال ابن العربي:" قال علماؤنا: لو كان للنبي اسم أشرف منه لسماه في تلك الحالة العلية به، وفي معناه تنشد الصوفية:

**يا قوم قلبي عند زهراء — يعرفها السامع والرائي**

**لا تدعني إلا بيا عبدها — فإنه أشرف أسمائي**

وقال الأستاذ جمال الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن: «لما رفعه إلى حضرته السنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسم العبودية له، تواضعا للإلهية» ".

قال القشيري:" فالآية أوضحت شيئين اثنين: نفى التعجب من إظهار فعل الله ﷻ، ونفى الإعجاب فى وصف رسول الله ﷺ.

=

=

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام- حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة- فقال: «{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا} [الأعراف: ١٤٣]، وأخبر عن نبينا ﷺ بأنه {أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: ١]، وليس من جاء بنفسه كمن أسرى به ربه، فهذا متحمل وهذا محمول، هذا بنعت الفرق وهذا بوصف الجمع، هذا مريد وهذا مراد".

قوله تعالى: {مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} [الإسراء: ١]، أي:" من مكة المكرمة إلى بيت المقدس".

قال ابن كثير:" {مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، مسجد مكة {إِلَى الْمَسْجِدِ الأقْصَى} وهو بيت المقدس الذي هو إيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فَأمّهم في مَحِلّتهم، ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين".

**قال الطبري:**" قوله {إلى المسجد الأقصى} يعني: مسجد بيت المقدس، وقيل له: الأقصى، لأنه أبعد المساجد التي تزار، ويبتغى في زيارته الفضل بعد المسجد الحرام. ".

قال الماوردي: {الْمَسْجِدِ الأَقْصَى}، " يعني: بيت المقدس، وهو مسجد سليمان بن داود عليهما السلام وسمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام".

وفي قوله تعالى: {مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الإسراء: ١]، قولان:

أحدهما: يعني من: «الحرم»، والحرم كله مسجد. وكان -ﷺ- حين أُسرى به نائماً في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، روى ذلك أبو صالح عن أم هانئ.

**قيل:**" المراد بـ«المسجد الحرام»: الحرم، لإحاطته بالمسجد والتباسه به".

وروي عن ابن عباس قال:" الحرم كله المسجد الحرام". وروي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، مثل ذلك.

قال الفراء:" الحرم كله مسجد، يعني: مكة وحرمها".

=

=

**الثاني**: أنه أسرى به من المسجد الحرام بعينه، وفيه كان حين أسري به. روى ذلك أنس بن مالك.

قال الزمخشري:" وهو الظاهر".

ثم اختلفوا في كيفية إسرائه على قولين:

أحدهما: أنه أسريَ بجسمه وروحه، روى ذلك ابن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو هريرة. وحذيفة بن اليمان.

واختلف قائلو ذلك هل دخل بيت المقدس وصلى فيه أم لا، وفيه قولان:

أحدهما: -وهو الصحيح- ثبت في السنَّة الصحيحة أن النبي ﷺ أمَّ إخوانه الأنبياء في رحلته إلى بيت المقدس.

روى أبو هريرة أنه صلى فيه بالأنبياء، ثم عرج به إلى السماء، ثم رجع به إلى المسجد الحرام فصلى فيه صلاة الصبح من صبيحة ليلته.

وعن ابن عباس:" فلما دخل النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه".

**الثاني**: أنه عليه الصلاة والسلام لم يدخل بيت المقدس ولم يُصلِّ فيه ولا نزل عن البراق حتى عرج به، ثم عاد إلى ملكه. وهذا قول حذيفة بن اليمان.

وقال حذيفة:" ولو صلى فيه لكتب عليكم الصلاة فيه، كما كتب عليكم الصلاة عند الكعبة".

كما اختلف العلماء هل كانت تلك الصلاة قبل عروج النبي ﷺ إلى السماء أم بعد أن هبط منها، والراجح: الأول.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله ":قال عياض: يحتمل أن يكون صلَّى بالأنبياء جميعـًا في بيت المقدس، ثم صعد منهم إلى السماوات مَن ذُكر أنه ﷺ رآه، ويحتمل أن تكون صلاته بهم بعد أن هبط من السماء فهبطوا أيضـًا....والأظهر:

=

=

أن صلاته بهم ببيت المقدس كان قبل العروج".

والقول الثاني: أن النبي ﷺ أسري بروحه ولم يسر بجسمه، روى ذلك عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما فُقِدَ جَسَدُ رسول الله -ﷺ-، ولكن الله أسرى بروحه".

وروي أن معاوية بن أبي سفيان، كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: "كانت رؤيا من الله صادقة".

قال ابن إسحاق: "فلم ينكر ذلك من قولها الحسن أن هذه الآية نزلت {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} ولقول الله في الخبر عن إبراهيم، إذ قال لابنه {يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى} ثم مضى على ذلك، فعرفت أن الوحي يأتي بالأنبياء من الله أيقاظا ونياما، وكان رسول ﷺ يقول: "تنام عيني وقلبي يقظان" فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعاين فيه من أمر الله ما عاين على أي حالاته كان نائما أو يقظانا كل ذلك حق وصدق".

قال الماوردي:" وكان الحسن يتأول قوله تعالى: {وما جَعَلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنةً للناس} [الإسراء: ٦٠] أنها في المعراج، لأن المشركين كذبوا ذلك وجعلوا يسألونه عن بيت المقدس وما رأى في طريقه فوصفه لهم، ثم ذكر لهم أنه رأى في طريقه قعباً مغطى مملوءاً ماء، فشرب الماء ثم غطاه كما كان، ثم ذكر لهم صفة إبل كانت لهم في طريق الشام تحمل متاعـًا، وأنها تقدُم يوم كذا مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورق؛ فخرجوا في ذلك اليوم يستقبلونها، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد أشرقت ولم تأت، وقال آخر: هذه والله العير يقدُمها جمل أورق كما قال محمد. وفي هذا دليل على صحة القول الأول أنه أسرى بجسمه وروحه".

**قال الطبري:**" والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما

=

=

تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات؛ ولا معنى لقول من قال: أسرى بروحه دون جسده، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلا على نبوته، ولا حجة له على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكرا عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل؟ وبعد، فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره. فإن ظن ظان أن ذلك جائز، إذ كانت العرب تفعل ذلك في كلامها، كما قال قائلهم:

**حسبت بغام راحلتي عناقا وما هي ويب غيرك بالعناق**

يعني: حسبت بغام راحلتي صوت عناق، فحذف الصوت واكتفى منه بالعناق، فإن العرب تفعل ذلك فيما كان مفهوما مراد المتكلم منهم به من الكلام. فأما فيما لا دلالة عليه إلا بظهوره، ولا يوصل إلى معرفة مراد المتكلم إلا ببيانه، فإنها لا تحذف ذلك؛ ولا دلالة تدل على أن مراد الله من قوله: {أسرى بعبده} أسرى بروح عبده، بل الأدلة الواضحة، والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق؛ ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجسام. إلا أن يقول قائل: إن معنى قولنا: أسرى روحه: رأى في المنام أنه أسرى بجسده على البراق، فيكذب حينئذ بمعنى الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ، أن جبرائيل حمله على البراق، لأن ذلك إذا كان مناما على قول قائل هذا القول، ولم تكن الروح عنده مما تركب الدواب، ولم يحمل على البراق جسم النبي ﷺ، لم يكن النبي ﷺ

=

=

على قوله حمل على البراق لا جسمه، ولا شيء منه، وصار الأمر عنده كبعض أحلام النائمين، وذلك دفع لظاهر التنزيل، وما تتابعت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين".

قوله تعالى: {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} [الإسراء: ١]، أي:" الذي بارك الله حوله في الزروع والثمار وغير ذلك، وجعله محلا لكثير من الأنبياء".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: الذي جعلنا حوله البركة لسكانه في معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم".

وفي تفسير قوله تعالى: {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} [الإسراء: ١]، ثلاثة وجوه:

**أحدها:** يعني بالثمار ومجاري الأنهار. وهذا معنى قول السدي، وبه قال الفراء.

قال السدي:" أنبتنا حوله الشجر".

قال ابن كثير:" أي: في الزروع والثمار ".

**الثاني:** بمن جعل حوله من الأنبياء والصالحين ولهذا جعله مقدساً. حكاه الماوردي.

وروي ابن حوالة الأزدى عن النبي-ﷺ- قال: «أتدرى ما يقول الله فى الشام، إن الله يقول: يا شام أنت صفوتى من بلادى فيك خيرتى من عبادى إن الله تكفل لى بالشام وأهله».

**الثالث:** يريد بركات الدين والدنيا، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحى، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. قاله الزمخشري.

قوله تعالى: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} [الإسراء: ١]، أي:" ليشاهد عجائب قدرة الله وأدلة وحدانيته".

قال الفراء:" يعني النبي ﷺ حين أسري به ليريه تلك الليلة العجائب".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: كي نري عبدنا محمدا من آياتنا، يقول: من عبرنا

=

=

وأدلتنا وحججنا، وذلك هو ما قد ذكرت في الأخبار التي رويتها آنفا، أن رسول الله ﷺ أريه في طريقه إلى بيت المقدس، وبعد مصيره إليه من عجائب العبر والمواعظ".

عن قتادة، قوله:" {لنريه من آياتنا}، ما أراه الله من الآيات والعبر في طريق بيت المقدس".

وفي قوله تعالى: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} [الإسراء: ١]، وجهان:

أحدهما: أن الآيات التي أراه في هذا المسرى أن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة، وهي مسيرة شهر.

**الثاني**: أنه أراه في هذا المسرى آيات.

وفيها قولان:

أحدهما: ما أراه من العجائب التي فيها اعتبار.

**الثاني**: من أري من الأنبياء حتى وصفهم واحداً واحداً.

وقرأ الحسن: «ليريه» بالياء، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: {أسرى} ثم {باركنا} ثم «ليريه»، على قراءة الحسن، ثم {من آياتنا}، ثم {إنه هو}، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة.

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١]، أي:" إن الله سبحانه وتعالى هو السميع لجميع الأصوات، البصير بكل مُبْصَر، فيعطي كُلا ما يستحقه في الدنيا والآخرة".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره: إن الذي أسرى بعبده هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة في مسرى محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، ولغير ذلك من قولهم وقول غيرهم، البصير بما يعملون من الأعمال، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ولا يعزب عنه علم شيء منه، بل هو محيط بجميعه علما،

=

=

ومحصيه عددا، وهو لهم بالمرصاد، ليجزي جميعهم بما هم أهله".
قال ابن كثير:"أي: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلا ما يستحقه في الدنيا والآخرة".
قال الزمخشري:" {السميع} لأقوال محمد، {البصير} بأفعاله، العالم بتهذبها وخلوصها، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك".
وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١]، وجهان:
أحدهما: أنه وصف نفسه في هذه الحال بالسميع والبصير، وإن كانتا من صفاته اللازمة لذاته في الأحوال كلها لأنه حفظ رسوله عند إسرائه في ظلمة الليل فلا يضر ألا يبصر فيها، وسمع دعاءه فأجابه إلى ما سأل، فلهذين وصف الله نفسه بالسميع البصير.
**الثاني**: أن قومه كذبوه عن آخرهم بإسرائه، فقال: {السميع} يعني: لما يقولونه من تصديق أو تكذيب، {البصير} لما يفعله من الإسراء والمعراج.
* يمجد تعالى نفسه بقوله سبحان وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره.
وفي معنى التسبيح ها هنا قولان: أحدهما: أن العرب تسبح عند الأمر المعجب، فكأن الله تعالى عجب العباد مما أسدى إلى رسوله من النعمة. والثاني: أن يكون خرج الرد عليهم، لأنه لما حدثهم بالاسراء، كذبوه، فيكون المعنى: تنزه الله أن يتخذ رسولا كذابا.
وقوله تعالى الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام أي سيره منه ليلا. و (أسرى) بمعنى (سرى) يقال: أسراه وأسرى به وسرى به. فهمزة (أسرى) ليست للتعدية. ولذا عدي بالباء.
وفرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة في (أسرى) لإفادة السرعة في السير ولذا
=

=

أوثر على (سرى).

والإسراء سير الليل كله، كأسرى، فقوله تعالى ليلا للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود. مثل: أسعفت مرامه. مع أن الإسعاف قضاء الحاجة. أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر. وقد استظهره الناصر في (الانتصاف) قال: ونظيره في إفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضمونا لغيره، قوله تعالى: لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد [النحل: ٥١]. فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد. فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين، وهو التثنية، مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ، لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله إنما هو إله واحد ولو اقتصر على قوله إنما هو إله لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له. والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوحدانية.

وقيل سر قوله ليلا إفادة تقليل الوقت الذي كان الإسراء والرجوع فيه. أي أنه كان في بعض الليل أخذا من تنكيره. فقد نقل عن سيبويه أن الليل والنهار إذا عرفا كانا معيارا للتعميم، فلا تقول أرقت الليل، وأنت تريد ساعة منه، إلا أن تقصد المبالغة. بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك. فلما عدل عن تعريفه هنا، علم أنه لم يقصد استغراق السرى، وهذا هو المراد من البعضية. وجوز بعضهم أن يكون (أسرى) من (السراة) وهي الأرض الواسعة، وأصله من الواو. أسرى مثل أجبل وأتهم، أي ذهب به في سراة من الأرض، وهو غريب. وفي تخصيص الليل إعلام بفضله لأنه وقت السر والنجوى والتجلي الأسمى، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل. والمراد (بعبده) خاتم أنبيائه محمد ﷺ. وفي ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به ﷻ وانقياده لأوامره- ما لا يخفى.

والعبد، لغة، الإنسان مطلقا والمملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة،

=

=

كالعبادة والعبودة.

قال ابن القيم في (طريق الهجرتين): أكمل الخلق أكملهم عبودية.

وأعظمهم شهودا. لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعائه ﷺ: أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك.

ثم قال: ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاها، وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر. وكان يقول: أيها الناس! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي. إنما أنا عبد.

وكان يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم. إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله.

وذكره سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي.

فقال: سبحان الذي أسرى بعبده ليلا وقال: وأنه لما قام عبد الله يدعوه [الجن: ١٩]. وقال وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا [البقرة: ٢٣].

وفي حديث الشفاعة: أن المسيح يقول لهم: اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فنال ذلك بكمال عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له. انتهى.

وقوله تعالى من المسجد الحرام يعني مسجد مكة المكرمة. سمي حراما، كبلده، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه، ولا بصيد صيده، ولا بقطع شجره ولا كلئه.

وقوله سبحانه إلى المسجد الأقصى هو مسجد بيت المقدس، وكان يعرف بهيكل سليمان لأنه الذي بناه وشيده والأقصى بمعنى الأبعد. سمي بذلك لبعده عن مكة.

=

=

قال ابن الجوزي: وفي قوله تعالى: من المسجد الحرام قولان: أحدهما: أنه أسري به من نفس المسجد، قاله الحسن، وقتادة. ويسنده حديث مالك بن صعصعة، وهو في الصحيحين): «بينما أنا في الحطيم» وربما قال بعض الرواة: في «الحجر».

**والثاني**: أنه أسري به من بيت أم هانئ، وهو قول أكثر المفسرين، فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام: الحرم. والحرم كله مسجد، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره ا.هـ

قلت لم يأت التصريح بأن النبي ﷺ أُسري به من بيت أم هانئ إلا في حديثها الذي أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٣) بسنده من طريق ابن إسحاق، قال حدثني محمد بن السائب عن أبي صالح باذام عن أم هانئ به، وفيه محمد بن السائب وهو الكلبي متهم بالكذب، ورمي بالرفض، وباذام ضعيف يرسل، وأخرجه ابن سعد في طبقاته (١/ ٢١٥)، وفي سنده الواقدي، وهو متروك مع سعة علمه، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٢) من طريق آخر فيه عبد الأعلى بن أبي المساور، قال الهيثمي في المجمع (١/ ٧٦): "رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور متروك كذاب"، والمشهور أن النبي ﷺ أسري به من الحجر عند البيت، أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة، أن النبي حدثهم من ليلة أسري به، قال: بينما أنا نائم في الحطيم، وربما قال في الحجر، وأخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) بلفظ: "بينما أنا عند البيت"، وراجع الفتح (٧/ ٤٠٤)، ولكن جاء في حديث أبي ذر "فرج سقف بيتي وأنا بمكة" أخرجه البخاري (٣٤٩)، (١٦٣٦)، (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣)، وعلى فرض صحة حديث أم هانئ، فيقال كما قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٠٤): "إنه [ﷺ] نام في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، فنزل منه الملك إلى باب المسجد فأركبه البراق" فيكون قد أسري به من المسجد لا من غيره.

=

=

وقوله تعالى (الذي باركنا حوله) أي جوانبه ببركات الدين والدنيا. لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار. فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها. فبركته إذن مضاعفة، لكونه في أرض مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى. والمساجد بيوت الله. ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم، فبورك فيه ببركتهم ويمنهم أيضا.

(تتمة): ذكر مسائل في الإسراء والمعراج.

مسألة: قال سبحانه وتعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: يمجد الله تعالى نفسه، ويعظم شأنه؛ لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه؛ فلا إله غيره ولا رب سواه، {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} يعني: محمدا ﷺ. (ليلا)؛ أي: في جنح الليل. {من المسجد الحرام}: وهو مسجد مكة. {إلى المسجد الأقصى}: وهو بيت المقدس الذي بإيليا، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جُمِعوا له هناك كلهم، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى: {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}؛ أي: في الزروع والثمار. (لنريه)؛ أي: محمدا. {من آياتنا}؛ أي: العِظام؛ كما قال تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، {إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}؛ أي: السميع لأقوال عباده؛ مؤمنهم وكافرهم مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة " اهـ.

والمعراج: مفعال من العروج؛ أي: الآلة التي يعرج فيها؛ أي: يصعد، ولا يعلم كيف هو إلا الله، وحكمه كحكم غيره من المغيبات؛ نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

والذي عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة

=

=

بسنة، وقيل بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر.

مسألة: صفة الإسراء والمعراج المستفادة من النصوص قال الحافظ ابن كثير في " تفسيره ": " والحق أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أسري به يقظة لا مناما، من مكة إلى بيت المقدس، راكبا البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد؛ ربط الدابة عند الباب، ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتي بالمعراج، وهو كالسلم ذو درج يرقى فيه، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما- صلى الله وسلم عليه وعليهما وعلى سائر الأنبياء- حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام؛ أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته، وله ست مائة جناح، ورأى رفرفا أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، ثم يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفا بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه أمهم ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم؛ جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا، وهو يخبر بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولا مطلوبا إلى الجناب العلوي؛ ليفرض عليه وعلى

=

=

أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به؛ اجتمع فيه- أي: بيت المقدس- هو وإخوانه من النبيين، ثم ظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام في ذلك، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق، وعاد إلى مكة بغلس. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسألة: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟

اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟ على قولين: فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناما، والدليل على ذلك قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام؛ فلو كان مناما؛ لم يكن فيه شيء كبير، ولم يكن مستعظما، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضا؛ فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والبدن، وقد قال تعالى: {أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا}، وأيضا قال سبحانه: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}؛ قال ابن عباس: " هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ". رواه البخاري. وأيضا قال سبحانه: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضا فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه.

وقال آخرون: بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده، نقل هذا القول ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما، ونقل عن الحسن البصري نحوه، وليس المراد بهذا القول أن الإسراء كان مناما، بل إن الروح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد، ثم عادت إليه... وهذا من خصائصه؛ فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

=

=

والمراد بالمنام أن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، والفرق بين الأمرين واضح.

واستدل من قال: إن الإسراء كان بروحه لا بجسده؛ بما جاء في رواية شريك بن أبي نمر، عن أنس: " ثم استيقظت؛ فإذا أنا في الحجر ".

وقد أجيب عنه بجوابين:

أحدهما: أن هذا معدود من غلطات شريك؛ فقد غلط الحفاظ شريكا في ألفاظ من حديث الإسراء.

**الثاني**: أن الاستيقاظ محمول على الانتقال من حال إلى حال.

قال ابن كثير: " وهذا الحمل أحسن من التغليط. والله أعلم ".

إلى أن قال: " ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك؛ فإنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له يقظة مناما قبله ليكون ذلك من باب الإرهاص والتوطئة والتثبيت والإيناس... " والله أعلم.

مسألة: هل تكرر المعراج؟ قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساق الأحاديث الواردة في هذا الموضوع: " وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها؛ فحصل مضمون ما اتفقت عليه من إسراء رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه؛ فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة؛ فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب.

=

=

وقد صرح بعض المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد؛ لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار.

وزعم بعض الصوفية أن المعراج وقع له ﷺ ثلاثين مرة! وقال بعضهم: أربعا وثلاثين مرة!! واحدة منها بجسمه الشريف والباقي بروحه!! وقيل: كان الإسراء مرتين؛ مرة يقظة، ومرة مناما!! وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله " ثم استيقظت " وبين سائر الروايات!! وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين؛ مرة قبل الوحي ومرة بعده!! ومنهم من قال: بل ثلاث مرات؛ مرة قبل الوحي ومرتين بعده!! وكلما اشتبه عليهم لفظة؛ زادوا مرة للتوفيق.

قال ابن القيم: " يا عجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مرارا؛ كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسا، فيقول: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي... ثم يعيدها في المرة الثانية خمسين، ثم يحطها إلى خمس... "!! وقال ابن كثير: " وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو يبسط تارة فيسوقه كله، وتارة يحذف عن مخاطبه بما هو الأنفع عنده... ومن جعل كل رواية إسراء على حدة كما تقدم عن بعضهم؛ فقد أبعد جدا، وذلك أن كل السياقات فيها السلام على الأنبياء، وفي كل منها يعرفه بهم، وفي كلها يفرض عليه الصلوات؛ فكيف يمكن أن يدعى تعدد ذلك؟! هذا في غاية البعد والاستحالة. والله أعلم ".

مسالة: حكم الاحتفال بالإسراء والمعراج.

=

=

الاحتفال بالإسراء والمعراج من الأمور البدعية، التي نسبها الجهال إلى الشرع، وجعلوا ذلك سنة تقام في كل سنة، وذلك في ليلة سبع وعشرين من رجب، وتفننوا في ذلك بما يأتونه في هذه الليلة من المنكرات وأحدثوا فيها من أنواع البدع ضروباً كثيرة، وهذه الاحتفالات باطلة من أساسها، لأنه لم يثبت أنه أسري بالنبي ﷺ في هذه الليلة بالذات،

قال ابن قيم في زاد المعاد (١/ ٥٧): (... هذا إذا كانت ليلة الإسراء تعرف عينها، فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر ا. هـ

وقال أبو شامة في الباعث ص (١٧١): وذكر بعض القصاص أن الإسراء كان في رجب، وذلك عند أهل التعديل والجرح عين الكذب ا. هـ.

وقال ابن رجب في لطائف المعارف ص (١٦٨): وقد روي أنه كان في شهر رجب حوادث عظيمة، ولم يصح شيء من ذلك ا. هـ

قال الحافظ في الفتح: وقد اختلف في وقت المعراج فقيل: كان قبل المبعث، وهو شاذ، إلا إن حمل على أنه وقع حينئذ في المنام، وذهب الأكثر إلى أنه كان بعد المبعث، ثم اختلفوا: فقيل: قبل الهجرة بسنة. قال ابن سعد وغيره. وبه جزم النووي، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه-فيكون في شهر ربيع الأول-.

وهو مردود، فإن في ذلك اختلافاً كثيراً، يزيد على عشرة أقوال منها ما حكاه ابن الجوزي أنه كان قبلها بثمانية أشهر- فيكون في رجب-، وقيل بستة أشهر- فيكون في رمضان- وحكي هذا الثاني أبو الربيع بن سالم، وحكي ابن حزم مقتضى الذي قبله، لأنه قال: كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة، وقيل: بأحد عشر شهراً، جزم به إبراهيم الحربي حيث قال: كان في ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، ورجحة

=

=

ابن المنير في شرح السيرة لابن عبد البر وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، حكماه ابن عبد البر، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر حكاه ابن فارس، وقيل: بسنة وخمسة أشهر قاله السدي، وأخرجه من طريقة الطبري والبيهقي، فعلى هذا كان في شوال، أو في رمضان على إلغاء الكسرين منه ومن ربيع الأول، و به جزم الواقدي، وعلى ظاهره ينطبق ما ذكره ابن قتيبة، وحكاه ابن عبد البر أنه كان قبلها بثمانية عشر شهراً.

وعند ابن سعد عن ابن أبي سبرة أنه كان في رمضان، قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً، وقيل كان في رجب حكاه ابن عبد البر، وجزم به النووي في الروضة. وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين حكاه ابن الأثير، وحكي عياض وتبعه القرطبي والنووي عن الزهري أنه كان قبل الهجرة بخمس سنين، ورجحه عياض ومن تبعه. فتح الباري (٧/ ٢٠٣).

فالاحتفال بليلة الإسراء والمعراج بدعة محدثة لم يفعلها الصحابة والتابعون، ومن تبعهم من السلف الصالح، وهم أحرص الناس على الخير والعمل الصالح.

وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان، ولا ذلك المكان، بعبادة شرعية، بل غار حراء الذي ابتديء فيه بنزول الوحي، وكان يتحراه قبل النبوة، لم يقصده هو ولا أحد من الصحابة بعد النبوة مدة مقامه بمكة، ولا خصَّ اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها، ولا خص المكان الذي ابتديء فيه بالوحي ولا الزمان بشيء.

ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مواسم وعبادات كيوم الميلاد، ويوم التعميد، وغير ذلك من أحواله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٩٨): وأما اتخاذ موسم

=

=

غير المواسم الشرعية كبعض ليالي شهر ربيع الأول التي يقال أنها ليلة المولد، أو بعض ليالي رجب، أو ثامن عشر ذي الحجة، أو أول جمعة من رجب، أو ثامن شوال الذي يسميه الجهال عيد الأبرار، فإنها من البدع التي لم يستحبها السلف ولم يفعلوها، والله سبحانه وتعالى أعلم ا. هـ

وقال ابن الحاج في المدخل (١/ ٢٩٤): ومن البدع التي أحدثوها فيه أعني في شهر رجب ليلة السابع والعشرين منه التي هي ليلة المعراج.. ا. هـ

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في فتاواه (٣/ ٩٧ - ١٠٠) في رده على دعوة وجهت لرابطة العالم الإسلام لحضور أحد الاحتفالات بذكري الإسراء والمعراج، بعد أن سئل عن ذلك: هذا ليس بمشروع، لدلالة الكتاب والسنة والاستصحاب والعقل، ثم ذكر الأدلة.

وقال العلامة ابن باز كما في التحذير من البدع (ص ٩) وهذه الليلة التي حصل فيها الإسراء والمعراج، لم يأت في الأحاديث الصحيحة تعيينها، وكل ما ورد في تعيينها فهو غير ثابت عن النبي ﷺ عند أهل العلم بالحديث، ولله الحكمة البالغة في إنساء الناس لها، ولو ثبت تعيينها لم يجز للمسلمين أن يخصوها بشيء من العبادات ولم يجز لهم أن يحتفلوا بها لأن النبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - لم يحتفلوا بها، ولم يخصوها بشيء، ولو كان الاحتفال بها أمراً مشروعًا لبينه الرسول ﷺ للأمة إما بالقول أو الفعل، ولو وقع شيء من ذلك لعرف واشتهر، ولنقله الصحابة - رضي الله عنهم - إلينا فقد نقلوا عن نبيهم ﷺ كل شيء تحتاجه الأمة، ولم يفرطوا في شيء من الدين، بل هم السابقون إلى كل خير، فلو كان الاحتفال بهذه الليلة مشروعًا لكانوا أسبق الناس إليه، والنبي ﷺ هو أنصح الناس للناس، وقد بلغ الرسالة غاية البلاغ، وأدى الأمانة، فلو كان تعظيم هذه الليلة والاحتفال بها من دين الإسلام لم يغفله النبي ﷺ ولم يكتمه، فلما لم يقع شيء من ذلك علم

=

=

أن الاحتفال بها وتعظيمها ليسا من الإسلام في شيء...

مسألة: قال الشيخ صالح آل شيخ في شرح الطحاوية (٢/ ٢٥): هل لقي النبي ؟ أجساد الأنبياء مع أرواحهم؟ أم إنه ؟ لقي أرواحهم دون أجسادهم؟

العلماء لهم في ذلك قولان:

القول الأول: قال طائفة من أهل العلم لقي أرواحا وأجسادا، واستدلوا على ذلك بدليلين:

الدليل الأول: أن هذا هو الظاهر من الجمع - يعني من أنهم جمعوا له وأنه كلم آدم وكلم فلان وكلم فلان إلى آخره.

والدليل الثاني: أنه جاء في أحد الروايات قوله (وبعثت لي الأنبياء) وبعثة الأنبياء له، تدل على أن ذلك خاص في ذلك الموقف الخاص.

القول الثاني: أن ذلك إنما هو للأرواح دون الأجساد حاشا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه رفع إلى السماء بروحه وجسده، وفي إدريس قولان؛ إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الرابعة فيه قولان، هل كان رفعه للسماء الرابعة بروحه فقط أم كان بروحه وجسده؟ وفي ذلك خلاف عند المفسرين وعند أهل العلم مأخوذ أو تجده عند قوله تعالى ؟ورفعناه مكانا عليا؟ [مريم:٥٧] في قصة لا تثبت؛ يعني في قصة لسبب الرفع لا تثبت، والأظهر من القولين عندي أن ذلك كان بالأرواح دون الأجساد خلا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وذلك أن النبي ﷺ حين التقى بالأنبياء وصلوا معه إما أن يقال صلوا معه بأجسادهم، وقد جمعت أجسادهم له من القبور، ثم رجعت إلى القبور وبقيت أرواحهم في السماء، وإما أن يقال هي بالأرواح فقط؛ لأنه لقيهم في السماء، ومعلوم أن الرفع إنما خص به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء رفعا حيا، وكونهم يرفعون بأجسادهم وأرواحهم إلى السماء دائما ولا وجود لهم في القبور، هذا لا دليل عليه؛ بل يخالف أدلة كثيرة أن الأنبياء في قبورهم إلى قيام الساعة، فمعنى كونهم

=

=

ماتوا ودفنوا أن أجسادهم في الأرض، وهذا هو الأصل.

ومن قال بخلافه قال هذا خاص بالنبي ﷺ أنه بعثت له الأنبياء فصلى بهم ولقيهم في السماء.

وهذه الخصوصية لابد لها من دليل واضح، وكما ذكرت لك فالدليل التأملي يعارضه، وعلى كل هما قولان لأهل العلم من المتقدمين والمتأخرين.

مسألة: قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢/ ٣٢٠): إن الله كلم موسى وأمره بلا واسطة وكذلك كلم محمدا ﷺ وأمره ليلة المعراج وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة وهي أوامر دينية شرعية ا. هـ وسئلت اللجنة الدائمة عن: كثيرا ما نسمع ونقرأ أن الصلوات الخمس فرضت على النبي ﷺ بدون واسطة وذلك بعد ما عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السموات، والذي أشكل علي وأريد من سماحتكم تبيينه وتوضيحه هو هل أن الله ﷻ كلم محمدا ﷺ مشافهة وبذلك تكون هذه تابعة لخصوصياته عليه السلام مشتركا فيها مع أخيه موسى عليه السلام، وأن كلام الله ﷻ في الدنيا ليس خاصا لموسى عليه السلام، أفتونا جزاكم الله عنا خيرا مرشدينا في ذلك إلى الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ؟ فأجابت: نعم، أحاديث المعراج صريحة بأن الله سبحانه كلم نبيه محمدا ﷺ، وبذلك يعلم أنه عليه الصلاة والسلام كليم الله كما أن موسى كليم الله وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم ا. هـ

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه: ثبت أن الله كلم محمداً، ﷺ ليلة المعراج.

مسألة: هل رأى محمد ﷺ ربه تبارك وتعالى.

أختلف العلماء في المسألة على خمسة أقوال وهي:

القول الأول: من أثبت الرؤية مطلقا.

=

=

وهو رواية عن الإمام أحمد، وقول ابن خزيمة، والآجري، والألوسي.

١ - قول الإمام أحمد (٢٤١هـ)

حكى أبو يعلى في كتابه الروايتين والوجهين (ص٦٣-٦٤) اختلاف الروايات عن الإمام أحمد في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه على ثلاث روايات أحدها أنه رآه مطلقا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩): "وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده" ا.هـ.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "وممن أطلق الرؤية أبو هريرة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما".

٢ - قول ابن خزيمة (٣١١هـ) الإمام ابن خزيمة نصر في كتابه التوحيد (٢/ ٤٧٧-٥٦٢) القول بأن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج، وأطال في سرد الحجج على ذلك.

ولكن ابن كثير - رحمه الله - نسب إليه بأنه يقول بالرؤية البصرية كما سيأتي ذكر قوله.

٣ - قول الإمام الآجري (٣٦٠ هـ) بوب الإمام الآجري في كتابه الشريعة ٣(/ ١٥٤١-١٥٥١) باباً بعنوان "باب ذكر ما خصَّ الله عز وجل النبي ﷺ من الرؤية لربه عز وجل".

ثم ساق مجموعة من الأحاديث والأثار التي تدل على أنه ينصر القول بأنه ﷺ رأى ربه -عز وجل- ليلة المعراج.

٤ - قول الألوسي: قال الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢٧/ ٥٤): "وأنا أقول برؤيته ﷺ ربَّه سبحانه وبدنوه على الوجه اللائق".

ونسبه إلى معظم الصوفية فقال: "ومعظم الصوفية على هذا، فيقولون بدنو الله -

=

=
ﷻ - من النبي ﷺ، ودنوه - سبحانه - على الوجه اللائق، وكذا يقولون بالرؤية كذلك".

القول الثاني: من قيد الرؤية بالعين.

نسب القول بتقييد الرؤية بالعين إلى بعض العلماء، ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين، وفي نسبة ذلك إلى بعضهم نظر، وممن نسب لهم القول بذلك: ابن عباس، وأنس بن مالك، والحسن البصري، وعكرمة، ورواية عن الإمام أحمد، وابن خزيمة، وابن جرير، وأبو الحسن الأشعري وعامة أتباعه، وأبو عبد الله بن حامد وأبو بكر النجاد والقاضي أبو يعلى، وعبد القادر الجيلاني، وجماعة من المتأخرين.

فقد نسب البغوي هذا القول إلى ابن عباس فقال في تفسيره (٧/ ٤٠٥): "وعن ابن عباس أنه قال رأى ربه بعينه".

وقد سبق الرد على ذلك عند عرض أقوال الصحابة، وأن هذا التقييد بالعين لم يثبت عن ابن عباس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩-٥١٠): "سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين".

وقال البغوي أيضًا في معالم التنزيل (٧/ ٤٠٣):"وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة" ا.هـ

وبالنسبة لما نسبه البغوي إلى أنس وعكرمة من تقييد الرؤية بالعين فإن الروايات السابق ذكرها عنهما جاءت مطلقة، وكذا ما أوردناه عن الحسن البصري فإن الرواية جاءت مطلقة، وقد سبق كذلك الإشارة إلى ما ورد في تفسير البغوي عن الحسن البصري أنه قال: "رآه بعينه" ولكن البغوي لم يسندها فلا يعدل عن الرواية التي سبق إيرادها عن الحسن من إطلاق الرؤية وعدم تقييدها بالعين، والله
=

=

أعلم.

قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٣): "وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر والله أعلم".

وقال ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٢٦٨): "ورأى، أي: النبي ﷺ ربه -عز وجل- ببصره على قول بعضهم، وهو اختيار الإمام أبي بكر بن خزيمة من أهل الحديث، وتبعه في ذلك جماعة من المتأخرين".

وقال أيضًا في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "وصرح بعضهم بالرؤية بالعينين، واختاره ابن جرير، وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين، وممن نص على الرؤية بعيني رأسه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السهيلي عنه، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه" ا.هـ

وحمل القاضي أبو يعلى في كتابه الروايتين والوجهين (ص٦١) وفي إبطال التأويلات (١/ ١١١) الرواية التي عن الإمام أحمد بأنها نص على الرؤية بالعين، فقال في كتاب الروايتين: "فظاهر هذا أنه أثبت رؤيا عين" وقال في إبطال التأويلات: "والرواية الأولى أصح، وأنه رآه في تلك الليلة بعينيه".

وقد اعترض شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩-٥١٠) على هذا التوجيه من القاضي فقال: "وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده"، ولم يقل أحد: أنه سمع أحمد يقول رآه بعينه، لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق، ففهموا منه رؤية العين، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين.

وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: "سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك: فقال:

=

=

"نور أنى آراه"" ا.هـ

وقال فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٧): "قال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه-: وليس قول ابن عباس إنه رآه مناقضا لهذا ولا قوله رآه بفؤاده وقد صح عنه أنه قال: "رأيت ربي تبارك وتعالى" ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ثم أخبرهم عن رؤية ربه -تبارك وتعالى- تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- وقال: نعم رآه حقا فإن رؤيا الأنبياء حق ولابد، ولكن لم يقل أحمد -رحمه الله تعالى- إنه رآه بعيني رأسه يقظة، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال: مرة رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك" ا.هـ

وكذلك اعترض ابن القيم على توجيه القاضي أبي يعلى -أيضا- فقال كما التبيان في أقسام القرآن (ص٢٦٠-٢٦١): "وقد جعلها القاضي مختلفة، وجعل المسألة على ثلاث روايات، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل، وحديث عبد الرحمن بن عائش الحضرمي ولا دلالة فيهما، لأنها رؤية منام فقط، واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعا: "لما كانت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: فيما يختصم الملأ الأعلى؟ " وذكر الحديث وهذا غلط قطعًا فإنما القصة كانت بالمدينة، كما قال معاذ بن جبل: "احتبس عنا رسول الله ﷺ في صلاة الصبح حتى كدنا نترآى عين الشمس، ثم خرج وصلى بنا ثم قال: "رأيت ربي البارحة في أحسن صورة فقال: يا محمد: فيما يختصم الملأ الأعلى؟ " وذكر الحديث فهذا كان بالمدينة والإسراء بمكة وليس عن الإمام أحمد، ولا عن النبي ﷺ نص أنه رآه بعينه يقظة،

=

=

وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضا، والمسألة رواية واحدة عنه فإنه لم يقل بعينه، وإنما قال: رآه. واتبع في ذلك قول ابن عباس: رأى محمد ربه. ولفظ الحديث "رأيت ربي" وهو مطلق وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد الإمام أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل من زعم أن محمدًا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية، وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية؛ إذ هو مخالفة للحديث وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية، وأطلق عنه بأنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال رآه ولا يقول بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول أحمد: "بعيني رأسه يقظة" ولم يجد ذلك في حديث قط، فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت، وإنكاره قول من قال: لم يره أصلا لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه والله أعلم.

قول الأشعري (٣٢٤هـ) وعامة أتباعه: ممن نسب هذا القول إلى أبي الحسن الأشعري وأكثر أتباعه القاضي عياض، والقرطبي في تفسيره، والنووي وابن كثير وابن حجر.

قال القاضي عياض: "وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وجماعة من أصحابه: أنه رأى الله –تعالى– ببصره وعيني رأسه، وقال: كلُّ آية أوتيها نبيٌّ من الأنبياء –عليهم السلام– فقد أوتي مثلها نبيُّنا، وخُصَّ من بينهم بتفضيل الرُّؤية".

وهذا ما ذكره شارح جوهرة التوحيد (ص ١١٨) –وهو من الأشاعرة– في شرحه فقال: "والراجح عند أكثر العلماء أنه ﷺ رأى ربه سبحانه وتعالى بعيني رأسه

=

=

وهما في محلهما، خلافا لمن قال: حولا إلى قلبه لحديث ابن عباس وغيره".

قول أبي بكر النجاد أحمد بن سليمان (٣٤٨ هـ) حكى القاضي أبو علي بن أبي موسى في إبطال التأويلات (١/ ١١٤) عن أبي بكر النجاد قال: "رأى محمد ربه إحدى عشرة مرة، منها بالسنة تسع مرات في ليلة المعراج، حين كان يتردد بين موسى وبين الله -ﷻ- يسأل أن يخفف عن أمته الصلاة فنقص خمسة وأربعين صلاة في تسع مقامات ومرتين بالكتاب".

قول أبي عبد الله الحسن بن حامد (٤٠٣ هـ) نقل أبو يعلى في كتابه الروايتين والوجهين (ص٦٤) أن اختيار شيخه أبي عبد الله ابن حامد أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء بعينه.

وقال القاضي أبو يعلى في إبطال التأويلات (١/ ١١١) -بعد أن أورد الرواية الأولى عن الإمام أحمد- بأنه ﷺ رأى ربه ليلة المعراج بعينه، وجعلها هي الصحيحة قال: "وهذه الرواية اختيار أبي بكر النجاد".

قول القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء (٤٥٨ هـ) رجح في إبطال التأويلات (١/ ١١١) القول بالرؤية البصرية فقال -في معرض ذكره للروايات الواردة عن الإمام أحمد-: "والرواية الأولى أصح، وأنه رآه في تلك الليلة بعينه".

وقال في نفس المصدر السابق (١/ ١١٤): "وما رويناه عن ابن عباس أولى مما روي عن عائشة؛ لأن قول ابن عباس يطابق قول النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ أثبت رؤيته في تلك الليلة؛ ولأنه مثبت والمثبت مقدم على النافي، ولا يجوز أن يثبت ابن عباس ذلك إلا عن توقيف؛ إذ لا مجال للقياس في ذلك".

قول عبد القادر الجيلاني (٤٧١ هـ) وهذا القول قال به أيضًا - عبد القادر - الجيلاني في كتابه الغنية (١/ ٦٦)، حيث قال: "ونؤمن بأن النبي ﷺ رأى ربه - ﷻ - ليلة الإسراء بعيني رأسه لا بفؤاده ولا في المنام".

=

=

قول النووي (٦٧٦ هـ): قال الإمام النووي -رحمه الله- في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٩): "فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه ثم عائشة -رضي الله عنها- لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها فيه حديث لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات".

قول الحافظ مغلطاي (٧٦٢ هـ) قال رحمه الله في الإشارة إلى سيرة المصطفى (ص١٣٩): "والصحيح أن الإسراء كان يقظة بجسده، وأنه مرات متعددة، وأنه رأى ربه - عز وجل - بعيني رأسه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم".

قول السيوطي (٩١١ هـ) قال السيوطي في الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (١/ ٢٢١): "الراجح عند أكثر العلماء أنه ﷺ رأى ربَّه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره، وإثبات هذا لا يكون إلا بالسماع من رسول الله ﷺ، ولم تعتمد عائشة في نفي الرؤية على حديث رسول الله ﷺ، وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات".

قول القسطلاني (٩٢٣ هـ) قال رحمه الله في المواهب اللدنية (١/ ٣٧٣): "... ثم عرج به من المسجد الأقصى إلى فوق سبع سموات ورأى ربه بعيني رأسه وأوحى إليه ما أوحى".

قول محمد بن أحمد الصاوي (١٢٤١ هـ) قال في حاشيته على تفسير الجلالين (٤/ ١٣٧): "...... واختلف في تلك الرؤية، فقيل: رآه بعينه حقيقة، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين منهم ابن عباس، وأنس ابن مالك، والحسن، وغيرهم،... وقيل: لم يره بعينه وهو قول عائشة رضي الله عنها، والصحيح الأول؛ لأن المثبت مقدم على النافي؛ أو لأن عائشة لم يبلغها حديث الرؤية لكونها كانت

=

=

حديثة السن".

القول الثالث: من قيدها بالرؤية القلبية

قول الإمام أحمد (٢٤١هـ) ذكر أبو يعلى في الروايتين والوجهين (ص٦٣) أن للإمام أحمد رواية أخرى أثبت فيها أن النبي ﷺ رأى ربه بقلبه كما جاء ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩): "وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده"".

قول القرطبي المفسر. (٦٧١ هـ) قال في تفسيره (١٧/ ٩٢) في تفسير قوله تعالى {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} : "أي لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج، وذلك أن الله – تعالى – جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية" ا؟هـ

قول أبي المظفر السمعاني (٤٨٩هـ) قال أبو المظفر السمعاني في تفسيره ٥(/ ٢٨٨): "وقد ثبت عن ابن عباس أنه قال رأى محمد ربه بفؤاده فإن قال قائل: المؤمنون يرونه بفؤادهم، وليس ذلك إلا العلم به فما معنى تخصيص النبي ﷺ؟. والجواب أنهم قالوا: إن الله – تعالى – خلق رؤية لفؤاده فرأى بفؤاده مثل ما يرى الإنسان بعينه".

قول شيخ الإسلام ابن تيمية كما هو مذكور هنا. أوهو

قول ابن كثير (٧٠٤ هـ) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٣): بعد ذكر الروايات عن ابن عباس أنه رآه بفؤاده مرتين: ".... وقد خالفه ابن مسعود، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شئ عن الصحابة –رضي الله عنهم– وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر والله

=

=

أعلم".

وقال رحمه الله في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "واختلفوا في الرؤية فقال بعضهم: رآه بفؤاده مرتين، قاله ابن عباس وطائفة، وأطلق ابن عباس وغيره الرؤية وهو محمول على التقييد. وممن أطلق الرؤية أبو هريرة وأحمد بن حنبل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -. وصرح بعضهم بالرؤية بالعينين، واختاره ابن جرير وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين. وممن نص على الرؤية بعيني رأسه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السهيلي عنه، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه. وقالت طائفة: لم يقع ذلك لحديث أبي ذر... وقالوا: لم يمكن رؤية الباقي بالعين الفانية... والخلاف في هذه المسألة مشهور بين السلف والخلف والله أعلم".

وقال - رحمه الله - في الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٢٦٨): "ورأى النبي ﷺ ربه - عَزَّ وَجَلَّ - ببصره على قول بعضهم، وهو اختيار الإمام أبي بكر بن خزيمة من أهل الحديث، وتبعه على ذلك جماعة من المتأخرين. وروى مسلم عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أنه رآه بفؤاده مرتين، وأنكرت عائشة أم المؤمنين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - رؤية البصر، وروى مسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله رأيت ربك فقال: "نور أنى أراه" وإلى هذا مال جماعة من الأئمة قديما وحديثا اعتمادًا على هذا الحديث، واتباعًا لقول عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالوا: هذا مشهور عنها، ولم يعرف لها مخالف من الصحابة إلا ما روي عن ابن عباس أنه رآه بفؤاده، ونحن نقول به، وما روي في ذلك من إثبات الرؤية بالبصر فلا يصح شيء من ذلك لا مرفوعا بل ولا موقوفا والله أعلم".

قول ابن أبي العز (٧٩٢ هـ) قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في شرح الطحاوية (١/ ٢٢٢): "واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا محمد ﷺ خاصة، منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له

=

=

ﷺ".

وقال في موضع آخر (١/ ٢٧٥): "... وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ ربَّه - ﷻ - بعين رأسه، وأن الصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه. وقوله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم ١١]، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم ١٣] صح عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين على صورته التي خلق عليها".

قول ابن حجر (٨٥٢ هـ) قال رحمه الله في الفتح (٨/ ٤٧٤): "جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة، وأخرى مقيدة فيجب حمل مطلقها على مقيدها... وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالما بالله على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه، كما يخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلا، ولو جرت العادة خلقها في العين".

قول السفاريني (١١١٨هـ) قال -رحمه الله- في لوامع الأنوار (٢/ ٢٥٤-٢٥٥): "... وإذا علم ما حررناه فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة - رضي الله عنهم - بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب كما قاله الحافظ ابن حجر في شرح البخاري".

قول محمد الأمين الشنقيطي (١٣٩٣ هـ) العلامة الشنقيطي - رحمه الله - ممن يرجح الرؤية القلبية فقد قال رحمه الله في أضواء البيان (٣/ ٣٩٩): "التحقيق الذي دلت عليه نصوص الشرع أنه ﷺ لم يره بعين رأسه، وما جاء عن بعض السلف من أنه رآه، فالمراد به الرؤية بالقلب، كما في صحيح مسلم أنه رآه بفؤاده مرتين، لا بعين الرأس".

القول الرابع: من قال رآه مرة بفؤاده ومرة بعينه.

=

=

وبه قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني، وأنور شاه الكشميري.

١ - قول أبي القاسم الأضبهاني (٥٣٥ هـ) قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٥٢-٢٥٣): "ومن مذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج، وكان رؤيا يقظة لا رؤيا منام.

وروي عن أحمد بن حنبل - رحمه الله - قال: رآه بعين رأسه، وروي عنه أنه رآه بعين قلبه، والصحيح أنه رآه بعين رأسه، وعين قلبه.

قيل في التفسير {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} رآه في المرة الأولى بعيني قلبه، وفي المرة الأخرى بعيني رأسه".

٢ - قول أنور شاه الكشميري: قال أنور شاه الكشميري - فيما نقله عنه صاحب فتح الملهم - (١/ ٢٢٨): "إن الراجح في آية النجم أن الرؤية في قوله تعالى {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} أن الرؤية هنا للفؤاد، والرؤية في قوله تعالى {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} أن الرؤية هنا بالعين.

وقال: وعن ابن عباس أنه كان يقول أن محمدًا ﷺ رأى ربَّه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده، رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، خلا جهور بن منصور الكوفي وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات كذا في الزوائد".

القول الخامس: من نفى الرؤية مطلقا: وقال بهذا القول: الدارمي، وابن عطية، وأبو حيان.

قول الإمام الدارمي (٢٨٠ هـ) قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي - في رده على بشر المريسي - (ص٥٢٣ - ضمن عقائد السلف):"ويلك، إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه لما أن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر: إنه لم ير ربه، وقال رسول الله ﷺ: "لن تروا ربكم حتى تموتوا" وقالت عائشة رضي الله عنها: "من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية" وأجمع المسلمون على

=

=

ذلك مع قول الله {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، وفي المنام يمكن رؤية الله على كل حال، وفي كل صورة".

قول ابن عطية (٥٤٦ هـ) ذهب ابن عطية في تفسيره (١٥/ ٢٦٠، ٢٦١) إلى ترجيح مذهب عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ومن معها في أنه ﷺ لم ير ربَّه، ونسبه إلى الجمهور.

قول أبي حيان الأندلسي (٧٥٦ هـ) كما ذهب أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ١٥٦) إلى ترجيح مذهب عائشة ومن معها.

القول السادس: من توقف في المسألة.

قول القاضي عياض (٥٤٤ هـ) قال القاضي عياض في الشفا (١/ ٢٦١): "ووقف بعض مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز أن يكون.

قال القاضي أبو الفضل: الحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها".

وقال في الشفا أيضا (١/ ٢٦٥): "وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضا، ولا نص، إذ المعول فيه على آية النجم والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك.

وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده لم يسنده إلى النبي ﷺ فيجب العلم باعتقاد مضمنه.

ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية، وحديث معاذ محتمل للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمتن.

وحديث أبي ذر الآخر محتمل مشكل فروي: "نور أنى أراه" وحكى بعض شيوخنا أنه روي: "نَورَاني أراه".

وفي حديثه الآخر: سألته فقال: "رأيت نورا" وليس ممكن الاحتجاج بواحد منها

=

=

على صحة الرؤية فإن كان الصحيح رأيت نورا فهو قد أخبر أنه لم ير الله، وإنما رأى نورا منعه وحجبه عن رؤية الله.

وإلى هذا يرجع قوله: "نور أنى أراه" أي كيف أراه مع حجاب النور المغشي للبصر، وهذا مثل ما في الحديث الآخر: "حجابه النور" وفي الحديث الآخر: "لم أره بعيني ولكن رأيته بقلبي مرتين" وتلا {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} والله قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب، أو كيف شاء لا إله غيره.

فإن ورد حديث نص بين في الباب وجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه، ولا مانع قطعي يرده والله الموفق".

قول أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي (٦٥٦هـ) قال رحمه الله في المفهم (١/ ٤٠١-٤٠٣): "وذهبت طائفة من المشايخ إلى الوقف، وقالوا: ليس عليه قاطع نفيًا ولا إثباتًا، ولكنه جائز عقلاً وهذا هو الصحيح".

وقال في موضع آخر: "... ثم هل وقعت رؤية الله -تعالى- لمحمد ﷺ ليلة الإسراء أو لم تقع؟ ليس في ذلك دليل قاطع، وغاية ما للمستدل على نفي ذلك أو إثباته التمسك بظواهر متعارضة معرّضة للتأويل، والمسألة ليست من باب العمليات فيكتفى فيها بالظنون، وإنما هي من باب المعتقدات ولا مدخل للظنون فيها".

قول الذهبي (٧٤٨ هـ) قال رحمه الله في سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١٤): "والذي دلَّ عليه الدليل عدم الرؤية مع إمكانها، فنقف عن هذه المسألة، فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فإثبات ذلك أو نفيه صعب، والوقوف سبيل السلامة والله أعلم، ولا نعنف من أثبت الرؤية لنبينا في الدنيا، ولا من نفاها، بل نقول الله ورسوله أعلم، بل نعنف ونبدع من أنكر الرؤية في الآخرة؛ إذ رؤية الله في الآخرة ثبتت بنصوص متوافرة.. " ا.هـ

=

=

ولكن ورد في كتابه العرش (٢/ ٣٠١) ما يناقض ذلك حيث صرح بإثبات الرؤية فقال: "وأكثر الصحابة على أنه ﷺ رأى ربه....قلت: لأنه رآه في عالم البقاء حين خرج من عالم الفناء، وارتقى فوق السموات السبع فهذا الحديث أيضًا دال على أنه - سبحانه وتعالى - فوق السموات وفوق جميع المخلوقات، ولولا ذلك لكان معراج النبي ﷺ إلى فوق السماء السابعة إلى السدرة المنتهى، ودنو الجبار منه، وتدليه - سبحانه وتعالى - بلا كيف حتى كان من النبي ﷺ قاب قوسين أو أدنى، وأنه رآه تلك الليلة، وأن جبريل علا به حتى أتى به إلى الله تعالى".

مسألة: هل ثبت رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا عيانا؟

ينبغي - هنا - التفريق، وعدم الخلط بين مسألتين، المسألة الأولى: رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج، وهذه هي التي حصل الكلام فيها بين أهل السنة، وقد تقدم بسط ذلك في المبحث السابق؛ والمسألة الثانية: رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا عيانًا وهذه لم يختلف فيها قول أهل السنة، فهم مجمعون على أن النبي ﷺ لم ير ربه في الدنيا عيانـًا، وأن ما ذكر من أحاديث في هذه المسألة فهو في عداد الموضوعات التي لا يصح نسبتها إلى النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٦-٣٨٨): "وقد اتفق المسلمون على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعينه في الأرض، وأن الله ينزل له إلى الأرض، وليس عن النبي ﷺ قط حديث فيه أن الله نزل له إلى الأرض، بل الأحاديث الصحيحة: ( أن الله يدنو عشية عرفة ).

وفي رواية ( إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ ) ا.هـ

علم مما سابق أنه لم يصح حديث في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا عيانـًا، وقد ذكر العلماء أن ما يروى في هذا الشأن فهو كذب على النبي ﷺ، وليس له

=

=

أصل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٩): "وكل حديث فيه "أن محمدًا ﷺ رأى ربه بعينه في الأرض"، فهو كذب باتفاق المسلمين وعلمائهم، هذا شيء لم يقله أحد من علماء المسلمين ولا رواه أحد منهم.

وقال أيضًا: "وبالجملة أن كل حديث فيه أن النبي ﷺ رأى ربه بعينيه في الأرض، وفيه أنه نزل له إلى الأرض، وفيه أن رياض الجنة خطوات الحق، وفيه أنه وطئ على صخرة بيت المقدس، كل هذا كذب باطل باتفاق علماء المسلمين، من أهل الحديث وغيرهم" ا.هـ

ومن الأحاديث الموضوعة في هذا الشأن ما يلي:

١- الحديث الأول: عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - مرفوعا: ( رأيت ربي عز وجل على جمل أحمر عليه إزاران وهو يقول: قد سمحت قد غفرت إلا المظالم، فإذا كان ليلة المزدلفة، ثم يصعد إلى السماء، وينصرف الناس إلى منى )

أورده ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٨٠) وقال عنه: "هذا حديث لا يشك أحد في أنه موضوع، محال"، والسيوطي في اللآلي المصنوعة ١/ ٢٧.

وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ١٣٩ رقم ١٧ وقال: "أخرجه الأهوازي في الصفات من حديث أسماء فقبح الله واضعه".

٢- الحديث الثاني: عن أبي رزين العقيلي - رضي الله عنه - مرفوعا: ( رأيت ربي بمنى يوم النفر، على جمل أورق عليه جبة صوف أمام الناس ) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٥١٣ وفي السير ١٨/ ١٦-١٧، والقاضي الفتني في تذكرة الموضوعات ص ١٢-١٣، والقاري في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ص ١٠٢، واتفقوا على أنه موضوع باطل، وأن المتهم به هو أبوعلي الأهوازي، كما قال ابن عساكر.

=

=

مسألة: رؤية البشر لربهم في الحياة الدنيا.

لعل من المناسب بعد ذكر ما يتعلق بمسألة رؤية النبي ﷺ لربه، وما يتصل بها من مسائل، الإشارة إلى مسألة رؤية البشر لربهم في الحياة الدنيا، وذلك لما بين المسألتين من ترابط من جهة وجود نوع علاقة بين المسألتين، باعتبار أن من زعم جواز حصول الرؤية للبشر استند في زعمه على ما ذكر من أحاديث مكذوبة في وقوع الرؤية للنبي ﷺ في الحياة الدنيا، ومعلوم أن بضاعة بعض المتصوفة الذين جوزوا حصول ذلك لأوليائهم هي الأحاديث المكذوبة المتقدمة، وعلى هذا الاعتبار بنى أولئك المتصوفة مزاعمهم، بأن ذلك يجوز حصوله لمن وصل إلى مرحلة معينة في الولاية التي قد يعتبرها البعض منهم فوق منزلة النبوة، وبهذه النظرة ما المانع أن يحصل مثل ذلك لغير النبي ﷺ.

وأما من قال بامتناع رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا عيانـًا، فلا شك أنه يقول بامتناعها على غيره من باب أولى، فإذا كانت الرؤية لم تحصل للنبي ﷺ -مع ما له من مكانة وشرف ومنزلة عظيمة عند الله - فكيف تحصل لمن هو دونه في المنزلة والمكانة، على أن مستند من نفى رؤية البشر لله في الدنيا هو نص السنة، كما سيأتي ذكره.

ومسألة رؤية البشر لله عمومًا يتنازعها ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: من نفى الرؤية بإطلاق فلم يثبتها في الدنيا، ولا في الآخرة على حد سواء، بل نفى حتى الرؤيا المنامية.

وهؤلاء هم الجهمية والمعتزلة المعطلة الذين ليس عندهم فوق العرش إلا العدم المحض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (١/ ٧٣-٧٤): "وحكوا عن طائفة من المعتزلة وغيرهم إنكار رؤية الله، والنقل بذلك متواتر عمن رأى ربه

=

=

في المنام، ولكن لعلهم قالوا: لا يجوز أن يعتقد أنه رأى ربه في المنام فيكونون قد جعلوا هذا من أضغاث الأحلام، ويكونون من فرط سلبهم ونفيهم نفوا أن تكون رؤية الله في المنام رؤية صحيحة كسائر ما يرى في المنام، فهذا مما يقوله المتجهمة، وهو باطل مخالف لما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، بل ولما اتفق عليه عامة عقلاء بني آدم" ا.هـ

وقال أيضًا مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩١-٣٩٢): "وإنما يكذب بها أو يحرفها - أي: أحاديث الرؤية في الآخرة - الجهمية، ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم، من الذين يكذبون بصفات الله تعالى، وبرؤيته وغير ذلك، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة، ودين الله وسط بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسول الله ﷺ في الآخرة، وبين تصديق الغالية، بأنه يرى بالعيون في الدنيا، وكلاهما باطل" ا.هـ

الطائفة الثانية: من يثبت الرؤية بإطلاق فيزعم أن الله يرى في الدنيا عيانًا، كما يرى في الآخرة عيانًا. وهذا يقول به بعض المتصوفة من الاتحادية والحلولية.

فأما الاتحادية أهل وحدة الوجود فهم الذين لا يميزون الخالق بصفات تميزه عن المخلوق، ويقولون بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق. فعلى سبيل المثال هم يقولون بأن الله هو المتكلم بكل ما يوجد من الكلام، وفي ذلك يقول ابن عربي:

ألا كل قول في الوجود كلامه ❋ سواء علينا نثره ونظامه

يعم به أسماع كل مكون ❋ فمنه إليه بدؤه وختامه.

فيزعمون أنه هو المتكلم على لسان كل قائل. ولا فرق عندهم بين قول فرعون: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات ٢٤] {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص ٢٨] وبين القول الذي يسمعه موسى {إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي} [طه ١٤]، بل يقولون: إنه الناطق في كل شيء، فلا يتكلم إلا هو،

=

=

ولا يسمع إلا هو، حتى قول مسيلمة الكذاب، والدجال، وفرعون، يصرحون بأن أقوالهم هي قوله".

وهذا قول أصحاب وحدة الوجود كابن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض، والعفيف التلمساني.

وأصل مذهبهم: أن كل واحد من وجود الحق، وثبوت الخلق يساوى الآخر، ويفتقر إليه، وفي هذا يقول ابن عربي:

فيعبدني وأعبده * ويحمدني وأحمده.

ويقول: إن الحق يتصف بجميع صفات العبد المحدثات، وإن المحدث يتصف بجميع صفات الرب، وإنهما شيء واحد؛ إذ لا فرق في الحقيقة بين الوجود والثبوت فهو الموصوف عندهم بجميع صفات النقص والذم والكفر والفواحش والكذب والجهل، كما هو الموصوف عندهم بصفات المجد والكمال فهو العالم والجاهل، والبصير والأعمى، والمؤمن والكافر، والناكح والمنكوح، والصحيح والمريض، والداعي والمجيب، والمتكلم والمستمع، وهو عندهم هوية العالم ليس له حقيقة مباينة للعالم، وقد يقولون: لا هو العالم ولا غيره، وقد يقولون: هو العالم - أيضا - وهو غيره، وأمثال هذه المقالات التي يجمع فيها في المعنى بين النقيضين مع سلب النقيضي".

وهؤلاء الاتحادية يجمعون بين النفي العام، والإثبات العام، فعندهم أن ذاته لا يمكن أن ترى بحال وليس له اسم ولا صفة ولا نعت، إذ هو الوجود المطلق الذي لا يتعين، وهو من هذه الجهة لا يرى ولا اسم له.

ويقولون: إنه يظهر في الصور كلها، وهذا عندهم هو الوجود الاسمي لا الذاتي، ومن هذه الجهة فهو يرى في كل شيء، ويتجلى في كل موجود، لكنه لا يمكن أن ترى نفسه، بل تارة يقولون كما يقول ابن عربي: ترى الأشياء فيه، وتارة يقولون:

=

=

يرى هو في الأشياء، وهو تجليه في الصور، وتارة يقولون كما يقول ابن سبعين:
عين ما ترى ذات لا ترى * وذات لا ترى عين ما ترى.
وهم مضطربون؛ لأن ما جعلوه هو الذات عدم محض، إذ المطلق لا وجود له في الخارج مطلقًا بلا ريب، لم يبق إلا ما سموه مظاهر ومجالي، فيكون الخالق عين المخلوقات لا سواها، وهم معترفون بالحيرة والتناقض مع ما هم فيه من التعطيل والجحود.
وفي هذا يقول ابن عربي:
فإن قلت بالتنزيه كنت مقيداً * وإن قلت بالتشبيه كنت محدداً
وإن قلت بالأمرين كنت مسددًا * وكنت إمامًا في المعارف سيدًا
فمن قال بالإشفاع كان مشركًا * ومن قال بالإفراد كان موحدًا
فإياك والتشبيه إن كنت ثانيًا * وإياك والتنزيه إن كنت مفردًا
فما أنت هو بل أنت هو وتراه * في عين الأمور مسرحا ومقيدًا.
وأما الفرق بين الاتحاد والحلول، فإن الاتحاد كاتحاد الماء باللبن، وأما الحلول فكحلول الماء في الإناء.
والقسمة بين الحلولية والاتحادية رباعية، فإن كل واحد من الحلول والاتحاد: إما معين في شخص، وإما مطلق.
قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢/ ١٧١-١٧٣): "وذلك أن القسمة رباعية؛ لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة، فإما أن يقول بحلوله فيه، أو اتحاده به، وعلى التقدرين: فإما أن يجعل ذلك مختصا ببعض الخلق كالمسيح، أو يجعله عاما لجميع الخلق، فهذه أربعة أقسام:
الأول: هو الحلول الخاص: وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به، كحلول الماء في الإناء، وهؤلاء

=

=

حققوا كفر النصارى؛ بسبب مخالطتهم للمسلمين، وكان في زمن المأمون؛ وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة، كغالية الرافضة الذين يقولون: إنه حلَّ بعلي بن أبي طالب، وأئمة أهل بيته، وغالية النُسَّاك الذين يقولون بالحلول في الأولياء، ومن يعتقدون فيه الولاية أو في بعضهم، كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء.

**والثاني**: هو الاتحاد الخاص: وهو قول يعقوبية النصارى، وهم أخبث قولاً، وهم السودان والقبط، يقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء، وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام.

**والثالث**: هو الحلول العام: وهو قول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، ويتمسكون بمتشابه من القرآن كقوله {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} [الأنعام ٣] وقوله {وَهُوَ مَعَكُمْ} [الحديد ٤] والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة، وأهل المعرفة وعلماء الحديث.

**الرابع**: الاتحاد العام: وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين:

من جهة أن أولئك قالوا: إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين، وهؤلاء يقولون: مازال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره.

والثاني من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظَّموه كالمسيح، وهؤلاء جعلوا ذلك ساريا في الكلاب والخنازير والأقذار والأوساخ، وإذا كان الله - تعالى - قد قال {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} الآية، فكيف بمن قال: إن الله هو الكفار، والمنافقون، والصبيان، والمجانين، والأنجاس، والأنتان، وكل

=

=

شيء؟! " ا.هـ.

وأما عن الحلولية، فقد قال الأشعري في مقالات الإسلاميين (ص ٢٨٨-٢٨٩): "وفي الأمة قوم ينتحلون النسك، يزعمون أنه جائز على الله – تعالى – الحلول في الأجسام، وإذا رأوا شيئا يستحسنونه قالوا: لا ندري، لعله، ربنا.

ومنهم من يقول: إنه يرى الله في الدنيا على قدر الأعمال، فمن كان عمله أحسن رأى معبوده أحسن.

ومنهم من يجوِّز على الله – تعالى – المعانقة والملامسة والمجالسة في الدنيا، وجوّزوا مع ذلك على الله – تعالى الله عن قولهم – أن نلمسه.

ومنهم من يزعم أن الله – سبحانه – ذو أعضاء وجوارح وأبعاض: لحم ودم على صورة الإنسان له ما للإنسان من الجوارح – تعالى ربنا عن قولهم علوا كبيرا.

وكان في الصوفية رجل يُعرف بأبي شعيب يزعم أن الله يسر ويفرح بطاعة أوليائه، ويغتم ويحزن إذا عَصَوْهُ.

وفي النسَّاك قوم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى منزلة تزول عنهم العبادات، وتكون الأشياء المحظورات على غيرهم – من الزنا وغيره – مباحات لهم. وفيهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم أن يروا الله، ويأكلوا من ثمار الجنة، ويعانقوا الحور العين في الدنيا، ويحاربوا الشياطين، ومنهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم إلى أن يكونوا أفضل من النبيين والملائكة المقربين" ا.هـ.

وعلق شيخ الإسلام على كلام الأشعري بعد أن أورده في منهاج السنة (٢/ ٦٢٢-٦٢٥) بقوله: "قلت: هذه المقالات التي حكاها الأشعري – وذكروا أعظم منها – موجودة في الناس قبل هذا الزمان، وفي هذا الزمان منهم من يقول بحلوله في الصور الجميلة، ويقول: إنه بمشاهدة الأمرد يشاهد معبوده، أو صفات معبوده، أو مظاهر جماله، ومن هؤلاء من يسجد للأمرد. ثم من هؤلاء من يقول بالحلول

=

=

والاتحاد العام، لكنه يتعبد بمظاهر الجمال، لما في ذلك من اللذة له، فيتخذ إلهه هواه، وهذا موجود في كثير من المنتسبين إلى الفقر والتصوف. ومنهم من يقول: إنه يرى الله مطلقًا ولا يعيِّن الصورة الجميلة، بل يقولون إنهم يرونه في صور مختلفة. ومنهم من يقول: إن المواضع المخضرَّة خطا عليها، وإنما اخضرت من وطئه عليها، وفي ذلك حكايات متعددة يطول وصفها. وأما القول بالإباحة وحل المحرمات - أو بعضها - للكاملين في العلم والعبادة فهذا أكثر من الأول، فإن هذا قول أئمة الباطنية القرامطة الإسماعيلية، وغير الإسماعيلية، وكثير من الفلاسفة، ولهذا يُضرب بهم المثل فيقال: فلان يستحل دمي، كاستحلال الفلاسفة محظورات الشرائع، وقول كثير ممن ينتسب إلى التصوف والكلام، وكذلك من يفضل نفسه أو متبوعه على الأنبياء، موجود كثير في الباطنية والفلاسفة وغلاة المتصوفة وغيرهم، وبسط الكلام على هذا له موضع آخر. ففي الجملة هذه مقالات منكرة باتفاق علماء السنة والجماعة، وهي - وأشنع منها - موجودة في الشيعة.

وكثير من النسَّاك يظنون أنهم يرون الله في الدنيا بأعينهم، وسبب ذلك أنه يحصل لأحدهم في قلبه بسبب ذكر الله - تعالى - وعبادته من الأنوار ما يغيب به عن حسه الظاهر، حتى يظن أن ذلك شيء يراه بعينه الظاهرة، وإنما هو موجود في قلبه.

ومن هؤلاء من تخاطبه تلك الصورة التي يراها خطاب الربوبية ويخاطبها أيضًا بذلك، ويظن أن ذلك كله موجود في الخارج عنه، وإنما هو موجود في نفسه، كما يحصل للنائم إذا رأى ربه في صورة بحسب حاله. فهذه الأمور تقع كثيرًا في زماننا وقبله، ويقع الغلط منهم حيث يظنون أن ذلك موجود في الخارج.

وكثير من هؤلاء يتمثل له الشيطان، ويرى نورًا أو عرشا أو نورًا على العرش، ويقول: أنا ربك. ومنهم من يقول: أنا نبيك، وهذا قد وقع لغير واحد.

=

=

ومن هؤلاء من تخاطبه الهواتف بخطاب على لسان الإلهية أو غير ذلك، ويكون المخاطب له جنيًّا، كما قد وقع لغير واحد. لكن بسط الكلام على ما يُرى ويُسمع وما هو في النفس والخارج، وتمييز حقه من باطله ليس هذا موضعه، وقد تكلمنا عليه في غير هذا الموضع.

وكثير من الجهَّال أهل الحال وغيرهم يقولون: إنهم يرون الله عيانًا في الدنيا، وأنه يخطو خطوات" ا.هـ.

وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٢٢٩-٢٣٠): "ومن ظنَّ من القوم أن كشف العين ظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة فقد غلط أقبح الغلط. وأحسن أحواله: أن يكون صادقًا ملبوسًا عليه. فإن هذا لم يقع في الدنيا لبشر قط، وقد منع منه كليم الرحمن ﷺ.

وقد اختلف السلف والخلف: هل حصل هذا لسيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه؟ فالأكثرون على أنه لم ير الله سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا من الصحابة. فمن ادعى كشف العيان البصري عن الحقيقة الإلهية فقد وهم وأخطأ، وإن قال: إنما هو كشف العيان القلبي، بحيث يصير الرب سبحانه كأنه مرئي للعبد، كما قال النبي ﷺ "أن تعبد الله كأنك تراه" فهذا حق، وهو قوة يقين، ومزيد علم فقط.

نعم، قد يظهر له نور عظيم، فيتوهم أن ذلك نور الحقيقة الإلهية، وأنها قد تجلت له، وذلك غلط أيضًا، فإن نور الرب - تعالى - لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء ساخ وتدكدك، وقال ابن عباس في قوله تعالى {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} قال: "ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى به لم يقم له شيء".

وهذا النور الذي يظهر للصادق: هو نور الإيمان الذي أخبر الله عنه في قوله {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ} قال أبي بن كعب: "مثل نوره في قلب

=

=

المؤمن" فهذا نور يضاف إلى الرب، ويقال هو نور الله كما أضافه الله - سبحانه - إلى نفسه، والمراد: نور الإيمان الذي جعله الله له خلقًا وتكوينًا كما قال تعالى {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} فهذا النور إذا تمكن من القلب، وأشرق فيه: فاض على الجوارح. فيرى أثره في الوجه والعين، ويظهر في القول والعمل. وقد يقوى حتى يشاهده صاحبه عيانًا؛ وذلك لاستيلاء أحكام القلب عليه، وغيبة أحكام النفس. والعين شديدة الارتباط بالقلب تظهر ما فيه، فتقوى مادة النور في القلب ويغيب صاحبه بما في قلبه عن أحكام حسه. بل وعن أحكام العلم فينتقل من أحكام العلم إلى أحكام العيان.

وسر المسألة: أن أحكام الطبيعة والنفس شيء، وأحكام القلب شيء، وأحكام الروح شيء، وأنوار العبادات شيء، وأنوار استيلاء معاني الصفات والأسماء على القلب شيء، وأنوار الذات المقدسة شيء وراء ذلك كله.

فهذا الباب يغلط فيه رجلان، أحدهما: غليظ الحجاب، كثيف الطبع والآخر: قليل العلم، يلتبس ما في ذهنه بما في الخارج، ونور المعاملات بنور رب الأرض والسموات {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} "ا.هـ.

وقال أيضًا في المصدر السابق (٣/ ٢٤٩): "والرب - تبارك وتعالى - وراء ذلك كله، منزه مقدس عن اطلاع البشر على ذاته، أو أنوار ذاته، أو صفاته، أو أنوار صفاته. وإنما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة والجنة والنار، وما أعد الله لأهلهما" ا.هـ.

وقال أيضًا في نفس المصدر (٣/ ٣٨٢-٣٨٣): "فإن نور الجلال في القلب ليس هو نور ذي الجلال في الخارج. فإن ذلك لا تقوم له السموات والأرض؛ ولو ظهر للوجود لتدكدك، لكنه شاهد دال على ذلك، كما أن المثل الأعلى شاهد دال على الذات. والحق وراء ذلك كله، منزه عن حلول واتحاد، وممازجة لخلقه؛ وإنما

=

=

تلك رقائق وشواهد تقوم بقلب العارف، تدل على قرب الألطاف منه في عالم الغيب حيث يراها، وإذا فني فإنما يفنى بحال نفسه لا بالله ولا فيه، وإذا بقي فإنما يبقى بحاله هو ووصفه، لا ببقاء ربه وصفاته، ولا يبقى بالله إلا الله، ومع ذلك فالوصول حق يجد الواصل آثار تجلي الصفات في قلبه، وآثار تجلي الحق في قلبه. ويوقف القلب فوق الأكوان كلها بين يدي الرب - تعالى - وهو على عرشه، ومن يكاشف بآثار الجلال والإكرام فيجد العرش والكرسي تحت مشهد قلبه حكما، وليس الذي يجده تحت قلبه حقيقة العرش والكرسي بل شاهد ومثال علمي يدل على قرب قلبه من ربه، وقرب ربه من قلبه، وبين الذوقين تفاوت فإذا قرب الرب - تعالى - من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت مشهد قلبه، وحينئذ يطلع في أفقه شمس التوحيد فينقشع بها ضباب وجوده ويضمحل ويتلاشى، وذاته وحقيقته موجودة بائنة عن ربه، وربه بائن عنه، فحينئذ يغيب العبد عن نفسه ويفنى، وفي الحقيقة هو باق غير فان، ولكنه ليس في سره غير الله قد فني فيه عن كل ما سواه.

نعم، قد يتفق له في هذه الحالة أن لا يجد شيئا غير الله؛ فذلك لاستغراق قلبه في مشهوده وموجوده، ولو كان ذلك في نفس الأمر لكان العبد في هذه الحال خلقا بارئا مصورا أزليا أبديا.

فعليك بهذا الفرقان، واحذر فريقين هما أعدى عدو لهذا الشأن فريق الجهمية المعطلة التي ليس عندها فوق العرش إلا العدم المحض، فشَمُّ رائحة هذا المقام من أبعد الأمكنة حرام عليها، وفريق أهل الاتحاد القائلين بوحدة الوجود وأن العبد ينتهي في هذا السفر إلى أن يشهد وجوده هو عين وجود الحق جل جلاله، وعيشك بجهلك خير من معرفة هاتين الطائفتين، وانقطاعك مع الشهوات خير من أن تكون معهما! والله المستعان وعليه التكلان" ا.هـ.

الطائفة الثالثة: من نفى الرؤية العيانية في الدنيا، وأثبتها في الآخرة وذلك في

=

=

عرصات يوم القيامة، وفي الجنة، وهذا قول أهل السنة والجماعة.

قال الإمام البربهاري في شرح السنة (ص٨٤): "ومن زعم أنه يرى ربه في دار الدنيا؛ فهو كافر بالله ﷻ" ا.هـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٩-٣٩٠): "وكذلك كل من ادعى أنه رأى ربه بعينه قبل الموت فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة، لأنهم اتفقوا جميعًا على أن أحدًا من المؤمنين لا يرى ربه بعيني رأسه حتى يموت. وثبت ذلك في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ، أنه لما ذكر الدجال قال: "واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت".

كذلك روي هذا عن النبي ﷺ من وجوه أخر، يحذر أمته فتنة الدجال، بين لهم أن أحدًا منهم لن يرى ربه حتى يموت، فلا يظن أحد أن هذا الدجال الذي رآه هو ربه.

ولكن الذي يقع لأهل حقائق الإيمان من المعرفة بالله ويقين القلوب ومشاهدتها وتجليتها هو على مراتب كثيرة، قال النبي ﷺ لما سأله جبريل - عليه السلام - عن الإحسان قال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"٣.

وقد يحصل لبعض الناس في اليقظة - أيضـًا - من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم في المنام، فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم. وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه، فهذا كله يقع في الدنيا.

وربما غلب أحدهم ما يشهده قلبه وتجمعه حواسه فيظن أنه رأى ذلك بعيني رأسه، حتى يستيقظ فيعلم أنه منام، وربما علم في المنام أنه منام.

فهكذا من العباد من يحصل له مشاهدة قلبية تغلب عليه حتى تفنيه عن الشعور بحواسه، فيظنها رؤية بعينه وهو غلط في ذلك، وكل من قال من العباد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأى ربه بعيني رأسه فهو غالط في ذلك بإجماع أهل العلم

=

=

والإيمان.

نعم، رؤية الله بالأبصار هي للمؤمنين في الجنة، وهي أيضًا للناس في عرصات القيامة، كما تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ حيث قال: "إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر صحوًا ليس دونه سحاب"... ا.هـ

وقال في المصدر السابق (٣/ ٣٩١-٣٩٣): وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح، وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول، واتفق عليها أهل السنة والجماعة، وإنما يكذب بها أو يحرفها الجهمية ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم من الذين يكذبون بصفات الله - تعالى - وبرؤيته وغير ذلك، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة.

ودين الله وسط بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسول الله ﷺ في الآخرة، وبين تصديق الغالية، بأنه يرى بالعيون في الدنيا، وكلاهما باطل.

وهؤلاء الذين يزعم أحدهم أنه يراه بعيني رأسه في الدنيا هم ضلال كما تقدم، فإن ضموا إلى ذلك أنهم يرونه في بعض الأشخاص، إما بعض الصالحين، أو بعض المردان، أو بعض الملوك أو غيرهم، عظم ضلالهم وكفرهم، وكانوا حينئذ أضل من النصارى الذين يزعمون أنهم رأوه في صورة عيسى بن مريم.

بل هم أضل من أتباع الدجال الذي يكون في آخر الزمان، ويقول للناس أنا ربكم.

فهذا - أي الدجال - ادعى الربوبية وأتى بشبهات فتن بها الخلق، حتى قال فيه النبي ﷺ: "إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت"، فذكر لهم علامتان ظاهرتين يعرفهما جميع الناس، لعلمه ﷺ بأن من الناس من يضل فيُجَوِّز أن يرى ربه في الدنيا في صورة البشر، كهؤلاء الضلال الذين يعتقدون ذلك، وهؤلاء قد يسمون (الحلولية) و (الاتحادية).... فهؤلاء

=

=

الضلال الكفار الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينه، وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه، وربما يعين أحدهم آدميًا إما شخصًا، أو صبيًا، أو غير ذلك، ويزعم أنه كلمهم. يستتابون، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم وكانوا كفارًا، إذ هم أكفر من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، فإن المسيح رسول كريم وجيه عند الله في الدنيا والآخرة ومن المقربين، فإذا كان الذين قالوا: إنه هو الله، وإنه اتحد به أو حل فيه قد كفرهم وعظم كفرهم، بل الذين قالوا أنه اتخذ ولدًا حتى قال {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أن أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً} [مريم ٨٨-٩٣]، فكيف بمن يزعم في شخص من الأشخاص أنه هو؟ هذا أكفر من الغالية الذين يزعمون أن عليًا - رضي الله عنه -، أو غيره من أهل البيت هو الله، وهؤلاء هم الزنادقة الذين حرقهم علي - رضي الله عنه - بالنار، وأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كنده، وقذفهم فيها بعد أن أجلهم ثلاثًا ليتوبوا، فلما لم يتوبوا أحرقهم بالنار، واتفقت الصحابة - رضي الله عنهم - على قتلهم، لكن ابن عباس - رضي الله عنهما - كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق، وهو قول أكثر العلماء، وقصتهم معروفة عند العلماء".

مسألة: قال السيوطي في رسالة تحفة الجلساء برؤية الله للنساء ضمن كتابه الحاوي (٢/ ١٨٨): مسألة: رؤية الله تعالى يوم القيامة في الموقف حاصلة لكل أحد الرجال، والنساء بلا نزاع، وذهب قوم من أهل السنة إلى أنها تحصل فيه للمنافقين أيضًا، وذهب آخرون منهم إلى أنها تحصل للكافرين أيضًا ثم يحجبون بعد ذلك ليكون عليهم حسرة، وله شاهد رويناه عن الحسن البصري، وأما الرؤية في الجنة فأجمع أهل السنة أنها حاصلة للأنبياء، والرسل، والصديقين من كل أمة ورجال

=

=

المؤمنين من البشر من هذه الأمة، واختلف بعد ذلك في صور:

إحداها النساء: من هذه الأمة وفيهن ثلاثة مذاهب للعلماء حكاها جماعة منهم الحافظ عماد الدين بن كثير في أواخر تاريخه: أحدهما أنهن لا يرين لأنهن مقصورات في الخيام ولأنه لم يرد في أحاديث الرؤية تصريح برؤيتهن. والثاني أنهن يرين أخذاً من عمومات النصوص الواردة في الرؤية. والثالث أنهن يرين في مثل أيام الأعياد فإنه تعالى يتجلى في مثل أيام الأعياد لأهل الجنة تجلياً عاماً فيرينه في مثل هذه الحال دون غيرها، قال ابن كثير: وهذا القول يحتاج إلى دليل خاص عليه، وقال الحافظ ابن رجب في اللطائف: كل يوم كان للمسلمين عيداً في الدنيا فإنه عيد لهم في الجنة يجتمعون فيه على زيارة ربهم ويتجلى لهم فيه ويوم الجمعة يدعى في الجنة يوم المزيد ويوم الفطر، والأضحى يجتمع أهل الجنة فيهما للزيارة، وروي أنه يشارك النساء الرجال فيهما كما كنّ يشهدن العيدين مع الرجال دون الجمعة هذا لعموم أهل الجنة فأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم كل يوم بكرة وعشياً انتهى....

الثانية: الملائكة: فذهب الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى أنهم لا يرون ربهم لأنهم لم يثبت لهم ذلك كما ثبت للمؤمنين من البشر وقد قال تعالى: ( لا تدركه الأبصار ) خرج منه مؤمنو البشر بالأدلة الثابتة فبقي على عمومه في الملائكة، ولأن للبشر طاعات لم يثبت مثلها للملائكة كالجهاد، والصبر على البلايا، والمحن، والرزايا، وتحمل المشاق في العبادات لأجل الله، وقد ثبت أنهم يرون ربهم ويسلم عليهم ويبشرهم بإحلال رضوانه عليهم أبداً ولم يثبت مثل هذا للملائكة انتهى؛ وقد نقله عنه جمع من المتأخرين ولم يتعقبوه بنكير، منهم الإمام بدر الدين الشبلي صاحب آكام المرجان في أحكام الجان، والعلامة عز الدين بن جماعة في شرح جمع الجوامع ولكن الأقوى أنهم يرونه فقد نص على ذلك أبو

=

=

الحسن الأشعري فقال في كتابه الإبانة في أصول الديانة ومنه نقلت ما نصه: أفضل لذات الجنة رؤية الله تعالى ثم رؤية نبيه ﷺ فلذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين، وملائكته المقربين، وجماعة المؤمنين، والصديقين النظر إلى وجهه ﷻ انتهى، وقد تابعه على ذلك الإمام الحافظ البيهقي قال في كتاب الرؤية باب ما جاء في رؤية الملائكة ربهم.... وممن قال برؤية الملائكة من المتأخرين العلامة شمس الدين بن القيم، وقاضي القضاة جلال الدين البلقيني وهو الأرجح بلا شك، ومنهم من قال إن جبريل عليه السلام يراه دون سائر الملائكة لأنه وقف على الحديث الذي ورد فيه رؤيته ولم يقف على الحديثين السابقين في رؤية الملائكة على العموم ومشى عليه أبو إسحاق إسماعيل الصفار البخاري من الحنفية فإني رأيت في أسئلته المشهورة ما نصه سئل عن الملائكة هل يرون ربهم ؟ فأجاب اعتماد والدي الشهيد أنهم لا يرون ربهم سوى جبريل فإنه يرى ربه مرة واحدة ولا يرى أبداً انتهى، والصواب العموم...

الثالثة: الجن وقد نقل صاحب آكام المرجان مقالة الشيخ عز الدين في الملائكة ثم قال: والجن أولى بالمنع منهم، وقال الجلال البلقيني لم أقف على كلام أحد من العلماء تعرض لهذه المسألة ولم تثبت الرؤية إلا للبشر، ثم نقل كلام الشيخ عز الدين في أن الملائكة لا يرون ثم قال: وإذا كان ذلك في الملائكة ففي الجن بطريق الأولى ثم قال: وقد يتوقف في الأولوية لأن الإيمان في عرف الشرع يشمل مؤمني الثقلين، ثم قرر ثبوت الرؤية للملائكة ثم قال: وعلى مقتضى استدلال الأئمة، والأشعري تثبت الرؤية لمؤمني الجن.

وقال ابن حجر الهيتمي كما في الفتاوى الحديثية (ص٥٢): وذهب بعض الحنفية أنهم لا يرون الله وإليه يميل كلام ابن عبد السلام لأنه صرح بمنع الرؤية للملائكة ووافقه جماعة من الحنفية، لكن الأرجح أن الملائكة يرونه كما نص عليه الشيخ

=

=

أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة في أصول الديانة، وتابعه الإمام البيهقي وغيره كابن القيم والحداد والجلال البلقيني. قال الجلال: وكذلك الجن يرونه لعموم الأدلة، ومر في الأحاديث المتعلقة بالملائكة التصريح في حديث البيهقي وأبي الشيخ والخطيب وابن عساكر بأن الملائكة يرون ربهم، ولعل ابن عبد السلام لم يطلع عليه وإلا لم يخالفه.

الرابعة: مؤمنو الأمم السابقة: وفيهم احتمالان لابن أبي جمرة وقال: إن الأظهر مساواتهم لهذه الأمة في الرؤية والله أعلم ا.هـ بتصرف.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ١٣٧): اختلف أهل السنة في رؤية الله - ﷻ - في الموقف: هل هي للمؤمنين وحدهم، أم للمؤمنين والمنافقين، - أم للناس جميعا، على ثلاثة أقوال.

وكل الأقوال في مذهب أهل السنة - يعني قال بها طائفة -.

وكما قال الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: إنَّ الخلاف في هذه المسألة -يعني هل يرى الكفار ربهم يوم القيامة أو لا يرونه؟ هل يراه المنافقون أو لا يرونه؟ - لا ينبغي أن تكون من المسائل التي يُشَدَّدُ فيها الخلاف؛ بل الأمر فيها خَفِي، هذا نص عبارته. والمذاهب فيها كما ذكرت لكم ثلاثة:

- فجمهور أهل السنة والحديث على أنَّ الرؤية للمؤمنين في عرصات القيامة.
- وقال طائفة للمؤمنين والمنافقين، وممن ذهب إلى ذلك ابن خزيمة كما نصَّ عليه في كتاب التوحيد
- القول الثالث: أنَّ الرؤية للجميع، للمؤمنين والمنافقين والكفار.

واستدلوا على ذلك بأنَّ الكافر يُحْجَبْ {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥]، قالوا: فكونه حُجِبَ يومئذ دلَّ على أنَّه قبل ذلك لم يكن محجوباً؛ لأنَّ الكلام في الآخرة، وأما في الدنيا فالكل محجوب عن رؤية الرب

=

=

عَجَّلَكَ.

وهذه الأقوال جَمَعَتْ النظر في الرؤية.

ويبقى أنَّ رؤية الرب - عَجَّلَكَ - نوعان:

١ - النوع الأول: رؤية إكرام ولذة ونعيم وإنعام وحبور وسرور، فهذه للمؤمنين في الجنة وللمؤمنين في عرصات القيامة، فهي من الطمأنينة لهم.

٢ - والنوع الثاني رؤية حساب وتقرير وتعريف، فهذه هي التي يمكن أن يقال: إنها مرادة في حديث المنافقين فيما ثبت في الصحيح (أنَّ الله - عَجَّلَكَ - يأتي الأمة وفيه منافقوها، ثم يأتيهم في غير الصورة التي رأوها من قبل، ثم يأمرهم بالسجود فلا يسجدون، فيقولون نحن هنا حتى يأتي ربنا، ثم بعد ذلك يكشف الرب عن ساق، فيعرفونه فيسجد المؤمنون، ويبقى من لم يكن مخلصا في الدنيا يريد أن يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا) فهذا يدل على أنّ هذه الرؤية رؤية تعريف ورؤية حساب وهذا النوع من الرؤية لا ينبغي أن يكون الخلاف فيه؛ لأنَّ الحديث دل عليه.

فإذاً الرؤية التي نقول: إنه أجمع أهل السنة على أنها للمؤمنين هي رؤية التنعم والتلذذ، وفي ضمن ذلك رؤية التعريف.

وأما رؤية الله - عَجَّلَكَ - للتعريف والحساب فهذه كُلٌ يراه بحسب حاله والله أعلم بكيفية ذلك وتفسيره.

أما الكفار فعامة أهل العلم إلا من شذَّ وقلَّ يقولون إنَّ الكافر لا يرى الله - عَجَّلَكَ - لا رؤية تعريف ولا رؤية تلذذ من باب أولى؛ لأنَّ الكافر محل العذاب والنكال، وأجابوا عن استدلالهم بقوله تعالى {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥]، بأَّن هذا استدلال بالمفهوم، بمفهوم (يَوْمَئِذٍ)، (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) وهم محجوبون في الدنيا عن الرؤية وكذلك محجوبون في الآخرة عن الرؤية.

=

=

وكلمة (يَوْمَئِذٍ)، ليس لها مفهوم كما قال - ﷻ - {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة:١٧]، وكما في قوله {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ} [التكاثر:٨]، وفي آيات كثيرة عُلِّقَتْ أشياء تحصل يوم القيامة بـ (يَوْمَئِذٍ)، وقد يكون جنسها أو بعض أفرادها يحصل في الدنيا إما بالعموم أو بالخصوص.

المقصود من رد الاستدلال أنه كلمة (يَوْمَئِذٍ) ليس لها مفهوم، لا نفهم منه أنهم حُجِبُوا يومئذ فمعنى ذلك أنهم قبل ذلك يعني قبل الحجب يومئذ لم يكونوا محجوبين، بل كانوا محجوبين ثم صاروا محجوبين لكن توعَّدَهُم بين حالهم بقوله (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الجَحِيم)، فحُجِبوا ثم صاروا صالين للجحيم.

مسألة: قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ١٤٥): أنَّ رؤية المؤمنين في الجنة لربهم - ﷻ - عامة بالإنس والجن، للرجال وللنساء، وللملائكة أيضًا، {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٣ - ٢٤]، فالملائكة في الجنة يعني طائفة منهم في الجنة، وفي الجنة المؤمنون من الجن والإنس ومن الرجال والنساء، ولم يدلَّ دليل على اختصاص الرؤية بالرجال دون النساء ولا على اختصاص الرؤية بالإنس دون الجن، وهذه فيها أقوال:

١ - القول الأول: من قال: إنَّ الرؤية للإنس دون الجن، وهذا خلاف الصواب كما ذكرنا؛ لأنَّ الآيات عامة في الرؤية في كل مؤمن فمن دخل الجنة رآه.

٢ - القول الثاني: إنَّ الرؤية للرجال دون النساء، واستدلوا على ذلك بقوله - ﷻ - {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [الرحمن:٧٢] وأنَّ القصر في الخيام يدل على عدم خروجهن من ذلك.

والصواب أنَّ الرجال والنساء من المكلفين من الجن والإنس يرون ربهم - ﷻ -

=

=

إذ كانوا من أهل الجنة. وأمَّا الاستدلال بالآية فعجيب لأنَّ:

أولاً: الآيـة أولاً في الحـور، والحـور خلـق ينـشؤهن الله – ﷻ – إنـشاءً في الجنـة وليسوا من المكلفين في الدنيا.

ثانيـًا: أنَّ الله – ﷻ – قـال {هُـمْ وَأَزْوَاجُهُـمْ فِـي ظِـلَالٍ عَلَـى الْأَرَائِـكِ مُتَّكِئُـونَ} [يس:٥٦] وقال – ﷻ – في الآيـة الأخـرى {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}، فمـن نعيم أهل الجنة أنهم يتمتعون هم وأزواجهم على الأرائك فيتكئون وينظرون، وإخـراج النساء من الاتكاء ضده الآية وكذلك إخراجهم من النظر ضده الآية.

لهذا نقول غلط من قال إنَّ الرؤية للرجال دون النساء، فالنساء يرون ربهـم – ﷻ – كما يراه الرجال؛ لأنهم مكلفون متعبدون، والنعيم عام للإنسان الذي يدخل الجنة من الرجال والنساء جميعـًا، نسأل الله الكريم من فضله.

مسألة: رؤية الله في المنام.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وآخرون أنه يمكـن أنـه يـرى الإنسان ربـه في المنـام، ولكـن يكـون مـا رآه لـيس هـو الحقيقـة؛ لأن الله لا يـشبهه شـيء سـبحانه وتعالى، قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى / ١١ فلـيس يشبهه شيء من مخلوقاته، لكن قـد يـرى في النـوم أنـه يكلمـه ربـه، ومهمـا رأى مـن الصور فليست هي الله جل وعلا؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، فلا شبيه له ولا كفو له.

وذكر الشيخ تقي الدين رحمه الله في هذا أن الأحـوال تختلـف بحسب حـال العبـد الرائي، وكل ما كان الرائي من أصلح الناس وأقربهم إلى الخير كانت رؤيتـه أقـرب إلى الصواب والصحة، لكن على غير الكيفية التي يراها، أو الصفة التي يراها؛ لأن الأصل الأصيل أن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، وقد روي عن النبي ﷺ أنـه رأى ربه في المنام من حديث معاذ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه رأى ربـه، وجـاء في عـدة

=

=

طرق أنه رأى ربه، وأنه سبحانه وتعالى وضع يده بين كتفيه حتى وجد بردها بين ثدييه، وقد ألف في ذلك الحافظ ابن رجب رسالة سماها: " اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى " وهذا يدل على أن الأنبياء قد يرون ربهم في النوم، فأما رؤية الرب في الدنيا بالعيان فلا.

قال سعيد بن عثمان الدارمي في نقضه على المريسي (ص٧٣٨ - ٧٣٩) وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، وفي المنام يمكن رؤية الله تعالى على كل حال وفي كل صورة ا.هـ

وقال البغوي في شرح السنة (١٢/ ٢٢٧ - ٢٢٨): رؤية الله في المنام جائزة، قال معاذ عن النبي ﷺ:" إني نعست فرأيت ربي ا.هـ

وقال أبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات (١/ ١٢٧): في الحديث جواز رؤيته سبحانه في المنام، وذا غير ممتنع في حقه ﷺ أو في حق غيره من المؤمنين ا.هـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٢٥ - ٣٢٨): لفظ الرؤية وإن كان في الأصل مطابقاً فقد لا يكون مطابقاً كما في قوله: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا} وقال: {يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَايَ الْعَيْنِ} وقد يكون التوهم والتخيل مطابقا من وجه دون وجه فهو حق في مرتبته وإن لم يكن مماثلا للحقيقة الخارجة مثل ما يراه الناس في منامهم وقد يرى في اليقظة من جنس ما يراه في منامه فإنه يرى صوراً وأفعالاً ويسمع أقوالا وتلك أمثال مضروبة لحقائق خارجية كما رأى يوسف سجود الكواكب والشمس والقمر له فلا ريب أن هذا تمثله وتصوره في نفسه وكانت حقيقته سجود أبويه وأخوته كما قال: {يَا أَبَتِ هَذَا تَاوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} وكذلك رؤيا الملك التي عبرها يوسف حيث رأى السنبل بل والبقر فتلك رآها متخيلة متمثلة في نفسه وكانت حقيقتها وتأويلها من الخصب والجدب فهذا التمثل والتخيل حق وصدق في مرتبته بمعنى أن له تأويلاً

=

=

صحيحـًا يكون مناسبـًا له ومشابهـًا له مـن بعـض الوجـوه فإن تأويـل الرؤيـا مبناهـا على القياس والاعتبار والمشابهة والمناسبة ولكن مـن اعتقـد أن مـا تمثـل في نفسه وتخيل من الرؤيا هو مماثل لنفس الموجود في الخارج وأن تلك الأمور هي بعينها رآها فهو مبطل، مثل من يعتقد أن نفس الشمس التي في السماء والقمر والكواكب انفصلت عن أماكنها وسجدت ليوسف وأن بقراً موجودة في الخارج سبعـًا سـمانـًا أكلت سبعـًا عجافـًا فهذا باطـل، وإذا كـان كـذلك فالإنـسان قـد يـرى ربـه في المنـام ويخاطبـه فهـذا حـق في الرؤيـا ولا يجـوز أن يعتقـد أن الله في نفـسه مثـل مـا رأى في المنام فإن سائر ما يرى في المنـام لا يجـب أن يكـون ممـاثلا ولكـن لا بـد أن تكـون الصورة التـي رآه فيهـا مناسـبة ومـشابهة لاعتقـاده في ربـه فـإن كـان إيمانـه واعتقـاده مطابقا أتي من الصور وسـمع مـن الكـلام مـا ينـاسـب ذلـك وإلا كـان بـالعكس قـال بعض المشايخ: إذا رأى العبد ربه في صورة كانت تلـك الـصورة حجابـا بينـه وبـين الله وما زال الصالحون وغيرهم يـرون ربهـم في المنـام ويخـاطبهم ومـا أظـن عـاقلا ينكر ذلك فإن وجود هذا مما لا يمكـن دفعـه إذ الرؤيـا تقـع للإنـسان بغيـر اختيـاره وهذه مسألة معروفـة وقـد ذكرهـا العلمـاء مـن أصـحابنا وغيـرهم في أصـول الـدين وحكوا عن طائفة من المعتزلة وغيرهم إنكار رؤية الله والنقـل بـذلك متـواتر عمـن رأى ربـه في المنـام ولكـن لعلهـم قـالوا لا يجـوز أن يعتقـد أنـه رأى ربـه في المنـام فيكونـون قـد جعلـوا مثـل هـذا مـن أضـغاث الأحـلام ويكونـون مـن فـرط سـلبهم ونفيهم نفوا أن تكون رؤية الله في المنام رؤية صحيحة كسائر ما يرى في المنام فهذا مما يقوله المتجهمة وهو باطل مخالف لما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها بل ولمـا اتفق عليه عامة عقلاء بني آدم وليس في رؤية الله في المنام نقص ولا عيب يتعلق بـه سبحانه وتعالى وإنما ذلك بحسب حـال الرائـي وصـحة إيمانـه وفـساده واسـتقامة حاله وانحرافه.

=

=

وقول من يقول ما خطر بالبال أو دار في الخيال فالله بخلافه ونحو ذلك إذا حمل على مثل هذا كان محملاً صحيحاً فلا نعتقد أن ما تخيله الإنسان في منامه أو يقظته من الصور أن الله في نفسه مثل ذلك فإنه ليس هو في نفسه مثل ذلك بل نفس الجن والملائكة لا يتصورها الإنسان ويتخيلها على حقيقتها بل هي على خلاف ما يتخيله ويتصوره في منامه ويقظته وإن كان ما رآه مناسبا مشابها لها فالله تعالى أجل وأعظم. انتهى كلامه.

وقد أنكر أحمد على من نفى أحاديث رؤية الله في الدنيا مطلقًا؛ لأن من الجهمية طوائف يقولون: (إن الله لا يجوز أن يرى بالأبصار ولا بالقلوب أصلا، وطوائف يقولون: إنه لا يجوز أن يرى في المنام أيضًا، وهؤلاء يجحدون كل ما فيه إثبات أن محمدًا رأى ربه سواء كان بفؤاده أو في منامه أو غير ذلك، وهؤلاء جهمية ضلال باتفاق أهل السنة، ولهذا كان أحمد ينكر على هؤلاء لردهم ما في ذلك من الأخبار التي تلقاها العلماء بالقبول، وإذا كانوا يمنعون أن محمدًا رأى ربه بفؤاده أو في منامه فهم لرؤية غيره أجحد وأجحد، وقد ذكر العلماء من أصحابنا وغيرهم ذلك عن طوائف من الجهمية حتى إن المعتزلة من يقول يجوز أن يرى بالقلوب بمعنى العلم ومنهم من ينكر ذلك كما نقل ذلك الأشعري في المقالات فقال: اجتمعت المعتزلة على أن الله لا يرى بالأبصار، واختلفت هل يرى بالقلوب فقال أبو الهذيل وأكثر المعتزلة نرى الله بقلوبنا بمعنى أنا نعلمه بقلوبنا، وأنكر هشام الفوطي وعباد بن سليمان ذلك.

وقد سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه عن: ما حكم من يدعي أنه قد رأى رب العزة في المنام؟ وهل كما يزعم البعض أن الإمام أحمد بن حنبل قد رأى رب العزة والجلال في المنام أكثر من مائة مرة؟

فأجاب: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وآخرون أنه يمكن أنه يرى الإنسان

=

=

ربه في المنام، ولكن يكون ما رآه ليس هو الحقيقة؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى.... ا. هـ

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٧/ ٧٦٩): هل يمكن لأحد أن يرى ربه في المنام كما حصل ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، وهل يُسْتَأنَسُ بما أودعه ابن القيم في مدارج السالكين في هذا الباب؟

فأجاب: قضية الإمكان أخي ما دام الرؤيا هي ليست حقيقية إنما هي مثالية، فمن رأى الله في منامه ما رآه كما سيراه المؤمنون يوم القيامة وإن شاء الله نحن منهم، من رآه في المنام فلن يرى ذات الله على حقيقتها، ولذلك فالعقل واسع جداً، ممكن إنسان أن يرى الله لا سيما وقد نُقِلَ هذا عن الإمام أحمد وغيره، لكن هل رآه حقيقةً، نحن نستطيع أن نقول: إن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حينما رأى ربه في المنام في القصة المعروفة عنه ما رآه على حقيقته، وهو يقول: «إن أحدكم لن يرى ربه حتى يموت»، ولذلك فالمسألة فيها سعة، ولا يترتب من ورائها شيء ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح (٣٠/ ١٧): بالنسبة لرؤية الله ﷻ في المنام، هل يصح القول بأن الرؤية يمكن أن تقع لأي مؤمن من المؤمنين؟

فأجاب: رؤية الله تعالى في المنام في الدنيا -أما في الآخرة فليس هناك نوم- هذه جاءت في حديث اختصام الملأ الأعلى الذي أخرجه أهل السنن (أن النبي ﷺ رأى ربه في المنام) ورؤية الله لغير النبي ﷺ لا أعلم أنها ثابتة ولا أدري هل تقع أم لا؟ لكنه قد ذكر أن الإمام أحمد رحمه الله رأى ربه في المنام، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الإنسان قد يرى ربه في المنام، وذلك بأن الله سبحانه وتعالى يضرب له مثلاً بحسب تمسكه بالدين، يراه رؤية حسنة يكون في ذلك مساعدة له على التمسك بالدين والاستمرار على ما هو عليه، فالله أعلم. أنا أتوقف في أن

=

=

الإنسان يرى ربه في المنام رؤيةً حقيقة، أما إذا كان الله تعالى يضرب له مثلاً يبين له تمسكه بدينه فهذا شيءٌ ليس بغريب ا.هـ

وقال العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح أيضا: أما في المنام فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى ربه في المنام، لكن هل لغيره أن يراه؟ يُذكر أن الإمام أحمد رحمه الله رأى ربه، وذكر بعض العلماء أن ذلك ممكن، فالله أعلم. لا أدري. وأخشى إن فتح الباب تدخل علينا شيوخ الصوفية وغيرهم ويقول: البارحة رأيت ربي، وجلست أنا وإياه، وتنادمنا وتناقشنا، ثم يجيء من أهل الخزعبلات التي لا أصل لها، فأرى أن سد هذا الباب هو الأولى ا. هـ

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٨٦): هل يرى المؤمن ربه في المنام مع الدليل، وهل ثبت عن بعض السلف أنّهم رأوا ربّهم في المنام أم لا؟

فأجاب: ليس هناك ما يمنع، وقد جاء في حديث معاذ وحديث عبد الرحمن ابن عائش وابن عباس، وبعضهم يقول: إنّها ترتقي إلى الحجية، جاء فيها أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى ربه. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" عند تفسير قول الله ﷻ: {ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون} لأنه ذكر الحديث عنده، قال: هذه رؤيا منامية. فلا أعلم مانعًا من هذا، أي: أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى ربه في المنام، وهكذا نقل عن الإمام أحمد وعن غيره من علماء السلف أنّهم يرون الله في المنام. لكن لو رأى الإنسان ربه وأتى بشيء يخالف التشريع الإسلامي الموجود، فلا يقبل لأن الذي رآه يحتمل أن يكون رآه حقيقةً، وأن تكون وساوس نفس، كما جاء أن الرؤيا تنقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤيا من الله، وحلم من الشيطان، وحديث نفس. وزيادة على هذا أن النائم ليس بوعيه حتى يقبل ما رآه في منامه ا. هـ

(تنبيه) أكثر الحنفية ينكرون رؤية الله في المنام بل يحكم بعضهم بردة من يزعمها،

=

=

وهو مذهب ضعيف متعقب بما تقدم.

مسألة: ادعاء رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته.

لقد تجرأ بعض الصوفية في ادعاء خروج النبي ﷺ من قبره ورؤية مشايخ القوم له يقظة لا مناماً في الحياة الدنيا والتلقي منه، على اختلاف بينهم في كيفية هذه الرؤية كما سيأتي إن شاء الله بيانه ضمن هذا المبحث، فممن قال بذلك منهم:

ابن حجر الهيتمي في «الفتاوى الحديثية» (ص٢١٧) والسيوطي في «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي ﷺ والملك» ضمن «الحاوي للفتاوي» (٢/ ٢٥٥)، وأبو المواهب الشاذلي كما في «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ٦٩)، والشعراني كما في «الطبقات الصغرى» (ص٨٩)، وأحمد التيجاني وخلفاؤه كما في «رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم» (١/ ٢١٠)، ومن المتأخرين: خوجلي بن عبد الرحمن بن إبراهيم كما في «طبقات ابن ضيف الله» (ص١٩٠)، ومحمد بن علوي المالكي في «الذخائر المحمدية» (ص٢٥٩)، ومحمد فؤاد الفرشوطي في «القرب والتهاني في حضرة التداني شرح الصلوات المحمدية للسادة الصوفية» (ص٢٥)؛ وعلي الجفري الملقب بـ( زين العابدين ) !! فقد تحدث عن هذه المسألة في عدة مجالس مسجلة بصوته، وممن يقول بها كذلك مفتي مصر الحالي علي جمعة؛ بل قد زعم – علي جمعة – بأنه رأى النبي ﷺ يقظة!! وقوله هذا مسجل بصوته والله المستعان.

ونورد الآن بعض الحكايات التي يذكرونها إما في معرض الاحتجاج أو الاستشهاد أو الكرامات:

قال الشعراني في«الطبقات الكبرى» (٢/ ٦٩): (قال أبو المواهب الشاذلي:رأيت رسول الله ( فقال لي عن نفسه: لست بميت وإنما موتي تستري عمن لا يفقه عن الله؛ فها أنا أراه ويراني).

=

=

وقال أيضاً في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٦٧): (كان أبو المواهب كثير الرؤيا لرسول الله (، وكان يقول: قلت لرسول الله ( إن الناس يكذبوني في صحة رؤيتي لك، فقال رسول الله (: وعزة الله وعظمته من لم يؤمن بها أو كذبك فيها لا يموت إلا يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً. وهذا منقول من خط الشيخ أبي المواهب).

وقال أيضاً في المرجع السابق (٢/ ٧٠): (رأيت رسول الله ﷺ فسألته عن الحديث المشهور: «اذكروا الله حتى يقولوا مجنون». في «صحيح ابن حبان»: «أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون» فقال ﷺ: صدق ابن حبان في روايته وصدق راوي اذكروا الله، فإني قلتهما معاً، مرة قلت هذا ومرة قلت هذا).

ويزعم بعض تلامذة خوجلي بن عبد الرحمن: (أن شيخهم يرى النبي ﷺ كل يوم أربعة وعشرين مرة والرؤيا يقظة). ]«طبقات ابن ضيف الله» (ص١٩٠).

ويقول الشعراني: (وكان يقول- يعني أبا العباس المُرسي- لي أربعون سنة ما حُجبت عن رسول الله ﷺ، ولو حُجبت طرفة عين ما أعددت نفسي من جملة المسلمين).

هذا هو حال طائفة من الغلاة الذين عبدوا الله على جهل وغرور فتلاعب بهم الشيطان أيما تلاعب.

وطائفة أخرى لها حظ من العلم في بعضه دخن، يستعمل ما آتاه الله من علم في نصرة الباطل وأهله من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

لما سُئل ابن حجر الهيتمي: (هل يمكن الاجتماع بالنبي ﷺ يقظة والتلقي منه؟ فأجاب: نعم يمكن ذلك وصرح بأن ذلك من كرامات الأولياء الغزالي والبارزي والتاج السبكي والعفيف اليافعي من الشافعية، والقرطبي وابن أبي جمرة من المالكية. وحُكي عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه فروى ذلك الفقيه حديثاً فقال له الولي: هذا الحديث باطل، قال: ومن أين لك هذا؟ قال هذا النبي

=

ﷺ واقف على رأسك يقول: إني لم أقل هذا الحديث وكُشف للفقيه فرآه) ] «الفتاوى الحديثية» (ص٢١٧).

وأعجب من تلك الحكاية زيارة النبي ﷺ للسيوطي في بيته يقظة لا منامًا وقراءة السيوطي للأحاديث بين يدي النبي ﷺ وهو يسمع.

قال الشعراني في «الطبقات الصغرى» (ص٢٨-٢٩): (أخبرني الشيخ سليمان الخضيري قال: بينا أنا جالس في الخضيرية على باب الإمام الشافعي ( إذ رأيت جماعة عليهم بياض وعلى رؤوسهم غمامة من نور، يقصدوني من ناحية الجبل. فلما قربوا مني فإذا هو النبي ﷺ وأصحابه، فقبلت يده، فقال النبي ﷺ: امض معنا إلى الروضة. فذهبت مع النبي ﷺ إلى بيت الشيخ جلال الدين، فخرج إلى النبي ﷺ وقبل يده وسلم على أصحابه، ثم أدخله الدار، وجلس بين يديه. فصار الشيخ جلال الدين يسأل النبي ﷺ عن بعض الأحاديث وهو ﷺ يقول: هات يا شيخ السنة).

وقال الشعراني أيضًا في المرجع السابق (ص٣٠): (وكان - يعني السيوطي- يقول رأيت النبي ﷺ يقظة فقال لي يا شيخ الحديث. فقلت: يا رسول الله أمن أهل الجنة أنا؟ فقال: نعم. فقلت: من غير عذاب يسبق؟ فقال النبي ﷺ: لك ذلك).

ألا يعلم الهيتمي وهو على معرفة بعلوم الحديث، بل وله فتاوى حديثية في ذلك والسيوطي - والعهدة على الشعراني- وله ألفية في علوم الحديث وله عليها شرح كبير أن تلك الحكايات والادعاءات لا يجوز الاحتجاج ولا الاستشهاد بها في شيء من أمور الدين. بل هي باطلة ومن أبين الأدلة على بطلانها سؤال الولي والسيوطي للنبي ﷺ يقظة لا منامًا. فلو كان مثل هذا السؤال ممكنًا لما أفنى علماء الحديث أعمارهم في التمييز بين الصحيح والضعيف، ولكان تأليف الدواوين الضخمة في أحوال الرجال نوعًا من العبث وتضييعًا للأوقات،

=

ولاستغنوا عن ذلك بسؤاله ﷺ مباشرة عن صحة الأحاديث وضعفها كما فعل السيوطي شيخ السنة !!

بل ما كان للهيتمي وصنوه السبكي ومن نحا نحوهم أن يتكلفوا التأليف في مسائل الزيارة والاستغاثة بالنبي ﷺ ويسودوا صفحات كتبهم بالأحاديث الضعيفة والمنكرة، وكان الأولى لهم أن يسألوا النبي ﷺ عن المسائل التي نازعهم فيهم خصومهم كما فعل السيوطي شيخ السنة !!! أم أنه لا يوجد أولياء لله في ذلك الوقت؟! إنهم يعرفون ولكنهم قوم يُحرِّفون.

وفيما يلي أنقل ردوداً لبعض أهل العلم على هذه الدعوى الفجة الباطلة.

قال الشيخ محمد أحمد لوح في كتابه «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (٢/ ٤٧-٤٩) باختصار: من الأدلة على عدم إمكانية رؤية النبي ﷺ يقظة أن أموراً عظيمة وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ وهم أفضل الأمة بعد نبيها كانوا في حاجة ماسة إلى وجوده بين أظهرهم ولم يظهر لهم، نذكر منها:

- انه وقع خلاف بين الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ بسبب الخلافة، فكيف لم يظهر لأصحابه ويفصل النزاع بينهم.

- اختلاف أبي بكر الصديق مع فاطمة رضي الله عنها على ميراث أبيها فاحتجت فاطمة عليه بأنه إذا مات هو إنما يرثه أبناؤه فلماذا يمنعها من ميراث أبيها؟ فأجابها أبو بكر بأن النبي ﷺ قال: « نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركنا صدقة » رواه البخاري وغيره.

- الخلاف الشديد الذي وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة وعلي بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين من جهة أخرى، والذي أدى إلى وقوع معركة الجمل، فقتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين، فلماذا لم يظهر لهم النبي ﷺ حتى يحقن هذه الدماء؟

=

=

- الخلاف الذي وقع بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع الخوارج، وقد سفكت فيه دماء كثيرة، ولو ظهر لرئيس الخوارج وأمره بطاعة إمامه لحقن تلك الدماء.

- النزاع الذي وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما والذي أدى إلى وقوع حرب صفين حيث قتل خلق كثير جداً منهم عمار بن ياسر. فلماذا لم يظهر النبي صلى الله عليه وسلم حتى تجتمع كلمة المسلمين وتحقن دمائهم.

- أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جلالة قدره وعظمة شأنه كان يُظهر الحزن على عدم معرفته ببعض المسائل الفقهية فيقول: (ثلاث وددت أن رسول الله ( لم يفارقنا حتى يعهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا) متفق عليه.فلو كان يظهر لأحد بعد موته لظهر لعمر الفاروق وقال له: لا تحزن حكمها كذا وكذا اهـ

وإليك أخي القارئ الكريم أقوال بعض أهل العلم في هذه المسالة؛ وأغلب هذه النقول من كتاب «القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل» للشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله:

١ - قال القاضي أبو بكر بن العربي نقلاً من «فتح الباري» للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٢/ ٣٨٤): (شذ بعض الصالحين فزعم أنها - أي رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته - تقع بعيني الرأس حقيقة).

٢ - أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في «المفهم لشرح صحيح مسلم» ذكر هذا القول وتعقبه بقوله: (وهذا يدرك فساده بأوائل العقول ويلزم عليه أن لا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها وأن يراه رائيان في آن واحد في مكانين وأن يحيا الآن ويخرج من قبره ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده ولا يبقى من قبره فيه شيء فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته في

=

=

غير قبره.

وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل) وإلى كلام القرطبي هذا أشار الحافظ ابن حجر في «الفتح» بذكره اشتداد إنكار القرطبي على من قال: (من رآه في المنام فقد رأى حقيقته ثم يراها كذلك في اليقظة).

٣ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته «العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية»: (منهم من يظن أن النبي ﷺ خرج من الحجرة وكلمه وجعلوا هذا من كراماته ومنهم من يعتقد أنه إذا سأل المقبور أجابه.

وبعضهم كان يحكي أن ابن منده كان إذا أشكل عليه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي ﷺ عن ذلك فأجابه، وآخر من أهل المغرب حصل له مثل ذلك وجعل ذلك من كراماته حتى قال ابن عبد البر لمن ظن ذلك: ويحك أترى هذا أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار فهل في هؤلاء من سأل النبي ﷺ بعد الموت وأجابه وقد تنازع الصحابة في أشياء فهلا سألوا النبي ﷺ فأجابهم، وهذه ابنته فاطمة تنازع في ميراثها فهلا سألته فأجابها؟).

وحكاية ابن منده التي أشار إليها ابن تيمية رحمه الله في هذا الكلام ذكرها الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٣٧-٣٨) في ترجمة أبى عبد الله محمد بن أبى يعقوب إسحاق بن الحافظ أبى عبد الله محمد بن يحي بن منده وقال الذهبي فيها: (هذه حكاية نكتبها للتعجب)، وقال في إسنادها: (إسنادها منقطع) اهـ.

٤ - قال الحافظ الذهبي في ترجمة الربيع بن محمود المارديني في «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»: (دجال مفتر ادعى الصحبة والتعمير في سنة تسع وتسعين وخمسمائة وكان قد سمع من ابن عساكر عام بضع وستين).

يعني الحافظ الذهبي بالصحبة التي ادعاها الربيع ما جاء عنه أنه رأى النبي ﷺ في النوم وهو بالمدينة الشريفة فقال له: أفلحت دنيا وأخرى، فادعى بعد أن استيقظ

=

=

أنه سمعه وهو يقول ذلك.

ذكر ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني في «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٥١٣).

٥- الحافظ ابن كثير ذكر في ترجمة أحمد بن محمد بن محمد أبى الفتح الطوسي الغزالي في «البداية والنهاية» (١٢/ ١٩٦) أن ابن الجوزي أورد أشياء منكرة من كلامه منها أنه - أي أبا الفتح الطوسي - كان كلما أشكل عليه شيء رأى رسول الله ( في اليقظة فسأله عن ذلك فدله على الصواب، وأقر ابن كثير ابن الجوزي على عد هذا من منكرات أبى الفتح الطوسي، وابن الجوزي ذكر هذا في كتابه «القصاص والمذكرين» (ص١٥٦).

٦- ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (١٢/ ٣٨٥) أن ابن أبى جمرة نقل عن جماعة من المتصوفة أنهم رأوا النبي ﷺ في المنام ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين فأرشدهم إلى طريق تفريجها فجاء الأمر كذلك ثم تعقب الحافظ ذلك بقوله: (وهذا مشكل جداً ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة ويعكر عليه أن جمعاً جمّاً رأوه في المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة وخبر الصادق لا يتخلف).

٧- قال السخاوي في رؤية النبي ﷺ في اليقظة بعد موته: (لم يصل إلينا ذلك - أي ادعاء وقوعها - عن أحد من الصحابة ولا عمن بعدهم وقد اشتد حزن فاطمة عليه ﷺ حتى ماتت كمداً بعده بستة أشهر على الصحيح وبيتها مجاور لضريحه الشريف ولم تنقل عنها رؤيته في المدة التي تأخرتها عنه) نقل ذلك القسطلاني في «المواهب اللدنية» (٥/ ٢٩٥) عن السخاوي.

٨- قال ملا علي قاري في «جمع الوسائل شرح الشمائل للترمذي» (٢/ ٢٣٨):

=

=

(إنه أي ما دعاه المتصوفة من رؤية النبي ﷺ في اليقظة بعد موته لو كان له حقيقة لكان يجب العمل بما سمعوه منه ﷺ من أمر ونهي وإثبات ونفي ومن المعلوم أنه لا يجوز ذلك إجماعاً كما لا يجوز بما يقع حال المنام ولو كان الرائي من أكابر الأنام وقد صرح المازري وغيره بأن من رآه يأمر بقتل من يحرم قتله كان هذا من الصفات المتخيلة لا المرئية) انتهى كلام الملا علي قاري وفيه فائدة أخرى هي حكايته الإجماع على عدم جواز العمل بما يدعى من يزعم أنه رأى النبي ﷺ في اليقظة أنه سمع منه أمر أو نهي أو إثبات أو نفي، وفي حكايته الإجماع على ذلك الرد على قول الزرقاني في «شرح المواهب اللدنية» (٧/ ٢٩) ما نصه: (لو رآه يقظة - أي بعد موته ﷺ - وأمره بشيء وجب عليه العمل به لنفسه ولا يعد صحابياً وينبغي أن يجب على من صدقه العمل به قاله شيخنا).

٩- قال محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله في كتابه « الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف » بعد ذكره لبعض أقوال الصوفية المخالفة للشريعة: ( فإن لم يكن هذا القول من أقوال أهل الجنون وإلا فلا جنون في الأكوان، وأعجب من هذا قول السيوطي: (أن من كرامة الولي أن يرى النبي ﷺ ويجتمع به في اليقظة ويأخذ عنه ما قسم من مذاهب ومعارف). قال: (وممن نص على ذلك من أئمة الشافعية الغزالي والسبكي واليافعي، ومن المالكية القرطبي وابن أبي حمزة وابن الحاج في «المدخل»). قال: (وحكي عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه فروى ذلك الفقيه حديثاً، فقال له الولي: هذا الحديث باطل. فقال له الفقيه: من أين لك هذا؟ قال: هذا النبي واقفٌ على رأسك يقول: إني لم أقل هذا الحديث. وكُشف للفقيه فرآه. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: لو حجب عني النبي ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين).

وهذا استدل به السيوطي على أن عيسى بن مريم إذا نزل من السماء آخر الزمان

=

=

فإنه يأخذ علم شريعة النبي محمد عنه ﷺ وهو في قبره.

وأما الخضر فقالوا: أخذ عن أبي حنيفة خمسة عشر سنة بعد موته، وفيه دلالة على بلادة الخضر عندهم وقلة فهمه حيث بقي هذه المدة يأخذ العلم.

والحاصل: أن هذا كلام لا تجري به أقلام من لهم عقول فضلاً عمن يعرف آثاره من علم معقول أو منقول، وقد ثبت أن أبا بكر الصديق وعمر الفاروق كانا يتمنيان لو سألا رسول الله ﷺ عن مسائل من علم الدين، وهذا أبو بكر يقول للجدة لما جاءت تطلب ميراثها من ابن ابنها أو ابن بنتها. ما أجد لك في الكتاب شيئًا ولا سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا وسأسأل الناس العشية، فلما صلى الظهر أقبل على الناس فقال: أن الجدة أتتني تسألني ميراثها. إلى أن قال: فهل سمع أحدٌ منكم من رسول الله ﷺ شيئًا؟ فقام المغيرة بن شعبة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقضى لها بالسدس فقال: هل سمع ذلك معك أحد فقام محمد بن سلمة فقال: كقول المغيرة.

ومثله قصة عمر في الاستئذان ورجوعه إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في عدة وقائع، وكم من مسائل اجتهد فيها الصحابة وهم في الحجرة النبوية وفي المدينة الطيبة. فكيف ساغ لهم الاجتهاد مع إمكان وجود النص وأخذه عن لسان المصطفى ﷺ، وكم وكم من قضايا حار فيها الصحابة فرجعوا إلى الرأي وبعضهم كان لا يعلم الحديث في القضية التي حار فيها حتى يرويها له بعض الصحابة، ولا حاجة إلى التطويل لذلك. فيا عجباه لعقول تقبل هذا الهذيان، ومن قوم يعدون أنفسهم من العلماء الأعيان... الخ ).

١٠ - قال الشيخ عبد الحي بن محمد اللكنوي رحمه الله في «الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» (ص٤٦): (ومنها - أي من القصص المختلقة الموضوعة - ما يذكرونه من أن النبي ﷺ يحضر بنفسه في مجالس وعظ مولده عند ذكر مولده

=

=

وبنوا عليه القيام عند ذكر المولد تعظيماً وإكراماً.

وهذا أيضا من الأباطيل لم يثبت ذلك بدليل، ومجرد الاحتمال والإمكان خارج عن حد البيان).

١١- قال العلامة عبد العزيز بن باز- رحمه الله - في «حكم الاحتفال بالمولد النبوي»: (بعضهم يظن أن رسول الله ﷺ يحضر المولد؛ ولهذا يقومون له محيين ومرحبين، وهذا من أعظم الباطل وأقبح الجهل، فإن الرسول ﷺ لا يخرج من قبره قبل يوم القيامة، ولا يتصل بأحد من الناس، ولا يحضر اجتماعاتهم، بل هو مقيم في قبره إلى يوم القيامة، وروحه في أعلى عليين عند ربه في دار الكرامة، كما قال الله تعالى في سورة المؤمنون:(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ( ]المؤمنون:١٥- ١٦[، وقال النبي ﷺ: «أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر. وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر» عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

فهذه الآية الكريمة والحديث الشريف وما جاء في معناهما من الآيات والأحاديث، كلها تدل على أن النبي ﷺ وغيره من الأموات إنما يخرجون من قبورهم يوم القيامة... الخ).

١٢- وقال علماء اللجنة الدائمة (٢ / ٣٢٥، ٣٢٦) في رد عقيدة التيجاني: ولم يثبت عن الخلفاء الراشدين ولا سائر الصحابة رضي الله عنهم أن أحدا منهم وهم خير الخلق بعد الأنبياء ادعى أنه رأى النبي ﷺ يقظة، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن التشريع قد أكمل في حياته ﷺ، وأن الله قد أكمل للأمة دينها وأتم عليها نعمته قبل أن يتوفى رسوله ﷺ إليه، قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) المائدة/ ٣، فلا شك أن ما زعمه أحمد التيجاني لنفسه من رؤية النبي ﷺ يقظة وأنه أخذ عنه الطريقة التيجانية

=

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢).

قال تعالى {واتينا موسى الكتاب} التوراة {وجعلناه هدى لبني إسرائيل} ل {أ} ن {لا يتخذوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا} يُفَوِّضُونَ إلَيْهِ أَمْرهمْ وَفِي قِرَاءَة تَتَّخِذُوا بِالْفَوْقَانِيَّةِ الْتِفَاتًا فَأَنْ زَائِدَة وَالْقَوْل مضمر.

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣).

يا {ذُرِّيَّة مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوح} فِي السَّفِينَة {إنه كان عبدا شَكُورًا} كَثِير الشُّكْر

=

يقظة مشافهة، وأنه عين له الأوراد التي يذكر الله بها ويصلي على رسوله بها لاشك أن هذا من البهتان والضلال المبين ا.هـ

وقالوا أيضا: (١ / ٤٨٦، ٤٨٧): فتوفي رسول الله ﷺ بعدما بلغ الرسالة وأكمل الله به دينه وأقام به الحجة على خلقه، وصلى عليه أصحابه رضي الله عنهم صلاة الجنازة، ودفنوه حيث مات في حجرة عائشة رضي الله عنها، وقام من بعده الخلفاء الراشدون، وقد جرى في أيامهم أحداث ووقائع فعالجوا ذلك باجتهادهم، ولم يرجعوا في شيء منها إلى رسول الله ﷺ، فمن زعم بعد ذلك أنه رآه في اليقظة حيا وكلمه أو سمع منه شيئا قبل يوم البعث والنشور فزعمه باطل ؛ لمخالفته النصوص والمشاهدة وسنة الله في خلقه، وليس في هذا الحديث دلالة على أنه سيرى ذاته في اليقظة في الحياة الدنيا ؛ لأنه يحتمل أن المراد بأنه: فسيراني يوم القيامة، ويحتمل أن المراد: فسيرى تأويل رؤياه ؛ لأن هذه الرؤيا صادقة بدليل ما جاء في الروايات الأخرى من قوله ﷺ: " فقد رآني " الحديث، وقد يراه المؤمن في منامه رؤيا صادقة على صفته التي كان ﷺ عليها أيام حياته الدنيوية.

لَنَا حَامِدًا فِي جَمِيع أحواله(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [الإسراء: ٢]، أي:" وكما كرَّم الله محمدًا ﷺ بالإسراء، كَرَّم موسى عليه السلام بإعطائه التوراة ".

قال ابن كثير:" يعني: التوراة".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} [الإسراء: ٢]، أي:" وجعلها هدايةً لبني إسرائيل يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان".

قال ابن كثير:" أي الكتاب، هاديا {لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} ".

قال قتادة:" جعله الله لهم هدى، يخرجهم من الظلمات إلى النور، وجعله رحمة لهم".

قوله تعالى: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا} [الإسراء: ٢]، أي:" متضمنة نهيهم عن اتخاذ غير الله تعالى وليًا أو معبودًا يفوضون إليه أمورهم".

قال ابن كثير:" أي: لئلا تتخذوا {مِنْ دُونِي وَكِيلا}، أي وليًا ولا نصيرًا ولا معبودًا دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له".

وفي قوله تعالى: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا} [الإسراء: ٢]، وجوه:

**أحدها**: شريكًا، قاله مجاهد.

**قال الطبري**:" كأن مجاهدا جعل إقامة من أقام شيئا سوى الله مقامه شريكا منه له، ووكيلا للذي أقامه مقام الله".

**الثاني**: يعني: وليا. قاله مقاتل.

**الثالث**: يعني: ربًا يتوكلون عليه في أمورهم، قاله سهل التستري، والكلبي، والفراء.

**الرابع**: كفيلاً بأمورهم، حكاه الفراء.

=

=

وقرئ: «ألا يتخذوا»، بالياء على الخبر عن بني إسرائيل.

قال ابن كثير: لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه. فإنه تعالى كثيرا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام، وبين ذكر التوراة والقرآن. وقال الرازي لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمدا ﷺ بأن أسرى به، ذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه. وقال الشهاب في (العناية): عقبت آية الإسراء بهذه، استطرادا بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطي التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجه. لأنه صح ثمة التكليم، وشرف باسم الكليم مدمجا فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزلا عليه. وإن شئت فوازن بين أسرى بعبده. وآتينا موسى وبين هدى لبني إسرائيل ويهدي للتي هي أقوم. و (الواو) استئنافية أو عاطفة على جملة (سبحان الذي أسرى) إلخ لا على (أسرى) لبعده وتكلفه.

وضمير (وجعلناه) للكتاب أو لموسى و (لبني إسرائيل) متعلق ب (هدى) أو ب (جعلناه)، وهي تعليلية.

وقوله: ألا تتخذوا من دوني وكيلا أي وليا ومعبودا تكلون إليه أموركم. لأنه تعالى أنزل على كل نبي أرسله، أن يعبده وحده لا شريك له، وقد قرئ: (ألا يتخذوا) بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل. والتقدير: جعلناه هدى لئلا يتخذوا وقرئ بالتاء على الخطاب، وفيه ثلاثة أوجه:

**أحدها**: أن (أن) بمعنى أي. وهي مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهي.

**الثاني**: أن (أن) زائدة، أي قلنا: لا تتخذوا.

**الثالث**: أن (لا) زائدة، زائدة والتقدير: مخافة أن تتخذوا. والوكيل والموكول إليه. أي المفوض إليه الأمور. وهو الرب. ف (فعيل) بمعنى مفعول. و (دون) بمعنى غير. و (من) زائدة. أو تبعيضية.

=

=

قوله تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} [الإسراء: ٣].

قال ابن كثير:" تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم ".

**قال الطبري:**" عنى بالذرية: جميع من احتج عليه جل ثناؤه بهذا القرآن من أجناس الأمم، عربهم وعجمهم من بني إسرائيل وغيرهم، وذلك أن كل من على الأرض من بني آدم، فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة".

قال قتادة:" والناس كلهم ذرية من أنجى الله في تلك السفينة، وذكر لنا أنه ما نجا فيها يومئذ غير نوح وثلاثة بنين له، وامرأته وثلاث نسوة، وهم: سام، وحام، ويافث؛ فأما سام: فأبو العرب؛ وأما حام: فأبو الحبش؛ وأما يافث: فأبو الروم".

عن مجاهد:" {ذرية من حملنا مع نوح}، من بني إسرائيل وغيرهم".

وقال مجاهد: "بنوه ونساؤهم ونوح، ولم تكن امرأته".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: ٣]، أي:" إنه كان عبدًا شكورًا لله بقلبه ولسانه وجوارحه".

**قال الطبري:** يعني:" نوح كان عبدا شكورا لله على نعمه".

قال ابن كثير: أي:"فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمدًا ﷺ ".

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "أنا سيد الناس يوم القيامة - بطوله، وفيه -: فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك". وذكر الحديث بكماله.

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: ٣]، وجوه:

**أحدها:** أنه سماه شكوراً لأنه كان يحمد الله إذا لبس ثوبا أو أكل طعاما، فسمي عبدا شكورا، قاله سلمان، وسعيد بن مسعود.

وقال مجاهد:" إنه لم يجدد ثوبا قط إلا حمد الله، ولم يبل ثوبا قط إلا حمد الله،

=

=

وإذا شرب شربة حمد الله، قال: الحمد لله الذي سقانيها على شهوة ولذة وصحة، وليس في تفسيرها، وإذا شرب شربة قال هذا، ولكن بلغني ذا".

عن عمران بن سليم، قال: "إنما سمي نوح عبدا شكورا أنه كان إذا أكل الطعام قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظمأني، وإذا لبس ثوبا قال: الحمد لله الذي كساني، ولو شاء أعراني، وإذا لبس نعلا قال: الحمد لله الذي حذاني، ولو شاء أحفاني، وإذا قضى حاجة قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه، ولو شاء حبسه".

**الثاني**: ما أخرجه الطبري بسنده عن ابن أبي مريم، قال: "إنما سمى الله نوحا عبدا شكورا، أنه كان إذا خرج البراز منه قال: الحمد لله الذي سوغنيك طيبا، وأخرج عنى أذاك، وأبقى منفعتك".

**الثالث**: أنه كان يستجد ثوباً إلا حمد الله تعالى عند لباسه، قاله قتادة.

وقال قتادة:" كان إذا لبس ثوبا قال: الحمد لله، وإذا أخلقه قال: الحمد لله".

وقال قتادة:" وكان يأمر إذا استجد الرجل ثوبا أن يقول: الحمد لله الذي كساني ما أتجمل به، وأواري به عورتي".

ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن نوحاً كان عبداً شكوراً فجعل الله تعالى موسى من ذريته.

**الثاني**: أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله تعالى من ذرية نوح.

وقوله: ذرية من حملنا مع نوح نصب على الاختصاص أو النداء. وفيه تهييج وتنبيه على المنة. والإنعام عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة. وإيماء إلى علة النهي. كأنه قيل: لا تشركوا به فإنه المنعم عليكم والمنجي لكم من الشدائد. وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه.

وفي التعبير ب (الذرية) الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء، مناسبة تامة لما

=

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤)

{وقضينا} أوحينا {إلى بني إسرائيل فِي الْكِتَاب} التَّوْرَاة {لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْض} أَرْض الشام بالمعاصي {مرتين وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} تَبْغُونَ بَغْيًا عَظِيمًا.

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥).

{فَإِذَا جَاءَ وَعْد أُولَاهُمَا} أُولَى مَرَّتَيْ الْفَسَاد {بعثنا عليكم عبادا لنا أُولِي بَأْس شَدِيد} أَصْحَاب قُوَّة فِي الْحَرْب وَالْبَطْش {فَجَاسُوا} تَرَدَّدُوا لِطَلَبِكُمْ {خِلَال الدِّيَار} وَسْط دِيَاركُمْ لِيَقْتُلُوكُمْ وَيَسْبُوكُمْ {وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا} وَقَدْ أَفْسَدُوا الْأُولَى بِقَتْلِ زَكَرِيَّا فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ جَالُوت وَجُنُوده فَقَتَلُوهُمْ وَسَبَوْا أَوْلَادهمْ وَخَرَّبُوا بَيْت الْمَقْدِس.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦).

{ثم رددنا لكم الْكَرَّة} الدَّوْلَة وَالْغَلَبَة {عَلَيْهِمْ} بَعْد مِائَة سَنَة بقتل جالوت {وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا} عشيرة.

---

=

ذكر.

وذكر حملهم في السفينة، للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلون عليه سواه. وقوله: عبدا شكورا أي لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذي ينبغي. وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧).

وقلنا {إِنْ أَحْسَنْتُمْ} بِالطَّاعَةِ {أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ} لِأَنْ ثَوَابه لها {وإن أسأتم} بالفساد {فلها} إساءتكم {فإذا جاء وَعْد} الْمَرَّة {الْآخِرَة} بَعَثْنَاهُمْ {لِيَسُوءُوا وُجُوهكُمْ} يُحْزِنُوكُمْ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْي حُزْنًا يَظْهَر فِي وُجُوهكُمْ {وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِد} بَيْت الْمَقْدِس فَيُخَرِّبُوهُ {كَمَا دَخَلُوهُ} وَخَرَّبُوهُ {أول مرة وليتبروا} يهلكوا {ما علوا} غلبوا عَلَيْهِ {تَتْبِيرًا} هَلَاكًا وَقَدْ أَفْسَدُوا ثَانِيًا بِقَتْلِ يَحْيَى فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ بُخْتُنَصَّر فَقَتَلَ مِنْهُمْ أُلُوفًا وسبى ذريتهم وخرب بيت المقدس.

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨).

وقلنا في الكتاب {عسى ربكم أن يَرْحَمكُمْ} بَعْد الْمَرَّة الثَّانِيَة إنْ تُبْتُمْ {وَإِنْ عُدْتُمْ} إلَى الْفَسَاد {عُدْنَا} إلَى الْعُقُوبَة وَقَدْ عَادُوا بِتَكْذِيبِ مُحَمَّد ﷺ فَسُلِّطَ عَلَيْهِمْ بِقَتْلِ قُرَيْظَة وَنَفْي النَّضِير وَضَرْب الْجِزْيَة عَلَيْهِمْ {وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا} محبسا وسجنا(١).

(١) قوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ} [الإسراء: ٤]، أي:" وأخبرنا بني إسرائيل في التوراة التي أُنزلت عليهم".
قال ابن كثير:" يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم ".
وفي قوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ}، وجوه:
**أحدها**: معناه: أعلمناهم. قاله ابن عباس، وابن زيد.
=

=

**قال الطبري:**" معنى «القضاء»: الفراغ من الشيء، ثم يستعمل في كل مفروغ منه، فتأويل الكلام في هذا الموضع: وفرغ ربك إلى بني إسرائيل فيما أنزل من كتابه على موسى صلوات الله وسلامه عليه بإعلامه إياهم، وإخباره لهم.. ".

قال ابن كثير:" كما قال تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ} [الحجر: ٦٦] أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به ".

**الثاني**: معناه: أنه قضاء مضى عليهم. قاله ابن عباس أيضا، وقتادة.

قال قتادة:" قضاء قضاه على القوم كما تسمعون".

**الثالث**: معناه: اخبرناهم. قاله مجاهد.

**الرابع**: معناه: حكمنا، قاله قتادة.

**قال الطبري:**" وكل هذه الأقوال تعود معانيها إلى ما قلت في معنى قوله (وقضينا) وإن كان الذي اخترنا من التأويل فيه أشبه بالصواب لإجماع القراء على قراءة قوله (لتفسدن) بالتاء دون الياء، ولو كان معنى الكلام: وقضينا عليهم في الكتاب، لكانت القراءة بالياء أولى منها بالتاء، ولكن معناه لما كان أعلمناهم وأخبرناهم، وقلنا لهم: كانت التاء أشبه وأولى للمخاطبة".

قوله تعالى: {لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ} [الإسراء: ٤]، أي:" ليحصلنَّ منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين".

**قال الطبري:**" يقول: لتعصن الله يا معشر بني إسرائيل ولتخالفن أمره في بلاده مرتين.. ".

**قال الطبري:**" أما إفسادهم في الأرض المرة الآخرة، فلا اختلاف بين أهل العلم أنه كان قتلهم يحيى بن زكريا".

قال الماوردي:" الفاسد الذي فعلوه قتلهم للناس ظلماً وتغلبهم على أموالهم قهراً، وإخراب ديارهم بغياً".

=

=

قال السدي:" يعني: لتهلكن في الأرض مرتين".

قال عطية العوفي:" أفسدوا المرة الأولى فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم، وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام، فبعث الله عليهم بختنصر".

عن قتادة، في قوله تعالى: {لتفسدن في الأرض مرتين}، قال: " أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت حتى بعث طالوت، ومعه داود فقتله داود، ثم ردت الكرة لبني إسرائيل، ثم جاء وعد الآخرة من المرتين {ليسوءوا وجوهكم}، قال: " ليقبحوا وجوههم {وليتبروا ما علوا تتبيرا} [الإسراء: ٧]، قال: «ليدمروا ما علوا تدميرا»، قال: «هو بختنصر بعث عليهم في المرة الآخرة» ثم قال: {عسى ربكم أن يرحمكم، وإن عدتم عدنا}

[الإسراء: ٨]، «فعادوا فبعث الله عليهم محمدا ﷺ فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون».

قال ابن إسحاق: "كان مما أنزل الله على موسى في خبره عن بني إسرائيل، وفي أحداثهم ما هم فاعلون بعده، فقال {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا} .... إلى قوله {وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا} فكانت بنو إسرائيل، وفيهم الأحداث والذنوب، وكان الله في ذلك متجاوزا عنهم، متعطفا عليهم محسنا إليهم، فكان مما أنزل بهم في ذنوبهم ما كان قدم إليهم في الخبر على لسان موسى مما أنزل بهم في ذنوبهم، فكان أول ما أنزل بهم من تلك الوقائع، أن ملكا منهم كان يدعى صديقة، وكان الله إذا ملك الملك عليهم، بعث نبيا يسدده ويرشده، ويكون فيما بينه وبين الله، ويحدث إليه في أمرهم، لا ينزل عليهم الكتب، إنما يؤمرون باتباع التوراة والأحكام التي فيها، وينهونهم عن المعصية، ويدعونهم إلى ما تركوا من الطاعة؛ فلما ملك ذلك

=

=

الملك، بعث الله معه شعياء بن أمصيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى وشعياء الذي بشر بعيسى ومحمد، فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زمانا؛ فلما انقضى ملكه عظمت فيهم الأحداث، وشعياء معه، بعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل، ومعه ست مئة ألف راية، فأقبل سائرا حتى نزل نحو بيت المقدس، والملك مريض في ساقه قرحة، فجاء النبي شعياء، فقال له: يا ملك بني إسرائيل إن سنحاريب ملك بابل، قد نزل بك هو وجنوده ست مئة ألف راية، وقد هابهم الناس وفرقوا منهم، فكبر ذلك على الملك، فقال: يا نبي الله هل أتاك وحي من الله فيما حدث، فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبسنحاريب وجنوده، فقال له النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: لم يأتني وحي أحدث إلي في شأنك، فبيناهم على ذلك، أوحى الله إلى شعياء النبي: أن ائت ملك بني إسرائيل، فمره أن يوصي وصيته، ويستخلف على ملكه من شاء من أهل بيته. فأتى النبي شيعاء ملك بني إسرائيل صديقة، فقال له: إن ربك قد أوحى إلي أن آمرك أن توصي وصيتك، وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك، فإنك ميت؛ فلما قال ذلك شعياء لصديقة، أقبل على القبلة، فصلى وسبح ودعا وبكى، فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله بقلب مخلص وتوكل وصبر وصدق وظن صادق، اللهم رب الأرباب، وإله الآلهة، قدوس المتقدسين، يا رحمن يا رحيم، المترحم الرءوف الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله كان منك، فأنت أعلم به من نفسي؛ سري وعلانيتي لك، وإن الرحمن استجاب له وكان عبدا صالحا، فأوحى الله إلى شعياء أن يخبر صديقة الملك أن ربه قد استجاب له وقبل منه ورحمه، وقد رأى بكاءه، وقد أخر أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه سنحاريب ملك بابل وجنوده، فأتى شعياء النبي إلى ذلك الملك فأخبره بذلك، فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع، وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجدا وقال: يا إلهي وإله آبائي،

=

=

لك سجدت وسبحت وكرمت وعظمت، أنت الذي تعطي الملك من تشاء، وتنزعه ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين، أنت الذي أحببت دعوتي ورحمت تضرعي؛ فلما رفع رأسه، أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صديقة فيأمر عبدا من عبيده بالتينة، فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى، ويصبح وقد برأ، ففعل ذلك فشفي، وقال الملك لشعياء النبي: سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا، قال: فقال الله لشعياء النبي: قل له: إني قد كفيتك عدوك، وأنجيتك منه، وإنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنحاريب وخمسة من كتابه؛ فلما أصبحوا جاءهم صارخ ينبئهم، فصرخ على باب المدينة: يا ملك بني إسرائيل، إن الله قد كفاك عدوك فاخرج، فإن سنحاريب ومن معه قد هلكوا؛ فلما خرج الملك التمس سنحاريب، فلم يوجد في الموتى، فبعث الملك في طلبه، فأدركه الطلب في مغارة وخمسة من كتابه، أحدهم بختنصر، فجعلوهم في الجوامع، ثم أتوا بهم ملك بني إسرائيل؛ فلما رآهم خر ساجدا من حين طلعت الشمس حتى كانت العصر، ثم قال لسنحاريب: كيف ترى فعل ربنا بكم؟ ألم يقتلكم بحوله وقوته، ونحن وأنتم غافلون؟ فقال سنحاريب له: قد أتاني خبر ربكم، ونصره إياكم، ورحمته التي رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي، فلم أطع مرشدا، ولم يلقني في الشقوة إلا قلة عقلي، ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم، ولكن الشقوة غلبت علي وعلى من معي، فقال ملك بني إسرائيل: الحمد لله رب العزة الذي كفاناكم بما شاء، إن ربنا لم يبقك ومن معك لكرامة بك عليه، ولكنه إنما أبقاك ومن معك لما هو شر لك، لتزدادوا شقوة في الدنيا، وعذابا في الآخرة، ولتخبروا من وراءكم بما لقيتم من فعل ربنا، ولتنذروا من بعدكم، ولولا ذلك ما أبقاكم، فلدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد لو قتلته، ثم إن ملك بني

=

=

إسرائيل أمر أمير حرسه، فقذف في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس إيليا، وكان يرزقهم في كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، فقال سنحاريب لملك بني إسرائيل: القتل خير مما يفعل بنا، فافعل ما أمرت، فنقل بهم الملك إلى سجن القتل، فأوحى الله إلى شعياء النبي أن قل لملك بني إسرائيل يرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم، وليكرمهم ويحملهم حتى يبلغوا بلادهم؛ فبلغ النبي شعياء الملك ذلك، ففعل، فخرج سنحاريب ومن معه حتى قدموا بابل؛ فلما قدموا جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده، فقال له كهانه وسحرته: يا ملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم، ووحي الله إلى نبيهم، فلم تطعنا، وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم، فكان أمر سنحاريب مما خوفوا، ثم كفاهم الله تذكرة وعبرة، ثم لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين، ثم مات".

وفيمن قتلوه من الأنبياء في الفساد الأول قولان:

أحدهما: أنه زكريا قاله ابن عباس.

أخرج الطبري بسنده عن السدي في خبر ذكره عن أبي صالح، وعن أبي مالك، عن ابن عباس، وعن مرة، عن عبد ا:"أن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة {لتفسدن في الأرض مرتين} فكان أول الفسادين: قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، وكان يدعى صحابين فبعث الجنود، وكان أساورته من أهل فارس، فهم أولو بأس شديد، فتحصنت بنو إسرائيل، وخرج فيهم بختنصر يتيما مسكينا، إنما خرج يستطعم، وتلطف حتى دخل المدينة فأتى مجالسهم، فسمعهم يقولون: لو يعلم عدونا ما قذف في قلوبنا من الرعب بذنوبنا ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حين سمع ذلك منهم، واشتد القيام على الجيش، فرجعوا، وذلك قول الله {فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان

=

=

وعدا مفعولا} ثم إن بني إسرائيل تجهزوا، فغزوا النبط، فأصابوا مهم واستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قول الله {ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا} يقول: عددا".

وقال ابن زيد: "كان إفسادهم الذي يفسدون في الأرض مرتين: قتل زكريا ويحيى بن زكريا، سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف ملكا من ملوك فارس، من قتل زكريا، وسلط عليهم بختنصر من قتل يحيى".

**الثاني**: أنه شعيًا، قاله ابن إسحاق، وأن زكريا مات حتف أنفه.

**قال الطبري**:" أما إفسادهم في الأرض المرة الآخرة، فلا اختلاف بين أهل العلم أنه كان قتلهم يحيى بن زكريا".

قال الماوردي:"أما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني فيحيى بن زكريا في قول الجميع قال مقاتل: وإن كان بينهما مائتا سنة وعشر".

أخرج الطبري بسنده عن عبد الله بن الزبير أنه قال، وهو يحدث عن قتل يحيى بن زكريا قال: "ما قتل يحيى بن زكريا إلا بسبب امرأة بغي من بغايا بني إسرائيل، كان فيهم ملك، وكان يحيى بن زكريا تحت يدي ذلك الملك، فهمت ابنة ذلك الملك بأبيها، فقالت: لو أني تزوجت بأبي فاجتمع لي سلطانه دون النساء، فقالت له: يا أبت تزوجني ودعته إلى نفسها، فقال لها: يا بنية إن يحيى بن زكريا لا يحل لنا هذا، فقالت: من لي بيحيى بن زكريا ضيق علي، وحال بيني وبين أن أتزوج بأبي، فأغلب على ملكه ودنياه دون النساء؛ قال: فأمرت اللعابين ومحلت بذلك لأجل قتل يحيى بن زكريا، فقالت: ادخلوا عليه فالعبوا، حتى إذا فرغتم فإنه سيحكمكم، فقولوا: دم يحيى بن زكريا ولا تقبلوا غيره. وكان اسم الملك رواد، واسم ابنته البغي، وكان الملك فيهم إذا حدث فكذب، أو وعد فأخلف خلع فاستبدل به غيره؛ فلما ألعبوه وكثر عجبه منهم، قال: سلوني أعطكم، فقالوا له: نسألك دم

=

=

يحيى بن زكريا أعطنا إياه، قال: ويحكم سلوني غير هذا، فقالوا: لا نسألك شيئا غيره، فخاف على ملكه إن هو أخلفهم أن يستحل بذلك خلعه، فبعث إلى يحيى بن زكريا وهو جالس في محرابه يصلي، فذبحوه في طست ثم حزوا رأسه، فاحتمله رجل في يده والدم يحمل في الطست معه. قال: فطلع برأسه يحمله حتى وقف به على الملك، ورأسه يقول في يدي الذي يحمله لا يحل لك ذلك، فقال رجل من بني إسرائيل: أيها الملك لو أنك وهبت لي هذا الدم؟ فقال: وما تصنع به؟ قال: أطهر منه الأرض، فإنه كان قد ضيقها علينا، فقال: أعطوه هذا الدم، فأخذه فجعله في قلة، ثم عمد به إلى بيت في المذبح، فوضع القلة فيه، ثم أغلق عليه، ففار في القلة حتى خرج منها من تحت الباب من البيت الذي هو فيه؛ فلما رأى الرجل ذلك، فظع به، فأخرجه فجعله في فلاة من الأرض، فجعل يفور، وعظمت فيهم الأحداث، ومنهم من يقول: أقر مكانه في القربان ولم يحول".

قوله تعالى: {وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الإسراء: ٤]، أي:" تطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً بالظلمٍ والعدوان وانتهاك محارم الله".

قال ابن كثير:" أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس".

**قال الطبري:**" يقول: ولتستكبرن على الله باجترائكم عليه استكبارا شديدا".

قال مجاهد:" ولتعلن الناس علوا كبيرا".

* قوله - سبحانه-: وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ... إخبار من الله- تعالى- لهم، بما سيكون منهم

قال أبو حيان: والفعل قضى يتعدى بنفسه إلى مفعول، كقوله- تعالى-: فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ.. ولما ضمّن هنا معنى الإيحاء أو الإنفاذ تعدى بإلى أى: وأوحينا أو أنفذنا إلى بنى إسرائيل في القضاء المحتوم المثبوت وعن ابن عباس: وأعلمناهم.

=

=

والمراد بالكتاب: التوراة، وقيل اللوح المحفوظ.

واللام في قوله لَتُفْسِدُنَّ ... جواب قسم محذوف تقديره: والله لتفسدن.

ويجوز أن تكون جوابا لقوله- تعالى-: وَقَضَيْنا ... لأنه مضمن معنى القسم، كما يقول القائل: قضى الله لأفعلن كذا، فيجري القضاء والقدر مجرى القسم ...

والمقصود بالأرض: عمومها أو أرض الشام.

و «مرتين» منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله: لَتُفْسِدُنَّ من غير لفظه، والمراد لتفسدن إفسادتين وقوله- ﷻ: وَلَتَعْلُنَّ.. من العلو وهو ضد السفل، والمراد به هنا: التكبر والتجبر والبغي والعدوان.

والمعنى: وأخبرنا بنى إسرائيل في كتابهم التوراة خبرا مؤكدا: وأوحينا إليهم بواسطة رسلنا، بأن قلنا لهم: لتفسدن في الأرض مرتين، ولتستكبرن على الناس بغير حق، استكبارا كبيرا، يؤدى بكم إلى الخسران والدمار.

والتعبير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه في الكتاب، يدل على ثبوته، إذ أصل القضاء- كما يقول القرطبي- الإحكام للشيء والفراغ منه.

وأكد إفسادهم واستعلاءهم بلام القسم، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب بالتجبر والتكبر والبغي والعدوان.

وكان من مظاهر إفسادهم في الأرض: تحريفهم للتوراة، وتركهم العمل بما فيها من أحكام، وقتلهم الأنبياء والمصلحين.

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا} [الإسراء: ٥]، أي:" فإذا وقع منهم الإفساد الأول".

**قال الطبري:**" يعني: فإذا جاء وعد أولى المرتين اللتين يفسدون بهما في الأرض".

قال ابن زيد:" إذا جاء وعد أولى تينك المرتين اللتين قضينا إلى بني إسرائيل: {لتفسدن في الأرض مرتين} ".

=

=

قوله تعالى: {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الإسراء: ٥]، أي:" سَلَّطْنا عليهم عبادًا لنا ذوي شجاعة وقوة شديدة".

**قال الطبري:**" وجهنا إليكم، وأرسلنا عليكم {عبادا لنا أولي بأس شديد}، يقول: ذوي بطش في الحروب شديد".

في قوله: {بَعَثْنَا} [الإسراء: ٥]، وجهان:

أحدهما: خلينا بينكم وبينهم خذلانـًا لكم بظلمكم، قاله الحسن.

**الثاني:** أمرنا بقتالكم انتقامـًا منكم. ذكره الماوردي.

**الثالث:** وجهنا إليكم، وأرسلنا عليكم. قاله الطبري.

وفي المبعوث عليهم في هذه المرة الأولى خمسة أقوال:

**أحدها:** جالوت وكان ملكهم طالوت إلى أن قتله داود عليه السلام، قاله ابن عباس، وقتادة.

قال ابن عباس:" بعث الله عليهم جالوت، فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت، فقاتلوا جالوت، فنصر الله بني إسرائيل، وقتل جالوت بيدي داود، ورجع الله إلى بني إسرائيل ملكهم".

قال قتادة:" فبعث عليهم في الأولى جالوت الجزري، فسبى وقتل، وجاسوا خلال الديار كما قال الله، ثم رجع القوم على دخن فيهم".

وقال قتادة:" أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت، حتى بعث طالوت ومعه داود، فقتله داود".

**الثاني:** أنه بختنصر، وهو قول سعيد بن المسيب.

**الثالث:** أنه سنحاريب، قاله سعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:" بعث الله تبارك وتعالى عليهم في المرة الأولى سنحاريب من

=

=

أهل أثور ونينوى، فسألت سعيدا عنها، فزعم أنها الموصل".

وقال سعيد بن جبير:" كان رجل من بني إسرائيل يقرأ حتى إذا بلغ {بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد}، بكى وفاضت عيناه، وطبق المصحف، فقال ذلك ما شاء الله من الزمان، ثم قال: أي رب أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل على يديه، فأري في المنام مسكينا ببابل، يقال له بختنصر، فانطلق بمال وأعبد له، وكان رجلا موسرا، فقيل له أين تريد؟ قال: أريد التجارة حتى نزل دارا ببابل، فاستكراها ليس فيها أحد غيره، فحمل يدعو المساكين ويلطف بهم حتى لم يبق أحد، فقال: هل بقي مسكين غيركم؟ قالوا: نعم، مسكين بفج آل فلان مريض يقال له بختنصر، فقال لغلمته: انطلقوا، حتى أتاه، فقال: ما اسمك؟ قال: بختنصر، فقال لغلمته: احتملوه، فنقله إليه ومرضه حتى برأ، فكساه وأعطاه نفقة، ثم آذن الإسرائيلي بالرحيل، فبكى بختنصر، فقال الإسرائيلي: ما يبكيك؟ قال: أبكي أنك فعلت بي ما فعلت، ولا أجد شيئا أجزيك، قال: بلى شيئا يسيرا، إن ملكت أطعتني، فجعل الآخر يتبعه ويقول: تستهزئ بي، ولا يمنعه أن يعطيه ما سأله، إلا أنه يرى أنه يستهزئ به، فبكى الإسرائيلي وقال: ولقد علمت ما يمنعك أن تعطيني ما سألتك، إلا أن الله يريد أن ينفذ ما قد قضاه وكتب في كتابه وضرب الدهر من ضربه؛ فقال يوما صيحون، وهو ملك فارس ببابل: لو أنا بعثنا طليعة إلى الشام؟ قالوا: وما ضرك لو فعلت؟ قال: فمن ترون؟ قالوا: فلان، فبعث رجلا وأعطاه مئة ألف، وخرج بختنصر في مطبخه، لم يخرج إلا ليأكل في مطبخه؛ فلما قدم الشام ورأى صاحب الطليعة أكثر أرض الله فرسا ورجلا جلدا، فكسر ذلك في ذرعه، فلم يسأل قال: فجعل بختنصر يجلس مجالس أهل الشام فيقول: ما يمنعكم أن تغزوا بابل، فلو غزوتموها ما دون بيت مالها شيء، قالوا: لا نحسن القتال، قال: فلو أنكم غزوتم، قالوا: إنا لا نحسن القتال ولا نقاتل حتى أنفذ مجالس أهل الشام،

=

=

ثم رجعوا فأخبر الطليعة ملكهم بما رأى، وجعل بختنصر يقول لفوارس الملك: لو دعاني الملك لأخبرته غير ما أخبره فلان؛ فرفع ذلك إليه، فدعاه فأخبره الخبر وقال: إن فلانا لما رأى أكثر أرض الله فرسا ورجلا جلدا، كبر ذلك في روعه ولم يسألهم عن شيء، وإني لم أدع مجلسا بالشام إلا جالست أهله، فقلت لهم كذا وكذا، وقالوا لي كذا وكذا، الذي ذكر سعيد بن جبير أنه قال لهم، قال الطليعة لبختنصر: إنك فضحتني لك مئة ألف وتنزع عما قلت، قال: لو أعطيتني بيت مال بابل ما نزعت، ضرب الدهر من ضربه؛ فقال الملك: لو بعثنا جريدة خيل إلى الشام، فإن وجدوا مساغا ساغوا، وإلا انثنوا ما قدروا عليه، قالوا: ما ضرك لو فعلت؟ قال: فمن ترون؟ قالوا: فلان، قال: بل الرجل الذي أخبرني ما أخبرني، فدعا بختنصر وأرسله، وانتخب معه أربعة آلاف من فرسانهم، فانطلقوا فجاسوا خلال الديار، فسبوا ما شاء الله ولم يخربوا ولم يقتلوا، ومات صيحون الملك قالوا: استخلفوا رجلا قالوا: على رسلكم حتى تأتي أصحابكم فإنهم فرسانكم، لن ينقضوا عليكم شيئا، أمهلوا؛ فأمهلوا حتى جاء بختنصر بالسبي وما معه، فقسمه في الناس، فقالوا: ما رأينا أحدا أحق بالملك من هذا، فملكوه".

**الرابع**: أنهم العمالقة وكانوا كفاراً، قاله الحسن.

الخامس: أنهم كانوا قوماً من أهل فارس يتجسسون أخبارهم، وهو قول مجاهد.

قال مجاهد:" من جاءهم من فارس يتجسسون أخبارهم، ويسمعون حديثهم، معهم بختنصر، فوعى أحاديثهم من بين أصحابه، ثم رجعت فارس ولم يكن قتال، ونصرت عليهم بنو إسرائيل، فهذا وعد الأولى".

قوله تعالى: {فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ} [الإسراء: ٥]، أي:" فطافوا بين ديارهم مفسدين".

**قال الطبري**:" يقول: فترددوا بين الدور والمساكن، وذهبوا وجاءوا".

=

=

قال الصابوني: أي:"فطافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد".

وفي قوله تعالى: {فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ} [الإسراء: ٥]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: يعني: مشوا وترددوا بين الدور والمساكن، قال ابن عباس.

قال الماوردي:"وهو أبلغ في القهر".

**الثاني**: معناه: فداسوا خلال الديار، ومنه قول الشاعر:

إِلَيْكَ جُسْتُ اللَّيْلَ بِالمَطِيِّ

**الثالث**: معناه: فقتلوهم بين الدور والمساكن، وهذا قول أبي عبيدة، ومنه قول حسان بن ثابت:

**ومِنَّا الَّذِي لاقَى بِسَيْفِ مُحَمَّدٍ فَجَاس بِهِ الأَعْدَاءَ عَرْضَ العَسَاكر**

**وقال الفراء**: يعني:" قتلوكم بين بيوتكم، {فجاسوا} في معنى: أخذوا وحاسوا أيضا بالحاء في ذلك المعنى".

**الرابع**: معناه: فتشوا وطلبوا خلال الديار، قاله أبو عبيدة.

**الخامس**: معناه: نزلوا خلال الديار، قاله قطرب، ومنه قول الشاعر:

**فَجُسنا ديارهم عَنْوَةً وأبنا بساداتهم موثَقينا**

**السادس**: معناه: فطافوا في خلال الديار ينظرون: هل بقي أحد لم يقتلوه، و «الجوس» طلب الشيء باستقصاء. قاله الزجاج.

وقال ابن سلام البغدادي:" فتخللوا الأزقة بلغة جذام".

**السابع**: معناه: عاثوا بين الديار وأفسدوا. قاله ابن قتيبة.

قال الراغب:" أي: توسطوها وترددوا بينها، ويقارب ذلك جازوا وداسوا، وقيل: الجوس: طلب ذلك الشيء باستقصاء، والمجوس معروف".

قال ابن كثير:" أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها،

=

=

وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا".

قوله تعالى: {وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا} [الإسراء: ٥]، أي:" كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقض والتبديل".

قال قتادة: "قضاء الله على القوم كما تسمعون".

* ثم بين- سبحانه- أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول في الأرض، من يقهرهم ويستبيح حرماتهم، ويدمرهم تدميرا، فقال- تعالى-: (فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ. فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا).

والمراد بالوعد: الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم في الأرض، فالكلام على حذف مضاف، والضمير في أُولاهُما يعود على المرتين المعبر عنهما بقول: لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ.

وقوله فَجاسُوا معطوف على بَعَثْنا وأصل الجوس: طلب الشيء باستقصاء واهتمام لتنفيذ ما من أجله كان الطلب.

والمعنى: فإذا حان وقت عقابكم- يا بنى إسرائيل- على أولى مرتى إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ أى أصحاب بطش شديد في الحروب والقتال، فأذلوكم وقهروكم، وفتشوا عنكم بين المساكن والديار، لقتل من بقي منكم على قيد الحياة، وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلكم وسلب أموالكم، وهتك أعراضكم، وتخريب دياركم ... وعدا نافذا لا مرد له، ولا مفر لكم منه.

قال الآلوسى: واختلف في تعيين هؤلاء العباد- الذين بعثهم الله لمعاقبة بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول- فعن ابن عباس وقتادة: هم جالوت وجنوده، وقال ابن جبير وابن إسحاق: هم سنحاريب ملك بابل وجنوده. وقيل: هم العمالقة، وقيل: بختنصر.

=

=

فإن قال قائل: وما فائدة أن يخبر الله- تعالى- بنى إسرائيل في التوراة أنهم يفسدون في الأرض مرتين. وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان، بأن يسلط عليهم من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم.

فالجواب: أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله- ﷻ لا يظلم الناس شيئا، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم.

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار، وهو تنبيه العقلاء في جميع الأمم أن يحذروا من مواقعة المعاصي التي تؤدى إلى الهلاك، وأن يحذروا أممهم من ذلك، ويبصروهم بسوء عاقبة السير في طريق الغي، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله- ﷻ.

ومن فوائد إيراد هذا الخبر في القرآن الكريم، تنبيه اليهود المعاصرين للنبي ﷺ ومن على شاكلتهم في الفسوق والعصيان من المشركين، إلى سنة من سنن الله في خلقه، وهي أن الإفساد عاقبته الخسران.

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول ﷺ الذي ثبتت نبوته ثبوتا لا شك فيه، لكي يسعدوا في دنياهم وآخرتهم.

قوله تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ} [الإسراء: ٦]، أي:" ثم رَدَدْنا لكم -يا بني إسرائيل- الغلبة والظهور على أعدائكم الذين سُلِّطوا عليكم".

قال أبو عبيدة:" أعقبنا لكم الدولة".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: ثم أدلناكم يا بني إسرائيل على هؤلاء القوم الذين وصفهم جل ثناؤه أنه يبعثهم عليهم".

قال قتادة:" ثم رددت الكرة لبني إسرائيل".

وفي كيفية الظفر بهم، ثلاثة أقوال:

=

=

**أحـدها**: أن بنـي إسـرائيل غـزوا ملـك بابـل واسـتنقذوا مـا فيـه يديـه مـن الأسـرى والأموال. ذكره السدي.

**قال الطبري**:" وكانت تلك الإدالة والكرة لهم عليهم، فيما ذكر السدي في خبره أن بنـي إسـرائيل غـزوهم، وأصـابوا مـنهم، واسـتنقذوا مـا في أيـديهم مـنهم. وفي قـول آخرين: إطلاق الملك الذي غزاهم ما في يديه من أسراهم، ورد ما كان أصاب مـن أموالهم عليهم من غير قتال".

**الثاني**: أن ملك بابل أطلق من في يده من الأسرى، وردّ ما في يده من الأموال. حكاه الماوردي.

**الثالث**: أنه كان بقتل جالوت حين قتله داود. وهذا قول ابن عباس.

**قال الطبري**:" وفي قول ابـن عبـاس الـذي رواه عطيـة عنـه هـي إدالـة الله إيـاهم مـن عدوهم جالوت حتى قتلوه".

قولـه تعـالى: {وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ} [الإسـراء: ٦]، أي:" وأكثرنـا أرزاقكـم وأولادكم، وقَوَّيناكم".

**قال الطبري**:" يقول: وزدنا فيما أعطيناكم من الأموال والبنين".

عن السدي:" {وَأَمْدَدْنَاكُمْ}: وأعطيناكم".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} [الإسراء: ٦]، أي:" وجعلناكم أكثر عددًا من عدوكم".

**قال الطبري**:" يقول: وصيرناكم أكثر عدد نافر منهم".

عن السدي:" {وجعلناكم أكثر نفيرا}، يقول: عددا".

قال قتادة:" أي: عددا، وذلك في زمن داود".

قال ابن زيد:" جعلناكم بعد هذا أكثر عددا".

قال سفيان:" أربعة آلاف".

=

=

* ثم أشار- سبحانه- إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار، وهي أن الأمم المغلوبة على أمرها. تستطيع أن تسترد مجدها، متى أصلحت من شأن أنفسها، ومتى استقامت على أمر الله- تعالى- فقال- سبحانه-: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ، وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ، وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً.

ففي هذه الآية الكريمة تذكير لبنى إسرائيل بجملة من نعم الله عليهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم.

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها- سبحانه- بقوله: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ.

والكرّة: المرة من الشيء: وأصلها من الكرّ وهو الرجوع، مصدر كريكر- من باب قتل-، يقال: كرّ الفارس كرّا، إذا فر للجولان ثم عاد للقتال.

والمراد بالكرة هنا: الدولة والغلبة على سبيل المجاز.

أى: ثم أعدنا لكم- يا بنى إسرائيل- الدولة والغلبة على أعدائكم الذين قهروكم وأذلوكم، بعد أن أحسنتم العمل، ورجعتم إلى الله- تعالى- واتبعتم ما جاءكم به رسلكم.

والتعبير بثم لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان، وما أفاءه الله عليهم بعد ذلك من نصر وظفر.

قال أبو حيان: وجعل- سبحانه- رَدَدْنا موضع نرد- إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد- لأنه لما كان وعد الله في غاية الثقة في كونه سيقع، عبر عن المستقبل بالماضي.

وأما النعمة الثانية فقد عبر عنها- سبحانه- بقوله: وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ.

أى: لم نكتف بأن جعلنا النصر لكم على أعدائكم، بل فضلا عن ذلك، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد، بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم.

=

=

وأما النعمة الثالثة فتتجلى في قوله- تعالى-: وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً.

والنفير: من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته، وهو منصوب على التمييز.

والمفضل عليه محذوف، والتقدير: وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم..

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم، وأن تحسنوا الاستفادة منها، بأن تشكروا الله- تعالى- وتخلصوا له العبادة والطاعة، فقد نصركم بعد هزيمتكم، وأغناكم بعد فقركم، وكثّركم بعد قتلكم.

قوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ} [الإسراء: ٧]، أي:" إن أحسنتم أفعالكم وأقوالكم فقد أحسنتم لأنفسكم؛ لأن ثواب ذلك عائد إليكم".

قال الواحدي:" إن أطعتم الله فيما بقي عفا عنكم المساوئ".

قال السمعاني:" يعني: جلبتم النفع إليها".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره لبني إسرائيل فيما قضى إليهم في التوراة {إن أحسنتم} يا بني إسرائيل، فأطعتم الله وأصلحتم أمركم، ولزمتم أمره ونهيه {أحسنتم} وفعلتم ما فعلتم من ذلك {لأنفسكم}، لأنكم إنما

تنفعون بفعلتكم ما تفعلون من ذلك أنفسكم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم من بغاكم سوءا، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قوتكم قوة. وأما في الآخرة فإن الله تعالى يثيبكم به جنانه".

قوله تعالى: {وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} [الإسراء: ٧]، أي:" وإن أسأتم فعقاب ذلك عائد عليكم".

قال الواحدي:" بالفساد وعصيان الأنبياء وقتلهم، فعليها يقع الوبال"

**قال الطبري**:" يقول: وإن عصيتم الله وركبتم ما نهاكم عنه حينئذ، فإلى أنفسكم

=

=

تسيئون، لأنكم تسخطون بذلك على أنفسكم ربكم، فيسلط عليكم في الدنيا عدوكم، ويمكن منكم من بغاكم سوءا، ويخلدكم في الآخرة في العذاب المهين".

قال الزمخشري:" أي: الإحسان والإساءة: كلاهما مختص بأنفسكم، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم".

وعن علي رضي الله عنه: "ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه". وتلا هذه الآية.

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ} [الإسراء: ٧]، أي:" فإذا حان موعد الإفساد الثاني".

قال الواحدي: أي:" المرَّة الأخيرة من إفسادكم وجواب «إذا» محذوف على تقدير: بعثناهم"

**قال الطبري:**" يقول: فإذا جاء وعد المرة الآخرة من مرّتيّ إفسادكم يا بني إسرائيل في الأرض".

**قال الطبري:**" وكان مجيء وعد المرة الآخرة عند قتلهم يحيى، كما حدثنا موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدي في الحديث الذي ذكرنا إسناده قبل أن رجلا من بني إسرائيل رأى في النوم أن خراب بيت المقدس وهلاك بني إسرائيل على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل، يدعى بختنصر، وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم، فأقبل فسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب، فلما جاء وعلى رأسه حزمة من حطب ألقاها، ثم قعد في جانب البيت فضمه، ثم أعطاه ثلاثة دراهم، فقال: اشتر لنا بها طعاما وشرابا، فاشترى بدرهم لحما وبدرهم خبزا وبدرهم خمرا، فأكلوا وشربوا حتى إذا كان اليوم الثاني فعل به ذلك، حتى إذا كان اليوم الثالث فعل ذلك، ثم قال له: إني أحب أن تكتب لي أمانا إن أنت ملكت يوما من الدهر، فقال: أتسخر بي؟ فقال: إني لا أسخر بك،

ولكن ما عليك أن تتخذ بها عندي يدا، فكلمته أمه، فقالت: وما عليك إن كان ذلك

=

=

وإلا لم ينقصك شيئا، فكتب له أمانا، فقال له: أرأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بيني وبينك، فاجعل لي آية تعرفني بها قال: نرفع صحيفتك على قصبة أعرفك بها، فكساه وأعطاه. ثم إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا، ويدني مجلسه، ويستشيره في أمره، ولا يقطع أمرا دونه، وأنه هوى أن يتزوج ابنة امرأة له، فسأل يحيى عن ذلك، فنهاه عن نكاحها وقال: لست أرضاها لك، فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها، فعمدت أم الجارية حين جلس الملك على شرابه، فألبستها ثيابا رقاقا حمرا، وطيبتها وألبستها من الحلي، وقيل: إنها ألبستها فوق ذلك كساء أسود، وأرسلتها إلى الملك، وأمرتها أن تسقيه، وأن تعرض له نفسها، فإن أرادها على نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يأتي برأس يحيى بن زكريا في طست، ففعلت، فجعلت تسقيه وتعرض له نفسها؛ فلما أخذ فيه الشراب أرادها على نفسها، فقالت: لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك، فقال: ما الذي تسأليني؟ قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا، فأوتي برأسه في هذا الطست، فقال: ويحك سليني غير هذا، فقالت له: ما أريد أن أسألك إلا هذا. قال: فلما ألحت عليه بعث إليه، فأتى برأسه، والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول: لا يحل لك ذلك؛ فلما أصبح إذا دمه يغلي، فأمر بتراب فألقى عليه، فرقى الدم فوق التراب يغلي، فألقى عليه التراب أيضا، فارتفع الدم فوقه، فلم يزل يلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو يغلى وبلغ صحابين، فثار في الناس، وأراد أن يبعث عليهم جيشا، ويؤمر عليهم رجلا فأتاه بختنصر وكلمه وقال: إن الذي كنت أرسلته تلك المرة ضعيف، وإني قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها، فابعثني، فبعثه، فسار بختنصر حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصنوا منه في مدائنهم، فلم يطقهم، فلما اشتد عليهم المقام وجاع أصحابه، أرادوا الرجوع، فخرجت إليهم عجوز من عجائز بني

=

=

إسرائيل فقالت: أين أمير الجند؟ فأتي بها إليه، فقالت له: إنه بلغني أنك تريد أن ترجع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة، قال: نعم، قد طال مقامي، وجاع أصحابي، فلست أستطيع المقام فوق الذي كان مني، فقالت: أرأيتك إن فتحت لك المدينة أتعطيني ما سألتك، وتقتل من أمرتك بقتله، وتكف إذا أمرتك أن تكف؟ قال: نعم، قالت: إذا أصبحت فاقسم جندك أربعة أرباع، ثم أقم على كل زاوية ربعا، ثم ارفعوا بأيديكم إلى السماء فنادوا: إنا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريا، فإنها سوف تساقط، ففعلوا، فتساقطت المدينة، ودخلوا من جوانبها، فقالت له: اقتل على هذا الدم حتى يسكن، وانطلقت به إلى دم يحيى وهو على تراب كثير، فقتل عليه حتى سكن سبعين ألفا وامرأة؛ فلما سكن الدم قالت له: كف يدك، فإن الله تبارك وتعالى إذا قتل نبي لم يرض، حتى يقتل من قتله، ومن رضي قتله، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته، فكف عنه وعن أهل بيته، وخرب بيت المقدس، وأمر به أن تطرح فيه الجيف، وقال: من طرح فيه جيفة فله جزيته تلك السنة، وأعانه على خرابه الروم من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى، فلما خربه بختنصر ذهب معه بوجوه بني إسرائيل وأشرافهم، وذهب بدانيال وعليا وعزاريا وميشائيل، هؤلاء كلهم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت؛ فلما قدم أرض بابل وجد صحابين قد مات، فملك مكانه، وكان أكرم الناس عليه دانيال وأصحابه، فحسدهم المجوس على ذلك، فوشوا بهم إليه وقالوا: إن دانيال وأصحابه لا يعبدون إلهك، ولا يأكلون من ذبيحتك، فدعاهم فسألهم، فقالوا: أجل إن لنا ربا نعبده، ولسنا نأكل من ذبيحتكم، فأمر بخد فخد لهم، فألقوا فيه وهم ستة، وألقي معهم سبعا ضاريا ليأكلهم، فقال: انطلقوا فلنأكل ولنشرب، فذهبوا فأكلوا وشربوا، ثم راحوا فوجدوهم جلوسا والسبع مفترش ذراعيه بينهم، ولم يخدش منهم أحدا، ولم ينكأه شيئا، ووجدوا معهم رجلا فعدوهم فوجدوهم

=

=

سبعة، فقالوا: ما بال هذا السابع إنما كانوا ستة، فخرج إليهم السابع، وكان ملكا من الملائكة، فلطمه لطمة فصار في الوحش، فكان فيهم سبع سنين، لا يراه وحشي إلا أتاه حتى ينكحه، يقتص منه ما كان يصنع بالرجال، ثم إنه رجع ورد الله عليه ملكه، فكانوا أكرم خلق الله عليه. ثم إن المجوس وشوا به ثانية، فألقوا أسدا في بئر قد ضري، فكانوا يلقون إليه الصخرة فيأخذها، فألقوا إليه دانيال، فقام الأسد في جانب، وقام دانيال في جانب لا يمسه، فأخرجوه، وقد كان قبل ذلك خد لهم خدا، فأوقد فيه نارا، حتى إذا أججها قذفهم فيها، فأطفأها الله عليهم ولم ينلهم منها شيء. ثم إن بختنصر رأى بعد ذلك في منامه صنما رأسه من ذهب، وعنقه من شبه، وصدره من حديد، وبطنه أخلاط ذهب وفضة وقوارير، ورجلاه من فخار؛ فبينا هو قائم ينظر، إذ جاءت صخرة من السماء من قبل القبلة، فكسرت الصنم فجعلته هشيما، فاستيقظ فزعا وأنسيها، فدعا السحرة والكهنة، فسألهم، فقال: أخبروني عما رأيت، فقالوا له: لا بل أنت أخبرنا، ما رأيت فنعبره لك، قال: لا أدري، قالوا له: فهؤلاء الفتية الذين تكرمهم، فادعهم فاسألهم، فإن هم لم يخبروك بما رأيت فما تصنع بهم؟ قال: أقتلهم، فأرسل إلى دانيال وأصحابه، فدعاهم، فقال لهم: أخبروني ماذا رأيت؟ فقال له دانيال: بل أنت أخبرنا ما رأيت فنعبره لك، قال: لا أدري قد نسيتها، فقال له دانيال: كيف نعلم رؤيا لم تخبرنا بها؟ فأمر البواب أن يقتلهم، فقال دانيال للبواب: إن الملك إنما أمر بقتلنا من أجل رؤياه، فأخرنا ثلاثة أيام، فإن نحن أخبرنا الملك برؤياه وإلا فاضرب أعناقنا، فأجلهم فدعوا الله، فلما كان اليوم الثالث أبصر كل رجل منهم رؤيا بختنصر على حدة، فأتوا البواب فأخبروه، فدخل على الملك فأخبره، فقال: أدخلهم علي؛ وكان بختنصر لا يعرف من رؤياه شيئا، إلا شيئا يذكرونه، فقالوا له: أنت رأيت كذا وكذا، فقصوها عليه، فقال: صدقتم، قالوا: نحن نعبرها لك. أما الصنم الذي

=

=

رأيت رأسه من ذهب، فإنه ملك حسن مثل الذهب، وكان قد ملك الأرض كلها؛ وأما العنق من الشبه، فهو ملك ابنك بعد، يملك فيكون ملكه حسنا، ولا يكون مثل الذهب؛ وأما صدره الذي من حديد فهو ملك أهل فارس، يملكون بعدك ابنك، فيكون ملكهم شديدا مثل الحديد؛ وأما بطنه الأخلاط، فإنه يذهب ملك أهل فارس، ويتنازع الناس الملك في كل قرية، حتى يكون الملك يملك اليوم واليومين، والشهر والشهرين، ثم يقتل، فلا يكون للناس قوام على ذلك، كما لم يكن للصنم قوام على رجلين من فخار؛ فبينما هم كذلك، إذ بعث الله تعالى نبيا من أرض العرب؛ فأظهره على بقية ملك أهل فارس، وبقية ملك ابنك وملكك، فدمره وأهلكه حتى لا يبقى منه شيء، كما جاءت الصخرة فهدمت الصنم، فعطف عليهم بختنصر فأحبهم، ثم إن المجوس وشوا بدانيال، فقالوا: إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول، وكان ذلك فيهم عارا، فجعل لهم بختنصر طعاما، فأكلوا وشربوا، وقال للبواب: انظر أول من يخرج عليك يبول، فاضربه بالطبرزين، وإن قال: أنا بختنصر، فقل: كذبت، بختنصر أمرني، فحبس الله عن دانيال البول، وكان أول من قام من القوم يريد البول بختنصر، فقام مدلا وكان ذلك ليلا يسحب ثيابه؛ فلما رآه البواب شد عليه، فقال: أنا بختنصر، فقال: كذبت، بختنصر أمرني أن أقتل أول من يخرج، فضربه فقتله".

قوله تعالى: {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} [الإسراء: ٧]، أي:" سَلَّطْنا عليكم أعداءكم مرة أخرى؛ ليذلوكم ويغلبوكم، فتظهر آثار الإهانة والمذلة على وجوهكم".

**قال الطبري:**" يقول: ليسوء مجيء ذلك الوعد للمرة الآخرة وجوهكم فيقبحها".

قال الواحدي: أي:"ليخزوكم خزياً يظهر أثره في وجوهكم كبسي ذراريكم وإخراب مساجدكم"

وفيمن جاءهم فيها قولان:

=

=

أحدهما: بختنصّر المجوسي البابلي، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد.

قال ابن عباس:" فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرة الآخرة بختنصر، فخرب المساجد وتبر ما علوا تتبيرا".

وقال ابن عباس:" بعث عيسى ابن مريم يحيى بن زكريا، في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس، قال: فكان فيما نهاهم عنه، نكاح ابنة الأخ، قال: وكانت لملكهم ابنة أخ تعجبه يريد أن يتزوجها، وكانت لها كل يوم حاجة يقضيها؛ فلما بلغ ذلك أمها قالت لها: إذا دخلت على الملك فسألك حاجتك، فقولي: حاجتي أن تذبح لي يحيى بن زكريا؛ فلما دخلت عليه سألها حاجتها، فقالت: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا، فقال: سلي غير هذا! فقالت: ما أسألك إلا هذا، قال: فلما أبت عليه دعا يحيى ودعا بطست فذبحه، فبدرت قطرة من دمه على

الأرض، فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر عليهم، فجاءته عجوز من بني إسرائيل، فدلته على ذلك الدم، قال: فألقى الله في نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن، فقتل سبعين ألفا منهم من سن واحد فسكن".

قال مجاهد:" بعث الله ملك فارس ببابل جيشا، وأمر عليهم بختنصر، فأتوا بني إسرائيل، فدمروهم، فكانت هذه الآخرة ووعدها".

قال قتادة:" فبعث الله عليهم في الآخرة بختنصر المجوسي البابلي، أبغض خلق الله إليه، فسبا وقتل وخرب بيت المقدس، وسامهم سوء العذاب".

قال ابن زيد:" كانت الآخرة أشد من الأولى بكثير، قال: لأن الأولى كانت هزيمة فقط، والآخرة كان التدمير، وأحرق بختنصر التوراة حتى لم يبق منها حرف واحد، وخرب المسجد".

=

=

قال سعيد بن جبير:" بعث الله عليهم في المرة الأولى سنحاريب، قال: فرد الله لهم الكرة عليهم، كما قال؛ قال: ثم عصوا ربهم وعادوا لما نهوا عنه، فبعث عليهم في المرة الآخرة بختنصر، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية، وأخذ ما وجد من الأموال، ودخلوا بيت المقدس، كما قال الله ﷻ: {وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا} دخلوه فتبروه وخربوه وألقوا فيه ما استطاعوا من العذرة والحيض والجيف والقذر، فقال الله: {عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا} فرحمهم فرد إليهم ملكهم وخلص من كان في أيديهم من ذرية بني إسرائيل، وقال لهم: إن عدتم عدنا، فقال أبو المعلى، ولا أعلم ذلك؛ إلا من هذا الحديث، ولم يعدهم الرجعة إلى ملكهم".

وقال ابن إسحاق: "فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بن زكريا (وبعض الناس يقول: وقتلوا زكريا)، ابتعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خردوس، فسار إليه بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام، فلما ظهر عليهم أمر رأسا من رءوس جنده يدعى نبور زاذان صاحب القتل، فقال له: إني قد كنت حلفت بإلهي لئن أظهرنا على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، إلا أن لا أجد أحدا أقتله، فأمر أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم نبور زادان، فدخل بيت المقدس، فقال في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم، فوجد فيها دما يغلي، فسألهم فقال: يا بني إسرائيل، ما شأن هذا الدم الذي يغلي، أخبروني خبره ولا تكتموني شيئا من أمره؟ فقالوا: هذا دم قربان كان لنا كنا قربناه فلم يتقبل منا، فلذلك هو يغلي كما تراه، ولقد قربنا منذ ثمان مئة سنة القربان فتقبل منا إلا هذا القربان، قال: ما صدقتموني الخبر قالوا له: لو كان كأول زماننا لقبل منا، ولكنه قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي، فلذلك لم يتقبل منا، فذبح منهم نبور زادان على ذلك الدم سبع مئة وسبعين روحا من رءوسهم، فلم يهدأ،

=

=

فأمر بسبع مئة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ، فأمر بسبعة آلاف من شيعهم وأزواجهم، فذبحهم على الدم فلم يبرد ولم يهدأ؛ فلما رأى نبور زاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم: ويلكم يا بني إسرائيل أصدقوني واصبروا على أمر ربكم، فقد طال ما ملكتم في الأرض، تفعلون فيها ما شئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار، لا أنثى ولا ذكرا إلا قتلته، فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر، فقالوا له: إن هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله، فلو أطعناه فيها لكان أرشد لنا، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه، فقتلناه، فهذا دمه، فقال لهم نبور زاذان: ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكريا، قال: الآن صدقتموني، بمثل هذا ينتقم ربكم منكم؛ فلما رأى نبور زاذان أنهم صدقوه خر ساجدا وقال لمن حوله: غلقوا الأبواب، أبواب المدينة، وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوس وخلا في بني إسرائيل ثم قال: يا يحيى بن زكريا، قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، وما قتل منهم من أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل أن لا أبقي من قومك أحدا، فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله، ورفع نبور زاذان عنهم القتل وقال: آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل، وصدقت وأيقنت أنه لا رب غيره، ولو كان معه آخر لم يصلح، ولو كان له شريك لم تستمسك السماوات والأرض، ولو كان له ولد لم يصلح فتبارك وتقدس، وتسبح وتكبر وتعظم، ملك الملوك الذي له ملك السماوات السبع والأرض وما فيهن، وما بينهما، وهو على كل شيء قدير، فله الحلم والعلم والعزة والجبروت، وهو الذي بسط الأرض وألقى فيها رواسي لئلا تزول، فكذلك ينبغي لربي أن يكون ويكون ملكه. فأوحى الله إلى رأس من رءوس بقية الأنبياء أن نبور زاذان حبور صدوق، والحبور بالعبرانية: حديث الإيمان، وإن نبور زاذان قال لبني إسرائيل: يا بني إسرائيل، إن عدو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لست أستطيع أن أعصيه، قالوا له:

=

=

افعل ما أمرت به. فأمرهم فحفروا خندقا وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والإبل، فذبحها حتى سال الدم في العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قبل ذلك، فطرحوا على ما قتل من مواشيهم حتى كانوا فوقهم، فلم يظن خردوس إلا أن ما كان في الخندق من بني إسرائيل، فلما بلغ الدم عسكره، أرسل إلى نبور زاذان أن ارفع عنهم، فقد بلغتني دماؤهم، وقد انتقمت منهم بما فعلوا، ثم انصرف عنهم إلى أرض بابل، وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد، وهي الوقعة الآخرة التي أنزل الله ببني إسرائيل، يقول الله عز ذكره لنبيه محمد ﷺ (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) وعسى من الله حق، فكانت الوقعة الأولى: بختنصر وجنوده، ثم رد الله لكم الكرة عليهم، وكانت الوقعة الآخرة خردوس وجنوده، وهي كانت أعظم الوقعتين، فيها كان خراب بلادهم، وقتل رجالهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، يقول الله تبارك وتعالى: {وليتبروا ما علوا تتبيرا} ثم عاد الله عليهم فأكثر عددهم، ونشرهم في بلادهم، ثم بدلوا وأحدثوا الأحداث، واستبدلوا بكتابهم غيره، وركبوا المعاصي، واستحلوا المحارم وضيعوا الحدود".

وقال ابن إسحاق:" فيما بلغني، استخلف الله على بني إسرائيل بعد ذلك، يعني بعد قتلهم شعياء رجلا منهم يقال له: ناشة بن آموص، فبعث الله الخضر نبيا، وكان رسول الله ﷺ فيما قد بلغني يقول: "إنما سمي الخضر خضرا، لأنه جلس على

=

=

فروة بيضاء، فقام عنها وهي تهتز خضراء" قال: واسم الخضر فيما كان وهب بن منبه يزعم عن بني إسرائيل: أرميا بن حلفيا، وكان من سبط هارون بن عمران".

**الثاني**: أنه انطياخوس بن سيس الرومي ملك أرض نينوى، وهو قول مقاتل.

قال الماوردي:"وقيل إنه قتل منهم مائة ألف وثمانين ألفًا، وحرق التوراة وأخرب بيت المقدس، ولم يزل على خرابه حتى بناه المسلمون".

وقرئ: «ليسوء وجوهكم»، على التوحيد وبالياء، وقرئ «لنسوء وجوهكم» على وجه الخبر من الله تبارك وتعالى اسمه عن نفسه.

قوله تعالى: {وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الإسراء: ٧]، أي:" وليدخلوا عليكم «بيت المقدس» فيخرِّبوه، كما خرَّبوه أول مرة".

**قال الطبري**:" يقول: وليدخل عدوكم الذي أبعثه عليكم مسجد بيت المقدس قهرا منهم لكم وغلبة، كما دخلوه أول مرة حين أفسدتم الفساد الأول في الأرض".

قوله تعالى: {وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا} [الإسراء: ٧]، أي:" وليدمروا كل ما وقع تحت أيديهم تدميرًا كاملا".

قال القرطبي:" أي: ليدمروا ويهلكوا".

**قال الطبري**:" يقول: وليدمروا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميرا، يقال منه: دمرت البلد: إذا خربته وأهلكت أهله، وتبر تبرا وتبارا، وتبرته أتبره تتبيرا، ومنه قول الله تعالى ذكره: {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} [نوح: ٢٨]، يعني: هلاكا".

وفي قوله تعالى: {وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا} [الإسراء: ٧]، وجهان:

أحدهما: أنه الهلاك والدمار.

قال ابن عباس:" {وليتبروا ما علوا تتبيرا}، قال: تدميرا".

قال قتادة:" يدمروا ما علوا تدميرا".

=

=

**الثاني**: أنه الهدم والإخراب، قاله قطرب، ومنه قول لبيد:

**وما النَّاسُ إلا عَامِلان فَعَامِلٌ يُتَبِّرُ مَا يَبْنِي وَآخَرُ رَافِعُ**

* ثم ساق- سبحانه- بعد ذلك سنة من سننه التي لا تتخلف، وهي أن الإحسان عاقبته الفلاح، والعصيان عاقبته الخسران، وأن كل إنسان مسئول عن عمله، ونتائج هذا العمل- سواء أكانت خيرا أم شرا- لا تعود إلا عليه، فقال- تعالى-: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها.

أى: إن أحسنتم- أيها الناس- أعمالكم، بأن أديتموها بالطريقة التي ترضى الله- تعالى- أفلحتم وسعدتم، وجنيتم الثمار الطيبة التي تترتب على هذا الإحسان للعمل، وإن أسأتم أعمالكم، بأن آثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة، خسرتم وشقيتم وتحملتم وحدكم النتائج الوخيمة التي تترتب على إتيان الأعمال التي لا ترضى الله- تعالى-.

وقد رأيتم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ.

وكيف أن الإحسان كانت عاقبته أن رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ على أعدائكم وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً.

قال صاحب البحر ما ملخصه: وجواب «وإن أسأتم» قوله «فلها» وهو خبر لمبتدأ محذوف أى: فالإساءة لها. قال الكرماني: قال- سبحانه-: فَلَها باللام ازدواجا.

أى: أنه قابل لِأَنْفُسِكُمْ بقوله فَلَها. وقال الطبري اللام بمعنى إلى أى: فإليها ترجع الإساءة.

**وقيل**: اللام بمعنى على. أى: فعليها، كما في قول الشاعر: فخر صريعا لليدين وللفم.

ثم بين- سبحانه- ما يحل بهم من دمار، بعد إفسادهم للمرة الثانية، فقال- تعالى-

=

=

: ( فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ، لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً).

والكلام أيضا هنا على حذف مضاف، وجواب إذا محذوف دل عليه ما تقدم وهو قوله بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بنى إسرائيل على إفسادكم الثاني في الأرض، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم أى: ليجعلوا آثار المساءة والحزن بادية على وجوهكم، من شدة ما تلقونه منهم من إيذاء وقتل.

قال الجمل ما ملخصه: وقوله لِيَسُوؤُا الواو للعباد أولى البأس الشديد.

وفي عود الواو على العباد نوع استخدام، إذ المراد بهم أولا جالوت وجنوده، والمراد بهم هنا بختنصر وجنوده.

وقال الرازي: ويقال ساءه يسوءه إذا أحزنه، وإنما عزا- سبحانه- الإساءة إلى الوجوه، لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح في القلب ظهر الإشراق في الوجه، وإن حصل الحزن والخوف في القلب، ظهر الكلوح في الوجه.

وقوله- سبحانه-: وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ معطوف على ما قبله وهو قوله- سبحانه- لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ.

والمراد بالمسجد: المسجد الأقصى الذي ببيت المقدس، وقوله «كما دخلوه» صفة لمصدر محذوف.

والمعنى: وليدخلوا المسجد دخولا كائنا كدخولهم إياه أول مرة.

قال أبو حيان: ومعنى كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ أى بالسيف والقهر والغلبة والإذلال.

أى: أن المراد من التشبيه، بيان أن الأعداء في كل مرة أذلوا بنى إسرائيل وقتلوهم وقهروهم.

وقوله- تعالى-: وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً يشعر بشدة العقوبة التي أنزلها أولئك

=

=

العباد ببني إسرائيل، إذ التتبير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه.

ومنه قول الشاعر:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبنى وآخر رافع

أى: يخرب ويهد ما يبنى.

و «ما» في قوله ما عَلَوْا اسم موصول مفعول يتبروا: وهو عبارة عن البلاد والأماكن التي هدموها، والعائد محذوف، وتتبيرا مفعول مطلق مؤكد لعامله.

أى: وليدمرا ويخربوا البلاد والأماكن التي علوا عليها، وصارت في حوزتهم، تدميرا تاما لا مزيد عليه.

وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله- تعالى- على بنى إسرائيل، عقب إفسادهم الثاني في الأرض، لم يكتفوا بجوس الديار، بل أضافوا إلى ذلك إلقاء الحزن والرعب في قلوبهم، ودخول المسجد الأقصى فاتحين ومخربين، وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا فظيعا لا يوصف.

قال ابن جرير بعد أن أطال في سرد الروايات: فعلى القول الذي ذكرنا عن ابن عباس من رواية السديّ، وقول ابن زيد، كان إفساد بني إسرائيل في الأرض المرّة الأولى قتلهم زكريا نبيّ الله ﷺ، مع ما كان سلف منهم قبل ذلك وبعده، إلى أن بعث الله عليهم من أحلّ على يده بهم نقمته من معاصي الله، وعتوّهم على ربهم، وأما على قول ابن إسحاق الذي روينا عنه، فكان إفسادهم المرّة الأولى ما وصف من قتلهم شعياء بن أمصيا نبيّ الله، وذكر ابن إسحاق أن بعض أهل العلم أخبره أن زكريا مات موتا ولم يُقتل، وأن المقتول إنما هو شعياء، وأن بختنصر هو الذي سُلِّط على بني إسرائيل في المرّة الأولى بعد قتلهم شعياء، حدثنا بذلك ابن حميد، عن سلمة عنه، وأما إفسادهم في الأرض المرّة الآخرة، فلا اختلاف بين أهل العلم أنه كان قتلهم يحيى بن زكريا. ا.هـ

=

=

ولعل عدم ترجيح ابن جرير بين القولين، لأنه ليس هناك قول ذو حجة ظاهرة يتعين المصير إليها، وعلى كل حال فالأقوال الواردة في حقيقة الإفساد الذي أفسده بنو إسرائيل ومن سُلِّط عليهم، إن صحت إنما هي آثار مأخوذة عن بني إسرائيل وهي مما لا يتعين تصديقها، لذا رأى بعض المحققين من المفسرين كابن كثير الإضراب عن ذكرها صفحا، فقد قال في تفسيره :يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوا كبيرا، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، وقوله: فإذا جاء وعد أولاهما ـ أي :أولى الإفسادتين: بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد ـ أي: سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولي بأس شديد أي: قوة وعدة وسلطة شديدة.

(فجاسوا خلال الديار ) أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا، وبه قال البغوي، وابن عاشور.

وذهب بعض المفسرين كالفراء، وأبي عبيدة معمر بن المثنى إلى أن المعنى: قتلوهم بين بيوتهم.

وذهب النحاس، وابن منظور، والنسفي، والبيضاوي، وأبو السعود إلى أن المعنى: ترددوا لطلبهم وقهرهم.

وقال الطبري بقوله: (وقوله: {فجاسوا خلال الديار} يقول: فترددوا بين الدور والمساكن، وذهبوا وجاؤوا – إلى أن قال – وجائز أن يكون معناه: فجاسوا خلال الديار، فقتلوهم ذاهبين وجائين، فيصح التأويلان جميعا).

يقول القرطبي عن تفسير الطبري للجوس: (فجمع بين قول أهل اللغة).

وكان وعدا مفعولا ـ وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء

=

المسلطين عليهم: من هم؟ وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد، وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء .اهـ باختصار.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٤١٧): قوله تعالى: وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن بني إسرائيل عموا وصموا مرتين، تتخللهما توبة من الله عليهم، وبين تفصيل ذلك في قوله: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين الآية، فبين جزاء عماهم، وصممهم في المرة الأولى بقوله: فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد الآية، وبين جزاء عماهم وصممهم في المرة الآخرة بقوله: فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا، وبين التوبة التي بينهما بقوله: ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا، ثم بين أنهم إن عادوا إلى الإفساد عاد إلى الانتقام منهم بقوله: وإن عدتم عدنا، فعادوا إلى الإفساد بتكذيبه ﷺ وكتم صفاته التي في التوراة، فعاد الله إلى الانتقام منهم، فسلط عليهم نبيه ﷺ فذبح مقاتلة بني قريظة، وسبى نساءهم، وذراريهم، وأجلى بني قينقاع، وبني النضير، كما ذكر تعالى طرفا من ذلك في سورة الحشر، وهذا البيان الذي ذكرنا في هذه الآية ذكره بعض
=

=

المفسرين، وكثير منهم لم يذكره، ولكن ظاهر القرآن يقتضيه ؛ لأن السياق في ذكر أفعالهم القبيحة الماضية، من قتل الرسل، وتكذيبهم، إذ قبل الآية المذكورة: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون.

ومعنى وحسبوا ألا تكون فتنة، ظنوا ألا يصيبهم بلاء وعذاب من الله، بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء، لزعمهم الباطل، أنهم أبناء الله وأحباؤه. ا.هـ

قوله تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ} [الإسراء: ٨]، أي:" عسى ربكم -يا بني إسرائيل- أن يرحمكم بعد انتقامه إن تبتم وأصلحتم".

قال قتادة:" فعاد الله عليهم بعائدته ورحمته".

قال ابن إسحاق:" {عسى} : من الله حق".

قال مقاتل:" والـ «عسى» من الله واجب".

قال أبو مالك: " كل شيء في القران: {عسى}، فهو واجب الا حرفين، حرف في التحريم: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن}، وفي بني اسرائيل: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم} ". وروي عن الضحاك، والحسن، والسدي، وابن إسحاق، نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} [الإسراء: ٨]، أي:" وإن عدتم إلى الإفساد والظلم عُدْنا إلى عقابكم ومذلَّتكم".

قال يحيى بن سلام: أي:" عليكم بالعقوبة".

قال مقاتل:" يقول وإن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بأشد مما أصابكم يعني من القتل والسبي فعادوا إلى الكفر وقتلوا يحيى بن زكريا فسلط الله عليهم ططس بن استاتوس الرومي، ويقال اصطفابوس، فقتل على دم يحيى بن زكريا مائة ألف وثمانين ألفا من اليهود فهم الذين قتلوا الرقيب على عيسى الذي كان شبه لهم وسبى ذراريهم وأحرق التوراة وخرب بيت المقدس وألقى فيه الجيف وذبح فيه الخنازير فلم يزل خرابا حتى جاء الإسلام فعمره المسلمون".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} [الإسراء: ٨]، وجهان:

أحدهما: إن عدتم إلى الإساءة عدنا إلى الانتقام، فعادوا.

قال ابن عباس:" فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين".

وقال ابن عباس:" عادوا فعاد، ثم عادوا فعاد، ثم عادوا فعاد. قال: فسلط الله عليهم ثلاثة ملوك من ملوك فارس: سندباذان وشهرباذان وآخر".

قال قتادة:" فبعث الله عليهم محمدا ﷺ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون".

وقال قتادة:" عاد القوم بشر ما يحضرهم، فبعث الله عليهم ما شاء أن يبعث من نقمته وعقوبته، ثم كان ختام ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحي من العرب، فهم في عذاب منهم إلى يوم القيامة؛ قال الله ﷻ في آية أخرى: {وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة} .... الآية، فبعث الله عليهم هذا الحي من العرب".

قال ابن زيد:" لما صنعتم لمثل هذا من قتل يحيى وغيره من الأنبياء {عدنا} إليكم بمثل هذا".

**الثاني**: إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى القبول، حكاه الماوردي عن بعض الصالحين.

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} [الإسراء: ٨]، أي:" وجعلنا جهنم لكم وللكافرين عامة سجنًا لا خروج منه أبدا".

قال ابن عباس:" يقول: جعل الله مأواهم فيها".

قال مجاهد:" يحصرون فيها".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} [الإسراء: ٨]، وجهان:

أحدهما: يعني فراشاً ومهاداً، قاله الحسن.

قال الماوردي:"مأخوذ من الحصير المفترش".

=

=

**قال الطبري**:"ذهب الحسن بقوله هذا إلى أن الحصير في هذا الموضع عني به الحصير الذي يبسط ويفترش، وذلك أن العرب تسمي البساط الصغير حصيرا، فوجه الحسن معنى الكلام إلى أن الله تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا، كما قال (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) وهو وجه حسن وتأويل صحيح".

**الثاني**: سجنا يسجنون فيها، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، مأخوذ من الحصر وهو الحبس. والعرب تسمي الملك حصيراً لأنه بالحجاب محصور، قال لبيد:

**وَمَقَامةٍ غُلْبِ الرِّقَابِ كَأنهم جِنٌّ لدى طَرَفِ الحَصِيرِ قِيامُ**

يعني بـ «الحصير»: الملك، ويقال للبخيل: حصور وحصر: لمنعه ما لديه من المال عن أهل الحاجة، وحبسه إياه عن النفقة، كما قال الأخطل:

**وشارب مربح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار**

ويروى: بسآر. ومنه الحصر في المنطق لامتناع ذلك عليه، واحتباسه إذا أراده. ومنه أيضا الحصور عن النساء لتعذر ذلك عليه، وامتناعه من الجماع، وكذلك الحصر في الغائط: احتباسه عن الخروج، وأصل ذلك كله واحد وإن اختلفت ألفاظه.

**قال الطبري**:" والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى ذلك {وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا} فراشا ومهادا لا يزايله من الحصير الذي بمعنى البساط، لأن ذلك إذا كان كذلك كان جامعا معنى الحبس والامتهاد، مع أن الحصير بمعنى البساط في كلام العرب أشهر منه بمعنى الحبس".

* ثم ختم- سبحانه- الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذي حل ببني إسرائيل بسبب إفسادهم في الأرض مرتين، قد يكون طريقا لرحمتهم، وسببا في توبتهم وإنابتهم، إن فتحوا قلوبهم للحق، واعتبروا بالأحداث الماضية، وفهموا عن الله-

=

=

تعالى- سنته التي لا تتخلف، وهي أن الإحسان يؤدى إلى الفلاح والظفر، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعاني أبلغ تعبير وأحكمه. فقال- تعالى-: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا، وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً.

أى: عسى ربكم أن يرحمكم: ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصتم له العبادة والطاعة، وأصلحتم أقوالكم وأعمالكم، فقد علمتم أنه- سبحانه- لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفعه إلا بتوبة.

قال: أبو حيان: وهذه الترجية ليست لرجوع دولة، وإنما هي من باب ترحم المطيع منهم، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا- عليهما السلام ولكنهم لم يفعلوا.

وقوله- سبحانه-: وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا إنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم، إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم.

أى: وإن عدتم إلى المعاصي ومخالفة أمرى، وانتهاك حرماتى، بعد أن تداركتكم رحمتي، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار.

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان، حيث أعرضوا عن دعوة الحق التي جاءهم بها الرسول ﷺ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل هموا بقتله ﷺ وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين، فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم النبي ﷺ وأصحابه بما يستحقون من إجلاء وتشريد وقتل..

قال ابن عباس- رضى الله عنهما-: «عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين».

ثم بين- سبحانه- عقوبتهم في الآخرة فقال: وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً أى: إن عدتم إلى معصيتنا في الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة، أما في الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم «حصيرا» أى: سجنا حاصرا لكم لا

=

إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآنَ يَهْـدِي لِلَّتِـي هِـيَ أَقْـوَمُ وَيُبَـشِّرُ الْمُـؤْمِنِينَ الَّـذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩).

{إن هذا القرآن يهدي لِلَّتِي} أَيْ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي {هِيَ أَقْوَم} أَعْدَل وأصوب {ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا}.

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠).

{وَ} يُخْبِر {أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا} أَعْدَدْنَا {لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} مُؤْلِمًا هُوَ النار[1].

---

=

تستطيعون الهروب منه، أو الفكاك عنه، أو فراشا تفترشونه، كما قال- تعالى-: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ. وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ.

قال بعض العلماء: قوله حَصِيراً فيه وجهان: الأول: أن الحصير المحبس والسجن. من الحصر وهو الحبس: يقال حصره يحصره حصرا، إذا ضيق عليه وأحاط به.

والثاني أن الحصير: البساط والفراش، من الحصير الذي يفرش، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا..».

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد حكت لنا قضاء الله- تعالى- في بنى إسرائيل، وساقت لنا لكي نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله- تعالى- التي لا تتخلف، والتي من أبرزها أن الإيمان والصلاح عاقبتهما الفلاح، وأن الكفر والفساد عاقبتهما الشقاء، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]، أي:" إن هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ يرشد الناس إلى أحسن الطرق، وهي ملة الإسلام".

=

=

قال الثعلبي:" أي: للطريقة التي هي أصح وأصوب".

قال السمعاني:" أي: للحال التي هي أقوم، والحال التي هي أقوم: توحيد الله، واتباع رسله، وطواعيته في أوامره".

**قال الطبري:**" يقول جلّ ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به".

قال ابن كثير:" يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل".

قال الزجاج:" أي: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله - ﷻ - أي: شهادة أن لَا إلهَ إلا الله والإيمان بِرُسلِهِ، والعملُ بطاعتِه، وهذه صفة الحال التي هي أقوم الحالات".

قال قتادة:" إن هذا القرآن يدلكم علي دائكم ودوائكم، فإما داؤكم فالذنوب والخطايا، وإما دواؤكم فالاستغفار".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]، وجهان:

أحدهما: شهادة أن لا إله إلا الله، قاله الكلبي، والفراء.

وقال النحاس:" المعنى: يهدي للحال التي هي أقوم، والحال التي هي أقوم: توحيد الله واتباع رسله والعمل بطاعته".

**الثاني:** ما تضمه من الأوامر والنواهي التي هي أصوب، قاله ابن زيد، ومقاتل.

عن ابن زيد:" {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، قال: التي هي أصوب: هو الصواب وهو الحقّ؛ قال: والمخالف هو الباطل. وقرأ قول الله تعالى: {فَيها كُتُبٌ قَيِّمة}، قال: فيها الحقّ ليس فيها عوج. وقرأ: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا} يقول: قيما مستقيما".

قوله تعالى: {وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}

=

=
[الإسراء: ٩]، أي:" ويبشر المؤمنين الذين يعملون بما أمرهم الله به، وينتهون عمَّا نهاهم عنه، بأن لهم ثوابًا عظيمًا".

**قال الطبري:**" يقول: ويبشر أيضا مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأقصد الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به، وينتهون عما نهاهم عنه بأن {لَهُمْ أَجْرًا} من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات {كَبِيرًا} يعني ثوابا عظيما، وجزاء جزيلا وذلك هو الجنة التي أعدّها الله تعالى لمن رضي عمله".

عن ابن جريج:" {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} قال: الجنة، وكلّ شيء في القرآن: «أجر كبير»، «أجر كريم»، و «رزق كريم»: فهو الجنة".

قال الفخر الرازي: اعلم أنه- تعالى- لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين، وهو الإسراء برسول الله ﷺ، وإيتاء الكتاب لموسى- عليه السلام، وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة، ومعصيته توجب كل بلية وغرامة، لا جرم أثنى- سبحانه- على القرآن فقال: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ا.هـ

فيخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه {يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

والفعل يَهْدِي مأخوذ من الهداية، ومعناها: الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى البغية. والمفعول محذوف. أى: يهدى الناس.

فقوله (إن هذا القرآن يهدي) الناس (للتي) أي للطريقة التي (هي أقوم) وأصوب من غيرها من الطرق وهي ملة الإسلام. وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله، وكذا قال الفراء، وقيل للكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله، فبعضهم يصل بهدايته وهم المؤمنون
=

=

وبعضهم لا يصل وهم الكافرون.

قال صاحب الكشاف: لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ أي: للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها، أو للملة أو للطريقة. وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إيهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه.

(ويبشر المؤمنين) بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلاً وعاجلاً (الذين يعملون الصالحات) التي أرشد إلى عملها القرآن (أن لهم) أي بأن لهم (أجراً كبيراً) وهو الجنة.

قوله تعالى: {وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [الإسراء: ١٠]، أي:" وأن الذين لا يصدقون بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره: وأن الذين لا يصدّقون بالمعاد إلى الله، ولا يقرّون بالثواب والعقاب في الدنيا، فهم لذلك لا يتحاشون من ركوب معاصي الله".

قال ابن كثير:" أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة".

قوله تعالى: {أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإسراء: ١٠]، أي:" أعددنا لهم عذابًا موجعًا في النار".

**قال الطبري**:" يقول: أعددنا لهم، لقدومهم على ربهم يوم القيامة {عَذَابًا أَلِيما}، يعني: موجعا، وذلك عذاب جهنم".

قال ابن كثير:" أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١] ".

* (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة) وأحكامها المبينة في القرآن (أعتدنا لهم عذاباً أليماً) وهو عذاب النار فلا يكون ذلك داخلاً في حيز البشارة وعليه جرى السفاقسي والبيضاوي والسيوطي.

=

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١).

{ويدعو الْإِنْسَان بِالشَّرِّ} عَلَى نَفْسه وَأَهْله إذَا ضَجِرَ {دُعَاءَهُ} أَيْ كَدُعَائِهِ لَهُ {بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَان} الْجِنْس {عَجُولًا} بِالدُّعَاءِ عَلَى نَفْسه وَعَدَم النَّظَر في عاقبته[1].

=

والجملة عطف على جملة يبشر بتقدير يخبر، وقيل عطف على قوله (أن لهم أجراً كبيراً) ويراد بالتبشير الإخبار سواء كان بخير أو شر أو معناه الحقيقي ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين ببشارتين، الأولى ما لهم من الثواب والثانية ما لأعدائهم من العقاب، ولا شك أن ما يصيب عدوهم سرور لهم.

قال الآلوسى ما ملخصه: وتخصيص الآخرة بالذكر من بين سائر ما لم يؤمن به الكفرة، لكونها أعظم ما أمروا بالإيمان به، ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها، الذي أنبأ عنه قوله- تعالى-: أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً وهو عذاب جهنم. أى: أعددنا وهيأنا لهم، فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما.

والآية معطوفة على قوله أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً فيكون إعداد العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشرا به كثبوت الأجر الكبير للمؤمنين، ومصيبة العدو سرور يبشر به، فكأنه قيل: يبشر المؤمنين بثوابهم وعقاب أعدائهم.

(١) ذكر سبب النزول.

عن مجاهد؛ قال: لما خلق الله آدم خلق عينيه قبل بقية جسده، فقال: أي رب! أتم بقية خلقي قبل غيبوبة الشمس؛ فأنزل الله: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}.

أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ١١٥ رقم ١٧٧٧٥): ثنا معتمر عن الليث عن مجاهد.

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: ليث ابن أبي سليم؛ صدوق اختلط أخيرًا، ولم يتميز حديثه؛ فتُرك.

* قوله تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ} [الإسراء: ١١].

=

=

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره مذكرا عباده أياديه عندهم، ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر، فيقول: اللهم أهلكه والعنه عند ضجره وغضبه، كدعائه بالخير: يقول: كدعائه ربه بأن يهب له العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، يقول: فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشر كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك".

قال الفراء:" يريد كدعائه بالخير في الرغبة إلى الله ﷻ فيما لا يحب الداعي إجابته، كدعائه على ولده فلا يستجاب له في الشر وقد دعا به. فذلك أيضا من نعم الله ﷻ عليه".

وفي قوله تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ} [الإسراء: ١١]، وجهان:

**أحدها:** أن يطلب النفع في العاجل بالضر العائد عليه في الآجل. حكاه الماوردي.

**الثاني:** أن يدعوا أحدهم على نفسه أو ولده بالهلاك، ولو استجاب دعاءه بهذا الشر كما استجاب له بالخير لهلك. قاله ابن عباس، مجاهد، وقتادة، وبه قال ابن قتيبة، والفراء، والطبري.

قال ابن عباس:" يعني: قول الإنسان: اللهم العنه واغضب عليه، فلو يعجل له ذلك كما يعجل له الخير، لهلك، قال: ويقال: هو: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا}، أن يكشف ما به من ضر، يقول تبارك وتعالى: لو أنه ذكرني وأطاعني، واتبع أمري عند الخير، كما يدعوني عند البلاء، كان خيرا له".

قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} [الإسراء: ١١]، أي:" وكان الإنسان بطبعه عجولا".

قال ابن قتيبة:"أي: يعجل عند الغضب. والله لا يعجل بإجابته".

قال الزجاج:" وإنما خوطبت العرب بما تعقل، العرب تقول للذي يكثر الشيء: خُلِقْتَ منه، كما تقول: أَنْتَ مِنْ لَعِبٍ، وخلقت من لعبٍ، نريد المبالغة بوصفه

=

=

باللعب".

وفي قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} [الإسراء: ١١]، وجهان:

أحدهما: عجولاً في الدعاء على نفسه وولده وما يخصه، وهذا قول ابن عباس، مجاهد، وقتادة.

قال قتادة:" يدعو على ماله، فيلعن ماله وولده، ولو استجاب الله له لأهلكه".

قال قتادة:" يدعو على نفسه بما لو استجيب له هلك، وعلى خادمه، أو على ماله".

قال مجاهد:" ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته، فيعجل: فيدعو عليه، ولا يحب أن يصيبه".

قال الحسن:" ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته، يغضب أحدهم فيدعوا عليه فيسب نفسه ويسب زوجته وماله وولده، فإن أعطاه ذلك شق عليه، فيمنعه ذلك ثم يدعو بالخير فيعطيه".

**الثاني**: أنه عنى آدم حين نفخ فيه الروح، حتى بلغت إلى سُرّته فأراد أن ينهض عجلاً، وهذا قول سلمان الفارسي، وإبراهيم، والضحاك.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: "أول ما خلق الله من آدم عليه السلام رأسه، فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه، فما كان العصر قال: يا رب، اعجل قبل الليل، فذلك قوله: {وكان الإنسان عجولا} ".

وقال ابن عباس:" لما نفخ الله في آدم من روحه أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجرى شيء منها في جسده، إلا صار لحما ودما؛ فلما انتهت النفخة إلى سرته، نظر إلى جسده، فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تبارك وتعالى: {وكان الإنسان عجولا}، قال: ضجرا لا صبر له على سراء، ولا ضراء".

=

=

* قوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) أي مثل دعائه بالخير (وكان الإنسان عجولا)

قال ابن كثير: يخبر- تعالى- عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده، أو ماله، بِالشَّرِّ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال- تعالى-: وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ...

وفي الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها». ا.هـ

وهذا من جهل الإنسان وعجلته حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء في الخير، ولكن الله -بلطفه- يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر. {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}.

(وكان الإنسان عجولاً) أي مطبوعاً على العجلة يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر إلى عاقبته، ومن عجلته أنه يسأل الشر كما يسأل الخير وقال ابن عباس: ضجراً لا صبر له على سراء ولا ضراء، والمراد بالإنسان الجنس لأن أحداً من الناس لا يعرى عن عجلة، ولو تركها لكان تركها أصلح في الدين والدنيا.

وقيل أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن يكمل فيه الروح، فعن سلمان الفارسي قال: أول ما خلق الله من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه، فلما كان بعد العصر قال يا رب أعجل قبل الليل، فذلك قوله (وكان الانسان عجولاً) والمناسب للسياق هو الأول.

وقال أبو السعود: الآية بيان لحال المهدي إثر بيان حال الهادي. وإظهار لما بينهما من التباين. والمراد بالإنسان الجنس، أسند إليه حال بعض أفراده. أو حكى عنه

=

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢).

---

=

حاله في بعض أحيانه. فالمعنى، على الأول: أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذي لا خير فوقه من الأجر الكبير. ويحذره من الشر الذي لا شر وراءه من العذاب الأليم، وهو- أي بعض منه وهو الكافر- يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور، إما بلسانه حقيقة كدأب من قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢]، ومن قال: فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين [الأعراف: ٧٠]، إلى غير ذلك مما حكى عنهم- وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه، الموجبة له مجازا. كما هو ديدن كلهم.

وقوله: وكان الإنسان عجولا يعني بالإنسان من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراده. عجولا يسارع إلى طلب ما يخطر بباله، متعاميا عن ضرره. أو مبالغا في العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة. ففيه نوع تهكم به. وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم، تحمل العجولية على اللج والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال.

وعلى الثاني: أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير. وهو في بعض أحيانه، كما عند الغضب، يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر. وكان الإنسان بحسب جبلته عجولا ضجرا لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه. أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا. وكان الإنسان عجولا غير متبصرا لا يتدبر في أموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به، وما هو شر جدير بالاستعاذة منه. انتهى.

{وَجَعَلْنَا اللَّيْل وَالنَّهَار آيَتَيْنِ} دَالَّتَيْنِ عَلَى قُدْرَتنَا {فَمَحَوْنَا آيَة اللَّيْل} طَمَسْنَا نُورهَا بِالظَّلَامِ لِتَسْكُنُوا فيه والإضافة للبيان {وجعلنا آية النهار مُبْصِرَة} أَيْ مُبْصِرًا فِيهَا بِالضَّوْءِ {لِتَبْتَغُوا} فِيهِ {فَضْلًا مِنْ رَبّكُمْ} بِالْكَسْبِ {وَلِتَعْلَمُوا} بِهِمَا {عَدَد السِّنِينَ وَالْحِسَاب} لِلْأَوْقَاتِ {وَكُلّ شَيْء} يُحْتَاج إلَيْهِ {فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} بَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ} [الإسراء: ١٢].

**قال الطبري**: يقول تعالى: " ومن نعمته عليكم أيها الناس، مخالفته بين علامة الليل وعلامة النهار".

قال مقاتل:" يعني: علامتين مضيئتين".

قوله تعالى: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} [الإسراء: ١٢]، أي:" فمَحَوْنا علامة الليل -وهي القمر-".

**قال الطبري**: أي: " بإظلامه علامة الليل لتسكنوا في هذا".

قال ابن قتيبة:" يعني: محو القمر".

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:" هو السواد الذي في القمر".

وفي رواية الفراء عنه، قال:" هو اللطخ الذي في القمر".

عن أبي الطُفيل، قال: "قال ابن الكَوّاء لعليّ: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللَّطْخة التي في القمر؟ فقال: ويْحَك أما تقرأ القرآن {فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ}، فهذه محوه".

وفي رواية عن رفيع بن أبي كثير قال: "قال علي بن أبي طالب -رضوان الله عليه-: سلوا عما شئتم، فقام ابن الكواء فقال: ما السواد الذي في القمر، فقال: قاتلك الله، هلا سألت عن أمر دينك وآخرتك؟ قال: ذلك محو الليل".

عن محمد بن كعب القرظي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الآية، قال: "كانت شمس بالليل وشمس بالنهار فمحا الله شمس الليل فهو المحو الذي في القمر".

=

=

عن مجاهد، قوله: " {فمحونا آية الليل}، قال: ظلمة الليل".

عن مجاهد: {فمحونا آية الليل}، قال: "السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله".

قال ابن عباس-رَضِّيَٱللَّهُعَنْهُمَا-:" كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، فمحونا آية الليل: السواد الذي في القمر".

قال مقاتل:" كان ضوء القمر مثل ضوء الشمس، فلم يعرف الليل من النهار، يقول الله- تعالى: {فمحونا آية الليل}، يعني علامة القمر فالمحو السواد الذي في وسط القمر، فمحى من القمر تسعة وستين جزءا فهو جزء واحد من سبعين جزءا من الشمس فعرف الليل من النهار".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء: ١٢]، أي:" وجعلنا علامة النهار -وهي الشمس- مضيئة".

**قال الطبري**: أي: " وإضاءته علامة النهار".

قال الزجاج:" أي: جعلناها تضيء لكم".

قال مقاتل:" {وجعلنا آية}، يعني: علامة النهار- وهي الشمس- {مبصرة}، يعني: أقررنا ضوءها فيها".

قال قتادة: أي: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم".

عن مجاهد رَضِّيَٱللَّهُعَنْهُ قوله: " {وجعلنا آية النهار مبصرة}، قال: وسدف النهار".

قوله تعالى: {لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} [الإسراء: ١٢]، أي:" لتطلبوا في النهار أسباب معايشكم".

**قال الطبري**: أي: " تتصرّفوا في ابتغاء رزق الله الذي قدره لكم بفضله في هذا".

قال الزجاج:" أي: لتبْصِروا كيف تَصَرَّفُونَ في أعمالكم".

عن مجاهد رَضِّيَٱللَّهُعَنْهُ قوله: " {لتبتغوا فضلا من ربكم}، قال: جعل لكم سبحا

=

=

طويلا".

قوله تعالى: {وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [الإسراء: ١٢]، أي:" وليعلم الناس -من تعاقب الليل والنهار- عدد السنين وحساب الأشهر والأيام، فيرتبون عليها ما يشاؤون من مصالحهم".

**قال الطبري**: أي: " ولتعلموا باختلافهما عدد السنين وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها".

قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} [الإسراء: ١٢]، أي:" وكل شيء بيَّناه تبيينًا كافيًا".

**قال الطبري**: " يقول: وكلّ شيء بيناه بيانا شافيا لكم أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتخلصوا له العبادة، دون الآلهة والأوثان".

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: " {فَصَّلناه} يقول: بيَّنّاه".

عن قتادة:" {وكل شيء فصلناه تفصيلا} : بيَّنّاه تبيينًا". وري عن السدي مثله.

قال الزجاج:" أي: بَيَّنَاهُ تَبييناً لا يلتبس مَعَه بغيره".

تفسير الحسن البصري: "فَصَلْنا الليل من النهار، وفصلنا النهار من الليل، والشمس من القمر، والقمر من الشمس".

عن عطاء بن السائب، قال:" أخبرني غيرُ واحد: أنّ قاضيًا من قضاة الشام أتى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت رؤيا أفظعتني. قال: وما رأيت؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان، والنجوم معهما نصفين. قال: فمع أيِّهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس. قال عمر: {وجعلنا الليل والنهار ءايتين فمحونآ ءاية الليل وجعلنا ءاية النهار مبصرة} . فانطلِق، فوالله، لا تعمل لي عملًا أبدًا. قال عطاء: فبلغني: أنّه قُتِل مع معاوية يوم صفِّين".

* لله تعالى في سور القرآن، وعالم الأكوان، آيات بينات دالة على وجوده، وقدرته،

=

=

وإرادته، وعلمه، وحكمته. ونعم سابغات موجبة لحمده وشكره وعبادته.

ولما ذكر تعالى آيته ونعمته بالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبين على هذا الكون الأعظم. فقال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ....}.

قوله (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وذلك لما فيهما من الإظلام والإنارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأحلام، ومعنى كونهما آيتين أنهما يدلان على وجود الصانع وقدرته وعلى إنفاذ الحكمم بتعاقبهما على نسق واحد مع إمكان غيره؛ وقدم الليل على النهار لكونه الأصل، وثنى الآية هاهنا وأفردها في قوله (وجعلناها وابنها آية) لتباين الليل والنهار من كل وجه ولتكررهما؛ فناسب هنا التثنية بخلاف عيسى مع أمه فإنه جزء منها ولا تكرر فيهما فناسب فيهما الإفراد، قاله الكرخي.

قال أبو حيان: قوله- تعالى- وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ.. لما ذكر- سبحانه- القرآن وأنه هاد إلى الطريقة المستقيمة، ذكر ما أنعم به مما لم يمكن الانتفاع إلا به، وما دل على توحيده من عجائب العالم العلوي. وأيضا لما ذكر عجلة الإنسان، وانتقاله من حال إلى حال ذكر أن كل هذا العالم كذلك في الانتقال لا يثبت على حال، فنور عقب ظلمة وبالعكس، وازدياد نور وانتقاص آخر. ا.هـ

وقوله- سبحانه- (فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ) أى: فجعلنا الآية التي هي الليل. ممحوة الضوء، مظلمة الهيئة، مختفية فيها الأشياء، ساكنة فيها الحركات.

وقوله- تعالى-: وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أى: وجعلنا الآية التي هي النهار مضيئة، تبصر فيها الأشياء وترى بوضوح وجلاء.

وعلى هذا الاتجاه، تكون إضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشيء إلى نفسه، مع اختلاف اللفظ، تنزيلا لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف في المعنى، كما

=

=

في قوله- تعالى- شَهْرُ رَمَضانَ فرمضان هو نفس الشهر.
وأما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن الكلام على حذف مضاف، وأن المراد بالآيتين: الشمس والقمر، فيكون المعنى: وجعلنا نيرى الليل والنهار- وهما الشمس والقمر- آيتين دالتين على قدرة الله- تعالى- ووحدانيته، فمحونا آية الليل- وهي القمر-، بأن أزلنا عنه شعاعه وضياءه، ولم نجعله كالشمس في ذلك، وجعلنا آية النهار- وهي الشمس- مبصرة، أى: ذات شعاع وضياء يبصر في ضوئها الشيء على حقيقته.
(لتبتغوا فضلاً من ربكم) أي لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في وجوه المعاش، والمعنى جعلناها لتبتغوا وتطلبوا فضلاً أي رزقـًا، إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار، ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر: (وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً).
ثم ذكر مصلحة أخرى في ذلك الجعل فقال: (ولتعلموا عدد السنين والحساب) وهذا متعلق بالفعلين جميعـًا، أعني محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتعلموا الخ لا بأحدهما فقط كالأول، إذ لا يكون علم عدد السنين والحساب إلا باختلاف الجديدين ومعرفة الأيام والشهور والسنين، والفرق بين العدد والحساب أن العدد إحصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء، والحساب إحصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص.
فالسنة مثلاً إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها فذلك هو العدد، وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل شهر من عدة أيام قد تحصل كل يوم من عدة ساعات قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق فذلك هو الحساب. ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص
=

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣).

{وَكُلّ إنْسَان أَلْزَمْنَاهُ طَائِره} عَمَله يَحْمِلهُ {فِي عُنُقه} خُصَّ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ اللُّزُوم فِيهِ أَشَدّ وَقَالَ مُجَاهِد مَا مِنْ مَوْلُود يُولَد إلَّا وَفِي عُنُقه وَرَقَة مَكْتُوب فِيهَا شَقِيّ أَوْ سعيد {ونخرج له يوم القيامة كِتَابًا} مَكْتُوبًا فِيهِ عَمَله {يَلْقَاهُ مَنْشُورًا} صِفَتَانِ لكتابا.

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤).

ويقال له {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} محاسبا[1].

=

المكتسبين والتجار ولتعطلت الأمور ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج والصوم والصلاة ولا وقت الزراعة ولا وقت حلول الديون المؤجلة وقال الكرخي لا تكرار إذ العدد موضوع الحساب.

(وكل شيء فصلناه تفصيلاً) أي كل ما تفتقرون إليه في أمر دينكم ودنياكم بيناه تبييناً واضحاً لا يلتبس فهو كقوله (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقوله (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) وإنما ذكر المصدر وهو قوله (تفصيلاً) لأجل تأكيد الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقاً على الوجه الذي لا مزيد عليه وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الأعذار ليهلك من هلك عن بينة.

(١) قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ} [الإسراء: ١٣].

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وكل إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه، وإنما قوله {ألزمناه طائره} مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها، فأعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره في عنقه نحسا كان ذلك الذي

=

=

ألزمه من الطائر، وشقاء يورده سعيرا، أو كان سعدا يورده جنات عدن".

عن جابر بن عبد الله أن نبي الله -ﷺ- قال: "لا عدوى ولا طيرة {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ} ".

قال ابن عباس:" الطائر: عمله، قال: والطائر في أشياء كثيرة، فمنه التشاؤم الذي يتشاءم به الناس بعضهم من بعض".

وعن ابن عباس -أيضا-، قوله:" {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه}، قال: عمله وما قدر عليه، فهو ملازمه أينما كان، فزائل معه أينما زال".

وعن ابن عباس -من طريق جويبر، عن الضحاك- في قوله: {طائره في عنقه}، قال: الشقاء والسعادة، والرِّزق، والأجل".

قال قتادة:" طائره: عمله"، وقال:" إي والله بسعادته وشقائه بعمله".

عن مجاهد في قوله: {طائره في عنقه}، قال: "عمله وما كتب الله له".

عن الحكم، قال مجاهد:" ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد. قال: وسمعته يقول: {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ}، قال: هو ما سبق".

عن أنس بن مالك -من طريق يزيد بن درهم- في قوله: {طائره}، قال: "كتابه".

قال الحسن البصري -من طريق معمر- " {طائره}: عمله؛ شقاوة، أو سعادة".

قال محمد بن السائب الكلبي، في قوله: " {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه}: خيره وشره معه، لا يفارقه حتى يحاسب به".

والأقوال متقاربة، وإنما سمي طائرا، أي: ما طار له من خير أو شر، وهذا على جهة التمثيل والتشبيه، ومن ذلك السوانح والبوارح، فالسانح: هو الذي يطير من قبل اليمين، فيتبرك به الإنسان، والبارح: هو الذي يطير من قبل الشمال، فيتشاءم به الإنسان. قال الشاعر:

=

=

تُطِيرُ عَدَائِدَ الْأَشْرَاكِ شَفْعًا وَوِتْرًا وَالزَّعَامَةِ لِلْغُلَامِ.

قال الطبري:" فإن قال قائل: وكيف قال: ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت، ولم يقل: ألزمناه في يديه ورجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل: لأن العنق هو موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة، وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة بني آدم وغيرهم من ذلك إلى أعناقهم وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جر عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله: {ألزمناه طائره في عنقه} ".

قوله تعالى: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا} [الإسراء: ١٣]، أي:" ويخرج الله له يوم القيامة كتابًا قد سُجِّلت فيه أعماله يراه مفتوحًا".

قال مقاتل:" وذلك أن ابن آدم إذا ما طويت صحيفته التي فيها عمله فإذا كان يوم القيامة نشر كتابه فدفع إليه منشورا".

قال المراغي: أي:" ونحن نخرج له حين الحساب كتابا يراه منشورا وفيه أعماله التي كسبها فى الدنيا، وقد أحصى عليه ربه فيه كل ما أسلف فى تلك الحياة".

قال ابن عباس:" هو عمله الذي عمل أحصي عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب عليه من العمل يلقاه منشورا".

قال قتادة:" نخرج ذلك العمل {كتابا يلقاه منشورا} ".

عن قتادة:" {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا}، أي: عمله".

قال معمر: " تلا الحسن: {عن اليمين وعن الشمال قعيد} [ق: ١٧]، فقال: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما، عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما عن شمالك فيحفظ

=

=

سيئاتك، فاملل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك

معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه} [الإسراء: ١٣]، حتى بلغ {حسيبا} [النساء: ٦]: «عدل والله لك من جعلك حسيب نفسك» ".

عن مجاهد أنه قرأها:" «ويخرج له يوم القيامة كتابا»، قال: يزيد: يعني يخرج الطائر كتابا".

وقرأ ذلك بعض أهل المدينة: " «ويخرج له» بضم الياء على مذهب ما لم يسم فاعله، وكأنه وجه معنى الكلام إلى ويخرج له الطائر يوم القيامة كتابا، يريد: ويخرج الله ذلك الطائر قد صيره كتابا، إلا أنه نحاه نحو ما لم يسم فاعله".

عن بسطام بن مسلم قال: سمعت أبا التياح قال: "سمعت أبا السوار العدوي يقرأ هذه الآية {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا} [الإسراء: ١٣] ثم قال: نشرتان وطية، أما ما جنيت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت، فإذا مت طويت، ثم إذا بعثت نشرت: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤] ".

وفي الآثار:" أن الله تعالى يأمر الملكين بطي الصحيفة، إذا تم عمر العبد، فلا ينشر إلى يوم القيامة، وهذا في معنى قوله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: ١٠] ".

* قوله (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) هذا إخبار عن كمال عدله أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازما له لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله.

والمراد بطائره: عمله الصادر عنه باختياره وكسبه، حسبما قدره الله- تعالى- عليه

=

=

من خير وشر.

أى: وألزمنا كل إنسان مكلف عمله الناتج عنه، إلزاما لا فكاك له منه، ولا قدرة له على مفارقته.

وعبر- سبحانه- عن عمل الإنسان بطائره، لأن العرب كانوا- كما يقول الآلوسى- يتفاءلون بالطير، فإذا سافروا ومر بهم الطير زجروه، فإن مر بهم سانحا- أى من جهة الشمال إلى اليمين- تيمنوا وتفاءلوا، وإن مر بارحا، أى: من جهة اليمين الى الشمال تشاءموا، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر، استعير استعارة تصريحية، لما يشبههما من قدر الله- تعالى- وعمل العبد، لأنه سبب للخير والشر ا.هـ

قال ابن كثير: وطائره: هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد، وغير واحد- من خير أو شر، يلزم به ويجازى عليه: كما قال- تعالى-: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. وكما قال- تعالى-: إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره: ويكتب عليه ليلا ونهارا، صباحا ومساء ا.هـ

**وقال الطبري**: المعنى: وكل إنسان ألزمناه ما قضي أنه عامله، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله، في عنقه لا يفارقه. وإنما قوله: ألزمناه طائره في عنقه مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها.

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى شر، اعتبروا أحوال الطير: وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه. وإذا طار فهل يطير متيامنا أو متياسرا أو صاعدا إلى الجو، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة، فلما كثر ذلك منهم، سمي الخير

=

=

والشر بالطائر، تسمية للشيء باسم لازمه.

**قال الطبري**: فأعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره في عنقه، نحسا كان ذلك الذي ألزمه من الطائر وشقاء يورده سعيرا أو كان سعدا يورده جنان عدن. وإنما أضيف إلى العنق ولم يضف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد، قيل لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببني آدم وغيرهم من ذلك، إلى أعناقهم. وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق.

كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه. وإن كان الذي جر عليه لسانه أو فرجه. فكذلك. قوله: ألزمناه طائره في عنقه وحاصله- كما قاله الرزي- أن قوله: في عنقه كناية عن اللزوم. كما يقال: (جعلت هذا في عنقك) أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به. ويقال: (قلدتك كذا وطوقتك كذا) أي صرفته إليك وألزمته إياك. ومنه (قلده السلطان كذا) أي صارت الولاية، في لزومها له، في موضع القلادة ومكان الطوق. ومنه يقال (فلان يقلد فلانا) أي يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه.

{وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا} فيه ما عمله من الخير والشر حاضرا صغيره وكبيره ويقال له: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك ليعرف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

قوله تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ} [الإسراء: ١٤]، أي:" يقال له: اقرأ كتاب أعمالك".

قال المراغي:" فيقال له اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا وكان الملكان يكتبانه ويحصيانه عليك".

=

=

قال قتادة:" سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا".

قال السدي:" الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب فيقول: رب إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي. فيقال له: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} ".

عن يغنم بن سالم بن قنبر مولى علي، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، قال: «الكتب كلها يوم القيامة تحت العرش، فإذا كان الموقف بعث الله ريحًا، فتطير بالأيمان والشمائل، أول خط فيها: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا}».

قوله تعالى: {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤]، أي:" تكفيك نفسك اليوم محصية عليك عملك، فتعرف ما عليها من جزاء".

**قال الطبري**:" يقول: حسبك اليوم نفسك عليك حاسبا يحسب عليك أعمالك، فيحصيها عليك، لا نبتغي عليك شاهدا غيرها، ولا نطلب عليك محصيا سواها".

قال المراغي: أي: " وحسبك اليوم نفسك عليك حاسبا تحسب عليك أعمالك فتحصيها، لا نبتغى عليك شاهدا غيرها، ولا نطلب محصيا سواها".

قال يحيى بن سلام:" {حسيبا} : شاهدا".

- عن الحسن البصري -من طريق جعفر بن حيان- في قول الله: " {كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} ، قال: كل آدمي في عنقه قلادة تكتب فيها نسخة عمله، فإذا طُويت قلدها، فإذا بعث نشرت له، وقيل: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا} . يا ابن آدم! أنصَفَكَ مَن خلقك؛ جَعَلَك حسيبَ نفسك".

قال الحسن:" قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك".

* يقال له بعد أن وجد كتابه منشورا أمامه، اقرأ كتابك هذا، وما اشتمل عليه من أعمال صدرت عنك في الدنيا، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا.

=

مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥).

{مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} لِأَنَّ ثَوَاب اهْتِدَائِهِ لَهُ {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلّ عَلَيْهَا} لِأَنَّ إثمه عليها {وَلَا تَزِر} نَفْس {وَازِرَة} آثِمَة أَيْ لَا تَحْمِل {وِزْر} نَفْس {أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ} أَحَدًا {حَتَّى نَبْعَث رَسُولًا} يُبَيِّن لَهُ مَا يَجِب عليه[1].

---

=

أي: محاسبا، كجليس بمعنى مجالس، أو حاسبا وعادّا كصريم بمعنى صارم يقال حسب فلان على فلان قوله، إذا عده عليه.

ولفظ كَفى هنا لازم، ويطرد في هذه الحالة جر فاعله بالباء المزيدة لتوكيد الكفاية و «حسيبا» تمييز، وعليك متعلق به.

وتارة يأتى لفظ «كفى» متعديا، كما في قوله- تعالى-: وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عائشة؛ قالت: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: "هم مع آبائهم"، ثم سألته بعد ذلك، فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين"، ثم سألته بعدما استحكم الإسلام؛ فنزلت: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، وقال: "هم على الفطرة - أو قال: في الجنة".

أخرجه ابن عبد البر في "التمهيد" (١٩/ ١١٧) من طريق أبي معاذ؛ قال: حدثنا الزهري عن عروة عن عائشة به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ أبو معاذ -هو سليمان بن أرقم-؛ متروك الحديث.

* قوله تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} [الإسراء: ١٥]، أي:" من اهتدى فاتبع طريق الحق فإنما يعود ثواب ذلك عليه وحده".

=

=

**قال الطبري:**" من استقام على طريق الحق فاتبعه، وذلك دين الله الذي ابتعث به نبيه محمدا ﷺ عليه وسلم، فليس ينفع بلزومه الاستقامة، وإيمانه بالله ورسوله غير نفسه".

قال الثعلبي:" فلنفسه بغى الخير".

قال الواحدي:" أي: ثواب اهتدائه له ولنفسه؛ يعني الخير باهتدائه".

قوله تعالى: {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [الإسراء: ١٥]، أي:" ومن حاد واتبع طريق الباطل فإنما يعود عقاب ذلك عليه وحده".

**قال الطبري:**" يقول: ومن جار عن قصد السبيل، فأخذ على غير هدى، وكفر بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله من الحق، فليس يضر بضلاله وجوره عن الهدى غير نفسه، لأنه يوجب لها بذلك غضب الله وأليم عذابه.. وإنما عنى بقوله {فإنما يضل عليها} فإنما يكسب إثم ضلاله عليها لا على غيرها".

قال الثعلبي:" فعلى نفسه جنى".

قال الواحدي:" أي: على نفسه عقوبة ضلاله؛ فهُداه له كما أن ضلاله عليه".

قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الإسراء: ١٥]، أي:" ولا تحمل نفس مذنبة إثم نفس مذنبة أخرى".

**قال الطبري:**" يعني تعالى ذكره: ولا تحمل حاملة حمل أخرى غيرها من الآثام.. والوزر: هو الإثم، يجمع أوزارا، كما قال تعالى: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ} [طه: ٨٧]، وكأن معنى الكلام: ولا تأثم آثمة إثم أخرى، ولكن على كل نفس إثمها دون إثم غيرها من الأنفس".

قال قتادة:" والله ما يحمل الله على عبد ذنب غيره، ولا يؤاخذ إلا بعمله".

قال عطاء عن ابن عباس: "يريد أن الوليد بن المغيرة، قال: اتبعوني وأنا أحمل أوزاركم".

=

=

عن هاشم بن عروة، عن أبيه، قال: "سئلت عائشة عن ولد الزنا؟ فقالت: ليس عليه من خطيئة أبويه شيء، وقالت: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} ".

قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، أي:" ولا يعذب الله أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم".

قال الزجاج:" أي: حتى نبين ما به نُعَذبُ، وما من أجْله نُدْخِلُ الجنةَ".

قال ابن عباس: "يريد اتخاذ الحجة على خلقه".

قال قتادة:" إن الله تبارك وتعالى ليس يعذب أحدا حتى يسبق إليه من الله خبرا، أو يأتيه من الله بينة، وليس معذبا أحدا إلا بذنبه".

عن أبي هريرة، قال: إذا كان يوم القيامة، جمع الله تبارك وتعالى نسم الذين ماتوا في الفترة والمعتوه والأصم والأبكم، والشيوخ الذين جاء الإسلام وقد خرفوا، ثم أرسل رسولا أن ادخلوا النار، فيقولون: كيف ولم يأتنا رسول، وايم الله لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما، ثم يرسل إليهم، فيطيعه من كان يريد أن يطيعه قبل؛ قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} ".

* قوله {مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدى لِنَفْسِهِ} فذلكةٌ لما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطرائقِ ولزومِ الأعمال لأصحابها أي من اهتدى بهدايته وعلم بَما فِي تضاعيفِه من الأحكام وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعته اهتدائِه إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لم يهتدِ {وَمَن ضَلَّ} عن الطريقة التي يهديه إليها {فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي فإنما وبالُ ضلاله عليها لا على من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقةُ العمل صاحبَه {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى} تأكيد للجملة الثانية أي لا تحمل نفسٌ حاملةٌ للوزر وزرَ نفسٍ أخرى حتى يمكن تخلّصُ النفس الثانية عن

=

=

وزرها ويختلَّ ما بين العامل وعلمه من التلازم بل إنَّما تحملُ كلٌّ منها وزرها وهذا تحقيقٌ لمعنى قوله ﷻ ولك إنسان ألزمناه طائره فِى عُنُقِهِ وأما ما يدلُّ عليه قولُه تعالى مَّن يَشْفَعْ شفاعة حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شفاعة سَيِّئَةً يَكُنْ لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وقوله تعالى لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ من حمل الغير وزر الغير وانتفاعِه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاعٌ بحسنة نفسِه وتضرّرٌ بسيئته فإن جزاءَ الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العاملُ لازم له وإنما الذين يصل إلى مَنْ يشفع جزاءُ شفاعته لا جزاءُ أصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاءُ الضلال مقصورٌ على الضالين وما يحمله المُضلون إنما هو جزاءُ الإضلال لا جزاءُ الضلال وإنما خُص التأكيدُ بالجملة الثانية قطعاً للأطماع الفارغةِ حيثُ كانُوا يزعُمون أنَّهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعةُ على أسلافهم الذين قلدوهم {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ} بيانٌ للعنايةِ الربَّانيةِ إثرَ بيان اختصاصِ آثارِ الهداية والضلال بأصحابها وعدم حِرمان المهتدي من ثمرات هدايته وعدمِ مؤاخذة النفس بجناية غيرها أي وما صحَّ وما استقام منا بل استحال في سنتنا المبنيةِ على الحِكَم البالغة أو ما كان في حكمنا الماضي وقضائِنا السابق أن نعذب أحداً من أهل الضلال والأوزارِ اكتفاءً بقضية العقل {حتى نَبْعَثَ} إليهم {رسولا} يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحججَ ويمهد الشرائع حسبما في تضاعيف الكتاب المنزل عليه.

(فائدة): قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)} [الإسراء/ ١٥].

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الله تعالى لا يعذب أحدًا حتى ينذره على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

ونظيرها قوله تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ

=

=

بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء/ ١٦٥] وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ} الآية [طه/ ١٣٤] وقوله: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)} [الأنعام/ ١٣١]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويؤيده تصريحه تعالى بأن كل أفواج أهل النار جاءتهم الرسل في دار الدنيا، في قوله تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا} الآية [الملك/ ٨ - ٩] ومعلوم أن "كلما" صيغة عموم.

ونظيرها قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا} إلى قوله: {قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)} [الزمر/ ٧١]، فقوله: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا} يعم كل كافر؛ لما تقرر في الأصول من أنَّ الموصولات من صيغ العموم؛ لعمومها كل ما تشمله صِلاتها، كما أشار له في "مراقي السعود" بقوله:

صيغُه كلٌّ أو الجميع ... وقد تلا الذي التي الفروع

ومعنى قوله: "وقد تلا الذي... " الخ: أن "الذي" و"التي" وفروعها صيغ عموم، ككل وجميع.

ونظيره -أيضًا- قوله تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} إلى قوله: {وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر/ ٣٧]، فإنه عام أيضًا؛ لأن أول الكلام {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ} [فاطر/ ٣٦].

وأمثال هذا كثيرة في القرآن.

مع أنه جاء في بعض الآيات ما يفهم منه أن أهل الفترة في النار، كقوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)} [التوبة/ ١١٣]، فإن عمومها يدل على دخول من لم يدرك النبي ﷺ، وكذلك عموم قوله تعالى: {وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ

=

=

وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)} [النساء/ ١٨]، وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)} [البقرة/ ١٦١]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا} الآية [آل عمران/ ٩١]، إلى غير ذلك من الآيات.

اعلم -أولًا- أن من لم يأته نذير في دار الدنيا وكان كافرًا حتى مات، اختلف العلماء فيه: هل هو من أهل النار لكفره، أو هو معذور لأنه لم يأته نذير؟ كما أشار له في "مراقي السعود" بقوله:

ذو فترة بالفرع لا يراع ... وفي الأصول بينهم نزاع.

وسنذكر -إن شاء الله- جواب أهل كل واحد من القولين، ونذكر ما يقتضي الدليل رجحانه. فنقول وبالله نستعين:

قد قال قوم: إن الكافر في النار، ولو مات في زمن الفترة. وممن جزم بهذا القول: النووي في "شرح مسلم"؛ لدلالة الأحاديث على تعذيب بعض أهل الفترة.

وحكى القرافي في "شرح التنقيح" الإجماع على أن موتى أهل الجاهلية في النار؛ لكفرهم، كما حكاه عنه صاحب "نشر البنود".

وأجاب أهل هذا القول عن آية {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ} وأمثالها من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التعذيب المنفي في قوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ} وأمثالها هو التعذيب الدنيوي، فلا ينافي ثبوت التعذيب في الآخرة.

وذكر الشوكاني في تفسيره أن اختصاص هذ التعذيب المنفي بالدنيا دون الآخرة ذهب إليه الجمهور. واستظهر هو خلافه، ورَدَّ التخصيص بعذاب الدنيا بأنه خلاف الظاهر من الآيات، وبأن الآيات المتقدمة -الدالة على اعتراف أهل النار جميعًا بأن الرسل أنذروهم في دار الدنيا- صريح في نفيه.

**الثاني**: أن محل العذر بالفترة المنصوص في قوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ} الآية وأمثالها

=

=

= في غير الواضح الذي لا يلتبس على عاقل.

أما الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل، كعبادة الأوثان، فلا يعذر فيه أحد؛ لأن جميع الكفار يقرون بأن الله هو ربهم وهو خالقهم ورازقهم، ويتحققون أن الأوثان لا تقدر على جلب نفع ولا على دفع ضر، لكنهم غالطوا أنفسهم، فزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى، وأنها شفعاؤهم عند الله، مع أن العقل يقطع بنفي ذلك.

**الثالث**: أن عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبله ﷺ تقوم عليهم بها الحجة. ومال إليه بعض الميل ابن قاسم في "الآيات البينات".

وقد قدمنا في سورة آل عمران أن هذا القول يرده القرآن في آيات كثيرة مصرحة بنفي أصل النذير عنهم، كقوله: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ} [يس/ ٦]، وقوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ} [السجدة/ ٣]، وقوله: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ} [القصص/ ٤٦]، وقوله: {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤)} [سبأ/ ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأجاب القائلون بأن أهل الفترة معذورون عن مثل قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ} إلى قوله: {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} من الآيات المتقدمة = بأنهم لا يتبين لهم أنهم من أصحاب الجحيم ولا يُحْكَمُ لهم بالنار ولو ماتوا كفارًا إلا بعد إنذارهم وامتناعهم من الإيمان، كأبي طالب. وحملوا الآيات المذكورة على هذا المعنى.

واعترض هذا الجواب بما ثبت في "الصحيح" من دخول بعض أهل الفترة النار، كحديث: "إن أبي وأباك في النار" الثابت في "صحيح مسلم" وأمثاله من الأحاديث.

=

=

واعترض هذا الاعتراض بأن الأحاديث وإن صحت فهي أخبار آحاد، يُقَدَّمُ عليها القاطع، كقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)}.

واعترض هذ الاعتراض -أيضًا- بأنه لا يتعارض عام وخاص، فما أخرجه حديث صحيح خرج من العموم، وما لم يخرجه نص صحيح بقي داخلًا في العموم.

واعترض هذا الاعتراض -أيضًا- بأن هذا التخصيص يبطل علة العام؛ لأن الله تعالى تمدح بكمال الإنصاف، وصرح بأنه لا يعذب حتى يقطع حجة المعذَّب بإنذار الرسل في دار الدنيا، وبيَّن أن ذلك الإنصاف التام علةٌ لعدم التعذيب، فلو عذب إنسانًا واحدًا من غير إنذار لاختلت تلك الحكمة، ولثبتت لذلك المعذَّب الحجةُ التي بعث الله الرسل لقطعها، كما صرح به في قوله: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء/ ١٦٥].

وهذه الحجة بينها في سورة طه بقوله: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ} الآية [طه/ ١٣٤]، وأشار لهادي سورة القصص بقوله: {وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ} إلى قوله: {وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)} [القصص/ ٤٧].

وهذا الاعتراض الأخير يجري على الخلاف في النقض: هل هو قادح في العلة أو تخصيص لها؟ وهو اختلاف كثير معروف في الأصول، عقده في "مراقي السعود" بقوله -في تعداد القوادح في الدليل-:

منها وجود الوصف دون الحكم ... سماه بالنقض وُعَاةُ العلم

والأكثرون عندهم لا يقدح ... بل هو تخصيص وذا مصحح

وقد روي عن مالك تخصيص ... إن يك الاستنباط لا التنصيص

وعكس هذا قد رآه البعض ... ومنتقى ذي الاختصار النقضُ

إن لم تكن منصوصة بظاهر ... وليس فيما استنبطت بضائر

إن جا لفقد الشرط أو لما منع ... والوفق في مثل العرايا قد وقع

=

=

والمحققون من أهل الأصول على أن عدم تأثير العلة إن كان لوجود مانع من التأثير أو انتفاء شرط التأثير فوجودها مع تخلف الحكم لا ينقضها ولا يقدح فيها، وخروج بعض أفراد الحكم حينئذ تخصيص للعلة لا نقض لها، كالقتل عمدًا عدوانًا، فإنه علةَ القصاص إجماعًا، ولا يقدح في هذه العلة تخلف الحكم عنها في قتل الوالد لولده؛ لأن تأثيرها منع منه مانع هو الأبوة.

وأما إن كان عدم تأثيرها لا لوجود مانع أو انتفاء شرط، فإنه يكون نقضا لها وقدحًا فيها.

ولكن يَرِدُ على هذا التحقيق ما ذكره بعض العلماء من أن قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ} [الحشر/ ٤] علة منصوصة لقوله: {وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ} الآية [الحشر/ ٣]، مع أن هذه العلة قد توجد ولا يوجد ما عُذبَ به بنو النضير من جلاء أو تعذيب دنيوي، وهو يؤيد كون النقض تخصيصًا مطلقًا لا قدحًا.

ويجاب عن هذا بأن بعض المحققين من الأصوليين قال: إن التحقيق المذكور محله في العلة المستنبطة دون المنصوصة، وهذه منصوصة، كما قدمنا ذلك في أبيات "مراقي السعود" في قوله:

........ ... وليس فيما استُنبطت بضائر

إن جا لِفَقْدِ الشرط أو لما منع ...............

هذا ملخص كلام العلماء وحججهم في المسألة.

والذي يظهر رجحانه بالدليل هو الجمع بين الأدلة؛ لأن الجمع واجب إذا أمكن بلا خلاف، كما أشار له في "المراقي" بقوله:

والجمع واجب متى ما أمكنا ........

ووجه الجمع بين هذه الأدلة هو عذرهم بالفترة، وامتحانهم يوم القيامة بالأمر

=

=

باقتحام نار؛ فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع عُذّبَ بالنار، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل.

وبهذا الجمع تتفق الأدلة، فيكون أهل الفترة معذورين، وقوم منهم من أهل النار بعد الامتحان، وقوم منهم من أهل الجنة بعده أيضًا، ويحمل كل واحد من القولين على بعضٍ منهم عَلِمَ الله مصيرهم، وأعلم به نبيه ﷺ، فيزول التعارض.

والدليل على هذا الجمع: ورود الأخبار به عنه ﷺ.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)} - بعد أن ساق الأحاديث الدالة على عذرهم وامتحانهم يوم القيامة، رادًّا على ابن عبد البر تضعيف أحاديث عذرهم وامتحانهم- ما نصُّه: والجواب عما قال: إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوي بالصحيح والحسن، وإذا كان أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها. انتهى محل الغرض بلفظه.

ثم قال: إن هذا قال به جماعة من محققي العلماء والحفاظ والنقاد.

وما احتج به البعض لرد هذه الأحاديث من أن الآخرة دار جزاء لا دار عمل وابتلاء، فهو مردود من وجهين:

الأول: أن ذلك لا تُرَدُّ به النصوص الصحيحة عنه ﷺ، ولو سلمنا عموم ما قال من أن الآخرة ليست دار عمل، لكانت الأحاديث المذكورة مخصصة لذلك العموم.

**الثاني**: أنا لا نسلم انتفاء الامتحان في عرصات المحشر، بل نقول: دل القاطع عليه؛ لأن الله تعالى صرح في سورة القلم بأنهم يدعون إلى السجود في قوله جلَّ وعلا:

=

=

{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ} الآية [القلم/ ٤٢] ومعلومٌ أن أمرهم بالسجود تكليفٌ في عرصات المحشر.

وثبت في "الصحيح" أن المؤمنين يسجدون يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك، ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة، طبقًا واحدًا كما أراد السجود خرَّ لقفاه.

وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجًا منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مرارًا، ويقول الله تعالى: "يا ابن آدم، ما أغدرك! "، ثم يأذن له في دخول الجنة. ومعلوم أن تلك العهود والمواثيق تكليف في عرصات المحشر. والعلم عند الله تعالى.

(منبهة): قوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً} نفى الله تعالى عن نفسه في هذه الآية أن يعذب أحدًا قبل بعثة رسولٍ يهدي الناس للصراط المستقيم هداية دلالة وإرشاد ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعلمهم ما يعبدون به ربهم ويقيم الحجة عليهم، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، أما قبل بعثة الرسول فلا عذاب ولا عقاب؛ لأن الناس حينئذٍ في جهل وضلال لا يعرفون ما أمرهم الله به وما نهاهم عنه والعقول لا تستقل بإدراك الشرع، فقبل بعثة الرسول لا عذاب؛ لأنه لا تكليف وبعد بعثته ثبت التكليف لوجود العلم حينئذٍ، إذًا لا تكليف إلا بعلمٍ ولا عقوبة إلا بعد إنذار.

فليس كل من وقع في الكفر يكفر، أو في الفسق يفسق، أو في البدعة يبدع، أو في أمرٍ لعن فاعله يلعن؟

وبيان ذلك أن يقال: من المعلومات البديهية الاضطرارية أن هناك فرقًا بين الفعل والفاعل، فالفعل هو الحدث، والفاعل هو المحدث للحدث، فقولنا: (أكل محمد) فهنا فعل وفاعل، فالفعل هو الأكل، والفاعل هو محمد، وإن من السفسطة في العقليات أن تقول: الفعل هو الفاعل، أي أن الأكل هو محمد،

=

=

ومحمد هو الأكل وأن الحدث هو المحدث، والمحدث هو الحدث، وهذا لا أظنه يصدر إلا ممن سقط عنه التكليف لآفةٍ في عقله، بل لا أظن المجنون يقول هذا، ولذلك فرق النحاة بين الفعل والفاعل، وكذلك علماء الشريعة أيضًا فرقوا بين الفعل والفاعل، بحيث قد يوصف الفعل بأوصافٍ لا تتعداه إلى فاعله، بل لا يجوز وصف الفاعل بها، وقبل الدخول في الأدلة أذكر أولاً القاعدة المقررة عند أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وهي قولهم: ليس من فعل الكفر يكفر، أو البدعة يبدع، أو الفسق يفسق، أو المعصية يأثم، إلا بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع، هذا هو قولهم الذي لا يجوز نسبة غيره إليهم، فإذا فعل الإنسان كفرًا أو بدعة أو فسقًا فلابد من النظر إلى هذه المسألة باعتبارين:

الأول: باعتبار الفعل لذاته بِغَضِّ النظر عن فاعله ويعطى هذا الفعل حكمًا يخصه لا يتعداه إلى فاعله، فالكفر كفر، والبدعة بدعة، والفسق فسق، والمعصية معصية، فإذا عرفنا حكم الفعل فننظر الاعتبار الثاني وهو الفاعل، فنسأل أنفسنا: هل ينطبق حكم الفعل على الفاعل؟ الجواب: لا إلا إذا توفرت شروط انطباقه وانتفت موانعه، فقد يكون الفعل كفرًا لكن لا يكفر الفاعل لتخلف شرطٍ أو وجود مانع، وقد يكون الفعل بدعة، لكن فاعلها لا يبدع لاختلال شرط أو وجود مانع، وهكذا في الفسق والمعصية، إذًا لا تلازم بين حكم الفعل وفاعله لذاتهما، وإنما يتم التعلق بينهما بتوفر شروط معينة وانتفاء موانع معينة، إذا علم هذا فإليك الأدلة الدالة على صحة ذلك:

فمن الأدلة: حديث أنس بن مالك ﷺ عند مسلم (٤/ ٢١٠٤، رقم ٢٧٤٧) قال: قال رسول الله ﷺ: (لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة... إلى أن قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك) ففي هذا الحديث لابد من التفريق بين أمرين: بين الفعل والفاعل، فأما الفعل فهو كفر

=

=

ولاشك إذ فيه تعبيد الرب وتربيب العبد، وهذا كفر، لكن هل كفر الفاعل؟ الجواب: لا لم يكفر لوجود مانعٍ وهو شدة الفرح التي أغلقت على عقله فلم يعرف معنى ما يقول، فلو كان هناك تلازم ذاتي بين الفعل والفاعل لكفر ذلك الرجل، لكن ليس كل من قال الكفر أو فعله حكم عليه بمقتضاه وهذا واضح، فالفعل في الحديث له حكم والفاعل له حكم آخر، والله أعلم.

ومنها: أن معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قدم من الشام سجد بين يدي النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: (ما هذا يا معاذ؟ قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك فقال رسول الله ﷺ فلا تفعلوا فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي -وقال عنه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة حسن صحيح، وبعضهم قال فيه مقال، لكن على كل حال فإنه متوافق مع الأصول لا مخالف لها، فعندنا فعل وفاعل، فأما الفعل فهو السجود لغير الله تعالى، وهذا كفر لا يختلف فيه أحد من أهل العلم، وأما الفاعل الذي هو معاذ فحاشاه أن ينطبق عليه حكم فعله، ولذلك لم يحكم النبي ﷺ عليه بمقتضى فعله، بل عذره لأنه جاهل بالحكم، ففرق ﷺ بين الفعل والفاعل، فأما الفعل فأنكره بقوله: (فلا تفعلوا) وأما الفاعل فتثبت فيه وقال: (ما هذا يا معاذ)؟ فيا ليت أهل زماننا يفقهون هذا الأدب ولا يستعجلون في أمر جعل الله فيه سعة.

**الثالث**: حديث أبي هريرة في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (كان في من كان قبلكم رجل أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي فحضرته الوفاة فقال لأولاده إذا مت فأحرقوني ثم ذروني في يوم ريح حتى لا يقدر عليَّ ربي فيعذبني، فبعثه الله بين يديه فقال ما حملك على ما قلت؟ فقال خوفك فقال أشهدكم أني قد غفرت له) فهذا الرجل قد وقع في أمرين عظيمين الأول إنكار البعث، والثاني إنكار القدرة، وهما

=

=

كفر صريح، فالفعل كفر ولاشك، لكن هذا الرجل لم ينطبق عليه حكم فعله بدليل آخر الحديث، وذلك لوجود مانع وهو الجهل فجعل ذلك الجهل مانع من كفره وهو صريح في أنه لا تلازم بين الوقوع في الكفر والحكم على الفاعل بمقتضاه وما ذلك إلا دليل على وجوب التفريق بين الفاعل والفعل.

**الرابع**: ما فعله حاطب بن أبي بلتعة ﵁ فإنه لما همَّ النبي ﷺ بغزو قريش كتب حاطب كتابًا لهم يخبرهم بمسير الرسول ﷺ إليهم وأرسله مع ظعينة من فوضعته في قرونها، فجاء الخبر من السماء، فأرسل النبي علي بن أبي طالب والمقداد والزبير وأخبرهم بخبر هذه الظعينة وأنهم يجدونها في روضة خاخ، فأدروكها تسير على بعير لها في ذلك المكان، فسألوها عن الكتاب، فقالت ليس معي كتاب قال فأنخناها فتلمسنا فلم نرى كتابًا فقلنا ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت الجد أهوت إلى حجرتها وهي متحجرة بكساء فأخرجته، فجاءوا به رسول الله ﷺ فدعا حاطبًا فقال ما هذا يا حاطب؟ فقال والله ما بي إلا أن أكون مؤمن بالله ورسوله أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي فقال صدق ولا تقولوا له إلا خيرًا فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق، إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فقال رسول الله ﷺ إنه قد شهد بدر وما يدريك لعل الله أطلع على من شهد بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فدمعت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم) رواه البخاري

فانظر إلى هذا الحديث العظيم فإن حاطبًا ﵁ وقع في أمر خطير وهو التجسس على جيوش المسلمين وموالاة الكفار ظاهرًا وهي معصية قد تصل بصاحبها إلى الكفر، إلا أنها في حق حاطب ليست بكفر؛ لأنه نفى عن نفسه موالاة الكفار في الباطن، فهي معصية فقط، ولهذا اعتبرت مكفرة في حقه؛ لأنه من أهل بدر الذين غفر الله لهم ولو كان كفرًا لما كفره حضوره بدرًا؛ لأن الكفر والشرك لا تكفره إلا

=

=

التوبة النصوح، فعذره النبي ﷺ وأمرهم ألا يقولوا له إلا خيرًا؛ لأن حكم فعله وهو المعصية لم ينطبق عليه، فحاطب لم يسمى عاصيًا بهذا الفعل بل فعله معصية، وفرق بين قولنا فعل معصية وقولنا وهو عاصٍ، فإن ما فعله حاطب لم يصبه حكمه لوجود المانع وهو شهوده بدر، فإن شهوده بدرًا جعل كالكفارة لهذه المعصية، والله أعلم.

الخامس: ما ورد في تفسير قوله تعالى: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} الآية، فقد روى غير واحدٍ من أصحاب الكتب المعتمدة أن عمارًا عذبته قريش عذابًا شديدًا لينال من رسول الله ﷺ فنال منه مكرهًا فأتى رسول الله ﷺ باكيًا فقال له ما يبكيك يا عمار؟ فقال فعلوا بي كذا وكذا من العذاب على أن أنال منك فنلت منك. فقال له يا عمار كيف تجد قلبك؟ قال مطمئنًا بالإيمان فقال إن عادوا فعد).

فهنا فعل وفاعل، فأما الفعل فهو النيل من الرسول ﷺ أي بالسب والشتم، وهذا الفعل لاشك أنه كفر، وأما الفاعل الذي هو هنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما فلاشك أنه لم ينطبق عليه حكم هذا الفعل، وذلك لوجود مانع وهو الإكراه بالتعذيب الشديد، فمجرد وقوع عمار رضي الله عنه في فعل هو كفر لم يستلزم ذلك أن يكفر؛ لأنه لا تلازم بين حكم الفعل وحكم الفاعل، فالفعل شيء والفاعل شيء آخر، فلو أن من قال الكفر أو فعله انطبق عليه حكم قوله أو فعله مباشرة لاستلزم ذلك كفر من تقدم في الأدلة وهذا ضلال وخطأ عظيم والنجاة منه هو المعرفة التامة أن لا تلازم بين الفعل والفاعل كما هو مقتضى هذه القاعدة، والله أعلم.

السادس: أن الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانوا يعتقدون أن ديار الإسلام ديار كفر وحرب واستباحوا ديار المسلمين وفعلوا بهم الأفاعيل، ومع ذلك لم يثبت عن أحدٍ من الصحابة والسلف فيما أعلم أنه كفرهم بهذه

=

=

الأفعال والاعتقادات التي هي في ذاتها كفر، فإن استباحة الحرام المعلوم حرمته من الدين بالضرورة كفر، وهم استحلوا دماء المسلمين وديارهم وأموالهم ومع ذلك لم يكفرهم أحد فيما أعلم، بل أنزلهم الصحابة منزلة البغاة الخارجين على ولي الأمر فلم يجهزوا على جريحهم ولم يتبعوا مدبرهم ولم يستحلوا أموالهم؛ لأنهم مسلمون مع أن النبي ﷺ أمر بقتالهم وقتلهم وأخبر أنهم كلاب النار وتوعد لإن هو أدركهم ليقتلنهم قتل عاد، ولكن لم يكفرهم الصحابة والسلف الصالح لوجود مانع من موانع التكفير وهو التأويل، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا سئل عنهم أكفار هم؟ قال من الكفر فروا وإنما هم إخوان لنا بغوا علينا، أو كما قال.

فإذًا لابد من التفريق بين الفعل والفاعل كما فعل الصحابة مع الخوارج فإنهم نظروا إلى فعلهم بنظر ونظروا إلى ذواتهم بنظرٍ آخر وهذا شبه إجماع على صحة هذه القاعدة، والله أعلم.

السابع: أن رجلاً من الصحابة يقال له عياض بن حمار، وكان شاربًا للخمر، فكان كثيرًا ما يؤتى به فيجلد فيها، فأتي به مرة فنال منه بعض الحاضرين فزجره النبي ﷺ وقال (إني لا أعلم إلا أنه يحب الله ورسوله) أو كما قال ﷺ، فانظر إلى هذا الحديث مع قوله ﷺ (لعنت الخمرة على عشرة أوجه وذكر منها وشاربها)، فالشارب لها ملعون، ومع ذلك أنكر النبي ﷺ على ذلك الذي لعن عياضًا، وذلك يدل على التفريق بين الفعل والفاعل، فلاشك أن شرب الخمر موجب للعنة، لكن شارب الخمر لا نتعرض له بلعنة ولا سب وإنما نقيم عليه الحد فقط، فالشرب شيء والشارب شيء آخر، واللعن العام شيء ولعن المعين شيء آخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٦/ ٥١١): واللعنة تجوز مطلقا لمن لعنه الله ورسوله، وأما لعنة المعين فإن علم أنه مات كافرا جازت

=

=

لعنته، وأما الفاسق المعين فلا تنبغي لعنته لنهي النبي ﷺ أن يلعن عبد الله بن حمار الذي كان يشرب الخمر، مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما، مع أن في لعنة المعين إذا كان فاسقا أو داعيا إلى بدعة نزاعا " اهـ " انتهى.

قال شيخ الإسلام أيضا رحمه (١٠/ ٣٢٩): فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة. ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة به، وكذلك التكفير المطلق والوعيد المطلق. ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروط وانتفاء موانع ا. هـ.

الثامن: أنه لما ظهرت الفتنة بالقول بخلق القرآن تولى كبرها المأمون -عفا الله عنه- مع المعتزلة وساموا فيها المسلمين عامة وعلمائها العذاب حتى استجاب خلق كثير وصمد بعض الأئمة من أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إمام أهل السنة والجماعة، وقال كلمته المشهورة: (من قال بخلق القرآن فهو كافر) وأجمع على ذلك أهل السنة والجماعة، ومع ذلك فقد ثبت عنه أنه كان يصلي وراء المأمون ويدعو له واستغفر له في آخر حياته وحلله وسرى فعله هذا بين علماء أهل السنة ولم ينكره منهم أحد ممن يعتد به مما يدل على أن الفعل شيء والفاعل شيء آخر، فقولهم: (من قال بخلق القرآن فهو كافر) إنما هو منصب على الفعل فقط، لكن لو جاءنا رجل يقول بخلق القرآن فهذا شيء آخر فلا نحكم عليه بمقتضى فعله إلا بعد قيام الشروط وانتفاء الموانع، بل إني لا أعلم أحدًا من أهل السنة كفر الأشاعرة مع نفيهم لكثير من صفات الله، وقد قال أهل السنة: ومن جحد صفة من صفات الله كفر، ولا أعلم أحدًا كفر المعتزلة مع نفيهم للصفات جملة وتفصيلاً وقولهم بخلق القرآن، وهذا يفيد أن التكفير العام لا يستلزم انطباقه على كل فردٍ من أفراده، فالعام شيء والمعين شيء آخر، والفعل شيء والفاعل

=

=

شيء آخر.

التاسع: أن قدامة بن مظعون رضي الله عنه شرب الخمر متأولاً على عهد عمر بن الخطاب فجيء به إليه فقال (أتشربها وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ، فاحتج بقوله تعالى {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات...} الآية فقال عمر لو اتقيت الله ما شربتها، فأقام عليه الحد، ومع ذلك فإنه لم يتعرض له أحد من الصحابة بشيء من التفسيق أو التبديع مما يدل على التفريق بين الفعل والفاعل، والأدلة على ذلك كثيرة.

فهذه الأدلة تفيدك - إن شاء الله تعالى - إفادة قطعية التفريق بن الفعل والفاعل، وأنه ليس كل من فعل الكفر كفر، أو البدعة بدع، أو الفسق فسق، أو المعصية أثم، ولذلك فنحن نقرر في كثير من المناسبات أنه لا يؤثر فعل المنهي عنه إلا بذكر وعلم وإرادة.

فإن قلت: فما هي هذه الشروط التي تقول عنها إلا بتوفر الشروط وانتفاء الموانع؟

أقول: هي مقررة عند أهل العلم وأسوقها لك باختصار، وهي كما يلي:

الأول: العقل، وضده الجنون، فالعقل شرط، والجنون مانع، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك ليس بعاقل فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

**الثاني**: البلوغ، وضده الصغر، فالبلوغ شرط، والصغر مانع، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك كان صغيرًا فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

**الثالث**: العلم، وضده الجهل، فالعلم شرط، والجهل مانع، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك كان جاهلاً جهلاً يعذر فيه فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

**الرابع**: الاختيار، وضده الإكراه، فالاختيار شرط والإكراه مانع، وبناءً عليه فلو كان أن فاعل ذلك كان مكرهًا فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

الخامس: القصد، وضده قول الشيء أو فعله غفلة ونسيانًا أي بلا قصد، وبناءً عليه

=

=

فلو أن فاعل ذلك لم يكن قاصدًا فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

السادس: عدم التأويل، وضده وجود التأويل، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك كان متأولاً تأويلاً سائغًا فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

إذا علمت هذا فاعلم: أن هذا الكلام إنما هو في انطباق حكم الفعل على فاعله، وأما التكفير أو التبديع بالوصف العام أو الأعم فإنه جائز بإجماع أهل السنة.

وأما تكفير المعين ولعنه وتفسيقه فإن القول الصحيح فيه عند أهل السنة أنه لا يتحقق فيه إلا بعد توفر هذه الشروط السابقة وانتفاء الموانع، والذي جعلني أنبه على هذه المسألة المهمة أمران:

الأول: أن بعض الناس ينسب إلى أهل السنة جواز تكفير المعين مطلقًا، كمن نسب إلى الإمام الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب أنه يقول بذلك، وهذا خطأ على أهل السنة وتقويل للشيخ ما لم يقله، بل الشيخ محمد - رحمه الله تعالى - موافق في هذه لأهل السنة، بل هو سيد من سادات أهل السنة والجماعة وإمام من الأئمة، ونصوصه في ذلك مشهورة معروفة عند من يقرأ كتب الشيخ ورسائله الشخصية، بل قد ألف كتابًا حافلاً في هذه المسألة بعينها.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما في الفتاوى والمسائل (٣/ ١١): في رسالته للشريف: واما الكذب والبهتان مثل قولهم أنا نكفر بالعموم ونوجب الهجرة إلينا على من قدره على إظهار دينه وإنا نكفر من لم يكفر ولم يقاتل ومثل هذا واضعاف اضعافه وكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به عن دين الله ورسوله وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبة عبد القادر والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما لا جل جهلهم وعدم من ينبههم فكيف نكفر من لم يشرك بالله او لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل (سبحانك هذا بهتان عظيم).

وقال في نفس المصدر (٣/ ٩): ونكفره بعد التعريف إذا عرف وأنكر.

=

=

وقال في نفس المصدر (٣/ ٣٧): والذي يدعي الإسلام وهو يفعل من الشرك الأمور العظام، فإذا عليت عليه آيات الله استكبر عنها فليس هذا بالمسلم، وأما الإنسان الذي يفعلها بجهالة، ولم يتيسر له من ينصحه، ولم يطلب العلم الذي أنزله الله على رسوله، بل أخلد إلى الأرض واتبع هواه فلا أدري ماحاله.

وقال في نفس المصدر (٣/ ١٢): علماً أن من لم تقم عليه الحجة هو حديث العهد بالإسلام، والذي نشأ ببادية، أو يكون ذلك في مسألة خفية، مثل الصرف والعطف فلا يكفر حتى يعرف ا. هـ

وكذلك من نسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يقول بذلك، فقد أخطأ على الشيخ خطأ بالغًا، بل قد نص هو - رحمه الله تعالى - أنه لا يكفر المعين إلا بعد ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، وبالجملة فهذا أصل متفق عليه عند جميع أهل السنة، وكل من يثبت عنه منهم أنه كفر أحدًا بعينه فإنما ذلك لثبوت الشروط عنده وانتفاء موانعه، والله أعلم.

**الثاني**: كثيرًا ممن ينتسب للعلم والفقه يستدل على كفر المعين بالدليل العام فيقول مثلاً: فلان يقول بخلق القرآن فهو إذًا كافر؛ لأن من قال بخلق القرآن فهو كافر، وهذا خطأ، فكلام الأئمة هذا عام، وأنت تريد أن تستدل على كفر المعين، فالذين قالوا هذه العبارات العامة لم يقصدوا انطباقها على كل قائليها، وإنما هو بيان منهم لحكم القول نفسه أو الفعل نفسه ويبقى انطباقها على أحدٍ بعينه مفتقرًا لاجتهادٍ آخر.

(تنبيه): فإن قيل: ما الجهل الذي يعذر به صاحبه، وهل يعم مسائل الاعتقاد والعمل، أم هو خاص بمسائل العمل فقط؟

وهذه المسألة مما كثر الكلام فيها وتشعبت فيه الآراء وتباينت فيها المذاهب وابتعد البعض عن ربط هذه المسألة بالكتاب والسنة، فجاءوا بأقوالٍ ممجوجة

=

=

مخالفة للوحيين.

فاعلم - رحمك الله تعالى - أنه لا تكليف إلا بعلم، وهذه قاعدة كبرى من قواعد أهل السنة والجماعة، والأدلة عليها كثيرة جدًا وسيمر بنا طرف صالح منها إن شاء الله تعالى، ولذلك جعل الأصوليون رحمهم الله تعالى من شروط الشيء المكلف به أن يكون معلومًا لدى المكلف، أي أن يعلم المكلف أنه مأمور به أو منهي عنه ويعلم ما هيته وحقيقته الشرعية وما يتعلق به من صحة أو فساد ونحو ذلك، إذا علمت هذا فإليك الأدلة الدالة على هذا الأصل العظيم، فأقول:

الأول: قوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً} فنفى الله تعالى عن نفسه أن يعذب أحدًا قبل بعثة رسولٍ يهدي الناس للصراط المستقيم هداية دلالة وإرشاد ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعلمهم ما يعبدون به ربهم ويقيم الحجة عليهم، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، أما قبل بعثة الرسول فلا عذاب ولا عقاب؛ لأن الناس حينئذٍ في جهل وضلال لا يعرفون ما أمرهم الله به وما نهاهم عنه والعقول لا تستقل بإدراك الشرع، فقبل بعثة الرسول لا عذاب؛ لأنه لا تكليف وبعد بعثته ثبت التكليف لوجود العلم حينئذٍ، إذًا لا تكليف إلا بعلمٍ ولا عقوبة إلا بعد إنذار.

وقال تعالى: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً} النساء:١٦٥.

وقال: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ} الملك:٨ - ٩.

وقال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} الأنعام:١٣٠.

=

=

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} طه:١٣٤.

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين ".

قال ابن كثير في التفسير (٣/ ٣١): إخبار عن عدله تعالى وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه.. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله – عز وجل – لا يدخل النار أحداً إلا بعد إرسال الرسول إليه ا. هـ.

وقال البغوي (٢/ ١٣٢): وذلك أن الله تعالى أجرى السنة أن لا يأخذ أحداً إلا بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنباً إذا أمر فلم يأتمر أو نهي فلم ينته، وذلك بعد إنذار الرسل. وقال أيضا (١/ ٥٠٠): وفيه دليل على أن الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسول ا. هـ.

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٣): في تأويل قوله تعالى: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} الأنعام:١٣١. المعنى أن الله أرسل الرسل إلى عباده لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى، والحال أنهم غافلون عن الإعذار والإنذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم ا. هـ

قلت: إذا كان الله سبحانه وتعالى لا يعذب عباده في الحياة الدنيا وهو العذاب الأدنى إلا بعد بلوغ نذارة الرسل إليهم.. فمن باب أولى كما دلت على ذلك نصوص عدة أن لا يعذبهم العذاب الأكبر يوم القيامة إلا بعد بلوغ نذارة الرسل إليهم.. فيقابلونها بالرد والإعراض.

قال الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان (٢/ ٣٣٦ – ٣٣٨): والآيات القرآنية مصرحة بكثرة بأن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل،

=

=

وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز في الفطرة، فمن ذلك قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} فإنه قال فيها: حتى نبعث رسولاً، ولم يقل حتى نخلق عقولاً، وننصب أدلة، ونركز فطرة.

ومن ذلك قوله تعالى: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس، وينقطع به عذرهم هو إنذار الرسل، لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة.

ومن ذلك أنه تعالى صرح بأن جميع أهل النار قطع عذرهم في الدنيا بإنذار الرسل ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة، كقوله تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ} الملك:٩.

وقوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} الزمر:٧١.

ومعلوم أن لفظة "كلما " في قوله: {كلما ألقي فيها فوج} صيغة عموم، وأن لفظة " الذين " في قوله: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا} صيغة عموم أيضـًا، لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته ا- هـ.

وقال رحمه الله أيضا (٣/ ٤٧٣): {وسيق الذين كفروا} عام لجميع الكفار، وقد تقرر في الأصول: أن الموصولات كالذي والتي وفروعهما من صيغ العموم في كل ما تشمله صلاتها.. إلى أن قال: وهو ظاهر في أن جميع أهل النار قد أنذرتهم الرسل في دار الدنيا؛ فعصوا أمر ربهم كما هو واضح ا. هـ.

وفي قوله تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ} قال كذلك رحمه الله ـ أي الشنقيطي ـ: هذه الآية تدل على أن الله تعالى لا يعذب بالنار أحداً

=

=

إلا بعد أن ينذره في الدنيا.. ومعلوم أن قوله جل وعلا: {كلما ألقي فيها فوج} يعم جميع الأفواج الملقين في النار.

وقال أبو حيان في " البحر المحيط " في تفسير هذه الآية التي نحن في صددها ما نصه: و" كلما " تدل على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين ا- هـ.

قلت: والمراد بالعموم هنا؛ أي جميع من يدخلون النار من أهل الكفر ومن دون استثناء فإنهم يقرون ويعترفون أن نذارة الرسل قد بلغتهم فقابلوها بالرد والإعراض، والجحود.. وأنهم ما دخلوا النار إلا بعد بلوغ نذارة الرسل إليهم ومما يدل على ذلك قوله تعالى: {وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا} أي جميع وعموم الذين اتقوا ربهم من دون استثناء.. وهي نفس صيغة العموم الواردة في قوله تعالى: {وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا} فكما لا يجوز أن نقول أن المراد من قوله {وسيق الذين اتقوا..} بعض أو غالب الذين اتقوا وليس كل الذين اتقوا، كذلك لا يجوز أن نقول أن المراد من قوله تعالى {وسيق الذين كفروا..} بعض أو غالب الذين كفروا؛ لتطابق الآيتين واللفظين من حيث صيغة العموم العامة والشاملة لجميع الذين اتقوا وجميع الذين كفروا.

قال الألوسي في تفسيره: واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع لأنهم وبخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارهم.. وقيل وجه الاستدلال: إن الخطاب للداخلين عموماً يقتضي أنهم جميعاً أنذرهم الرسل، ولو تحقق تكليف قبل الشرع لم يكن الأمر كذلك ا. هـ.

وكذلك قوله تعالى: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ. قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} قّ:٢٨. أي قدمت إليكم بالوعيد والنذر عن طريق رسلي الذين أرسلتهم إليكم قبل أن تقفوا هذا الموقف العصيب الأليم، وتختصموا فيه وبالتالي فإن اختصامكم وتلاومكم الآن وبعد أن فات

=

=

الأوان لا ينفعكم في شيء.

قال ابن جرير في تفسيره (٢٦/ ١٦٨): {وقد قدمت إليكم} في الدنيا قبل اختصامكم هذا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني وخالف أمري ونهيي، في كتبي وعلى ألسن رسلي. قال ابن عباس: إنهم اعتذروا بغير عذر، فأبطل الله حجتهم، ورد عليهم قولهم ا. هـ

وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ. قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَاتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ} غافر:٤٩ - ٥٠.

قوله تعالى: {وقال الذين في النار..} هي أيضاً من صيغ العموم التي تفيد الاستغراق والعموم التي تعم جميع الذين في النار؛ أي قال جميع الذين في النار ومن دون استثناء {بلى} قد جاءتنا رسلنا بالبينات والنذر والآيات.. !

قال الألوسي في التفسير: {وقال الذين في النار} من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لما ضاقت بهم الحيل، وعيت بهم العلل.. ا. هـ.

وكذلك قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} الأنعام:١٣٠.

قوله تعالى: {وقالوا شهدنا على أنفسنا} أي شهدوا على أنفسهم أن حجة الرسل قد بلغتهم وهذا خطاب موجه لجميع الإنس والجن يفيد كذلك العموم لا الغالب؛ لأن الجمع المعرف بأل يفيد العموم والاستغراق؛ أي جميع الجن والإنس يعترفون ويقرون بأن نذارة الرسل قد بلغتهم.

قال ابن كثير في التفسير: {شهدنا على أنفسنا} أي أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة ا. هـ.

=

=

قال شيخ الإسلام ابن تيميه في مجموع فتاواه (١١/ ٤٠٦): من الناس من يكون جاهلاً ببعض هذه الأحكام جهلاً يُعذر به، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}. وقال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}، ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه، أو لم يعلم أن الخمر يحرم، لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا، بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية، والصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية أن الخطاب لا يثبت في حق أحد قبل التمكن من سماعه، وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما بعث الله به رسوله ولا يكونه هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر ولهذا اتفق الأئمة على أنه من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره، حتى يعرف ما جاء به الرسول ا. هـ

وقال ابن حزم في الأحكام (٥/ ١٠٤ - ١١٤): وأما شرائع الأبدان والاعتقاد فإنها تجب بوجهين: أحدهما البلوغ مبلغ الرجال والنساء، وهو البلوغ المخرج عن حد الصبا، والثاني بلوغ الشريعة إلى المرء، وأما الحدود فإنها تلزم من عرف أن الذي فعل حرام، وسواء علم أن فيه حداً أم لا، وهذا لا خلاف فيه. وأما من لم يعرف أن ما عمل حرام فلا حد عليه فيه، وبرهان ذلك قوله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغ} الأنعام:١٩. فإنما جعل الله تعالى وجوب الحجة ببلوغ النذارة إلى المرء، وقال تعالى: {وأعرض عن الجاهلين}. فأمر أن يهدر فعل الجاهل، إلى أن قال: أما من لم يبلغه ذكره ﷺ، فإن كان موحداً فهو مؤمن على

=

=

الفطرة الأولى صحيح الإيمان لا عذاب عليه في الآخرة، وهو من أهل الجنة، وإن كان غير موحد فهو من الذين جاء النص بأنه يوقد له يوم القيامة نار، فيؤمرون بالدخول فيها، فمن دخلها نجا، ومن أبى هلك. قال الله ﷻ: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} الإسراء:١٥. فصح أنه لا عذاب على كافر أصلاً حتى تبلغه نذارة الرسول ﷺ ا. هـ.

**الثاني**: قوله تعالى: {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به} والقول بثبوت التكليف قبل العلم فيه تحميل لنا ما لا نطيق وهو منتفٍ شرعًا، إذ كيف تكلف بأمرٍ لا تعلمه، فهذا داخل تحت تكليف ما لا يطاق وليس في الشريعة الإسلامية شيء من التكاليف لا يطاق ولله الحمد، فالعدل الرباني يقتضي أنه لا تكليف إلا بعلم ولا عذاب إلا بعد إنذار، والله أعلم.

**الثالث**: حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه في فهمه لقوله تعالى: {حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر}، والشاهد منه أنه ﷺ لم يأمره بقضاء ذلك اليوم لعدم علمه بمراد الآية فارتبط التكليف بالعلم، فعدي رضي الله عنه كان جاهلاً بمراد الآية فصار جهله عذرًا عند الشارع.

**الرابع**: حديث ابن عمر في الصحيحين أن رجلاً صلى مع النبي ﷺ صلاة الصبح فمر على قوم في مسجد قباء وهم يصلون لغير القبلة، فقال إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها فاستداروا كما هم إلى الكعبة)، ووجه الاستشهاد منه أنهم افتتحوا الصلاة للقبلة المنسوخة ومن شروط الصلاة استقبال القبلة، فلما بنوا على صلاتهم ولم يستأنفوها ولم يأمرهم ﷺ بقضاء هذه الصلاة دل ذلك على أنه عذرهم لعدم علمهم بالناسخ، فدل على أن الجهل بالحكم عذر فلا تكليف إلا بعلم، ويزاد على هذا أن خبر تغيير القبلة إذا كان تأخر وصوله إلى من بجوار المدينة كمن في بقاء، فإنه يعلم يقينًا من باب أولى

=

=

أنه لن يصل إلى من بمكة أو ممن بالحبشة إلا متأخرًا، ومع ذلك لم يأمر أحدًا منهم بقضاء أو إعادة مما يدل على أن الجميع يعذرون بجهلهم، فدل على أن الجهل عذر وأنه لا تكليف إلا بعلم ولا عقوبة إلا بعد إنذار، والله أعلم.

الخامس: أن النبي ﷺ (أهدى إليه رجل زق خمر فقال ﷺ ألم تعلم أنها حرمت، قال ففتح الرجل الزق فأراقه) وهو عند مسلم. فهذا الرجل جاء بهذا الخمر يهديه للنبي ﷺ بعد نزول التحريم، ومع ذلك لم يعنف على الرجل ولم يؤثمه لجهله فصار جهله عذرًا مقبولاً مما يدل على أنه لا تكليف إلا بالعلم.

السادس: في الصحيحين من حديث أنس (أن أعرابيًا دخل المسجد فبال فنهره الصحابة رضي الله عنهم فقال رسول الله ﷺ لا تزرموه ودعوه فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوبٍ من ماءٍ فأهريق عليه) فلاشك أن للمسجد حرمته وقدسيته لاسيما الحرمين، مسجد مكة والمدينة وهذه الواقعة وقعت في مسجد المدينة مع أن النبي ﷺ (غضب لما رأى بزاقًا في المسجد حتى احمر وجهه وأمر بحكها ودفنها)، وقال أيضا (البزاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها)، وهذا الأعرابي يأتي يبول في ثاني الحرمين الشريفين لاشك أنه فعل يستحق صاحبه العقوبة البليغة التي تردعه من ذلك، لكن لم يحصل شيء من ذلك؛ لأن الأعرابي لم يقصد شيئًا من ذلك وإنما فعل ذلك جاهلاً الحكم فعذره النبي ﷺ لجهله مما يدل على أن الجهل بالحكم عذر شرعي، ولذلك علمه الحكم بعده، فقال له (إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من هذا الأذى والقذر إنما هي للصلاة والتسبيح والتهليل وقراءة القرآن) والله أعلم.

السابع: روى مسلم بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي (أنه صلى مع النبي ﷺ فعطس رجل من القوم فقال معاوية يرحمك الله قال فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أمياه ماذا صنعت فجعلوا يضربون على أفخاذهم فلما انصرف النبي ﷺ

=

فبأبي هو وأمي والله ما رأيت معلمًا قط أفضل منه فوالله ما كهرني ولا نهرني ولكن قال إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) وهذا مع أنه قد تقرر أن الكلام في الصلاة مبطل لها؛ لأن في الصلاة شغلاً وأن الله يحدث من أمره ما يشاء وإنه مما أحدث ألا يتكلم في الصلاة، لكن ومع كلام معاوية في الصلاة أكثر من مرة لم يأمره النبي ﷺ بالإعادة، فدل ذلك أن كلامه هذا لا أثر له وذلك لجهله بالحكم فجعل جهله مانعًا من إبطال الصلاة مما يدل على أن الجهل بالحكم عذر من الأعذار الشرعية وأنه لا تكليف إلا بعلم.

الثامن: روى البخاري ومسلم من حديث عمار بن ياسر (أن النبي ﷺ بعثه في حاجة فأجنبت قال فتمرغت في الصعيد كما تتمرغ الدابة فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا... ) الحديث، وفي بعض الروايات الصحيحة أنه كان معه عمر رضي الله عنه وأنه لم يصل، فعندنا عدة أمور:

منها: أن الطهارة الشرعية صفتها توقيفية وما فعله عمار ليس هو التيمم الشرعي فلما صلى بهذا التيمم فكأنه صلى بغير طهارة ومع ذلك لم يأمره النبي ﷺ بإعادة هذه الصلوات التي صلاها بهذه الطهارة، مما يدل على أن النبي ﷺ عذر عمارًا لجهله، فدل ذلك على أنه لا تكليف إلا بعلم.

ومنها: أن عمر - رضي الله عنه - بقي هذه المدة ولم يصل ولم ينقل أن النبي ﷺ أمره بقضاء ذلك؛ لأن عمر كان يجهل أن التيمم رافع للحدث الأكبر، فعد النبي ﷺ جهله هذا مانعًا من تكليفه أي من أمره بالقضاء مما يدل على أن الجهل بالحكم عذر شرعي يعذر الإنسان به في ترك الواجب أو فعل المحرم.

التاسع: قوله تعالى: {لأنذركم به ومن بلغ}، وقوله: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ومثل هذا في القرآن كثير ومتعدد، ليبين سبحانه أنه لا يعاقب أحدًا حتى يبلغه ما جاء به الرسول ﷺ.

=

العاشر: حديث المستحاضة وهن ثلاث: حمنة بنت جحش، وفاطمة بنت أبي حبيش، وزينب بنت جحش، وفي هذه الأحاديث أن أمر الاستحاضة يشكل على إحداهن حتى تدع الصلاة، ففي حديث فاطمة أنها قالت: إني امرأة أستحاض فلا أطهر أندع الصلاة، وفي حديث حمنة: إني أستحاض حيضة كثيرة شديدة تمنعني من الصلاة والصوم، وفيها أن النبي ﷺ يفتيهن بوجوب الصلاة زمن دم الاستحاضة وأنها لا تسقط وجوب الصلاة والصوم، ولم يثبت أنه ﷺ أمرهن بقضاء الصلاة والصوم الذي فاتهن مما يدل على أنه عذرهن بالجهل بهذا الحكم الشرعي مما يدل على أن الجهل عذر شرعي، والله أعلم.

الحادي عشر: أنه لما زيد في صلاة الحضر حين هاجر إلى المدينة كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان من كان بعيدًا عنه مثل من كان بمكة وبأرض الحبشة يصلون ركعتين ولم يأمرهم النبي ﷺ بإعادة شيء من ذلك؛ لأنه عذرهم لجهلهم للحكم وهذا يدل على أن حكم الناسخ لا يلزم إلا لمن بلغه، والله أعلم.

الثاني عشر: ثبت في الصحيحين أنه سئل بالجعرانة عن رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وهو متضمخ بالطيب، فلما نزل عليه الوحي قال انزع عنك الجبة واغسل عنك أثر الخلوق واصنع في عمرتك ما كنت صانعًا في حجك)، وهذا فعل محظورًا في الحج وهو لبس المخيط واستعمال الطيب، ولم يأمره النبي ﷺ في ذلك بالكفارة، مما يدل على أنه عذره للجهل فدل ذلك على أنه لا تكليف إلا بعلم، وقررنا بذلك قاعدة وهي قولنا: لا يؤثر فعل المحظور إلا بذكرٍ وعلمٍ وإرادةٍ، والله أعلم.

الثالث عشر: ثبت في الصحيحين أن أعرابيًا وهو خلاد بن رافع (دخل المسجد فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه وقال

=

ارجع فصل فإنك لم تصل ثلاثًا ثم قال والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني فقال إذا قمت إلى الصلاة فكبر... ) الحديث المعروف باسم حديث المسئ صلاته.

والشاهد منه أن النبي ﷺ لم يأمره بإعادة الصلوات التي صلاها بهذه الطريقة الخاطئة مما يدل على أنه معذور بهذا الجهل، وأما أمره بإعادة هذه الصلاة فلأن وقتها لا يزال باقيًا فهو مخاطب بها، والتي صلاها لم تبرأ بها الذمة فأمر بإعادتها وهذا من أوضح الأدلة أن الإنسان يعذر بجهله، والله أعلم.

الرابع عشر: حديث حذيفة بن اليمان قال (قال رسول الله ﷺ - يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها، فقال له صلة ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثًا كل ذلك يعرض عنه ثم أقبل في الثالثة فقال يا صلة تنجيهم من النار، ثلاثًا) رواه ابن ماجه والحاكم وإسناده صحيح، فهذا الحديث وإن كان يتحدث عن حال الناس في آخر الزمان لكن فيه دليل على العذر بالجهل، حيث يعم الجهل بالكتاب والسنة بموت العلماء وترئيس الجهال ودروس العلم وتفاقم البدع ويضعف نور النبوة فتخفى على الناس كثير من الأحكام الظاهرة المتواترة كوجوب الصلاة والصوم فلا يبقى عندهم إلا الإقرار الذي عليه مدار النجاة، وهذا الجهل بهذه الأحكام الظاهرة لا يلزم أن يكون عامًا لأهل الأرض، بل في زمانٍ دون زمان ومكانٍ دون مكان لحديث: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)، والله أعلم.

=

الخامس عشر: حديث أبي واقدٍ الليثي قال (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرةٍ فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى {اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون} لتركبن سنن من كان قبلكم) رواه الترمذي وصححه.

فالذي طلبه من الصحابة أعني من كان منهم حديث عهد بكفرٍ حكمه شرك ولاشك، ولذلك شبهه النبي ﷺ بطلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا كما لهؤلاء آلهة، وأقسم على أنه مثله ولكنهم لم ينطبق عليهم حكم قولهم هذا – حاشا وكلا –؛ وذلك لأنهم حدثاء عهد بكفرٍ، مما يدل دلالة واضحة أن جهلهم بحقيقة ما قالوا صار عذرًا لهم في ذلك، فدل على أنه لا تكليف إلا بعلم، والله أعلم.

السادس عشر: قصة سجود معاذ بين يدي النبي ﷺ وتقدمت، ووجه الاستشهاد بها أن النبي ﷺ عذر معاذًا في فعله هذا لجهله بحقيقة الأمر وعدم علمه بحكم ما فعله مما يدل على أن الجهل عذر وأنه لا تكليف إلا بعلم.

فهذه الأدلة تفيدك إفادة قطعية – إن شاء الله تعالى – أن الجهل عذر من الأعذار الشرعية، وظهر بذلك صواب القاعدة المقررة عند أهل السنة والجماعة أنه لا تكليف إلا بعلم وأما مع الجهل فإن الإنسان لا يعد مكلفًا، وما مضى هو المسألة الأولى، أي أننا نكون بذلك قد عرفنا قاعدة لا تكليف إلا بعلم وسقنا عليها ما حضرنا من الأدلة، والله أعلم.

وأما المسألة الثانية: فهي أن يقال بعد أن تقرر من الأدلة السابقة أن الجهل عذر من الأعذار، فهل هو عذر في المسائل العلمية أي العقدية والعملية أي الفقهية، أم

=

=

هو عذر في الثانية دون الأولى؟

والجواب عن ذلك أن يقال: اعلم أن مذهب أهل السنة والجماعة الذي تظافرت الأدلة على نصره هو أن العذر بالجهل عام في جميع المسائل جليها ودقيقها، سواءً المسائل العلمية أو العملية، الأصولية أو الفروعية، هذا هو مذهبهم المشهور عنهم، وقد نقله غير واحدٍ ومن أشهرهم أبو العباس بن تيمية - رحمه الله تعالى - ، وذكر - قدس الله روحه - أن القول بالتفريق بالجهل بين العقائد والشرائع قول مبتدع مأخوذ عن المبتدعة من المعتزلة وغيرهم، بل لو تدبرنا الأدلة السابقة لوجدنا بعضها في لب العقيدة كحديث سجود معاذ بين يدي النبي ﷺ، وحديث الأنواط، وحديث خلاد بن رافع فإنه في الصلاة وهي من الأصول، وحديث الذي قال: (إذا مت فأحرقوني) وغيرها، بل عمومات الآيات والأحاديث قاضية بذلك، فإنها وإن وردت على أسباب خاصة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقد تقرر في الأصول أن الأصل هو البقاء على العموم حتى يرد المخصص فتلخص من هذا أن الجهل عذر في كل المسائل، أي سواءً العلمية أو العملية، والله أعلم.

وأما المسألة الثالثة فهي: ما الجهل الذي يعذر به صاحبه؟ أقول: هذا هو لب القاعدة.

اعلم - رحمك الله تعالى - أن مسألة العذر بالجهل من المسائل التي كثر فيها الخلاف قديمًا وحديثًا وحصل بسببها بعض الفرقة والنزاع بين بعض أهل العلم، وما ذلك إلا لعدم تحرير محل النزاع، ولأنه قد دخل في الكلام فيها من لم يبلغ درجة الكلام في مثل هذه المسائل، ودخل فيها ضيق العين وقليل الحياء الذي يرشق مخالفه بزخات من عفن الكلام وسوء الأدب حتى إنه لا يعرف لكبير قدرًا ولا لصغير نظرًا، بل قوله هو المقدم في الحال والمآل، وكل قولٍ يخالف قوله فهو

=

=

ضلال ومحال، وهذا لا يجوز، بل هو من الكبر والجهل والاعتداء، والمقصود أن مسألة العذر بالجهل لها اعتباران:

الأول: اعتبار الجهل عذرًا شرعيًا وهذه - إن شاء الله تعالى - من أصول المسائل عند أهل السنة لكثرة أدلتها وصراحة ودلالتها، واشتهار أمرها بين العامة والخاصة، ولا أظن أحدًا منهم يخالف في ذلك، والأدلة المذكورة في رأس هذه المسألة هي غيض من فيض أدلة كثيرة لا تدع مجالاً لمنصف أن يشك في أن الجهل عذر.

والاعتبار الثاني: هو في نوع الجهل الذي يعد عذرًا شرعيًا، فهذا هو الذي كثر الخلاف فيه، مع اتفاقهم على الأول، فبعضهم يرى أن هذا النوع من الجهل عذرًا، وبعضهم لا يراه كذلك، وخلافهم هذا - في نظري - يدرج بعضه تحت مسائل الاجتهاد التي يسوغ فيها الخلاف، ولا يجوز فيها إلزام الآخرين بأقوالنا ولا توجب المخالفة فيها عداءً ولا تدابرًا ولا تشاحنًا ولا مسابة ولا غيرها، مما لا يليق بحملة العلم وطلابه، إذا علم هذا فإني أذكر لك - إن شاء الله تعالى - طرفًا من الكلام على أنواع الجهل وتعريفاته وتفريعاته وما يتخرج على النصوص السابقة من أنواعه.

الأمر الأول: ذكر علماء اللغة رحمهم الله تعالى أن الجهل له معانٍ:

منها: خلو النفس من العلم، بمعنى أنك لا تعلم هذا الشيء أصلاً، كمن يسأل عن شيء فيقول لا أدري، فهو جاهل به، لأنه خال من علمه وهو ما يسميه المناطقة بالجهل البسيط، وهذا النوع من الجهل هو الذي تعرفه العامة، إذ هو المشهور بينهم.

ومنها: فهم الشيء على غير وجهه، فإذا فهم الإنسان قولاً أو فعلاً على غير مراد صاحبه فهو جاهل به، لكن هذا الجهل إنما ينصب على فهم المعنى لا الألفاظ،

=

=

ذلك أن اللفظ قد بلغه لكنه لم يفهم معناه الفهم الذي يقصده صاحبه، وهو الذي يسميه المناقطة بالجهل المركب ويقول فيه الأصوليون هو اعتقاد الشيء على غير ما هو عليه.

ومنها: فعل الشيء على خلاف ما حقه أن يفعل عليه، وكأن هذا النوع ليس نوعًا جديدًا، بل هو نتيجة للنوع الثاني، والله أعلم.

فهذه أنواع الجهل، ينبغي مراعاتها في مسألة العذر بالجهل مع مراعاة الضوابط الآتية - إن شاء الله تعالى -.

الأمر الثاني: اعلم أن الجهل ليس صفة ذاتية لازمة للإنسان، بل هو من العوارض التي تذهب بزوال أسبابها، فالجهل بالشيء يذهب ويزول إذا تعلمه الإنسان، إذا علم هذا فليعلم أن الله تعالى قد أمرنا برفع الجهل، وذلك في قوله تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} والأمر للوجوب فيما علمه واجب، وللاستحباب فيما علمه مستحب.

فتعلم كيفية الصلاة مثلاً واجب عيني، فيكون حكم رفع الجهل في هذه المسألة بعينها واجب عيني، وأما تعلم كيفية صلاة الاستسقاء مثلاً فهو سنة، فيكون حكم رفع الجهل فيها سنة، وبه تعلم أن رفع الجهل من الأحكام التكليفية؛ ذلك لأنه يكون واجبًا فيما علمه واجب وسنة فيما علمة سنة وبقاؤه واجب فيما علمه محرم وسنة فيما علمه مكروه، وفيما عدا ذلك فرفعه مباح، فجرت عليه الأحكام التكليفية الخمسة، فهو إذًا حكم تكليفي، وحيث ثبت ذلك فيجري عليه لزامًا ما يجري على الأحكام التكليفية من الشروط، فكل شرط للمطالبة بالتكليف فهو شرط للمطالبة برفع الجهل، فمن ذلك البلوغ، والعقل، والقدرة، وكذلك يسقطه ما يسقطه من الصغر والجنون والعجز عن رفعه، وهذا أمر مهم لابد من فهمه عند البحث عن مسألة العذر بالجهل والبحث في أنواعه، والله أعلم.

=

=

الأمر الثالث: وهو خلاصة هذا المبحث في هذه المسألة أن ضابط العذر بالجهل هو مراعاة القدرة على رفعه من عدمها، فالجهل الذي يشق الاحتراز منه ولا يتمكن المكلف من رفعه هو الذي يعد عذرًا من الأعذار الشرعية، أما الجهل الذي يتمكن المكلف من رفعه بيسر وسهوله لكنه فرط وأهمل فإنه لا يعذر عذرًا في الشريعة، قال شيخ الإسلام ابن تيميه في رفع الملام (ص١١٤): إن العذر لا يكون عذراً إلا مع العجز عن إزالته، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق، فقصر فيه، لم يكن معذوراً ا. هـ

ومن صور الجهل الذي يشق الاحتراز منه ولا يتمكن المكلف من رفعه: الذي أسلم في دار الحرب ولا يستطيع الهجرة منها لعذرٍ من الأعذار، فإنه إذا ترك مأمورًا أو فعل محظورًا في هذه الحالة وادعى أنه كان جاهلاً بوجوب هذا أو حرمة هذا، فإنه يقبل منه ذلك؛ لأن دار الحرب غالبًا لا يظهر فيها علم أهل الإسلام، بل هي خالية من أحاد المسلمين غالبًا فضلاً عن العلماء وطلاب العلم، فالجهل فيها مما لا يمكن المكلف رفعه، ورفع الجهل واجب على المكلف في حكم هو واجب عليه، والواجبات تسقط بالعجز عنها كما هو مقرر في القواعد، وهو عاجز عن رفع الجهل فيسقط عنه؛ لأنه لا واجب مع العجز، وهذه الصورة من النوع الأول من أنواع الجهل وهو خلو النفس عن العلم.

ومنها: من نشأ ببادية بعيدة عن العلم والعلماء ولا يمكنه الاتصال بهم، ففعل محظورًا أو ترك مأمورًا وادعى أنه كان جاهلاً بذلك، فهو معذور بهذا الجهل؛ لأنه في هذه الحالة لا يقدر على رفع الجهل عن نفسه ولا واجب مع العجز، فالجهل في البوادي البعيدة هو مما يشق التحرز منه أي أن التحرز من وقوع الجهل في هذه الأماكن من الأمور الشاقة جدًا، وهذه الصورة أيضًا من النوع الأول وهو خلو النفس عن العلم، ويمثل لذلك بحال الأعرابي الذي بال في مسجد النبي ﷺ،

=

=

والأعرابي الذي جاء بزق خمرٍ فأهداه إلى النبي ﷺ، وبجهل من هاجر إلى الحبشة بزيادة صلاة الحضر فإنهم لم يعلموا بذلك إلا بعد مدة ومثلها عدم علمهم بنسخ القبلة وهم معذورون في ذلك لبعدهم عن دار العلم، وكذلك حديث خلاد بن رافع فإنه ليس من أهل المدينة وإنما من الأعراب فعذر بجهله السابق؛ لأنه كان في دارٍ بعيدة، ونحو ذلك.

ومنها: حداثة الإسلام، فإن من أسلم حديثًا يغلب عليه طابع الجهل ببعض الأحكام الشرعية سواءً العقدية أو الفقهية، فجهله هذا يكون عذرًا مانعًا من انطباق حكم فعله عليه، وعلى ذلك حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه السابق في سياق الأدلة حديث ذات أنواط، والشاهد منه قوله: (ونحن حدثاء عهدٍ بكفرٍ) أي لا زلنا بعد لم نتفقه ولم نتعلم ولم تذهب منا عادات قومنا زمن الكفر، وذلك لحداثة الإسلام، وهذا يكون فيمن أسلم حديثًا سواءً في دار الإسلام أو في دار الكفر أوضح، لكن حتى الكافر في دار الإسلام قد لا يعرف كثيرًا من أحكام الإسلام لعدم اهتمامه بها واشتغاله بغيرها، فجهل حديث الإسلام ببعض شرائعه يشق الاحتراز منه إذ من الصعب جدًا أن تعلم الكافر قبل أن يسلم جميع الشرائع حتى لا يدخل في الإسلام إلا على بصيرة، وإنما الواجب هو النطق بالشهادتين أولاً وإن لم يك عالمًا بمعناهما عرف معناهما، وهذه الصورة أيضًا هي من النوع الأول، وهو خلو النفس عن العلم، والله ربنا أعلم.

ومنها: من نشأ في بلدةٍ من بلاد الإسلام لكن يغلب عليها البدعة كبدعة الصوفية بطرقها الضالة، أو القبورية، والكلمة فيها لعلماء السوء الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل، وكبلاد الشيعة التي لا تكاد فيها تجد للسنة طريقًا ولا كلمة ولا راية، ولا طريق للعلم الصحيح لبعده عن بلاد أهل السنة أو لاعتقاده صواب نفسه، فهذا معذور - إن شاء الله تعالى - حتى تقام عليه الحجة

=

=

الرسالية؛ لأنه جاهل جهلاً لا يتمكن من رفعه عن نفسه، ولأن الجهل في هذه الأماكن مما يشق التحرز منه، وما أكثر البلاد التي تسودها البدعة بعلمائها المنحرفين الضالين الذين يمنعون نور الهدى أن يصل للناس، فأولئك عليهم وزرهم ووزر من أضلوه لأنهم دعاة فتنة وأبواب الشر، وقد رأينا بأعيننا في بعض البلاد التي تنتسب إلى الإسلام أن نار البدعة فيها مضطربة تتوقد والناس يحترقون فيها وعلماء البدعة يفتون بجوازها وأنها من لب الشريعة وينكرون على من أنكرها وهي بدع شركية كالذبح للقبور والنذر لها ودعائها من دون الله تعالى، والناس في هذه البلاد أعني العوام منهم لم يسمعوا كلمة الحق لقلة من يذهب لهم من الدعاة ولسيطرة علماء البدعة على مناصب الإفتاء، ومنعهم دخول كتب أهل السنة لبلادهم، فمثل هؤلاء الأتباع يعذرون - إن شاء الله تعالى -؛ لأنهم يجهلون حقيقة الأمر الذي هم فيه ولا تكليف إلا بعلم ومثل جهل هؤلاء يشق التحرز منه، ولا ينبغي التعجل في إخراج أحدٍ من دائرة الإسلام بمثل ذلك، فنسأل الله تعالى أن يعين الدعاة من أهل السنة ليوصلوا كلمة الحق إلى هؤلاء الضعفاء الذين هم في حاجة إلى سماعها أكثر من حاجتهم إلى طعامهم وشرابهم، ومن العجب أنك تسمع من يهون الأمر ويقول: إن التوحيد مفهوم للجميع، وهذه كلمة جاهل لا يدري عن الواقع، والله المستعان.

فهذه بعض الصور التي يذكرها العلماء في الجهل الذي يعذر به صاحبه ويجمعها قولنا: كل جهل يشق الاحتراز منه ولا يتمكن المكلف من رفعه فيعذر به في ترك المأمور أو فعل المحظور وما لا فلا، ويتفرع عن هذه القاعدة قواعد كثيرة جدًا من أهما قولهم: أن التكليف مشروط بالقدرة على العلم والعمل، ومنها قولهم: إن الخطاب لا يثبت حكمه إلا بالبلوغ، ومنها: لا يثبت الناسخ إلا بالعلم، ومنها قولهم: ما تركه المكلف لجهله بالوجوب فإنه لا يعيده، ويعينون بالجهل أي الذي

=

يعذر به صاحبه، ومنها قولهم: لا مؤاخذة إلا بعلم ولا عقوبة إلا بعد إنذار.
وهذه القواعد معناها: إن الأحكام الشرعية لا تثبت في حق المكلفين ولا يطالبون بها إلا بعد أن تبلغ ويتمكنوا من فهمها مطلق الفهم، وما سبق ذلك من عبادات أو معاملات فإنهم يقرون عليه ما دام المفسد قد زال ولا يؤمرون بإعادته، والله ربنا أعلى وأعلم.
بقي أن يقال: كيف العمل في حديث عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أحل بعد طلوع الفجر وقد نزل قوله تعالى: {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر}، فعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد بلغه الدليل، ومع ذلك خالفه ولم يؤمر بالقضاء، وكذلك حديث عمار في التيمم فإنه كان يعلم أن التيمم رافع لحدث الجنابة وتيمم على صفة غير مشروعة ومع ذلك لم يأمره النبي ﷺ بإعادة الصلاة التي صلاها بهذا التيمم، والدليل قد بلغه، فما نوع الجهل في هذين الحديثين؟
أقول: إن قولنا: (بلوغ الدليل) لا نعني به مجرد بلوغ الألفاظ وسماعها، فإن ذلك لوحده لا تقوم به الحجة، بل نعني بكلمة (بلوغ الدليل) أي البلوغ التام المركب من سماع اللفظة وفهمه على وجهه الصحيح، وقلنا سابقًا: إن الجهل أنواع:
منها: خلو النفس عن العلم أصلاً.
ومنها: اعتقاد الشيء على غير ما هو عليه وفعله على غير ما حقه أن يفعل، فعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلغه الدليل ولاشك وسمعه من النبي ﷺ ولكنه أخطأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فهمه، واعتقده على غير وجهه الصحيح وظن مع ذلك صواب نفسه فعمل به ممتثلاً لا مخالفًا، فهو يوصف بالجهل في هذه المسألة، وبهذا الاعتبار لا يخرج في فهمه هذا عن حد الجهل الذي يعذر به صاحبه؛ لأنه لم يتمكن من رفعه لظنه صواب نفسه فهو جاهل، لكنه يظن أنه مصيب ولذلك لم يأمره النبي ﷺ بالقضاء لتحقق عدم قيام الحجة عليه لجهله بمراد الدليل لا بلفظ الدليل إذ ليس كل من قرأ النص فهم

=

المراد منه، والحجة لا تقوم إلا بالبلوغ ومطلق الفهم، ولم يكن من عادته ﷺ أن يشرح لهم المراد من كل آية تنزل، ولم يكن من عادة القوم أيضًا أن يسألوا عن ذلك إلا أحيانًا وإلا فهم في الغالب يوكلون إلى فهمهم لأنهم أهل لسان والقرآن نزل بلسانهم، وعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهم الخيط على وجهه الصحيح المتقرر عنده في اللغة فلذلك عمد إلى عقالين أبيض وأسود وأكل حتى تبين أحدهما من الآخر فهو لم يفهم شيئًا بعيدًا عن معنى الآية، لكن اختلف المراد بالخيط في الآية وعدي جهل اختلاف المراد بالخيط وعمل بما غلب على ظنه أنه المراد فلذلك لم يسأل رسول الله ﷺ جريًا على العادة الغالبة، لكن لما ظهرت له المخالفة سأل فأخبره النبي ﷺ أن المراد بالخيط نور الفجر وظلمة الليل ولم يؤمر بالقضاء؛ لأنه معذور بجهله، والله أعلم، وأما عمار وحديثه في التيمم فأقول فيه: إن عمارًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنده علم جملي أن التيمم يرفع الحدث الأكبر، لكنه كان يجهل صفته أعني يجهل صفة التيمم عن الحدث الأكبر ولا يتمكن من رفع هذا الجهل في هذه الحالة لبعده عن النبي ﷺ، والصلاة لا يجوز تأخيرها عن وقتها فلم يكن منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا أنه اجتهد بالقياس، فرأى أنه لما كان يلزم تعميم البدن بالماء في الاغتسال فكذلك يجب تعميم البدن بالتراب في التيمم فتمرغ وصلى بهذا التيمم ولم يؤمر بالقضاء وإنما اخبر بصفة التيمم الصحيحة لأنه كان جاهلاً بها والجاهل معذور وجهله هذا كان معناه خلو النفس من العلم، وكلا الحديثين أعن حديث عدي وحديث عمار لا يخرجان عن الضابط المتقرر وهو أن الجهل الذي يعذر به صاحبه هو الجهل الذي يشق رفعه ولا يتمكن المكلف من إزالته عن نفسه أما في حديث عدي فلظنه صواب نفسه وأما في عمار فلبعده عن النبي ﷺ.

قال العلامة الألباني في "الصحيحة" (٧/ ١/ ١٠٥ - ١١٦): وخلاصته؛ أن الرجل النباش كان مؤمناً موحداً، وأن أمره أولاده بحرقه... إنما كان إما لجهله بقدرة الله

=

=

تعالى على إعادته- وهذا ما أستبعده أنا- أو لفرط خوفه من عذاب ربه، فغطى الخوف على فهمه؛ كما قال ابن الملقن فيما ذكره الحافظ (١١/ ٣١٤)، وهو الذي يترجح عندي من مجموع روايات قصته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وسواء كان هذا أو ذاك؛ فمن المقطوع به أن الرجل لم يصدر منه ما ينافي توحيده، ويخرج به من الإيمان إلى الكفر؛ لأنه لو كان شيء من ذلك لما غفر الله له؛ كما تقدم تحقيقه من ابن عبد البر.

ومن ذلك يتبين بوضوح أنه ليس كل من وقع في الكفر من المؤمنين وقع الكفر عليه وأحاط به. ومن الأمثلة على ذلك: الرجل الذي كان قد ضلت راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فلما وجدها قال من شدة فرحه: "اللهم! أنت عبدي وأنا ربك "!.

وفي ذلك كله رد قوي جداً على فئتين من الشباب المغرورين بما عندهم من علم ضحل: الفئة الأولى: الذين يطلقون القول بأن الجهل ليس بعذر مطلقاً؛ حتى ألف بعض المعاصرين منهم رسالة في ذلك!

والصواب الذي تقتضيه الأصول والنصوص التفصيل؛ فمن كان من المسلمين يعيش في جو إسلامي علمي مصفى، وجهل من الأحكام ما كان منها معلوماً من الدين بالضرورة- كما يقول الفقهاء- فهذا لا يكون معذوراً؛ لأنه بلغته الدعوة وأقيمت الحجة.

وأما من كان في مجتمع كافر لم تبلغه الدعوة، أو بلغته وأسلم؛ ولكن خفي عليه بعض تلك الأحكام لحداثة عهده بالإسلام، أو لعدم وجود من يبلغه ذلك من أهل العلم بالكتاب والسنة؛ فمثل هذا يكون معذوراً.

ومثله- عندي- أولئك الذين يعيشون في بعض البلاد الإسلامية التي انتشر فيها الشرك والبدعة والخرافة، وغلب عليها الجهل، ولم يوجد فيهم عالم يبين لهم ما

=

=

هم فيه من الضلال، أو وجد ولكن بعضهم لم يسمع بدعوته وإنذاره؛ فهؤلاء أيضاً معذورون بجامع اشتراكهم مع الأولين في عدم بلوغ دعوة الحق إليهم؛ لقوله تعالى: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} (الأنعام:١٩) وقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} (الإسراء:١٥)، ونحو ذلك من الأدلة التي تفرع منها تبني العلماء عدم مؤاخذة أهل الفترة؛ سواء كانوا أفراداً أو قبائل أو شعوباً؛ لاشتراكهم في العلة؛ كما هو ظاهر لا يخفى على أهل العلم والنُّهى.

ومن هنا يتجلى لكل مسلم غيور على الإسلام والمسلمين عظم المسؤولية الملقاة على أكتاف الأحزاب والجماعات الإسلامية الذين نصبوا أنفسهم للدعوة للإسلام، ثم هم مع ذلك يدعون المسلمين على جهلهم وغفلتهم عن الفهم الصحيح للإسلام، ولسان حالهم يقول- كما قال لي بعض الجهلة بهذه المناسبة -: "دعوا الناس في غفلاتهم"! بل وزعم أنه حديث شريف!! أو يقولون- كما تقول العوام في بعض البلاد-: "كل مين على دينه، الله يعينه "! وهذا خطأ جسيم لو كانوا يعلمون، ولكن صدق من قال: "فاقد الشيء لا يعطيه "!.

والفئة الثانية: نابتة نبتت في هذا العصر؛ لم يؤتوا من العلم الشرعي إلا نزراً يسيراً، وبخاصة ما كان منه متعلقاً بالأصول الفقهية، والقواعد العلمية المستقاة من الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح، ومع ذلك؛ اغتروا بعلمهم فانطلقوا يبدِّعون كبار العلماء والفقهاء، وربما كفروهم لسوء فهم أو زلة وقعت منهم، لا يرقبون فيهم (إلاً ولا ذمة)، فلم يشفع عندهم ما عرفوا به عند كافة العلماء من الإيمان والصلاح والعلم، وما ذلك إلا لجهلهم بحقيقة الكفر الذي يخرج به صاحبه من الإيمان؛ ألا وهو الجحد والإنكار لما بلغه من الحجة والعلم؛ كما قال تعالى في قوم فرعون: {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِين، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ} (النمل:١٣، ١٤). وقال في الذين كفروا بالقرآن: {ذَلِكَ

=

=

جَزَاء أَعْدَاء اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُون} (فصلت:٢٨) ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه (١٦/ ٤٣٤ - مجموع الفتاوى):

" لا يجوز تكفير كل من خالف السنة؛ فليس كل مخطئ كافراً، لا سيما في المسائل التي كثر فيها نزاع الأمة ".

يشير إلى مثل مسألة كلام الله وأنه غير مخلوق، ورؤية الله في الآخرة، واستواء الله على عرشه، وعلوه على خلقه؛ فإن الإيمان بذلك واجب، وجحدها كفر، ولكن لا يجوز تكفير من تأولها من المعتزلة والخوارج والأشاعرة بشبهة وقعت لهم؛ إلا من أقيمت عليه الحجة وعاند.

وهذا هو المثال بين أيدينا: الرجل النباش؟ فإنه مع شكه في قدرة الله على بعثه غفر الله له؛ لأنه لم يكن جاحداً معانداً؛ بل كان مؤمناً بالله وبالبعث على الجملة دون تفصيل لجهله. قال شيخ الإسلام بعد أن ساق الحديث برواية " الصحيح " وذكر أنه حديث متواتر (١٢/ ٤٩١): " وهنا أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق بالله تعالى؛ وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

**والثاني**: متعلق باليوم الآخر؛ وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله. ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملاً صالحاً- وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه-؛ غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ".

ولهذا؛ فإني أنصح أولئك الشباب أن يتورعوا عن تبديع العلماء وتكفيرهم، وأن يستمروا في طلب العلم حتى ينبغوا فيه، وأن لا يغتروا بأنفسهم، ويعرفوا حق العلماء وأسبقيتهم فيه، وبخاصة من كان منهم على منهج السلف الصالح كشيخ

=

=

الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وأَلْفِتُ نظرهم إلى "مجموع الفتاوى" فإنه "كُنَيْف مُلِيءَ علماً"، وبخاصة إلى فصول خاصة في هذه المسالة الهامة "التكفير"، حيث فَرَّقَ بين التكفير المطلق وتكفير المعين، وقال في أمثال أولئك الشباب: "ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين؛ إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه ".

يعني الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق. ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة؛ وأمثالهم.

فأقول: وملاحظة هذا الفرق هو الفيصل في هذا الموضوع الهام، ولذلك فإني أحث الشباب على قراءته وتفهمه من "المجموع " (١٢/ ٤٦٤ - ٥٠١) الذي ختمه بقوله:"وإذا عُرف هذا؛ فتكفير (المعين) من هؤلاء الجهال وأمثالهم- بحيث يحكم عليه أنه من الكفار- لا يجوز الإقدام عليه؛ إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت مقالتهم لا ريب أنها كفر، (يعني: الدعاة إلى البدعة).

وهكذا الكلام في تكفير جميع (المعينين)؛ مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين- وإن أخطأ وغلط- حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة " ا. هـ

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ٢١٧) عن: حكم العذر بالجهل في العقائد وغيرها؟

=

=

فأجاب: الجهل يكون فيما يمكن خفاؤه، أما الأمور الظاهرة من الدين فلا يعذر فيها الجاهل؛ كأمور التوحيد وأمور الصلاة، لو قال: ما أعرف الصلاة وهو بين المسلمين، ما أعرف أن الصلاة مشروعة، أو ما أعرف الزكاة، أو ما أعرف الصيام ما يعذر بالجهل، أو قال: ما أعرف أن الزنا محرم ما يطاع، أو قال: ما أعرف أن اللواط محرم وهو بين المسلمين، ما يطاع، أو قال: ما أعرف أن الخمر محرم ما يطاع.

أما الذي يمكن جهله مثل بعض الصفات، صفات الله التي خفيت عليه أو ما درى أنها من صفات الله فأنكرها، ثم علم وبين له ما يكفر بذلك؛ لأن مثل هذا قد يجهل بعض الصفات أو مثل بعض حقوق النبي ﷺ جهلها ما درى عن بعض الحقوق التي تخفى على العامي أو ما أشبه ذلك، أو إنسان في أطراف أمريكا أو أطراف أفريقيا في بعض المحلات البعيدة عن الإسلام، مثل هذا كأهل الفترة يبين له ولا يكفر حتى يبين له ويعلم، فإذا ما أصر على ذلك وأصر على الكفر يقتل.

الذي يتولاه مسلم أو الدولة المسلمة تحكم به عليه، والحاصل أنه يعذر بالجهل في المسائل التي قد يخفى مثلها، ويكون حكمه حكم أهل الفترات إذا لقي الله جل وعلا.

والصحيح الذي جاءت به الأحاديث أنه يمتحن يوم القيامة ضمن أهل الفترة، فإن أجاب إلى الحق دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وأما في الدنيا ينظر فيه إذا ظن أنه يجهل، وولي الأمر إذا أراد أن يقيم الحد عليه يقيم التعزير عليه إن كان مثله يجهل هذا الشيء وينبهه، لكن لا يترك الحد عليه وهو بين المسلمين ممن يخفى على المسلمين مثل ما تقدم، يقول: أنا لا أعرف أن الناس يصلون، يقول: ما أدري عن الصلاة ولا أعرف الزكاة ولا أعرف الصيام ولا أعرف الجهاد، هذا لا يطاع؛ لأن هذا من التلاعب بالدين.

=

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١٢٧): هل يعذر الإنسان بالجهل فيما يتعلق بالتوحيد؟

فأجاب: العذر بالجهل ثابت في كل ما يدين به العبد ربه؛ لأن الله -سبحانه وتعالى - قال: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} حتى قال - ﷻ - : {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ولقوله - تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا}. ولقوله -تعالى: {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}. ولقول النبي، ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي واحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار».

والنصوص في هذا كثيرة، فمن كان جاهلا فإنه لا يؤاخذ بجهله في أي شيء كان من أمور الدين، ولكن يجب أن نعلم أن من الجهلة من يكون عنده نوع من العناد، أي إنه يذكر له الحق ولكنه لا يبحث عنه، ولا يتبعه، بل يكون على ما كان عليه أشياخه، ومن يعظمهم ويتبعهم، وهذا في الحقيقة ليس بمعذور، لأنه قد بلغه من الحجة ما أدنى أحواله أن يكون شبهة يحتاج أن يبحث ليتبين له الحق، وهذا الذي يعظم من يعظم من متبوعيه شأنه شأن من قال الله عنهم: {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون}. وفي الآية الثانية: {وإنا على آثارهم مقتدون}.

فالمهم أن الجهل الذي يعذر به الإنسان بحيث لا يعلم عن الحق، ولا يذكر له، هو رافع للإثم، والحكم على صاحبه بما يقتضيه عمله، ثم إن كان ينتسب إلى المسلمين، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإنه يعتبر منهم، وإن كان لا ينتسب إلى المسلمين فإن حكمه حكم أهل الدين، الذي ينتسب إليه في الدنيا.

وأما في الآخرة فإن شأنه شأن أهل الفترة يكون أمره إلى الله ﷻ يوم القيامة، وأصح

=

الأقوال فيهم أنهم يمتحنون بما شاء الله، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى منهم دخل النار.

مسألة: حكم أهل الفترة.

قال الحافظ ابن كثير- رحمه الله - في تعريف الفترة: (هي ما بين كل نبيين كانقطاع الرسالة بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ).

وقال الألوسي في تفسيره: (أجمع المفسرون بأن الفترة هي انقطاع ما بين رسولين) وأهل الفترة: (هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول، ولا أدركوا الثاني كالأعراب الذين لم يرسل إليهم عيسى ولا لحقوا النبي ﷺ.. ) ثم صار يطلق عند كثير من العلماء على كل من لم تبلغهم الدعوة، بما فيهم أطفال المشركين.

ومن باب الاختصار سأكتفي بعرض لأهم الأقوال ثم بيان القول الراجح في هذه المسألة...

أقوال العلماء في المسألة:

اختلف العلماء في هذه المسألة على أقوال كثيرة ومن أشهرها:

الأول: أن من مات ولم تبلغه الدعوة مات ناجيًا، قال السيوطي - رحمه الله-: (وقد أطبقت أئمتنا الأشاعرة من أهل الكلام والأصول، والشافعية من الفقهاء على أن من مات ولم تبلغه الدعوة يموت ناجيًا) ونص بعض الأئمة على دخول أطفال المشركين الجنة- دون غيرهم من أهل الفترة - كالإمام ابن حزم حين قال: (وذهب جمهور الناس إلى أنهم في الجنة وبه نقول). والنووي، والحافظ ابن حجر العسقلاني وذكر أنه ترجيح البخاري، والإمام القرطبي والإمام ابن الجوزي.

**الثاني**: أن من مات ولم تبلغه الدعوة فهو في النار، قال الإمام ابن القيم - رحمه الله- (وهو قول جماعة من المتكلمين، وأهل التفسير، وأحد الوجهين لأصحاب

=

=

أحمد وحكاه القاضي نصا عن أحمد، وغلطه شيخنا.) كما هو قول جماعة من أصحاب أبي حنيفة.

**الثالث**: الوقف في أمرهم، وقد يعبر عنه بأنهم تحت المشيئة (وهو منقول عن الحمادين وابن المبارك وإسحاق بن راهويه، وقال ابن عبد البر: وهو مقتضى صنيع مالك وليس عنده في المسألة شيء منصوص، إلا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال الكفار خاصة في المشيئة).

**الرابع**: أنهم يمتحنون في عرصات القيامة بنار يأمرهم الله سبحانه وتعالى بدخولها، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها فقد عصى الله تعالى فهو من أهل النار، وهذا قول جمهور السلف، حكاه الأشعري عنهم، وممن قال به محمد بن نصر المروزي، والبيهقي، وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وابن كثير وغيرهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (.. ومن لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات فهؤلاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة، فيبعث إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العذاب).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله بعد حكايته المذاهب في أطفال المشركين وأدلتها: (المذهب الثامن: أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه أدخله النار وعلى هذا فيكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار، وبهذا يتألف شمل الأدلة كلها وتتوافق الأحاديث)، ثم ساق أدلة لهذا القول، وقال: (فهذه الأحاديث يشد بعضها بعضا، وتشهد لها أصول الشرع وقواعده، والقول بمضمونها هو مذهب السلف والسنة، نقله عنهم الأشعري رحمه الله.. )، ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: (.. وقد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً

=

=

وحديثًا وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه) ثم ساق عشرة أحاديث في هذه المسألة، ثم أشار إلى الأقوال في المسألة، ورجح أنهم يمتحنون يوم القيامة حيث قال: (وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضه لبعض.. ).

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - بعدما رجح هذا القول -: (إن الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن بلا خلاف، لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ولا وجه للجمع بين الأدلة إلا هذا القول بالعذر والامتحان.. ).

ومن أهم أدلتهم على هذا القول دليلان:

الأول: استدلوا بعموم الآيات الدالة على نفي التعذيب قبل بلوغ الحجة، من مثل قوله تعالى عن أهل النار: كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا [الملك: ٨ - ٩]. وقوله سبحانه: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً [الإسراء: ١٥] وغيرها من الآيات الدالة على عذر أهل الفترة بأنهم لم يأتهم نذير يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: (والله تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه، استدل بهذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله، حتى يبعث إليهم رسولاً، لأنه منزه عن الظلم).

**الثاني**: استدلوا بعدد من الأحاديث المصرحة بأن أهل الفترة ومن لم تبلغه الدعوة يمتحنون يوم القيامة، ومن أشهرها ما رواه الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: ((يكون يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم ورجل

=

=

مات في فترة فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً)).

وعن أبي هريرة مثل هذا غير أنه قال في آخره: ((فمن دخلها كانت عليه برداً وسلامًا، ومن لم يدخلها سحب إليها))، والقول بموجب هذا الحديث فيه جمع للأدلة كما في النقل السابق عن الأئمة - قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- : (وهذا التفصيل يذهب الخصومات التي كره الخوض فيه لأجلها من كرهه، فإن من قطع لهم بالنار كلهم، جاءت نصوص تدفع قوله، ومن قطع لهم بالجنة كلهم، جاءت نصوص تدفع قوله.. )، وقال الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - بعد ترجيحه لهذا القول: (وهذا ثبت عن رسول الله ﷺ وثبوته عنه نص في النزاع فلا وجه للنزاع البتة مع ذلك.. ).

وردوا على ما ذكر بعض الأئمة كالإمام ابن عبد البر، والإمام القرطبي والحليمي، وملخص قولهم: أن هذه الأحاديث لا تصح وأن (هذا مخالف لأصول المسلمين لأن الآخرة ليست بدار امتحان) وردوا على هذا القول بما يلي:

١ - أن هذه الأحاديث صحيحة وردت من طرق مختلفة..

٢ - قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: (والتكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء وهي الجنة والنار، وأما عرصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ، فيقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وقال تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ [القلم: ٤٢ - ٤٣]) وقال الطيبي: (لا يلزم من

=

=

أن الدنيا دار بلاء والآخرة دار جزاء أن لا يقع في واحده منهما ما يخص الأخرى، فإن القبر أول منازل الآخرة، وفيه الابتلاء والفتنة بالسؤال وغيره) ولخص الإمام ابن القيم رحمه الله الرد على ذلك فقال: (فإن قيل: فالآخرة دار جزاء، وليست دار تكليف، فكيف يمتحنون في غير دار التكليف؟ فالجواب: أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأما في البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ وهي تكليف، وأما في عرصة القيامة، فقال تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ فهذا صريح في أن الله يدعو الخلائق إلى السجود يوم القيامة، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك)، وذكروا أحاديث على جواز التكليف في الآخرة ذكرها ابن القيم وابن كثير وغيرهم.

(منبهة ثانية): قال الله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [الإسراء: ١٥]..

وفي الحديث عن أنس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: "أن رجلا قال: يا رسول الله: أين أبي؟ قال: في النار. فلما قفى دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (٢٠٣)، من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، به.

وقد روي الحديث بلفظ آخر عن النبي ﷺ؛ حيث رواه سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولم يذكرا قوله ﷺ: "إن أبي وأباك في النار".

أما حديث سعد: فأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ١٤٥)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، (١/ ١٣٩)، كلاهما من طريق علي بن عبد العزيز البغوي، عن محمد بن موسى بن أبي نعيم الواسطي، عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: "جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي

=

=

كان يصل الرحم، وكان وكان، فأين هو؟ قال: في النار. قال: فكأنه وجد من ذلك فقال: يا رسول الله، فأين أبوك؟ قال رسول الله ﷺ: حيثما مررت بقبر مشرك فبشره بالنار. قال: فأسلم الأعرابي بعد وقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعبا، ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار". والحديث من هذه الطريق رجال إسناده ثقات، عدا محمد بن أبي نعيم، وقد اختلف في توثيقه؛ فقال أبو حاتم: سألت يحيى بن معين عنه فقال: ليس بشيء. وقال الآجري: سئل أبو داود عنه فقال: سمعت ابن معين يقول: أكذب الناس. وقال ابن أبي حاتم: سمعت أحمد بن سنان يقول: ابن أبي نعيم ثقة، صدوق. وقال أيضا: سئل أبي عنه فقال: صدوق. وذكره ابن حبان في الثقات. انظر: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (٨/ ٨٣)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر (٩/ ٤٢٤).

وقد توبع ابن أبي نعيم في إسناد هذا الحديث؛ فرواه البزار في مسنده (٣/ ٢٩٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١/ ٥٤٦)، ومن طريق ابن السني: المقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٢٠٢)، جميعهم من طريق زيد بن أخزم، عن يزيد بن هارون، عن إبراهيم بن سعد، به.

وزيد بن أخزم ثقة حافظ، وكذا شيخه يزيد بن هارون، فهي متابعة قوية لابن أبي نعيم الواسطي. وانظر ـ في توثيق زيد بن أخزم وشيخه ـ: تقريب التهذيب، لابن حجر (١/ ٢٦٦) و (٢/ ٣٨١).

ورواه البزار في مسنده (٣/ ٢٩٩)، من طريق محمد بن عثمان بن مخلد، عن يزيد بن هارون، به. وهذه تقوي رواية زيد بن أخزم.

وثمة متابعة أخرى لمحمد بن أبي نعيم، حيث رواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ١٩١)، من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن إبراهيم بن سعد، به. والفضل بن دكين ثقة ثبت، كما في التقريب

=

=

(٢/ ١١٦). ورواه عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٤٥٤)، عن معمر، عن الزهري، مرسلا.

قال ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٢٥٦) وقد سأل أباه عن هذا الحديث فقال: "كذا رواه يزيد، وابن أبي نعيم، ولا أعلم أحدا يجاوز به الزهري غيرهما، إنما يروونه عن الزهري قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، والمرسل أشبه". اهـ وسئل الدارقطني عنه فقال: "يرويه محمد بن أبي نعيم، والوليد بن عطاء بن الأغر، عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عامر بن سعد، وغيره يرويه عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري مرسلا، وهو الصواب". اهـ من العلل للدارقطني (٤/ ٣٣٤).

قلت: لكن روايته من وجه آخر متصل يقوي هذه الرواية المرسلة، وهو صحيح من تلك الطرق المتصلة، وقد صححه الألباني من تلك الطرق في السلسلة الصحيحة (١/ ٥٥).

وأما حديث عبد الله بن عمر: فرواه ابن ماجة في سننه في كتاب الجنائز، حديث (١٥٧٣) قال: حدثنا محمد بن إسماعيل بن البختري الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ... "، فذكره بمثله سواء.

والحديث من هذه الطريق ظاهر إسناده الصحة، ولذلك قال البوصيري في مصباح الزجاجه (٢/ ٤٣): "إسناده صحيح، رجاله ثقات، محمد بن إسماعيل وثقه ابن حبان، والدارقطني، والذهبي، وباقي رجال الإسناد على شرط الشيخين". اهـ إلا أن الألباني يرى أن محمد بن إسماعيل قد أخطأ في إسناد هذا الحديث، حيث قال في "السلسلة الصحيحة" (١/ ٥٦): "لكن قال الذهبي فيه -يعني محمد بن إسماعيل -: لكنه غلط غلطة ضخمة. ثم ساق له حديثا صحيحا زاد فيه الرمي عن النساء، وهي زيادة منكرة، وقد رواه غيره من الثقات فلم يذكروا فيه هذه الزيادة.

=

=

وأقره الحافظ ابن حجر على ذلك. قال الألباني: فالظاهر أنه أخطأ في إسناد هذا الحديث أيضا، فقال فيه: عن سالم، عن أبيه، والصواب عن عامر بن سعد، عن أبيه، كما في رواية ابن أخزم وغيره". اهـ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٧ – ١١٨) ـ بعد أن ساقه من حديث سعد ـ: "رواه البزار، والطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح". اهـ

وقد جاء عن عمران بن حصين – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ما يشهد لحديث أنس عند مسلم، والذي فيه قول النبي ﷺ: "إن أبي وأباك في النار". فأخرج الطحاوي في مشكل الآثار (٦/ ٣٥٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٢٧) و (١٨/ ٢٢٠)، وابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة (١/ ٤٠١)، جميعهم من طريق داود بن أبي هند، عن العباس بن عبد الرحمن بن ربيعة بن الحارث، عن عمران بن حصين – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال: "جاء حصين إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلا كان يصل الرحم، ويقري الضيف، مات هو وأبوك قبل أن يدركك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن أبي وأباك وأنت في النار. قال: فما مضت عشرون ليلة حتى مات حصين مشركا".

والحديث في إسناده العباس بن عبد الرحمن، وهو مولى بني هاشم، لا يعرف إلا برواية داود عنه، كما في التاريخ الكبير، للبخاري (٣/ ٤٥٤)، والجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (٣/ ١٩٨)، حيث أورداه في كتابيهما ولم يذكرا فيه جرحا ولا تعديلا، فهو مجهول.

وقد حكم بجهالته الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ١٧٨)، ونبه على سهو وقع من الحافظ ابن حجر عند ترجمته للعباس فقال: "وقول الحافظ في التقريب: "مستور"، سهو منه؛ لأنه بمعنى: مجهول الحال، وذلك لأنه نص في المقدمة أن هذه المرتبة إنما هي في من روى عنه أكثر من واحد ولم يوثق". اهـ

والحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٧) وقال: "رواه الطبراني في

=

=

الكبير، ورجاله رجال الصحيح". اهـ وتعقبه الألباني فقال: "هذا ذهول منه، وذلك لأن العباس هذا لم يخرج له الشيخان، ولا بقية الستة، وإنما أخرج له أبو داود في المراسيل، وفي القدر". اهـ

وقد روي من وجه آخر عن عمران بن حصين، فرواه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٧٧) فقال: حدثنا رجاء بن محمد العذري، قال: ثنا عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، فذكره بنحوه. ورواه الذهبي في العلو (١/ ٢٤)، من طريق رجاء، به.

والحديث في إسناده خالد بن طليق، قال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال ابن أبي حاتم: كان قاضي البصرة، روى عن الحسن، وأبيه طليق، وعنه ابنه عمران، وسهل بن هاشم. ولم يذكر فيه جرحا، وقال الساجي: صدوق يهم، وذكره ابن حبان في الثقات. انظر: لسان الميزان، لابن حجر (٢/ ٣٧٩). وسيأتي مزيد نقاش لحديث أنس عند ذكر مذاهب العلماء في مصير والدي النبي ﷺ.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: "زار النبي ﷺ قبر أمه؛ فبكى وأبكى من حوله، فقال: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٩٧٦).

وعن بريدة بن الحصيب - رضي الله عنه - قال: "كنا مع النبي ﷺ، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب ففداه بالأب والأم يقول: يا رسول الله، ما لك؟ قال: إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار". أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٥٥)، قال: حدثنا حسن بن موسى، وأحمد بن عبد الملك، قالا: حدثنا زهير، قال أحمد بن عبد الملك في حديثه:

=

=

حدثنا زبيد بن الحارث اليامي، عن محارب بن دثار، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، به.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢١٢)، وأبو عوانة في مسنده (٥/ ٨٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٧٦)، جميعهم من طريق عبد الرحمن بن عمرو البجلي، عن زهير بن معاوية، به.

والحديث عند أحمد رجاله رجال الصحيح، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٦)؛ إلا أن قوله في الحديث: "فدمعت عيناي رحمة لها من النار" لم تأت إلا من هذه الطريق.

فقد رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٥٩)، قال: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا خلف - يعني ابن خليفة، عن أبي جناب، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه: "أن رسول الله ﷺ غزا غزوة الفتح فخرج يمشي إلى القبور حتى إذا أتى إلى أدناها جلس إليه كأنه يكلم إنسانا جالسا يبكي قال: فاستقبله عمر بن الخطاب فقال: ما يبكيك؟ جعلني الله فداءك. قال: سألت ربي ﷻ أن يأذن لي في زيارة قبر أم محمد فأذن لي، فسألته أن يأذن لي فأستغفر لها فأبى.... ". والحديث بهذا الإسناد ضعيف؛ من أجل أبي جناب، وهو يحيى بن أبي حية الكلبي، ضعفه ابن سعد، ويحيى القطان، وابن معين، والدارمي، والعجلي، وكان كثير التدليس. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر (١١/ ١٧٧). ورواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٥٦)، قال: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أيوب بن جابر، عن سماك، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: "خرجت مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بودان قال: مكانكم حتى آتيكم، فانطلق ثم جاءنا وهو سقيم فقال: إني أتيت قبر أم محمد فسألت ربي الشفاعة فمنعنيها.... ".

والحديث بهذا الإسناد ضعيف أيضا؛ من أجل أيوب بن جابر، فإنه ضعيف كما في

=

=

التقريب (١/ ٨٩).

ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٩)، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي، عن سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: "لما فتح رسول الله ﷺ مكة أتى حرم قبر فجلس إليه فجعل كهيئة المخاطب، وجلس الناس حوله، فقام وهو يبكي، فتلقاه عمر وكان من أجرأ الناس عليه فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما الذي أبكاك؟ قال: هذا قبر أمي، سألت ربي الزيارة فأذن لي، وسألته الاستغفار فلم يأذن لي، فذكرتها فذرفت نفسي فبكيت. قال: فلم ير يوما كان أكثر باكيا منه يومئذ".

قال الألباني في إرواء الغليل (٣/ ٢٢٥): "سنده صحيح على شرط مسلم، إلا الأسدي، وهو ثقة، كما قال ابن معين، وأبو داود وغيرهما". اهـ قلت: قد توبع الأسدي؛ فرواه أبو زيد النميري في أخبار المدينة (١/ ٧٨)، قال: حدثنا قبيصة بن عقبة، قال: حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، بمثله سواء. وبهذا يتبين أن قوله في الحديث: "فدمعت عيناي رحمة لها من النار" زيادة شاذة لا تثبت في الحديث، ويقوي شذوذها ما تقدم في حديث أبي هريرة المخرج في صحيح مسلم؛ فإن فيه ذكر القصة بتمامها دون ذكر هذه الزيادة.

وعن أبي رزين - رضي الله عنه - قال: "قلت يا رسول الله: أين أمي؟ قال: أمك في النار. قال قلت: فأين من مضى من أهلك؟ قال: أما ترضى أن تكون أمك مع أمي".

أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١١)، قال: ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن أبي رزين، به. وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٨٩)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٠٨)، كلاهما من طريق محمد بن جعفر، به. وأخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١/ ١٤٧)، عن شعبة، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٦): "رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله

=

=

ثقات". اهـ قلت: الحديث رجال إسناده ثقات، غير وكيع بن عدس، ويقال: حدس، بالحاء بدل العين، أبو مصعب العقيلي، الطائفي، وثقه ابن حبان في مشاهير علماء الأمصار (١/ ١٢٤)، وذكره في الثقات له (٥/ ٤٩٦)، وقال الحافظ ابن حجر في التقريب (٢/ ٣٣٨): "مقبول"، وأما الحافظ الذهبي فقد اختلفت عبارته فيه، فأشار إلى توثيقه في الكاشف (٢/ ٣٥٠)، وقال في الميزان (٧/ ١٢٦): "لا يعرف". وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٣/ ٦١٧): "لا تعرف له حال، ولا يعرف روى عنه إلا يعلى بن عطاء". قلت: وهذا الاختلاف في توثيقه موجب للتوقف في روايته إلا أن تأتي من طريق أخرى تتقوى بها.

وعن ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: "جاء ابنا مليكة إلى النبي ﷺ فقالا: إن أمنا كانت تكرم الزوج، وتعطف على الولد، قال: وذكر الضيف، غير أنها كانت وأدت في الجاهلية. قال: أمكما في النار. فأدبرا والشر يرى في وجوههما، فأمر بهما فردا، فرجعا والسرور يرى في وجوههما، رجيا أن يكون قد حدث شيء، فقال: أمي مع أمكما...". أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣٩٨)، والبزار في مسنده (٤/ ٣٣٩)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣٨)، جميعهم من طريق عثمان بن عمير، عن إبراهيم بن يزيد، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود، به. وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٨٢)، وفي الكبير (١٠/ ٨١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٦)، كلاهما من طريق عثمان بن عمير، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به. والحديث صححه الحاكم على شرط الشيخين، إلا أنه معلول بعثمان بن عمير، وقد تعقب الذهبي الحاكم في تصحيحه له فقال: "لا والله، فعثمان ضعفه الدارقطني، والباقون ثقات". وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٢): "رواه أحمد والبزار والطبراني، وفي أسانيدهم كلهم عثمان بن

=

=

عمير، وهو ضعيف".

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال النبي ﷺ: "رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه ـ يعني الأمعاء ـ في النار، وهو أول من سيب السوائب" أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٧٥)، واللفظ له، والبخاري في صحيحه، في كتاب المناقب، حديث (٣٥٢١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث (٢٨٥٦).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "قلت: يا رسول الله: ابن جدعان، كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (٢١٤).

وعن جابر – رضي الله عنه – قال: "انكسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ... "، ثم ذكر أن النبي ﷺ خطب بعد صلاته للكسوف فقال: "ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه، لقد جيء بالنار ـ وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها ـ وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قصبه في النار، كان يسرق الحاج بمحجنه؛ فإن فطن له قال: إنما تعلق بمحجني، وإن غفل عنه ذهب به". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الكسوف، حديث (٩٠٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه –، عن رسول الله ﷺ: "أنه رأى فاطمة ابنته فقال لها: من أين أقبلت؟ قالت: أقبلت من وراء جنازة هذا الرجل. قال: فهل بلغت معهم الكدى ؟ قالت: لا، وكيف أبلغها وقد سمعت منك ما سمعت؟ قال: والذي نفسي بيده لو بلغت معهم الكدى ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك". أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٦٩)، والنسائي في السنن الصغرى، في كتاب الجنائز، حديث (١٨٨٠)، وفي الكبرى (١/ ٦١٦)، وابن حبان في صحيحه (٧/

=

=

٤٥٠)، والبزار في مسنده (٦/ ٤١٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٦٠، ٧٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ١١٣)، جميعهم من طريق ربيعة بن سيف المعافري، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، به. ولفظه عند ابن حبان: "حتى يراها جدك أبو أبيك"، وعند أبي يعلى: "حتى يراها جدك أبو أمك، أو أبو أبيك"، وعزا الشك لأبي يحيى راويه عن ربيعة. والحديث صححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٩٠)، وابن القطان، كما في تحفة المحتاج، للواداياشي (١/ ٦١٧). والصواب ضعف الحديث؛ لأن في إسناده ربيعة بن سيف المعافري، قال البخاري وابن يونس: عنده مناكير. وقال الدارقطني: صالح. وقال النسائي: ليس به بأس. وقال في السنن الصغرى: ضعيف. وقال الترمذي: لا نعرف لربيعة سماعا من عبد الله. وضعفه الحافظ عبد الحق الأزدي وقال: هو ضعيف الحديث عنده مناكير. وقال ابن حبان: لا يتابع...، في حديثه مناكير. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي (٣/ ٦٧)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر (٣/ ٢٢١). وممن ضعف الحديث: النسائي في الصغرى بعد روايته للحديث، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩٠٣) حيث قال: "هذا حديث لا يثبت"، وأورده من طريق فيها متابعة لربيعة بن سيف، وهو شرحبيل بن شريك، وقال: "في إسناده مجاهيل". وممن ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢/ ٢١٥)، وانظر: مسند الإمام أحمد، بإشراف الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي (١١/ ١٣٧ - ١٣٨).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: "دخل النبي ﷺ حائطا من حيطان بني النجار فسمع صوتا من قبر فسأل عنه متى دفن هذا؟ فقالوا: يا رسول الله، دفن هذا في الجاهلية، فأعجبه ذلك وقال: لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله عز وجل أن يسمعكم عذاب القبر". أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٠٣)، قال: ثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن

=

=

أنس، به.

وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه النسائي في سننه، في كتاب الجنائز، حديث (٢٠٥٨)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٩٦)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٨٤)، من طرق عن حميد بهذا الإسناد.

وله شاهد من حديث زيد بن ثابت، أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث (٢٨٦٧)، عن زيد بن ثابت قال: "بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا. قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك. فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه".

* ظاهر الآيات الكريمة أن الله جل وعلا لا يعذب أحدا من خلقه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يبعث إليه رسولا ينذره ويحذره، فيعصي ذلك الرسول ويتمادى في الكفر حتى يوافي الله على ذلك، وهذا الظاهر يشمل أهل الجاهلية الذين كانوا قبل بعثة النبي ﷺ، فإن الآيات قد صرحت بأنهم لم ينذروا، ولم يبعث فيهم رسول، وأما الأحاديث فظاهرها تعذيب من مات قبل بعثة النبي ﷺ، وهم أهل الفترة، وهذا يوهم معارضة الآيات. .

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآيات والأحاديث:

للعلماء في دفع التعارض بين الآيات والأحاديث ثلاثة مسالك:

الأول: مسلك إعمال الآيات دون الأحاديث.

ويرى أصحاب هذا المسلك أن أهل الفترة ناجون مطلقا، وأنه لا عذاب عليهم في الآخرة.

وعلى هذا المسلك عامة الأشاعرة من أهل الكلام والأصول، والشافعية من

=

=

الفقهاء، كما حكاه السيوطي، وغيره.

وبه قال: أبو حامد الغزالي، وأبو العباس القرطبي، وأبو عبد الله القرطبي، وتاج الدين السبكي، ومحمد بن خليفة الأبي، وشرف الدين المناوي. وقال به من المعاصرين: عبد الرحمن الجزيري، ومحمد الغزالي، ويوسف القرضاوي.

أدلة هذا المسلك:

من أقوى ما استدل به أصحاب هذا المسلك قوله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [الإسراء: ١٥].

وهذه الآية صريحة بأن الله تعالى لا يعذب أحدا من خلقه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يبعث إليه رسولا ينذره ويحذره، فيعصي ذلك الرسول ويتمادى في كفره حتى يموت.

وقد حكى السيوطي إطباق أئمة السنة على الاستدلال بالآية في أنه لا تعذيب قبل البعثة.

وهذا المعنى الوارد في الآية قد أوضحه الله جل وعلا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما (١٦٥)) [النساء: ١٦٥]، فصرح في هذه الآية الكريمة بأن لا بد أن يقطع حجة كل أحد بإرسال الرسل، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم النار، وهذه الحجة - التي أوضح هنا قطعها بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين - بينها في آخر سورة طه بقوله: (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى (١٣٤)) [طه: ١٣٤]، وأشار لها في سورة القصص بقوله: (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين (٤٧)) [القصص: ٤٧]، وقوله جل وعلا: (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى

=

=

بظلم وأهلها غافلون (١٣١)) [الأنعام: ١٣١]، وقوله: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (١٩)) [المائدة: ١٩]، وكقوله: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (١٥٥) أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (١٥٦) أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويوضح ما دلت عليه هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم ـ من أن الله جل وعلا لا يعذب أحدا إلا بعد الإنذار والإعذار على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ تصريحه جل وعلا في آيات كثيرة بأنه لم يدخل أحدا النار إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل، فمن ذلك قوله جل وعلا: (تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ) [الملك: ٨ - ٩]، فقوله: (كلما ألقي فيها فوج) يعم جميع الأفواج الملقين في النار، ومن ذلك قوله جل وعلا: (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٧١)) [الزمر: ٧١]، فقوله: (وسيق الذين كفروا)، عام في جميع الكفار، وهو ظاهر في أن جميع أهل النار قد أنذرتهم الرسل في دار الدنيا فعصوا أمر ربهم كما هو واضح، ونظيره أيضا قوله تعالى: (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩) قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (٥٠)) [غافر: ٤٩ - ٥٠]، إلى غير ذلك من

=

=

الآيات الدالة على أن جميع أهل النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا.

وهذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن تدل على عذر أهل الفترة، وأنه لا عذاب عليهم في الآخرة، وإن كانوا ماتوا على الشرك؛ لأنهم لم يأتهم رسل ينذرونهم في الدنيا فتقوم عليهم الحجة.

ومن الأدلة التي استدل بها أصحاب هذا المسلك في عذر أهل الفترة: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار".

قال أبو العباس القرطبي: "فيه دليل على أن من لم تبلغه دعوة رسول الله ﷺ ولا أمره لا عقاب عليه ولا مؤاخذه، وهذا كما قال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [الإسراء: ١٥]، ومن لم تبلغه دعوة الرسول ولا معجزته فكأنه لم يبعث إليه رسول". اهـ

وسيأتي ذكر أجوبة أصحاب هذا المسلك عن الأحاديث الواردة في المسألة - التي تفيد بظاهرها تعذيب أهل الفترة - وذلك عند ذكر أجوبة أصحاب المسلك الثالث، إن شاء الله تعالى.

المسلك الثاني: مسلك إعمال الأحاديث دون الآيات.

ويرى أصحاب هذا المسلك أن أهل الفترة في النار، وأنهم يعذبون بسبب شركهم.

وعلى هذا المسلك الإمام أبو حنيفة.

وحكى القرافي في شرح تنقيح الفصول الإجماع عليه فقال: "انعقد الإجماع على أن موتى الجاهلية في النار، يعذبون على كفرهم". اهـ

وحكاه الآلوسي عن أبي منصور الماتريدي، ومتبعيه.

وبه قال: النووي، وابن عطية، والحليمي، والفخر الرازي، والخازن، ومحمد بن

=

=

إسماعيل الصنعاني، والآلوسي، وابن عاشور.

قال الحليمي: "إن العاقل المميز إذا سمع آية دعوة كانت إلى الله تعالى فترك الاستدلال بعقله على صحتها وهو من أهل الاستدلال والنظر كان بذلك معرضا عن الدعوة فيكفر، ويبعد أن يوجد شخص لم يبلغه خبر أحد من الرسل، على كثرتهم، وتطاول أزمان دعوتهم، ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم، والذين كفروا بهم وخالفوهم، فإن الخبر قد يبلغ على لسان المخالف كما يبلغ على لسان الموافق...، فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة مع إخبار النبي ﷺ بأن آباءهم الذين مضوا في الجاهلية في النار". اهـ

أدلة هذا المسلك:

استدل أصحاب هذا المسلك بظواهر آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما (١٨)) [النساء: ١٨]، وقوله: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (١٦١)) [البقرة: ١٦١]، وقوله: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين (٩١)) [آل عمران: ٩١]، وقوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [النساء: ٤٨]، وقوله: (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) [الحج: ٣١]، وقوله: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) [المائدة: ٧٢].

وظاهر جميع هذه الآيات العموم؛ لأنها لم تخصص كافرا دون كافر، بل ظاهرها شمول جميع الكفار.

واستدلوا: بالأحاديث الواردة في أبوي النبي ﷺ، وقد تقدمت في أول المسألة.

=

=

واستدلوا: بأن معرفة الله واجبة عقلا، فلا عذر بالفترة؛ لأن الحجة قد قامت عليهم بما معهم من أدلة العقل الموصلة إلى معرفة الله وتوحيده.

وأجاب أصحاب هذا المسلك عن الآيات الواردة في المسألة من أربعة أوجه:

الأول: أن التعذيب المنفي في قوله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأمثالها من الآيات، إنما هو التعذيب الدنيوي، أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب في الدنيا إلا بعد الإعذار والإنذار إليهم، وهذا لا ينافي التعذيب في الآخرة.

وهذا الجواب حكاه الآلوسي عن أبي منصور الماتريدي.

وأما تفسير الآية فقد حكاه مذهبا للجمهور: أبو عبد الله القرطبي، وتبعه أبو حيان، والشوكاني.

الوجه الثاني: أن محل العذر بالفترة ـ المنصوص في قوله: (وما كنا معذبين) وأمثالها ـ إنما هو في غير الواضح، وأما الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل، كعبادة الأوثان، فلا يعذر فيه أحد؛ لأن الكفار يقرون بأن الله هو ربهم، الخالق الرازق النافع الضار، ويتحققون كل التحقق أن الأوثان لا تقدر على جلب نفع، ولا على دفع ضر.

الوجه الثالث: أن مشركي العرب قبل بعثة النبي ﷺ عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبل نبينا ﷺ، كإبراهيم وغيره، وأن الحجة قائمة عليهم بذلك.

وهذا جواب: ابن عطية، والحليمي، والنووي، ومحمد بن إسماعيل الصنعاني.

قال ابن عطية: "صاحب الفترة ليس ككافر قريش قبل النبي ﷺ، لأن كفار قريش وغيرهم ـ ممن علم وسمع عن نبوة ورسالة في أقطار الأرض ـ ليس بصاحب فترة، والنبي ﷺ قد قال: "أبي وأبوك في النار"، ورأى عمرو بن لحي في النار، إلى غير هذا مما يطول ذكره، وأما صاحب الفترة فيفترض أنه آدمي لم يطرأ عليه أن الله

=

=

تعالى بعث رسولا، ولا دعا إلى دين، وهذا قليل الوجود، اللهم إلا أن يشذ في أطراف الأرض، والمواضع المنقطعة عن العمران". اهـ

وقال النووي: "قوله ﷺ: "إن أبي وأباك في النار"، فيه أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة؛ فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم". اهـ

الوجه الرابع: ما جاء من الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ الدالة على أن بعض أهل الفترة في النار، وقد تقدمت.

وأجاب القائلون بعذرهم بالفترة عن هذه الأوجه الأربعة:

فأجابوا عن الوجه الأول ـ وهو كون التعذيب في قوله: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) إنما هو التعذيب الدنيوي دون الأخروي – من وجهين:

الأول: أنه خلاف ظاهر القرآن؛ لأن ظاهر القرآن انتفاء التعذيب مطلقا، فهو أعم من كونه في الدنيا، وصرف القرآن عن ظاهره ممنوع، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

الوجه الثاني: أن القرآن دل في آيات كثيرة على شمول التعذيب المنفي في الآية للتعذيب في الآخرة، كقوله: (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ) [الملك: ٨ – ٩]، وهو دليل على أن جميع أفواج أهل النار ما عذبوا في الآخرة إلا بعد إنذار الرسل.

وأجابوا عن الوجه الثاني ـ وهو أن محل العذر بالفترة في غير الواضح الذي لا يخفى على أحد ـ بالجوابين المذكورين آنفا نفسيهما؛ لأن الفرق بين الواضح وغيره مخالف لظاهر القرآن، فلا بد له من دليل يجب الرجوع إليه، ولأن الله نص

=

=

على أن أهل النار ما عذبوا بها حتى كذبوا الرسل في دار الدنيا، بعد إنذارهم من ذلك الكفر الواضح.

وأجابوا عن الوجه الثالث ـ وهو قيام الحجة عليهم بإنذار الرسل الذين أرسلوا قبله ﷺ ـ بأنه قول باطل بلا شك؛ لكثرة الآيات القرآنية المصرحة ببطلانه، لأن مقتضاه أنهم أنذروا على ألسنة بعض الرسل، والقرآن ينفي هذا نفيا باتا في آيات كثيرة، كقوله: (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ) [يس: ٦]، وكقوله: (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) [القصص: ٤٦]، وكقوله: (وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير (٤٤)) [سبأ: ٤٤]، وكقوله: (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) [السجدة: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما قول النووي: "من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة؛ فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره"، فإن قوله هذا فيه تناقض؛ لأن من بلغتهم الدعوة فليسوا بأهل فترة، وقد أشار إلى ما في كلام النووي من التناقض الأبي عند شرحه للحديث.

وأجابوا عن الوجه الرابع: بأن تلك الأحاديث الواردة في المسألة أخبار آحاد يقدم عليها القاطع وهي الآيات الواردة في المسألة.

وأجاب القائلون بالعذر بالفترة أيضا عن الآيات التي استدل بها مخالفوهم ـ كقوله: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما (١٨)) [النساء: ١٨]، إلى آخر ما تقدم من الآيات ـ بأن محل ذلك فيما إذا أرسلت إليهم الرسل فكذبوهم، بدليل قوله: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا).

=

=

وأجاب القائلون بتعذيب عبدة الأوثان من أهل الفترة عن قول مخالفيهم ـ إن القاطع الذي هو قوله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)، يجب تقديمه على أخبار الآحاد الدالة على تعذيب بعض أهل الفترة، كحديثي مسلم في صحيحه المتقدمين ـ أجابوا: بأن الآية عامة والحديثين كلاهما خاص في شخص معين، والمعروف في الأصول أنه لا يتعارض عام وخاص؛ لأن الخاص يقضي على العام، كما هو مذهب الجمهور، فما أخرجه دليل خاص خرج من العموم، وما لم يخرجه دليل خاص بقي داخلا في العموم.

وأجاب المانعون: بأن هذا التخصيص يبطل حكمة العام؛ لأن الله جل وعلا تمدح بكمال الإنصاف، وأنه لا يعذب حتى يقطع حجة المعذب بإنذار الرسل في دار الدنيا، وأشار لأن ذلك الإنصاف الكامل والإعذار الذي هو قطع العذر علة لعدم التعذيب، فلو عذب إنسانا واحدا من غير إنذار لاختلت تلك الحكمة التي تمدح الله بها، ولثبتت لذلك الإنسان الحجة التي أرسل الله الرسل لقطعها، كما بينه بقوله: (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) [النساء: ١٦٥]، وقوله: (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى (١٣٤)) [طه: ١٣٤].

المسلك الثالث: مسلك الجمع بين الآيات والأحاديث.

ويرى أصحاب هذا المسلك أن أهل الفترة معذورون بالفترة في الدنيا، كما هو صريح الآيات، إلا أن الله يمتحنهم يوم القيامة بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعذب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل.

وقد اختار هذا المسلك جمع من المحققين، كابن حزم، والبيهقي، وعبد الحق

=

=

الإشبيلي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر، ومحمد الأمين الشنقيطي.

وهو اختيار الشيخين الجليلين ابن باز، وابن عثيمين.

وظاهر تقرير السيوطي لهذه المسألة يوحي باختياره لهذا المسلك.

قال ابن حزم: "وأما المجانين، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة نبي، ومن أدركه الإسلام وقد هرم، أو أصم لا يسمع؛ فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه تبعث لهم يوم القيامة نار موقدة، ويؤمرون بدخولها، فمن دخلها كانت عليه بردا ودخل الجنة...، ونحن نؤمن بهذا ونقر به، ولا علم لنا إلا ما علمنا الله تعالى على لسان رسوله ﷺ". اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من لم تبلغه الدعوة في الدنيا امتحن في الآخرة...، ولا يعذب الله بالنار أحدا إلا بعد أن يبعث إليه رسولا، فمن لم تبلغه دعوة رسول إليه، كالصغير والمجنون والميت في الفترة المحضة، فهذا يمتحن في الآخرة، كما جاءت بذلك الآثار". اهـ

أدلة هذا المسلك:

للقائلين بهذا المسلك حجتان:

الأولى: ما ورد من أحاديث عن رسول الله ﷺ بامتحان أهل الفترة في الآخرة، وهي مروية عن ستة من أصحاب النبي ﷺ:

الأول: عن الأسود بن سريع - رضي الله عنه -، أن نبي الله ﷺ قال: "أربعة يوم القيامة، (يعني يدلون على الله بحجة)، رجل أصم لا يسمع شيئا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة؛ فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: ربي لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة

=

=

فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار. قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما".

**الثاني**: عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: "يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلا، وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيرا، فيقول الممسوخ عقلا: يا رب لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد بعقله مني. ويقول الهالك في الفترة: يا رب لو أتاني منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهده مني. ويقول الهالك صغيرا: لو آتيتني عمرا ما كان من آتيته عمرا بأسعد بعمره مني. فيقول الرب تبارك وتعالى: إني آمركم بأمر فتطيعوني؟ فيقولون: نعم، وعزتك. فيقول: اذهبوا فادخلوا النار. ولو دخلوها ما ضرتهم، قال: فتخرج عليهم قوابص يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء، فيرجعون سراعا قال: يقولون: خرجنا يا رب وعزتك نريد دخولها، فخرجت علينا قوابص ظننا أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء، فيأمرهم الثانية، فيرجعون كذلك يقولون مثل قولهم، فيقول الله تبارك وتعالى: قبل أن تخلقوا علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتكم، وإلى علمي تصيرون، فتأخذهم النار".

**الثالث**: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، وبالمعتوه، وبمن مات في الفترة، والشيخ الفاني، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: ابرز. فيقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه. فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب، أين ندخلها ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتبت عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعا، قال: فيقول تبارك وتعالى: أنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار".

**الرابع**: عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: "يحتج على الله يوم

=

=

القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصبي الصغير، فيقول المغلوب على عقله: لم تجعل لي عقلا أنتفع به، ويقول الهالك في الفترة: لم يأتني رسول ولا نبي، ولو أتاني لك رسول أو نبي لكنت أطوع خلقك لك وقرأ: (لولا أرسلت إلينا رسولا) [طه: ١٣٤] ويقول الصبي الصغير: كنت صغيرا لا أعقل. قال: فترفع لهم نار ويقال لهم: ردوها قال: فيردها من كان في علم الله أنه سعيد، ويتلكأ عنها من كان في علم الله أنه شقي، فيقول: إياي عصيتم، فكيف برسلي لو أتتكم؟ ".

الخامس: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم، فيسألهم ربهم ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولا، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكنا أطوع عبادك لك. فيقول لهم ربهم: أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعونني؟ فيقولون: نعم. فيؤمرون أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون، حتى إذا رأوها فإذا لها تغيظ وزفير، فيرجعون إلى ربهم فيقولون: يا ربنا فرقنا منها. فيقول ربهم تبارك وتعالى: تزعمون أنكم إن أمرتكم بأمر أطعتموني، فيأخذ مواثيقهم فيقول: اعمدوا إليها فادخلوها. فينطلقون، حتى إذا رأوها فرقوا ورجعوا إلى ربهم، فقالوا: ربنا فرقنا منها. فيقول: ألم تعطوني مواثيقكم لتطيعوني؟ اعمدوا إليها فادخلوها. فينطلقون، حتى إذا رأوها فزعوا ورجعوا، فقالوا: فرقنا يا رب، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين. قال نبي الله ﷺ: لو دخلوها أول مرة كانت عليهم بردا وسلاما".

السادس: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "أربعة كلهم يدلي على الله يوم القيامة بحجة وعذر: رجل مات في الفترة، ورجل أدركه الإسلام هرما، ورجل أصم أبكم، ورجل معتوه، فيبعث الله إليهم ملكا رسولا فيقول:

=

=

اتبعوه، فيأتيهم الرسول فيؤجج لهم نارا ثم يقول: اقتحموها، فمن اقتحمها كانت عليه بردا وسلاما، ومن لا حقت عليه كلمة العذاب".

قال ابن القيم ـ بعد أن أورد هذه الأحاديث ـ: "فهذه الأحاديث يشد بعضها بعضا، وتشهد لها أصول الشرع وقواعده، والقول بمضمونها هو مذهب السلف والسنة، نقله عنهم الأشعري ـ رحمه الله ـ في المقالات وغيرها". اهـ

الحجة الثانية: أن الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن بلا خلاف؛ لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما، ولا وجه للجمع بين الأدلة إلا هذا القول، بالعذر والامتحان، فمن دخل النار فهو الذي لم يمتثل ما أمر به عند ذلك الامتحان، وتتفق بذلك جميع الأدلة.

الإيرادات والاعتراضات على هذه الأدلة:

أورد على هذه الأحاديث ـ أعني أحاديث الامتحان ـ بأنها ضعيفة، وبأنها مخالفة لكتاب الله ﷻ، ولقواعد الشريعة، لأن الآخرة ليست دار تكليف، وإنما هي دار جزاء، ودار التكليف هي دار الدنيا، فلو كانت الآخرة دار تكليف لكان ثم دار جزاء غيرها.

أورد هذا الاعتراض: ابن عبد البر، وابن عطية، وأبو عبد الله القرطبي، والآلوسي.

قال ابن عبد البر ـ وقد ذكر بعض هذه الأحاديث ـ: "وهذه الأحاديث كلها ليست بالقوية، ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب؛ لأن الآخرة دار جزاء، وليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يخلو من مات في الفترة من أن يكون مات كافرا أو غير كافر، فإن مات كافرا جاحدا فإن الله حرم الجنة على الكافرين، فكيف يمتحنون؟ وإن كان معذورا بأنه لم يأته نذير ولا رسول فكيف يؤمر أن يقتحم النار وهي أشد العذاب؟ ". اهـ

=

=

وأجيب عن هذه الاعتراضات من وجوه:

الأول: "أن أحاديث هذا الباب قد تضافرت وكثرت بحيث يشد بعضها بعضا، وقد صحح الحفاظ بعضها، كما صحح البيهقي وعبد الحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع. وحديث أبي هريرة إسناده صحيح متصل، ورواية معمر له، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، موقوفا، لا تضره؛ فإنا إن سلكنا طريق الفقهاء والأصوليين -في الأخذ بالزيادة من الثقة - فظاهر، وإن سلكنا طريق الترجيح -وهي طريقة المحدثين - فليس من رفعه بدون من وقفه في الحفظ والإتقان.

الوجه الثاني: أن غاية ما يقدر فيه أنه موقوف على الصحابي، ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد، بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي.

الوجه الثالث: أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضا؛ فإنها قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول الله ﷺ لم يتكلم بها، وقد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها.

الوجه الرابع: أنها هي الموافقة للقرآن وقواعد الشرع، فهي تفصيل لما أخبر به القرآن أنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه، وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله في الدنيا، فلا بد أن يقيم حجته عليهم، وأحق المواطن أن تقام فيه الحجة يوم يقوم الأشهاد، وتسمع الدعاوى، وتقام البينات، ويختصم الناس بين يدي الرب، وينطق كل أحد بحجته ومعذرته، فلا تنفع الظالمين معذرتهم وتنفع غيرهم.

الوجه الخامس: أن القول بموجبها هو قول أهل السنة والحديث، كما حكاه الأشعري عنهم في المقالات، وحكى اتفاقهم عليه.

الوجه السادس: وهو قول ابن عبد البر: "وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب" جوابه: أنه وإن أنكرها بعضهم فقد قبلها الأكثرون، والذين قبلوها أكثر من الذين

=

=

أنكروها، وأعلم بالسنة والحديث، وقد حكى فيه الأشعري اتفاق أهل السنة والحديث، وقد بينا أنه مقتضى قواعد الشرع.

الوجه السابع: أنه قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان في الدار الآخرة، وقالوا لا ينقطع التكليف إلا بدخول دار القرار، ذكره البيهقي عن غير واحد من السلف.

الوجه الثامن: ما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد، رضي الله عنهما، في الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولا إليها، أن الله تعالى يأخذ عهوده ومواثيقه ألا يسأله غير الذي يعطيه، وأنه يخالفه ويسأله غيره، فيقول الله له: "ما أغدرك"، وهذا الغدر منه لمخالفته العهد الذي عاهد ربه عليه، وهذه معصية منه.

الوجه التاسع: قد ثبت أنه سبحانه يأمرهم في القيامة بالسجود، ويحول بين المخالفين وبينه، وهذا تكليف بما ليس في الوسع قطعا، فكيف ينكر التكليف بدخول النار اختيارا؟

الوجه العاشر: أنه قد ثبت امتحانهم في القبور، وسؤالهم وتكليفهم الجواب، وهذا تكليف بعد الموت برد الجواب.

الوجه الحادي عشر: أن أمرهم بدخول النار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ وإنما هو امتحان واختبار لهم، هل يطيعونه أو يعصونه؟ فلو أطاعوه ودخلوها لم تضرهم، وكانت عليهم بردا وسلاما، فلما عصوه وامتنعوا من دخولها استوجبوا عقوبة مخالفة أمره، والملوك قد تمتحن من يظهر طاعتهم، هل هو منطو عليها بباطنه؟ فيأمرونه بأمر شاق عليه في الظاهر، هل يوطن نفسه عليه أم لا؟ فإن أقدم عليه ووطن نفسه على فعله أعفوه منه، وإن امتنع وعصى ألزموه به، أو عاقبوه بما هو أشد منه.

وقد أمر الله سبحانه الخليل بذبح ولده، ولم يكن مراده سوى توطين نفسه على

=

=

الامتثال والتسليم، وتقديم محبة الله على محبة الولد، فلما فعل ذلك رفع عنه الأمر بالذبح.

وقد ثبت أن الدجال يأتي معه بمثال الجنة والنار، وهي نار في رأي العين، ولكنها لا تحرق، فمن دخلها لم تضره، فلو أن هؤلاء يوطنون أنفسهم على دخول النار ـ التي أمروا بدخولها طاعة لله ومحبة له، وإيثارا لمرضاته، وتقربا إليه بتحمل ما يؤلمهم ـ لكان هذا الإقدام والقصد منهم لمرضاته ومحبته يقلب تلك النار بردا وسلاما، كما قلب قصد الخليل التقرب إلى ربه وإيثار محبته ومرضاته وبذل نفسه وإيثاره إياه على نفسه تلك النار بأمر الله بردا وسلاما، فليس أمره سبحانه إياهم بدخول النار عقوبة ولا تكليفا بالممتنع، وإنما هو امتحان واختبار لهم هل يوطنون أنفسهم على طاعته أم ينطوون على معصيته ومخالفته، وقد علم سبحانه ما يقع منهم، ولكنه لا يجازيهم على مجرد علمه فيهم ما لم يحصل معلومه الذي يترتب عليهم به الحجة، فلا أحسن من هذا يفعله بهم، وهو محض العدل والحكمة.

الوجه الثاني عشر: أن هذا مطابق لتكليفه عباده في الدنيا؛ فإنه سبحانه لم يستفد بتكليفهم منفعة تعود إليه، ولا هو محتاج إليهم، وإنما امتحنهم وابتلاهم ليتبين من يؤثر رضاه ومحبته ويشكره، ممن يكفر به ويؤثر سخطه، قد علم منهم من يفعل هذا وهذا، ولكنه بالابتلاء ظهر معلومه الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، وتقوم عليهم به الحجة.

وكثير من الأوامر التي أمرهم بها في الدنيا نظير الأمر بدخول النار؛ فإن الأمر بإلقاء نفوسهم بين سيوف أعدائهم ورماحهم، وتعريضهم لأسرهم لهم، وتعذيبهم واسترقاقهم، لعله أعظم من الأمر بدخول النار، وقد كلف الله بني إسرائيل قتل أنفسهم وأولادهم وأرواحهم وإخوانهم لما عبدوا العجل، لما لهم في ذلك من

=

=

المصلحة، وهذا قريب من التكليف بدخول النار، وكلف على لسان رسوله المؤمنين إذا رأوا نار الدجال أن يقعوا فيها، لما لهم في ذلك من المصلحة، وليست في الحقيقة نارا، وإن كانت في رأي العين نارا، وكذلك النار التي أمروا بدخولها في الآخرة إنما هي برد وسلام على من دخلها، فلو لم يأت بذلك أثر لكان هذا هو مقتضى حكمته وعدله، وموجب أسمائه وصفاته.

الوجه الثالث عشر: قول ابن عبد البر: "وليس ذلك في وسع المخلوقين" جوابه من وجهين:

أحدهما: أنه في وسعهم، وإن كان يشق عليهم، وهؤلاء عباد النار يتهافتون فيها ويلقون أنفسهم فيها طاعة للشيطان، ولم يقولوا ليس في وسعنا، مع تألمهم بها غاية الألم، فعباد الرحمن إذا أمرهم أرحم الراحمين بطاعته باقتحامهم النار كيف لا يكون في وسعهم، وهو إنما يأمرهم بذلك لمصلحتهم ومنفعتهم؟

**الثاني**: أنهم لو وطنوا أنفسهم على اتباع طاعته ومرضاته لكانت عين نعيمهم، ولم تضرهم شيئا.

الوجه الرابع عشر: أن أمرهم باقتحام النار، المفضية بهم إلى النجاة منها، بمنزلة الكي الذي يحسم الداء، وبمنزلة تناول الداء الكريه الذي يعقب العافية، وليس من باب العقوبة في شيء، فإن الله سبحانه اقتضت حكمته وحمده، وغناه ورحمته، ألا يعذب من لا ذنب له، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك، كما يتعالى عما يناقض صفات كماله، فالأمر باقتحام النار للخلاص منها هو عين الحكمة والرحمة والمصلحة، حتى لو أنهم بادروا إليها طوعا واختيارا ورضى، حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يأمرهم به لكان ذلك عين صلاحهم، وسبب نجاتهم، فلم يفعلوا ذلك ولم يمتثلوا أمره، وقد تيقنوا وعلموا أن فيه رضاه وصلاحهم، بل هان عليهم أمره وعزت عليهم أنفسهم أن يبذلوا له منها هذا القدر الذي أمرهم به،

=

=

رحمة وإحسانا، لا عقوبة.

الوجه الخامس عشر: أن أمرهم باقتحام النار كأمر المؤمنين بركوب الصراط، الذي هو أدق من الشعرة، وأحد من السيف، ولا ريب أن ركوبه من أشق الأمور وأصعبها، حتى إن الرسل لتشفق منه، وكل منهم يسأل الله السلامة، فركوب هذا الجسر الذي هو في غاية المشقة كاقتحام النار، وكلاهما طريق إلى النجاة.

الوجه السادس عشر: قول ابن عبد البر: "ولا يخلو من مات في الفترة من أن يكون كافرا أو غير كافر، فإن كان كافرا فإن الله حرم الجنة على الكافرين، وإن كان معذورا بأنه لم يأته رسول فكيف يؤمر باقتحام النار؟ " جوابه من وجوه:

**أحدها**: أن يقال هؤلاء لا يحكم لهم بكفر ولا إيمان؛ فإن الكفر هو جحود ما جاء به الرسول، فشرط تحققه بلوغ الرسالة، والإيمان هو تصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وهذا أيضا مشروط ببلوغ الرسالة، ولا يلزم من انتفاء أحدهما وجود الآخر إلا بعد قيام سببه، فلما لم يكن هؤلاء في الدنيا كفارا ولا مؤمنين، كان لهم في الآخرة حكم آخر غير حكم الفريقين.

الوجه الثاني: سلمنا أنهم كفار، لكن انتفاء العذاب عنهم لانتفاء شرطه، وهو قيام الحجة عليهم، فإن الله تعالى لا يعذب إلا من قامت عليه حجته.

الوجه الثالث: قوله: "وإن كان معذورا فكيف يؤمر أن يقتحم النار، وهي أشد العذاب؟ "، فالذي قال هذا يوهم أن هذا الأمر عقوبة لهم، وهذا غلط، وإنما هو تكليف واختبار، فإن بادروا إلى الامتثال لم تضرهم النار شيئا". انتهى كلام ابن القيم.

أجوبة أصحاب المسلك الأول والثالث - وهم القائلون بنجاة أهل الفترة، والقائلون بامتحانهم في الآخرة - عن الأحاديث الواردة في المسألة، والتي تفيد بظاهرها تعذيب أهل الفترة:

=

=

اختلف أصحاب هذين المسلكين في الجواب عن الأحاديث الواردة في المسألة، وخاصة الأحاديث الواردة في أبوي النبي ﷺ، وسأذكر أولا أجوبتهم عن الأحاديث بعامة، ثم أذكر مذاهب العلماء في مصير والدي النبي ﷺ، يلي ذلك أجوبة أصحاب هذين المسلكين عن الأحاديث الواردة في تعذيب أبوي النبي ﷺ:

أولا: أجوبتهم عن أحاديث تعذيب أهل الفترة بعامة:

أما القائلون بامتحانهم في الآخرة فلا إشكال عندهم في تلك الأحاديث؛ لأنها محمولة على أن هؤلاء ممن لا يجيب يوم القيامة؛ فلا منافاة بينها وبين الآيات.

وأجاب بعضهم باحتمال أن يكون هؤلاء - الذين أخبر النبي ﷺ بأنهم من أهل النار، ومنهم أبوي النبي ﷺ - بلغتهم دعوة نبي من الأنبياء، قبل بعثة نبينا محمد ﷺ، فلم يؤمنوا بها، وإنما رضوا بدين قريش، من الشرك وعبادة الأوثان، فخرجوا بفعلهم هذا أن يكونوا من أهل الفترة، واستحقوا العذاب في الآخرة؛ لقيام الحجة عليهم.

وأما القائلون بنجاتهم مطلقا فذكروا ثلاثة أجوبة:

الأول: أنها أخبار آحاد فلا تعارض القاطع، وهي نصوص القرآن الكريم.

**الثاني**: قصر التعذيب على هؤلاء، والله أعلم بالسبب.

**الثالث**: قصر التعذيب المذكور في هذه الأحاديث على من بدل وغير من أهل الفترة بما لا يعذر به من الضلال، كعبادة الأوثان، وتغيير الشرائع، وشرع الأحكام.

وقد ذكر محمد بن خليفة الأبي أن أهل الفترة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

الأول: من أدرك التوحيد ببصيرته، وهؤلاء على نوعين:

الأول: من لم يدخل في شريعة؛ كقس بن ساعدة،

=

=

وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل.

**الثاني**: من دخل في شريعة حق قائمة، كتبع وقومه.

القسم الثاني: من بدل وغير وأشرك ولم يوحد، وشرع لنفسه فحلل وحرم، وهم الأكثر، كعمرو بن لحي، فإنه أول من سن للعرب عبادة الأصنام، وشرع الأحكام؛ فبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي.

القسم الثالث: من لم يشرك ولم يوحد، ولا دخل في شريعة نبي، ولا ابتكر لنفسه شريعة، ولا اخترع دينا، بل بقي عمره على حال غفلة عن هذا كله، وفي الجاهلية من هذا القسم كثير.

قال الأبي: فإذا انقسم أهل الفترة إلى الثلاثة الأقسام؛ فيحمل من صح تعذيبه على أهل القسم الثاني؛ بكفرهم بما يعذبون به من الخبائث، والله سبحانه قد سمى جميع هذا القسم كفارا ومشركين، وأما القسم الأول، كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة؛ فقد قال النبي ﷺ في كل منهما: "إنه يبعث أمة وحده"، فحكمهم حكم الدين الذي دخلوا فيه مالم يلحق أحدا منهم الإسلام الناسخ لكل دين.

وأما القسم الثالث: فهم أهل الفترة حقيقة، وهم غير معذبين، لقطع القرآن بنجاتهم.

ثانيا: مذاهب العلماء في مصير والدي النبي ﷺ:

اختلف العلماء في مصير والدي النبي ﷺ على ثلاثة مذاهب:

الأول: أنهما في النار.

وهذا مذهب أبي حنيفة، والبيهقي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن كثير، والألباني، وغيرهم.

وقد بسط الكلام في عدم نجاة الوالدين: إبراهيم بن محمد الحلبي، في رسالة بعنوان: "رسالة في حق أبوي الرسول ﷺ"، والملا علي بن سلطان القاري في

=

=

رسالة بعنوان: "أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام".

ومن أظهر ما استدل به أصحاب هذا المذهب: حديث أنس - رضي الله عنه -، والذي فيه إخبار النبي ﷺ بأن أباه في النار، وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، والذي فيه أن النبي ﷺ نهي عن الاستغفار لأمه، وكلاهما عند مسلم، وكذا إخباره ﷺ بأن أمه في النار، وقد تقدمت جميعها في أول المسألة.

وادعى الإجماع على عدم نجاتهما الملا علي بن سلطان القاري فقال: "وأما الإجماع؛ فقد اتفق السلف والخلف ـ من الصحابة والتابعين، والأئمة الأربعة وسائر المجتهدين ـ على ذلك، من غير إظهار خلاف لما هنالك، والخلاف من اللاحق لا يقدح في الإجماع السابق، سواء يكون من جنس المخالف أو صنف الموافق". اهـ

ويرى هؤلاء أن إخباره ﷺ عن أبويه بأنهما من أهل النار، لا ينافي الأحاديث الواردة بامتحان أهل الفترة، لأن أهل الفترة منهم من يجيب يوم القيامة، ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب، فلا منافاة.

المذهب الثاني: التوقف فيهما، فلا يحكم لهما بجنة ولا نار.

قال تاج الدين الفاكهاني: "الله أعلم بحال أبويه".

وقال السخاوي ـ بعد أن أورد حديث إحياء والدي النبي ﷺ ـ: "والذي أراه الكف عن التعرض لهذا إثباتا ونفيا".

وحكى هذا المذهب شمس الحق العظيم آبادي ومال إليه واستحسنه. وإليه نحا الدكتور يوسف القرضاوي؛ فإنه أورد حديث "إن أبي وأباك في النار" وقال: أتوقف في الحديث حتى يظهر لي شيء يشفي الصدر.

المذهب الثالث: أنهما في الجنة.

=

=

ولأصحاب هذا المذهب في سبب نجاتهما ثلاثة مسالك:
الأول: أنهما لم تبلغهما الدعوة، ولا عذاب على من لم تبلغه الدعوة.
أشار لهذا المسلك: السيوطي، والسندي. واختاره من المعاصرين: محمد الغزالي.
المسلك الثاني: أنهما كانا على التوحيد، ملة إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وهذا المسلك قال به الطاهر ابن عاشور، ومحمد الجزيري.
قال الطاهر ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين (١٢٤)) [البقرة: ١٢٤] قال: "ولعل ممن تحقق فيه رجاء إبراهيم عمود نسب النبي ﷺ، وإنما كانوا يكتمون دينهم تقية من قومهم". اهـ
المسلك الثالث: أن الله تعالى أحياهما لنبيه ﷺ في آخر حياته؛ فآمنا به واتبعاه.
وهذا المسلك مال إليه طائفة من حفاظ المحدثين وغيرهم، منهم ابن شاهين، والخطيب البغدادي، والسهيلي ، وأبو عبد الله القرطبي، والمحب الطبري، وناصر الدين بن المنير، والأبي، وابن حجر الهيتمي، والعجلوني، وغيرهم.
وانتصر له السيوطي فألف فيه عدة مؤلفات من أشهرها: كتابه "مسالك الحنفا في والدي المصطفى"، وقد أطال في تقرير نجاة الأبوين، وحشد العديد من الأدلة التي تؤيد ما ذهب إليه، حتى قال: "وإذا كان قد صح في أبي طالب أنه أهون أهل النار عذابا؛ لقرابته منه ﷺ وبره به، مع إداركه الدعوة، وامتناعه من الإجابة، وطول عمره، فما ظنك بأبويه، اللذين هما أشد منه قربا، وآكد حبا، وابسط عذرا، وأقصر عمرا، فمعاذ الله أن يظن بهما أنهما في طبقة الجحيم، وأن يشدد عليهما العذاب العظيم، هذا لا يفهمه من له أدنى ذوق سليم". اهـ
ومن أظهر ما استدل به أصحاب هذا المسلك: ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "أن

=

=

رسول الله ﷺ نزل إلى الحجون كئيبا حزينا، فأقام به ما شاء ربه ﷻ، ثم رجع مسرورا، فقالت: يا رسول الله، نزلت إلى الحجون كئيبا حزينا فأقمت به ما شاء الله، ثم رجعت مسرورا، قال: سألت ربي ﷻ فأحيا لي أمي فآمنت بي، ثم ردها".

وأورد السهيلي في الروض الأنف بسند قال: إن فيه مجهولين، عن عائشة رضي الله عنها: "أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه، فأحياهما له، فآمنا به، ثم أماتهما".

قال السهيلي بعد إيراده للحديث: "الله قادر على كل شيء، وليس تعجز رحمته وقدرته عن شيء، ونبيه ﷺ أهل أن يختص بما شاء من فضله، وينعم عليه بما شاء من كرامته". اهـ

وقال العلامة ناصر الدين بن المنير المالكي في كتاب "المقتفى في شرف المصطفى": "قد وقع لنبينا ﷺ إحياء الموتى، نظير ما وقع لعيسى ابن مريم...، وجاء في حديث أن النبي ﷺ لما منع من الاستغفار للكفار دعا الله أن يحيي له أبويه فأحياهما له فآمنا به وصدقا وماتا مؤمنين". اهـ

وقال أبو عبد الله القرطبي: "فضائل النبي ﷺ لم تزل تتوالى وتتابع إلى حين مماته، فيكون هذا مما فضله الله به وأكرمه، وليس إحياؤهما وإيمانهما به يمتنع عقلا ولا شرعا، فقد ورد في القرآن إحياء قتيل بني إسرائيل، وإخباره بقاتله، وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى، وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام أحيا الله على يديه جماعة من الموتى...، وإذا ثبت هذا فما يمتنع من إيمانهما بعد إحيائهما زيادة كرامة في فضيلته". اهـ

وقال ابن سيد الناس ـ بعد أن ذكر قصة الإحياء، والأحاديث الواردة في التعذيب ـ: "وذكر بعض أهل العلم في الجمع بين هذه الروايات ما حاصله أن النبي ﷺ لم يزل راقيا في المقامات السنية، صاعدا في الدرجات العلية، إلى أن قبض الله روحه الطاهرة إليه، وأزلفه بما خصه به لديه من الكرامة حين القدوم عليه، فمن الجائز

=

=

أن تكون هذه درجة حصلت له ﷺ بعد أن لم تكن، وأن يكون الإحياء والإيمان متأخرا عن تلك الأحاديث فلا تعارض". اهـ

وأجاب أصحاب هذا المسلك عن أحاديث تعذيب أبوي النبي ﷺ بثلاثة أجوبة:

الأول: أنها منسوخة بحديث إحياء والديه ﷺ.

قال أبو عبد الله القرطبي: "لا تعارض بين حديث الإحياء، وحديث النهي عن الاستغفار؛ فإن إحياءهما متأخر عن الاستغفار لهما، بدليل حديث عائشة أن ذلك كان في حجة الوداع، ولذلك جعله ابن شاهين ناسخا لما ذكر من الأخبار". اهـ

**الثاني**: أن قوله ﷺ: "إن أبي وأباك في النار" المراد عمه أبو طالب؛ لأن اسم الأب يطلق على العم، وقد كان أبو طالب ربى رسول الله ﷺ، فاستحق إطلاق اسم الأب من تلك الجهة.

ذكره السيوطي.

وذهب الجزيري إلى أن المراد عمه أبو لهب، حيث قال: "وحديث مسلم هذا يمكن تأويله، وهو أن المراد بأبي النبي صلى الله وعليه وسلم أبو لهب؛ فإن الله تعالى قد أخبر أنه في النار قطعا، والأب يطلق في اللغة على العم". اهـ

**الثالث**: أنها ضعيفة.

قال السيوطي: "فإن قلت: فما تصنع بالأحاديث الدالة على كفرهما وأنهما في النار، وهي: حديث أنه ﷺ قال: "ليت شعري، ما فعل أبواي؟ فنزلت: (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) " [البقرة: ١١٩]، وحديث أنه استغفر لأمه فضرب جبريل في صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركا، وحديث أنه نزل فيها: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) [التوبة: ١١٣]، وحديث أنه قال لابني مليكة: "أمكما في النار. فشق عليهما، فدعاهما فقال: إن أمي مع أمكما".

قلت: الجواب أن غالب ما يروى من ذلك ضعيف، ولم يصح في أم النبي ﷺ

=

=

سوى حديث أنه استأذن في الاستغفار لها فلم يؤذن له، ولم يصح أيضا في أبيه إلا حديث مسلم خاصة، وسيأتي الجواب عنهما.

قال: وأما الأحاديث التي ذكرت؛ فحديث: "ليت شعري ما فعل أبواي؛ فنزلت الآية" لم يخرج في شيء من الكتب المعتمدة، وإنما ذكر في بعض التفاسير بسند منقطع لا يحتج به، ولا يعول عليه.

وأما حديث أن جبريل ضرب في صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركا؛ فإن البزار أخرجه بسند فيه من لا يعرف. وأما نزول الآية في ذلك فضعيف أيضا، والثابت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب.

وأما حديث: "أمي مع أمكما"، فأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح. وشأن المستدرك في تساهله في التصحيح معروف، وقد تقرر في علوم الحديث أنه لا يقبل تفرده بالتصحيح، ثم إن الذهبي في مختصر المستدرك ـ لما أورد هذا الحديث ونقل قول الحاكم صحيح ـ قال عقبه: "قلت: لا والله، فعثمان بن عمير ضعفه الدارقطني". فبين الذهبي ضعف الحديث، وحلف عليه يمينا شرعيا.

قال السيوطي: فإن قلت: بقيت عقدة واحدة، وهي ما رواه مسلم عن أنس أن رجلا قال: "يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار. فلما قفى دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار"، وحديث مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: "أنه ﷺ استأذن في الاستغفار لأمه فلم يؤذن له"، فاحلل هذه العقدة. قلت: على الرأس والعين:

والجواب: أن هذه اللفظة وهي قوله: "إن أبي وأباك في النار"، لم يتفق على ذكرها الرواة، وإنما ذكرها حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، وهي الطريق التي رواه مسلم منها، وقد خالفه معمر، عن ثابت، فلم يذكر: "إن أبي وأباك في النار"، ولكن قال له: "إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار". وهذا اللفظ لا دلالة فيه على والده ﷺ بأمر ألبتة، وهو أثبت من حيث الرواية؛ فإن معمرا أثبت من حماد، فإن حمادا

=

=

تكلم في حفظه، ووقع في أحاديثه مناكير، ذكروا أن ربيبه دسها في كتبه، وكان حماد لا يحفظ، فحدث بها فوهم فيها، ومن ثم لم يخرج له البخاري شيئا، ولا خرج له مسلم في الأصول إلا من روايته عن ثابت، قال الحاكم في "المدخل": "ما خرج مسلم لحماد في الأصول إلا من حديثه عن ثابت، وقد خرج له في الشواهد عن طائفة".

قال السيوطي: وأما معمر فلم يتكلم في حفظه، ولا استنكر شيء من حديثه، واتفق على التخريج له الشيخان، فكان لفظه أثبت، ثم وجدنا الحديث ورد من حديث سعد بن أبي وقاص، بمثل لفظ رواية معمر، عن ثابت، عن أنس؛ فأخرج البزار، والطبراني، والبيهقي، من طريق إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عامر بن سعد، عن أبيه: "أن أعرابيا قال لرسول الله ﷺ: أين أبي؟ قال: في النار. قال: فأين أبوك؟ قال: حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار". وهذا إسناد على شرط الشيخين، فتعين الاعتماد على هذا اللفظ وتقديمه على غيره.

وأخرج ابن ماجة، من طريق إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، إن أبي كان يصل الرحم، وكان؛ فأين هو؟ قال: في النار. قال: فكأنه وجد من ذلك فقال: يا رسول الله، فأين أبوك؟ قال رسول الله ﷺ: حيث مررت بقبر مشرك فبشره بالنار. قال: فأسلم الأعرابي بعد وقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعبا، ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار".

قال السيوطي: فهذه الزيادة أوضحت بلا شك أن هذا اللفظ العام هو الذي صدر منه ﷺ، ورآه الأعرابي بعد إسلامه أمرا مقتضيا للامتثال، فلم يسعه إلا امتثاله، ولو كان الجواب باللفظ الأول لم يكن فيه أمر بشيء ألبتة، فعلم أن هذا اللفظ الأول من تصرف الراوي، رواه بالمعنى على حسب فهمه". اهـ

=

=

أجوبة القائلين بتعذيب أبوي النبي ﷺ على أدلة القائلين بنجاتهما:

أولا: أجوبتهم عن حديث الإحياء:

أجاب القائلون بتعذيب أبوي النبي ﷺ عن حديث الإحياء بأنه حديث باطل وموضوع.

وممن قال ببطلانه: الدارقطني، والحافظ ابن دحية الكلبي، وابن الجوزي، وابن عساكر، والذهبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن سيد الناس ، والحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر، والجوزقاني، ومحمد شمس الحق العظيم آبادي، والألباني، وغيرهم.

قال ابن الجوزي ـ بعد روايته للحديث ـ: "هذا حديث موضوع بلا شك، والذي وضعه قليل الفهم، عديم العلم، إذ لو كان له علم لعلم أن من مات كافرا لا ينفعه أن يؤمن بعد الرجعة، لا بل لو آمن عند المعاينة لم ينتفع، ويكفي في رد هذا الحديث قوله تعالى: (فيمت وهو كافر) [البقرة: ٢١٧]، وقوله في الصحيح: "استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي". اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ وقد سئل: هل صح عن النبي ﷺ: أن الله تبارك وتعالى أحيا له أبويه حتى أسلما على يديه ثم ماتا بعد ذلك؟

فأجاب: - "لم يصح ذلك عن أحد من أهل الحديث؛ بل أهل المعرفة متفقون على أن ذلك كذب مختلق، وإن كان قد روى في ذلك أبو بكر - يعني الخطيب - في كتابه (السابق واللاحق) وذكره أبو القاسم السهيلي في (شرح السيرة) بإسناد فيه مجاهيل، وذكره أبو عبد الله القرطبي في (التذكرة)، وأمثال هذه المواضع لا نزاع بين أهل المعرفة أنه من أظهر الموضوعات كذبا كما نص عليه أهل العلم، وليس ذلك في الكتب المعتمدة في الحديث؛ لا في الصحيح ولا في السنن ولا في المسانيد، ونحو ذلك من كتب الحديث المعروفة، ولا ذكره أهل كتب المغازي

=

=

والتفسير، وإن كانوا قد يروون الضعيف مع الصحيح؛ لأن ظهور كذب ذلك لا يخفى على متدين، فإن مثل هذا لو وقع لكان مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله؛ فإنه من أعظم الأمور خرقا للعادة من وجهين: من جهة إحياء الموتى، ومن جهة الإيمان بعد الموت. فكان نقل مثل هذا أولى من نقل غيره، فلما لم يروه أحد من الثقات علم أنه كذب". اهـ

وقال الألباني: "كثيرا ما تجمح المحبة ببعض الناس، فيتخطى الحجة ويحاربها، ومن وفق علم أن ذلك مناف للمحبة الشرعية، وممن جمحت به المحبة السيوطي ـ عفا الله عنه ـ فإنه مال إلى تصحيح حديث الإحياء الباطل عند كبار العلماء، وحاول في كتابه (اللآلىء) التوفيق بينه وبين حديث الاستئذان وما في معناه بأنه منسوخ، وهو يعلم من علم الأصول أن النسخ لا يقع في الأخبار وإنما في الأحكام! وذلك أنه لا يعقل أن يخبر الصادق المصدوق عن شخص أنه في النار ثم ينسخ ذلك بقوله: إنه في الجنة! كما هو ظاهر معروف لدى العلماء". اهـ.

ثانيا: أجوبتهم عن دعوى ضعف حديث مسلم: "إن أبي وأباك في النار":

ما ادعاه السيوطي ـ من ضعف حديث: "إن أبي وأباك في النار"، وتفرد حماد بن سلمة بلفظه ـ أجاب عنه بعض المتأخرين كالألباني وتلميذه أبي إسحاق الحويني، وقد أطال الأخير في الرد على السيوطي، وسأنقل مناقشته كاملة نظرا لأهميتها وتناولها لجميع ما أورده السيوطي:

قال أبو إسحاق الحويني: "الجواب عما ادعاه السيوطي من وجوه:

الأول: أن السيوطي ضعف حديث مسلم، وبنى تضعيفه على مقدمة، وهي: أن معمر بن راشد خالف حماد بن سلمة في لفظه، ومعمر بن راشد أوثق من حماد بن سلمة، وهذه المقارنة حيدة مكشوفة، فإن الأمر لا يخفى على أحد من المشتغلين بالحديث، ومنهم السيوطي نفسه، فإن أهل العلم بالحديث قالوا: أثبت الناس في

=

=

ثابت البناني هو حماد بن سلمة، ومهما خالفه من أحد فالقول قول حماد.
قال أبو حاتم الرازي: "حماد بن سلمة أثبت الناس في ثابت وفي علي بن زيد"، وقال أحمد بن حنبل: "حماد بن سلمة أثبت في ثابت من معمر"، وقال يحيى بن معين: "من خالف حماد بن سلمة فالقول قول حماد. قيل: فسليمان بن المغيرة عن ثابت؟ قال: سليمان ثبت، وحماد أعلم الناس بثابت"، وقال ابن معين مرة: "أثبت الناس في ثابت: حماد بن سلمة"، وقال العقيلي: "أصح الناس حديثا عن ثابت: حماد بن سلمة".
قال الحويني: وقد أكثر مسلم من التخريج لحماد بن سلمة عن ثابت في الأصول، أما معمر بن راشد فإنه وإن كان ثقة في نفسه إلا أن أهل العلم بالحديث كانوا يضعفون روايته عن ثابت البناني، ولم يخرج له مسلم شيئا في صحيحه عن ثابت إلا حديثا واحدا في المتابعات، ومقرونا بعاصم الأحول، وهذا يدلك على مدى ضعف رواية معمر عن ثابت، ولذلك قال ابن معين: "معمر عن ثابت: ضعيف"، وقال مرة: "وحديث معمر عن ثابت، وعاصم بن أبي النجود، وهشام بن عروة وهذا الضرب مضطرب كثير الأوهام"، وقال العقيلي: "أنكر الناس حديثا عن ثابت: معمر بن راشد".
قال الحويني: وبعد هذا البيان فما هي قيمة المفاضلة التي عقدها السيوطي بين الرجلين، فالصواب: رواية حماد بن سلمة، ورواية معمر بن راشد منكرة.
الوجه الثاني: قول السيوطي: إن ربيب حماد بن سلمة دس في كتبه أحاديث مناكير وانطلى أمرها على حماد لسوء حفظه. وهذه تهمة فاجرة، كما قال الشيخ المعلمي رحمه الله، ومستند كل من تكلم بهذه التهمة ما ذكره الذهبي في (ميزان الاعتدال) من طريق الدولابي قال: حدثنا محمد بن شجاع بن الثلجي، حدثني إبراهيم بن عبد الرحمن بن مهدي، قال: كان حماد بن سلمة لا يعرف بهذه الأحاديث – يعني

=

=

أحاديث الصفات – حتى خرج مرة إلى عبادان، فجاء وهو يرويها، فلا أحسب إلا شيطانا خرج إليه من البحر فألقاها إليه. قال ابن الثلجي: فسمعت عباد بن صهيب يقول: إن حمادا كان لا يحفظ، وكانوا يقولون: إنها دست في كتبه. وقد قيل: إن ابن أبي العوجاء كان ربيبه فكان يدس في كتبه، وعلق الذهبي على هذه الحكاية بقوله: "ابن الثلجي ليس بمصدق على حماد وأمثاله، وقد اتهم، نسأل الله السلامة". اهـ قال الحويني: وابن الثلجي هذا كان جهميا عدوا للسنة، وقد اتهمه ابن عدي بوضع الأحاديث وينسبها لأهل الحديث يثلبهم بذلك، فالحكاية كلها كذب، فكيف يثلب حماد بن سلمة بمثل هذا.

الوجه الثالث: قوله: "ولم يخرج له البخاري شيئا". وقد تقرر عند أهل العلم أن ترك البخاري التخريج لراو لا يعني أنه ضعيف، وقد عاب ابن حبان على البخاري أنه ترك حماد بن سلمة وخرج لمن هو أدنى منه حفظا وفضلا، فقال: "ولم ينصف من جانب حديث حماد بن سلمة، واحتج بأبي بكر بن عياش، وبابن أخي الزهري، وبعبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، فإن كان تركه إياه لما كان يخطئ، فغيره من أقرانه مثل الثوري وشعبة وذويهما كانوا يخطئون، فإن زعم أن خطأه قد كثر من تغير حفظه، فقد كان ذلك في أبي بكر بن عياش موجودا، وأنى يبلغ أبو بكر حماد بن سلمة في إتقانه، أم في جمعه؟ أم في عمله؟ أم في ضبطه". اهـ

الوجه الرابع: في ذكر الشاهد الذي احتج به السيوطي لتقوية لفظ معمر بن راشد، فهذا الحديث أخرجه البزار، وابن السني، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم، والضياء المقدسي، من طريق زيد بن أخزم، ثنا يزيد بن هارون، ثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عامر بن سعد، عن أبيه: "أن أعرابيا قال لرسول الله ﷺ: أين أبي؟ قال: في النار. قال: فأين أبوك؟ قال: حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار".

=

=

قال السيوطي: "وهذا إسناد على شرط الشيخين".

قال الحويني: وليس كما قال لما يأتي.

وذكر ابن كثير هذا الحديث في (البداية والنهاية) وقال: "غريب". وقد خولف زيد بن أخزم في إسناده؛ فخالفه محمد بن إسماعيل بن البختري الواسطي، فرواه عن يزيد بن هارون، عن إبراهيم بن سعد، عن سالم، عن أبيه. فذكره.

قال الحويني: ولا شك في تقديم رواية زيد بن أخزم لأمرين:

الأول: أنه أثبت من محمد بن إسماعيل بن البختري.

**الثاني**: أنه توبع عليه، كما في رواية البزار، والذي تابعه هو محمد بن عثمان بن مخلد، وقد سئل عنه أبو حاتم فقال: "شيخ"، وقال ابن أبي حاتم: "صدوق"، ووثقه ابن حبان، وقد ذكر البزار أن يزيد بن هارون تفرد به، وليس كما قال، فقد تابعه محمد بن أبي نعيم الواسطي، قال: ثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عامر بن سعد، عن أبيه. أخرجه الطبراني في الكبير قال: حدثنا علي بن عبد العزيز، نا محمد بن أبي نعيم. وهذه متابعة جيدة، وابن أبي نعيم وثقه أبو حاتم وابن حبان، وكذا صدقه أحمد بن سنان القطان. وكذبه ابن معين وأبعد في ذلك. وقد أعل أبو حاتم هذا الحديث بقوله: "كذا رواه يزيد وابن أبي نعيم، ولا أعلم أحدا يجاوز به الزهري غيرهما، إنما يروونه عن الزهري، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ...، والمرسل أشبه". ذكره ولده في (العلل).

قال الحويني: وقول أبي حاتم متعقب أيضا بأنه قد رواه اثنان آخران متصلا وهما: الوليد بن عطاء بن الأغر، عن إبراهيم بن سعد، به. ذكره الدارقطني في (العلل). والوليد صدوق.

**والثاني**: الفضل بن دكين، عن إبراهيم بن سعد. أخرجه البيهقي في (الدلائل)، وسنده صحيح. وقد رجح الضياء المقدسي الرواية المتصلة، على حين رجح أبو

=

=

حاتم الرواية المرسلة، وقول أبي حاتم هو الصواب، وهذه الرواية المرسلة أخرجها عبدالرزاق في (المصنف)، عن معمر بن راشد، عن الزهري قال: جاء أعرابي...، وساق الحديث. فهكذا اختلف إبراهيم بن سعد ومعمر بن راشد، ولا شك عندنا في تقديم رواية معمر المرسلة؛ لأن معمرا ثبت في الزهري، وأما إبراهيم بن سعد فقد قال صالح بن محمد الحافظ: "سماعه من الزهري ليس بذاك؛ لأنه كان صغيرا حين سمع من الزهري"، وقال ابن معين، وسئل: إبراهيم بن سعد أحب إليك في الزهري أو ليث بن سعد؟ قال: "كلاهما ثقتان". فإذا تدبرت قول يعقوب بن شيبة في الليث: "ثقة وهو دونهم في الزهري - يعني: دون مالك ومعمر وابن عيينة - وفي حديثه عن الزهري بعض الاضطراب"، علمت أن قول ابن معين لا يفيد أنه ثبت في الزهري مثل معمر.

قال الحويني: فالذي يتحرر من هذا البحث أن الرواية المرسلة هي المحفوظة، وهي التي رجحها أبو حاتم الرازي والدارقطني، فلا معنى للقول أنه على شرط الشيخين بعد ثبوت هذه المخالفة.

قال الحويني: وأما حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، في صحيح مسلم، والذي فيه: "أن الله نهى نبيه ﷺ عن الاستغفار لأمه"، فلم يتعرض له السيوطي إلا بجواب مجمل، وهذا الحديث صريح في عدم إيمانها؛ لأن الله عز وجل قال: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (١١٣)) [التوبة: ١١٣]، وقد نزلت هذه الآية في أبي طالب.

وبهذا الجواب ـ على اختصاره ـ يتبين أن الحديثين صحيحان لا مطعن فيهما، والحمد لله رب العالمين". اهـ

و الذي يظهر صوابه ـ والله تعالى أعلم ـ هو مسلك الجمع بين الآيات والأحاديث، فيحكم لأهل الفترة في الدنيا بالعذر عند الله تعالى يوم القيامة، إلا أنه من باب

=

=

العدل فإن الله يمتحنهم في دار الجزاء بنار يأمرهم باقتحامها؛ فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما، ومن أبى عذب فيها، وهذا الامتحان هو لقيام الحجة عليهم، وليظهر معلوم الله فيهم، وهم في ذاك الامتحان على فريقين: منهم من يجيب، ومنهم من لا يجيب، وما ورد من أحاديث في تعذيب أهل الفترة محمول على الذين لا يجيبون، وهذا المسلك هو الذي تجتمع به الأدلة، ويزول به التعارض بين الآيات والأحاديث، إن شاء الله تعالى.

يدل على هذا الاختيار:

١ - أن إعمال الأدلة جميعا أولى من إعمال بعضها وترك الآخر، وعند النظر في المسالك الواردة في المسألة نجد أن هذا المسلك هو الذي تنطبق عليه القاعدة، دون بقية المسالك؛ إذ المسلك الأول فيه إعمال للآيات دون الأحاديث، والثالث فيه إعمال لبعض الأحاديث دون الآيات.

٢ - أن القول بنجاتهم أو تعذيبهم مطلقا فيه إهدار للأحاديث الواردة بامتحانهم يوم القيامة، وقد تقدم أن هذه الأحاديث ـ أعني أحاديث الامتحان ـ قد رويت عن ستة من أصحاب النبي ﷺ، وهي بمجموعها تدل على أن للحديث أصلا عن النبي ﷺ.

٣ - أن سنة الله في خلقه قد مضت بأنه لا يعذب أحدا حتى تقوم عليه الحجة، والقول بتعذيبهم مطلقا مخالف لهذه السنة.

٤ - أن الآيات الواردة في أهل الفترة ليس فيها ما يدل على أنهم ناجون أو هالكون مطلقا، بل غاية ما فيها الإخبار بأن هؤلاء لم ينذروا ولم يبعث فيهم رسول، وبقي مصيرهم في الآخرة مجهولا حتى بينته السنة النبوية وأخبرت بأنهم يمتحنون يوم القيامة.

٥ - أن الأحاديث الواردة في تعذيب أهل الفترة إنما وردت بخصوص أشخاص

=

=

بعينهم، ولم يأت فيها ما يفيد تعذيب أهل الفترة مطلقا، على حين جاءت الآيات الواردة بعذرهم بصيغة العموم والإطلاق، ولم تنص على نجاة شخص بعينه، فتبقى الآيات على عمومها ويخص منها أولئك الذين أخبر النبي ﷺ بتعذيبهم، لسبب ما أوجب عذابهم، وأما الباقون من أهل الفترة فيبقى مصيرهم مجهولا حتى يظهر معلوم الله فيهم عندما يمتحنون يوم القيامة.

وأما أحاديث تعذيب أبويه ﷺ فالحق أنه لم يثبت في تعذيبهما حديث سالم من المعارضة، إن في الدلالة، وإن في الثبوت؛ فيجب التوقف فيهما، وعدم القطع لهما بجنة أو نار.

أما حديث أبيه ﷺ فقد علمت ما فيه من اختلاف الرواة في لفظه، وهذا الاختلاف موجب للتوقف فيه وعدم القطع بمضمونه.

وأما أحاديث أمه ﷺ فلم يأت منها حديث صحيح صريح بأنها من أهل النار، والثابت هو النهي عن الاستغفار لها، وهذا النهي لا يلزم منه أن تكون من أهل النار.

فإن قلت: فما معنى نهي الله تعالى لنبيه ﷺ عن الاستغفار لها؟

فجوابه: أن الله تعالى لم يأذن لنبيه ﷺ بالاستغفار لأمه لأنها ماتت في الفترة، ومصير أهل الفترة مجهول، فلا يدرى ما يصيرون إليه، وقد شاء سبحانه أن يكون مصير أمه ﷺ مخفيا عنه لحكم يريدها سبحانه، وقد يكون من هذه الحكم أن النبي ﷺ لو أذن له بالاستغفار لأمه لفهم منه جواز الاستغفار لأهل الفترة عموما، ومعلوم أن من أهل الفترة من قضى الله تعالى بأنهم لا يجيبون، ولا يجوز الاستغفار لمن قضى الله تعالى بأنهم لا يجيبون، لأن حكم هؤلاء هو حكم أهل الكفر والشرك، والذين منع الله من الاستغفار لهم.

"كما أن الاستغفار فرع تصوير الذنب، وذلك في أوان التكليف، ولا يعقل ذلك

=

فيمن لم تبلغه الدعوة، فلا حاجة إلى الاستغفار لهم، فيمكن أنه ما شرع الاستغفار إلا لأهل الدعوة، لا لغيرهم، وإن كانوا ناجين". "ويمكن أن يقال: إن أهل الجاهلية يعاملون معاملة الكفرة في الدنيا فلا يدعى لهم ولا يستغفر لهم؛ لأنهم يعملون أعمال الكفرة فيعاملون معاملتهم، وأمرهم إلى الله في الآخرة".

فإن قلت: فما معنى بكائه ﷺ عند قبرها؟

فجوابه: أن بكاءه ﷺ عند قبرها لا يلزم منه كونها تعذب، أو أنها ماتت على الكفر؛ والظاهر أن بكاءه إنما هو لعدم علمه ﷺ بمصيرها، ولشفقته عليها، لا لأنها تعذب.

فإن قلت: هذا التعليل يعارضه ما روي أن النبي ﷺ لما استأذن ربه في الاستغفار لأمه نزل قوله تعالى: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (١١٣)) [التوبة: ١١٣]، وهذا الحديث يفيد بأن العلة من النهي عن الاستغفار كونها ماتت على الشرك.

والجواب: أن هذا السبب المذكور في نزول الآية لا يصح، والثابت أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، وقد تقدم.

فإن قلت: فما جوابك عن الإجماع الذي حكاه القرافي في تعذيب أهل الفترة عموما، وما حكاه الملا علي القاري من تعذيب الأبوين خصوصا؟

والجواب: أن دعوى الإجماع على تعذيب أهل الفترة عموما معارض بما ورد في القرآن الكريم من عذرهم بالفترة، وهي نصوص قطعية لا تحتمل التأويل، ومعارض بما جاء في السنة النبوية من أن أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة، ودعوى الإجماع لا بد وأن يكون لها مستند من كتاب أو سنة، وأن لا تخالف شيئا من النصوص، وغالبا ما يحكى الإجماع ولا تجد له أصلا، أو يكون أصله مختلف في حجيته، وتحقق ثبوت الإجماع عزيز قل أن يثبت.

=

وأما دعوى الملا علي بن سلطان القاري ـ الإجماع على أن الأبوين ماتا على الكفر ـ فهي دعوى عارية عن الصحة، فكيف يحكى الإجماع في زمن متأخر جدا، فوفاته كانت سنة (١٠١٤ هـ)، ولا أعلم أحدا ادعى الإجماع قبله، على أن دعوى الإجماع تحتاج إلى تحقيق كما قلت سابقا، فليس كل ما يحكى فيه الإجماع يجب التسليم له.

والمتأمل في كتابات الملا علي القاري حول حكم الأبوين يجد عنده تناقضا وترددا في مصيرهما، فهو في كتابه "أدلة معتقد أبي حنيفة" يذكر لنا أنهما ماتا على الكفر، ومصيرهما إلى النار، على حين نراه في كتابه "شرح الشفا، للقاضي عياض" يقول: "وأما إسلام أبويه ففيه أقوال: والأصح إسلامهما، على ما اتفق عليه الأجلة من الأئمة، كما بينه السيوطي في رسائله الثلاث المؤلفة". اهـ

وقال في الكتاب نفسه: "وأما ما ذكروه من إحيائه عليه الصلاة والسلام أبويه فالأصح أنه وقع، على ما عليه الجمهور الثقات، كما قال السيوطي في رسائله الثلاث المؤلفة". اهـ وفي كتابه "مرقاة المفاتيح" يذكر لنا أن مذهب الجمهور على أن والديه ﷺ ماتا على الكفر.

وهذا التناقض من القاري يوجب التوقف في دعواه الإجماع، إذ لو كان ثمة إجماع لما تردد في مصيرهما.

وعلى التسليم بثبوت الإجماع فهو محمول على أن حكمهما في الدنيا حكم من مات على الشرك، من عدم جواز الاستغفار لهما ونحو ذلك، ولا يجوز حمله على القطع بأنهما من أهل النار، لما علمت من أن هذا القطع لم يثبت به دليل صحيح صريح حتى يصار إليه.

فإن قلت: فهذا ورقة بن نوفل مات في الفترة وقد أثنى عليه النبي ﷺ، فلو كان أهل الفترة يجب التوقف فيهم لما أثنى عليه النبي ﷺ ؟

=

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦).

{وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُتْرَفِيهَا} مُنَعَّمِيهَا بِمَعْنَى رُؤَسَائِهَا بِالطَّاعَةِ عَلَى لِسَانِ رُسُلِنَا {فَفَسَقُوا فِيهَا} فَخَرَجُوا عَنْ أَمْرِنَا {فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْل}

=

والجواب: أن أهل الفترة كما ذكر محمد بن خليفة الأبي على أقسام:
قسم عندهم بقية إنذار من الأمم السابقة، كمن سافر أو سمع شيئا عن الأديان السابقة، وهؤلاء قد بلغتهم الدعوة وقامت عليهم الحجة، وليسوا بأهل فترة؛ لأن أهل الفترة هم الغافلون، كما سيأتي.
وأصحاب هذا القسم منهم من التزم بالدين الذي سمع به فتحققت له النجاة، كورقة بن نوفل، ومنهم من رفض أو غير وبدل فاستحق الهلاك؛ كابن جدعان، وعمرو بن لحي.
وأما القسم الثاني من أهل الفترة: فهم الغافلون، الذين لم يسمعوا بشيء من تلك الأديان، ولم يبعث فيهم رسول ينذرهم ويحذرهم، وهؤلاء معذورون بجهلهم وغفلتهم، وقد نص تعالى على عذرهم بسبب غفلتهم حيث قال: (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ) [يس: ٦]، وأبان في آية أخرى أن الغفلة موجبة لرفع العذاب في الدنيا فقال: (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون (١٣١)) [الأنعام: ١٣١]، فإذا كان تعالى لا يهلكهم في الدنيا إلا بعد الإنذار والإعذار، فمن باب أولى أن لا يعذبهم في الآخرة إلا بعد إنذارهم، والله تعالى أعلم. انظر كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

بِالْعَذَابِ {فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} أَهْلَكْنَاهَا بِإِهْلَاكِ أهلها وتخريبها(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا} [الإسراء: ١٦]، أي:" وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعمِّين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا".

**قال الطبري**: {فَفَسَقُوا فِيهَا}، أي:" فخالفوا أمر الله فيها، وخرجوا عن طاعته".

عن مجاهد:" {أمرنا مترفيها}، قال: بعثنا".

عن ابن عباس، قوله:" {أمرنا مترفيها}، يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا} ".

وفي قوله تعالى: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} [الإسراء: ١٦]، وجوه من القراءات:

القراءة: الأولى: «أمرنا» مخففة، على وزن «فعلنا»، قرأ بها الأعمش، ورواه الفراء عن حميد الأعرج عن مجاهد، وهي قراءة الاكثرين.

وفيها ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار، تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا، هذا مذهب ابن عباس، وسعيد بن جبير.

قال الفراء:" أي: إن المترف إذا أمر بالطاعة خالف إلى الفسوق".

قال الزجاج:" فأما من قرأ بالتخفيف فهو من الأمر، المعنى: أمرناهم بالطاعة ففسقوا".

عن ابن عباس:" {أمرنا مترفيها}، قال: بطاعة الله، فعصوا".

قال سعيد بن جبير:" أمرنا بالطاعة فعصوا".

قال الزجاج: "ومثل قوله: {أمرنا مترفيها ففسقوا فيها} من الكلام: أمرتك فعصيتني، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر، وكذلك الفسق مخالفة أمر الله جل =

=

ثناؤه".

**والثاني**: كثرنا، يقال: أمرت الشيء وآمرته، أي: كثرته، ومنه الحديث: «مهرة مأمورة»، أي: كثيرة النتاج، يقال: أمر بنو فلان يأمرون أمرا: إذا كثروا، هذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة، وذكره الزجاج.

عن الحسن، في قوله:" {أمرنا مترفيها} قال: أكثرناهم". وروي عن قتادة مثله.

وروي عن ابن عباس، قوله:" {وإذا أردنا أن نهلك قرية آمرنا مترفيها ففسقوا فيها}، يقول: أكثرنا عددهم".

روي عن عكرمة قوله:" {آمرنا مترفيها}، قال: أكثرناهم".

وقال الضحاك:" أكثرنا مترفيها: أى كبراءها".

وعن قتادة، قال:" يقول: أكثرنا مترفيها: أى جبابرتها، ففسقوا فيها وعملوا بمعصية الله {فدمرناها تدميرا}، وكان يقال: إذا أراد الله بقوم صلاحا، بعث عليهم مصلحا، وإذا أراد بهم فسادا بعث عليهم مفسدا، وإذا أراد أن يهلكها أكثر مترفيها".

قال ابن زيد:" ذكر بعض أهل العلم أن «أمرنا»: أكثرنا. قال: والعرب تقول للشيء الكثير أمر لكثرته".

**قال الطبري**:" فأما إذا وصف القوم بأنهم كثروا، فإنه يقال: أمر بنو فلان، وأمر القوم يأمرون أمرا، وذلك إذا كثروا وعظم أمرهم، كما قال لبيد:

**إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا يوما يصيروا للقل والنقد**

و «الأمر»: المصدر، والاسم «الإمر»، كما قال الله جل ثناؤه {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [الكهف: ٧١]، قال: عظيما، وحكي في مثل شر إمر: أي: كثير".

**والثالث**: أن معنى «أمرنا»: أمرنا، يقال: أمرت الرجل، بمعنى: أمرته، والمعنى: سلطنا مترفيها بالإمارة، ذكره ابن الأنباري.

=

=

القراءة الثانية: «آمرنا» ممدودة، مثل «آمنا»، وروى خارجة عن نافع، وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وأبي رزين، والحسن، والضحاك، ويعقوب.

عن الحسن البصري:" أنه قرأ ذلك «آمرنا»، بمد الألف من أمرنا، بمعنى: أكثرنا فسقتها".

قال الفراء:" معنى: «آمرنا»، بالمد: أكثرنا ".

قال ابن قتيبة: " وقرأ أقوام: «آمرنا» بالمد، وهي اللغة العالية المشهورة. أي كثرنا".

**قال الطبري:**" وجه تأويل هذا الحرف إلى هذا التأويل جماعة من أهل التأويل، إلا أن الذين حدثونا لم يميزوا لنا اختلاف القراءات في ذلك، وكيف قرأ ذلك المتأولون، إلا القليل منهم".

القراءة الثالثة: «أمرنا» مشددة الميم، رواه ابن مجاهد وابو العباس ختن ليث عن أبي عمرو، وهي رواية أبان عن عاصم، وهي قراءة أبي العالية، والنخعي، والجحدري، وأبي عثمان النهدي.

عن أبي العالية، قال: " «أمرنا» مثقلة: جعلنا عليها مترفيها: مستكبريها".

قال ابن قتيبة: " ومن قرأ: «أمرنا»، فهو من «الإمارة»، أي: جعلناهم أمراء".

قال الزجاج:" ومن قرأ: «أمّرنا» بالتشديد، فمعناه: سلطنا مترفيها، أي: جعلنا لهم إمرة وسلطانا".

قال الفراء:" وقرأ أبو العالية الرياحي «أمرنا مترفيها» وهو موافق لتفسير ابن عباس، وذلك أنه قال: سلطنا رؤساءها ففسقوا فيها".

وروي عن الربيع بن أنس:" أنه قرأها: «أمرنا» وقال: سلطنا".

القراءة الرابعة: «أمرنا» بفتح الهمزة مكسورة الميم مخففة، قرأ بها أبو المتوكل،

=

=

وأبو الجوزاء، وابن يعمر.

القراءة الخامسة:: «بعثنا فيها أكابر مجرميها»، وهي قراءة ابي بن كعب.

قوله تعالى: {فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ} [الإسراء: ١٦]، أي:" فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان".

**قال الطبري:**" يقول: فوجب عليهم بمعصيتهم الله وفسوقهم فيها، وعيد الله الذي أوعد من كفر به، وخالف رسله، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج".

قال ابن عباس: "يريد استوجبت العذاب".

قوله تعالى: {فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: ١٦]، أي:" فأهلكناهم إهلاكًا مُريعًا".

**قال الطبري:**" يقول: فخربناها عند ذلك تخريبا، وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا، كما قال الفرزدق:

**وكان لهم كبكر ثمود لما ... رغا ظهرا فدمرهم دمارا**

والبيت من قصيدة ناقض بها الفرزدق قصيدة جرير التي مطلعها:

**ألا حي الديار بسعد إني ... أحب لحب فاطمة الذيارا**

والضمير في قوله:"وكان لهم كبكر ثمود" راجع إلى جرير المذكور في البيت قبله وهو:

**جر المخزيات على كليب ... جرير ثم ما منع الدمارا**

وبكر ثمود: ولد ناقة صالح. ورغا: صوت. والرغاء: صوت ذوات الخف".

عن الزهري، قال: دخل رسول الله ﷺ يوما على زينب وهو يقول: "لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق

=

=

بين إبهامه والتي تليها، قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث".

* الآية بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة. وأنه إنما كان للتمرد على الرسل والتنكب عن منهجهم.

والمعنى: إذا أردنا أن نعذب قوما عذاب استئصال أمرنا مترفيها

يعني متنعميها، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم ففسقوا فيها

بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته فحق عليها القول

فوجب عليها، بمعصيتهم وفسقهم وطغيانهم، وعيد الله الذي أوعد من كفر به وخالف رسله، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج. فدمرناها تدميرا

أي فخربناها تخريبا لا يكتنه كنهه ولا يوصف. وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا هائلا. كما جرى لبيت المقدس، لما انحرف اليهود عن شرعتهم، على ما قدمنا بيانه، وإنما خص المترفين، وهم الجبارون والملوك والرؤساء، بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل، لأنهم الأصل في الخطاب والباقي تبع لهم. ولأن توجه الأمر إليهم آكد. وإنما حذف مفعول أمرنا

لظهور أن المراد به الحق والخير. لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدي إليه. وفي إيثار (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم، وطمس أثرهم، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدو. ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقال: تدميرا

أي كليا بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع.

قال القاشاني: إن لكل شيء في الدنيا زوالا. وزواله بحصول استعداد يقتضي ذلك. وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال، وحصول انحراف يبعده عن بقائه وثباته،

=

=

فكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيها من الجادة المستقيمة التي هي صراط الله وهي الشريعة الحافظة للنظام. فإذا جاء وقت إهلاك قرية، فلا بد من استحقاقها للإهلاك. وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله. فلما تعلقت إرادته بإهلاكها، تقدمه أولا بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعم بطرا وأشرا بنعمة الله، واستعمالا لها فيما لا ينبغي. وذلك بأمر من الله وقدر منه، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم. وحينئذ وجب إهلاكهم.

(تنبيه): الأمر في هذه الآية فيه أقوال للعلماء مشهورة، وملخصها: أن الأمر فيها إما أن يكون أمرا شرعيا وهو موجه للمترفين، لكنه أمر بالطاعة، فأبوها، وإما أن يكون من الأمر الكوني لله تعالى، كما هو الحال في القضاء الكوني في قوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا) الإسراء/ ٤، والقول الثالث: أنه " أمرنا " بمعنى أكثرنا، وليس ثمة عاقل يقول إن الأمر في الآية هو الأمر الشرعي للمترفين بالفسق ؛ يعني: أن الله شرع الفسق، وجعله دينا لهم، جل الله عما يقول الجاهلون، وتقدس وتنزه ؛ كما قال تعالى عن نفسه (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) الأعراف/ ٢٨.

قال ابن القيم في " شفاء العليل " ص ٢٨١: وقوله تعالى: {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها} فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه.

وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى أمرناهم بالطاعة، فخالفونا وفسقوا، والقول الأول أرجح لوجوه.

**أحدها**: أن الإضمار على خلاف الأصل فلا يصار إليه إلَّا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

=

=

**الثاني**: أن ذلك يستلزم إضمارين أحدهما: أمرناهم بطاعتنا، الثاني، فخالفونا أو عصونا ونحو ذلك.

**الثالث**: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه كقولك أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب لا يفهم المخاطب غير هذا.

**الرابع**: أنه سبحانه جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور، ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب النجاة والفوز.

فإن قيل: أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك. قيل: هذا لا يبطل بالوجه.

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم، فلا يصح تخصيصُ الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين، لقال من عداهم: نحن لم يُرسل إلينا.

السابع: أن إرادة الله سبحانه لأهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم، وعدم بلوغ الرسالة إليهم، قال تعالى: {وما كان الله ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون} فإذا أرسل الرسل، فكذبوهم أراد أهلاكها، فأمر رؤساءهم ومترفيها أمراً كونيـاً قدريـاً لا شرعيـاً دينيـاً بالفسق في القرية فاجتمع أهلها على تكذيبهم وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله بالإهلاك ا.هـ

قال السعدي: يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر مترفيها أمرا قدريا ففسقوا فيها واشتد طغيانهم، {فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ} أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها {فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} ا.هـ

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله -: قوله تعالى: (وإذا أردنا أن

=

=

نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا).
في معنى قوله (أمرنا مترفيها) في هذه الآية الكريمة ثلاثة مذاهب معروفة عند علماء التفسير:
الأول: وهو الصواب الذي يشهد له القرآن، وعليه جمهور العلماء أن الأمر في قوله (أمرنا) هو الأمر الذي هو ضد النهي، وأن متعلق الأمر محذوف لظهوره. والمعنى: (أمرنا مترفيها) بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله وأتباعهم فيما جاؤوا به (ففسقوا) أي: خرجوا عن طاعة أمر ربهم، وعصوه وكذبوا رسله.
(فحق عليها القول) أي: وجب عليها الوعيد (فدمرناها تدميرا) أي: أهلكناها إهلاكا مستأصلا، وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم.
وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة، كقوله: (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء...).
فتصريحه جل وعلا بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل واضح على أن قوله (أمرنا مترفيها ففسقوا) أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا ؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء.
ومن الآيات الدالة على هذا: قوله تعالى: (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين).
فقوله في هذه الآية (وما أرسلنا فى قرية من نذير...) الآية: لفظ عام، في جميع المترفين، من جميع القرى، أن الرسل أمرتهم بطاعة الله فقالوا لهم: (إنا بما أرسلتم به كافرون)، وتبجحوا بأموالهم وأولادهم، والآيات بمثل ذلك كثيرة...
وهذا القول الصحيح في الآية جار على الأسلوب العربي المألوف، من قولهم: " أمرته فعصاني "، أي: أمرته بالطاعة فعصى، وليس المعنى: أمرته بالعصيان، كما

=

=

لا يخفى.

القول الثاني في الآية هو: أن الأمر في قوله (أمرنا مترفيها) أمر كوني قدري، أي: قدرنا عليهم ذلك، وسخرناهم له ؛ لأن كلا ميسر لما خلق له، والأمر الكوني القدري كقوله (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر)، وقوله: (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين)، وقوله (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا)، وقوله (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون).

القول الثالث في الآية: أن (أمرنا) بمعنى: أكثرنا، أي: أكثرنا مترفيها، ففسقوا.

وقال أبو عبيدة: (أمرنا) بمعنى: أكثرنا، لغة فصيحة، كآمرنا، بالمد.

وقد علمت أن التحقيق الذي دل عليه القرآن: أن معنى الآية: أمرنا مترفيها بالطاعة فعصوا أمرنا، فوجب عليهم الوعيد، فأهلكناهم، كما تقدم إيضاحه.

تنبيه:

في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن الله أسند الفسق فيها لخصوص المترفين دون غيرهم في قوله (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) مع أنه ذكر عموم الهلاك للجميع، المترفين وغيرهم، في قوله (فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) يعني: القرية، ولم يستثن منها غير المترفين ؟. والجواب من وجهين:

الأول: أن غير المترفين تبع لهم، وإنما خص بالذكر المترفين الذين هم سادتهم وكبراؤهم لأن غيرهم تبع لهم، كما قال تعالى: (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا)، وكقوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب)، وقوله: (حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا)، وقوله تعالى: (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء)، وقوله: (وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم

=

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧).

{وَكَمْ} أَيْ كَثِيرًا {أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُون} الْأُمَم {من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خَبِيرًا بَصِيرًا} عَالِمًا بِبَوَاطِنِهَا وَظَوَاهِرهَا وَبِهِ يَتَعَلَّق بذنوب[1].

=

تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) إلى غير ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن بعضهم إن عصى الله، وبغى، وطغى، ولم ينههم الآخرون: فإن الهلاك يعم الجميع، كما قال تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)، وفي الصحيح من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها: أنها لما سمعت النبي ﷺ يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت له: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: (نعم، إذا كثر الخبث) " أضواء البيان " (٣ / ٧٥ - ٧٩) باختصار.

(١) قوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ} [الإسراء: ١٧]، أي:" وكثيرا أهلكنا من الأمم المكذبة رسلها مِن بعد نبي الله نوح".

**قال الطبري:**" وهذا وعيد من الله تعالى ذكره مكذبي رسوله محمد ﷺ من مشركي قريش، وتهديدهم لهم بالعقاب، وإعلام منه لهم، أنهم إن لم ينتهوا عما هم عليه مقيمون من تكذيبهم رسوله ﷺ أنه محل بهم سخطه، ومنزل بهم من عقابه ما أنزل بمن قبلهم من الأمم الذين سلكوا في الكفر بالله، وتكذيب رسله سبيلهم، يقول الله تعالى ذكره: وقد أهلكنا أيها القوم من قبلكم من بعد نوح إلى زمانكم قرونا كثيرة كانوا من جحود آيات الله والكفر به، وتكذيب رسله، على مثل الذي أنتم عليه، ولستم بأكرم على الله تعالى منهم، لأنه لا مناسبة بين أحد وبين الله جل ثناؤه، فيعذب قوما بما لا يعذب به آخرين، أو يعفو عن ذنوب ناس

=

=

فيعاقب عليها آخرين؛ يقول جل ثناؤه: فأنيبوا إلى طاعة الله ربكم، فقد بعثنا إليكم رسولا ينبهكم على حججنا عليكم، ويوقظكم من غفلتكم، ولم نكن لنعذب قوما حتى نبعث إليهم رسولا منبها لهم على حجج الله، وأنتم على فسوقكم مقيمون".

واختلف في مدة «القرن»، على أقوال:

**أحدها**: أن القرن: عشرون ومئة سنة. قاله أبو محمد بن عبد الله بن أبي أوفى.

وقال أبو محمد:" بعث رسول الله ﷺ في أول قرن كان، وآخرهم يزيد بن معاوية".

**الثاني**: أن القرن: مئة سنة.

عن محمد بن القاسم، عن عبد الله بن بسر المازني، قال: "وضع النبي ﷺ يده على رأسه وقال: «سيعيش هذا الغلام قرنا» قلت: كم القرن؟ قال: «مئة سنة» ".

قال محمد بن القاسم:" ما زلنا نعد له حتى تمت مئة سنة ثم مات، قال أبو الصلت: أخبرني سلامة أن محمد بن القاسم هذا كان ختن عبد الله بن بسر".

**الثالث**: ما رواه ابن سيرين، عن رسول الله ﷺ، قال: "القرن أربعون سنة".

قوله تعالى: {وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء: ١٧]، أي:" وكفى بربك -أيها الرسول- أنه عالم بجميع أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية".

قال ابن كثير:" أي: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى".

**قال الطبري**:" وكفى بربك يا محمد بذنوب عباده خبيرا: يقول: وحسبك يا محمد بالله خابرا بذنوب خلقه عالما، فإنه لا يخفى عليه شيء من أفعال مشركي قومك هؤلاء، ولا أفعال غيرهم من خلقه، وهو بجميع ذلك عالم خابر بصير، يقول: يبصر ذلك كله فلا يغيب عنه منه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر".

=

=

* قوله (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) أي وكثيرا ما أهلكنا من الأمم الكافرة من بعد زمن نوح، كعاد وثمود وفرعون. ممن قصت أنباؤهم في القرآن العظيم ومن لم تقص. والقرون جمع قرن يطلق على الزمن المعين وعلى أهله المقترنين فيه، وعلى كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد. وخص نوح ولم يقل (من بعد آدم) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب. ففيه تهديد وإنذار للمشركين.

قال ابن كثير: يقول تعالى منذرا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدا ﷺ بأنه قد أهلك أمما من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام.

ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى ا.هـ

(وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أي لا يخفى عليه شيء منها. فيدرك سرها وعلنها وسيجازي عليها.

والآية تدل- كما قال الزمخشري: على أن الذنوب هي أسباب الهلكة، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علما أتم، دل على أنه جازاهم بها.

وختم الآية بقوله (خَبِيرًا بَصِيرًا} فلا يخافوا منه ظلما وأنه يعاقبهم على ما عملوه، لا على أعمال غيرهم.

والآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول ﷺ فهي- أيضا- تهديد للمشركين، وإنذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم، ومعاداتهم للحق، وتطاولهم على من جاء به وهو الرسول ﷺ فسيكونون محلا لغضب الله- تعالى- وسخطه، ولنزول عذابه الذي أهلك به أمثالهم في الشرك والكفر والجحود.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨).

{مَنْ كَانَ يُرِيد} بِعَمَلِهِ {الْعَاجِلَة} أَيْ الدُّنْيَا {عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد} بالتعجيل لَهُ بَدَل مِنْ لَهُ بِإِعَادَةِ الْجَارّ {ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ} فِي الْآخِرَة {جَهَنَّم يَصْلَاهَا} يَدْخُلهَا {مَذْمُومًا} مَلُومًا {مَدْحُورًا} مَطْرُودًا عَنْ الرَّحْمَة.

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩).

{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَة وَسَعَى لَهَا سَعْيهَا} عَمِلَ عملها اللائق بها {وهو مؤمن} حال {فأولئك كان سعيهم مَشْكُورًا} عِنْد الله أَيْ مَقْبُولًا مُثَابًا عَلَيْهِ.

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠).

{كُلًّا} مِنْ الْفَرِيقَيْنِ {نُمِدّ} نُعْطِي {هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ} بَدَل {مِنْ} مُتَعَلِّق بِنُمِدّ {عَطَاء رَبّك} فِي الدُّنْيَا {وَمَا كَانَ عَطَاء رَبّك} فِيهَا {مَحْظُورًا} مَمْنُوعًا عَنْ أَحَد.

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

{أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضهمْ عَلَى بَعْض} فِي الرِّزْق وَالْجَاه {وَلَلْآخِرَة أَكْبَر} أَعْظَم {دَرَجَات وَأَكْبَر تَفْضِيلًا} مِنْ الدُّنْيَا فَيَنْبَغِي الِاعْتِنَاء بِهَا دُونهَا.

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢).

{لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا} لا ناصر لك[1].

---

(١) قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ} [الإسراء: ١٨].

=

=

قال قتادة:" يقول: من كانت الدنيا همه وسدمه وطلبته ونيته".

قال ابن زيد:" العاجلة: الدنيا".

قال الزجاج:" أي: من كان يريد العاجلة بعمله، أي: الدنيا".

قال يحيى بن سلام:" هذا المشرك الذي لا يريد إلا الدنيا، لا يؤمن بالآخرة".

قوله تعالى: {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ} [الإسراء: ١٨]، أي:" عجَّل الله له فيها ما يشاؤه الله ويريده مما كتبه له في اللوح المحفوظ،".

قال الزجاج:" عجل الله لمن أراد أن يعجل له مايشاء الله، أي: ليس مايشاء هو، و {ما يشاء}، بمعنى: ما نشاء، ويجوز أن يكون المُضْمَرُ في نشاء " مِنْ "، المعنى عجلنا للعبد ما يشتهيه، إذا أراد الله ذلك".

قال قتادة:" عجل الله له فيها ما يشاء".

روي عن أبي إسحاق الفزاري، يقول:" {عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد}، قال: لمن نريد هلكته".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات ".

قال السعدي:" يعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده مما كتب الله له في اللوح المحفوظ ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له".

قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ} [الإسراء: ١٨]، أي:" ثم يجعل الله له في الآخرة جهنم".

قال قتادة:" ثم اضطره إلى جهنم".

قال الزجاج:" لأنه لم يرد اللهَ بعمله".

قوله تعالى: {يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء: ١٨]، أي:" يدخلها ملومًا مطرودًا من رحمته ﷻ".

=

=

قال قتادة:" {مذموما} في نعمة الله، {مدحورا} في نقمة الله".
قال الضحاك:" مذموما في نقمة الله مدحورا عذاب الله".
عن ابن عباس:" قوله ": {مذموما}، يقول: ملوما".
قال يحيى بن سلام:" {مذموما}: في نقمة الله. {مدحورا}: مطرودا، مباعدا عن الجنة، في النار".
قال السعدي:" أي: يباشر عذابها في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله فيجمع له بين العذاب والفضيحة".
* قوله (مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا) المراد بالعاجلة: دار الدنيا، وهي صفة لموصوف محذوف أى: الدار العاجلة التي ينتهى كل شيء فيها بسرعة وعجلة.
أى: من كان يريد بقوله وعمله وسعيه، زينة الدار العاجلة وشهواتها فحسب، دون التفات إلى ثواب الدار الآخرة، عَجَّلْنا لَهُ فِيها أى: عجلنا لذلك الإنسان في هذه الدنيا، ما نَشاءُ تعجيله له من زينتها ومتعها.
وهذا العطاء العاجل المقيد بمشيئتنا ليس لكل الناس، وإنما هو لِمَنْ نُرِيدُ عطاءه منهم، بمقتضى حكمتنا وإرادتنا.
فأنت ترى أنه- سبحانه- قد قيد العطاء لمن يريد العاجلة بمشيئته وإرادته.
قال الزمخشري: «من كانت العاجلة همه، ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد. فقيد الأمر تقييدين: أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل له بإرادته.
وهكذا الحال، ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموا فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار مراده، وهو غنى الآخرة فما يبالى أوتى حظا من الدنيا أو لم يؤت. فإن أوتى بها شكر، وإن لم يؤت صبر، فربما كان الفقر خيرا

=

=

له، وأعون على مراده.

وقوله لِمَنْ نُرِيدُ بدل من لَهُ وهو بدل البعض من الكل، لأن الضمير يرجع إلى من وهو في معنى الكثرة ومفعول نريد محذوف. أى: لمن نريد عطاءه.

وقوله: ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً بيان لسوء مصير هذا المريد للعاجلة في الآخرة.

ويَصْلاها أى: يلقى فيها ويذوق حرها وسعيرها: يقال: صليت الشاة: شويتها.

وصلى فلان بالنار- من باب تعب- إذا وجد حرها.

ومَذْمُوماً من الذم الذي هو ضد المدح.

ومَدْحُوراً من الدحور بمعنى الطرد واللعن. يقال: دحره دحرا ودحورا، إذا طرده وأبعده.

أى: من كان يريد بسعيه الدنيا وزينتها أعطيناه منها ما نشاء إعطاءه له، أما في الآخرة فقد جعلنا له جهنم يدخلها، ويصلى حرها ولهيبها، حالة كونه «مذموما» أى مبغوضا بسبب سوء صنيعه، «مدحورا» أى: مطرودا ومبعدا من رحمة الله- تعالى-.

قال الرازي ما ملخصه: وفي لفظ هذه الآية فوائد: منها: أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم، بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة فقوله: ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها إشارة إلى المضرة العظيمة. وقوله مَذْمُوماً إشارة إلى الإهانة والذم. وقوله مَدْحُوراً إشارة إلى البعد والطرد عن رحمة الله- تعالى-.

وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة، وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص...

قوله تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ} [الإسراء: ١٩]، أي:" ومَن قصد بعمله الصالح

=

=

ثواب الدار الآخرة الباقية".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: من أراد الآخرة وإياها طلب".

قال ابن كثير:" أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ".

قوله تعالى: {وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [الإسراء: ١٩]، أي:" وسعى لها بطاعة الله تعالى، وهو مؤمن بالله وثوابه وعظيم جزائه".

**قال الطبري:**" ولها عمل عملها، الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه.. [وهو] مصدق بثواب الله، وعظم جزائه على سعيه لها، غير مكذب به تكذيب من أراد العاجلة".

قال ابن كثير:" أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: وقلبه مؤمن، أي: مصدق بالثواب والجزاء ".

قال زيد بن أسلم:" السعي: العمل، إن الله يقول: {إن سعيكم لشتى}، وقال: {من أراد الآخرة وسعى لها سعيها} ".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: ١٩]، أي:" فأولئك كان عملهم مقبولا مُدَّخرًا لهم عند ربهم، وسيثابون عليه".

**قال الطبري:**" يعني: فمن فعل ذلك {كان سعيهم} يعني عملهم بطاعة الله {مشكورا} وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حسن جزائه لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سيئها برحمته".

قال قتادة:" شكر الله لهم حسناتهم، وتجاوز عن سيئاتهم".

قال الضحاك:" شكر الله له اليسير، وتجاوز عنه الكثير".

وقوله- سبحانه-: وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً بيان لحسن عاقبة المؤمنين الصادقين بعد بيان سوء عاقبة المؤثرين لمتع الدنيا وشهواتها.

=

=

أى: ومن أراد بقوله وعمله ثواب الدار الآخرة، وما فيها من عطاء غير مقطوع، وسعى لهذه الدار سعيها الذي يوصله إلى مرضاة الله- تعالى- حالة كونه مؤمنا بالله- تعالى- وبكل ما يجب الإيمان به، فَأُولئِكَ الذي فعلوا ذلك، كانَ سَعْيُهُمْ للدار الآخرة سعيا مَشْكُوراً: من الله- تعالى-، حيث يقبله- سبحانه- منهم، ويكافئهم عليه بما يستحقون من ثواب لا يعلم مقداره إلا هو- سبحانه- وعبر- ﷻ بالسعي عن أعمالهم الصالحة، للإشعار بجدهم وحرصهم على أداء ما يرضيه- تعالى- بدون إبطاء أو تأخير، إذ السعي يطلق على المشي الذي تصاحبه السرعة. وأشار- سبحانه- إليهم بأولئك، للإشعار بعلو درجاتهم وسمو مراتبهم.

قال بعض العلماء ما ملخصه: وفي الآية الدليل الواضح على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله- تعالى- لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة.

ولذا قال- سبحانه-: وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...

وقد أوضح- سبحانه- هذا في آيات كثيرة، منها قوله- تعالى-: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً....

ومفهوم هذه الآية وأمثالها، أن غير المؤمن إذا قدم عملا صالحا في الدنيا لا ينفعه في الآخرة لفقد شرط الإيمان، قال- تعالى-: وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها».

قوله تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ} [الإسراء: ٢٠]، أي:" كل فريق من العاملين للدنيا الفانية، والعاملين للآخرة الباقية نزيده مِن رزقنا، فنرزق

=

=

المؤمنين والكافرين في الدنيا".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: يمد ربك يا محمد كلا الفريقين من مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعا من رزقه إلى بلوغهما الأمد، واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادر، ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مصدرهم، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة مآبهم".

قال ابن كثير:" أي: كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه {مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ} أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلا ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد".

قال الحسن:" كلّا نعطي من الدنيا، البر والفاجر".

قال ابن عباس:" فيرزق من أراد الدنيا، ويرزق من أراد الآخرة".

قال قتادة:"إن الله ﷻ قسم الدنيا بين البر والفاجر، والآخرة خصوصا عند ربك للمتقين".

عن ابن زيد:" {كلا نمد هؤلاء وهؤلاء}، أهل الدنيا وأهل الآخرة".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء: ٢٠]، أي:" وما كان عطاء ربك ممنوعا من أحد مؤمنًا كان أم كافرًا".

قال الحسن وابن جريج و ابن زيد:" ممنوعا".

قال قتادة:" أي: منقوصا".

قال ابن زيد:" من بر ولا فاجر، قال: والمحظور: الممنوع".

**قال الطبري:**" يقول: وما كان عطاء ربك الذي يؤتيه من يشاء من خلقه في الدنيا ممنوعا عمن بسطه عليه لا يقدر أحد من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه".

=

=

قال ابن كثير:" أي: ممنوعا، أي: لا يمنعه أحد ولا يرده راد ".

ثم ساق- سبحانه- بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته، وسعة عطائه فقال: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ولفظ «كلا» هنا مفعول به للفعل نمد، والتنوين عوض عن المضاف إليه. أى: نمد كل واحد من الفريقين.

وقوله نُمِدُّ من الإمداد بمعنى الزيادة. يقال: أمد القائد الجيش بالجند، إذا زاده وقواه.

والمراد باسم الإشارة الأول «هؤلاء»: المؤثرون للعاجلة، والمراد بالثاني الراغبون في ثواب الآخرة.

والمعنى: كلا من الفريقين نمده من فضلنا وإحساننا فنعطى ما نريد إعطاءه لمن يريد العاجلة ولمن يريد الآجلة دون أن ينقص مما عندنا شيء، ودون أن يخرج عن مشيئتنا شيء.

وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ أيها الرسول الكريم مَحْظُوراً أى: ممنوعا لا عن المؤمن ولا عن الكافر، ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

من الحظر بمعنى المنع يقال: حظره يحظره- من باب قتل- فهو محظور، أى: ممنوع.

قوله تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [الإسراء: ٢١]، أي:" تأمل - أيها الرسول- في كيفية تفضيل الله بعض الناس على بعض في الدنيا في الرزق والعمل".

قال قتادة:" أي: في الدنيا".

قال السعدي: أي:" في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر والعلم والجهل والعقل والسفه وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على

=

=

بعض بها".

قوله تعالى: {وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٢١]، أي:" ولَلآخرة أكبرُ درجات للمؤمنين وأكبر تفضيلا".

قال البيضاوي:" أي: التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها".

قال السعدي:" فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه، فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدا عده".

قال قتادة:" وإن للمؤمنين في الجنة منازل وإن لهم فضائل بأعمالهم".

* ثم أمر- سبحانه- عباده بالنظر والتأمل في أحوال خلقه، ليزدادوا عظة وعبرة، فقال:

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا.

أى: انظر- أيها العاقل- نظر تأمل وتدبر واعتبار في أحوال الناس، لترى عن طريق المشاهدة كيف فضل الله- تعالى- بعض الناس على بعض في هذه الحياة، فهذا غنى وذاك فقير، وهذا قوى وذاك ضعيف، وهذا ذكى وذاك خامل، وهذا مالك وذاك مملوك..

إلى غير ذلك من الأحوال التي تدل على تفاوت الناس في هذه الدنيا، على حسب ما تقتضيه إرادة الله- تعالى- وحكمته، ومشيئته.

أما في الآخرة فالناس فيها أكبر تفاضلا وتفاوتا في الدرجات والمنازل، مما كانوا عليه في الدنيا.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: وقوله: وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ

=

=

دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا أى: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلا ونعيمها وسرورها.

ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء».

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا سنة من سنن الله- تعالى- في إهلاك الأمم، وأنه- تعالى- ما أهلكها إلا بعد أن عتت عن أمره، وعصت رسله، كما أنها بينت لنا سوء عاقبة الذين يؤثرون متع الدنيا على طاعة الله- تعالى-، وحسن عاقبة الذين يريدون الآخرة وما فيها من ثواب جزيل، وأن الفريقين لا ينالون مما يطلبونه إلا ما قدره الله- تعالى- لهم، وأن عطاءه للناس جميعا لا ينقص مما عنده شيئا، وأن حكمته- سبحانه- قد اقتضت تفضيل بعض الناس على بعض في الدنيا والآخرة، وصدق- ﷻ- حيث يقول: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا.

قال الرازي ما ملخصه: بعد أن بين- سبحانه- أن الناس فريقان: فريق يريد بعمله الدنيا فقط، وفريق يريد بعمله طاعة الله، ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة: أولها: إرادة الآخرة، وثانيها: أن يسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة، وثالثها: أن يكون مؤمنا.

لا جرم فصل في هذه الآيات تلك المجملات: فبدأ أولا بشرح حقيقة الإيمان ... ثم ذكر عقبيه سائر الأعمال ....

قوله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} [الإسراء: ٢٢]، أي:" لا تجعل -أيها الإنسان- مع الله شريكًا له في عبادته".

=

=

قال ابن كثير:" يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا".

قال القرطبي:" الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته. وقيل: الخطاب للإنسان".

قال البيضاوي:" الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته أو لكل أحد".

عن أبي مجلز قال: "كنت جالسا، عند عبد الله بن عمر، فسأله رجل، عن الشرك؟ قال: أن تجعل مع الله إلها آخر".

قوله تعالى: {فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا} [الإسراء: ٢٢]، أي:"، فتبوء بالمذمة والخِذْلان".

قال قتادة:" في نقمة الله مخذولا في عذاب الله".

عن ابن عباس قوله: " {مذموما}، يقول: ملوما".

قال القرطبي:" أي: تبقى {مذموما مخذولا} لا ناصر لك ولا وليا".

قال البيضاوي:" فتصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة، أو فتعجز من قولهم قعد عن الشيء إذا عجز عنه. مذموما مخذولا جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى، ومفهومه أن الموحد يكون ممدوحا منصورا".

قال ابن كثير:" {مَذْمُومًا} على إشراكك، {مَخْذُولا}، لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرًا ولا نفعًا؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ".

قال السعدي في هذه الآية:" أي: لا تعتقد أن أحدا من المخلوقين يستحق شيئا من العبادة ولا تشرك بالله أحدا منهم فإن ذلك داع للذم والخذلان، فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك وذموا من عمله أشد الذم ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفا وأقبحهم

=

=

نعتا، وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول قد وكل إلى من تعلق به ولا أحد من الخلق ينفع أحدا إلا بإذن الله، كما أن من جعل مع الله إلها آخر له الذم والخذلان، فمن وحده وأخلص دينه لله وتعلق به دون غيره فإنه محمود معان في جميع أحواله".

عن ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما أَجَلٌ عاجل وإما غنى عاجل".

والخطاب في قوله- تعالى-: لا تَجْعَلْ ... لكل من يصلح له.

والقعود في قوله «فتقعد» قيل بمعنى المكث: كما يقول القائل: فلان قاعد في أسوأ حال، أي: ماكث في أسوأ حال، سواء أكان قاعدا أم غير قاعد. وقيل بمعنى العجز، لأن العرب تقول: فلان ما أقعده عن المكارم، أي: ما أعجزه عنها، وقيل هو بمعنى الصيرورة، من قولهم: فلان شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة، أي: صارت.

والذي تطمئن إليه النفس أن القعود على حقيقته، لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائرا نادما على ما فرط منه.

وقوله- سبحانه-: مَخْذُولًا من الخذلان، وهو ترك النصرة عند الحاجة إليها.

يقال: خذل فلان صديقه، أي: امتنع عن نصره وعونه مع حاجته الشديدة إليهما.

والمعنى: لا تجعل- أيها المخاطب- مع الله- تعالى- إلها آخر في عبادتك أو خضوعك، فتقعد جامعا على نفسك مصيبتين:

مصيبة الذم من الله- تعالى- ومن أوليائه، لأنك تركت عبادة من له الخلق والأمر، وعبدت ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.

ومصيبة الخذلان، بحيث لا تجد من يعينك أو ينصرك، في ساعة أنت أحوج ما تكون فيها إلى العون والنصر.

=

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣).

{وقضى} أمر {ربك أَ} نْ أَيْ بِأَنْ {لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إياه و} أن تحسنوا {بالوالدين إحسانا} بأن تبروهما {إما يبلغن عندك الكبر أحدهما} فاعل {أو كلاهما} وَفِي قِرَاءَة يَبْلُغَانِّ فَأَحَدهمَا بَدَل مِنْ أَلِفه {فلا تقل لهما أُفّ} بِفَتْحِ الْفَاء وَكَسْرهَا مُنَوَّنًا وَغَيْر مُنَوَّن مَصْدَر بِمَعْنَى تَبًّا وَقُبْحًا {وَلَا تَنْهَرهُمَا} تَزْجُرهُمَا {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} جَمِيلًا لَيِّنًا.

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤).

{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاح الذُّلّ} أَلِنْ لَهُمَا جَانِبك الذليل {من الرحمة} أي لرقتك عليهما {وقل رب ارحمهما كَمَا} رَحِمَانِي حِين {رَبَّيَانِي صَغِيرًا}.

---

=

وجاء الخطاب في قوله- تعالى-: لا تَجْعَلْ عاما، لكي يشعر كل فرد يصلح للخطاب أن هذا النهى موجه إليه، وصادر إلى شخصه. لأن سلامة الاعتقاد مسألة شخصية، مسئول عنها كل فرد بذاته وسيحمل وحده تبعة انحرافه عن طريق الحق يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وقوله فَتَقْعُدَ منصوب لأنه وقع بعد الفاء جوابا للنهى. وقوله مَذْمُوماً مَخْذُولًا حالان من الفاعل.

وفي هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لحال الإنسان المشرك، وقد حط به الذم والخذلان، فقعد مهموما مستكينا عاجزا عن تحصيل الخيرات، ومن السعى في تحصيلها.

قال الآلوسى: وفي الآية الكريمة إشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة.

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥).

{رَبّكُمْ أَعْلَم بِمَا فِي نُفُوسكُمْ} مِنْ إضْمَار الْبِرّ وَالْعُقُوق {إنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ} طَائِعِينَ لِلَّهِ {فإنه كان لِلْأَوَّابِينَ} الرَّجَّاعِينَ إلَى طَاعَته {غَفُورًا} لِمَا صَدَرَ مِنْهُمْ فِي حَقّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ بَادِرَة وَهُمْ لَا يُضْمِرُونَ عُقُوقًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣]، أي:" وأَمَر ربك -أيها الإنسان- وألزم وأوجب أن يفرد سبحانه وتعالى وحده بالعبادة".

**قال الطبري**:" حكم ربك يا محمد بأمره إياكم ألا تعبدوا إلا الله، فإنه لا ينبغي أن يعبد غيره".

قال أبو عبيدة والزجاج: {وَقَضَى رَبُّكَ}:" وأمر ربّك".

قال ابن زيد، في قوله:" {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ}، قال: أمر ألا تعبدوا إلا إياه".

عن مجاهد: " {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ}، قال: وأوصى ربك".

عن ابن عباس:" {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ}، يقول: أمر".

قال قتادة:" أمروا ألا يعبدوا إلا الله، إياه، وفي حرف ابن مسعود: (وَصَّى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ) ".

قال قتادة:" أي أمر ربك في ألا تعبدوا إلا إياه، فهذا قضاء الله العاجل، وكان يُقال في بعض الحكمة: من أرضى والديه: أرض خالقه، ومن أسخط والديه، فقد أسخط ربه".

عن ابن حبيب بن أبي ثابت، عن أبيه، قال: "أعطاني ابن عباس مصحفا، فقال: هذا على قراءة أبيّ بن كعب، قال أبو كريب: قال يحيى: رأيت المصحف عند نصير فيه: (وَوَصَّى رَبُّكَ) يعني: وقضى ربك".

=

=

عن الضحاك بن مزاحم:"أنه قرأها (وَوَصَّى رَبُّكَ) وقال: إنهم ألصقوا الواو بالصاد فصارت قافا".

عن زكريا بن سلام، قال: "جاء رجل إلى الحسن، فقال: إنه طلق امرأته ثلاثا، فقال: إنك عصيتَ ربك، وبانت منك امرأتك، فقال الرجل: قضى الله ذلك عليّ، قال الحسن، وكان فصيحا: ما قضى الله: أي ما أمر الله، وقرأ هذه الآية {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ}، فقال الناس: تكلم الحسن في القدر".

قال ابن عباس:" أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم ﷺ، «ووصى ربك إن لا تعبدوا إلا إياه»، فالتصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس: {وقضى ربك}، ولو نزلت علي القضاء، ما أشرك به أحد".

قوله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣]، أي:" وأمر بالإحسان إلى الأب والأم".

**قال الطبري**: يقول: " وأمركم أن تحسنوا إلى الوالدين وتبرّوهما".

قال الحسن:" يقول: برا". وروي عن السدي مثله.

قوله تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا} [الإسراء: ٢٣]، أي:" قد أوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما".

قوله تعالى: {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ} [الإسراء: ٢٣]، أي:" لا تقل للوالدين أقل كلمة تظهر الضجر ككلمة أفٍّ ولا تسمعهما قولاً سيئًا حتى ولو بكلمة التأفف".

قال الحسن:" أي: ولا تؤذهما".

قال مجاهد:" لا تغلظ لهما".

قال السدي:" أف فما سواه".

وفي تفسير: {أُفٍّ} [الإسراء: ٢٣]، ثلاثة وجوه:

**أحدها**: أنه كل ما غلظ من الكلام وقبح، قاله مقاتل، وأبو عبيدة.

=

=

قل مقاتل:" يعني: الكلام الرديء أن تقول: اللهم أرحني منهما، أو تغلظ عليهما في القول عند كبرهما ومعالجتك إياهما وعند ميط القذر عنهما".

عن مجاهد:" {إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف}، فيما تميط عنها من الأذى الخلاء والبول، كما كانا لا يقولانه، فيما كان يميطان عنك من الخلاء والبول".

قال أبو عبيدة:" معناه: ما غلظ وقبح من الكلام".

**الثاني**: أنه استقذار الشيء وتغير الرائحة، قاله الكلبي.

**الثالث**: أنها كلمة تدل على التبرم والضجر، خرجت مخرج الأصوات المحكية. والعرب أف وتف، فالـ «أف» وسخ الأظفار، والتُّف ما رفعته من الأرض بيدك من شيء حقير. قاله ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:" والناس يقولون لما يكرهون ويستثقلون: «أف له». وأصل هذا: نفخك للشيء يسقط عليك من تراب أو رماد وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة الشيء عنه لتقعد فيه. فقيل لكل مستثقل: «أف لك» ".

وقال السجستاني:" الأف: وسخ الأذن. والتف: وسخ الأظفار، ثم يقال لما يستثقل ويضجر منه: أف له وتف. وقوله جل وعز: {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُون} [الأنبياء: ٦٧]، أي: نتنا لكم. ويقال: تبا. و «الأف»: النار أيضا. ومنه قوله: {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُون} [الأنبياء: ٦٧]، أي: النار لكم، وتبا لكم".

قوله تعالى: {وَلَا تَنْهَرْهُمَا} [الإسراء: ٢٣]، أي:" ولا تزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما".

قال الحسن:" يعني: الانتهار".

قال مقاتل:" عند المعالجة، يعني: تغلظ لهما القول".

قال ابن قتيبة:" أي: لا تستثقل شيئا من أمرهما، وتضق به صدرا، ولا تغلظ لهما".

=

=

قوله تعالى: {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء: ٢٣]، أي:" قل لهما قولاً حسناً ليناً طيباً بأدب ووقار وتعظيم".

قال قتادة:" قولا لينا سهلا".

وقال عروة:" إذا دعواك، فقل: لبيكما وسعديكما".

عن أبي المداج التجيبي، قال: "قلت لسعيد بن المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كل ما ذكر في القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله: {وقل لهما قولا كريما}، ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ".

* وبعد أن ذكر- سبحانه- الأساس في قبول الأعمال، وهو إخلاص العبادة له- عَزَّ وَجَلَّ وحده، أتبع ذلك بتأكيد هذا الأساس بما هو من شرائط الإيمان الحق وشعائره فقال- تعالى- وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ...

قال القرطبي ما ملخصه: قَضى أى: أمر وألزم وأوجب ...

والقضاء يستعمل في اللغة على وجوه، فالقضاء بمعنى الأمر، كما في هذه الآية والقضاء بمعنى الخلق كقوله فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ يعنى خلقهن، والقضاء بمعنى الحكم، كقوله- تعالى-: فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ يعنى: احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ من الشيء، كقوله قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ أى فرغ منه.

والقضاء بمعنى الارادة. كقوله- تعالى-: إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ..

.

والمعنى: لقد نهى ربك عن الإشراك به نهيا قاطعا، وأمر أمرا محكما لا يحتمل النسخ، بأن لا تعبدوا أحدا سواه، إذ هو الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، وغيره مخلوق وعاجز عن فعل شيء إلا بإذنه- سبحانه-.

فالجملة الكريمة أمر لازم لإخلاص العبادة لله، بعد النهى عن الإشراك به في

=

=

قوله- تعالى-: لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ...
وقد جاء هذا الأمر بلفظ قَضى زيادة في التأكيد، لأن هذا اللفظ هنا يفيد الوجوب القطعي الذي لا رجعة فيه، كما أن اشتمال الجملة الكريمة على النفي والاستثناء- وهما أعلا مراتب القصر- يزيد هذا الأمر تأكيدا وتوثيقا.
ثم أتبع- سبحانه- الأمر بوحدانيته، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال: وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.
أى: وقضى- أيضا- بأن تحسنوا- أيها المخاطبون- إلى الوالدين إحسانا كاملا لا يشوبه سوء أو مكروه.
وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بوجوب إخلاص العبادة لله، في آيات كثيرة. منها قوله- تعالى-: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.. .
وقوله- تعالى-: وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.. .
ولعل السر في ذلك هو الإشعار للمخاطبين بأهمية هذا الأمر المقتضى لوجوب الإحسان إلى الوالدين، حيث إنهما هما السبب المباشر لوجود الإنسان في هذه الحياة، وهما اللذان لقيا ما لقيا من متاعب من أجل راحة أولادهما، فيجب أن يقابل ما فعلاه بالشكر والاعتراف بالجميل.
قال بعض العلماء: وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب، وهو الإحسان إلى الوالدين، ولم تذكر بأسلوب النهى سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين، وكأن الإساءة إليهما، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها.. .
ثم فصل- سبحانه- مظاهر هذا الإحسان فقال: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ

=

=
كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ، وَلا تَنْهَرْهُما، وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيمًا ...
وإِمَّا حرف مركب من «إن» الشرطية، ومن «ما» المزيدة عليها للتأكيد، وقوله: أَحَدُهُما فاعل يبلغن. وقرأ حمزة والكسائي إما يبلغان فيكون قوله أَحَدُهُما بدل من ألف الاثنين في يبلغان.
وقوله فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ جواب الشرط.
قال الآلوسى: وأُفٍّ اسم صوت ينبئ عن التضجر، أو اسم فعل مضارع هو أتضجر..
وفيه نحو من أربعين لغة. والوارد من ذلك في القراءات سبع ثلاث متواترة، وأربعة شاذة.
فقرأ نافع وحفص بالكسر والتنوين، وهو للتنكير: فالمعنى: فلا تقل أتضجر تضجرا ما.
وقرأ ابن كثير وابن عامر بالفتح دون تنوين، والباقون بالكسر بدون تنوين.. .
قال ابن الجوزي: فأما معنى أف ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنه وسخ الظفر، قاله الخليل. والثاني: وسخ الأذن، قاله الأصمعي. والثالث: قلامة الظفر، قاله ثعلب. والرابع: أن «الأف» الاحتقار والاستصغار، من «الأفف»، والأفف عند العرب: القلة، ذكره ابن الأنباري. والخامس: أن «الأف» ما رفعته من الأرض من عود أو قصبة، حكاه ابن فارس اللغوي. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: معنى «الأف»: النتن، والتضجر، وأصلها: نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد إماطة الأذى عنه، فقيلت لكل مستثقل، قلت: وأما قولهم: «تف»، فقد جعلها قوم بمعنى «أف»، فروي عن أبي عبيد أنه قال: أصل «الأف» و «التف»: الوسخ على الأصابع إذا فتلته. وحكى ابن الأنباري فرقا، فقال: قال اللغويون: أصل «الأف» في اللغة: وسخ الأذن، و «التف»: وسخ الأظفار،
=

=

فاستعملتهما العرب فيما يكره ويستقذر ويضجر منه. وحكى الزجاج فرقا آخر، فقال: قد قيل: إن «أف»: وسخ الأظفار، و «التف»: الشيء الحقير، ونحو وسخ الأذن، أو الشظية تؤخذ من الأرض، ومعنى «أف»: النتن، ومعنى الآية: لا تقل لهما كلاما تتبرم فيه بهما إذا كبرا وأسنا، فينبغي أن تتولى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك، ولا تنهرهما أي: لا تكلمهما ضجرا صائحا في وجوههما.

وقال عطاء بن أبي رباح: لا تنقض يدك عليهما، يقال: نهرته أنهره نهرا، وانتهرته انتهارا، بمعنى واحد، وقال ابن فارس: نهرت الرجل وانتهرته مثل: زجرته. قال المفسرون: وإنما نهى عن أذاهما في الكبر، وإن كان منهيا عنه على كل حال، لأن حالة الكبر يظهر فيها منهما ما يضجر ويؤذي، وتكثر خدمتهما ا.هـ

وقوله وَلا تَنْهَرْهُما من النهر بمعنى الزجر، يقال نهر فلان فلانا إذا زجره بغلظة.

والمعنى: كن- أيها المخاطب- محسنا إحسانا تاما بأبويك.

فإذا ما بلغ عِنْدَكَ أى: في رعايتك وكفالتك أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما سن الكبر والضعف فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ أى: قولا يدل على التضجر منهما والاستثقال لأى تصرف من تصرفاتهما.

قال البيضاوي: والنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسا بطريق الأولى، وقيل عرفا كقولك: فلان لا يملك النقير والقطمير- فإن هذا القول يدل على أنه لا يملك شيئا قليلا أو كثيرا .

وقوله وَلا تَنْهَرْهُما أى: ولا تزجرهما عما يتعاطيانه من الأفعال التي لا تعجبك.

فالمراد من النهى الأول: المنع من إظهار التضجر منهما مطلقا.

والمراد من النهى الثاني: المنع من إظهار المخالفة لهما على سبيل الرد والتكذيب والتغليظ في القول.

=

=

والتعبير بقوله: عِنْدَكَ يشير إلى أن الوالدين قد صارا في كنف الابن وتحت رعايته، بعد أن بلغ أشده واستوى، وبعد أن أصبح مسئولا عنهما، بعد أن كانا هما مسئولين عنه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى عِنْدَكَ قلت هو أن يكبرا ويعجزا، وكانا كلّا على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشد احتمالا وصبرا، وربما تولى منهما ما كانا يتوليانه منه في حالة الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطاءة الخلق، ولين الجانب، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما: أف، فضلا عما يزيد عليه .

والتقييد بحالة الكبر في قوله- تعالى-: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ جرى مجرى الغالب، إذ أنهما يحتاجان إلى الرعاية في حالة الكبر، أكثر من احتياجهما إلى ذلك في حالة قوتهما وشبابهما، وإلا فالإحسان إليهما، والعناية بشأنهما. واجب على الأبناء سواء كان الآباء في سن الكبر أم في سن الشباب أم في غيرهما.

وقوله- سبحانه-: وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً أمر بالكلام الطيب معهما. بعد النهى عن الكلام الذي يدل على الضجر والقلق من فعلهما.

أى: وقل لهما بدل التأفيف والزجر، قولا كريما حسنا، يقتضيه حسن الأدب معهما، والاحترام لهما والعطف عليهما.

قوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [الإسراء: ٢٤]، أي:" ألنْ جانبك وتواضعْ لهما بتذلّل وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما".

**قال الطبري**: أي: " وكن لهما ذليلا رحمة منك بهما تطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن لله معصية، ولا تخالفهما فيما أحبَّا".

قال الزجاج:" أي: أَلِنْ لهما جانبك مُتَذَلِّلاً لهما، من مبالغتك في الرحمة لهما. ويقال: رجل ذليل بين الذُلِّ، وقد ذل يذِلُّ ذُلاً، ودَابَّةٌ ذَلُول. بين الذل، ويجوز أن

=

=

جميعـًا في الإِنسانِ".

قال مقاتل:" يقول: تلين جناحك لهما رحمة بهما ".

قال عروة:" تلين لهما حتى لا يمتنعا من شيء أحباه".

وقال عروة:" إن أغضباك، فلا تنظر إليهما شزرا، فإنه أول ما يعرف غضب المرء بشده نظره إلى من غضب عليه".

قال سعيد بن جبير:" يقول: اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ".

عن سعيد بن جبير أنه قرأ:" {وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}، قال: كن لهما ذليلا ولا تكن لهما ذلولا".

قال عطاء بن رباح:" لا ترفع يديك عليهما إذا كلمتهما".

عن هشام بن عمرو، عن أبيه، قال:" لا تمتنع من شيء أحباه". وفي رواية:" هو أن تلين لهما حتى لا تمتنع من شيء أحبَّاه".

عن مكحول:" أن رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصى بعض أهل بيته، فكان فيما أوصاه به أن أطع والديك وإن أمراك أن تخرج من مالك كله فافعل"

قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٤]، أي:" واطلب من ربك أن يرحمهما برحمته الواسعة أحياءً وأمواتًا، كما صبرا على تربيتك طفلا ضعيف الحول والقوة".

حكم الآية الكريمة:

وفي نسخ قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٤]، قولان:

أحدهما: أن هذا الدعاء المطلق نسخ منه الدعاء للوالدين المشركين، وروي نحو هذا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحسن، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل.

=

عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: " {إما يبلغن عندك الكبر} إلى قوله: {كما ربياني صغيرا} نسختها {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين} ".

وقال ابن عباس:" ثم أنزل الله بعد هذا: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} ".

قال مقاتل:" واعصهما في الشرك فإنه ليس معصيتك إياهما في الشرك قطيعة لهما، ثم نسخت {رب ارحمهما كما ربياني صغيرا}، {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى} ".

قال قتادة: ثم نسخ منها حرف واحد لا ينبغي لأحد أن يستغفر لوالديه وهما مشركان ولا يقول رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ولكن يخفض لهما جناح الذل من الرحمة ويصاحبهما في الدنيا معروفا وقال ﷻ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى}، هذه الآية نسخت ذلك الحرف".

**الثاني**: أن الآية نسخ بعض حكمها وبقي البعض على ظاهره فهو في أهل التوحيد محكم وبعض حكمها في أهل الشرك منسوخ بقوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة: ١١٣]. قاله ابن حزم، ومكي بن ابي طالب، وابن الجوزي، والطبري.

قال ابن الجوزي:" وهذا ليس بنسخ عند الفقهاء إنما هو عام دخله التخصيص وإلى نحو ما قلته ذهب ابن جرير والطبري".

قال المقري:" جميع الآيتين محكم إلا بعض معانيهما في أهل الشرك وهو إذا مات الأبوان على الشرك فليس للولد أن يترحم عليهما ولا يدعو لهما".

**قال الطبري**:" وقد تحتمل هذه الآية أن تكون وإن كان ظاهرها عاما في كل الآباء بغير معنى النسخ، بأن يكون تأويلها على الخصوص، فيكون معنى الكلام: وقل

=

رب ارحمهما إذا كانا مؤمنين، كما ربياني صغيرا، فتكون مرادا بها الخصوص على ما قلنا غير منسوخ منها شيء".

وقوله: وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ.. زيادة في تبجيلهما والتلطف معهما في القول والفعل والمعاملة على اختلاف ألوانها.

أى: وبجانب القول الكريم الذي يجب أن تقوله لهما، عليك أن تكون متواضعا معهما، متلطفا في معاشرتهما، لا ترفع فيهما عينا، ولا ترفض لهما قولا، مع الرحمة التامة بهما، والشفقة التي لا نهاية لها عليهما.

قال الرازي ما ملخصه: وقوله: وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ المقصود منه المبالغة في التواضع.

وذكر القفال في تقريره وجهين: الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية. فكأنه قال للولد:

اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك.

**والثاني**: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه. فصار خفض الجناح كناية عن التواضع .

وإضافة الجناح إلى الذل إضافة بيانية، أى: اخفض لهما جناحك الذليل ومِنَ في قوله مِنَ الرَّحْمَةِ ابتدائية. أى تواضع لهما تواضعا ناشئا من فرط رحمتك عليهما.

قال الآلوسى: وإنما احتاجا إلى ذلك، لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما، واحتياج المرء إلى من كان محتاجا إليه أدعى إلى الرحمة، كما قال الشاعر:

يا من أتى يسألنى عن فاقتي ... ما حال من يسأل من سائله؟

ما ذلة السلطان إلا إذا ... أصبح محتاجا إلى عامله

وقوله: وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً تذكير للإنسان بحال ضعفه

=

=

وطفولته، وحاجته إلى الرعاية والحنان.

أي: وقل في الدعاء لهما: يا رب ارحمهما برحمتك الواسعة، واشملهما بمغفرتك الغامرة، جزاء ما بذلا من رعاية لي في صغرى، فأنت القادر على مثوبتهما ومكافأتهما.

قال الجمل: والكاف في قوله كَما رَبَّيانِي.. فيها قولان: أحدهما أنها نعت لمصدر محذوف.

أي: ارحمهما رحمة مثل رحمتهما لي، والثاني أنها للتعليل. أي: ارحمهما لأجل تربيتهما لي، كما في قوله وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ .

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الأولى: قوله تعالى: {وقل رب ارحمهما} .

قد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الدعاء المطلق نسخ منه الدعاء للوالدين المشركين، وروي نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وعكرمة ومقاتل.

أخبرنا المبارك بن علي، قال: أنبأنا أحمد بن الحسين بن قريش، قال: أنبأنا أبو إسحاق البرمكي، قال: أنبأنا محمد بن إسماعيل بن العباس، قال: أنبأنا أبو بكر بن أبي داود، قال: بنا محمد بن قهزاذ قال: حدثني علي بن الحسين بن واقد، قال: حدثني أبي عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما (في) قوله: {إما يبلغن عندك الكبر} إلى قوله: {كما ربياني صغيرا} نسختها {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين} .

قال أبو بكر: وبنا محمد بن (سعد) قال: حدثني أبي (عن الحسين بن الحسن) بن عطية عن عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما {إما يبلغن عندك الكبر} إلى قوله: {صغيرا} فنسخها {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين} .

قال أبو بكر: وبنا أحمد بن يحيى بن مالك، قال: بنا عبد الوهاب، عن سعيد عن

=

=

قتادة نحوه.

أخبرنا بن ناصر، قال: أنبأنا ابن أيوب، قال: أنبأنا ابن شاذان، قال: أنبأنا أبو بكر النجاد، قال: أنبأنا أبو داود السجستاني، قال: أنبأنا أحمد بن محمد، قال: بنا عبد الله بن عثمان، عن عيسى بن عبيد الله عن عبيد الله مولى عمر عن الضحاك {وقل رب ارحمهما} نسخ منها بالآية التي (في) براءة {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين}.

قلت: وهذا ليس بنسخ عند الفقهاء إنما هو عام دخله التخصيص وإلى نحو ما قلته ذهب ابن جرير والطبري. ا.هـ

قوله تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} [الإسراء: ٢٥]، أي: إن" ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسكم من إرادة البر أو العقوق".

قال يحيى بن سلام:" يعني: بما في قلوبكم".

قال سهل:" أي: بما في قلوبكم، لأن القلب يجمع العقل والنفس والهوى".

قال مقاتل:" يقول: هو أعلم بما في نفوسكم منكم من البر للوالدين عند كبرهما".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره {ربكم} أيها الناس {أعلم} منكم {بما في نفوسكم} من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم وتكرمتهم، والبر بهم، وما فيها من اعتقاد الاستخفاف بحقوقهم، والعقوق لهم، وغير ذلك من ضمائر صدوركم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيكم على حسن ذلك وسيئه، فاحذروا أن تضمروا لهم سوءا، وتعقدوا لهم عقوقا".

عن سعيد بن جبير:" {ربكم أعلم بما في نفوسكم}، قال: البادرة تكون من الرجل إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير، فقال: {ربكم أعلم بما في نفوسكم} ".

قوله تعالى: {إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء: ٢٥]، أي:" إن تكونوا قاصدين للبِرّ والصلاح دون العقوق والفساد فإِنه جلَّ وعلا يتجاوز عن

=

=

سيئاتكم ويغفر للأوابين وهم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين".

**قال الطبري:**" يقول: إن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم، وأطعتم الله فيما أمركم به من البر بهم، والقيام بحقوقهم عليكم، بعد هفوة كانت منكم، أو زلة في واجب لهم عليكم مع القيام بما ألزمكم في غير ذلك من فرائضه، فإنه كان للأوابين بعد الزلة، والتائبين بعد الهفوة غفورا لهم".

قا أبو عبيدة:" أي: للتّوابين من الذنوب".

عن حبيب بن أبي ثابت، في قوله:" {فإنه كان للأوابين غفورا}، قال: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أنه لا يؤاخذ به".

عن سعيد بن جبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله: " {ربكم أعلم بما في نفوسكم}، قال: تكون البادر من الولد إلى الوالد، فقال الله: {إن تكونوا صالحين}، أي: تكون النية صادقة ببرهما {فإنه كان للأوابين غفورا}، للبادرة التي بدرت منه".

قال الرازي:" المقصود من هذه الآية أن الآية الأولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم إن الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما، فقال: {ربكم أعلم بما في نفوسكم}، يعني: أنه تعالى عالم بأحوال قلوبكم فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران. والله أعلم".

واختلف أهل التفسير في معنى: «الأوابين»، على أقوال:

**أحدها:** أنهم المطيعون المحسنون. قاله ابن عباس.

**الثاني:** أنهم المطيعون، وأهل الصلاة. قاله قتادة.

**الثالث:** انهم التوابون. قاله ابن عباس أيضا.

**الرابع:** أنهم المحسنون. قاله سعيد بن جبير، وقتادة.

وقال عمرو بن شرحبيل: "الأواب: المسبح".

=

=

الخامس: أنهم الذين يصلّون بين المغرب والعشاء، وهذا قول ابن المنكدر يرفعه.
السادس: هم الذين يصلون الضحى، وهذا قول عون العقيلي.
السابع: أنه الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها. وهذا قول مجاهد، وعبيد بن عمير.
وقال سعيد بن جبير:" الراجعين إلى الخير".
وقال عبيد بن عمير في رواية:" كنا نعد «الأواب»: الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا".
الثامن: أنه الذي يتوب مرة بعد مرة، وكلما أذنب بادر بالتوبة. وهذا قول سعيد بن المسيب.
قال سعيد بن المسيب:" الذي يصيب الذنب ثم يتوب ثم يصيب الذنب ثم يتوب".
وقال سعيد بن مسيب في رواية أخرى:" الأواب: الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب".
وقال الضحاك:" الرجاعين من الذنب إلى التوبة، ومن السيئات إلى الحسنات".
وقال عطاء بن يسار:" يذنب العبد ثم يتوب، فيتوب الله عليه؛ ثم يذنب فيتوب، فيتوب الله عليه؛ ثم يذنب الثالثة، فإن تاب، تاب الله عليه توبة لا تمحى".
**قال الطبري:**" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: «الأواب»: هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأن «الأواب» إنما هو فعال، من قول القائل: آب فلان من كذا إما من سفره إلى منزله، أو من حال إلى حال، كما قال عبيد بن الأبرص:

**وكل ذي غيبة يئوب    وغائب الموت لا يئوب**

فهو يئوب أوبا، وهو رجل آئب من سفره، وأواب من ذنوبه".

=

=

قال سهل بن عبد الله:" حكي عن ضمرة بن حبيب عن النبي ﷺ أنه قال: «من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق عنه»، يعني: فليعتبر وقته ولا يؤخر".

ثم ختم- سبحانه- هذه الآيات التي سمت بمنزلة الوالدين، بما يدل على كمال علمه، وعلى التحذير من عقابه، فقال- تعالى-: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً).

والأوابون: جمع أواب. وهو الكثير الأوبة والتوبة والرجوع إلى الله- تعالى- يقال:

آب فلان يئوب إذا رجع.

قال ابن الجوزي: في الأواب عشرة أقوال:

**أحدها**: أنه المسلم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه التواب، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وأبو عبيدة، وقال ابن قتيبة: هو التائب مرة بعد مرة.

وقال الزجاج: هو التواب المقلع عن جميع ما نهاه الله عنه، يقال: قد آب يؤوب أوبا: إذا رجع.

**والثالث**: أنه المسبح، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والرابع: أنه المطيع لله تعالى، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والخامس: أنه الذي يذكر ذنبه في الخلاء، فيستغفر الله منه، قاله عبيد بن عمير. والسادس: أنه المقبل إلى الله تعالى بقلبه وعمله، قاله الحسن. والسابع: المصلي، قاله قتادة.

والثامن: هو الذي يصلي بين المغرب والعشاء، قاله ابن المنكدر. والتاسع: الذي يصلي صلاة الضحى، قاله عون العقيلي. والعاشر: أنه الذي يذنب سرا ويتوب سرا، قاله السدي ا.هـ

قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: الأواب هو التائب

=

=

من الذنب، الراجع عن معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأن الأواب إنما هو فعال من قول القائل: آب فلان من سفره إلى منزله، كما قال الشاعر:

وكل ذي غيبة يئوب ... وغائب الموت لا يؤوب

أى: ربكم- أيها الناس- أعلم بما في نفوسكم، وضمائركم، سواء أكان خيرا أو شرا، وسواء كنتم تضمرون البر بآبائكم أم تخفون الإساءة إليهما، ومع ذلك فإنكم إن تكونوا صالحين- أى: قاصدين الصلاح والبر بهما، والرجوع عما فرط منكم في حقهما أو في حق غيرهما- فالله- تعالى- يقبل توبتكم، فإنه- سبحانه- بفضله وكرمه كان للأوابين- أى الرجاعين إليه بالتوبة مما فرط منهم- غفورا لذنوبهم.

فالآية الكريمة وعيد لمن تهاون في حقوق أبويه، وفي كل حق أوجبه الله عليه، ووعد لمن رجع إليه- سبحانه- بالتوبة الصادقة.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أمرت بالإحسان إلى الوالدين، بأسلوب يستجيش عواطف البر والرحمة في قلوب الأبناء، ويبعثهم على احترامهما ورعايتهما والتواضع لهما، وتحذيرهم من الإساءة إليهما، ويفتح باب التوبة أمام من قصر في حقهما أو حق غيرهما.

وقد كرر القرآن هذا الأمر للأبناء بالإحسان إلى الآباء، ولم يفعل ذلك مع الآباء.

وذلك لأن الحياة- كما يقول بعض العلماء- وهي مندفعة في طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام. إلى الذرية. إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء. إلى الأبوة، إلى الحياة المولية إلى الجيل الذاهب.

ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات.

=

=

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد. إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر، كذلك يمتص الأولاد، كل رحيق، وكل عافية، وكل جهد، وكل اهتمام من الوالدين، فإذا هما شيخوخة فانية- إن أمهلهما الأجل- وهما مع ذلك سعيدان.

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ويندفعون بدورهم إلى الأمام. إلى الزوجات والذرية ... وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء. إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة، ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف.

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين، في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله .

هذا، وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات، كثيرا من الأحاديث والآثار التي توجه الأبناء إلى رعاية الآباء، واحترامهم، والعطف عليهم، والرحمة بهم، والاهتمام بشئونهم.

قال الإمام ابن كثير: وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: آمين. آمين. آمين.

فقالوا: يا رسول الله، علام أمنت؟ قال: أتاني جبريل فقال: يا محمد، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقل: آمين فقلت آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين. فقلت آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة. قل: آمين، فقلت: آمين».

=

=

وعن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله- ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي على من بر أبوى شيء بعد موتهما أبر هما به؟

قال: «نعم: خصال أربع. الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما» .

وقال القرطبي: أمر الله- سبحانه- بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك. كما قرن شكرهما بشكره، فقال: وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.

وقال: أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ: أى الأعمال أحب إلى الله- تعالى-؟. قال: «الصلاة على وقتها. قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين»، قلت ثم أى: قال: الجهاد في سبيل الله» ...

ثم قال القرطبي- رحمه الله: ومن عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن من برهما موافقتهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه. ما لم يكن ذلك الأمر معصية، ولا يختص برهما بأن يكونا مسلمين، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما.

ففي صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدمت أمى وهي مشركة فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمى قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ - أى وهي راغبة في برى وصلتي، أو وهي راغبة عن الإسلام كارهة له- قال: «نعم صلى أمك».

ثم قال القرطبي: ومن الإحسان إليهما والبر بهما، إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما.

=

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦).

{وَآتِ} أَعْطِ {ذَا الْقُرْبَى} الْقَرَابَة {حَقّه} مِنْ الْبِرّ وَالصِّلَة {والمسكين وبن السبيل وَلَا تُبَذِّر تَبْذِيرًا} بِالْإِنْفَاقِ فِي غَيْر طَاعَة الله.

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧).

{إنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَان الشَّيَاطِين} أَيْ عَلَى طريقتهم {وكان الشيطان لربه كَفُورًا} شَدِيد الْكُفْر لِنِعَمِهِ فَكَذَلِكَ أَخُوهُ الْمُبَذِّر.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨).

{وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ} أَيْ الْمَذْكُورِينَ مِنْ ذِي الْقُرْبَى وَمَا بَعْدهمْ فَلَمْ تُعْطِهِمْ {ابْتِغَاء رَحْمَة مِنْ رَبّك تَرْجُوهَا} أَيْ لِطَلَبِ رِزْق تَنْتَظِرهُ يأتيك فتعطيهم منه {فقل لهم قَوْلًا مَيْسُورًا} لَيِّنًا سَهْلًا بِأَنْ تَعِدهُمْ بِالْإِعْطَاءِ عِنْد مَجِيء الرِّزْق.

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

=

فعن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: «أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد».

قال ابن المنذر: في هذا الحديث النهى عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النفير، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع. ثم قال: ومن تمام برهما: صلة أهل ودهما، ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى».

وكان ﷺ يهدى لصديقات خديجة برّا بها ووفاء لها وهي زوجته، فما ظنك بالوالدين.

مَحْسُورًا (٢٩).

{وَلَا تَجْعَل يَدك مَغْلُولَة إلَى عُنُقك} أَيْ لَا تُمْسِكهَا عَنْ الْإِنْفَاق كُلّ الْمَسْك {وَلَا تَبْسُطهَا} فِي الْإِنْفَاق {كُلّ الْبَسْط فَتَقْعُد مَلُومًا} رَاجِع لِلْأَوَّلِ {مَحْسُورًا} مُنْقَطِعًا لَا شَيْء عِنْدك راجع للثاني.

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠).

{إن ربك يَبْسُط الرِّزْق} يُوَسِّعهُ {لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِر} يُضَيِّقهُ لِمَنْ يَشَاء {إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} عَالِمًا بِبَوَاطِنِهِمْ وَظَوَاهِرهمْ فَيَرْزُقهُمْ عَلَى حسب مصالحهم[١].

(١) ذكر سبب النزول.

عن عطاء الخراساني؛ قال: جاء ناس من مزينة يستحملون رسول الله ﷺ، فقال: {لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا} [التوبة: ٩٢]، ظنوا ذلك من غضب رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ} الآية، قال: الرحمة، الفيء.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٢٧٥)، و"لباب النقول" (ص ١٣٦) ونسبه لسعيد بن منصور وابن المنذر. وسنده ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: عطاء هذا؛ قال في "التقريب": "صدوق يهم كثيرًا، ويرسل ويدلس".

وعن الضحاك؛ قال: نزلت فيمن كان يسأل النبي ﷺ من المساكين.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٥٥) وسنده ضعيف جدًا.

وعن سيار أبي الحكم؛ قال: أتى رسول الله ﷺ برّ من العراق، وكان معطيًا كريمًا، فقسمه بين الناس، فبلغ ذلك قومًا من العرب، فقالوا: أنأتي النبي ﷺ فنسأله؟
=

=

فوجدوه قد فرغ منه؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}؛ قال: محبوسة {وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا}: يلومك الناس {مَحْسُورًا}: ليس بيدك شيء.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٣٦) ونسبه لسعيد بن منصور. وذكره في "الدر المنثور" (٥/ ٢٧٦) وزاد نسبته لابن المنذر، وتصحف في "المطبوع" اسم سيار أبي الحكم إلى (يسار بن الحكم)؛ فليحرر. وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

وعن المنهال بن عمرو؛ قال: بعثت امرأة إلى النبي ﷺ بابنها، فقالت: قل له: اكسني ثوبًا، فقال: "ما عندي شيء"، فقالت: ارجع إليه، فقل له: اكسني قميصك، فرجع إليه؛ فنزع قميصه فأعطاه إياه؛ فنزلت: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٢٧٦) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن عبد الله بن مسعود؛ قال: جاء غلام إلى النبي ﷺ، فقال: إن أمي تسألك كذا وكذا؟ فقال: "ما عندنا اليوم شيء"، قال: فتقول لك: اكسني قميصك؛ فخلع قميصه، فدفعه إليه، فجلس في البيت حاسرًا؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٢٧٦) ونسبه للطبري، ولم نجده فيه.

وذكره في "لباب النقول" (ص ١٣٦) ونسبه لابن مردويه.

ثم رأينا الواحدي أخرجه في "أسباب النزول" (ص ١٩٤) من طريق المحاملي ثنا زكريا بن يحيى الضرير ثنا سليمان بن سفيان الجهني ثنا قيس بن الربيع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود به. وهذا إسناد ضعيف؛ مسلسل بالعلل: الأولى: سليمان بن سفيان ذا؛ ضعيف؛ كما في "التقريب". والثانية: قيس بن الربيع؛ صدوق، تغيّر لما كبر، أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به.

=

=

والثالثة: أبو إسحاق السبيعي؛ مدلس، وقد عنعن وهو مع ذلك كان قد اختلط وقيس روى عنه بعد الاختلاط.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: بينا رسول الله ﷺ قاعدًا فيما بين أصحابه؛ أتاه صبي، فقال: يا رسول الله! إن أمي تستكسيك درعًا، ولم يكن عند رسول الله ﷺ إلا قميصه، فقال للصبي: "من ساعة إلى ساعة تظهر؛ فعد وقتًا آخر"، فعاد إلى أمه، فقالت: قل له: أمي تستكسيك القميص الذي عليك، فدخل رسول الله ﷺ داره ونزع قميصه وأعطاه، وقعد عريانًا، فأذن بلال للصلاة، فانتظروه؛ فلم يخرج؛ فشغل قلوب الصحابة، فدخل عليه بعضهم فرآه عريانًا؛ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية.

ذكره الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٩٤) معلقًا دون سند.

وعن أبي أمامة: أن النبي ﷺ قال لعائشة -وضرب بيده-: "انفقي، ما ظهر كفى"، قالت: إذًا لا يبقى شيء، قال ذلك ثلاث مرات؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٢٧٦)، و"لباب النقول" (ص ١٣٦) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى} [الإسراء: ٢٦]، أي:" وأحسِنْ إلى كل مَن له صلة قرابة بك، وأعطه حقه من الإحسان والبر".

**قال الطبري:**" يقول تعالى: وصل قرابتك، فأعطه حقه من صلتك إياه".

قال ابن عباس:" هو أن تصل ذا القرابة ".

وفي قوله تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} [الإسراء: ٢٦]، وجوه:

**احدها**: أنه قرابة الميت من قبل أبيه وأمه. أمر الله جل ثناؤه عباده بصلتها. وهذا قول ابن عباس، والحسن، وعكرمة.

=

=

قال عكرمة:" صلته التي تريد أن تصله بها ما كنت تريد أن تفعله إليه".
عن حبيب المعلم، قال: "سأل رجل الحسن، قال: أعطي قرابتي زكاة مالي؟ فقال: إن لهم في ذلك لحقا سوى الزكاة، ثم تلا هذه الآية: {وآت ذا القربى حقه} ".

**الثاني**: أنه عنى به قرابة رسول الله ﷺ. وهذا قول علي بن الحسين -رضي الله عنه-.
عن أبي الديلم، قال: "قال علي بن الحسين عليهما السلام لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أفما قرأت في بني إسرائيل {وآت ذا القربى حقه}، قال: وإنكم للقرابة التي أمر الله جل ثناؤه أن يؤتى حقه، قال: نعم".
روي عن السدي، قال:" كان ناس من بني عبد المطلب يأتون النبي ﷺ يسألونه، فإذا صادفوا عنده شيئا أعطاهم، وإن لم يصادفوا عنده شيئا سكت، لم يقل لهم: نعم، ولا، ولا. و {القربى}: قربى بن عبد المطلب".
**قال الطبري**:" وأولى التأويلين عندي بالصواب، تأويل من تأول ذلك أنها بمعنى وصية الله عباده بصلة قرابات أنفسهم وأرحامهم من قبل آبائهم وأمهاتهم، وذلك أن الله عز وجل عقب ذلك عقيب حضه عباده على بر الآباء والأمهات، فالواجب أن يكون ذلك حضا على صلة أنسابهم دون أنساب غيرهم التي لم يجر لها ذكر، وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وأعط يا محمد ذا قرابتك حقه من صلتك إياه، وبرك به، والعطف عليه، وخرج ذلك مخرج الخطاب لنبي الله ﷺ، والمراد بحكمه جميع من لزمته فرائض الله، يدل على ذلك ابتداؤه الوصية بقوله جل ثناؤه (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما) فوجه الخطاب بقوله {وقضى ربك} إلى نبي الله ﷺ، ثم قال {ألا تعبدوا إلا إياه} فرجع بالخطاب به إلى الجميع، ثم صرف الخطاب بقوله {إما يبلغن عندك} إلى إفراده به. والمعني بكل ذلك جميع من لزمته فرائض الله عز وجل، أفرد بالخطاب

=

رسول الله ﷺ وحده، أو عم به هو وجميع أمته".

قوله تعالى: {وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [الإسراء: ٢٦]، أي:" وأعط المسكين الذي لا يملك ما يكفيه ويسد حاجته، والمسافر المنقطع عن أهله وماله".

قال ابن عباس:" وتطعم المسكين وتحسن إلى ابن السبيل".

**قال الطبري:**" والمسكين ذا الحاجة، والمجتاز بك المنقطع به، فأعنه، وقوه على قطع سفره. وقد قيل: إنما عنى بالأمر بإتيان ابن السبيل حقه أن يضاف ثلاثة أيام والقول الأول عندي أولى بالصواب، لأن الله تعالى لم يخصص من حقوقه شيئا دون شيء في كتابه، ولا على لسان رسوله، فذلك عام في كل حق له أن يعطاه من ضيافة أو حمولة أو معونة على سفره".

قال الإمام الشافعي في هذه الآية:" ففرض على كل من صار إليه حق لمسلم، أو حق له، أن يكون مؤديه، وأداؤه دفعه، لا ترك الحول دونه، وسواء دعاه إلى قبضه، أولم يدعه ما لم يبرئه منه، فيبرأ منه بالبراءة، أو

بقبضه منه في مقامه، أو غير مقامه، ثم يودعه إياه، وإذا قبضه ثم أودعه إياه فضمانه من مالكه. قال الربيع رحمه الله: يريد القابض له، وهو: المشتري".

قوله تعالى: {وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} [الإسراء: ٢٦]، أي:" ولا تنفق مالك في غير طاعة الله، أو على وجه الإسراف والتبذير".

قال السدي:" يقول: لا تعط مالك كله".

قال وهب بن منبه:" من السرف إن يكتسي الإنسان ويأكل ويشرب مما ليس عنده، وما جاوز الكفاف فهو التبذير".

قال ابن عباس:" المبذر: المنفق في غير حقه".

وقال ابن عباس:" لا تنفق في الباطل، فإن المبذر: هو المسرف في غير حق".

قال عبد الله:" التبذير في غير الحق، وهو الإسراف".

=

وروي أن "أبا العبيدين كان ضرير البصر، سأل ابن مسعود فقال: ما التبذير؟ فقال: إنفاق المال في غير حقه".

وقال مجاهد: "لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرا، ولو انفق مدا في باطل كان تبذيرا".

قال قتادة:" التبذير: النفقة في معصية الله، وفي غير الحق وفي الفساد".

قال ابن زيد:" لا تعط في معاصي الله".

قال أبو عبيدة:" المبذّر هو المسرف المفسد العائث".

**قال الطبري:**" يقول: ولا تفرق يا محمد ما أعطاك الله من مال في معصيته تفريقا. وأصل التبذير: التفريق في السرف؛ ومنه قول الشاعر:

**أناس أجارونا فكان جوارهم      أعاصير من فسق العراق المبذر".**

قال أبو حيان في البحر: «لما أمر الله- تعالى- ببر الوالدين، أمر بصلة القرابة. قال الحسن: نزلت في قرابة النبي ﷺ.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: وآت ذا القربى حقه فيه قولان: أحدهما: أنه قرابة الرجل من قبل أبيه وأمه، قاله ابن عباس، والحسن، فعلى هذا في حقهم ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد به: برهم وصلتهم.

**والثاني**: النفقة الواجبة لهم وقت الحاجة. والثالث: الوصية لهم عند الوفاة.

**والثاني**: أنهم قرابة الرسول، قاله علي بن الحسين عليهما السلام والسدي. فعلى هذا، يكون حقهم: إعطاؤهم من الخمس، ويكون الخطاب للولاة ا.هـ

والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ ...) والحق هنا ما يتعين له من صلة الرحم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه. قال نحوه: ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم».

والمراد بذوي القربى: من تربطك بهم صلة القرابة سواء أكانوا من المحارم أم لا.

=

=

والمسكين: هو من لا يملك شيئا من المال، أو يملك مالا يسد حاجته، وهذا النوع من الناس في حاجة إلى العناية والرعاية، لأنهم في الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل، على إراقة ماء وجوههم بالسؤال.

وفي الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئا».

وابن السبيل: هو المسافر المنقطع عن ماله سمى بذلك- كما يقول الآلوسى- لملازمته السبيل- أى: الطريق- في السفر. أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته» .

وهذا النوع من الناس- أيضا- في حاجة الى المساعدة والمعاونة، حتى يستطيع الوصول إلى بلده.

وفي هذا الأمر تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغي أن يكونوا في التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة.

والمعنى: وأعط- أيها العاقل- ذوى قرباك حقوقهم الثابتة لهم من البر، وصلة الرحم، والمعاونة، والزيارة، وحسن المعاشرة، والوقوف إلى جانبهم في السراء والضراء، ونحو ذلك مما توجبه تعاليم دينك الحنيف.

وأعط- كذلك- المسكين وابن السبيل حقوقهما التي شرعها الله- تعالى- لهما، من الإحسان إليهما، ومعاونتهما على ما يسد حاجتهما.

وقدم- سبحانه- الأقارب على غيرهم، لأنهم أولى بالمعروف، ولأن إعطاءهم إحسان وصلة رحم.

روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم، عن سليمان بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة على المسكين صدقة. وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة

=

=

وصلة».

وقوله- سبحانه-: وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً نهى عن وضع المال في غير موضعه الذي شرعه الله- تعالى- مأخوذ من تفريق البذر وإلقائه في الأرض كيفما كان من غير تعهد لمواقعه، ثم استعير لتضييع المال في غير وجوهه.

قال صاحب الكشاف: التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي، وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها، وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله- تعالى- بالنفقة في وجوهها، مما يقرب منه ويزلف.. .

وقال ابن كثير: وقوله وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً: لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطا، كما قال- تعالى-: وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً.

وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس.

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرا. ولو أنفق مدا في غير حقه كان تبذيرا .

قوله تعالى: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الإسراء: ٢٧]، أي:" إن المسرفين والمنفقين أموالهم في معاصي الله هم أشباه الشياطين في الشر والفساد والمعصية".

قال ابن كثير:" أي: في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ".

**قال الطبري**:" يعني: إن المفرقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته أولياء الشياطين، وكذلك تقول العرب لكل ملازم سنة قوم وتابع أثرهم: هو أخوهم".

عن ابن زيد: " {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ}، إن المنفقين في معاصي الله".

=

=

قوله تعالى: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٧]، أي:" وكان الشيطان كثير الكفران شديدَ الجحود لنعمة ربه".

قال ابن عباس: "يريد جاحدًا لأنعمه".

قال ابن كثير:" أي: جحودًا؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته".

**قال الطبري:**" يقول: وكان الشيطان لنعمة ربه التي أنعمها عليه جحودا لا يشكره عليه، ولكنه يكفرها بترك طاعة الله، وركوبه معصيته، فكذلك إخوانه من بني آدم المبذرون أموالهم في معاصي الله، لا يشكرون الله على نعمه عليهم، ولكنهم يخالفون أمره ويعصونه، ويستنون فيما أنعم الله عليهم به من الأموال التي خولهموها ﷻ سنته من ترك الشكر عليها، وتلقيها بالكفران".

وقوله: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ، وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً تعليل للنهى عن التبذير، وتنفير منه بأبلغ أسلوب.

والمراد بأخوة الشياطين: المماثلة لهم في الصفات السيئة، والسلوك القبيح.

قال الرازي: والمراد من هذه الأخوة، التشبه بهم في هذا الفعل القبيح، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشيء أخا له، فيقولون: فلان أخو الكرم والجود. وأخو السفر، إذا كان مواظبا على هذه الأعمال .

أى: كن- أيها العاقل- متوسطا في نفقتك، ولا تبذر تبذيرا. لأن المبذرين يماثلون ويشابهون الشياطين في صفاتهم القبيحة، وكان الشيطان في كل وقت وفي كل حال جحودا لنعم ربه، لا يشكره عليها، بل يضعها في غير ما خلقت له هذه النعم.

وفي تشبيه المبذر بالشيطان في سلوكه السيئ، وفي عصيانه لربه، إشعار بأن صفة التبذير من أقبح الصفات التي يجب على العاقل أن يبتعد عنها، حتى لا يكون مماثلا للشيطان الجاحد لنعم ربه.

=

=

قوله تعالى: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا} [الإسراء: ٢٨]، أي:" وإن أعرضت عن إعطاء هؤلاء الذين أُمِرْت بإعطائهم؛ لعدم وجود ما تعطيهم منه طلبًا لرزق تنتظره من عند ربك".

قال مجاهد:" انتظار رزق الله".

قال ابن كثير:" أي: وإذا سألك أقاربك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ".

قال ابن عباس:" إذا سألوك وليس عندك شيء انتظرت رزقا من الله".

قوله تعالى: {فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا} [الإسراء: ٢٨]، أي:" فقل لهم قولا ليِّنًا لطيفًا، كالدعاء لهم بالغنى وسعة الرزق، وعِدْهم بأن الله إذا أيسر من فضله رزقًا أنك تعطيهم منه".

قال ابن كثير:" أي: عدهم وعدًا بسهولة، ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله".

قال الحسن:" لينا سهلا، سيكون إن شاء الله تعالى فافعل، سنصيب إن شاء الله فافعل".

قال السدي:" يقول: قل لهم: نعم وكرامة، وليس عندنا اليوم وأن يأتينا شيء نعرف حقه".

قال ابن زيد:" قولا جميلا، رزقنا الله وإياك بارك الله فيك".

قال ابن عباس:" يقول: إن شاء الله يكون شبه العدة".

وقال ابن عباس:" عدة حسنة كأنه قد كان ولعه إن يكون إن شاء الله".

قال: سفيان رحمه الله:" والعدة من النبي ﷺ دين ".

قال السعدي:" أي: لطيفا برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم".

=

=

قال السدي في هذه الآية:" كان ناس من بني عبد المطلب يأتون النبي ﷺ يسألونه فإذا صادفوا عنده شيئا أعطاهم، وإن لم يصادفوا عنده شيئا سكت، لم يقل لهم: نعم، ولا، ولا. والقربى، قربى بن عبد المطلب".

ثم بين- سبحانه- بعد ذلك ما يجب على المؤمن فعله في حال عدم قدرته على تقديم العون للأقارب والمحتاجين، فقال- تعالى-: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً.

ولفظ إِمَّا مركب من «إن» الشرطية، ومن «ما» المزيدة. أى: إن تعرض عنهم.

وقوله (تُعْرِضَنَّ) من الإعراض، بمعنى صرف الوجه عن السائل حياء منه وبسبب عدم القدرة على تلبية طلبه.

وقوله: ابْتِغاءَ مفعول لأجله منصوب بتعرضن، وهو من باب وضع المسبب موضع السبب. لأن الأصل: وإما تعرضن عنهم لإعسارك.

والمراد بالرحمة: انتظار الحصول على الرزق، وحلول الفرج بعد الضيق.

والميسور: اسم مفعول من يسر الأمر- بالبناء للمفعول- مثل سعد الرجل، ومعناه:

السهل اللين.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: وإما تعرضن عنهم في المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الذين تقدم ذكرهم من الأقارب والمساكين وأبناء السبيل، قاله الأكثرون، فعلى هذا في علة هذا الإعراض قولان:

أحدهما: الإعسار، قاله الجمهور. والثاني: خوف إنفاقهم ذلك في معصية الله، قاله ابن زيد. وعلى هذا في الرحمة قولان: أحدهما: الرزق، قاله الأكثرون. والثاني: أنه الصلاح والتوبة. هذا على قول ابن زيد. والثاني: أنهم المشركون، فالمعنى: وإما تعرضن عنهم لتكذيبهم، قاله سعيد بن جبير.

=

=

فتحتمل إذا الرحمة وجهين: أحدهما: انتظار النصر عليهم. والثاني: الهداية لهم.
**والثالث**: أنهم ناس من مزينة جاءوا يستحملون رسول الله ﷺ، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فبكوا، فنزلت هذه الآية، قاله عطاء الخراساني.
**والرابع**: أنها نزلت في خباب، وبلال، وعمار، ومهجع، من الفقراء، كانوا يسألون رسول الله ﷺ فلا يجد ما يعطيهم، فيعرض عنهم ويسكت، قاله مقاتل، فعلى هذا القول والذي قبله تكون الرحمة بمعنى الرزق
قوله تعالى: فقل لهم قولا ميسورا قال أبو عبيدة: لينا هينا، وهو من اليسر. وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه العدة الحسنة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثاني: أنه القول الجميل، مثل أن يقول: رزقنا الله وإياك، قاله ابن زيد وهذا على ما تقدم من قوله. والثالث: أنه المداراة لهم باللسان، على قول من قال: هم المشركون، قاله أبو سليمان الدمشقي، وعلى هذا القول، تحتمل الآية النسخ ا.هـ

والمعنى: وإما تعرضن- أيها المخاطب- عن ذي قرابتك وعن المسكين وابن السبيل، بسبب إعسارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله- ﷻ فقل لهم في هذه الحالة قولا لينا رفيقا يدل على اهتمامك بشأنهم، ويدخل السرور على نفوسهم، كأن تقول لهم مثلا-: ليس عندي اليوم ما أقدمه لكم، وإن يرزقني الله بشيء فسأجعل لكم نصيبا منه.
قال القرطبي ما ملخصه: وهو تأديب عجيب، وقول لطيف بديع، أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر غنى وقدرة فتحرمهم، وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض، وعائق يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله- تعالى- فتح باب الخير، لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً أى لينا لطيفا.. ولقد أحسن من قال:

=

=

إلّا تكن ورق يوما أجود بها ... للسائلين فإني لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي ... إما نوالى وإما حسن مردود

قوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} [الإسراء: ٢٩]، أي:" ولا تمسك يدك عن الإنفاق في سبيل الخير، مضيِّقًا على نفسك وأهلك والمحتاجين".

عن مجاهد: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} : " لا تنفق شيئا".

قال ابن عباس:" يعني: بذلك البخل".

وقال ابن عباس:" هذا في النفقة يقول: لا تجعلها مغلولة، لا تبسطها بخير".

قال ابن شهاب:" لا تمنعه من حق".

قال الحسن: "أي: لا تدع النفقة في حق الله، فيكون مثلك مثل الذي غلت يده إلى عنقه فلا يستطيع أن يبسطها".

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامّا للبخل ناهيًا عن السَّرَف: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}، أي: لا تكن بخيلا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: {يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: ٦٤] أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب".

عن أبي هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَت - أو: وفرت - على جلده، حتى تُخفي بنانه وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع".

أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: "أنفقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعِي فَيُوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك" وفي لفظ: "ولا تُحصي فيحصي الله عليك".

=

=

عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك".

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا".

عن أبي هريرة مرفوعًا: "ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا ومن تواضع لله رفعه الله".

عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: "إياكم والشُّح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا".

عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما يخرج رجل صدقة، حتى يفك لَحْيَى سبعين شيطانا".

قوله تعالى: {وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} [الإسراء: ٢٩]، أي:" ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك".

قال مجاهد:" لا تسرف".

قال ابن عباس:" يعني: التبذير".

قال ابن كثير:" أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا. وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبي سُلمى في المعلقة:

**ومن كان ذا مال ويبخل بماله ... على قومه يستغن عنه ويذمم**

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا فإنها تسمى الحسير، وهو

=

=

مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: ٣، ٤] أي: كليل عن أن يرى عيبًا".

قوله تعالى: {فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء: ٢٩]، أي:" فتقعد ملومًا يلومك الناس ويذمونك، نادمًا على تبذيرك وضياع مالك".

قال ابن عباس:" {ملوما}: يلوم نفسه علي ما فاته من ماله. {محسورا} ذهب ماله كله".

قال مجاهد:" {ملوما} فيما بينك وبين ربك، {محسورا} في مالك".

قال قتادة:" نادما على ما فرط منك".

قال الحسن في هذه الآية:" نهاه عن السرف والبخل".

عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما عال من اقتصد".

ثم أرشد- سبحانه- عباده إلى أفضل الطرق لإنفاق أموالهم والتصرف فيها، فقال- تعالى-: وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ، فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً.

وقوله مَغْلُولَةً من الغل- بضم الغين- وأصله الطوق الذي يجعل في العنق وتربط به اليد، كما يربط المذنب والأسير: وهو كناية عن البخل والتقتير.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط. ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة. حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطى عطاء قط، ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها. ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا: ما أبسط يده بالنوال لأن بسط اليد وقبضها عبارتان معاقبتان للبخل والجود.. .

=

=

وقوله: مَحْسُوراً من الحسور بمعنى الانقطاع عن الشيء، والعجز عن الحصول عليه.

يقال: فلان حسره السير، إذا أثر فيه أثرا بليغا جعله يعجز عن اللحاق برفقائه.

ويقال: بعير محسور. أى: ذهبت قوته وأصابه الكلل والإعياء. فصار لا يستطيع النهوض بما يوضع عليه من أحمال.

والمقصود من الآية الكريمة: الأمر بالتوسط والاعتدال في الإنفاق والنهى عن البخل والإسراف.

فقد شبه- سبحانه- مال البخيل، بحال من يده مربوطة إلى عنقه ربطا محكما بالقيود والسلاسل، فصار لا يستطيع تحريكها أو التصرف بها.

وشبه حال المسرف والمبذر، بحال من مد يده وبسطها بسطا كبيرا، بحيث أصبحت لا تمسك شيئا يوضع فيها سواء أكان قليلا أم كثيرا.

والمعنى: كن- أيها الإنسان- متوسطا في كل أمورك، ومعتدلا في إنفاق أموالك بحيث لا تكون بخيلا ولا مسرفا، فان الإسراف والبخل يؤديان بك إلى أن تصير ملوما.

أى: مذموما من الخلق والخالق، محسورا، أى: مغموما منقطعا عن الوصول إلى مبتغاك بسبب ضياع مالك، واحتياجك إلى غيرك.

قال الآلوسى ما ملخصه: فالآية الكريمة تحض على التوسط، وذلك هو الجود الممدوح، فخير الأمور أوساطها. وأخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد». وأخرجه البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة». وفي رواية عن أنس مرفوعا: «التدبير نصف المعيشة، والتودد نصف العقل، والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين» وكما يقال: حسن التدبير مع الكفاف، خير من الغنى مع الإسراف.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الإسراء: ٣٠]، أي:" إن ربك يوسِّع الرزق على بعض الناس، ويضيِّقه على بعضهم، وَفْق علمه وحكمته سبحانه وتعالى".

قال ابن كثير:" إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة".

قال ابن زيد:"ثم أخبرنا كيف يصنع بنا، فقال: {إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر} ".

قال الحسن:" ينظر له، فإن كان الغنى خيرا له أغناه وان كان الفقر خير له أفقره".

وقال الحسن:" يبسط لهذا مكرا به ويقدر لهذا نظرا له".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء: ٣٠]، أي:" إنه هو المطَّلِع على خفايا عباده، لا يغيب عن علمه شيء من أحوالهم".

قال قتادة:" خبير بخلقه".

قال ابن كثير:" أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر، كما جاء في الحديث: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو
أفقرته لأفسدت عليه دينه».وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجًا، والفقر عقوبة عياذًا بالله من هذا وهذا".

ثم بين- سبحانه- أن مرجع الأمور كلها اليه، فهو المعطى وهو المانع، فقال- تعالى-: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً).

أى: إن ربك- أيها الإنسان- العاقل- يبسط الرزق ويوسعه لمن يشاء أن يبسطه له ويمسك الرزق ويضيقه ويقدره على من يشاء من خلقه. إذ كل شيء في هذا الكون يسير على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته، وهو- سبحانه- العليم ببواطن

=

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١).

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادكُمْ} بِالْوَأْدِ {خَشْيَة} مَخَافَة {إِمْلَاق} فقر {نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا} إثما {كبيرا} عظيما.

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢).

{ولا تقربوا الزنى} أبلغ من لا تأتوه {إنه كان فَاحِشَة} قَبِيحًا {وَسَاءَ} بِئْسَ {سَبِيلًا} طَرِيقًا هُوَ.

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣).

{وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْس الَّتِي حَرَّمَ الله إلَّا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لِوَلِيِّهِ} لِوَارِثِهِ {سُلْطَانًا} تَسَلُّطًا عَلَى الْقَاتِل {فَلَا يُسْرِف} يَتَجَاوَز الْحَدّ {فِي الْقَتْل} بِأَنْ يَقْتُل غَيْر قَاتِله أَوْ بِغَيْرِ مَا قُتِلَ بِهِ {إنه كان منصورا}.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ

---

=

الناس وبظواهرهم، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم، ولا يعطى أو يمنع، إلا لحكمة هو يعلمها.

قال- تعالى-: (ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد حضت على إيتاء ذوى القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم. وعلى الاعتدال في إنفاق المال، ونهت عن الشح والتبذير، وأسندت العطاء والمنع إلى الله- تعالى- الخبير البصير بالظواهر والبواطن.

الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤).

{ولا تقربوا مال اليتيم إلابالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ} إذَا عَاهَدْتُمْ الله أَوْ النَّاس {إن العهد كان مسئولا} عنه.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥).

{وأوفوا الكيل} أتموه {إذا كلتم وزنوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيم} الْمِيزَان السَّوِيّ {ذَلِكَ خَيْر وَأَحْسَن تأويلا} مالا.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦).

{ولا تقف} تتبع {ما ليس لك به علم إن السمع والبصر وَالْفُؤَاد} الْقَلْب {كُلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} صَاحِبه مَاذَا فَعَلَ بِهِ.

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧).

{وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْض مَرَحًا} أَيْ ذَا مَرَح بِالْكِبْرِ وَالْخُيَلَاء {إنَّك لَنْ تَخْرِق الْأَرْض} تَثْقُبهَا حَتَّى تَبْلُغ آخِرهَا بِكِبْرِك {وَلَنْ تَبْلُغ الْجِبَال طُولًا} الْمَعْنَى أَنَّك لَا تَبْلُغ هَذَا المبلغ فكيف تختال.

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨).

{كل ذلك} المذكور {كان سيئة عند ربك مكروها}.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩).

{ذلك مما أوحى إليك} يا محمد {ربك من الحكمة} الموعظة {ولا تجعل

مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مَدْحُورًا} مَطْرُودًا عَنْ رَحْمَةِ الله[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ} [الإسراء: ٣١].

قال قتادة:" أي: خشية الفاقة، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة".

قال قتادة:" كانوا يقتلون البنات".

عن مجاهد:" {خشية إملاق}، قال: الفاقة والفقر".

عن ابن عباس:" {خشية إملاق}، يقول: الفقر".

**قال الطبري**: يقول:"ولا تئدوا أولادكم فتقتلوهم من خشية الفقر على أنفسكم بنفقاتهم".

قال الزجاج:" أي: لا تقتلوا أولادكم من فقر، أي: من خوف فقر".

قال الثعلبي: أي:" ولا تئدوا بناتكم خشية العيش".

قال ابن كثير:" أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم".

قال القرطبي:" أي: لا تئدوا- من الموءودة- بناتكم خشية العيلة، فإني رازقكم وإياهم. وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر، كما هو ظاهر الآية".

قال السعدي: أي:" من ذكور وإناث، بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجودا في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال، وهم أولادهم، فنهيهم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولى وأحرى".

قال ابن الجّوزي: يريد: دفن البنات أحياء من خوف الفقر".

قال أبو عبيدة: {مِنْ إِمْلَاقٍ}، أي:" من ذهاب ما فى أيديكم".

قال الشافعي: كان بعض العرب تقتل الإناث من ولدها صغارا خوف العيلة =

=

عليهم، والعار بهم، فلما نهى الله عز ذكره عن ذلك من أولاد المشركين، دل على تثبيت النهي عن قتل أطقال المشركين في دار الحرب، وكذلك دلت عليه السنة، مع ما دل عليه الكتاب من تحريم القتل بغير حق".

وفي معنى «الإملاق» في اللغة، أقوال:

**أحدها**: أنه الإفلاس، ومنه: الملق، لأنه اجتهاد المفلس في التقريب إلى الغنى طمعًا في تأجيله. وهذا قول الطبري، وهو معنى قول أبي عبيدة.

قال أبو عبيدة:" أملق فلان، أي: ذهب ماله، واحتاج، وأقفر مثلها".

**والثاني**: أن الإملاق: الفقر، قتلوا أولادهم خشية الفقر. وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والسدي، والضحاك، وابن جريج، واختيار الزجاج.

**والثالث**: أن الإملاق: الجوع بلغة لخم. حكاه النقاش عن مؤرج.

**والرابع**: أنه الإنفاق، يقال: أملق ماله بمعنى أنفقه، ورجل ملق يعطي بلسانه ما ليس في قلبه. حكاه القرطبي عن منذر بن سعيد.

وذكر أن عليا رضي الله عنه قال لامرأته: "أملقي من مالك ما شئت".

والخامس: أنه السرف في الإنفاق. ذكره النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي.

قال الثعلبي:" الإملاق: الفقر ونفاد الزاد".

قوله تعالى: {نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} [الإسراء: ٣١]، أي:" نحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر بسببهم".

**قال الطبري**: أي:" فإن الله هو رازقكم وإياهم، ليس عليكم رزقهم، فتخافوا بحياتهم على أنفسكم العجزَ عن أرزاقهم وأقواتهم".

قال السعدي:" أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق".

قال قتادة:" فوعظهم الله في ذلك، وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله،

=

=

فقال {نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا} ".

قوله تعالى: {إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} [الإسراء: ٣١]، أي:" إنَّ قَتْلَ الأولاد ذنب عظيم".

عن مجاهد: " {إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}، قال: أي: خطيئة".

قال الحسن: ذنبا كبيرا".

قال قتادة: إثما كبيرا".

قال ابن كثير:" أي: ذنبًا عظيمًا ".

وفي الفرق بين «الخِطْءِ» و «الخطأ»، ثلاثة وجوه:

**احدها**: أن «الخِطء»: العدول عن الصواب بعمد، و «الخطأ»: العدول عنه بسهو، قاله الأخفش.

قال الأخفش:" لأن ما أخطأت فيه: ما صنعته خطأ، و ما «خطئت» فيه: ما صنعته عمدا وهو الذنب".

**الثاني**: أن «الخطء» ما كان إثمـًا، و «الخطأ» ما لا إثم فيه.

**الثالث**: أنهما بمعنى واحد. حكاه الأخفش، والطبري، وأبو هلال العسكري، ومنه قول الشاعر:

**يا لَهْفَ نَفْسي إِذْ خَطِئْنَ كَاهِلا     القاتِلِينَ المَلِكَ الحُلاحِلا**

وقول الآخر:

**والناس يلحون الأمير إذا هم     خطئوا الصّواب ولا يلام المرشد**

قال أبو هلال العسكري:" عند كثير من أهل اللغة أن «الخطأ» و «الخطء» سواء، الخطأ أفشى في كلام الناس، ولم يجئ الخطء في شيء من الشعر، إلا في بيت واحد وهو قول الشاعر:

=

=

الخِطأ فَاحشة وَالبِر نَافلَةْ كعَجوة غرِست في الأرض تُؤتبر".

**قال الطبري:**" وكان عامة أهل العلم بكلام العرب من أهل الكوفة وبعض البصريين منهم يرون أن الخطء والخطأ بمعنى واحد".

وقرأ ابن كثير: «خطآء»، مكسورة الخاء ممدودة مهموزة، وقرأ ابن عامر: {خطأ} بنصب الخاء والطاء وبالهمز من غير مد.

قال ابن كثير:" هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى تعالى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك".

* يسوق- سبحانه- جملة من النواهي التي يؤدى الوقوع فيها إلى فساد أحوال الأفراد والجماعات، وإلى شيوع الفاحشة في الأمم، مما يؤدى إلى اضمحلالها وذهاب ريحها، فقال- تعالى-:

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ... نهى عن قتل الأولاد بعد بيان أن الأرزاق بيده- سبحانه-، يبسطها لمن يشاء، ويضيقها على من يشاء.

والإملاق: الفقر. يقال: أملق الرجل إذا افتقر قال الشاعر:.

وإنى على الإملاق يا قوم ماجد ... أعد لأضيافى الشواء المصهبا

قال الآلوسى: وظاهر اللفظ النهى عن جميع أنواع قتل الأولاد، ذكورا كانوا أو إناثا مخافة الفقر والفاقة.

لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن، فنهى في الآية عن ذلك، فيكون المراد بالأولاد البنات، وبالقتل الوأد.. .

أى: ولا تقتلوا- أيها الآباء- أولادكم خشية فقر متوقع، فنحن قد تكفلنا برزقهم ورزقكم، وأرزاق غيركم من مخلوقاتنا التي لا تحصى.

=

=

قال- تعالى-: وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها ...

ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم، فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم، والتخلص منهم خوفا من الفقر المتوقع في المستقبل، مع أن الله- تعالى- هو الرازق لهم ولكم في كل زمان ومكان.

وقد ورد النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة، وورد في سورة الأنعام بصيغة أخرى، هي قوله- تعالى-: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.

وليست أحدهما تكرارا للأخرى وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة.

فهنا يقول- سبحانه-: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ لأن النهى موجه بالأصالة إلى الموسرين الذين يقتلون أولادهم لا من أجل فقر كائن فيهم، وإنما من أجل فقر هم يتوهمون حصوله في المستقبل بسبب الأولاد، لذا قال- سبحانه- نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر، في زعم آبائهم- لكي يمتنع الآباء عن هذا التوقع ولكي يضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء.

وقال- سبحانه- هناك مِنْ إِمْلاقٍ لأن النهى متوجه أصالة إلى الآباء المعسرين: أى لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم- أيها الآباء-، فقد يجعل الله بعد عسر يسرا.

ولذا قال- سبحانه-: نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ فجعل الرزق للآباء ابتداء. لكي يطمئنهم- سبحانه- على أنه هو الكفيل برزقهم وبرزق أولادهم.

وفي كلتا الحالتين، القرآن الكريم ينهى عن قتل الأولاد، ويغرس في نفوس الآباء الثقة بالله- تعالى- والاعتماد عليه.

وجمله نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ تعليل للنهى عن قتل الأولاد، بإبطال موجبه- في زعمهم- وهو الفقر.

=

=

أى: نحن نرزقهم لا أنتم، ونرزقكم أنتم معهم، وما دام الأمر كذلك فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء: وهي قتل الأولاد، لأن الأولاد، قطعة من أبيهم، والشأن- حتى في الحيوان الأعجم- أنه يضحى من أجل أولاده ويحميهم، ويتحمل الصعاب في سبيلهم.

وقوله إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً تعليل آخر للنهى عن قتل الأولاد جيء به على سبيل التأكيد.

والخطء: هو الإثم- وزنا ومعنى-، مصدر خطئ خطئا كأثم إثما من باب علم.

أى: أن قتل الأولاد كان عند الله- تعالى- إثما كبيرا فاحشا، يؤدى إلى التعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة:

والحق أن المجتمع الذي يبيح قتل الأولاد، خوفا من الفقر أو العار، لا يمكن أن يصلح شأنه، لأنه مجتمع نفعي تسوده الأثرة والأنانية والتشاؤم والأوهام، لأن أفراده يظنون أن الله يخلق خلقا لا يدبر لهم رزقهم، ويعتدون على روح بريئة طاهرة، تخوفا من فقر أو عار مترقب، وذلك هو الضلال المبين.

قال الرازي فقد قال ما ملخصه: إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر، فهو سوء ظن بالله، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى في تخريب العالم. فالأول: ضد التعظيم لأمر الله- تعالى- والثاني: ضد الشفقة على خلقه، وكلاهما مذموم .

ولقد أمر النبي ﷺ برعاية الأبناء، وحذر من الاعتداء عليهم في أحاديث كثيرة، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك. قلت: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أى؟ قال: أن تزنى بحليلة جارك .

وبعد أن نهى- سبحانه- عن قتل الأولاد المؤدى إلى إفناء النسل، أتبع ذلك بالنهى عن فاحشة الزنا المؤدية إلى اختلاط الأنساب: فقال- تعالى-: وَلا تَقْرَبُوا

=

=

الزِّنى، إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا.

والزنا: وطء المرأة بدون عقد شرعي يجيز للرجل وطأها.

قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا} [الإسراء: ٣٢]، أي:" ولا تقربوا الزنى ودواعيه؛ كي لا تقعوا فيه".

قال ابن كثير:" يقول تعالى ناهيًا عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا} ".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً} [الإسراء: ٣٢]، أي:" إن الزنى كان فعلا بالغ القبح".

**قال الطبري:**" يقول: إن الزنا كان فاحشة".

قال ابن كثير:" أي: ذنبًا عظيمًا".

قال السدي:" أما "الفاحشة": فالزنا".

قوله تعالى: {وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٣٢]، أي:" وبئس الطريق طريقه".

**قال الطبري:**" يقول: وساء طريق الزنا طريقا، لأن طريق أهل معصية الله، والمخالفين أمره، فأسوئ به طريقا يورد صاحبه نار جهنم".

قال ابن كثير:" أي: وبئس طريقًا ومسلكًا ".

عن السدي: " {وساء سبيلا}، يعني: المسلك".

عن عطاء بن أبي رباح: " {وساء سبيلا}، قال: طريقا لمن عمل به".

قال الشافعي رحمه الله: "وحرم الزنا فقال: {ولا تقربوا الزنا} مع ما ذكره في كتابه - سبحانه وتعالى - فكان معقولا في كتاب الله: أن ولد الزنا لا يكون منسوبا إلى أبيه، الزاني بأمه. لما وصفنا: من أن نعمته إنما تكون من جهة طاعته؛ لا من جهة معصيته".

عن الهيثم بن مالك الطائي، عن النبي ﷺ قال: "ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند

=

=

الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له".

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب حين يشرب وهو مؤمن، ولا يقتل وهو مؤمن"، قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف ينزع الإيمان منه؟ قال: هكذا، وشبك بين أصابعه، ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبك بين أصابعه.

عن أبي أمامة قال: «إن فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: "ادنه". فدنا منه قريبًا، فقال اجلس". فجلس، قال: "أتحبه لأمك؟ " قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم". قال: "أفتحبه لابنتك"؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم"، قال: "أتحبه لأختك"؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم"، قال: "أفتحبه لعمتك"؟ قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم" قال: "أفتحبه لخالتك"؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم" قال: فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه" قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء"».

والفاحشة: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال. يقال فحش الشيء، فحشا، كقبح قبحا- وزنا ومعنى-، ويقال أفحش الرجل، إذا أتى الفحش بضم الفاء وسكون الحاء-، وهو القبيح من القول أو الفعل. وأكثر ما تكون الفاحشة إطلاقا على الزنا.

وتعليق النهى بقربانها، للمبالغة في الزجر عنها، لأن قربانها قد يؤدى إلى الوقوع فيها، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وهذا لون حكيم من ألوان إصلاح النفوس، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من

=

=

الشيء، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى.

فكأنه- سبحانه- يقول: كونوا- أيها المسلمون بعيدين عن كل المقدمات التي تفضى إلى فاحشة الزنا كمخالطة النساء، والخلوة بهن، والنظر إليهن ... فإن ذلك يفتح الطريق إلى الوقوع فيها.

قال بعض العلماء: وكثيرا ما يتعلق النهى في القرآن بالقربان من الشيء، وضابطه بالاستقراء:

أن كل منهى عنه من شأنه أن تميل النفوس إليه، وتدفع إليه الأهواء، جاء النهى فيه عن القربان، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل في النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم، ومن ذلك قوله- تعالى-: وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...

وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى ... وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ...

أما المحرمات التي لم يؤلف ميل النفوس إليها، ولا اقتضاء الشهوات لها، فإن الغالب فيها، أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه.

ومن ذلك قوله- تعالى-: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ... وقوله- تعالى-: وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ...

فهذه وإن كانت فواحش، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية، يميل إليها الإنسان بشهوته.

بل هي في نظر العقل على المقابل من ذلك، يجد الإنسان في نفسه مرارة ارتكابها، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها، أو في حكم الكاره.. .

وقوله: إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا تعليل للنهى عن الاقتراب منه، أى: ابتعدوا عن مقدمات الزنا فضلا عن الوقوع فيه ذاته، لأنه كان- وما زال- في شرع الله، وفي نظر كل عقل سليم فعلة فاحشة ظاهرة القبح وبئس الطريق طريقه، فإنها طريق تؤدى

=

=

إلى غضب الله- تعالى- وسخطه.

ومما لا شك فيه أن فاحشة الزنا من أقبح الفواحش التي تؤدى إلى شيوع الفساد والأمراض الخبيثة في الأفراد والمجتمعات، وما وجدت في أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا.

ولقد تحدث الرازي عن تلك المفاسد التي تترتب على الزنا فقال ما ملخصه:

الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد، أولها: اختلاط الأنساب واشتباهها، فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية، أهو منه أو من غيره ...

وثانيا: أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل لتلك المرأة، لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل.

وثالثها: أن المرأة إذا باشرت الزنا، استقذرها كل طبع سليم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة، ولا يتم السكن والازدواج..

ورابعها: أنه إذا فتح باب الزنا، فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان، وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب.

وخامسها: أنه ليس المقصود من المرأة قضاء الشهوة، بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته.. وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد، منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا ... فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضى على الزنا بالقبح .

ولقد سد الإسلام جميع المنافذ التي تؤدى إلى ارتكاب هذه الفاحشة، وسلك لذلك وسائل من أهمها:

١- تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية، ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء إلا في حدود الضرورة الشرعية، ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى، ما رواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع

=

=

ذي محرم».

وروى الشيخان- أيضا- عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء. فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو- بفتح الحاء وسكون الميم- وهو قريب الزوج كأخيه وابن عمه فقال ﷺ: «الحمو الموت» . أى: دخوله قد يؤدى إلى الموت.

٢- تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية. ووجوب غض البصر.

قال- تعالى-: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ...

وقال- سبحانه-: وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ.. .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة: العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام ... والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه».

٣- وجوب التستر والاحتشام للمرأة فإن التبرج والسفور يغرى الرجال بالنساء، ويحرك الغريزة الجنسية بينهما.

قال- تعالى-: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ.. .

٤- الحض على الزواج، وتيسير وسائله، والبعد عن التغالى في نفقاته، وتخفيف مؤنه وتكاليفه.. فإن الزواج من شأنه أن يحصن الإنسان، ويجعله يقضى شهوته في الحلال..

فإذا لم يستطع الشاب الزواج، فعليه بالصوم فإنه له وقاية- كما جاء في الحديث الشريف-.

٥- إقامة حدود الله بحزم وشدة على الزناة سواء أكانوا من الرجال أم من النساء، كما قال- تعالى-: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ. وَلا

=

=

تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وهذا الجلد إنما هو بالنسبة للبكر ذكرا كان أو أنثى، أما بالنسبة للمحصن وهو المتزوج أو الذي سبق له الزواج، فعقوبته الرجم ذكرا كان أو أنثى، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة.

ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قضى في زان لم يتزوج وزانية متزوجة، بقوله لوالد الرجل: «على ابنك مائة جلدة وتغريب عام» ثم قال ﷺ لأحد أصحابه واسمه أنيس: اغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها.

ومما لا شك أنه لو تم تنفيذ حدود الله- تعالى- على الزناة، لمحقت هذه الفاحشة محقا، لأن الشخص إن لم يتركها خوفا من ربه- ﷻ لتركها خوفا من تلك العقوبة الرادعة، ومن فضيحته على رءوس الأشهاد.

هذه بعض وسائل الوقاية من تلك الفاحشة القبيحة، ولو اتبعها المسلمون، لطهرت أمتهم من رجسها، ولحفظت في دينها ودنياها.

قوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الإسراء: ٣٣]، أي:" ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قَتْلها إلا بالحق الشرعي".

**قال الطبري:**" وقضى -أيضا- أن {لا تَقْتُلُوا}، أيها الناس {النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله} قتلها {إلا بالحَقّ}، وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قود نفس، وإن كانت كافرة لم يتقدّم كفرها إسلام، فأن لا يكون تقدم قتلها لها عهد وأمان".

في الصحيحين؛ أن رسول الله ﷺ قال: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن،

=

=

والتارك لدينه المفارق للجماعة".

وفي السنن: "لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق".

وفي رواية: «لزوال الدنيا جميعا أهون على الله من دم يسفك بغير حق».

وفي رواية: «لزوال الدنيا وما فيها أهون على الله من قتل مسلم بغير حق».

وفي رواية: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم».

قال قتادة:" وإنا والله ما نعلم بحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، إلا رجلا قتل متعمدا، فعليه القود، أو زنى بعد إحصانه فعليه الرجم؛ أو كفر بعد إسلامه فعليه القتل".

عن عروة أو غيره، قال: "قيل لأبي بكر: أتقتل من يرى أن لا يؤدي الزكاة، قال: لو منعوني شيئا مما أقروا به لرسول الله ﷺ لقاتلتهم فقيل لأبي بكر: أليس قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله" فقال أبو بكر: هذا من حقها".

قوله تعالى: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [الإسراء: ٣٣]، أي:" ومن قُتِل بغير حق شرعي فقد جعلنا لولي أمره مِن وارث أو حاكم حجة في طلب قَتْل قاتله أو الدية".

**قال الطبري:**" يقول: ومن قتل بغير المعاني التي ذكرنا أنه إذا قتل بها كان قتلا بحق، فقد جعلنا لولي المقتول ظلما سلطانا على قاتل وليه، فإن شاء استقاد منه فقتله بوليه، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ الدية".

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [الإسراء: ٣٣]، وجوه:

**أحدها:** أنه القود الذي جعله الله تعالى، قاله قتادة.

=

**الثاني**: أنه الخيار بين القود أو الدية أو العفو، وهذا قول ابن عباس، والضحاك.
**الثالث**: فقد جعلنا لوليه سلطاناً ينصره وينصفه في حقه. حكاه الماوردي.
**قال الطبري**: والصواب "أن السلطان الذي ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما قاله ابن عباس، من أن لولي القتيل القتل إن شاء وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء العفو، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: "ألا ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين بين أن يقتل أو يأخذ الدية". قد بينت الحكم في ذلك في كتابنا: كتاب الجراح".
قال ابن كثير:" قوله: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا}، أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَودًا، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجانًا، كما ثبتت السنة بذلك. وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولي
عثمان، وقد قتل عثمان مظلومًا، رضي الله عنه، وكان معاوية يطالب عليًا، رضي الله عنه، أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم؛ لأنه أموي، وكان علي، رضي الله عنه، يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع عليًا هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجب وقد روى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال: حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضَمْرَةُ بن ربيعة، عن ابن شوذب، عن مطر الوراق، عن زَهْدَم الجَرْمي، قال: كنا في سمر ابن عباس فقال: إني محدثكم حديثا ليس بسر ولا علانية؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان - يعني عثمان - قلت لعلي: اعتزل فلو كنت في جحر طلبت حتى تستخرج، فعصاني، وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن الله تعالى يقول: {وَمَنْ قُتِلَ

=

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ}، الآية وليحملنكم قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذ بما يُعْرَف نجا، ومن ترك وأنتم تاركون، كنتم كقرن من القرون، هلك فيمن هلك» ".

قال ابن حزم: "لم ينكر معاويةُ قط فضلَ عليٍّ واستحقاقه بالخلافة لكن اجتهاده أدّاه إلى أنْ رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على البيعة ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان".

قال الأشعري: "وكذلك ما جرى بين علي ومعاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كان على تأويل واجتهاد وكل الصحابة مأمونون غير متهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم، وتعبَّدَنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم والتّبَرِّي من كل من ينقص أحدًا منهم رضي الله عن جميعهم".

قوله تعالى: {فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ} [الإسراء: ٣٣]، أي:" فلا يتجاوز الحدَّ المشروع".

قال طليث بن حبيب:" لا يقتل غير قاتله، ولا يمثل به".

قال سعيد بن جبير:" لا يقتل اثنين بواحد".

قال مجاهد:" لا يقتل غير قاتله".

قال قتادة:" من قتل بحديدة قتل بحديدة، ومن قتل بخشبة، قتل بخشبه ومن قتل بحجر قتل بحجر، ولا يقتل غير قاتله".

قال الشافعي:" فقوله: {يسرف في القتل} دلالة على أن من قتل مظلوما، فلوليه أن يقتل قاتله".

قال ابن كثير:" قالوا: معناه: فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء: ٣٣]، أي:" إن الله معين وليَّ المقتول على القاتل حتى يتمكن مِن قَتْله قصاصًا".

قال ابن كثير:" أي: أن الولي منصور على القاتل شرعًا، وغالبًا قدرًا".

قال ابن عباس:" يقول: ينصره السلطان حتى ينصفه من ظالمه. ومن انتصر لنفسه دون السلطان، فهو عاص مسرف قد عمل بحمية أهل الجاهلية، ولم يرضى بحكم الله".

عن مجاهد:" {إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}، قال: إن المقتول كان منصورا".

ثم نهى- سبحانه- عن قتل النفس المعصومة الدم، بعد نهيه عن قتل الأولاد، وعن الاقتراب من فاحشة الزنا فقال- تعالى-: وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

أى: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها، إلا بالحق الذي يبيح قتلها شرعا، كردة، أو قصاص، أو زنا يوجب الرجم.

قال الإمام ابن كثير: يقول- تعالى- ناهيا عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين- عن عبد الله بن مسعود- أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وفي السنن: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم ».

وقوله: إِلَّا بِالْحَقِّ متعلق بلا تقتلوا، والباء للسببية، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى: لا تقتلوها في حال من الأحوال، إلا في حال ارتكابها لما يوجب قتلها.

وذلك: لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله- تعالى- فلا يحل لأحد أن يهدمه إلا بحق.

=

=

وبهذا يقرر الإسلام عصمة الدم الإنساني، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة، فكأنما قد اعتدى على الناس جميعا. قال- تعالى-: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً، وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً.. .

وقوله- سبحانه-: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً ) إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق العدل عند المطالبة بحقه.

قال ابن الجوزي: وللمفسرين في السلطان قولان: أحدهما: أنه الحجة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الوالي، والمعنى: فقد جعلنا لوليه سلطانا ينصره وينصفه في حقه، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: فلا يسرف في القتل... وفي المشار إليه في الآية قولان: أحدهما: أنه ولي المقتول. وفي المراد بإسرافه خمسة أقوال: أحدها: أن يقتل غير القاتل، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: أن يقتل اثنين بواحد، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أن يقتل أشرف من الذي قتل، قاله ابن زيد. والرابع: أن يمثل، قاله قتادة. والخامس: أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان، ذكره الزجاج. والثاني: أن الإشارة إلى القاتل الأول، والمعنى: فلا يسرف القاتل بالقتل تعديا وظلما، قاله مجاهد.

قوله تعالى: إنه كان منصورا أي: معانا عليه. وفي هاء الكناية أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الولي، فالمعنى: إنه كان منصورا بتمكينه من القود، قاله قتادة، والجمهور. والثاني: أنها ترجع إلى المقتول، فالمعنى: إنه كان منصورا بقتل قاتله، قاله مجاهد. والثالث: أنها ترجع إلى الدم، فالمعنى: إن دم المقتول كان منصورا، أي: مطلوبا به. والرابع: أنها ترجع إلى القتل، ذكر القولين الفراء ا.هـ

=

=

والمراد بوليه على الراجح: من يلي أمر المقتول، كأبيه وابنه وأخيه وغيرهم من أقاربه الذين لهم الحق في المطالبة بدمه. فإن لم يكن للمقتول ولى، فالحاكم وليه.

والمراد بالسلطان: القوة التي منحتها شريعة الله- تعالى- لولى المقتول على القاتل، حيث جعلت من حق هذا الولي المطالبة بالقصاص من القاتل، أو أخذ الدية منه، أو العفو عنه، ولا يستطيع أحد أن ينازعه في هذا الحق، أو أن يجبره على التنازل عنه.

والمعنى: ومن قتل مظلوما، أى: بدون سبب يوجب قتله، فإن دمه لم يذهب هدرا، فقد شرعنا «لوليه سلطانا» على القاتل، لأنه- أى الولي- إن شاء طالب بالقصاص منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا عنه. وبذلك يصير الولي هو صاحب الكلمة الأولى في التصرف في القاتل، حتى لكأنه مملوك له.

وما دامت شريعة الله- تعالى- قد أعطت الولي هذا السلطان على القاتل، فعليه أن لا يسرف في القتل، وأن لا يتجاوز ما شرعه الله- تعالى-.

ومن مظاهر هذا التجاوز: أن يقتل اثنين- مثلا- في مقابل قتيل واحد أو أن يقتل غير القاتل، أو أن يمثل بالقاتل بعد قتله.

قال الآلوسى ما ملخصه: كان من عادتهم في الجاهلية، أنهم إذا قتل منهم واحد، قتلوا قاتله، وقتلوا معه غيره ...

وأخرج البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم أنه قال: إن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل من ليس شريفا شريفا، لم يقتلوه به، وقتلوا شريفا من قومه، فنهوا عن ذلك، كما نهوا عن المثلة بالقاتل.

وقرأ حمزة والكسائي: «فلا تسرف» بالخطاب للولي على سبيل الالتفات .

وقوله: (إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً ) تذييل المقصود به تعليل النهى عن الإسراف في القتل.

وقد ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن الضمير في قوله تعالى: {إنه كان

=

=

منصورا} يعود على القاتل، فهو منصور بخلاصه من عذاب الآخرة إذا قتل في الدنيا.

وذهب الجمهور إلى أن الضمير يعود على الولي، فهو منصور بتمكينه من القود.

وهذا القول مروي عن قتادة. وبه قال: أبو عبيدة معمر بن المثنى، وابن كثير.

ورجحه: الطبري، والنحاس، وأبو حيان.

وروي عن مجاهد أن الضمير يعود على المقتول؛ فهو منصور بقتل قاتله.

يقول ابن عطية عن هذا القول: (وهو عندي أرجح الأقوال؛ لأنه المظلوم، ولفظة النصر تقارن أبدا الظلم).

والراجح - والله أعلم - أن القول الأقرب للصواب هو قول من قال أن الضمير يعود على الولي؛ فهو منصور بتمكينه من القود، ويشهد لهذا ما يلي:

- أن في السياق قرينة تؤيد هذا القول، وهو قوله تعالى: {فلا يسرف في القتل} والقول الذي تؤيده قرينة في السياق مقدم على غيره.

يقول النحاس: (الأبين بالياء - أي القراءة بالياء - وتكون للولي؛ لأنه إنما يقال لا يسرف لمن كان له أن يقتل، فهذا للولي).

- أن في هذا القول توحيد لمرجع الضمائر، وتوحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها.

قال أبو حيان: (والضمير في {إنه} عائد على الولي لتناسق الضمائر).

أما القول المنسوب لأبي عبيد فقد ضعفه بعض المفسرين؛ يقول عنه ابن عطية: (وهو ضعيف بعيد المقصد). وقال مكي بن أبي طالب: وفيه بعد في التأويل.

فالمعنى: فلا يسرف هذا الولي في القتل، لأن الله- تعالى- قد نصره عن طريق ما شرعه له من سلطان عظيم، من مظاهره: المطالبة بالقصاص من القاتل، أو بأخذ الدية، ومن مظاهره- أيضا- وقوف الحاكم وغيره إلى جانبه حتى يستوفي حقه من

=

=

القاتل، دون أن ينازعه منازع في هذا الحق.

ومنهم من يرى أن الضمير في قوله إِنَّهُ يعود إلى المقتول ظلما، على معنى: أن الله- تعالى- قد نصره في الدنيا بمشروعية القصاص والدية حتى لا يضيع دمه، ونصره في الآخرة بالثواب الذي يستحقه، وما دام الأمر كذلك فعلى وليه أن لا يسرف في القتل.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب. لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة.

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في ذلك: وأشبه ذلك بالصواب عندي، قول من قال: عنى بها- أى بالهاء في إنه- الولي، وعليه عادت، لأنه هو المظلوم ووليه المقتول، وهي إلى ذكره أقرب من ذكر المقتول، وهو المنصور- أيضا- لأن الله- جل ثناؤه- قضى في كتابه المنزل، أن سلطه على قاتل وليه، وحكمه فيه، بأن جعل إليه قتله إن شاء، واستبقاءه على الدية إن أحب، والعفو عنه إن رأى. وكفى بذلك نصرة له من الله- تعالى-، فلذلك هو المعنى بالهاء التي في قوله إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة التي هي أول آية نزلت في شأن القتل كما قال الضحاك:

يراها قد عالجت هذه الجريمة علاجا حكيما.

فهي أولا: تنهى عن القتل، لأنه من أكبر الكبائر التي تؤدى إلى غضب الله- تعالى- وسخطه، قال- تعالى-: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً.

وجاء النهى عنه في بعض الآيات بعد النهى عن الإشراك بالله- ﷻ. قال- سبحانه-: وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...

=

=

كما جاء النهى عنه في كثير من الأحاديث النبوية، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود- رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء».

وفي حديث آخر يقول ﷺ: «الآدمي بنيان الرب، ملعون من هدم بنيان الرب».

وفي حديث ثالث: «لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم، لأكبهم الله في النار».

وهذا النهى الشديد عن قتل النفس من أسبابه: أنه يؤدى إلى شيوع الغل والبغض والتقاتل ... بين الأفراد والجماعات إذ النفس البشرية في كل زمان ومكان، يؤلمها، ويثير غضبها وانتقامها، أن ترى قاتل عزيز لديها يمشى على الأرض..

وهي ثانيا: تسوق لولى المقتول من التوجيهات الحكيمة، ما يهدئ نفسه، ويقلل من غضبه، ويطفئ من نار ثورته المشتعلة.

قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٣٤]، أي:" ولا تتصرَّفوا في أموال الأطفال الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، وصاروا في كفالتكم، إلا بالطريقة التي هي أحسن لهم، وهي التثمير والتنمية".

**قال الطبري:**" وقضى أيضا أن لا تقربوا مال اليتيم بأكل، إسرافا وبدارا أن يكبروا، ولكن اقربوه بالفعلة التي هي أحسن، والخلة التي هي أجمل، وذلك أن تتصرفوا فيه له بالتثمير والإصلاح والحيطة".

قال القرطبي: قوله: {إلا بالتي هي أحسن} :" أي: بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصول وتثمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال في هذا، فإنه جامع".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٣٤]، وجوه:

**أحدها**: حفظ أصوله وتثمير فروعه، وهو محتمل.

**الثاني**: أن التي هي أحسن التجارة له بماله.

=

**الثالث**: معناه: الأكل بالمعروف، أن تأكل معه إذا احتجت إليه. رواه ابن زيد عن ابيه.

قال ابن كثير:" أي: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة، {وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} [النساء: ٢] و {لا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء: ٦].

وقد جاء في صحيح مسلم؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: "يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تَأَمَّرَن على اثنين، ولا تولين مال يتيم» ".

قال قتادة:" كانوا لا يخالطونهم في مال ولا مأكل ولا مركب، حتى نزلت: {وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُم} ".

وقال قتادة:" لما نزلت هذه الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فكانوا لا يخالطونهم في طعام أو أكل ولا غيره، فأنزل الله تبارك وتعالى: {وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}، فكانت هذه لهم فيها رخصة ".

قوله تعالى: {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الإسراء: ٣٤]، أي:" حتى يبلغ الطفل اليتيم سنَّ البلوغ وحسن التصرف في المال".

**قال الطبري:**" يقول: حتى يبلغ وقت اشتداده في العقل، وتدبير ماله، وصلاح حاله في دينه".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الإسراء: ٣٤]، وجوه:

**أحدها**: أنه الحلم حين تكتب له الحسنات وعليه السيئات، قاله ربيعة، وزيد بن أسلم، ومالك، وعامر.

**الثاني**: أنه خمس عشرة سنة. وهذا قول محمد بن قيس.

**الثالث**: أنه ثماني عشرة سنة، وهذا قول سعيد بن جبير، وحكاه الماوردي عن علي

=

بن عيسى.

**الرابع**: أنه خمس وعشرون سنة. قاله عكرمة، وهو اختيار أبي حنيفة.

قال ابن العربي: "وعجبا من أبي حنيفة، فإنه يرى أن المقدرات لا تثبت قياسا ولا نظرا وإنما تثبت نقلا، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضرب فكثر عنده المدلس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدين".

الخامس: أن الأَشُد: ثلاثون سنة، قاله السدي.

السادس: أن الأشد: ثلاث وثلاثون سنة. وهذا مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

السابع: أنه أربعون سنة. وهذا قول الحسن.

وإذا كان استناد الإمام الحسن-رحمه الله- على قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [الأحقاف: ١٥]، فإن " أشد اليتيم غير أشد الرجل في قول الله ﷻ: {حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة}، وإن كان اللفظان واحدا؛ لأن أشد الرجل: الاكتهال والحنكة وأن يشتد رأيه وعقله. وذلك ثلاثون سنة، ويقال: ثمان وثلاثون سنة. وأشد الغلام: أن يشتد خلقه، ويتناهى ثباته".

الثامن: أنه ما بين الثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة. قاله ابن عباس، والكلبي.

التاسع: أنه حتى يعقل وتجتمع قوته. قاله أبو العالية.

العاشر: أنه حتى: يتناهى في الثبات إلى حد الرجال.

الحادي عشر: أن بلوغ أشده: أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغا. قاله الزجاج.

والثاني أن انتهاء الكهولة فيها مجتمع الأشد، كما قال سحيم بن وثيل:

**أَخُو خَمْسِينَ مُجْتَمِعٍ أَشُدِّي ... وَنَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤُونِ**

**قال القرطبي**: قوله: {حتى يبلغ أشده}، يعني: قوته، وقد تكون في البدن، وقد

=

=

تكون في المعرفة بالتجربة، ولا بد من حصول الوجهين، فإن الأشد وقعت هنا مطلقة، وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة" النساء" مقيدة، فقال: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا} [النساء: ٦]، فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد، فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه في شهوته وبقي صعلوكا لا مال له. وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال بفقيد الأب أولى. وليس بلوغ الأشد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن، لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة. وخص اليتيم بالذكر لأن خصمه الله. والمعنى: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده. وفي الكلام حذف، فإذا بلغ أشده وأونس منه الرشد فادفعوا إليه ماله".

و «الأشُدّ»: جمع «شَدٍّ»: أي: القوة، وهو استحكام قوة شبابه وسنه، كما: شَدُّ النهار، ارتفاعه وامتداده. يقال: أتيته شدَّ النهار ومدَّ النهار، وذلك حين امتداده وارتفاعه؛ وكان المفضل ينشد بيت عنترة:

**عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا ... خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلِمِ**

ومنه قول الآخر:

**تُطِيفُ بِهِ شَدَّ النَّهَارِ ظَعِينَةٌ ... طَوِيلَةُ أَنْقَاءِ اليَدَيْنِ سَحُوقُ**

قوله تعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ} [الإسراء: ٣٤]، أي:" وأتموا الوفاء بكل عهد التزمتم به".

قال يحيى بن سلام:" يعني: ما عاهدتم عليه فيما وافق الحق".

**قال الطبري:**" يقول: وأوفوا بالعقد الذي تعاقدون الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام، وفيما بينكم أيضا، والبيوع والأشربة والإجارات، وغير ذلك من العقود".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ} [الإسراء: ٣٤]، ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أنها العقود التي تنعقد بين متعاقدين يلزمهم الوفاء بها، وهذا قول ابن جرير الطبري.

**الثاني**: أنه العهد في الوصية بمال اليتيم يلزم الوفاء به.

**الثالث**: أنه كل ما أمر الله تعالى به أو نهى فهو من العهد الذي يلزم الوفاء به.

قوله تعالى: {إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٤]، أي:" إن العهد يسأل الله عنه صاحبه يوم القيامة، فيثيبه إذا أتمه ووفَّاه، ويعاقبه إذا خان فيه".

قال يحيى بن سلام: أي:" مطلوبا، يسأل عنه أهله الذين أعطوه".

**قال الطبري**:" يقول: إن الله جل ثناؤه سائل ناقض العهد عن نقضه إياه، يقول: فلا تنقضوا العهود الجائزة بينكم، وبين من عاهدتموه أيها الناس فتخفروه، وتغدروا بمن أعطيتموه ذلك. وإنما عنى بذلك أن العهد كان مطلوبا، يقال في الكلام: ليسئلن فلان عهد فلان".

قال سعيد بن جبير:" يسأل الله ناقض العهد عن نقضه".

قال ميمون بن مهران:" ثلاث تؤدي إلى البر والفاجر، العهد يوفى إلى البر والفاجر، وقرأ: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا} ".

قال كعب الأحبار:" من نكث بيعه، كانت سترا بينه وبين الجنة قال: وإنما تهلك هذه الأمة بنكثها عهودها".

قال السدي:" يوم أنزلت هذه كان إنما يسأل عنه ثم يدخل الجنة، فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ} ".

وبعد أن نهى- سبحانه- عن إتلاف النفوس عن طريق القتل والزنا، أتبع ذلك بالنهى عن إتلاف الأموال التي هي قوام الحياة، وبدأ- سبحانه- بالنهى عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ثم ثنى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان

=

=

عند التعامل، فقال- تعالى-: وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ، وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا.

واليتيم: هو الصغير الذي مات أبوه مأخوذ من اليتم بمعنى الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة.

والخطاب في قوله: وَلا تَقْرَبُوا ... لأولياء اليتيم، والأوصياء على ماله.

والأشد: قوة الإنسان، واشتعال حرارته، ومن الشدة بمعنى القوة. يقال: شد النهار إذا ارتفع واكتمل، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع. أو هو جمع لا واحد له من لفظه، أو جمع شدة كأنعم ونعمة.

أى: ولا تقربوا- أيها الأولياء على اليتيم- ماله الذي منحه الله إياه عن طريق الميراث أو غيره، إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرق، والتي من شأنها أن تنفعه، كالمحافظة عليه، واستثماره له، وإنفاقه في الوجوه المشروعة.

واعلموا أن كل تصرف مع اليتيم أو في ماله لا يقع في تلك الدائرة- دائرة الأنفع والأحسن- فهو تصرف محظور ومنهى عنه، وسيحاسبكم الله- تعالى- عليه.

وتعليق النهى بالقربان، للمبالغة في الزجر عن التصرف في مال اليتيم، إلا بالطريقة التي هي أحسن.

وقوله: حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ليس غاية للنهى، إذ ليس المعنى: فإذا بلغ أشده فاقربوه، لأن هذا المعنى يقتضى إباحة أكل الولي لمال اليتيم بعد بلوغه، وإنما هو غاية لما يفهم من النهى، فيكون المعنى: لا تقربوا مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن، واستمروا على ذلك حتى يبلغ أشده، أى: حتى يصير بالغا عاقلا رشيدا، فإذا ما صار كذلك، فسلموا إليه ماله بأمانة واستعفاف عن التطلع إلى شيء منه.

هذا، وقد أمرت شريعة الإسلام، بحسن رعاية اليتيم، وبالمحافظة على حقوقه،

=

=

ونهت عن الإساءة إليه، بأى لون من ألوان الإساءة.

قال- تعالى-: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ...

وقال- سبحانه-: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً، إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً .

وقال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن سهل بن سعد رضى الله عنه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى .

وروى الشيخان عن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال:

«اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

ومن الحكم التي من أجلها أمر الإسلام بالعطف على اليتيم ونهى عن ظلمه، أنه إنسان ضعيف فقد الأب الحانى، والعائل والنصير منذ صغره..

فإذا نشأ في بيئة ترعاه وتكرمه.. شب محبا لمن حوله، وللمجتمع الذي يعيش فيه.

وإذا نشأ في بيئة تقهره وتذله وتظلمه.. نظر إلى من حوله، وإلى المجتمع الذي يعيش فيه، نظرة العدو إلى عدوه..

وكأنه يقول لنفسه: إذا كان الناس لم يحسنوا إلى في صغرى وفي حالة ضعفى، فلماذا أحسن إليهم في حال كبرى وقوتي!! وإذا كانوا قد حرموني حقي الذي منحه الله لي فلماذا أعطيهم شيئا من خيرى وبرى!!.

هذه بعض الأسباب التي من أجلها أمر الإسلام أتباعه برعاية اليتيم وإكرامه، وصيانة حقوقه من أى اعتداء أو ظلم.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الثالثة: قوله تعالى: {ولا تقربوا مال

=

=

اليتيم إلا بالتي هي أحسن} .

قد زعم من قل فهمه، من نقلة التفسير أن هذه الآية لما نزلت امتنع الناس من مخالطة اليتامى فنزلت: {وإن تخالطوهم فإخوانكم} وهذا يدل على جهل قائله بالتفسير ومعاني القرآن أيراه يجوز قرب مال اليتيم بغير التي هي أحسن حتى يتصور نسخ وإنما المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين أنهم كانوا يخلطون طعامهم بطعام اليتامى، فلما نزلت هذه الآية عزلوا طعامهم عن طعامهم، وكان يفضل الشيء فيفسد، فنزل قوله: {وإن تخالطوهم فإخوانكم} فأما أن تدعى نسخ فكلا...ا.هـ

وقد وذكر النحاس ما يشير إلى النسخ عن قتادة، كما ذكر ذلك مكي بن أبي طالب عن مجاهد، ثم قال: والذي يوجبه النظم وعليه جماعة من العلماء، أنه غير منسوخ، لأنه قال تعالى: {إلا بالتي هي أحسن} ففي هذا جواز مخالطتهم بالتي هي أحسن وهو قوله: {والله يعلم المفسد من المصلح} (٢٢٠) البقرة، فكلتا الآيتين يجوز مخالطة اليتيم، فلا يجوز أن تنسخ أحدهما الأخرى، لأنهما في معنى واحد.

قوله تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)} [الإسراء: ٣٥]

التفسير:

وأتموا الكيل، ولا تنقصوه إذا كِلْتم لغيركم، وزِنوا بالميزان السوي، إن العدل في الكيل والوزن خير لكم في الدنيا، وأحسن عاقبة عند الله في الآخرة.

قوله تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ} [الإسراء: ٣٥]، أي:" وأتموا الكيل، ولا تنقصوه إذا كِلْتم لغيركم".

**قال الطبري:**" {وَ} قضى أن {أَوْفُوا الكَيْلَ} للناس {إِذَا كِلْتُمْ} لهم حقوقهم

=

=

قِبَلَكم، ولا تبخَسُوهم".

قال سعيد بن جبير:" يعني: لغيركم".

قوله تعالى: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [الإسراء: ٣٥]، أي:" وزِنوا بالميزان السوي".

**قال الطبري:**" وقَضَى أن زنوا أيضا إذا وزنتم لهم بالميزان المستقيم، وهو العدل الذي لا اعوجاج فيه، ولا دَغَل، ولا خديعة ".

قال سعيد بن جبير:" يعني: الميزان، وبلغة الروم الميزان القسطاسي".

عن مجاهد، قال: " القِسطاس: العدل -بالرومية-".

عن قتادة:" {وزنوا بالقسطاس}، قال: القَبَّان". وروي عن الحسن مثله.

عن الحسن: {وزنوا بالقسطاس}، قال: بالحديد".

قوله تعالى: {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [الإسراء: ٣٥]، أي:" إن العدل في الكيل والوزن خير لكم في الدنيا، وأحسن عاقبة عند الله في الآخرة".

**قال الطبري:**" يقول: إيفاؤكم أيها الناس من تكيلون له الكيل، ووزنكم بالعدل لمن توفون له {خَيْرٌ لَكُمْ} من بخسكم إياهم ذلك، وظلمكموهم فيه. وأحسن مردودا عليكم وأولى إليه فيه فعلكم ذلك، لأن الله تبارك وتعالى يرضى بذلك عليكم، فيُحسن لكم عليه الجزاء".

قال سعيد بن جبير:" يعني" وفاء الكيل والميزان خير من النقصان وأحسن تأويلا عاقبة".

قال قتادة:" أي: خير ثوابا وعاقبة، وأخبرنا إن ابن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين: بهما هلك الناس قبلكم، هذا المكيال، وهذا الميزان قال: وذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من

=

=

ذلك» ".

وفي قوله تعالى: {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [الإسراء: ٣٥]، وجهان:

أحدهما: أحسن باطنـاً فيكون الخير ما ظهر، وحسن التأويل ما بطن. ذكره الماوردي.

**الثاني**: أحسن عقابة، تأويل الشيء عاقبته. وهذا قول سعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن كثير: " أي: خير ثوابًا وعاقبة. وأما ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالي، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول:

"لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك".

عن أبي قتادة وأبي الدهماء عن رجل من أهل البادية، أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال: "إنك لا تدع شيئا اتقاء الله، ﷻ، إلا أعطاك الله خيرا منه".

وبعد أن نهى- سبحانه- عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، أمر بالوفاء بالعهود فقال: وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا.

والعهد: ما من شأنه أن يراعى ويحفظ، كالوصية واليمين. وعهد الله: أوامره ونواهيه وعهد الناس: ما يتعاهدون عليه من معاملات وعقود وغير ذلك مما تقتضيه شئون حياتهم.

أى: وأوفوا بالعهود التي بينكم وبين الله- تعالى-، والتي بينكم وبين الناس، بأن تؤدوها كاملة غير منقوصة، وأن تقوموا بما تقتضيه من حقوق شرعية. وقوله إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا تعليل لوجوب الوفاء بالعهد.

أى: كونوا أوفياء بعهودكم لأن صاحب العهد كان مسئولا عنه، أمام الله- تعالى- وأمام الناس، فالكلام على حذف مضاف كما في قوله- سبحانه- وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ.

=

=

وقال- سبحانه-: وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ ... بالإظهار دون الإضمار للإشعار بكمال العناية بشأن الوفاء بالعهود.

ويجوز أن يكون المعنى: وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا، أي: كان مطلوبا بالوفاء به وقد مدح الله- تعالى- الذين يوفون بعهودهم في آيات كثيرة، منها قوله- تعالى-:

إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ .

وقوله- تعالى-: وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

وبعد أن أمر- سبحانه- بالوفاء بصفة عامة، أتبع ذلك بالوفاء في شئون البيع والشراء، فقال- تعالى-: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ، وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا.

والقسطاس: الميزان الذي يوزن به في حالتي البيع والشراء.

قال صاحب الكشاف: قرئ «بالقسطاس» بكسر القاف وضمها.. قيل: كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها .

وقال الآلوسى ما ملخصه: وهذا اللفظ رومي معرب.. وقيل: عربي.. وعلى القول بأنه رومي معرب- وهو الصحيح- لا يقدح استعماله في القرآن في عربيته المذكورة في قوله- تعالى-: إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لأنه بعد التعريب والسماع في فصيح الكلام، يصير عربيا، فلا حاجة إلى إنكار تعريبه.. .

وقوله: تَأْوِيلًا من الأول- بفتح الهمزة وسكون الواو- بمعنى الرجوع. يقال: آل هذا الأمر إلى كذا، إذا رجع إليه.

والمعنى: وأتموا أيها المؤمنون الكيل إذا كلتم لغيركم عند بيعكم لهم ما تريدون بيعه، وزنوا لهم كذلك بالميزان المستقيم العادل ما تريدون وزنه لهم.

=

وقيد- سبحانه- الأمر بوجوب إتمام الكيل والميزان في حالة البيع، لأنها الحالة التي يكون فيها التطفيف في العادة، إذ أن البائع هو الذي غالبا ما يطفف للمشتري في المكيال والميزان ولا يعطيه حقه كاملا.

قال- تعالى-: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ.

أى: ذلك الذي أمرناكم به. من وجوب إتمام المكيال والميزان عند التعامل، خير لكم في الدنيا، لأنه يرغب الناس في التعامل معكم، أما في الآخرة فهو أحسن عاقبة ومآلا، لما يترتب عليه من الثواب الجزيل لكم من الله- ﷻ.

قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: ٣٦]، أي:" لا تتَّبعْ ما لا تعلم ولا يَعْنيك بل تثبَّتْ من كل خبر".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: ٣٦]، وجوه:

**أحدها**: معناه: لا تقل سمعت، ولم تسمع، ولا تقل: رأيت، ولم تر، فإن الله سائلك عن ذلك كله. وهذا قول قتادة.

قال قتادة:" لا تقف، قال: لا تقل: رأيت ولم تر، ولا سمعت ولم تسمع، فإن الله سائلك عن ذلك كله.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: " {ولا تقف}، قال: لا تقل".

وروي عن ابن حنيفية:" {ولا تقف ما ليس لك به علم}، قال: شهادة الزور".

قال السدي:" هذا في الفرية يوم نزلت الآية لم يكن فيها حد، إنما كان يسأل عنه يوم القيامة، ثم يغفر له حتى نزلت هذه آية الفرية جلد ثمانين".

**الثاني**: معناه: ولا ترم أحد بما ليس لك به علم، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد.

وقال الحسن:" لا تقف أخاك المسلم من بعده إذا مر بك، فتقول: إني رأيت هذا يفعل كذا، ورأيته يفعل كذا، وسمعته يقول كذا، لم تسمع ولم تر".

=

**قال الطبري:**" وهذان التأويلان متقاربا المعنى، لأن القول بما لا يعلمه القائل يدخل فيه شهادة الزور، ورمي الناس بالباطل، وادعاء سماع ما لم يسمعه، ورؤية ما لم يره".

**الثالث:** أنه من القيافة وهو اتباع الأثر، وكأنه يتبع قفا المتقدم، والمعنى: ولا تتبع ما لا تعلمه ولا يعنيك. قاله أبو عبيدة،، واستشهد بقول النبي ﷺ: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا» "، وأنشد: قول النّابغة الجعديّ:

**ومِثْلُ الدُّمى شُمُّ العَرَنِينِ سَاكِنٌ بِهِنَّ الْحَيَاءُ لا يُشِعْنَ التَّقَافِيَا**

يعنى: التقاذف.

قوله تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦]، أي:" إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه: عن سمعه، وبصره، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه".

**قال الطبري:**" معناه: إن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها، من أنه سمع أو أبصر أو علم، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحقّ".

قال يحيى بن سلام:" يسأل السمع على حدة عما سمع، ويسأل البصر على حدة عما بصر، ويسأل القلب عما عزم عليه".

قال عكرمة:" يقول: سمعه وبصره يشهد عليه".

قال عمرو بن قبيس:" يقال للأذن يوم القيامة هل سمعت؟ ويقال للعين: هل رأيت؟ ويقال للفؤاد: مثل ذلك".

ثم ختم- سبحانه- تلك التوجيهات السامية السديدة، بالنهى عن تتبع مالا علم للإنسان به، وعن الفخر والتكبر والخيلاء.. فقال- تعالى-: وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ، كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا. كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ

=

=

عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهـًا. ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ. وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهـًا آخَرَ. فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُومـًا مَدْحُوراً.

اختلف المفسرين في معنى (ولا تقف ما ليس لك به علم) على أقوال هي:

القول الأول: إن المراد: لا تقل ما ليس لك به علم، فلا تقل رأيت، ولم تر، ولا سمعت ولم تسمع، ولا علمت ولم تعلم، ومن ذلك شهادة الزور.

قال به: ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- من طريق علي بن أبي طلحة، وقتادة، والبخاري، والزجاج. واختاره: الطبري، وابن كثير، والنسفي.

القول الثاني: إن المراد بقوله: (ولا تقف) أي: لا تتبع، وهو من القيافة، أي: اتباع الأثر، فالمعنى: لا تتبع لسانك ما لم تعلمه فتتكلم بالحدس والظن. قال به: محمد بن الحنفية، وابن قتيبة، والفراء، والجصاص، وابن خويز منداد، والراغب الأصفهاني، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية، وابن الملقن، والشوكاني، والشنقيطي.

ومال إليه: ابن حجر، حيث قال: "والمعروف أنه - أي القفو - الاتباع... فانطلق يقفو أثره، أي: يتبعه".

القول الثالث: إن المراد بالآية: لا ترم أحدا بما ليس لك به علم.

قال به: ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - من رواية العوفي عنه، ومجاهد، والحسن، وابن أبي زمنين. واختاره: الطبري، وابن كثير.

واستدلوا: بقوله ﷺ: "نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا، ولا ننتفي من أبينا ".أي: لا نسب أمنا.

وقول الشاعر:

**ومثل الدمى شم العرانين ساكن بهن الحياء لا يشعن التقافيا.**

أي: التقاذف.

=

=

قال ابن العربي: "هذه الأقوال كلها صحيحة، وبعضها أقوى من بعض، وإن كانت مرتبطة، لأن الإنسان لا يحل له أن يسمع ما لا يحل، ولا يقول باطلا، فكيف أعظمه وهو الزور؟!... وإذا لم يحل له أن يقول ذلك فلا يحل له أن يتبعه".

قال ابن عاشور: "ومما يشهد لإرادة جميع هذه المعاني تعليل النهي بجملة: {إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا} فموقع الجملة موقع تعليل، أي: إنك أيها الإنسان تسأل عما تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك ".

قال القرطبي- رحمه الله ما ملخصه: قوله- تعالى-: وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أى: ولا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك- من قول أو فعل- قال قتادة: لا تقل رأيت وأنت لم تر، وسمعت وأنت لم تسمع، وعلمت وأنت لم تعلم..

ثم قال: وأصل القفو البهت، والقذف بالباطل. ومنه قوله- عليه الصلاة والسلام: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمّنا، ولا ننتفى من أبينا» أى: لا نسبّ أمنا.

وقال: قفوته أقفوه ... إذا اتبعت أثره. وقافية كل شيء آخره، ومنه اسم النبي ﷺ: المقفّى، لأنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام-، ومنه القائف، وهو الذي يتبع الأثر..

وقال صاحب الكشاف- رحمه الله: قوله: وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ: يعنى، ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل، كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال. والمراد: النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم.

ويدخل فيه النهى عن التقليد الأعمى دخولا ظاهرا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده..

وقوله: إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ، كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا تحذير شديد من أن يقول الإنسان قولا لا علم له به، أو أن يفعل فعلا بدون تحقق، أو أن يحكم حكما

=

=

بلا بينة أو دليل.

أى: إن السمع الذي تسمع به- أيها المكلف-، والبصر الذي تبصر به، والفؤاد- أى القلب- الذي تحيا به، كل أولئك الأعضاء ستكون مسئولا عن أفعالها يوم القيامة، وسيقال لك بتأنيب وتوبيخ: لماذا سمعت ما لا يحل لك سماعه، ونظرت إلى ما لا يجوز لك النظر إليه، وسعيت إلى ما لا يصح لك أن تسعى إليه.

وعلى هذا التفسير يكون السؤال في قوله- تعالى-: كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا للإنسان الذي تتبع ما ليس له به علم من قول أو فعل.

ومن الآيات التي تشهد لهذا التفسير قوله- تعالى-: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ.

ومنهم من يرى أن السؤال موجه إلى تلك الأعضاء، لتنطق بما اجترحه صاحبها، ولتكون شاهدة عليه، فيكون المعنى:.

إن السمع والبصر والفؤاد، كل واحد من أولئك الأعضاء، كان مسئولا عن فعله، بأن يقال له: هل استعملك صاحبك فيما خلقت من أجله أولا؟.

ويكون هذا السؤال للأعضاء من باب التوبيخ لأصحابها، كما قال- تعالى-: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ .

وكما قال- سبحانه-: وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ .

واسم الإشارة أُولئِكَ على التفسيرين يعود إلى السمع والبصر والفؤاد، إما لأن هذا الاسم يشار به إلى العقلاء ويشار به إلى غير العقلاء، كما في قول الشاعر:

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام

وإما لأن هذه الأعضاء أخذت حكم العقلاء، لأنها جزء منهم، وشاهدة عليهم.

وعلى كلا التفسيرين أيضا، يتمثل التحذير الشديد للإنسان عن أن يتبع ما ليس له

=

=

به علم.

قال الجمل: وقوله- تعالى-: كُلُّ أُولئِكَ مبتدأ، خبره جملة كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا، والضمير في «كان» وفي «عنه» وفي «مسئولا» يعود على كل. أى: كان كل واحد منها مسئولا عن نفسه، يعنى عما فعل به صاحبه: ويجوز أن يكون الضمير في: «عنه» لصاحب السمع والبصر والفؤاد...

وشبيه بهذه الآية في النهى عن اتباع ما لا علم للإنسان به. قوله- تعالى-: قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ .

وقوله- سبحانه-: يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً، وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ .

قال الإمام ابن كثير: ومضمون ما ذكروه- في معنى قوله- تعالى-: وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.. أن الله- تعالى- نهى عن القول بلا علم، كما قال- سبحانه-: اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ.. وفي الحديث: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ... » وفي سنن أبى داود: «بئس مطية الرجل زعموا» وفي الحديث الآخر:

«إن أفرى الفري- أى أكذب الكذب- أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا».

قوله تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا} [الإسراء: ٣٧]، أي:" ولا تمش في الأرض مختالا متكبرا".

قال قتادة:" لا تمش في الأرض فخرا وكبرا".

قال ابن جريج:" لا تفخر".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: ولا تمش في الأرض مختالا مستكبرا".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ} [الإسراء: ٣٧]، أي:" فإنك لن تَخْرِق الأرض بمشيك عليها بهذه الصفة".

قال قتادة:" ولا تخرق الأرض بكبرك وفخرك".

**قال الطبري:**" يقول: إنك لن تقطع الأرض باختيالك".

قال أبو عبيدة: معناه: " لن تقطع الأرض، وقال رؤبة:

وقاتم الأعماق خاوى المخترق

أي: المقطّع.

وقال آخرون: إنك لن تنقب الأرض، وليس بشئ".

قوله تعالى: {وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: ٣٧]، أي:" ولن تبلغ الجبال طولا بخيلائك وفخرك وكبرك".

قال قتادة: يعني" بكبرك ومرحك". وفي رواية:" بكبرك وفخرك".

قال ابن كثير:" أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده. كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يتبختر فيهما، إذ خُسِف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

قال ابن كثير: وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفي الحديث: "من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب أو الخنزير» ".

وفي قوله تعالى: {إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: ٣٧]، وجهان:

أحدهما: إنك لن تخرق الأرض من تحت قدمك ولن تبلغ الجبال طولاً بتطاولك زجراً له عن تجاوزه الذي لا يدرك به غرضاً.

=

=

**الثاني**: أنه مثل ضربه الله تعالى له، ومعناه كما أنك لن تخرق الأرض في مشيك، ولن تبلغ الجبال طولاً فإنك لا تبلغ ما أردت بكبرك وعجبك، إياساً له من بلوغ إرادته.

قال الصابوني في الآية:" هذا تعليل للنهي عن التكبر والمعنى أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر؟ كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً؟ وكيف تتطاول وتتعظَّمْ على الجبال ولن تبلغها طولاً؟ فأنت أحقر وأضعف من كل واحدٍ من الجمادَيْن فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين".

عن حجاج بن محمد، بن أبي بكر الهذلي قال: "بينما نحن مع الحسن، إذ مَر عليه ابن الأهتم - يريد المنصور - وعليه جبَابُ خَزّ قد نُضّد بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه، وهو يمشي ويتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف، شامخ بأنفه، ثان عطفه، مصعر خده، ينظر في عطفيه، أيّ حُمَيْق ينظر في عطفه في نِعَم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدّى حقّ الله منها! والله إن يمشي أحدهم طبيعته يتلجلج تلجلج المجنون، في كل عضو منه نعمة، وللشيطان به لعنة، فسمعه ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إلي، وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا} ".

وروي أنه:"رأى البختريّ العابدُ رجلا من آل علي يمشي وهو يخطِر في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته! قال: فتركها الرجل بعد".

وروي أنه "رأى ابن عمر رجلا يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخوانًا".

وقال: خالد بن مَعْدان: "إياكم والخَطْر، فإن الرّجل يَدُه من سائر جسده".

عن سعيد، عن يُحَنَّس قال: قال: رسول الله ﷺ: "إذا مشت أمتي المطيطاء،

=

=

وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض".

ثم ينتقل القرآن الكريم من النهى عن أن يتبع الإنسان ما لا علم له به، إلى النهى عن التفاخر والتكبر والإعجاب في النفس فيقول: (وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً....)

والمرح في الأصل: شدة الفرح، والتوسع فيه، مع الخيلاء والتعالي على الناس، يقال:

مرح- بزنة فرح- يمرح مرحا، إذا اشتد فرحه ومشى مشية المتكبرين. وهو مصدر وقع موقع الحال.

أى: ولا تمش- أيها الإنسان- في الأرض مشية الفخور المتكبر المختال بل كن متواضعا متأدبا بأدب الإسلام في سلوكك.

وتقييد النهى بقوله «في الأرض» للتذكير بالمبدأ والمعاد، المانعين من الكبر والخيلاء، إذ من الأرض خلق وإليها يعود، ومن كان كذلك كان جديرا به أن يتواضع لا أن يتكبر.

قال- تعالى-: مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى .

(لطيفة): قال القرطبي: (قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص، فقال: {ولا تمش في الأرض مرحا} [الإسراء:٣٧]).

قال ابن منظور: (المرح: شدة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره، وقيل: المرح التبختر والاختيال، وفي التنزيل: {ولا تمش في الأرض مرحا} [الإسراء:٣٧] أي: متبخترا مختالا، وقيل: المرح الأشر والبطر، ومنه قوله تعالى: {بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥)} [غافر:٧٥]).

وقال السمرقندي: ({ولا تمش في الأرض مرحا} [الإسراء:٣٧] يعني: لا تمشي بالخيلاء والمرح والبطر والأشر، كله واحد، وهو أن يعظم نفسه في النعم).

=

=

والأصل فيه: زيادة الفرح عن حده، وما بعده لازم له.

قال ابن فارس: (الميم والراء والحاء أصل يدل على مسرة لا يكاد يستقر معها طربا، قال تعالى: {وبما كنتم تمرحون} [غافر:٧٥]).

وقال الرازي: (المرح: شدة الفرح، يقال: مرح يمرح مرحا فهو مرح، والمراد من الآية: النهي عن أن يمشي الإنسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة).

وأما استدلال ابن عقيل من هذه الآية ذم الرقص، فهو من اللطائف التي لم أجد من نص عليها ممن سبق ابن عقيل، والمتأمل للرقص يرى أنه بسبب الفرح الزائد عن حده، وهذا هو ما تدل عليه أصل كلمة المرح، ؛ فيكون في الآية أشارة إلى النهي عما هو من وسائل الرقص، والنهي عن الوسيلة نهي عما توصل إليه من باب أولى.

قال الشنقيطي: (واستدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: {ولا تمش في الأرض مرحا} [الإسراء:٣٧] على منع الرقص وتعاطيه؛ لأن فاعله ممن يمشي مرحا).

وقوله- سبحانه-: إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا تعليل للنهى عن التفاخر مع السخرية والتهكم من المتفاخر المغرور.

أى: إنك- أيها الماشي في الأرض مرحا- لن تخرق الأرض بوطئك عليها، أو بمشيك فوقها، ولن تبلغ- مهما ارتفعت قامتك- الجبال في الطول والعلو. ومادام شأنك كذلك، فكن متواضعا، فمن تواضع لله- تعالى- رفعه.

وقوله «طولا» تمييز محول عن الفاعل. أى: لن يبلغ طولك الجبال.

وشبيه بهذه الآية في النهى عن التعالي والتطاول، قوله- تعالى-: وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ .

وقد أمر النبي ﷺ بالتواضع، ونهى عن التكبر والغرور، وبين سوء عاقبة ذلك في أحاديث كثيرة، منها ما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار قال: قال

=

=

رسول الله ﷺ: «إن الله- تعالى- أوحى إلى أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد» .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا» .

وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه- أى يرتفع ويتكبر- حتى يكتب في الجبارين- فيصيبه ما أصابهم» .

ورحم الله القائل:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا ... فكم تحتها قوم همو منك أرفع

وإن كنت في عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم همو منك أمنع.

(تنبيه): قال ابن القيم في زاد المعاد فصل في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه.

كان إذا مشى تكفأ تكفؤا وكان أسرع الناس مشية وأحسنها وأسكنها قال أبو هريرة: (ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه وما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب وقال مرة: إذا مشى تقلع قلت: والتقلع: الإرتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة وهي أعدل المشيات وأرواحها للأعضاء وأبعدها من مشية الهوج والمهانة والتماوت فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة وهي مشية مذمومة قبيحة وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج وهي مشية مذمومة أيضا وهي دالة على خفة عقل صاحبها ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينا وشمالا وإما أن

=

=

يمشي هونا وهي مشية عباد الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} (الفرقان: ٦٣) قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت وهي مشية رسول الله ﷺ فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له حتى كان الماشي معه يجهد نفسه ورسول الله ﷺ غير مكترث وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت ولا بمهانة بل مشيته أعدل المشيات

والمشيات عشرة أنواع هذه الثلاثة منها والرابع: السعي.

والخامس: الرمل وهو أسرع المشى مع تقارب الخطا ويسمى: الخبب وفي الصحيح من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ خب في طوافه ثلاثا ومشى أربعا.

السادس: النسلان وهو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي ولا يكرثه وفي بعض المسانيد أن المشاة شكوا إلى رسول الله ﷺ من المشى في حجة الوداع فقال: استعينوا بالنسلان.

والسابع: الخوزلى وهي مشية التمايل وهي مشية يقال: إن فيها تكسرا وتخنثا.

والثامن: القهقرى وهي المشية إلى وراء.

والتاسع: الجمزى وهي مشية يثب فيها الماشي وثبا.

والعاشر: مشية التبختر وهي مشية أولي العجب والتكبر وهي التي خسف الله سبحانه بصاحبها لما نظر في عطفيه وأعجبته نفسه فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة.

وأعدل هذه المشيات مشية الهون والتكفؤ، وأما مشيه مع أصحابه فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول: (دعوا ظهري للملائكة) (١) ولهذا جاء في الحديث: وكان يسوق أصحابه وكان يمشي حافيا ومنتعلا وكان يماشي أصحابه فرادى وجماعة ومشى في بعض غزواته مرة فدميت أصبعه وسال منها الدم فقال:

=

=

(هل أنت إلا أصبع دميت... وفي سبيل الله ما لقيت) وكان في السفر ساقة أصحابه: يزجي الضعيف ويردفه ويدعو لهم ذكره أبو داود ا. هـ
وقال العلامة ألألباني في الضعيفة في تعليقه على حديث (سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن) قال الشيخ: بعد أن حكم على هذا الحديث بأنه منكر جدا ويكفي في رد هذا الحديث أنه مخالف لهدي النبي ﷺ في مشيه، فقد كان ﷺ سريع المشي كما ثبت ذلك عنه في غير ما حديث، وروى ابن سعد في " الطبقات " عن الشفاء بنت عبد الله أم سليمان قالت: كان عمر إذا مشى أسرع. ولعل هذا الحديث من افتراء بعض المتزهدين الذين يرون أن الكمال أن يمشي المسلم متباطئا متماوتا كأن به مرضا! وهذه الصفة ليست مرادة قطعا بقوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنـًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامـًا} ، (الفرقان:٦٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: هونا: أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار، كقوله تعالى: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحـًا} ، (لقمان:٨) فأما هؤلاء فإنهم يمشون بغير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر. وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعا ورياء، فقد كان سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما تطوى الأرض له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف، حتى روى عن عمر أنه رأى شابا يمشي رويدا، فقال: مابالك أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة، وإنما المراد بالهون هنا: السكينة والوقار. وقد روى الإمام أحمد من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ كان إذا مشى مشى مجتمعا ليس فيه كسل، ورواه البزار وسنده صحيح، وله شاهد عن سيار أبي الحكم مرسلا، رواه ابن سعد. ا.هـ
قوله تعالى: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)} [الإسراء: ٣٨]
**قال الطبري**: يقول:" كل هذا الذي ذكرنا لك من الأمور التي عددناها عليك [من

=

=

{وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه.... كان سيئه} ] كان سيئة مكروها عند ربك يا محمد، يكرهه وينهى عنه ولا يرضاه، فاتق مواقعته والعمل به".

قال الرازي:" أي: كل ما نهى الله عنه فيما تقدم".

قال أبو القاسم النيسابوري الغزنوي:" أراد بالسيئة الذنب، فحمل على المعنى".

قال النسفي:" ذكر «مكروها»، لأن «السيئة» في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه، ألا تراك تقول: الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فإن قلت الخصال المذكورة بعضها سيء وبعضها حسن ولذلك قرأ من قرأ سيئة بالإضافة أي ما كان من المذكور سيئا كان عند الله مكروها فما وجه قراءة من قرأ سيئة قلت كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة".

قرأ الكوفيون وابن عامر {كان سيئه} بضم الهمزة والهاء على التذكير، والباقون بفتحهما مع التنوين على التأنيث.

عن عبد الله بن كثير رضي الله عنه أنه كان يقرأ «كل سيئة عند ربك مكروها» على واحد يقول: هذه الأشياء التي نهيت عنها، كل سيئه".

قال السمعاني:" قوله: " سيئة " بالتنوين أي: كل ما نهيت عنه في هذه الآيات فهي سيئة مكروهة عند ربك، ومن قرأ " سيئه " بالرفع فمعناه على التبعيض؛ لأنه قد تقدم بعض ما ليس بسيئة مثل قوله: {وآت ذا القربى حقه}، وكذلك قوله: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما} وغير ذلك. فمعناه أن ما تقدم في هذه الآيات من السيئة مكروهة عند ربك".

ثم ختم- سبحانه- تلك التكاليف التي يغلب عليها طابع النهى عن الرذائل بقوله: ( كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً).

واسم الإشارة ذلِكَ يعود إلى ما تقدم ذكره من التكاليف والأوامر والنواهي. التي

=

=

لا يتطرق إليها النسخ، والتي تبلغ خمسة وعشرين تكليفا، تبدأ بقوله- تعالى-: لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهـًا آخَرَ ثم يأتى بعد ذلك النهى عن عقوق الوالدين، والأمر بصلة الأرحام، وبالعطف على المسكين وابن السبيل، ثم النهى عن البخل، والإسراف، وقتل الأولاد، والاقتراب من الزنا، وقتل النفس إلا بالحق، والاعتداء على مال اليتيم.. إلخ.

والضمير في سَيِّئُهُ يعود إلى ما نهى الله عنه من أفعال، كالشرك، وعقوق الوالدين، والزنا. أى: كل ذلك الذي بيناه لك فيما سبق، كان الفعل السيئ منه، عند ربك مكروها، أى: مبغوضا عنده- سبحانه- وأما الفعل الحسن كالوفاء بالعهد، وإعطاء ذي القربى حقه، فهو محمود عند ربك- ﷻ.

قال الآلوسى: ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن أكثره من الكبائر- كالشرك والزنا ... - للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده- تعالى- كافية في وجوب الكف عن ذلك.

وتوجيه الإشارة إلى الكل، ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء، لما قيل: من أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة، بل على وجه الاختلاط لنكتة اقتضته، وفيه إشعار بكون ما عداه مرضيا عنده- سبحانه-.

وإنما لم يصرح بذلك، إيذانا بالغنى عنه، أو اهتماما بشأن التنفير من النواهي.. .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ بالتاء والتنوين.

وعلى هذه القراءة يكون اسم الإشارة، يعود إلى المنهيات السابقة فقط، ويكون المعنى:

كل ذلك الذي نهيناك عنه في الآيات السابقة، من الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واتباع ما ليس لك به علم.. كان اقترافه سيئة من السيئات المبغوضة عند ربك، المحرمة في شرعه، المعاقب مرتكبها.

=

=

قوله تعالى: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} [الإسراء: ٣٩]، أي:" ذلك الذي تقدم من الآداب والقصص والأحكام بعضُ الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة، والحِكَم الفريدة".

قال ابن زيد:" القرآن".

قال المراغي:" أي: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الحميدة، ونهيناك عنه من الرذائل، مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسراره، ومن الحكم فى تشريعه".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: هذا الذي بينا لك يا محمد من الأخلاق الجميلة التي أمرناك بجميلها، ونهيناك عن قبيحها، من الحكمة التي أوحيناها إليك في كتابنا هذا".

قوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء: ٣٩]، أي:" لا تشرك مع الله غيره من وثنٍ أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك اللهُ والخلق مطروداً مبعداً من كل خير".

**قال الطبري:**" يقول: ولا تجعل مع الله شريكا في عبادتك، فتلقى في جهنم ملوما تلومك نفسك وعارفوك من الناس، {مدحورا} يقول: مبعدا مقصيا في النار، ولكن أخلص العبادة لله الواحد القهار، فتنجو من عذابه".

قال قتادة:" ملوما في عبادة الله، مدحورا في النار".

عن ابن عباس:" {مدحورا}، يقول: مطرودا".

قال ابن كثير:" {مَلُومًا} أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، {مَدْحُورًا}. قال ابن عباس وقتادة: مطرودًا، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم ".

قال المراغي: قوله: " {وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً} كرر هذا مع ما سلف، للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس

=

=

الحكمة، وهو مبدأ الأمر ومنتهاه، وقد رتب عليه أولا آثار الشرك فى الدنيا فقال: فتقعد مذموما مخذولا، ورتب عليه هنا نتيجة فى العقبى فقال: فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا: أي ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك، ومبعدا من رحمة الله تعالى.

وقد علمت فيما تقدم لك أن مثل هذا الخطاب إما موجه إلى الإنسان عامة، وإما إلى الرسول خاصة والمراد أمته والكلام من وادي قولهم (إياك أعنى واسمعي يا جاره) ".

عن عبد الله بن عباس -من طريق سعيد- قال: "إنّ التوراة كلَّها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل. ثم تلا: {ولا تجعل مع الله إلهًا ءاخر} ".

قال محمد بن السائب الكلبي: "وهذه الثمان عشرة آية كانت في ألواح موسى -عليه السلام-، وهي عشر آيات في التوراة".

ثم ختم- سبحانه- تلك الأحكام المحكمة، والتكاليف السامية، بقوله: ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً.

أى: ذلك الذي أمرناك به، ونهيناك عنه- أيها الرسول الكريم- بعض ما أوحاه الله- تعالى- عليك «من الحكمة» التي هي علم الشرائع ومعرفة الحق، والعمل به، وحذار أن تجعل بعد هذا البيان الحكيم، مع الله- تعالى- إلها آخر- أيها المخاطب- فتلقى وتطرح في جهنم، ملوما من نفسك ومن غيرك، مدحورا أى: مبعدا من رحمة الله- تعالى- قال صاحب الكشاف: ولقد جعل الله- تعالى- فاتحتها- أى تلك الآيات المشتملة على تلك الأوامر والنواهي- وخاتمتها، النهى عن الشرك، لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذّفيها الحكماء، وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن

=

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠).

{أفأصفاكم} أخلصكم يا أهل مكة {ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا} بنات لنفسه بزعمكم {إنكم لتقولون} بذلك {قولا عظيما}.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١).

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا} بَيَّنَّا {فِي هَذَا الْقُرْآن} مِنْ الْأَمْثَال وَالْوَعْد وَالْوَعِيد {لِيَذَّكَّرُوا} يَتَّعِظُوا {وَمَا يَزِيدهُمْ} ذَلِكَ {إِلَّا نُفُورًا} عَنْ الْحَقّ.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢).

{قُلْ} لَهُمْ {لَوْ كَانَ مَعَهُ} أَيْ الله {آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا} طَلَبُوا {إِلَى ذِي الْعَرْش} أَيْ الله {سَبِيلًا} ليقاتلوه.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣).

{سُبْحَانه} تَنْزِيهًا لَهُ {وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ} مِنْ الشركاء {علوا كبيرا}.

---

=

الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة التي اشتملت على بضع وعشرين تكليفا، والتي ابتدأت بقوله- تعالى- لا تجعل مع الله إلها آخر ... وانتهت بقوله- سبحانه-: وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ.. قد ربطت قواعد السلوك والآداب: والتكاليف الفردية والاجتماعية، بإخلاص العبادة لله- تعالى- لأن هذا الإخلاص لله- تعالى- في العقيدة والعبادة والقول والعمل.. هو رأس كل حكمة وملاكها. كما قال صاحب الكشاف- رحمه الله.

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤).

{تسبح له} تنزهه {السماوات السبع والأرض ومن فيهن وَإِنْ} مَا {مِنْ شَيْء} مِنْ الْمَخْلُوقَات {إلَّا يسبح} مُتَلَبِّسًا {بِحَمْدِهِ} أَيْ يَقُول سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ {وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ} تَفْهَمُونَ {تَسْبِيحهمْ} لِأَنَّهُ لَيْسَ بِلُغَتِكُمْ {إنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلكُمْ بالعقوبة[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا} [الإسراء: ٤٠]، أي:" أفخصَّكم ربكم -أيها المشركون- بإعطائكم البنين، واتخذ لنفسه الملائكة بنات؟ ".

قال أبو عبيدة:{فَأَصْفَاكُمْ} " أي: اختصكم".

عن قتادة:" {واتخذ من الملائكة إناثا}، قال: قالت اليهود: الملائكة بنات الله".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره للذين قالوا من مشركي العرب: الملائكة بنات الله {أفأصفاكم} أيها الناس {ربكم بالبنين} يقول: أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد {واتخذ من الملائكة إناثا}، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تئدونهن، وتقتلونهن، فجعلتم لله ما لا ترضونه لأنفسكم".

وخلاصة ذلك- إنهم جعلوا الملائكة إناثا، ثم ادّعوا أنهن بنات الله، ثم عبدوهن، فأخطئوا فى الأمور الثلاثة خطأ عظيما".

قال يحيى بن سلّام: "قوله: {أفأصفاكم ربكم بالبنين وءاتخذ من الملائكة إناثا} على الاستفهام، أي: لم يفعل ذلك، لقولهم: إنّ الملائكة بنات الله. وقال: {إنكم لتقولون قولا عظيما} ".

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} [الإسراء: ٤٠]، أي:" إن قولكم هذا بالغ القبح والبشاعة، لا يليق بالله سبحانه وتعالى".

=

=

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين الذين قالوا من الفرية على الله ما ذكرنا: إنكم أيها الناس لتقولون بقيلكم: الملائكة بنات الله، قولا عظيما، وتفترون على الله فرية منكم".

قال المراغي:" فتفترون على الله الكذب، وتنسبون إليه ما تستحقون عليه الإثم والعذاب، وتخرقون قضايا العقول، فتجعلون أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على جعل عالى الأرض سافلها، إناثا غاية فى الرخاوة".

* بعد أن ذكر- سبحانه- ما ذكر من الأوامر والنواهي في الآيات السابقة، التي بدأها وختمها بالنهى عن الإشراك بالله- تعالى- أتبع ذلك بإقامة الأدلة على استحالة أن يكون له شريك أو ولد، بل كل من في السموات ومن الأرض، خاضع لسلطانه، وما من شيء إلا ويسبح بحمده، فقال- تعالى-.

والخطاب في قوله- تعالى-: أَفَأَصْفاكُمْ.. للكافرين الذين قالوا، الملائكة بنات الله.

والإصفاء بالشيء: جعله خالصا. يقال: أصفى فلان فلانا بالشيء، إذا آثره به. ويقال للأشياء التي يختص السلطان بها نفسه: الصوافي. وفعله: صفا يصفو، وتضمن هنا معنى التخصيص.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتهكم.

والمعنى- كما يقول صاحب الكشاف- أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم الذكور، ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه، واتخذ أدونهم، وهن البنات، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تئدوهن وتقتلونهن!! فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم. فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويكون أردؤها وأدونها للسادات .

والمقصود من الجملة الكريمة نفى ما زعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ وجه،

=

=

أى: لم يخصكم ربكم بالبنين، ولم يتخذ من الملائكة إناثا، لأنه- سبحانه- تنزه عن الشريك والولد والوالد والشبيه.

قال- تعالى-: لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ، سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

وقال- تعالى-: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى .

وقوله- سبحانه-: إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً تسفيه لأقوالهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة وعقولهم السقيمة.

أى: إنكم بنسبتكم البنات إلى الله- تعالى-، لتقولون قولا عظيما في قبحه وشناعته، وفي استهجان العقول السليمة له، وفيما يترتب عليه من عقوبات أليمة من الله- تعالى- لكم.

قال- تعالى-: وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً. لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ} [الإسراء: ٤١]، أي:" ولقد وضَّحْنا ونوَّعْنا في هذا القرآن الأحكام والأمثال والمواعظ".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ} [الإسراء: ٤١]، وجوه:

**أحدها**: تكرير الأمر والنهي والمواعظ والقصص.

**الثاني**: تبيين القول بجميع جهاته.

قال ابن عباس:" أي: بينا".

**الثالث**: أي: ضربنا في هذا القرآن الأمثال، فأخبرناهم أنا أهلكنا القرون الأولى. قاله يحيى بن سلام.

=

=
قال القرطبي:" «التصريف»: صرف الشيء من جهة إلى جهة. والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة، أي: غايرنا بين المواعظ".
قوله تعالى: {لِيَذَّكَّرُوا} [الإسراء: ٤١]، أي:" ليتعظ الناس ويتدبروا ما ينفعهم فيأخذوه، وما يضرهم فيدَعوه".
قال ابن عباس: "يريد ليتعظوا".
قال السمعاني:" معناه: ليتعظوا".
**قال البغوي:**" أي: ليتذكروا ويتعظوا".
قال القرطبي:" ليذكروا ويعتبروا ويتعظوا".
قال يحيى بن سلام:" أي: ليذكروا فيؤمنوا، لا ينزل بهم ما نزل بالأمم من قبلهم من عذاب الله".
وقرأ حمزة والكسائي: «ليذْكُروا»، بإسكان الذال وضم الكاف.
قوله تعالى: {وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} [الإسراء: ٤١]، أي:" وما يزيد البيان والتوضيح الظالمين إلا تباعدًا عن الحق، وغفلة عن النظر والاعتبار".
قال السمعاني:" أي: ما يزيدهم التبيين إلا نفورا. وقيل: تصريف القول في الأمر والنهي".
**قال البغوي:** أي:" تصريفنا وتذكيرنا، [إلا] ذهابا وتباعدا عن الحق".
قال يحيى بن سلام:" {وما يزيدهم} [الإسراء: ٤١] ذلك. {إلا نفورا} [الإسراء: ٤١] إلا تركا لأمر الله، يعني: أنهم كلما نزل في القرآن شيء كفروا به ونفروا".
قال ابن عباس: "يريد ينفرون من الحق ويتبعون الباطل القرآن شيء كفروا به ونفروا".
عن يعلى بن عطاء، قال: "قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتدخلن الجنة، إلا أن تشردوا على الله كما يشرد البعير على أهله». قال يحيى بن سلّام: وسمعت
=

=

عبد الوهاب بن سليم العامري يحدث هذا الحديث عن النبي - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وزاد فيه: ثم تلا هذه الآية: {ولقد صرفنا في هذا القرءان ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا} ".

* ثم بين- سبحانه- أن هذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ قد اشتمل على ألوان متعددة من الهدايات والآداب والأحكام، فقال- تعالى-: وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا، وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً.

وقوله- تعالى-: صَرَّفْنا من التصريف وهو في الأصل صرف الشيء من حالة إلى أخرى، ومن جهة إلى أخرى.

والمراد به هنا: بينا، وكررنا، ومفعوله محذوف للعلم به.

والمعنى: ولقد بينا وكررنا في هذا القرآن أنواعا من الوعد والوعيد، والقصص، والأمثال، والمواعظ والأخبار، والآداب والتشريعات، ليتذكر هؤلاء الضالون ويتعظوا ويعتبروا، ويوقنوا بأنه من عند الله- تعالى- فيهديهم ذلك إلى اتباع الحق، والسير في الطريق القويم.

وقوله- تعالى-: وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً تصوير بديع لإصرارهم على كفرهم وعنادهم، وإيثارهم الغي على الرشد.

والنفور: التباعد والإعراض عن الشيء. يقال: نفرت الدابة تنفر- بكسر الفاء وضمها- نفورا، إذا جزعت وتباعدت وشردت.

أى: وما يزيدهم هذا البيان والتكرار الذي اشتمل عليه القرآن الكريم، إلا تباعدا عن الحق، وإعراضا عنه، وعكوفا على باطلهم، بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للرسول ﷺ على ما آتاه الله من فضله.

وكان بعض الصالحين إذا قرأ هذه الآية قال: زادني لك خضوعا، ما زاد أعداءك نفورا.

=

=

قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ} [الإسراء: ٤٢]، أي:" قل -أيها الرسول- للمشركين: لو أن مع الله آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر: لو كان الأمر كما تقولون: من أن معه آلهة، وليس ذلك كما تقولون".

قال مقاتل:" قل لكفار مكة: {لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ} حين يزعمون أن الملائكة بنات الرحمن فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله- ﷻ- في الآخرة".

قوله تعالى: {إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} [الإسراء: ٤٢]، أي:" إذًا لطلبَتْ تلك الآلهة طريقًا إلى مغالبة الله ذي العرش العظيم".

**قال الطبري:**" إذن لابتغت تلك الآلهة القربة من الله ذي العرش العظيم، والتمست الزلفة إليه، والمرتبة منه".

قال قتادة:" لابتغوا القرب إليه، مع أنه ليس كما يقولون".

وفي تفسير قوله تعالى: {إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} [الإسراء: ٤٢]، وجوه:

**أحدها:** لطلبوا إليه طريقـاً يتصلون به لأنهم شركاء؛ قاله سعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:" على أن ينزلوا ملكه".

**الثاني:** "يريد منازعة وقتالًا؛ كما يفعل ملوك الدنيا". قاله ابن عباس -في رواية عطاء-. وروي نحوه عن الحسن، والكلبي، ومقاتل.

وقال مقاتل:" ليغلبوه ويقهروه كفعل ملوك الأرض بعضهم ببعض يلتمس بعضهم أن يقهر صاحبه ويعلوه".

وقال أبو بكر الهذلي: "إذًا لابتغت الآلهة أن تزيل مُلك صاحب العرش".

قال الزجاج:" قال بعضهم: أي: لكانوا مضادِّينَ له يطلبون الانفِرادَ بالربُوبِيةِ".

=

=

**الثالث**: ليتقربوا إليه، لأنهم دونه، قاله قتادة.

والمعنى على هذا القول: "لابتغوا ما يقربهم إليه لِعُلُوِّه إليهم وعِظَمِه عندهم، وهذا كقوله: {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} [المزمل: ١٩] ".

قال يحيى بن سلام:" إذا لطلبوا إليه الوسيلة والقربة".

قال قتادة:" يقول: لو كان معه آلهة إذن لعرفوا فضله ومرتبته ومنزلته عليهم، فابتغوا ما يقربهم إليه".

وقال السدي:" إذًا لابتغت الآلهة الحوائج من الله".

قال ابن قتيبة:" يقول: لو كان الأمر كما تقولون لابتغى من تدعونه إلها، التقرب إلى الله؛ لأنه رب كل مدعو".

قال الزجاج:" أي: لتقربوا إلى ذي العرش، كما قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} [وهذا القول] عليه المفسرون ".

وقد رجح القول الأول الخازن والألوسي، والشنقيطي، وقال: "ولا شك أن المعنى الظاهر المتبادر من الآية بحسب اللغة العربية هو القول الأول؛ لأن في الآية فرض المحال؛ والمحال المفروض الذي هو وجود آلهة مع الله مُشَارِكة له لا يظهر معه أنها تتقرب إليه، بل تنازعه لو كانت موجودة، ولكنها معدومة مستحيلة الوجود".

* ثم أمر الله- تعالى- رسول الله ﷺ أن يوبخهم على شركهم، وأن يسوق لهم الدليل الواضح على فساد عقولهم، فقال- تعالى-: قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ، إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا.

وقد قرأ جمهور القراء «كما تقولون» وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم «كما يقولون».

وللمفسرين في تفسير هذه الآية اتجاهان، أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه أن

=

=

المعنى.

قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء المشركين، لو كان مع الله- تعالى- آلهة أخرى- كما يزعمون- إذا لطلبوا إلى ذي العرش- وهو الله ﷻ طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه، لكي ينازعوه في ملكه، ويقاسموه إياه، كما هي عادة الشركاء، وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم.

قال- تعالى-: مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ، وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ، سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ .

وقال سبحانه-: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا، فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ .

وهذا الاتجاه قد صدر به صاحب الكشاف كلامه فقال ما ملخصه: قوله إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو. أى: إذا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالية، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض.. .

وأما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن المعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين، لو كان مع الله- تعالى- آلهة أخرى- كما يزعمون-، إذا لابتغوا- أى الآلهة المزعومة- إلى ذي العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه، ويعترفوا بفضله، ويخلصوا له العبادة، كما قال- تعالى-: أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ، وَيَخافُونَ عَذابَهُ، إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً.

قال الشنقيطي في أضواء البيان: وفي معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير، كلاهما حق، ويشهد له قرآن. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها وجهان، كلاهما حق، وكلاهما يشهد له قرآن، فنذكر الجميع لأنه كله حق.

=

=

الأول من الوجهين المذكورين: أن معنى الآية الكريمة: لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا -أي: الآلهة المزعومة- أي: لطلبوا إلى ذي العرش -أي: إلى الله- سبيلًا، أي: إلى مغالبته وإزالة ملكه؛ لأنهم إذًا يكونون شركاءه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض. سبحان الله وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا!.

وهذا القول في معنى الآية هو الظاهر عندي، وهو المتبادر من معنى الآية الكريمة. ومن الآيات الشاهدة لهذا المعنى قوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)} وقوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)} وهذا المعنى في الآية مروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي علي الفارسي، والنقاش، وأبي منصور، وغيره من المتكلمين.

الوجه الثاني في معنى الآية الكريمة؛ أن المعنى لابتغوا إلى ذي العرش سبيلًا، أي: طريقًا ووسيلة تقربهم إليه لاعترافهم بفضله. ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} الآية. ويروى هذا القول عن قتادة. واقتصر عليه ابن كثير في تفسيره.

ولا شك أن المعنى الظاهر المتبادر من الآية بحسب اللغة العربية هو القول الأول؛ لأن في الآية فرض المحال، والمحال المفروض الذي هو وجود ألهة مع الله مشاركة له لا يظهر معه أنها تتقرب إليه، بل تنازعه لو كانت موجودة، ولكنها معدومة مستحيلة الوجود. والعلم عند الله تعالى ا.هـ

والتعبير بقوله- سبحانه-: إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا يشير إلى الارتفاع والتسامى على تلك الآلهة المزعومة، وأنها دون عرشه- تعالى- وتحته، وليست

=

=

معه..

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الإسراء: ٤٣]

أي: تنزَّه الله وتقدَّس عَمَّا يقوله المشركون وتعالى علوًا كبيرًا.

قال قتادة:" يسبح نفسه إذ قيل عليه البهتان".

قال يحيى بن سلام:" {سبحانه}: ينزه نفسه. {وتعالى} ارتفع".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

قال القرطبي:" نزه سبحانه نفسه وقدسه ومجده عما لا يليق به. والتسبيح: التنزيه".

**قال الطبري:**" وهذا تنزيه من الله تعالى ذكره نفسه عما وصفه به المشركون، الجاعلون معه آلهة غيره، المضيفون إليه البنات، فقال: تنزيها لله وعلوا له عما تقولون أيها القوم، من الفرية والكذب، فإن ما تضيفون إليه من هذه الأمور ليس من صفته، ولا ينبغي أن يكون له صفة".

قال السعدي:" أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه {عما يقولون} من الشرك به واتخاذ الأنداد معه {علوا كبيرا} فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن يكون معه آلهة فقد ضل من قال ذلك ضلالا مبينا وظلم ظلما كبيرا".

قال النسفي:" وصف العلو بالكبر مبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به".

قوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [الإسراء: ٤٤]، أي:" تُسَبِّح له -سبحانه- السموات السبع والأرضون، ومَن فيهن مِن جميع المخلوقات".

**قال الطبري:**" تنزه الله أيها المشركون عما وصفتموه به إعظاما له وإجلالا السماوات السبع والأرض، ومن فيهن من المؤمنين به من الملائكة والإنس والجن، وأنتم مع إنعامه عليكم، وجميل أياديه عندكم، تفترون عليه بما تفترون".

=

=

قال ابن كثير:" يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجِّلّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته".

كان الحسن يقول: "إن الجبل يسبح، فإذا قطع منه شيء لم يسبح المقطوع ويسبح الأصل، وكذلك الشجرة ما قطع منها لم يسبح وتسبح هي".

عن عبد الرحمن بن قرط؛ أن رسول الله ﷺ ليلة أسري إلى المسجد الأقصى، كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطار به حتى بلغ السماوات السبع، فلما رجع قال: سمعت تسبيحًا في السماوات العلى مع تسبيح كثير: سبحت السماوات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا سبحان العليّ الأعلى، سبحانه وتعالى".

قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤]، أي:" وكل شيء في هذا الوجود ينزه الله تعالى تنزيهًا مقرونًا بالثناء والحمد له سبحانه".

**قال الطبري**:" يقول جل ثناؤه: وما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده".

قال ابن كثير:" أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله".

قال عكرمة:" لا يعيبن أحدكم دابته ولا ثوبه، فإن كل شيء يسبح بحمده".

وفي قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: وإن من شيء فيه الروح من الحيوان والنبات الا يسبح بحمده، فأما ما ليس بحي فلا، قاله الحسن، وقتادة، والضحاك.

قال قتادة:" كل شيء فيه الروح يسبح، من شجر أو شيء فيه الروح".

عن الضحاك والحسن:"أنهما قالا في قوله: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده}، قالا كل شيء فيه الروح".

=

=

**الثاني**: إن جميع المخلوقات تسبح له من حي وغير حي حتى صرير الباب، قاله إبراهيم النخعي.

قال إبراهيم:" الطعام يسبح". قال ابن كثير:" ويشهد لهذا القول آية السجدة أول سورة الحج".

قال ابن كثير:" وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه، قال الله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} ".

**الثالث**: أنه كل ذي روح، وكل نام من شجر أو نبات. وهذا قول عكرمة.

قال عكرمة:" الشجرة تسبح، والأسطوانة تسبح".

**الرابع**: أنه كل شيء لم يغير عن حاله، فإذا تغير انقطع تسبيحه. حكاه ابن الجوزي عن المقدام بن معديكرب.

روى خالد بن معدان عن المقدام بن معديكرب قال: "إن التراب ليسبح ما لم يبتل، فاذا ابتل ترك التسبيح، وإن الورقة تسبح ما دامت على الشجرة، فاذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديدا، فاذا توسخ ترك التسبيح".

وقال جرير أبو الخطاب: "كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد يسبح هذا الخوان: فقال: كان يسبح مرة".

قال ابن كثير:" «الخِوَان» هو المائدة من الخشب. فكأن الحسن، رحمه الله، ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة، كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه. وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: "إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يَسْتَتِر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة". ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: "لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا". أخرجاه في

=

=

الصحيحين.

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: "ما لم ييبسا" لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم".

الخامس: أن تسبيح ذلك ما يظهر فيه من لطيف صنعته وبديع قدرته الذي يعجز الخلق عن مثله فيوجب ذلك على من رآه تسبيح الله وتقديسه، حكاه الماوردي، كما قال الشاعر:

**تُلْقِي بِتَسْبِيحَةٍ مِنْ حَيْثُما انْصَرَفَتْ وتَسْتَقِرُّ حَشَا الرَّائِي بِإِرْعَادِ**

**كَأَنَّمَا خُلِقتْ مِن قِشْرِ لُؤْلُؤةٍ فَكُلُّ أَكْنَافِها وَجْهٌ لِمِرْصَادِ**

قال ابن الجوزي:" فأما تسبيح الحيوان الناطق، فمعلوم، وتسبيح الحيوان غير الناطق، فجائز أن يكون بصوته، وجائز أن يكون بدلالته على صانعه".

قال ابن كثير:" هذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل» ".

وعن أنس قال: "تناول النبى ﷺ من الأرض سبع حصيات فسبحن فى يده، ثم ناولهن أبا بكر فسبحن كما سبحن فى يد النبى ﷺ، ثم ناولهن النبى ﷺ عمر فسبحن فى يده كما سبحن فى يد أبى بكر، ثم ناولهن عثمان فسبحن فى يده كما سبحن فى يد أبى بكر وعمر". وفي رواية:" ثم صيرهن فى أيدينا رجلا رجلا فما سبحت حصاة منهن".

عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ "أنه مَرّ على قوم وهم وقوف على دوابّ لهم ورواحل، فقال لهم: "اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرا لله منه".

=

=

عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: "نقيقها تسبيح".

وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أنه تسبيح لا يعلمه إلا الله.

**والثاني**: أنه خضوعه وخشوعه لله.

**والثالث**: دلالته على صانعه، فيوجب ذلك تسبيح مبصره.

قال ابن الجوزي:" فإن قلنا: إنه تسبيح حقيقة، كان قوله تعالى: {ولكن لا تفقهون تسبيحهم} لجميع الخلق وإن قلنا: إنه دلالته على صانعه، كان الخطاب للكفار، لأنهم لا يستدلون، ولا يعتبرون".

عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحا قال لابنه يا بني آمرك أن تقول سبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها ترزق الخلق، قال الله: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده} ".

عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبي ﷺ أعرابيّ عليه جبة من طيالسة مكفوفة بديباج – أو: مزورة بديباج – فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النبي ﷺ مغضبًا، فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه، فقال: "لا أرى عليك ثياب من لا يعقل". ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: "إن نوحًا، عليه السلام، لما حضرته الوفاة، دعا ابنيه، فقال: إني قاص عليكما الوصية: آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك بالله والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السماوات والأرض وما بينهما لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت "لا إله إلا الله" في الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السماوات والأرضِ كانتا حلقة، فوضعت "لا إله إلا الله" عليهما لفصمتهما أو لقصمتهما. وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل

=

=

شيء".

قولـه تعـالى: {وَلَكِـنْ لَا تَفْقَهُـونَ تَـسْبِيحَهُمْ} [الإسـراء: ٤٤]، أي:" ولكـنْ لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلغاتكم".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: ولكن لا تفقهون تسبيح ما عدا تسبيح من كان يسبح بمثل ألسنتكم".

قال ابن كثير:" أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: ٤٤]، أي:" إنه سبحانه كان حليمًا بعباده لا يعاجل مَن عصاه بالعقوبة، غفورًا لهم".

**قال الطبري:**" يقول: إن الله كان حليما لا يعجل على خلقه، الذين يخالفون أمره، ويكفرون به، ولولا ذلك لعاجل هؤلاء المشركين الذين يدعون معه الآلهة والأنداد بالعقوبة {غفورا} يقول: ساترا عليهم ذنوبهم، إذا هم تابوا منها بالعفو منه لهم".

عن قتادة:" {إنه كان حليما} عن خلقه، فلا يعجل كعجلة بعضهم على بعض، {غفورا} لهم إذا تابوا".

* ثم بين- سبحانه- أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال- تعالى-: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ، وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ).

والتسبيح: مأخوذ من السبح، وهو المر السريع في الماء أو في الهواء، فالمسبح مسرع في تنزيه الله وتبرئته من السوء، ومن كل ما لا يليق به- سبحانه-.

أى تنزه الله- تعالى- وتمجده السموات السبع، والأرض، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك، وما من شيء من مخلوقاته التي لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه- تعالى-، ولكن أنتم يا بنى آدم «لا تفقهون تسبيحهم» لأن

=

=

تسبيحهم بخلاف لغتكم، وفوق مستوى فهمكم، وإنما الذي يعلم تسبيحهم هو خالقهم ﷻ، وصدق- سبحانه- إذ يقول: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ).

والمتدبر في هذه الآية الكريمة، يراها تبعث في النفوس الخشية والرهبة من الخالق- ﷻ، لأنها تصرح تصريحا بليغا بأن كل جماد، وكل حيوان، وكل طير، وكل حشرة.

بل كل كائن في هذا الوجود يسبح بحمده- تعالى-.

وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله، وإخلاص العبادة له، ومداومة ذكره ... حتى لا يكون- وهو الذي كرمه ربه وفضله- أقل من غيره طاعة لله- تعالى-.

وقوله: إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً تذييل قصد به بيان فضل الله- تعالى- ورحمته بعباده مع تقصيرهم في تسبيحه وذكره.

أى: إِنَّهُ كانَ حَلِيماً لا يعاجل المقصر بالعقوبة، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر عن تقصيره ومعصيته، غَفُوراً لمن تاب وآمن وعمل صالحا واهتدى إلى صراطه المستقيم.

وقد اختلف العلماء في مقتضى ماتتضمنه هذه الآية وغيرها، التي تفيد سجود الحيوان والموات، وتسبيحه، ونطقه، إلى أقوال:

القول الأول: أن التسبيح حقيقة، وكل شيء يُسبح تسبيحًا لا يسمعه البشر ولا يفقهه، وهذا قول إبراهيم النخعي، وعكرمة، ومجاهد، ورجحه الزجاج، والقرطبي، ونصره السمعاني في تفسيره، وهو مروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما، واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ - (عن ابن عمر رضي الله عنهما -كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول

=

=

إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح يده عليه)، وفي رواية: (فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العِشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت).

يقول القرطبي: "وإذا ثبت ذلك في جماد واحد، جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيء من ذلك"

٢ – عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: (وإني لأعرف حجرا بمكة، كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن).

٣ – عن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: (لايسمع مدى صوت المؤذن، جن ولا إنس، ولاشيء، إلا شهد له يوم القيامة).

٤ – عن عبدالله بن مسعود قال: (.. فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام، وهو يؤكل)

٥ – عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحا عليه السلام قال لابنه: يابني: آمرك أن تقول:"سبحان الله"فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق، قال تعالى:" وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ"

٦ – وقال عكرمة: لايعيبَّن أحدكم ودابته ولا ثوبه، فإن كل شيء يسبح بحمده. وقال: الشجرة تُسبح، والأسطوانة تُسبح.

٧ – وقال مجاهد: كل الأشياء تسبح لله، حيا كان أو جمادًا أو تسبيحها: سبحان الله وبحمده.

٨ – وقال إبراهيم النخعي: الطعام يُسبح. وقال: وإن من شيء جماد أو حي إلا يسبح بحمده، حتى صرير الباب، ونقيض السقف.

القول الثاني: إن التسبيح خاص بالأحياء فقط، وما ليس بحي فلا، وعليه: فلا يدخل فيه الجمادات: وإنما يسبح ما كان فيه روح، من حيوان أو نبات، وهذا

=

=

مروي عن الحسن والضحاك وقتادة، واستدل أصحاب هذا القول بما يلي:
١ - عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لايستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة، قالوا: يارسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: لعله يخفف عنهما مالم ييبسا)، يقول الإمام القرطبي: فقوله ﷺ:" مالم ييبسا" إشارة إلى أنهما ماداما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جمادا
٢ - قال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام، وقد قدم الخوان: (أيُسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يسبح مرة، يقول الإمام القرطبي: (يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبح، وإنما الآن فقد صار خوانا مدهونا.
٣ - قال قتادة: قوله تعالى: " وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ": كل شيء فيه الروح يُسبح، من شجر، أو شيء فيه "
٤ - قال الضحاك: في قوله:" وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِي": كل شيء فيه الروح.
القول الثالث: أن تسبيح السماوات والأرض والجمادات، وسائر الحيوانات سوى العقلاء، هو مادلت بلطيف تركيبها، وعجيب هيئاتها على خالقها، فيصير ذلك بمنزلة التسبيح منها، فالمقصود من تسبيح الجمادات على هذا القول: أنها تدعو الناظر إليها أن يقول: سبحان الله، لعدم الإدراك منها، فلطيف الصنعة، وبديع القدرة، توجب على من رآها تسبيح الله وتقديسه.
وقد وهن السمعاني هذا القول، وقال: " وقال بعضهم: إن سجود الحجارة هو بظهور أثر الصنع فيه، على معنى أنه يحمل السجود والخضوع لمن تأمله وتدبر فيه، وهذا قول فاسد، والصحيح ماقدمنا، والدليل عليه أن الله وصف الحجارة بالخشية، فقال:" وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ " ولا يستقيم حمل الخشية على

=

=

ظهورأثر القدرة عليه، وأيضـًا فإن الله تعالى قال:" يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ" أوبـي معه: أي سبحي معه، ولو كان المراد ظهور أثر الصنع فيه.

لم يكن لقوله: " مع داود" معنى؛ لأن داود وغيره في رؤية أثر الصنع سواء، وأيضا فـإن الله تعـالى قـال:" وَإِن مِّـن شَـيْءٍ إِلَّا يُـسَبِّحُ بِحَمْـدِهِي" أي يطيـع الله بتسبيحه،"وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ " ولو كان المراد بالتسبيح ظهور أثـر الـصنع فيه، لم يستقم قوله: " وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ".

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه: وقوله: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ أى: ومـا من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أى: لا تفقهـون تـسبيحهم- أيهـا النـاس- لأنها بخـلاف لغـتكم وهـذا عـام في الحيوانـات والنبات والجماد.

وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري وغيره، عن ابن مسعود أنـه قـال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي حديث أبى ذر: أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهـن تـسبيح كحنين النحل. وكذا في يد أبى بكر وعمر وعثمان- رضى الله عنهم- وهو حديث مـشهور في المسانيد ...

ثم قال ويشهد لهذا القول آية السجدة في أول سورة الحـج- وهـو قولـه- تعـالى-: أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ يَـسْجُدُ لَـهُ مَـنْ فِي الـسَّماواتِ وَمَـنْ فِي الْأَرْضِ، وَالـشَّمْسُ وَالْقَمَـرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ..

.

وقال القرطبي: قولـه- تعـالى-: تُـسَبِّحُ لَـهُ الـسَّماواتُ الـسَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَـنْ فِـيهِنَّ أعاد على السموات والأرض ضمير مـن يعقـل، لمـا أسـند إليهـا فعـل العاقـل وهـو التـسبيح. وقولـه وَمَـنْ فِـيهِنَّ يريـد الملائكـة والإنـس والجـن، ثـم عمـم بعـد ذلـك

=

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥).

{وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مَسْتُورًا} أَيْ سَاتِرًا لَك عَنْهُمْ فَلَا يَرَوْنَك نَزَلَ فِيمَنْ أَرَادَ الْفَتْك بِهِ ﷺ.

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦).

---

=

الأشياء كلها في قوله:

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ.

واختلف في هذا العموم هل هو مخصص أولا. فقالت فرقة: ليس مخصوصا، والمراد به تسبيح الدلالة، كل محدث يشهد على نفسه بأن الله- ﷻ خالق قادر.

وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر: ولا يفقهونه، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصفة والدلالة، لكان أمرا مفهوما، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه..

ويستدل لهذا القول من الكتاب بقوله- تعالى-: وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ...

وقوله- تعالى-: وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ.

ثم قال: فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة، فأى تخصيص لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال، بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح. وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى.

{وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّة} أَغْطِيَة {أَنْ يَفْقَهُوهُ} مِنْ أَنْ يَفْهَمُوا الْقُرْآن أَيْ فَلَا يَفْهَمُونَهُ {وَفِي آذَانهمْ وَقْرًا} ثقلا فلا يسمعونه {وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا} عنه.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧).

{ونحن أعلم بما يستمعون بِهِ} بِسَبَبِهِ مِنْ الْهُزْء {إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْك} قِرَاءَتك {وَإِذْ هُمْ نَجْوَى} يَتَنَاجَوْنَ بَيْنهمْ أَيْ يَتَحَدَّثُونَ {إِذْ} بَدَل مِنْ إِذْ قَبْله {يَقُول الظالمون} في تناجيهم {إِنْ} مَا {تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} مَخْدُوعًا مغلوبا على عقله قال تعالى.

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨).

{اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَك الْأَمْثَال} بِالْمَسْحُورِ وَالْكَاهِن وَالشَّاعِر {فَضَلُّوا} بِذَلِكَ عَنْ الْهُدَى {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سبيلا} طريقا إليه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن الزهري؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الله؛ قالوا -يهزؤون به-: {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}؛ فأنزل الله في ذلك من قولهم: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٢٩٧) و"لباب النقول" (ص ١٣٦، ١٣٧) ونسبه لابن إسحاق وابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن أبي جعفر: محمد بن علي؛ أنه قال: لم كتمتم {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}؛ فنعم الاسم والله! فإن رسول الله ﷺ كان إذا دخل منزله، اجتمعت قريش، فيجهر {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ويرفع صوته بها، فتولي قريش فرارًا؛ فأنزل الله: {وَإِذَا =

=

ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٢٩٨) ونسبه للبخاري في "تاريخه". وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥)} [الإسراء: ٤٥]

قال ابن كثير:" يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت - يا محمد - على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستورًا".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث، ولا يقرون بالثواب والعقاب، جعلنا بينك وبينهم حجابا، يحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم، فينتفعوا به، عقوبة منا لهم على كفرهم. والحجاب ههنا: هو الساتر".

قال الزجاج:" قال أهل اللغة معنى {مستورا} ههنا في موضع ساتر، تأويل «الحجاب» - والله أعلم - الطبع الذي على قلوبهم. ويدل على ذلك قوله: {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه}، و «الأكنة» جمع «كنان»، وهو ما ستر، ومعنى {أن يفقهوه} كراهة {أن يفقهوه} وقيل: معناه ألا يفقهوه والمعنيان واحد، غير أن كراهة أجود في العربية".

وفي تفسير هذه الآية، قولان:

أحدهما: أي: جعلنا القرآن حجاباً ليسترك عنهم إذا قرأته.

قال زهير بن محمد:" ذاك رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن علي المشركين بمكة سمعوا صوته ولا يرونه".

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، قالت: لما نزلت:" {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَب وَتبٍ} [سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولوَلة، وفي يدها فِهْر وهي

=

تقول: مُذَمَّما أتينا - أو: أبينا، قال أبو موسى: الشك مني - ودينه قَلَيْنَا، وأمره عصينا. ورسول الله جالس، وأبو بكر إلى جنبه - أو قال: معه - قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: "إنها لن تراني"، وقرأ قرآنا اعتصم به منها: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} . قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبيّ ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها".

**الثاني**: أي: جعلنا القرآن حجاباً يسترهم عن سماعه إذا جهرت به. فعلى هذا فيه ثلاثة أوجه:

**أحدها**: أنهم لإعراضهم عن قراءتك كمن بينك وبينهم حجاباً في عدم رؤيتك. قاله الحسن.

**الثاني**: أن الحجاب المستور أن طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه، قاله قتادة، ورواه ابن زيد عن أبيه.

قال قتادة:" الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم".

قال ابن زيد:" قال أبي: لا يفقهونه، وقرأ {قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر}، لا يخلص ذلك إليهم".

**الثالث**: أنها نزلت في قوم كانوا يؤذونه في الليل إذا قرأ، فحال الله بينه وبينهم من الأذى، قاله الزجاج.

* يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال:

{وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} الذي فيه الوعظ والتذكير والهدى والإيمان والخير والعلم

=

الكثير.

والخطاب في قوله- تعالى-: وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ... للرسول ﷺ وقوله حِجاباً من الحجب بمعنى المنع.

قال صاحب المصباح: حجبه حجبا- من باب قتل-: منعه. ومنه قيل للستر: حجاب لأنه يمنع المشاهدة. وقيل للبواب: حاجب، لأنه يمنع من الدخول. والأصل في الحجاب: جسم حائل بين جسدين، وقد استعمل في المعاني فقيل: العجز حاجب، أى: بين الإنسان ومراده..

وقوله مَسْتُوراً ساترا، فهو من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل. كميمون بمعنى يامن. ومشئوم بمعنى شائم.

واختار بعضهم أن مستورا على معناه الظاهر، من كونه اسم مفعول، لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه، أو مستورا به القارئ فلا يراه غيره، ويجوز أن يكون مستورا، أى: ذا ستر فهو للنسب كمكان مهول: ذو هول..

وللمفسرين في تفسير هذه الآية أقوال، أشهرها قولان:

أولهما: أن المراد بالحجاب المستور: ما حجب الله به قلوب هؤلاء الكافرين عن الانتفاع بهدى القرآن الكريم، بسبب جحودهم وجهلهم وإصرارهم على كفرهم. فهو حجاب معنوي خفى، حال بينهم وبين الانتفاع بالقرآن.

فهم يستمعون إليه، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له، ويمانعون فطرتهم عن التأثر به، فكان استماعهم له كعدمه، وعاقبهم الله على ذلك بأن طمس بصائرهم عن فقهه.

والمعنى: وإذا قرأت- أيها الرسول الكريم- القرآن الهادي إلى الطريق التي هي أقوم، جعلنا- بقدرتنا، ومشيئتنا-، بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة، حجابا من الجهل وعمى القلب. فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به،

=

=

ويحجبهم ويمنعهم عن إدراك أسراره وهداياته، وساترا بينك وبينهم، بحيث لا يصل القرآن إلى قلوبهم وصول انتفاع وهداية، عقوبة منا لهم على كفرهم.

ويشهد لهذا المعنى قوله- تعالى-: وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ، وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ، فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ .

ومن المفسرين الذين اكتفوا بهذا القول، فلم يذكروا غيره، البيضاوي، فقد قال- رحمه الله: قوله: وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم مَسْتُوراً ذا ستر: كقوله- تعالى-: إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا أى مستورا عن الحس.. .

أما القول الثاني فيرى أصحابه: أن المراد بالحجاب المستور، أن الله- تعالى- يحجب نبيه ﷺ عن أعين المشركين، بحيث لا يرونه في أوقات معينة، لحكم منها: النجاة من شرورهم.

فيكون المعنى: وإذا قرأت القرآن- أيها الرسول الكريم- جعلنا بينك وبين هؤلاء الكافرين، حجابا ساترا لك عنهم بحيث لا يرونك، عند ما تكون المصلحة في ذلك.

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أسماء بنت أبى بكر قالت: لما نزلت سورة تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة، وفي يدها فهر- أى حجر- وهي تقول.... الحديث.

ومن المفسرين الذين استظهروا هذا القول، الإمام القرطبي، فقد قال بعد أن ذكر ما روى عن أسماء بنت أبى بكر- رضى الله عنهما في الحديث السابق.

ثم قال القرطبي: وقيل: الحجاب المستور، طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه: ولا يدركوا ما فيه من الحكمة. قاله قتادة. وقال الحسن: أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك، وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب في عدم رؤيتهم لك، حتى كأن

=

=

على قلوبهم أغطية ...

ثم قال: والقول الأول أظهر في الآية .

ويبدو أن كلا القولين صحيح في ذاته، وأن كل واحد منهما يحكى حالات معينة، ويشهد لذلك ما نقله الجمل في حاشيته على الجلالين عن شيخه فقد قال- رحمه الله. قوله: (حِجاباً مَسْتُوراً) أى: ساترا لك عنهم فلا يرونك وهذا بالنسبة لبعضهم، كان يحجب بصره عن رؤية النبي ﷺ إذا أراده بمكروه وهو يقرأ القرآن: وبعضهم كان يحجب قلبه عن إدراك معاني القرآن.. وبعضهم كان ينفر عند قراءة القرآن.. .

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ} [الإسراء: ٤٦].

قال ابن كثير:" جمع «كنان»، الذي يغشى القلب {أَنْ يَفْقَهُوهُ} أي: لئلا يفهموا القرآن".

قال السدي:" أما {أكنة} فالغطاء أكن قلوبهم". وروي عن مجاهد، وعطية، والضحاك، نحو ذلك.

عن السدي قوله: " {أن يفقهوه}: لا يفقهون الحق". قوله: " {في آذانهم وقرا}، قال: صمم".

قوله تعالى: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [الإسراء: ٤٦]، أي:" وجعلنا في آذانهم صممًا؛ لئلا يسمعوه".

**قال الطبري:**" يقول: وجعلنا في آذانهم وقرا عن سماعه، وصمما، والوقر بالفتح في الأذن: الثقل".

قال ابن كثير: {وَقْرًا} " وهو الثقْل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به".

عن السدي، قوله: " {في آذانهم وقرا}، قال: صمم".

=

=

قال قتادة:" يسمعونه بآذانهم، ولا يعون منه شيئا كمثل البهيمة التي تسمع القول، ولا تدري ما يقال لها".

قوله تعالى: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ} [الإسراء: ٤٦]، أي:" وإذا ذَكَرْتَ ربك في القرآن داعيًا لتوحيده ناهيًا عن الشرك به".

قال ابن كثير:" أي: إذا وحَّدت الله في تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ".

**قال الطبري:**" يقول: وإذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه".

قوله تعالى: {وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} [الإسراء: ٤٦]، أي:" رجعوا على أعقابهم نافرين من قولك؛ استكبارًا واستعظامًا من أن يوحِّدوا الله تعالى في عبادته".

قال الزمخشري:" أى: يحبون أن تذكر معه آلهتهم لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا".

**قال الطبري:**" يقول: انفضوا، فذهبوا عنك نفورا من قولك استكبارا له واستعظاما من أن يوحد الله تعالى".

قال ابن كثير:" أي: أدبروا راجعين ".

قال ابن زيد:" بغضا لما تتكلم به، لئلا يسمعوه كما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم في آذانهم، لئلا يسمعوا ما يأمرهم به من الاستغفار والتوبة".

عن قتادة، قال: "إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده".

قال مقاتل:" يعنى: أعرضوا عن التوحيد ونفروا عنه كراهية التوحيد، وذلك حين قال لهم النبي- ﷺ- يوم دخلوا على أبي طالب وهم الملأ فقال: قولوا لا إله إلا الله تملكون بها العرب وتدين لكم العجم".

قال مقاتل: وإن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون وكبرت

=

=

عليهم، فصافها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويفلجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها".

وروي عن ابن عباس في قوله: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}، قال:" هم الشياطين".

* وقوله- تعالى-: وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً يؤكد أن المشركين كانوا طوائف متعددة بالنسبة لموقفهم من القرآن الكريم، ومن النبي ﷺ.

أى: وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ أى: أغطية تسترها وتمنعها من فقه القرآن الكريم، وفهمه فهما سليما.

وجعلنا- أيضا-: فِي آذانِهِمْ وَقْراً أى: صمما وثقلا عظيما يمنعهم من سماعه سماعا ينفعهم.

وقوله: - سبحانه-: وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة.

أى: وإذا ذكرت أيها الرسول الكريم- ربك في القرآن وحده، دون أن تذكر معه آلهتهم المزعومة انفضوا من حولك ورجعوا على أعقابهم نافرين شاردين كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ.

وبذلك ترى أن هاتين الآيتين قد صورتا قبائح المشركين المتنوعة أبلغ تصوير، لتزيد في فضيحتهم وجهلهم، ولتجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم.

قوله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ} [الإسراء: ٤٧]، أي:" نحن أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن وهي الاستهزاء والسخرية".

=

=

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: نحن أعلم يا محمد بما يستمع به هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قومك".

قال الزمخشري: أي:" من الهزؤ بك وبالقرآن، ومن اللغو: كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار".

قوله تعالى: {إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى} [الإسراء: ٤٧]، أي:" حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد ثم يتناجون ويتحدثون بينهم سرا".

**قال الطبري:**" إذ يستمعون إليك وأنت تقرأ كتاب الله {وَإِذْ هُمْ نَجْوَى} ".

قال يحيى بن سلام:" يتناجون في أمر النبي ﷺ".

قال مجاهد:" هي في مثل قول الوليد بن المغيرة ومن معه في دار الندوة".

قال قتادة:" نجواهم أن زعموا أنه مجنون، وأنه ساحر، وقالوا {أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ} ".

عن ابن عباس، في قوله: {إذ يستمِعُون إليك}، قال: "عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل".

قال الزجاج:" وكانوا يستمعون من النبي ﷺ ويقولون بَيْنَهم: هو ساحِر وهو مَسْحور وما أشبه ذلك من القول".

قوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} [الإسراء: ٤٧]، أي:" حين يقول أولئك الفجرة ما تتبعون إلا رجلاً سُحر فجُنَّ فاختلط كلامه".

قال يحيى بن سلام:" {إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ} [الإسراء: ٤٧] المشركون.. {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} [الإسراء: ٤٧]، يعني: المؤمنين".

**قال الطبري:**" يقول: حين يقول المشركون بالله ما تتبعون إلا رجلا مسحورا. وعنى فيما ذُكِر بالنجوى: الذين تشاوروا في أمر رسول الله ﷺ في دار النَّدوة".

=

=

قال مقاتل:" يعني بـ «المسحور»: المغلوب على عقله ".

وفي قوله تعالى: {رَجُلًا مَسْحُورًا} [الإسراء: ٤٧]، وجوه:

**أحدها**: أن {رَجُلًا مَسْحُورًا} : أي: مخدوعًا. قاله مجاهد.

قال ابن قتيبة:" لأن السحر حيلة وخديعة".

**الثاني**: معناه: أن له سحرا، أي: رئة، يأكل ويشرب فهو مثلكم يأكل الطعام وليس بملك، قاله أبو عبيدة. وأنشد قول لبيدٌ:

فإن تسألينا فيم نحنُ فإننا... عصافير من هذا الأنامِ المسحَّرِ

وقول الآخر:

**أرانا مُوْضِعِينَ لأمرِ غَيْبٍ ... ونُسْحَرُ بالشَّراب وبالطعامِ**

**عَصَافِيرٌ وذِبَّانٌ ودُودٌ ... وأجْرأ مِنْ مُجَلِّحَةِ الذّئابِ**

**قوله**: "ونُسْحَرُ بالشَّراب وبالطعامِ"، أي: "نغذى، لأن أهل السماء لا يأكلون فأزادوا أن يكون ملكا".

قال أبو عبيدة:" كل دابّة أو طائر أو بشر يأكل فهو مسحور لأن له سحرا، والسحر: الرّئة".

قال الثعلبي:" تقول العرب للجبان: قد انتفخ سحره، ولكل من أكل وشرب من آدمي وغيره: مسحور ومسحر".

وضعّف ابن قتيبة هذا التفسير، وقال:" ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير المستكره؟. وقد سبق التفسير من السلف بما لا استكراه فيه. قال مُجَاهد في قوله: {إلا رَجُلا مَسْحُورًا} أي: مَخْدُوعًا ؛ لأن السحر حيلة وخديعة. وقالوا في قوله: {فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}، أي: من أين تخدَعون؟ و {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ}، أي: من المُعَلَّلِينَ. وقال امرؤ القيس:

ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشرابِ

=

=

أي: نُعَلَّل، فكأنا نخدع. وقال لَبِيد:

**فإن تسألينا: فيمَ نحن؟ فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ**

أي: المُعَلَّل.

والناس يقولون: سحرْتني بكلامك. يريدون خدعتني".

**الثالث**: روى عطاء عن ابن عباس، في قوله:" {مَسْحُورًا} قال: يريد: مخلوقًا". أي: بشرًا مخلوقًا.

**الرابع**: {مَسْحوراً}، أي: سحر فاختلط عليه أمره وأزيل عن حَدِّ الاسْتِوَاء. يقولون ذلك تنفيرا عنه. حكاه الزجاج أكثر أهل اللغة وروي نحوه عن ابن عباس.

وروي أبو صالح عن ابن عباس:"أنه الذي سحر فذهب بعقله".

وقال ابن الأعرابي: "المسحور: الذَاهبُ العَقْلِ المُفْسد، وأنشد:

فقالتْ: يَمينُ اللهِ أفعَلُ إنّني...رأيتُكَ مَسْحورًا يمينُكَ فاجرَهْ

قال: وطعامٌ مَسْحورٌ: إذا أُفْسِدَ عَمَلُه، وأرضٌ مسحورة: أصابها من المطر أكثرُ مما ينبغي فأفْسَدَها".

والراجح أم "المسحور ": الذي أصابه "السحر"، وهو يورث اختلال العقل عندهم، أي: ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختلّ عقله فهو لا يعى ما يقول، ومثله لا يطاع له رأى. وهذا منهم ترقّ فى انتقاصه، وأنه لا يصلح للنبوة بحال.

قال يحيى بن سلام:" بلغنا أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة في رهط من قريش؛ قاموا من المسجد إلى دار في أصل الصفا، فيها نبي الله يصلي، فاستمعوا، فلما فرغ نبي الله من صلاته قال أبو سفيان: يا أبا الوليد -لعتبة-، أنشدك الله، هل تعرف شيئًا مما يقول؟ فقال عتبة: اللهم أعرف بعضًا وأُنكِر بعضًا. فقال أبو جهل: فأنت، يا أبا سفيان؟ فقال أبو سفيان: اللهم نعم. قال أبو سفيان لأبي جهل: يا أبا الحكم، هل تعرف مما يقول شيئًا؟ فقال أبو جهل: لا،

=

=

واللهِ الذي جعلها بيته -يعني: الكعبة-، ما أعرفُ مما يقول قليلًا ولا كثيرًا. {إن تتبعون إلا رجلا مسحورا}، يعني: المؤمنين".

عن محمد ابن شهاب الزهري، قال: "حُدِّثتُ أنّ أبا جهل، وأبا سفيان، والأخنس بن شَرِيق؛ خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يُصلي بالليل في بيته، فأخذ كلُّ رجل منهم مجلسًا يستمع

فيه، وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سُفهائكم لأوقَعتُم في نفسه شيئًا. ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجلٍ منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبِرني عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: واللهِ، لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا، والذي حلفتَ به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فقال: ما رأيك فيما سمعت مِن محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشَّرَفِ؛ أطعَمُوا فأطعمنا، وحمَلوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثَينا على الركب وكُنّا كفرسَي رهانٍ قالوا: مِنّا نبيٌّ يأتيه الوحي مِن السماء. فمتى ندرك هذه؟ واللهِ، لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس، وتركه".

* ثم ساق- سبحانه- ما يدل على كمال علمه. وأنه- تعالى- سيجازى هؤلاء الكافرين بما يستحقون من عقاب، فقال- ﷻ: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ. إِذْ

=

=

يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً.

والباء في قوله- سبحانه-: بِما يَسْتَمِعُونَ متعلقة بأعلم، ومفعول يَسْتَمِعُونَ محذوف، تقديره، القرآن.

قال الآلوسى: قوله: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ أى: متلبسين به من اللغو والاستخفاف، والاستهزاء بك وبالقرآن. يروى أنه ﷺ كان يقوم عن يمينه رجلان من بنى عبد الدار، وعن يساره رجلان منهم، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار- إذا قرأ القرآن-.

ويجوز أن تكون الباء للسببية أو بمعنى اللام. أى: نحن أعلم بما يستمعون بسببه أو لأجله من الهزء، وهم متعلقة بيستمعون.. وأفعل التفضيل في العلم والجهل يتعدى بالباء، وفي سوى ذلك يتعدى باللام، فيقال: هو أكسى للفقراء، والمراد من كونه- سبحانه- أعلم بذلك: الوعيد لهم...

وإذ في قوله إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى ظرف لأعلم.

ولفظ نَجْوى مصدر بمعنى التناجي والمسارة في الحديث. وقد جعلوا عين النجوى على سبيل المبالغة، كما في قولهم: قوم عدل.

ويجوز أن يكون جمع نجىّ، كقتلى جمع قتيل أى: وإذ هم متناجون في أمرك.

والمعنى: نحن- أيها الرسول الكريم- على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن الكريم. حين تتلوه عليهم، وبالطريقة التي يستمعون بها وبالغرض الذي من أجله يستمعون إليك. وعلى علم تام بأحوالهم حين يستمعون إليك فرادى: وحين يستمعون إليك ثم يتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان، والتواصي بمعصيتك.

فالجملة الكريمة وعيد شديد للمشركين على استماعهم المصحوب بالاستهزاء والسخرية من الرسول ﷺ ومن القرآن. وتسلية له ﷺ عما أصابه منهم، وبيان

=

=

لشمول علم الله- تعالى- لكل أحوالهم الظاهرة والخفية.
وقوله- تعالى-: إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً بدل من قوله- تعالى-: وَإِذْ هُمْ نَجْوى.
والمسحور. هو الذي سحر فاختلط عقله، وزالت عنه الهيئة السوية.
أى: ونحن أعلم بهؤلاء الأشقياء- أيضا- عند ما يقول بعضهم لبعض: لا تتبعوا محمدا ﷺ فيما يدعو إليه، فإنكم إن اتبعتموه تكونون قد اتبعتم رجلا مسحورا، أصابه السحر فأخرجه عن وعيه وعقله.
وقال- سبحانه-: إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ بالإظهار دون الإضمار، لتسجيل الظلم عليهم فيما تفوهوا به، وأنهم سيستحقون عقوبة الظالم.
قوله تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا} [الإسراء: ٤٨]، أي:" تفكر -أيها الرسول- متعجبًا من قولهم: إن محمدًا ساحر شاعر مجنون!! فجاروا وانحرفوا".
قال مقاتل:" يعني: كيف وصفوا لك الأنبياء حين قالوا أنك ساحر فضلوا عن الهدى".
قال الواحدي:" أي: بينوا لك الأشباه؛ حين شبهوك بالكاهن والساحر والشاعر والمعلَّم والمجنون".
**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: انظر يا محمد بعين قلبك فاعتبر كيف مثَّلوا لك الأمثال، وشبهوا لك الأشباه، بقولهم: هو مسحور، وهو شاعر، وهو مجنون، فجاروا عن قصد السبيل بقيلهم ما قالوا".
قال الزمخشري:" مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون فضلوا في جميع ذلك".
قال ابن قتيبة:" وقوله: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَال} [الإسراء: ٤٨]، على أن "المسحور" في قوله تعالى: [{إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا}

=

=

[الإسراء: ٤٧]] بمعنى: المخدوع، لأنهم لو أرادوا رجلا ذا رِئَةٍ، لم يكن في ذلك مَثَلٌ ضربوه. ولكنهم لما أرادوا رجلا مَخْدُوعًا - كأنه بالخديعة سُحِر - كان مثلا ضربوه، وتشبيها شبّهوه. وكأن المشركين ذهبوا إلى أن قومًا يعلّمونه ويخدعونه، وقال الله في موضع آخر حكاية عنهم: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}، وقول فرعون: {إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} لا يجوز أن يكون أراد به: إني لأظنك إنسانًا ذا رِئَةٍ؛ وإنما أراد: إني لأَظنك مَخْدُوعًا".

قوله تعالى: {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٤٨]، أي:" ولا يجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين".

**قال الطبري:**" يقول: فلا يهتدون لطريق الحقّ لضلالهم عنه وبُعدهم منه، وأن الله قد خذلهم عن إصابته، فهم لا يقدرون على المَخْرَج مما هم فيه من كفرهم بتوفُّقهم إلى الإيمان به".

قال مقاتل:" يعنى: فلا يجدون سبيلا، يعنى: لا يقدرون على مخرج مما قالوا لك بأنك ساحر".

قال الزمخشري:" ضلال من يطلب في التيه طريقا يسلكه فلا يقدر عليه، فهو متحير في أمره لا يدرى ما يصنع".

قال مجاهد:" مخرجا يخرجهم من الأمثال التي ضربوا لك، الوليد بن المغيرة، وأصحابه".

وقوله- تعالى-: انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا تسلية عظيمة للرسول ﷺ، وتثبيت له وللمؤمنين على الطريق الحق الذي هداهم الله- تعالى- إليه.

أي: انظر وتأمل- أيها الرسول الكريم- كيف أن هؤلاء المشركين. قد بلغ بهم الجحود والفجور، أنهم مثلوا لك الأمثال، فوصفوك تارة بأنك مسحور، وتارة

=

=

بأنك شاعر.

وهم في وصفهم هذا، قد ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا، وصاروا كالحيران الذي التبست عليه الطرق، فأمسى لا يعرف السبيل الذي يسلكه.

هذا، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمة الله- عند تفسيره لهذه الآيات، ما يدل على أن المشركين كانوا يستمعون إلى الرسول ﷺ عند قراءته للقرآن.

فقال: قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حدّث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق.. خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا.

حتى إذا جمعتهم الطريق، تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة التالية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، قال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه. فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ﷺ؟ فقال أبو سفيان: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها. ولا ما يراد بها.

=

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩).

{وقالوا} منكرين للبعث {أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا}.

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠).

{قل} لهم {كونوا حجارة أو حديدا}.

أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١).

{أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُر فِي صُدُوركُمْ} يَعْظُم عَنْ قَبُول الْحَيَاة فَضْلًا عَنْ الْعِظَام وَالرُّفَات فَلَا بُدّ مِنْ إيجَاد الرُّوح فِيكُمْ {فَسَيَقُولُونَ من يعيدنا} إلى الحياة {قل الذي فَطَرَكُمْ} خَلَقَكُمْ {أَوَّل مَرَّة} وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا لِأَنَّ الْقَادِر عَلَى الْبَدْء قَادِر عَلَى الْإِعَادَة بل هي أهون {فسينغضون} يحركون {إليك رؤوسهم} تَعَجُّبًا {وَيَقُولُونَ} اسْتِهْزَاء {مَتَى هُوَ} أَيْ الْبَعْث {قل عسى أن يكون قريبا}.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢).

{يَوْم يَدْعُوكُمْ} يُنَادِيكُمْ مِنْ الْقُبُور عَلَى لِسَان إسْرَافِيل {فَتَسْتَجِيبُونَ}

=

فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل. فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد ﷺ؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبي يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

فَتُجِيبُونَ دَعْوَتَهُ مِنْ الْقُبُور {بِحَمْدِهِ} بأمره وقيل وله الحمد {وتظنون إنْ} مَا {لَبِثْتُمْ} فِي الدُّنْيَا {إلَّا قَلِيلًا} لِهَوْلِ مَا تَرَوْنَ(١).

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} [الإسراء: ٤٩]، أي:" وقال المشركون منكرين أن يُخْلَقوا خَلْقًا جديدًا بعد أن تبلى عظامهم، وتصير فُتاتًا".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قريش، وقالوا بعنتهم: {أئِذَا كُنَّا عِظاما} لم نتحطم ولم نتكسَّر بعد مماتنا وبلانا {وَرُفاتا} يعني ترابا في قبورنا".

عن ابن عباس:" {ورفاتا}، قال: غبارا".

عن مجاهد: " {ورفاتا}، قال: ترابا".

قال أبو عبيدة:" {ورفاتا}، أي: حطاما".

قوله تعالى: {أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} [الإسراء: ٤٩]، أي:" أئِنا لمبعوثون يوم القيامة بعثًا جديدًا؟ ".

**قال الطبري:**" قالوا، إنكارا منهم للبعث بعد الموت: إنا لمبعوثون بعد مصيرنا في القبور عظاما غير منحطمة، ورفاتا منحطمة، وقد بَلِينا فصرنا فيها ترابا، خلقا مُنْشَأً كما كنا قبل الممات جديدا، نعاد كما بدئنا".

قال السمعاني:" قالوا ذلك على طريق الإنكار".

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا في الإلهيات، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم في النبوات، ذكر في هذه الآية شبهات القوم في إنكار المعاد والبعث والقيامة... ا.هـ

وقال السعدي: يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} أي: أجسادا بالية {أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} أي: لا يكون ذلك وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل حيث كذبوا رسل الله وجحدوا آيات الله وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة =

=

العاجزة.

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه جعلوا قدرة الله كذلك.

فسبحان من جعل خلقا من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب مثالا في جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها ليرى عباده أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانته أو الهلاك والضلال.

{رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} ا.هـ

والرفات: ما تكسر وبلى من كل شيء كالفتات. يقال: رفت فلان الشيء يرفته- بكسر الفاء وضمها-، إذا كسره وجعله يشبه التراب.

والاستفهام في قوله- تعالى-: أَإِذا كُنَّا ... وفي قوله أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ.. للاستبعاد والإنكار.

أي: وقال الكافرون المنكرون لوحدانية الله- تعالى-، ولنبوة النبي ﷺ، وللبعث والحساب، قالوا للنبي ﷺ على سبيل الإنكار والاستبعاد، أإذا كنا يا محمد، عظاما بالية، ورفاتا يشبه التراب في تفتته ودقته، أإنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى، بحيث تعود إلينا أرواحنا، وتدب الحياة فينا ثانية، ونبعث على هيئة خلق جديد، غير الذي كنا عليه في الدنيا؟.

وقولهم هذا، يدل على جهلهم المطبق، بقدرة الله- تعالى- التي لا يعجزها شيء، وكرر- سبحانه- الاستفهام في الآية الكريمة، للإشعار بإيغالهم في الجحود والإنكارز

والعامل في إذا محذوف، والتقدير: أنبعث أو أنحشر إذا كنا عظاما ورفاتا، وقد دل على هذا المحذوف قوله- تعالى-: (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ).

قوله تعالى: {قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠)} [الإسراء: ٥٠]

**قال الطبري:**" قل يا محمد للمكذّبين بالبعث بعد الممات من قومك القائلين

=

=

{أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} كونوا إن عجبتم من إنشاء الله إياكم، وإعادته أجسامكم، خلقا جديدا بعد بِلاكم في التراب، ومصيركم رُفاتا، وأنكرتم ذلك من قُدرته حجارة أو حديدا".

قال السمعاني:" فإن قيل: كيف يأمرهم بأن يكونوا حجارة أو حديدا، وهم لا يقدرون عليه قطعا؟ والجواب: أن هذا أمر تعجيز، وليس بأمر إلزام، ومعنى الآية أي: استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو {حديد}، فلو كنتم كذلك لم تفوتوني".

**قال البغوي**: أي:" في الشدة والقوة وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز أي: استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة".

قال الزمخشري:" المعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحى وغضاضته بعد ما كنتم عظاما يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره،

فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحى ومن جنس ما ركب منه البشر- وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدا مع أن طباعها الجسارة والصلابة- لكان قادرا على أن يردكم إلى حال الحياة".

قال ابن كثير:" وهما [الحجارة والحديد] أشد امتناعا من العظام والرفات".

قال مجاهد:" ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله كما كنتم".

قوله تعالى: {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} [الإسراء: ٥١]، أي:" أو كونوا خلقًا يَعْظُم ويُسْتَبْعَد في عقولكم قبوله".

**قال الطبري**:" أو خلقا مما يكبر في صدوركم إن قدرتم على ذلك، فإني أحييكم وأبعثكم خلقا جديدا بعد مصيركم كذلك كما بدأتكم أوّل مرّة".

قال أبو عبيدة:" {يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ}، أي: يعظم".

=

=

قال الزمخشري:" يعني: أو خلقا مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه".

قال السعدي: أي:" فإنكم غير معجزي الله في أي حالة تكونون وعلى أي وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات، فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط".

وفي قوله تعالى: {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} [الإسراء: ٥١]، وجوه:

**أحدها**: أنه عنى بذلك السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس، قاله مجاهد-في إحدى الروايات-، وقتادة-في أحدى الروايات-.

**الثاني**: أنه أراد الموت، لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه. وقد قال أمية ابن أبي الصلت:

**نادوا إلههمُ ليسرع خلقهم وللموت خلق للنفوس فظيعُ**

وهذا قول ابن عمر، وابن عباس، والحسن، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن جبير، والضحاك، وأبي صالح.

قال سعيد بن جبير:" كونوا الموت إن استطعتم، فإن الموت سيموت؛ قال: وليس شيء أكبر في نفس ابن آدم من الموت".

قال ابن عمر:" الموت. قال: لو كنتم موتى لأحييتكم".

قال الضحاك:" يعني الموت، يقول: لو كنتم الموت لأمتكم".

قال ابن عباس:" يعني الموت، يقول: إن كنتم الموت أحييتكم".

عن عبد الله بن عمر:" "يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح حتى يُجعل بين الجنة والنار، فينادي مناد يُسمع أهلَ الجنة وأهل النار، فيقول: هذا الموت قد جئنا به ونحن مهلكوه، فايقنوا يا أهل الجنة وأهل النار أن الموت قد هلك".

**الثالث**: أنه أراد البعث، لأنه كان أكبر شيء في صدروهم قاله الكلبي.

=

**الرابع**: أراد: كونوا ماشئتم، فسيعيدكم الله كما كنتم. قاله مجاهد.

وقال قتادة:" من خلق الله، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم يوم القيامة خلقا جديدا".

**قال الطبري**:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره قال {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ}، وجائز أن يكون عنى به الموت، لأنه عظيم في صدور بني آدم؛ وجائز أن يكون أراد به السماء والأرض؛ وجائز أن يكون أراد به غير ذلك، ولا بيان في ذلك أبين مما بين جلّ ثناؤه، وهو كلّ ما كبر في صدور بني آدم من خلقه، لأنه لم يخصص منه شيئا دون شيء".

قال الزجاج:" أكثر ما جاء في التفسير في قوله: {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} إن هذا الخلقَ هو الموْتُ، وقيل خلقاً مما يكبر في صدوركم نحو السَّمَاوَات والأرض والجبال.

ومعنى هذه الآية فيه لطفٌ وَغُمُوضٌ، لأن القائل يقول: كيف يقال لهم كونوا حجارة أو حديداً وهم لا يستطيعونَ ذلك؟

فالجواب في ذلك أنهم كانوا يقرون أن الله جل ثناؤُه خالِقُهم، وينكرونَ أن الله يعيدهم خلقاً آخر، فقيل لهم استشعروا أنكم لو خُلقْتُمْ من حجارة أو حديدٍ لأماتكم الله ثم أَحْيَاكم، لأن القدرة التي بها أنشأكم - وأنتم مقرونَ أنه أنشأكم بتلك القدرة - بها يعيدكم، ولو كنتم حجارة أوْ حديداً، أو كنتم الموت الذي هو أكبر الأشياء في صدوركم".

قوله تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا} [الإسراء: ٥١]، أي:" فسيقولون -منكرين-: مَن يردُّنا إلى الحياة بعد الموت؟ ".

**قال الطبري**:" يقول: فسيقول لك يا محمد هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة {مَنْ يُعِيدُنا} خلقا جديدا، إن كنا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدورنا".

قوله تعالى: {قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الإسراء: ٥١]، أي:" قل لهم: يعيدكم

=

ويرجعكم الله الذي أنشأكم من العدم أول مرة".

**قال الطبري:**" يقول: يعيدكم كما كنتم قبل أن تصيروا حجارة أو حديدا إنسا أحياء، الذي خلقكم إنسا من غير شيء أوّل مرّة".

قال السعدي:" فكما فطركم ولم تكونوا شيئا مذكورا فإنه سيعيدكم خلقا جديدا".

عن قتادة وأبي عبيدة:" {فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} :" أي: خلقكم".

قوله تعالى: {فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ} [الإسراء: ٥١]، أي:" فسيَهُزُّون رؤوسهم ساخرين متعجبين".

**قال الطبري:**" يقول: فإنك إذا قلت لهم ذلك، فسيهزُّون إليك رءوسهم برفع وخفض".

قال السعدي:" أي: يهزونها إنكارا وتعجبا مما قلت".

قال أبو عبيدة:" فسيرفعون ويحركون استهزاء منهم، ويقال: قد نغضت سنّ فلان إذا تحركت وارتفعت من أصلها، قال:

ونَغَضَتْ مِنْ هَرِمٍ أَسْنانُها

وقال:

لمَّا رأَتْنِي أَنْغَضَتْ ليَ الرأسا

قال ذو الرّمة:

**ظعائن لم يسكن أكناف قرية        بسيف ولم تنغض بهن القناطر**".

قال ابن عباس:" يحركون رؤوسهم استهزاء برسول الله ﷺ".

قال الزجاج:" أي: فسيحركون رؤوسهم تحريك من يبطل الشيء ويستبطئه".

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ} [الإسراء: ٥١]، أي:" ويقولون -مستبعدين-: متى يقع هذا البعث؟ ".

=

=

**قال الطبري:**" ويقولون متى البعث، وفي أيّ حال ووقت يعيدنا خلقا جديدا، كما كنا أوّل مرّة".

قال السعدي:" أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقرار منهم لأصل البعث بل ذلك سفه منهم وتعجيز".

قوله تعالى: {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} [الإسراء: ٥١]، أي: قل: "لعله يكون قريبـًا".

**قال الطبري:**" قال الله ﷻ لنبيه: قل لهم يا محمد إذ قالوا لك: متى هو، متى هذا البعث الذي تعدنا، عسى أن يكون قريبا؟ وإنما معناه: هو قريب، لأن عسى من الله واجب، ولذلك قال النبيّ ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والسَّاعَةُ كَهاتَيْن، وأشار بالسَّبابة والوُسطَى»، لأن الله تعالى كان قد أعلمه أنه قريب مجيب".

قال السعدي:" فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب".

قال مقاتل:" والـ «عسى» من الله واجب".

قال ابن إسحاق:" {عسى}: من الله حق".

قال أبو مالك: " كل شيء في القران: {عسى}، فهو واجب الا حرفين، حرف في التحريم: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن}، وفي بني اسرائيل: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم} ". وروي عن الضحاك، والحسن، والسدي، وابن إسحاق، نحو ذلك.

وقوله تعالى: أو خلقا مما يكبر في صدوركم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الموت، قاله ابن عمر، وابن عباس، والحسن، والأكثرون. والثاني: أنه السماء والأرض والجبال، قاله مجاهد.

**والثالث:** أنه ما يكبر في صدوركم، من كل ما استعظموه من خلق الله تعالى، قاله قتادة.

=

=

فان قيل: كيف قيل لهم: كونوا حجارة أو حديدا وهم لا يقدرون على ذلك؟ فعنه جوابان:

أحدهما: إن قدرتم على تغير حالاتكم، فكونوا حجارة أو أشد منها، فانا نميتكم، وننفذ أحكامنا فيكم، ومثل هذا قولك للرجل: اصعد إلى السماء فإني لا حقك.

والثاني: تصوروا أنفسكم حجارة أو أصلب منها، فإنا سنبيدكم ا.هـ

قال الطبري رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال كل ما في صدور بني آدم، فجائز أن يكون عني به الموت أو السماء والأرض أو غير ذلك لأن الله جل ثناؤه لم يخصص منه شيئا دون شيء ا.هـ

والأية: أمر من الله- تعالى- لرسوله ﷺ بالرد عليهم فيما استبعدوه وأنكروه من إعادتهم الى الحياة بعد موتهم.

أى: قل لهم- أيها الرسول الكريم- على سبيل الرد على استبعادهم، والتحقير من شأنهم، والتعجيز لهم: «كونوا» - إن استطعتم- حِجارَةً كالتي تعبدونها من دون الله، أَوْ حَدِيداً كالذي تستعملونه في شئون حياتكم، أَوْ كونوا خَلْقاً أى: مخلوقا سوى الحجارة والحديد مِمَّا يَكْبُرُ أى: يعظم ويستبعد- فِي صُدُورِكُمْ المظلمة- قبوله للحياة، قل لهم: كونوا أى شيء من ذلك أو غيره إن استطعتم، فإن الله- تعالى- لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى، لكي يحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم عليها بما تستحقون من عقاب.

فالمقصود من الجملة الكريمة، بيان أن قدرة الله- تعالى- لا يعجزها شيء..

قال الجمل: أجابهم الله- تعالى- بما معناه: تحولوا بعد الموت إلى أى صفة تزعمون أنها أشد منافاة للحياة، وأبعد عن قبولها، كصفة الحجرية والحديدية ونحوهما. فليس المراد الأمر، بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله- تعالى- عن الإعادة .

=

=

وقوله- تعالى-: فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا أى: فسيقولون لك- أيها الرسول الكريم- من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدا أو غيرهما؟.

وقوله- سبحانه-: قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب.

أى: قل لهم: الله- تعالى- الذي فطركم وخلقكم، أول مرة، على غير مثال سابق، قادر على أن يعيدكم الى الحياة مرة أخرى. كما قال- تعالى-: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

ثم بين- سبحانه- ما يكون منهم من استهزاء وسوء أدب عند ما يسمعون من الرسول ﷺ هذه الإجابات السديدة، فقال: فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ.

أى: فسيحركون إليك رءوسهم عند ما يسمعون ردك عليهم، ويقولون على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب: متى هو؟ أى ما ذكرته من الإعادة بعد الموت، أو متى هو ذلك اليوم الذي سنعود فيه إلى الحياة بعد أن نصير عظاما ورفاتا.

فالجملة الكريمة تصور تصويرا بليغا ما جبلوا عليه من تكذيب بيوم القيامة ومن استهزاء بمن يذكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب. ومن استبعاد لحصوله كما قال- تعالى-: حكاية عنهم في آية أخرى: وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

وقوله- تعالى-: قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً تذييل قصد به التهديد والوعيد لهم.

أى: قل لهم- أيها الرسول الكريم- على سبيل التأنيب والوعيد: عسى هذا اليوم الذي تستبعدون حصوله، يكون قريبا جدا وقوعه.

ولا شك في أنه قريب، لأن عسى في كلام الله- تعالى- لما هو محقق الوقوع، وكل

=

=

ما هو محقق الوقوع فهو قريب، ولأن الرسول ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» - وأشار بالسبابة والوسطى.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٥٢].

قال السعدي:" {يوم يدعوكم} للبعث والنشور وينفخ في الصور {فتستجيبون بحمده} أي: تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه. وقوله: {بحمده} أي: هو المحمود تعالى على فعله ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد".

قال الزجاج:" معنى {تستجيبون بحمده}: تستجيبون مقرين بأنه خالِقكُمْ ".

عن ابن عباس:" {فتستجيبون بحمده}، قال: بأمره".

قال قتادة:" أي: بمعرفته وطاعته".

قال سعيد بن جبير:" يخرجون من قبورهم وهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك".

قوله تعالى: {وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٥٢]، أي:" وتظنون لهوْل ما ترون أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمناً قليل".

قال السعدي:" من سرعة وقوعه وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان، فهذا الذي يقول عنه المنكرون: {متى هو}؟ يندمون غاية الندم عند وروده ويقال لهم: {هذا الذي كنتم به تكذبون} ".

وفي في معنى "استقصارهم اللَّبْث"، خمسة وجوه:

**أحدها**: معناه: الاحتقار لأمر الدنيا وذلك حين عاينوا يوم القيامة، قاله قتادة.

عن قتادة: " {وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا}، أي: في الدنيا، تحاقرت الأعمار في أنفسهم وقلّتْ، حين عاينوا يوم القيامة".

**الثاني**: إن لبثتم إلا قليلا في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة، قاله الحسن.

عن الحسن: " {إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا}: في الدنيا بطول لُبْثِكم في الآخرة".

=

**الثالث**: معنى هذا: تقريب وقت البعث؛ كما قال الحسن: "كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تَزَل"، فهؤلاء إذا رأوا يوم القيامة وشاهدوا البعث، استقصروا مدة لُبْثِهم مع ما يعلمون من طول لَبْثِهم في الآخرة.

**الرابع**: أنهم لما يرون من سرعة الرجوع يظنون قلة اللبث في القبور. حكاه الماوردي.

الخامس: يريد بين النفختين الأولى والثانية يُكَفُّ عنهم العذاب فينامون، مثل قوله في سورة يس: {مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا} [آية:٥٢] وهم يعذبون من حين يموتون إلى النفخة الأولى، فعلى هذا القول ظنهم اللَّبْثَ القليل يعود إلى لُبْثهم بين النفختين. وهذا قول ابن عباس والكلبي.

قال ابن عباس -في رواية عطاء-: "يريد بين النفختين الأولى والثانية يُكَفُّ عنهم العذاب فينامون".

قال الكلبي: "إن الله تعالى يرفع العذاب عن الكفار بين النفختين، وهو أربعون سنة، فإذا حشروا وقد استراحوا تلك المدة قالوا: ما لبثنا إلا قليلا".

قال السمرقندي والثعلبي: "هذا أصح ما قيل فيه؛ لأن بعض المبتدعة قالوا: إذا وضع الميت في قبره لا يكون عليه العذاب إلى وقت البعث، فيظنون أنهم مكثوا في القبر قليلاً".

وأظهرها القول الأول؛ قول قتادة، وقد اقتصر الطبري وابن كثير على ذكره، وأيّده ابن كثير بعدة شواهد قرآنية، أما القول الثاني: فهو قريب من هذا، وأما القول الخامس، فطريقه إلى ابن عباس ضعيفة، وأما الكلبي فمتهم بالكذب، لذلك نجد السمرقندي مع ترجيحه لهذا القول فقد أورده بصيغة التمريض.

ثم بين- سبحانه- أحوالهم عند ما يدعون في هذا اليوم الهائل الشديد فقال: ( يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ.... ).

=

قال ابن الجوزي: وفي معنى بحمده أربعة أقوال: أحدها: بأمره، قاله ابن عباس وابن جريج وابن زيد. والثاني: يخرجون من القبور وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أن معنى بحمده: بمعرفته وطاعته، قاله قتادة، قال الزجاج: تستجيبون مقرين أنه خالقكم. والرابع: تجيبون بحمد الله لا بحمد أنفسكم، ذكره الماوردي ا.هـ

وقال القرطبي رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: معناه: فتستجيبون لله من قبوركم بقدرته، ودعائه إياكم ولله الحمد على كل حال، كما يقول القائل: فعلت ذلك الفعل بحمد الله، يعني لله الحمد على كل ما فعلته ا.هـ

والظرف يَوْمَ منصوب بفعل مضمر أى: اذكروا يوم يدعوكم.. ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من قَرِيبـًا.

والداعي لهم هو «إسرافيل» عليه السلام عند ما يأذن الله- تعالى- له بالنفخ في الصور، كما قال- تعالى-: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ .

وكما قال- سبحانه-: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ. خُشَّعـًا أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ .

وقوله بِحَمْدِهِ حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار، والباء للملابسة.

أى: اذكروا- أيها المكذبون- يوم يدعوكم الداعي إلى البعث والنشور فتلبون نداءه بسرعة وانقياد، حال كونكم حامدين الله- تعالى- على كمال قدرته، وناسين ما كنتم تزعمون في الدنيا من أنه لا بعث ولا حساب.

قال الزمخشري: وقوله بِحَمْدِهِ حال منهم. أى: حامدين، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع، ستركبه وأنت

=

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣).

{وقل لعبادي} المؤمنين {يقولوا} للكفار الكلمة {التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ} يفسد {بينهم إنَّ الشَّيْطَان كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} بَيِّن العداوة والكلمة التي هي أحسن هي.

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا

---

=

حامد شاكر، يعنى: أنك تحمل عليه وتقسر قسرا. حتى أنك تلين لين المسمح- أى الذليل- الراغب فيه، الحامد عليه.

وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك .

وقوله: فَتَسْتَجِيبُونَ بمعنى تجيبون، إلا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة، فهي أوكد من الإجابة، وأسرع في التلبية.

وجملة «وتظنون إن لبثتم إلا قليلا» حالية، أى: والحال أنك تظنون عند بعثكم أنكم ما لبثتم في الدنيا أو في قبوركم إلا زمنا قليلا.

قال قتادة: إن الدنيا تحقرت في أعينهم وقلّت، حين رأوا يوم القيامة، لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة.

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-:.. كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ .

وقوله- تعالى-: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا؟ هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ .

وقوله- تعالى-: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها.

(٥٤).

{رَبّكُمْ أَعْلَم بِكُمْ إنْ يَشَأْ يَرْحَمكُمْ} بِالتَّوْبَةِ وَالْإِيمَان {أَوْ إنْ يَشَأْ} تَعْذِيبكُمْ {يُعَذِّبكُمْ} بِالْمَوْتِ عَلَى الْكُفْر {وَمَا أَرْسَلْنَاك عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} فَتُجْبِرهُمْ عَلَى الْإِيمَان وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْقِتَالِ.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥).

{وَرَبّك أَعْلَم بِمَنْ فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض} فَيَخُصّهُمْ بِمَا شَاءَ عَلَى قَدْر أَحْوَالهمْ {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْض النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْض} بِتَخْصِيصِ كُلّ مِنْهُمْ بِفَضِيلَةٍ كَمُوسَى بِالْكَلَامِ وَإِبْرَاهِيم بِالْخُلَّةِ وَمُحَمَّد بِالْإِسْرَاءِ {وآتينا داود زبورا[1]}.

---

(١) ذكر سبب النزول.

قيل نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أن رجلًا من العرب شتمه، فأمره الله -تعالى- بالعفو.

وقال الكلبي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

ذكر الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٩٥) وهو ضعيف لا يثبت.

* قوله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٥٣]، أي:" وقل لعبادي المؤمنين يقولوا في تخاطبهم وتحاورهم الكلام الحسن الطيب".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: وقل يا محمد لعبادي يقل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة".

وفي قوله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٥٣]، وجوه:

**أحدها**: أنه تصديق النبي -ﷺ- فيما جاء به. {إنّ الشيطان ينزغُ بينهم} في تكذيبه.

=

=

**الثاني**: أنه امتثال أوامر الله تعالى ونواهيه، قاله الحسن.

**الثالث**: أنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

**الرابع**: أن يرد خيراً على من شتمه. قاله مقاتل.

قال مقاتل:" يعني: عمر بن الخطاب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- {يقولوا التي هي أحسن} ليرد خيرا على من شتمه، وذلك أن رجلا من كفار مكة شتمه فهم به عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فأمره الله- عَزَّ وَجَلَّ- بالصفح والمغفرة".

الخامس: أنه: لا الله إلا الله. قاله ابن سيرين.

السادس: أن «التي هي أحسن»:أن لا يقول له مثل قوله، يقول له: يرحمك الله يغفر الله لك. قاله الحسن.

قال القشيري:" يقال أحسن قول من المذنبين الإقرار بالجرم، وأحسن قول من العارفين الإقرار بالعجز عن المعرفة، قال ﷺ: سبحانك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ".

قوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ} [الإسراء: ٥٣]، أي:" إن الشيطان يُفسد ويُهيج بين الناس الشرَّ ويُشعل نار الفتنة بالكلمة الخشنة يُفلت بها اللسان".

قال مقاتل:" يعني: يغرى بينهم".

قال يحيى بن سلام: "يفسد بينهم".

قال أبو عبيدة:" أي: يفسد ويهيج".

قال السمعاني:" أي: يفسد بإيقاع العداوة".

**قال الطبري**:" يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضا ينزغ بينهم، يقول: يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر".

قوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} [الإسراء: ٥٣]، أي:" الشيطان كان للإنسان عدوًا ظاهر العداوة".

=

=

قال يحيى بن سلام: " بيّن العداوة".

**قال الطبري:**" يقول: إن الشيطان كان لآدم وذرّيته عدوّا، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة".

قال قتادة:" عادوه فإنه يحق على كل مسلم عداوته، وعداوته أن تعاديه بطاعة الله".

* من لطفه سبحانه بعباده أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فقال: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

قال القرطبي: قوله- تعالى-: وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... الآية نزلت في عمر بن الخطاب. وذلك أن رجلا من العرب شتمه، وسبه عمر وهمّ بقتله، فكادت تثير فتنة، فأنزل الله فيه: وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

**وقيل**: نزلت لما قال المسلمون: ائذن لنا يا رسول الله في قتال المشركين، فقد طال إيذاؤهم لنا فقال: «لم أومر بعد بالقتال». قلت وكلا السببين لا يصح.

والمعنى: قل- أيها الرسول الكريم- لعبادي المؤمنين، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم، الكلمة التي هي أحسن، والعبارة التي هي أرق وألطف.

وذلك لأن الكلمة الطيبة، تزيد في المودة التي بين المؤمنين، وتكسر حدة العداوة التي بينهم وبين أعدائهم.

قال- تعالى-: وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي

=

=

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ .

قال الآلوسى: ومقول فعل الأمر محذوف، أى: قل لهم قولوا التي هي أحسن يقولوا ذلك. فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر. وإلى هذا ذهب الأخفش.

وقال الزجاج: إن قوله يَقُولُوا هو المقول، وجزمه بلام الأمر محذوفة، أى: قل لهم ليقولوا . . . .

قال صديق حسن خان: (وقل) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لعبادي) المؤمنين (يقولوا) عند محاورتهم للمشركين الكلمة (التي هي أحسن) من غيرها من الكلام الخشن كأن يقولوا لهم إنكم من أهل النار فإنه يهيجهم إلى الشر مع أن عاقبتهم مغيبة عنا وهذا كقوله سبحانه (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وقوله (فقولا له قولاً لينًا) لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدي إلى ما قال سبحانه (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) وهذا كان قبل نزول آية السيف.

وقيل المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه، وقيل هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة والأول أولى كما يشهد له السبب. قال ابن سيرين: يعني لا إله إلا الله. وعن ابن جريج في الآية قال: يعفون عن السيئة وعن الحسن قال: يقول له يرحمك الله، يغفر الله لك ا.هـ

وقوله- سبحانه-: إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ تعليل للأمر السابق.

أى: إن الشيطان يتربص بكم، ويتلمس السقطات التي تقع من أفواهكم، والعثرات التي تنطق بها ألسنتكم، لكي يشيع الشر بينكم، ويبذر بذور الشر والبغضاء في صفوفكم، ويهيج أعداءكم عليكم.

وينزغ بمعنى يفسد. يقال: نزغه- كنفعه- ينزغه، إذا طعن فيه واغتابه، وقوله: إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً تعليل لحرص الشيطان على الإفساد بينهم.

=

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله- سبحانه- من الشيطان وكيده في كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله- تعالى-: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ .

وقوله- تعالى-: يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما. إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ .

قال ابن كثير ما ملخصه: يأمر الله- تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته.. وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده. أى: فربما أصابه بها.

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم، لعل الشيطان أن ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار.

قوله تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} [الإسراء: ٥٤]، أي:" ربكم أعلم بكم -أيها الناس-".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: أعلم بأحوالكم وما أنتم فيه من أذى المشركين".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش الذين قالوا {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} - {رَبُّكُمْ} أيها القوم {أَعْلَمُ بِكُمْ} ".

=

وفي قوله تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} [الإسراء: ٥٤]، وجهان:

أحدهما: {أعلم بكم}: بمصالحكم، وما لا يصلح لكم في الدنيا والآخرة.

**والثاني**: {ربكم أعلم بكم}: بما تسرون وما تعلنون، وما تعلمون وتفعلون، وإلا: لا شك أنه أعلم بنا منا.

قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} [الإسراء: ٥٤]، أي:" إن يشأ يرحمكم، فيوفقكم للإيمان، أو إن يشأ يمتكم على الكفر، فيعذبكم".

**قال الطبري**:" {إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ} فيتوب عليكم برحمته، حتى تنيبوا عما أنتم عليه من الكفر به وباليوم الآخر {إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} بأن يخذلكم عن الإيمان، فتموتوا على شرككم، فيعذّبكم يوم القيامة بكفركم به".

وفي قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} [الإسراء: ٥٤]، ثلاثة وجوه:

**أحدها**: إن يشأ يرحمكم بالهداية والتوبة فتؤمنوا، أو يعذبكم بالإضلال فتموتوا على الشرك، قاله ابن جريج، ومقاتل، وابن أبي زمنين.

**الثاني**: إن يشاء يرحمكم فينجيكم من أعدائكم أو يعذبكم بتسلطهم عليكم، قاله الكلبي.

قال أبو الليث السمرقنيد: أي:" إن يشأ يرحمكم، فينجيكم من أهل مكة إذا صبرتم على ذلك. أو إن يشأ يعذبكم، فيسلطهم عليكم إذا جزعتم ولم تصبروا".

**الثالث**: إن يشأ يرحمكم بالتوبة أو يعذبكم بالإقامة، قاله الحسن.

قال الماتريدي:" قوله: {إن يشأ يرحمكم}: يحتمل الرحمة في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا: هو أن يوفقهم على الطاعة، ويعينهم على ذلك وفي الآخرة: ينجيهم ويدخلهم الجنة. وأما التعذيب في الدنيا: أن يخذلهم ويتركهم على ما يختارون، وفي الآخرة يعذبهم في النار بالذي اختاروا في الدنيا".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [الإسراء: ٥٤]، أي:" وما أرسلناك - أيها الرسول- عليهم وكيلا تدبِّر أمرهم وتجازيهم على أفعالهم، وإنما مهمتك تبليغ ما أُرْسلتَ به، وبيان الصراط المستقيم".

**قال الطبري**:" يقول لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد على من أرسلناك إليه لتدعوه إلى طاعتنا ربا ولا رقيبا، إنما أرسلناك إليهم لتبلغهم رسالاتنا، وبأيدينا صرفهم وتدبيرهم، فإن شئنا رحمناهم، وإن شئنا عذّبناهم".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [الإسراء: ٥٤]، وجوه:

**أحدها**: ما وكلناك أن تمنعهم من الكفر بالله سبحانه، وتجبرهم على الإيمان به. حكاه الماوردي.

وقال مقاتل:" يعني: مسيطرا عليهم".

**الثاني**: «وكيلا»، أي: حافظا وربا. قاله الفراء.

وقال يحيى بن سلام:" حفيظا لأعمالهم حتى نجازيهم بها".

وقال ابن ابي زمنين:" أي: حفيظا لأعمالهم حتى يجازيهم بها".

**الثالث**: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم، قاله الكلبي، قاله الشاعر:

**ذَكَرْتُ أبا أرْوَى فَبِتُّ كَأَنَّنِي بِرَدِّ الأُمورِ الماضيات وَكِيلُ**

وكيل: أي كفيل.

قال ابن الأنباري:" والعرب تتكلم بالوكيل، بمعنى: الكَفِيل. فتقول: هو وكيلٌ بكذا وكذا؛ يريدون: كفالته به".

ثم بين- سبحانه- أن مصير جميع الخلائق إليه، وأنه محيط بأحوالهم فقال (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ...).

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ربكم أعلم بكم فيمن خوطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: إن يشأ يرحمكم

=

=

فينجيكم من أهل مكة أو إن يشأ يعذبكم فيسلطهم عليكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: إن يشأ يرحمكم بالتوبة، أو يعذبكم بالإقامة على الذنوب، قاله الحسن. والثاني: أنهم المشركون. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: إن يشأ يرحمكم، فيهديكم للإيمان، أو إن يشأ يعذبكم، فيميتكم على الكفر، قاله مقاتل. والثاني: أنه لما نزل القحط بالمشركين فقالوا: ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون، قال الله تعال: ربكم أعلم بكم من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن إن يشأ يرحمكم فيكشف القحط عنكم أو إن يشأ يعذبكم فيتركه عليكم، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال ابن الأنباري: و «أو» ها هنا دخلت لسعة الأمرين عند الله تعالى، وأنه لا يرد عنهما، فكانت ملحقة ب «أو» المبيحة في قولهم: جالس الحسن، أو ابن سيرين، يعنون: قد وسعنا لك الأمر ا.هـ

أى: ربكم- أيها الناس- أعلم بكم من أنفسكم، وهو- سبحانه- إن يشأ بفضله يرحمكم، بأن يوفقكم لطاعته وتقواه، وإن يشأ بعدله يعذبكم، بسبب معاصيكم وفسوقكم عن أمره، لا يسأل- ﷻ عما يفعل، أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ.

وقوله- تعالى-: وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا بيان لوظيفة الرسول ﷺ.

أى: وما أرسلناك- أيها الرسول الكريم- إلى الناس، لتكون حفيظا ورقيبا. وموكولا إليك أمرهم في إجبارهم وإكراههم على الدخول في الإسلام، وإنما أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الثانية: قوله تعالى: {وما أرسلناك عليهم وكيلا}.

للمفسرين في معنى الوكيل ثلاثة أقوال:

**أحدها:** كفيلا (تؤخذ بهم) قاله بن عباس رضي الله عنهما.

=

=

**والثاني**: حافظا وربا، قاله الفراء.

**والثالث**: كفيلا بهدايتهم وقادرا على إصلاح قلوبهم ذكره ابن الأنباري. وعلى هذا، الآية محكمة. وقد زعم بعضهم -وهم ابن حزم في ناسخه، وابن سلامة في ناسخه -: أنها منسوخة بآية السيف، وليس بصحيح، وقد تكلمنا على نظائرها فيما سبق. ا.هـ

قوله تعالى: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الإسراء: ٥٥]، أي:" وربك -أيها الرسول- أعلم بمَن في السموات والأرض".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وربك يا محمد أعلم بمن في السماوات والأرض وما يصلحهم فإنه هو خالقهم ورازقهم ومدبرهم، وهو أعلم بمن هو أهل للتوبة والرحمة، ومن هو أهل للعذاب، أهدى للحقّ من سبق له مني الرحمة والسعادة، وأُضلّ من سبق له مني الشقاء والخذلان".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [الإسراء: ٥٥]، أي:" ولقد فَضَّلْنا بعض النبيين على بعض بالفضائل وكثرة الأتباع وإنزال الكتب، وأعطينا داود عليه السلام الزبور ".

عن ابن جريج: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ}، قال:"كلم الله موسى، وأرسل محمدا إلى الناس كافَّة".

قال قتادة:" اتخذ الله إبراهيم خليلا وكلَّم موسى تكليما، وجعل الله عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون، وهو عبد الله ورسوله، من كلمة الله وروحه، وآتى سليمان مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود زبورا، كنا نحدّث دعاء عُلِّمه داود، تحميد وتمجيد، ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود، وغفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأَخَّر".

قال ابن كثير:" الزبور: اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود، عليه السلام".

=

=

قال الربيع بن انس:" «الزبور»: ثناء على الله ودعاء وتسبيح".
قال مقاتل:" ليس فيه حد ولا حكم ولا فريضة ولا حلال ولا حرام، خمسين ومائة سورة، فأخبره الله بهن ليعلموا أنه نبي".
قال الزجاج:" معنى ذكر داود ههنا أن الله - جل ثناؤه - أعلم أنه قد فضل بعض النبيين على بعض، أي فلا ينكروا تفضيل محمد ﷺ وإعطاءه القرآن، فقد أعطى الله داود الزبور".

* ثم انتقل- سبحانه- من بيان كمال علمه بأحوال الناس، إلى بيان كمال علمه بجميع من في السموات والأرض، فقال- تعالى-: وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ.
أى: وربك- أيها الرسول الكريم- أعلم بأحوال من في السموات والأرض من إنس وجن وملك، وغير ذلك، ولا يخفى عليه شيء من ظواهرهم أو بواطنهم، ولا يعزب عن علمه- تعالى- شيء من طاعتهم أو معصيتهم، ولا يعلم أحد سواه من هو أهل منهم للتشرف بحمل رسالته، وتبليغ وحيه كما قال: - تعالى-: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ.
وقوله- سبحانه-: وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً بيان لمظهر من مظاهر علمه المطلق، وفضله العميم: وعطائه الواسع.
والزبور: هو الكتاب الذي أنزله الله- تعالى- على داود- عليه السلام.
أى: ولقد فضلنا- على علم وحكمة منا- بعض النبيين على بعض، بأن جعلنا منهم من كلم الله، ومنهم من اتخذناه خليلا لنا، ومنهم من آتيناه البينات وأيدناه بروح القدس، ومنهم من آتيناه الزبور وهو داود- عليه السلام.
قال ابن كثير: وقوله- تعالى-: وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وقوله- تعالى-: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ... لا ينافي ما ثبت من الصحيحين

=

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦).

{قُلْ} لَهُمْ {ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ} أَنَّهُمْ آلِهَة {من دونه} كالملائكة وعيسى وعزير {فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تَحْوِيلًا} لَهُ إِلَى غَيْرِكُمْ.

---

=

أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء» فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل عن بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصا في قوله- تعالى-: وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ... ولا خلاف في أن محمدا ﷺ أفضلهم.. .

وإنما خص كتاب داود بالذكر، لأن اليهود زعموا أنه لا نبي بعد موسى، ولا كتاب بعد التوراة، فكذبهم الله- تعالى- في ذلك، ولأن في هذا الإيتاء إشارة إلى أن تفضيل داود لم يكن بسبب ما أعطاه الله من ملك، بل بسبب ما أعطاه من كتاب فيه إشارة إلى تفضيل الرسول ﷺ وأمته، قال- تعالى-: وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ.

والمراد بالعباد الصالحين: محمد ﷺ وأمته.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: هلا عرف الزبور، كما عرف في قوله: وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ ... ؟.

قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور، كالعباس وعباس، والفضل وفضل. ويجوز أن يريد: وآتينا داود بعض الزبر- وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبورا، لأنه بعضها كما سمى بعض القرآن قرآنا.

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧).

{أولئك الذين يدعون} هم آلِهَة {يَبْتَغُونَ} يَطْلُبُونَ {إِلَى رَبّهمْ الْوَسِيلَة} الْقُرْبَة بِالطَّاعَةِ {أَيّهمْ} بَدَل مِنْ وَاو يَبْتَغُونَ أَيْ يَبْتَغِيهَا الَّذِي هُوَ {أَقْرَب} إلَيْهِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ {وَيَرْجُونَ رَحْمَته وَيَخَافُونَ عَذَابه} كَغَيْرِهِمْ فَكَيْفَ تَدْعُونَهُمْ آلهة {إن عذاب ربك كان محذورا}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود؛ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم النفر من الجن، واستمسك الإنس بعبادتهم؛ فنزلت: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)}.

وفي رواية: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)}.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤/ ٢٣٢١ رقم ٣٠٣٠)، وهو في البخاري (٨/ ٣٩٧، ٣٩٨ رقم ٤٧١٤، ٤٧١٥) دون التصريح بسبب النزول.

* قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦)} [الإسراء: ٥٦]

قال ابن مسعود كما في صحيح مسلم:" كان نفر من الإنس يعبدون نفرا من الجن فأسلم النفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} [الإسراء: ٥٧] ".

=

=

قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ} [الإسراء: ٥٦]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين أدعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى".

قال الزجاج:" أي: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهتكم".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه، ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضرّ ينزل بكم، فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم، أو تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعوهم آلهة ".

قال ابن كثير: {ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ}، أي:" من الأصنام والأنداد".

قال القشيري: أي:" استعينوا فيما يستقبلكم بالأصنام التي عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادة شئ من دون الله، ولا يضركم ترك ذلك".

قوله تعالى: {فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} [الإسراء: ٥٦]، أي:" فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم".

قال ابن عباس: "يريد من السقم والفقر إلى الصحة والغنى".

قال الواحدي: {كشف الضر عنكم}، "يعني: البؤس والشدة، {ولا تحويلا}: التحويل النقل من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان".

**قال الطبري:**"فإنهم لا يقدرون على ذلك، ولا يملكونه، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم".

قال ابن كثير:" المعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر".

قال ابن ابي زمنين: أي:" أن يحول ذلك الضر إلى غيره أهون منه".

قال الثعلبي:" قيل: هو ما أصابهم من القحط سبع سنين".

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: أولئك الذين يدعون في المشار إليهم ب أولئك

=

=

ثلاثة أقوال»

: أحدها: أنهم الجن الذين أسلموا. والثاني: الملائكة، وقد سبق بيان القولين. والثالث: أنهم المسيح، وعزير، والملائكة! والشمس والقمر، قاله ابن عباس. وفي معنى «يدعون» قولان: أحدهما: يعبدون، أي: يدعونهم آلهة، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أنه بمعنى يتضرعون إلى الله في طلب الوسيلة. وعلى هذا يكون قوله تعالى: «يدعون» راجعا إلى «أولئك»، ويكون قوله: «يبتغون» تماما للكلام. وعلى القول الأول: يكون «يدعون» راجعا إلى المشركين، ويكون قوله: «يبتغون» وصفا ل «أولئك» مستأنفا ا.هـ

والمراد بالزعم هنا: الظن الكاذب الذي لا أساس له من الحقيقة والواقع.

قال الآلوسى ما ملخصه: والزعم قريب من الظن، ويقال إنه القول المشكوك فيه، ويستعمل بمعنى الكذب، حتى قال ابن عباس: كل ما ورد في القرآن زعم فهو كذب.

وقد يطلق على القول المحقق، والصدق الذي لا شك فيه ... فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «زعم جبريل كذا ... ».

وهو مما يتعدى إلى مفعولين، وقد حذفا هنا، أى: زعمتموهم آلهة.. والظاهر أن المراد من الموصول- الذين- كل من عبد من دون الله من العقلاء» .

والمعنى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الكافرين الذين أشركوا مع الله- تعالى- آلهة أخرى في العبادة. قل لهم على سبيل الإرشاد والتحدي: هذه الآلهة التي تعبدونها، اطلبوا منها أن تدفع عنكم ما نزل بكم من ضر كمرض أو فقر أو قحط أو أن تحوله منكم إلى غيركم ...

فإذا لم تستطع ذلك- وهي بكل تأكيد لا تستطيع ولن تستطيع- فاتركوا عبادتها، وأخلصوا العبادة والطاعة لمن هو على كل شيء قدير، وهو الله- ﷻ.

=

=

ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي: السديد والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه كما قال المشركون: {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب}.

واكتفى- سبحانه- بذكر كشف الضر، لأنه هو الذي تتطلع إليه النفوس عند نزول المصائب، أكثر من تطلعها إلى جلب النفع، إذ عند نزول الضر، لا تشتغل الألسنة والقلوب إلا برجاء كشفه.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} [الإسراء: ٥٧]، أي:" أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، فكيف تعبدونهم معه؟ ".

**قال الطبري**: يقول:" يبتغي المدعوّون أربابا إلى ربهم القُربة والزُّلفة، لأنهم أهل إيمان به، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة".

قال يحيى بن سلام:" «الوسيلة»: القربة".

قال ابن عباس وقتادة: «الوسيلة»: القربة".

عن ابن زيد في قوله:" {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ}، قال: المحبّة، تحبّبوا إلى الله. وقرأ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} ".

وفي قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} [الإسراء: ٥٧]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: أنها نزلت في ناس من الإنس يعبدون قوما من الجنّ، فأسلم الجنّ وبقي الإنس على كفرهم، فأنزل الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ

=

=

الْوَسِيلَةَ}، يعني: الجنّ؛ قاله عبد الله بن مسعود، وقتادة.

قال قتادة:" كان أناس من أهل الجاهلية يعبدون نفرا من الجنّ؛ فلما بعث النبيّ ﷺ أسلموا جميعا، فكانوا يبتغون أيهم أقرب".

قال عبد الله بن مسعود:" نزلت في نفر من العرب كانو يعبدون نفرا من الجنّ، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فأنزلت: {الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} ".

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: "أي: استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك، لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة، وهذا هو المعتمد في تفسير الآية".

قال الفراء:" يعني: الجن الذين كانت خزاعة تعبدهم".

**الثاني**: أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب، وهذا مروي عن ابن مسعود أيضـًا، وابن زيد

قال ابن زيد:" هؤلاء الذين عبدوا الملائكة من المشركين".

قال عبد الله بن مسعود: "كان قبائل من العرب يعبدون صنفا من الملائكة يقال لهم الجنّ، ويقولون: هم بنات الله، فأنزل الله ﷻ {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} معشر العرب {يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ} ".

**الثالث**: أنهم: عيسى وعزير والملائكة. قاله ابن عباس، ومجاهد.

قال مجاهد:"يقول: إن هؤلاء يبتغون إلى ربهم الوسيلة".

**الرابع**: أنهم: عيسى وأمه وعزيز. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

الخامس: عُزير والمسيح والشمس والقمر. وهذا القول رواه إبراهيم عن ابن عباس.

قال ابن جرير الطبري:" وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية قول عبد الله بن مسعود

=

=

الذي رويناه. عن أبي معمر عنه، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن الذين يدعوهم المشركون آلهة أنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة في عهد النبيّ ﷺ؛ ومعلوم أن عُزيرا لم يكن موجودا على عهد نبينا عليه الصلاة والسلام، فيبتغي إلى ربه الوسيلة وأن عيسى قد كان رُفع، وإنما يبتغي إلى ربه الوسيلة من كان موجودا حيا يعمل بطاعة الله، ويتقرّب إليه بالصالح من الأعمال. فأما من كان لا سبيل له إلى العمل، فبم يبتغي إلى ربه الوسيلة. فإذ كان لا معنى لهذا القول، فلا قول في ذلك إلا قول من قال ما اخترنا فيه من التأويل، أو قول من قال: هم الملائكة، وهما قولان يحتملهما ظاهر التنزيل".

قوله تعالى: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء: ٥٧]، أي:" ويأمُلون رحمته ويخافون عذابه".

**قال الطبري:** " {وَيَرْجُونَ} بأفعالهم تلك {رَحْمَتَه}، ويَخافُونَ أمره".

قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء: ٥٧]، أي:" إن عذاب ربك هو ما ينبغي أن يحذره العباد، ويخافوا منه".

قال يحيى بن سلام:" يحذره المؤمنون ".

**قال الطبري:**" {مَحْذورًا}: متقي".

قال سهل بن عبد الله:" إن الخوف والرجاء زمان للإنسان فإذا استوى قامت له أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر، ألا ترى أن النبي ﷺ يقول: «لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا» ".

* ثم بين- سبحانه- أن كل معبود- سوى الله- ﷻ يفتقر إلى عونه- سبحانه-، وإلى رجاء الثواب منه، وإلى دفع العذاب عنه، فقال- تعالى- أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ..

واسم الإشارة أُولئِكَ يعود على المعبودين من دون الله، وهو مبتدأ، وخبره. قوله:

=

=

يَبْتَغُونَ وما عطف عليه من قوله: وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ.

والضمير في يَدْعُونَ يعود إلى المشركين، وفي يبتغون يعود إلى المعبودين وأَيُّهُمْ بدل من واو الفاعل في يبتغون، وأَقْرَبُ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو، أي: يبتغيها الذي هو أقرب، والجملة صلة أي.

والوسيلة: ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من الأعمال الصالحة.

والمعنى: أولئك المعبودون الذين يزعم المشركون أنهم آلهة. ويسمونهم أربابا، وينادونهم لكشف الضر عنهم، هؤلاء المعبودون يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ.

أي: يتقربون إلى خالقهم ومالك أمرهم بصالح الأعمال، ويبتغى أكثرهم صلاحا وطاعة لله- تعالى- الرضا منه- عز وجل.

وإذا كان هذا شأن أكثرهم قربا فكيف يكون حال من هو أقل منه؟ لا شك أنه يكون أشد طلبا لرضا الله- تعالى- وعفوه، وأشد حرصا على طاعته.

وقوله- تعالى- وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ زيادة بيان لشدة حرص هؤلاء المعبودين على طاعة الله- تعالى- أي: وهم فوق ذلك يرجون رحمة الله- تعالى- وفضله، بأن يحشرهم مع الأبرار، ويخشون عذابه ونقمته، ويتضرعون إليه أن يجنبهم عذاب النار، وبالرجاء والخشية يحيا الصالحون الأخيار، إذ الرجاء يدفع المؤمن إلى الإكثار من العمل الصالح، والخشية تمنعه من الوقوع في المعاصي.

وقوله- تعالى-: إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً تذييل قصد به التعليل لما قبله وهو خوف العذاب.

أي: إن عذاب ربك كان جديرا وقمينا بأن يحذره، ويحترز منه كل عاقل.

وقدم- سبحانه- الرجاء على الخوف، لأن متعلقه أسبق، ولأنه بجانب الله-

=

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨).

{وإن} ما {من قرية} أريد أهلها {إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة} بِالْمَوْتِ {أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا} بِالْقَتْلِ وَغَيْره {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَاب} اللَّوْح الْمَحْفُوظ {مَسْطُورًا} مكتوبا.

---

=

تعالى- أظهر، ففي الحديث القدسي: «إن رحمتي سبقت غضبي».

هذا، وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ، وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ، وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد قررتا بأسلوب منطقي بليغ، أن الله- تعالى- هو الخالق لكل شيء، وأنه وحده هو المتصرف في شئون عباده، وأن كل مخلوق سواه- سبحانه- محتاج إلى عونه وعفوه ورضاه، وأن الذين زعمهم المشركون آلهة كعيسى وعزير والملائكة ...

ما هم إلا من عباد الله الذين يبتغون إليه الوسيلة، ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب.

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩).

{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِل بِالْآيَاتِ} الَّتِي اقْتَرَحَهَا أَهْل مَكَّة {إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} لما أرسلناها فأهلكناهم ولو أرسلناها إلى هولاء لَكَذَّبُوا بِهَا وَاسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاك وَقَدْ حَكَمْنَا بِإِمْهَالِهِمْ لِإِتْمَامِ أَمْر مُحَمَّد ﷺ {وَآتَيْنَا ثَمُود النَّاقَة} آيَة {مُبْصِرَة} بَيِّنَة وَاضِحَة {فظلموا} كفروا {بها} فأهلكوا {وما نرسل بِالْآيَاتِ} الْمُعْجِزَات {إِلَّا تَخْوِيفًا} لِلْعِبَادِ فَيُؤْمِنُوا.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠).

{و} اذكر {إِذْ قُلْنَا لَك إِنَّ رَبّك أَحَاطَ بِالنَّاسِ} عِلْمًا وَقُدْرَة فَهُمْ فِي قَبْضَته فَبَلِّغْهُمْ وَلَا تخف أحدا فهو يعصمك منهم {وما جعلنا الرؤيا التي أَرَيْنَاك} عِيَانًا لَيْلَة الْإِسْرَاء {إِلَّا فِتْنَة لِلنَّاسِ} أَهْل مَكَّة إِذْ كَذَّبُوا بِهَا وَارْتَدَّ بَعْضهمْ لَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِهَا {وَالشَّجَرَة الْمَلْعُونَة فِي الْقُرْآن} وَهِيَ الزَّقُّوم الَّتِي تَنْبُت فِي أَصْل الْجَحِيم جَعَلْنَاهَا فِتْنَة لَهُمْ إِذْ قَالُوا النَّار تُحْرِق الشَّجَر فَكَيْفَ تُنْبِتهُ {وَنُخَوِّفهُمْ} بِهَا {فَمَا يَزِيدهُمْ} تخويفنا {إلا طغيانا كبيرا}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزدرعوا، قال الله ﷻ: "إن شئت آتيناهم ما سألوا، فإن كفروا؛ أهلكوا كما أهلك من قبلك، وإن شئت نستأني بهم لعلنا نَنْتَجِ =

=

منهم"، فقال: "لا، بل استأني بهم"؛ فأنزل الله هذه الآية: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}.

أخرجه أحمد (١/ ٢٥٨)، والنسائي في الكبرى (١١٢٩٠)، وفي تفسيره (٣١٠)، والبزار (٢٢٢٥ - كشف)، والطبري في تفسيره (١٥/ ٧٤)، والحاكم (٢/ ٣٦٢)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٧١)، والضياء في المختارة (١٠/ ٧٨ - ٨٠) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٥٢): إسناده جيد، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقال العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحن (٦/ ٩٧): صحيح على شرط الشيخين.

وأخرجه أحمد (٤/ ٢٦ رقم ٢١٦٦، ٥/ ٧٨ رقم ٣٢٢٣ - شاكر)، وعبد بن حميد في "مسنده" (١/ ٥٩٢ رقم ٦٩٩ - منتخب)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (١٢/ ٣١ رقم ٤٦١٧)، والبزار في "مسنده" (٣/ ٥٥ رقم ٢٢٢٤ - كشف)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ١١٨ رقم ١٢٧٣٦)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣١٤)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٢٧٢)، و"السنن الكبرى" (٩/ ٨) من طريق الثوري عن سلمة بن كهيل عن عمران بن الحارث السلمي عن ابن عباس؛ قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك! قال: "وتفعلون؟ "، قالوا: نعم، قال: فدعاه، فأتاه جبريل؛ فقال: "إن ربك ﷻ يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم؛ عذبته عذابًا لا أعذبه أحد من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، قال: بل باب التوبة والرحمة". قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

=

=

وهو كما قالا. وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٥٠): "ورجال الروايتين رجال الصحيح"؛ يعني: رواية: البزار والطبراني.

وعن قتادة؛ قوله: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}؛ قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إن كان ما تقول حقًا ويسرك أن نؤمن؛ فحوّل لنا الصفا ذهبًا، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: "إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا؛ لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك، قال: بل أستأني بقومي"؛ فأنزل: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا}؛ وأنزل الله ﷻ: {مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)} [الأنبياء: ٦].

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٧٤، ٧٥): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وهو مرسل صحيح الإسناد، ويزيد سمع من سعيد قبل اختلاطه.

وعن سهل بن سعد؛ قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القردة؛ فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكًا حتى مات؛ فأنزل الله: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}.

أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٤٨٣)، وأبو يعلى (٦٤٦١) والحديث قال عنه الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وقال الذهبي: "على شرط مسلم"!!، مع أن الذهبي نفسه أورده في تلخيص "الأباطيل" (ص ٨٣)، و"مختصر العلل" (ص ٩٦٩) وأعله بالزنجي، وقال الجورقاني: حديث باطل، وقال ابن الجوزي في "العلل المتناهية" (٢/ ٧٠١): "هذا حديث لا أصل له، وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٨) وهذا السند ضعيف جدا فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه أيضا ضعيف بالكلية، وقال صاحبا الإستيعاب في

=

=

بيان الأسباب (٢/ ٤٤٣): موضوع، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (١٠٨٠): باطل... وهذا السند ضعيف جدا كما قال الحافظ ابن كثير: فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك، وشيخه أيضا ضعيف بالكلية، ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي في الرؤيا والشجرة.

هذا حال هذين الحديثين في الضعف بل البطلان، ومع ذلك، فإننا لا نزال نرى بعض الشيعة في العصر الحاضر يروون مثل هذه الأحاديث، ويحتجون بها على تكفير معاوية رضي الله عنه مثل المعلق على كتاب " أصول الكافي " للكليني المتعبد لغير الله، المسمى بعبد الحسين المظفر، فإنه كتب؛ بل سود صفحتين كاملتين في لعن معاوية وتكفيره، وأن النبي ﷺ أخبر بموته على غير السنة، وأنه أمر بقتله، ساق (ص ٢٣ - ٢٤) في تأييد ذلك ما شاء له هواه من الآثار الموضوعة والأحاديث الباطلة، منها هذان الحديثان الباطلان، ولذلك بادرت إلى بيان حالهما نصحا لناس، وغالب الظن أن عبد الحسين هذا لا يعلم حال إسنادهما، ولئن علم فما يمنعه ذلك من الاحتجاج بهما مع بطلانهما لأن الغاية عند أمثاله تبرر الوسيلة، والغاية لعن معاوية وتكفيره ولوبالاعتماد على الأحاديث الموضوعة، والشيعة قد عرفوا بذلك منذ زمن بعيد كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه.

وعن يعلى بن مرة الثقفي؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا رأيتم بني أمية على منابر الأرض، وسيملكونكم، فتجدونهم أرباب سوء بعدي لا يناوئهم أحد إلا نطحوه؛ فانتظروا بهم تختلف أسيافهم، فإذا اختلف سيفاهم؛ فلا يرتدوا على أعقابها، لا يرتقون فتقًا إلا فتق الله عليهم أشد منه حتى يخرج مهديًا، قال: فاهتم رسول الله ﷺ لرؤيا أوري في المنام؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} قرأ عبد الله الآية.

=

=

أخرجه الجورقاني في "الأباطيل والمناكير" (١/ ٢٥٦ رقم ٢٣٩) من طريق عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي عن أبيه عن جده به. وإسناده ضعيف جدًا. قال الجورقاني: "هذا حديث باطل! تفرد به عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي وهو منكر الحديث؛ قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال أبي: عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرة؛ ضعيف الحديث، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: سألت أبي عن عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرة الثقفي؟ فقال: هو ضعيف الحديث منكر الحديث.

وسئل أبو زرعة عن عمر بن عبد الله بن يعلى؛ فقال: ليس بالقوي، فقيل له: فما حاله؟ فقال: أسأل الله السلامة". وانظر: "الجرح والتعديل" (٦/ ١١٨) وكذا ضعفه ابن معين؛ كما في "تاريخ الدوري" (٢/ ٤٣١)، و"تاريخ الدارمي" (رقم ٤٦٢، ٦٤٠)، وابن حبان في "المجروحين" (٢/ ٩١)، والدارقطني في "الضعفاء" (رقم ٣٧٦)، وانظر: "تهذيب التهذيب" (٧/ ٤٧١).

وعن سعيد بن المسيب؛ قال: رأى النبي ﷺ بني أمية على منبره، فساءه ذلك؛ فأوحي إليه: "إنما هي دنيا أعطوها"؛ فقرت عينه. وهي قوله -تعالى-: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} يعني: بلاء للناس.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٦/ ٥٠٩) من طريق يعلى بن عبيد عن سفيان الثوري عن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: علي بن زيد ذا؛ ضعيف. وقد ذكره السيوطي في "لباب المنقول" (ص ١٣٨) ونسبه لابن أبي حاتم وضعفه.

وأخرجه الخطيب في "تاريخه" (٩/ ٤٤) من طريق الشاذكوني عن يحيى بن سعيد القطان عن الثوري عن علي بن زيد به. لكن جعل سبب نزول الآية مختلفًا فجعلها قول الله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)}. وعلّقه الجورقاني في "الأباطيل

="

=

والمناكير" (١/ ٢٥٥ رقم ٢٣٨)، وابن الجوزي في "العلل المتناهية" (٢/ ٧٠١ رقم ١١٧٠). وهذا موضوع؛ الشاذكوني كذاب، وعلي ضعيف.

قال الجورقاني: "هذا حديث موضوع باطل"، ثم نقل أقوال الأئمة في تضعيفه.

وضعفه ابن الجوزي، ونقل أقوال الأئمة في تضعيف علي والشاذكوني.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما ذكر الله الزقوم الذي خوف به هذا الحي من قريش؛ قال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي خوفكم به محمد؟ قال: لا، قال: نتزبد بالزبد، أما والله لأن أمكننا منها لنتزقمها تزقمًا؛ فأنزل الله عز وجل فيه: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ}، يقول: المذمومة {وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}.

أخرجه ابن إسحاق -ومن طريقه البيهقي في "البعث" (رقم ٥٤٥)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٩٥) - عن حكيم بن عباد بن حنيف عن عكرمة عن ابن عباس.

وهذا إسناد ضعيف؛ ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وحكيم ذا روى عنه ابنه عثمان وابن إسحاق ووثقه ابن حبان فمثله يستشهد بحديثه -والله أعلم- فإن وجد تصريح ابن إسحاق بالسماع؛ فيمكن تحسينه -على الأقل- لغيره -والله أعلم-.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ}؛ قال: هي شجرة الزقوم، قال أبو جهل: أيخوفني ابن أبي كبشة بشجرة الزقوم؟ ثم دعا بتمر وزبد فجعل يقول: زقمني؛ فأنزل الله -تعالى-: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)} [الصافات: ٦٥]؛ وأنزل: {وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٧٨). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

=

=

وعن أم هانئ: أن رسول الله ﷺ لما أسري به أصبح يحدث نفرًا من قريش وهم يستهزئون به، فطلبوا منه آية، فوصف لهم بيت المقدس، وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (١/ ٢١٣ وما بعدها)؛ قال محمد بن عمر الواقدي - ثني إسحاق بن حازم عن وهب بن كيسان عن أبي مرة مولى عقيل عن أم هانئ. والواقدي متروك.

وعن الحسن في قوله: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}؛ قال: أسري به عشاء إلى بيت المقدس، فقالوا له: يا محمد! ما شأنك أمسيت فيه ثم أصبحت فينا تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس؟! فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام؛ فأنزل الله فيمن ارتد: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٧٦): ثنا ابن علية عن أبي رجاء عن الحسن به.

ومراسيل الحسن شبه الريح.

وعن عبد الله بن عمر: أن النبي ﷺ؛ قال: "رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة"؛ وأنزل الله -تعالى- في ذلك: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ}، يعني: الحكم وولده.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٠٩) ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن الحسين بن علي: أن رسول الله ﷺ أصبح وهو مهموم، فقيل، مَا لَكَ يا رسول الله؟ فقال: "إني أُريت في المنام كأن بني أُميّة يتعاورون منبري هذا"، فقيل: يا رسول الله، لا تهتم؛ فإنها دنيا تنالهم؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}.

=

=
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣١٠)، و"لباب المنقول" (ص ١٣٧) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا} [الإسراء: ٥٨].

قال يحيى بن سلام:" قوله: {وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة}: بموت بغير عذاب، {أو معذبوها عذابا شديدا}: يكون موتهم بالعذاب".

قال الفراء:" بالموت، {أو معذبوها عذابا شديدا}، بالسيف".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وما من قرية من القرى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء، فمبيدوهم استئصالا قبل يوم القيامة، أو معذّبوها، إما ببلاء من قتل بالسيف، أو غير ذلك من صنوف العذاب عذابا شديدا".

عن مجاهد: قوله" {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}: فمبيدوها، {أَوْ مُعَذِّبُوهَا}: بالقتل والبلاء، قال: كل قرية في الأرض سيصيبها بعض هذا".

وفي رواية:" سيصيبها هذا أو بعضه".

قال قتادة:" قضاء من الله كما تسمعون ليس منه بدّ، إما أن يهلكها بموت وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل إذا تركوا أمره، وكذّبوا رسله".

قال عبد الرحمن بن عبد الله: "إذا ظهر الزنا والربا في أهل قرية أذن الله في هلاكها".

قوله تعالى: {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الإسراء: ٥٨]، أي:" كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغيَّر".

قال يحيى بن سلام:"مكتوبا".

قال ابن زيد:" في أمّ الكتاب، وقرأ {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ} ".

**قال الطبري:**" يعني: في الكتاب الذي كتب فيه كلّ ما هو كائن، وذلك اللوح
=

=

المحفوظ.. ويعني بقوله (مَسْطُورًا) مكتوبا مبينا، ومنه قول العجاج:

**واعْلَمْ بأَنَّ ذَا الجَلالِ قَدْ قَدَرْ          في الكُتُبِ الأولى التي كان سَطَرْ**

أَمْرَكَ هذَا فاحْتَفِظْ فِيهِ النَّهَرْ".

* والمقصود بالقرية في قوله- تعالى-: وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً: قرى الكفار والظالمين، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، فيكون المعنى:

وما من قرية من قرى الظالمين، إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة بالموت أو الخراب، أو معذبوها عذابا شديدا، يستأصل شأفتها، ويقطع دابرها، كما فعلنا مع قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم.

ومن المفسرين الذين ساروا على ذلك، الإمام ابن كثير، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية:

هذا إخبار من الله- ﷻ، بأنه قد حتم وقضى، بما كتب عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم، أو يعذبهم عذابا شديدا، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال- تعالى- عن الأمم الماضية: وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

ويرى آخرون، أن المقصود بالقرية هنا: القرى كلها سواء أكانت للمؤمنين أم للكافرين.

ومن المفسرين الذين ذهبوا إلى ذلك الآلوسي- رحمه الله فقد قال: قوله- تعالى-: وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ الظاهر العموم، لأن إِنْ نافية، ومِنْ زائدة لاستغراق الجنس. أي: وما من قرية من القرى. إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ بإماتة أهلها حتف

=

=

أنوفهم أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً بالقتل وأنواع البلاء.. وروى عن مقاتل أنه قال: الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة ... » .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب، لأن هناك آيات كثيرة تؤيده، ومن ذلك قوله- تعالى-: وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ . وقوله- سبحانه- : ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ . وقوله- ﷻ: وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ ، ولأن الله- تعالى- قيد الإهلاك بكونه قبل يوم القيامة، وكونه كذلك يقتضى أنه للقرى الظالمة. إذ الإهلاك يوم القيامة يشمل جميع القرى، سواء أكان أهلها مؤمنين أم كافرين، بسبب انقضاء عمر الدنيا.

وقوله- سبحانه-: كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً تأكيد لقضاء الله النافذ، وحكمه الثابت.

أى: كانَ ذلِكَ الإهلاك والتعذيب، في الكتاب، وهو اللوح المحفوظ مَسْطُوراً أى: مكتوبا وثابتا.

قال القرطبي: مَسْطُوراً أى: مكتوبا. والسطر: الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر. والسطر- بالتحريك- مثله، وجمعه أسطار، مثل سبب وأسباب، وجمع السطر- بسكون الطاء- أسطر وسطور مثل أفلس وفلوس. والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ».

قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)} [الإسراء: ٥٩]

قال ابن عباس:" سأل أهل مكة النبي ﷺ: أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينجي عنهم الجبال فيزرعون. فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، قال: لا، بل

=

=
أستأني بهم. فأنزل الله ﷻ: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}... الآية".
قال ابن كثير:" أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة:: {قَالَ اللهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ١١٥] وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج من صخرة عَيَّنُوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا "فظلموا بها" أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [هود: ٦٥] ".
قوله تعالى: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً} [الإسراء: ٥٩]، أي:" وأعطينا ثمود - وهم قوم صالح- معجزة واضحة وهي الناقة".
قال ابن كثير:" أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها ".
**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وقد سأل الآيات يا محمد مِن قَبْل قومك ثمود، فآتيناها ما سألت، وحملنا تلك الآية ناقة مبصرة، جعل الإبصار للناقة. كما تقول للشجة: موضحة، وهذه حجه مبينة. وإنما عنى بالمبصرة: المضيئة البينة التي من يراها كانوا أهل بصر بها، أنها لله حجة، كما قيل: {والنَهارَ مُبْصِرًا} ".
عن قتادة:" {وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}، أي: بيِّنة".
عن مجاهد:" {النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}، قال: آية".
قوله تعالى: {فَظَلَمُوا بِهَا} [الإسراء: ٥٩]، أي:" فكفروا بها فأهلكناهم".
قال ابن كثير:" أي: كفروا بها ومنعوها شِرْبها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم،
=

=

وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ".

**قال الطبري:**" يقول ﷻ: فكان بها ظلمهم، وذلك أنهم قتلوها وعقروها، فكان ظلمهم بعقرها وقتلها، وقد قيل: معنى ذلك: فكفروا بها، ولا وجه لذلك إلا أن يقول قائله أراد: فكفروا بالله بقتلها، فيكون ذلك وجها".

قوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: ٥٩]، أي:" وما إرسالنا الرسل بالآيات والعبر والمعجزات التي جعلناها على أيديهم إلا تخويف للعباد؛ ليعتبروا ويتذكروا".

قال يحيى بن سلام:" نخوفهم بالآية فنخبرهم أنهم إن لم يؤمنوا عذبهم".

**قال الطبري:**" يقول: وما نرسل بالعبر والذكر إلا تخويفا للعباد".

وفي قوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: ٥٩]، وجوه من التفسير:

**أحدها:** أن الآيات معجزات الرسل جعلها الله تعالى من دلائل الإنذار تخويفـاً للمكذبين.

**الثاني:** أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي.

**الثالث:** أنها تقلُّبُ الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهُّل ثم إلى مشيب، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمْرك، وهذا قول أحمد بن حنبل رحمه الله.

**الرابع:** أنها: الموت الذريع. قاله الحسن.

قال قتادة:" وإن الله يخوّف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكَّرون، أو يرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود، فقال: يأيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه".

قال ابن كثير:" وهكذا رُوي أن المدينة زُلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات، فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن. وكذا قال رسول الله ﷺ في

=

=

الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله، ﷻ، يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا» ".

ثم بين- سبحانه- بعض مظاهر فضله على الأمة الإسلامية، ورحمته بها، فقال- تعالى-: (وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ....).

قال ابن الجوزي: وللمفسرين في المراد بهذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنها الموت الذريع، قاله الحسن. والثاني: معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفا للمكذبين. والثالث: آيات الانتقام تخويفا من المعاصي. والرابع: تقلب أحوال الإنسان من صغر إلى شباب، ثم إلى كهولة، ثم إلى مشيب، ليعتبر بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي، ونسب الأخير منها إلى إمامنا أحمد رضي الله عنه ا.هـ

وقال الآلوسى: والمنع لغة: كف الغير وقسره عن فعل يريد أن يفعله، ولاستحالة ذلك في حقه- تعالى- لاستلزامه العجز المحال المنافى للربوبية قالوا: إنه مستعار هنا للصرف والترك ... » .

وقوله: أَنْ نُرْسِلَ في محل نصب لأنه مفعول ثان لمنعنا، أو في محل جر، على حذف الجار، أى: من أن نرسل، وقوله: إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا في محل رفع لأنه فاعل منعنا، والتقدير: وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين.

والمراد بالآيات: ما اقترحه المشركون على النبي ﷺ من قلب الصفا ذهبا، ومن إزاحة الجبال عن مكة ليزرعوا مكانها ...

والمعنى: وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التي طلبها المشركون منك-

=

=

أيها الرسول الكريم- إلا علمنا بأنهم سيكذبون بها إذا جاءتهم، كما كذب بأمثالها أشباههم الأولون، وفي هذه الحالة فإنهم سيستحقون مثلهم عذاب الاستئصال كما جرت بذلك سنتنا.

وقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا- بأمتك أيها الرسول الكريم-، ألا نعذبهم عذاب الاستئصال والمحو، بل نؤخر عذاب الضالين منهم إلى يوم القيامة.

قالوا: ومن الحكم في هذا التأخير: الإظهار لمزيد شرف النبي ﷺ، كما قال- تعالى-: وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، والرعاية لشأن من سيولد من بعضهم من المؤمنين، ولمن سيؤمن من هؤلاء المقترحين، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا هو- سبحانه-.

قال الزمخشري: استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة ...

والمراد: الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا، ومن إحياء الموتى، وغير ذلك.

وعادة الله في الأمم، أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها. ثم لم يؤمن، أن يعاجل بعذاب الاستئصال. فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم، كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك، وقالوا: هذا سحر مبين، كما يقولون في غيرها. واستوجبوا العذاب المستأصل. وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة» .

ثم ساق- سبحانه- مثالا للسابقين الذين أجيبوا إلى ما اقترحوه، ولكنهم لم يؤمنوا، فأخذهم عذاب الاستئصال، فقال- تعالى-: وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها.

وثمود: هم قوم صالح- عليه السلام-، وخصهم بالذكر، لأنهم معروفون لأهل مكة أكثر

=

=

من غيرهم، لمرورهم على ديارهم عند أسفارهم إلى بلاد الشام.
والناقة المراد بها: ناقة صالح- عليه السلام التي طلبها قومه منه، فأخرجها الله- تعالى- لهم لتكون معجزة له، ولكنهم لم يؤمنوا به، بل عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، فأهلكهم الله- تعالى- بالصيحة التي جعلتهم في دارهم جاثمين.
وقوله مُبْصِرَةً أى: معجزة واضحة، يراها الناس بأعينهم بدون خفاء أو لبس..
قال الجمل: مُبْصِرَةً بكسر الصاد- باتفاق السبعة، والإسناد مجازى. أى: يبصرونها خارجة من الصخرة. وقرئ شاذا بفتح الصاد. ثم قال: وفي السمين: مبصرة حال. وهو إسناد مجازى، إذ المراد إبصار أهلها، ولكنها لما كانت سببا في الإبصار نسب إليها، والظاهر أن المراد الإبصار المعنوي، وهو الاهتداء بها، والتوصل بها، إلى تصديق نبيهم، وعلى هذا تظهر السببية، فإن وجودها سبب في هذا المعنى ... » .
وقال الآلوسى: وقوله: مُبْصِرَةً على صيغة اسم الفاعل حال من الناقة، والمراد: ذات إبصار، أو ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها، فالصيغة للنسب....» .
والمعنى: لقد تركنا إجابة المطالب التي اقترحها قومك- يا محمد-، رحمة بهم، لأننا لو أعطيناهم إياهم ثم استمروا في تكذيبهم لك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين. فقد أجبنا قوم صالح- عليه السلام إلى ما طلبوه من نبيهم، بأن أخرجنا لهم الناقة، وجعلناها معجزة واضحة نيرة في الدلالة على صدقه، فقابلوها بالتكذيب والجحود، وظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها.
قال- تعالى-: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ .
وقال- سبحانه-: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها. إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها. فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ناقَةَ اللهِ وَسُقْياها. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَلا يَخافُ

=

=
عُقْباها .
وقوله- سبحانه-: وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً تذييل قصد به الزجر عن تكذيب ما يأتى به الأنبياء من هدايات ومعجزات تدل على صدقهم.
والباء في قوله بِالْآياتِ للملابسة، ومفعول، نرسل، محذوف، وتَخْوِيفاً مفعول لأجله.
قال القرطبي قوله: وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً فيه خمسة أقوال: الأول: العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدى الرسل، من دلائل الإنذار تخويفا للمكذبين. الثاني:
أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي. الثالث: أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك. الرابع: القرآن، الخامس: الموت الذريع» .
والمعنى: وما نرسل رسلنا ملتبسين بالآيات والمعجزات الدالة على صدقهم، إلا تخويفا لأقوامهم من سوء تكذيبهم لها. فإنهم إن كذبوها يصيبهم من العذاب ما يصيبهم.
قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)} [الإسراء: ٦٠].
عن ابن عباس، قال: " أسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته، فحدثهم بمسيره، وبعلامة بيت المقدس، وبعيرهم، فقال ناس، قال حسن: نحن نصدق محمدا بما يقول؟ - فارتدوا كفارا، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرا وزبدا، فتزقموا، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين، ليس رؤيا منام، وعيسى، وموسى، وإبراهيم،
=

=

صلوات الله عليهم، فسئل النبي ﷺ عن الدجال؟ فقال: " أقمر هجانا - قال حسن: قال: رأيته فيلمانيا أقمر هجانا - إحدى عينيه قائمة، كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة، ورأيت عيسى شابا أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق، ورأيت موسى أسحم آدم، كثير الشعر - قال حسن: الشعرة - شديد الخلق، ونظرت إلى إبراهيم، فلا أنظر إلى إرب من آرابه، إلا نظرت إليه مني، كأنه صاحبكم، فقال جبريل عليه السلام: سلم على مالك، فسلمت عليه ".

قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ} [الإسراء: ٦٠]، أي:" واذكر - أيها الرسول- حين قلنا لك: إن ربك أحاط بالناس علمًا وقدرة".

**قال الطبري:**" وهذا حضّ من الله تعالى ذكره نبيه محمدا ﷺ، على تبليغ رسالته، وإعلام منه أنه قد تقدّم منه إليه القول بأنه سيمنعه، من كلّ من بغاه سوءا وهلاكا، يقول جلّ ثناؤه: واذكر يا محمد إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس قدرة، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته، ونحن مانعوك منهم، فلا تتهيَّب منهم أحدا، وامض لما أمرناك به من تبليغ رسالتنا".

وفي قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ} [الإسراء: ٦٠]، أربعة أقوال:

**أحدها**: معناه: أحاطت بالناس قدرته فهم في قبضته، قاله مجاهد، وابن أبي نجيح.

**الثاني**: أحاط علمه بالناس، قاله الكلبي.

**الثالث**: أنه عصمك من الناس أن يقتلوك حتى تبلغ رسالة ربك، قاله الحسن، وعروة بن الزبير، وقتادة.

قال الحسن:" يقول: أحطت لك بالعرب أن لا يقتلوك، فعرف أنه لا يُقتل".

قال قتادة:" أي: منعك من الناس حتى تبلِّغ رسالة ربك".

**الرابع**: يعني: حين أحاط علمه بأهل مكة أن يفتحها على النبي- ﷺ-. قاله

=

=

مقاتل.

قال الفراء:" يعني: أهل مكة أي أنه سيفتح لك".

قال يحيى بن سلام:" «الناس» يعني أهل مكة خاصة، وذلك قوله في بني إسرائيل: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس}، يعني: أهل مكة خاصَّة. وقال: {وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ}، يعني أهل مكَّة خاصة. وقال في سورة يونس: {ياأيها الناس} يعني أهل مكَّة خاصَّة، {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ}. وقال في سورة النَّمْل: {أَنَّ الناس كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ} يعني أهل مكة خاصَّة".

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} [الإسراء: ٦٠]، أي:" وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عِيانًا ليلة الإسراء والمعراج من عجائب المخلوقات إلا اختبارًا للناس؛ ليتميز كافرهم من مؤمنهم".

وفي قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} [الإسراء: ٦٠]، ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أنها رؤيا عين ليلة الإسراء به من مكة إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، ومسروق، والضحاك، وإبراهيم، وابن جريج، وابن زيد، ومقاتل.

قال ابن عباس:" هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به، وليست برؤيا منام".

قال سعيد بن جبير:" كان ذلك ليلة أُسري به إلى بيت المقدس، فرأى ما رأى فكذّبه المشركون حين أخبرهم".

قال الحسن:" أُسري به عشاء إلى بيت المقدس، فصلى فيه، وأراه الله ما أراه من الآيات، ثم أصبح بمكة، فأخبرهم أنه أُسري به إلى بيت المقدس، فقالوا له: يا محمد ما شأنك، أمسيت فيه، ثم أصبحت فينا تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس،

=

=

فعجبوا من ذلك حتى ارتدّ بعضهم عن الإسلام".

وقال الحسن:" قال كفار أهل مكة: أليس من كذب ابن أبي كبشة أنه يزعم أنه سار مسيرة شهرين في ليلة".

قال قتادة:" الله أراه من الآيات والعبر في مسيره إلى بيت المقدس. ذُكر لنا أن ناسا ارتدّوا بعد إسلامهم حين حدثهم رسول الله ﷺ بمسيره، أنكروا ذلك وكذّبوا له، وعجبوا منه، وقالوا: تحدّثنا أنك سرت مسيرة شهرين في ليلة واحدة".

قال ابن جريج:" أراه الله من الآيات في طريق بيت المقدس حين أُسري به، نزلت فريضة الصلاة ليلة أُسري به قبل أن يهاجر بسنة وتسع سنين من العشر التي مكثها بمكة، ثم رجع من ليلته، فقالت قريش: تعشى

فينا وأصبح فينا، ثم زعم أنه جاء الشام في ليلة ثم رجع، وايم الله إن الحدأة لتجيئها شهرين: شهرا مقبلة، وشهرا مُدبرة".

قال ابن زيد:" هذا حين أُسري به إلى بيت المقدس، افتتن فيها ناس، فقالوا: يذهب إلى بيت المقدس ويرجع في ليلة: وقال: "لَمَّا أتانِي جَبْرَائِيلُ عليه السلام بالبُرَاقِ لِيَحْمِلَنِي عَلَيْها صَرَّتْ بأُذُنَيْها، وَانْقَبَض بَعْضُها إلى بَعْضٍ، فَنَظَرَ إلَيْها جَبْرَائِيلُ، فقالَ: وَالَّذِي بَعَثَنِي بالحَقّ مِنْ عِنْدِهِ ما رَكِبَكَ أحَدٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ خَيْرٌ مِنْهُ، قالَ: فَصرَّتْ بأُذُنَيْها وَارْفَضَّتْ عَرَقا حتى سالَ ما تَحْتَها، وكانَ مُنْتَهَى خَطْوُها عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفها" فلما أتاهم بذلك، قالوا: ما كان محمد لينتهي حتى يأتي بكذبة تخرج من أقطارها، فأتوا أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: هذا صاحبك يقول كذا وكذا، فقال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: إن كان قد قال ذلك فقد صدق، فقالوا: تصدّقه إن قال ذهب إلى بيت المقدس ورجع في ليلة؟ فقال أبو بكر: إي، نزع الله عقولكم، أصدّقه بخبر السماء، والسماء أبعد من بيت المقدس، ولا أصدّقه بخبر بيت المقدس؟ قالوا للنبيّ ﷺ: إنا قد جئنا بيت المقدس فصفه لنا، فلما قالوا

=

=

ذلك، رفعه الله تبارك وتعالى ومثله بين عينيه، فجعل يقول: هو كذا، وفيه كذا، فقال بعضهم: وأبيكم إن أخطأ منه حرفا، فقالوا: هذا رجل ساحر".

قال الفراء:" يريد: ما أريناك ليلة الإسراء إلا فتنة لهم، حتى قال بعضهم: ساحر، وكاهن، وأكثروا".

قال الماوردي:" وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي -ﷺ- أنه أُسريَ به".

**الثاني**: أنها رؤيا نوم رأى فيها أنه يدخل مكة، فعجل النبي -ﷺ- قبل الوقت يوم الحيبية، فرجع فقال ناس قد كان قال إنه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم، وهذا مروي عن ابن عباس أيضـاً.

قال ابن عباس:" يقال: إن رسول الله ﷺ أُري أنه دخل مكة هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة، فعجَّل رسول الله ﷺ السير إلى مكة قبل الأجل، فردّه المشركون، فقالت أناس: قد ردّ رسول الله ﷺ، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها، فكانت رجعته فتنتهم".

**الثالث**: أنها رؤيا منام رأى فيها قومـاً يعلون على منابره ينزون نزو القردة. فساءه، وهذا قول سهل بن سعد.

قال سهل بن سعد:" رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكا حتى مات، قال: وأنزل الله ﷻ في ذلك: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} .... الآية".

**الرابع**: أنه رأى رسول الله ﷺ بني أمية على المنابر فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: «إنما هي دنيا أعطوها» فقرت عينه وهي قوله: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس}، يعني: بلاء للناس. وهذا قول سعيد بن المسيب. [ضعيف]

وأخرج ابن ابي حاتم عن يعلي بن مرة، قال: قال رسول الله ﷺ «أريت بني أمية

=

=

على منابر الأرض وسيتملكونكم فتجدونهم أرباب سوء»، واهتم رسول الله ﷺ لذلك: فأنزل الله: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} ". [ضعيف]

وقد حكم ابن حجر على هاتين الروايتين وأمثالها بأن أسانيد الكل ضعيفة.

**قال الطبري:**" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عنى به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس، وبيت المقدس ليلة أُسري به، وقد ذكرنا بعض ذلك في أوّل هذه السورة، وإنما قُلنا ذلك أولى بالصواب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك، وإياه عنى الله ﷻ بها، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وما جعلنا رؤياك التي أريناك ليلة أسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس، إلا فتنة للناس: يقول: إلا بلاء للناس الذين ارتدّوا عن الإسلام، لمَّا أُخبروا بالرؤيا

التي رآها، عليه الصلاة والسلام وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادوا بسماعهم ذلك من رسول الله ﷺ تماديا في غيهم، وكفرا إلى كفرهم".

قوله تعالى: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} [الإسراء: ٦٠]، أي:" وما جعلنا شجرة الزقوم الملعونة التي ذكرت في القرآن إلا ابتلاء للناس".

وفي قوله تعالى: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} [الإسراء: ٦٠]، أربعة أقوال:

**أحدها:** أنها شجرة الزقوم طعام الأثيم، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، وإبراهيم، ومسروق، وطاووس، وابن زيد، ومقاتل، والفراء.

قال الماوردي:"وكانت فتنتهم بها قول أبي جهل وأشياعه: النار تأكل الشجر فكيف تنبتها".

قال ابن عباس:" هي شجرة الزقوم، قال أبو جهل: أيخوّفني ابن أبي كبشة بشجرة الزَّقوم، ثم دعا بتمر وزُبد، فجعل يقول: زقمني، فأنزل الله تعالى: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ

=

=

رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) وأنزل (وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا} ".

قال ابن عباس:" وهي شجرة الزقوم، خوّف الله بها عباده، فافتتنوا بذلك، حتى قال قائلهم أبو جهل بن هشام: زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد، فتزقموا، فأنزل الله تبارك وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجرة {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} ، إني خلقتها من النار، وعذّبت بها من شئت من عبادي".

قال الحسن:" فإن قريشا كانوا يأكلون التمر والزبد، ويقولون: تزقموا هذا الزقوم. قال أبو رجاء: فحدثني عبد القدّوس، عن الحسن، قال: فوصفها الله لهم في الصافات".

قال الحسن:" قال أبو جهل وكفار أهل مكة: أليس من كذب ابن أبي كَبشة أنه يوعدكم بنار تحترق فيها الحجارة، ويزعم أنه ينبت فيها شجرة {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} قال: هي شجرة الزَّقوم.

قال ابن زيد:" الزقوم التي سألوا الله أن يملأ بيوتهم منها، وقال: هي الصَّرفَان بالزبد تتزقمه، والصرفان: صنف من التمر، قال: وقال أبو جهل: هي الصرفان بالزبد، وافتتنوا بها".

**الثاني**: هي «الكشوت» التي تلتوي على الشجر، قاله ابن عباس -في رواية أخرى- .

عن مولى بني هاشم: "أن عبد الله بن الحارث بن نوفل، أرسله إلى ابن عباس، يسأله عن الشجرة الملعونة في القرآن؟ قال: هي هذه الشجرة التي تلوي على الشجرة، وتجعل في الماء، يعني الكشوثي".

**الثالث**: أنهم اليهود تظاهروا على رسول الله -ﷺ- مع الأحزاب، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

=

=

**الرابع**: أن النبي رأى في منامه قومًا يصعدون المنابر، فشق عليه، فأنزل الله تعالى: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} . قاله سعيد بن المسيب.

قال الماوردي:" والشجرة كناية عن المرأة، والجماعة أولاد المرأة كالأغصان للشجر".

الخامس: أن الشجرة الملعونة: الحكم بن أبي العاص وولده. رواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو. قال ابن حجر:"وإسناده ضعيف".

**قال الطبري**:" الصواب عندنا قول من قال: عنى بها شجرة الزقوم، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، ونصبت الشجرة الملعونة عطفا بها على الرؤيا. فتأويل الكلام إذن: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك، والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس، فكانت فتنتهم في الرؤيا ما ذكرت من ارتداد من ارتدّ، وتمادِي أهل الشرك في شركهم، حين أخبرهم رسول الله ﷺ بما أراه الله في مسيره إلى بيت المقدس ليلة أُسري به، وكانت فتنهم في الشجرة الملعونة ما ذكرنا من قول أبي جهل والمشركين معه: يخبرنا محمد أن في النار شجرة نابتة، والنار تأكل الشجر فكيف تنبت فيها؟ ".

قوله تعالى: {وَنُخَوِّفُهُمْ} [الإسراء: ٦٠]، أي:" ونخوِّف المشركين بأنواع العذاب والآيات".

**قال الطبري**:" ونخوّف هؤلاء المشركين بما نتوعدهم من العقوبات والنكال".

عن مجاهد:" {ونخوفهم} ، قال: أبو جهل لشجرة الزقوم".

قوله تعالى: {فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا} [الإسراء: ٦٠]، أي:" ولا يزيدهم التخويف إلا تماديًا في الكفر والضلال".

**قال الطبري**:" فما يزيدهم تخويفنا إلا طغيانا كبيرا، يقول: إلا تماديا وغيا كبيرا في كفرهم وذلك أنهم لما خُوّفوا بالنار التي طعامهم فيها الزقوم دعوا بالتمر والزبد،

=

=

وقالوا: تزقموا من هذا".

قال: مجاهد: "ما يزيد أبا جهل إلا طغيانا كبيرا".

قال ابن جريج:" {وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ}، قال: طلعها كأنه رءوس الشياطين، والشياطين ملعونون. قال {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} لما ذكرها زادهم افتتانا وطغيانا، قال الله تبارك وتعالى، {وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا} ".

ثم ذكر- سبحانه- ما يزيد النبي ﷺ ثباتا على ثباته، ويقينا على يقينه، وما يدل على شمول علمه- تعالى- ونفاذ قدرته، وبليغ حكمته فقال: (وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ....)

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أحاط علمه بالناس، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الربيع بن أنس. وقال مقاتل: أحاط علمه بالناس، يعني: أهل مكة، أن يفتحها لرسوله ﷺ. والثاني: أحاطت قدرته بالناس، فهم في قبضته، قاله مجاهد. والثالث: حال بينك وبين الناس أن يقتلوك، لتبلغ رسالته، قاله الحسن، وقتادة ا.هـ

أى: واذكر- أيها الرسول الكريم- وقت أن قلنا لك على لسان وحينا. إن ربك- ﷻ قد أحاط بالناس علما وقدرة. فهم في قبضته، وتحت تصرفه، وقد عصمك منهم، فامض في طريقك. وبلغ رسالة ربك، دون أن تخشى من كفار مكة أو من غيرهم، عدوانا على حياتك، فقد عصمك- سبحانه- منهم.

وفي هذه الجملة ما فيها من التسلية للنبي ﷺ، ومن التبشير له ولأصحابه، بأن العاقبة ستكون لهم، ومن الحض لهم على المضي في طريقهم دون أن يخشوا أحدا إلا الله.

والمراد بالرؤيا في قوله- تعالى-: (وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ).

قال ابن الجوزي: في هذه الرؤيا قولان: أحدهما: أنها رؤيا عين، وهي ما أري ليلة

=

=

أسري به من العجائب والآيات. روى عكرمة عن ابن عباس قال: هي رؤيا عين رآها ليلة أسري به، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، ومسروق، والنخعي، وقتادة، وأبو مالك، وأبو صالح، وابن جريج، وابن زيد في آخرين. فعلى هذا يكون معنى الفتنة: الاختبار، فإن قوما آمنوا بما قال، وقوما كفروا. قال ابن الأنباري: المختار في هذه الرؤية أن تكون يقظة، ولا فرق بين أن يقول القائل: رأيت فلانا رؤية، ورأيته رؤيا، إلا أن الرؤية يقل استعمالها في المنام، والرؤيا يكثر استعمالها في المنام، ويجوز كل واحد منهما في المعنيين. والثاني: أنها رؤيا منام. ثم فيها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ كان قد أري أنه يدخل مكة، هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة، فعجل قبل الأجل، فرده المشركون، فقال أناس: قد رد، وكان حدثنا أنه سيدخلها، فكان رجوعهم فتنتهم، رواه العوفي عن ابن عباس. وهذا لا ينافي حديث المعراج، لأن هذا كان بالمدينة، والمعراج كان بمكة: قال أبو سليمان الدمشقي: وإنما ذكره ابن عباس على وجه الزيادة في الإخبار لنا أن المشركين بمكة افتتنوا برؤيا عينه، والمنافقين بالمدينة افتتنوا برؤيا نومه.

**والثاني**: أنه أري بني أمية على المنابر، فساءه ذلك، فقيل له: إنها الدنيا يعطونها، فسري عنه. فالفتنة ها هنا: البلاء، رواه علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب، وإن كان مثل هذا لا يصح، ولكن قد ذكره عامة المفسرين ا.هـ

وقال الإمام الطبري رحمه الله: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال عني به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أسري به ا.هـ

فالصواب في الأية هو ما رآه النبي ﷺ وعاينه بعينيه من عجائب، ليلة الإسراء والمعراج.

=

=

أي: وما جعلنا ما رأيته وعاينته ليلة إسرائنا بك من غرائب، إلا فتنة للناس. ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه، وسليم القلب من مريضه.

وأطلق- سبحانه- على ما أراه لنبيه ليلة الإسراء لفظ الرؤيا مع أنه كان يقظة «لأن هذا اللفظ يطلق حقيقة على رؤيا المنام، وعلى رؤية اليقظة ليلا فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا، كما في قول الشاعر يصف صائدا: وكبر للرؤيا وهش فؤاده.. أي: وسر لرؤيته للصيد الذي سيصيده. أو أطلق عليه لفظ الرؤيا على سبيل التشبيه بالرؤيا المنامية، نظرا لما رآه في تلك الليلة من عجائب سماوية وأرضية، أو أطلق عليه ذلك بسبب أن ما رآه قد كان ليلا. وقد كان في سرعته كأنه رؤيا منامية.

وكان ما رآه ﷺ في تلك الليلة فتنة للناس، لأنه لما قص عليهم ما رآه، ارتد بعضهم عن الإسلام، وتردد البعض الآخر في قبوله، وضاقت عقولهم عن تصديقه، زاعمة أنه لا يمكن أن يذهب ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم يعرج إلى السموات العلا.. ثم يعود إلى مكة، كل ذلك في ليلة واحدة.

وبعضهم يرى أن المراد بالرؤيا هنا: ما رآه النبي ﷺ من أنه سيدخل مكة هو وأصحابه..

وبعضهم يرى أن المراد بها هنا: ما أراه الله- تعالى- لنبيه في منامه، من مصارع المشركين قبل غزوة بدر فقد قال ﷺ قبل بدء المعركة: والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم. ثم أومأ إلى الأرض وقال: هذا مصرع فلان. وهذا مصرع فلان.

والرأى الأول هو الراجح، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة، ولأنه على الرأيين الثاني والثالث يترجح أن الآية مدنية، لأن غزوة بدر وفتح مكة كانا بعد الهجرة، والتحقيق أن هذه الآية مكية.

قال القرطبي ما ملخصه: قوله- تعالى-: (وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ..) لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف، ضم إليه ذكر آية

=

=

الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة. وفي البخاري والترمذي عن ابن عباس في قوله- تعالى-: (وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) قال: هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس ...

وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺ أنه أسرى به.

**وقيل**: كانت رؤيا نوم. وهذه الآية تقضى بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها.

وعن ابن عباس قال: الرؤيا التي في هذه الآية، رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحديبية- فرده المشركون عن دخولها في تلك السنة-، فافتتن بعض المسلمين لذلك، فنزلت هذه الآية.. وفي هذا التأويل ضعف. لأن السورة مكية، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة ... ».

وقوله- سبحانه-: (وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ) معطوف على الرؤيا.

أى: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس.

قال ابن الجوزي: وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها شجرة الزقوم، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومسروق، والنخعي، والجمهور.... وللعلماء في معنى «الملعونة» ثلاثة اقوال: أحدها: المذمومة، قاله ابن عباس. والثاني: الملعون آكلها، ذكره الزجاج، وقال: إن لم يكن في القرآن ذكر لعنها، ففيه لعن آكليها قال: والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار: ملعون فأما قوله تعالى: في القرآن فالمعنى: التي ذكرت في القرآن، وهي مذكورة في قوله: إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤). والثالث: أن معنى «الملعونة»:

المبعدة عن منازل أهل الفضل، ذكره ابن الانباري. والقول الثاني: أن الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر، يعني: الكشوثى، وهذا مروي عن ابن

=

=

عباس أيضا. والثالث: أن الشجرة كناية عن الرجال على ما ذكرنا عن سعيد بن المسيب ا.هـ

قال الطبري رحمه الله: وأولى القولين في ذلك بالصواب عندنا قول من قال: عني بها شجرة الزقوم، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك. وهو اختيار ابن كثير رحمه الله، وقال الحافظ في «الفتح ٨/ ٣٩٩ وهذا هو الصحيح ذكره ابن أبي حاتم عن بضعة عشر نفسا من التابعين ا.هـ

فالمراد بالشجرة الملعونة هنا: شجرة الزقوم، المذكورة في قوله- تعالى-: أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ.

والمراد بلعنها: لعن الآكلين منها وهم المشركون، أو هي ملعونة لأنها تخرج في أصل الجحيم. أو هي ملعونة لأن طعامها مؤذ وضار، والعرب تقول لكل طعام ضار: إنه ملعون.

قال الآلوسى: وروى في جعلها فتنة لهم: أنه لما نزل في شأنها في سورة الصافات وغيرها ما نزل، قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر. وما نعرف الزقوم إلا بالتمر والزبد، ثم أمر جارية له فأحضرت تمرا وزبدا، وقال لأصحابه: تزقموا.

وافتتن بهذه الآية أيضا بعض الضعفاء، ولقد ضلوا في ذلك ضلالا بعيدا ... .

وقوله- تعالى-: وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً تذييل قصد به بيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جحود، وقسوة قلب ...

أى: ونخوف هؤلاء المشركين بعذاب الدنيا، وبعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم التي طلعها كأنه رءوس الشياطين ... فما يزيدهم هذا التخويف والتهديد إلا طغيانا متجاوزا في ضخامته وكبره كل حد، وكل عقل سليم.

=

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١).

{وَ} اُذْكُرْ {إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اُسْجُدُوا لِآدَم} سجود تحية بالانحناء {فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طِينًا} نُصِبَ بِنَزْعِ الْخَافِض أَيْ مِنْ طِين.

قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢).

{قَالَ أَرَأَيْتُك} أَيْ أَخْبِرْنِي {هَذَا الَّذِي كَرَّمْت} فضلت {علي} بالأمر بالسجود له و {أنا خَيْر مِنْهُ خَلَقْتنِي مِنْ نَار} {لَئِنْ} لَام قسم {أخرتن إلى يوم القيامة لَأَحْتَنِكَنَّ} لَأَسْتَأْصِلَنَّ {ذُرِّيَّته} بِالْإِغْوَاءِ {إلَّا قَلِيلًا} مِنْهُمْ ممن عصمته.

قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣).

{قَالَ} تَعَالَى لَهُ {اذْهَبْ} مُنْظَرًا إلَى وَقْت النفخة الأولى {فمن تبعك منهم فإن جهنم جَزَاؤُكُمْ} أَنْتَ وَهُمْ {جَزَاء مَوْفُورًا} وَافِرًا كَامِلًا.

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤).

{واستفزز} استخف {من استطعت منهم بِصَوْتِك} بِدُعَائِك بِالْغِنَاءِ

=

وعبر- سبحانه- بصيغة المضارع الدالة على الاستقبال، مع أن تخويفهم وازدياد طغيانهم قد وقعا، للإشعار بالتجدد والاستمرار.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت من سنن الله- تعالى- في خلقه، ومن فضله على هذه الأمة، ومن تبشيره وإنذاره، ووعده ووعيده، ما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، وما يصرف الطاغين عن طغيانهم لو كانوا يعقلون.

وَالْمَزَامِير وَكُلّ دَاعٍ إلَى الْمَعْصِيَة {وَأَجْلِبْ} صِحْ {عَلَيْهِمْ بِخَيْلِك وَرَجِلك} وَهُمْ الرُّكَّاب وَالْمُشَاة فِي الْمَعَاصِي {وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَال} الْمُحَرَّمَة كَالرِّبَا وَالْغَصْب {وَالْأَوْلَاد} مِنْ الزِّنَى {وَعِدْهُمْ} بِأَنْ لَا بَعْث وَلَا جَزَاء {وَمَا يَعِدهُمْ الشَّيْطَان} بِذَلِكَ {إلَّا غُرُورًا} بَاطِلًا.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥).

{إن عبادي} المؤمنين {ليس لك عليهم سُلْطَان} تَسَلُّط وَقُوَّة {وَكَفَى بِرَبِّك وَكِيلًا} حَافِظًا لهم منك[1].

---

(١)قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} [الإسراء: ٦١].

قال المراغي:" أي: واذكر أيها الرسول الكريم ما وقع فى ذلك الحين منا ومن آدم، حتى يستبين لك نسيانه وفقدان عزمه إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم".

قال أبو عبيدة:" معناه: وقلنا للملائكة، وإذ من حروف الزوائد".

قال قتادة: "فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته".

واختلف اهل العلم في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة، وذكروا وجوها في ذلك:

**أحدها**: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا، ومعنى "لآدم": إلى آدم، كما يقال صلى للقبلة، أي إلى القبلة. وهذا قول الجمهور.

**والثاني**: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل، {فَسَجَدُوا} أي امتثلوا ما أمروا به.

=

=

قال ابن عطية: " وفي هذه الوجوه كلها كرامة لآدم عليه السلام".

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام أم كان مباحا إلى عصر الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وفيه قولين:

أحدهما: أن ذلك السجود كان خاصا بآدم فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى.

**والثاني**: أن ذلك السجود كان جائزا بعد آدم إلى زمان يعقوب عليه السلام، لقوله تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً} [يوسف: ١٠٠] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين.

والصحيح: أن سجود التحية والإكرام كان مباحا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مباحا في الشرائع السابقة إلى أن نسخ في شريعتنا، ومن المعلوم أن السجود لغير الله على وجه العبادة لم يكن مباحاً في أية شريعة فكل الأنبياء نهوا عن ذلك وبلغوا أقوامهم، روي عن عبد الله بن أبي أوفى أنه: لمَّا قدِمَ معاذٌ منَ الشَّامِ سجدَ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ ما هذا يا مُعاذُ قالَ أتيتُ الشَّامَ فوافقتُهُم يسجُدونَ لأساقفتِهِم وبطارقتِهِم فوَدِدْتُ في نَفسي أن نفعلَ ذلِكَ بِكَ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ "وسلَّمَ فلا تفعَلوا فإنِّي لو كُنتُ آمرًا أحدًا أن يسجُدَ لغيرِ اللهِ لأمَرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجِها والَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لا تؤدِّي المرأةُ حقَّ ربِّها حتَّى تؤدِّيَ حقَّ زوجِها ولو سألَها نفسَها وَهيَ علَى قتَبٍ لم تمنعْهُ".

ومعنى "القتب": أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة، وفي بعض طرق معاذ: ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة.

والذي عليه جمهور أهل العلم بلا خلاف ولا نزاع بينهم أن هذا السجود من معاذ رضي الله عنه كان سجود تحية لا عبادة إذ كيف يجهل هذا الصحابي الجليل أن سجود

=

=

العبادة لا ينبغي إلا لله.

قوله تعالى: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} [الإسراء: ٦١]، أي:" فسجدوا جميعًا إلا إبليس، استكبر وامتنع عن السجود".

قال المراغي:" فلبّوا الأمر بالسجود لآدم إلا إبليس فإنه امتنع وأبى أن يكون مع الساجدين".

قال السدي": كان اسم إبليس «الحارث»، وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيِّرًا".

قال ابن عباس:" إبليس، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته".

قال ابن كثير:" أنه -أي إبليس- كان قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة".

قوله تعالى: {قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: ٦١]، أي: قال" على سبيل الإنكار والاستكبار: أأسجد لهذا الضعيف، المخلوق من الطين".

**قال الطبري:**" يفتخر عليه الجاهل بأنه خُلِقَ من نار، وخلق آدم من طين".

قال ابن عباس:" بعث ربّ العزّة تبارك وتعالى إبليس، فأخذ من أديم الأرض، من عذبها وملحها، فخلق منه آدم، فكل شيء خُلق من عذبها فهو صائر إلى السعادة وإن كان ابن كافرين، وكلّ شيء خَلقه من مِلحها فهو صائر إلى الشقاوة وإن كان ابن نبيين؛ ومن ثم قال إبليس {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}: أي هذه الطينة أنا جئت بها، ومن ثم سُمّي آدم. لأنه خُلق من أديم الأرض".

* قوله- سبحانه-: وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ... تذكير لبنى آدم بما جرى بين أبيهم وبين إبليس، ليعتبروا ويتعظوا، ويستمروا على عداوتهم لإبليس وجنده. أى: واذكروا- يا بنى آدم- وقت أن قلنا للملائكة اسْجُدُوا لِآدَمَ سجود تحية وتكريم، فسجدوا امتثالا لأمر الله- تعالى-، بدون تردد أو تلعثم، إِلَّا إِبْلِيسَ فإنه

=

=

أبى السجود لآدم- عليه السلام وقالَ بتكبر وعصيان لأمر ربه- عز وجل: أَأَسْجُدُ وأنا المخلوق من نار لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً أى: أأسجد لمن خلقته من طين، مع أننى أفضل منه.

والتعبير بقوله فَسَجَدُوا بفاء التعقيب، يفيد أن سجودهم- عليهم السلام كان في أعقاب أمر الله- تعالى- لهم مباشرة، بدون تأخير أو تسويف.

وقوله- تعالى-: قالَ أَأَسْجُدُ ... استئناف بيانى، فكأنه قيل: فماذا كان موقف إبليس من هذا الأمر؟ فكان الجواب أن إبليس فسق عن أمر ربه وقال ما قال.

والاستفهام في أَأَسْجُدُ للإنكار والتعجب، لأن يرى- لعنه الله- أنه أفضل من آدم.

وقوله: طِيناً منصوب بنزع الخافض أى: من طين.

وقد جاء التصريح بإباء إبليس عن السجود لآدم، بأساليب متنوعة، وفي آيات متعددة، منها قوله- تعالى-: وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ .

وقوله- تعالى-: فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ .

ثم فصل- سبحانه- ما قاله إبليس في اعتراضه على السجود لآدم فقال: قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ، لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ، لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا.

ورأى هنا علمية فتتعدى إلى مفعولين، أولهما هذَا والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه، والكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التاء قبله، والاسم الموصول الَّذِي بدل من هذَا أو صفة له، والمراد من التكريم في قوله كَرَّمْتَ عَلَيَّ: التفضيل.

والمعنى: قال إبليس في الرد على خالقه- عز وجل: أخبرنى عن هذا الإنسان المخلوق من الطين، والذي فضلته على، لماذا فضلته على وأمرتنى بالسجود له مع أننى

=

=

أفضل منه، لأنه مخلوق من طين، وأنا مخلوق من نار!! وجملة هذا الذي كرمت على، واقعة موقع المفعول الثاني.

ومقصود إبليس من هذا الاستفهام، التهوين من شأن آدم- عليه السلام والتقليل من منزلته. ولم يجبه- سبحانه- على سؤاله، تحقيرا له. وإهمالا لشخصه، بسبب اعتراضه على أمر خالقه- عز وجل.

قوله تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} [الإسراء: ٦٢]، أي:" وقال إبليس جراءة على الله وكفرًا به: أرأيت هذا المخلوق الذي ميزته عليَّ؟ ".

قال يحيى بن سلام:" فأمرتني بالسجود له".

قال ابن قتيبة:" أي: فضلت".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: أرأيت هذا الذي كرّمته عليّ، فأمرتني بالسجود له، ويعني بذلك آدم".

قال الزجاج: تقدير الكلام: "أخبرني عن هذا الذي كرمت علي لم كرمته علي وقد خلقتني من نار وخلقته من طين".

قوله تعالى: {لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الإسراء: ٦٢]، أي:" لأستولينَّ على ذريته بالإغواء والإفساد، إلا المخلصين منهم في الإيمان، وهم قليل".

قال مقاتل:" يقول: لئن متعتني إلى يوم القيامة".

قوله تعالى: {لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٦٢]، أي:" لأستولينَّ على ذريته بالإغواء والإفساد، إلا المخلصين منهم في الإيمان، وهم قليل".

**قال الطبري:**" يقول: لأستولين عليهم {إلا قليلا}، يعنى: المعصومين".

**قال الطبري:**" أقسم عدوّ الله، فقال لربه: لئن أخرت إهلاكي إلى يوم القيامة: لأستولين عليهم، ولأستأصلنهم، ولأستميلنهم".

قال يحيى بن سلام:" وهذا القول منه بعد ما أمر بالسجود، وذلك ظن منه، حيث

=

=

وسوس إلى آدم فلم يجد له عزما أي صبرا".

عن سلام بن مسكين، قال: "سألنا الحسن، عن قوله: {لأحتنكن ذريته إلا قليلا}، قال: «ذاك حين راز آدم فصرعه تلك الصرعة» ".

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "قال إبليس: إن آدم خلق من تراب ومن طين خلق ضعيفا وإني خلقت من نار والنار تحرق كل شيء، {لأحتنكن ذريته إلا قليلا}، فصدق ظنه عليهم".

**أحدها:** معناه لأستولين عليهم بالغلبة، قاله ابن عباس، والكلبي، والفراء.

**الثاني:** لأحتوينهم مثل زناق الناقة والدابة وهي حناكها. قاله مجاهد.

**الثالث:** معناه: لأضلنهم بالإغواء. قاله ابن زيد.

**الرابع:** لأستأصلنهم بالإغواء. قاله ابن قتيبة، والزجاج.

قال ابن قتيبة:" يقال: احتنك الجراد ما على الأرض كله؛ إذا أكله كله. واحتنك فلان ما عند فلان من العلم: إذا استقصاه".

قال الزجاج:" تقول العرب: قد احتنكت السنة أموالنا إذا استأصلتها".

الخامس: لأستميلنهم، قاله الأخفش.

السادس: لأستميلنّهم ولأستأصلنهم، يقال: احتك فلان ما عند فلان أجمع من مال أو علم أو حديث أو غيره: أخذه كله واستقصاه. قاله أبو عبيدة، واستشهد بقول الشاعر:

**نَشْكُو إِلَيْكَ سَنَةً قَدْ أَجْحَفَتْ      جَهْدًا إلى جَهْدٍ بنا فأَضْعَفَتْ**

واحْتَنَكَتْ أمْوَالَنا وجَلَّفَتْ

السابع: لأقودنهم إلى المعاصي كما شئت، كما تقاد الدابة بحنكها إذا شد فيه حبل يجذبها، وهو افتعال من «الحنك» إشارة إلى: حنك الدابة. حكاه ابن قتيبة.

الثامن: معناه: لأقطعنهم إلى المعاصي. حكاه الماوردي.

=

=

* ثم أكد إبليس كلامه فقال: لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا.
إذ أن اللام في قوله لَئِنْ ... موطئة للقسم، وجوابه لأحتنكن.
وأصل الاحتناك: الاستيلاء على الشيء أو الاستئصال له. يقال: حنك فلان الدابة يحتنكها- بكسر النون ورفعها- إذا وضع في حنكها- أى في ذقنها- الرسن ليقودها به.
ويقال: احتنك الجراد الأرض، إذا أكل نباتها وأتى عليه.
والمعنى: قال إبليس- متوعدا ومهددا-: لئن أخرتن- يا إلهى- إلى يوم القيامة، لأستولين على ذرية آدم، ولأقودنهم إلى ما أشاء من المعاصي والشهوات، إلا عددا قليلا منهم فإنى لا أستطيع ذلك بالنسبة لهم، لقوة إيمانهم، وشدة إخلاصهم.
وهذا الذي ذكره- سبحانه- عن إبليس في هذه الآية من قوله: لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا شبيه به قوله- تعالى-: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمانِهِمْ، وَعَنْ شَمائِلِهِمْ، وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ .
وقوله- تعالى- قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ .
قال بعض العلماء: وقول إبليس في هذه الآية: لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ... قاله ظنا منه أنه سيقع. وقد تحقق له هذا الظن- في كثير من بنى آدم- كما قال- تعالى- وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.
قوله تعالى: {قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ} [الإسراء: ٦٣].
**قال البغوي:**" أي: جزاءك وجزاء أتباعك".
**قال الطبري:**" يقول: ثوابك على دعائك إياهم على معصيتي، وثوابهم على اتباعهم إياك وخلافهم أمري".
قال الزمخشري:" {اذهب} ليس من «الذهاب» للذي هو نقيض «المجيء»، إنما
=

=

معناه: امض لشأنك الذي اخترته خذلانا وتخلية".

قال القرطبي:" قال {اذهب} هذا أمر إهانة، أي: اجهد جهدك فقد أنظرناك".

قال قتادة:" عذاب جهنم جزاؤهم، ونقمة من الله من أعدائه فلا يعدل عنهم من عذابها شيء".

قوله تعالى: {جَزَاءً مَوْفُورًا} [الإسراء: ٦٣]، أي:"

**قال الطبري:**" ثوابا مكثورا مكملا".

قال السمعاني: أي:" مكملا".

عن مجاهد:" {مَوْفُورًا}، قال: وافرا".

وقوله- تعالى- قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً بيان لما توعد الله- سبحانه- به إبليس وأتباعه.

والأمر في قوله اذْهَبْ للإهانة والتحقير. أى: قال الله- تعالى- لإبليس اذْهَبْ مطرودا ملعونا، وقد أخرناك إلى يوم القيامة، فافعل ما بدا لك مع بنى آدم، فمن أطاعك منهم، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم، جزاء مكملا متمما لا نقص فيه.

وقال- سبحانه- فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ مع أنه قد تقدم غائب ومخاطب في قوله فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ، تغليبا لجانب المخاطب- وهو إبليس- على جانب الغائب وهم أتباعه. لأنه هو السبب في إغواء هؤلاء الأتباع.

وقوله: جَزاءً مفعول مطلق، منصوب بالمصدر قبله.

وقوله مَوْفُوراً اسم مفعول، من قولهم وفر الشيء فهو وافر وموفور أى: مكمل متمم. وهو صفة لقوله: جَزاءً.

وهذا الوعيد الذي توعد الله- تعالى- به إبليس وأتباعه، جاء ما يشبهه في آيات كثيرة، منها قوله- سبحانه-: قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

=

=

قوله تعالى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} [الإسراء: ٦٤]، أي:" واستَخْفِف كل مَن تستطيع استخفافه منهم بدعوتك إياه إلى معصيتي".

وفي قوله تعالى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ} [الإسراء: ٦٤]، وجوه:

**أحدها**: واستخف، وهذا قول الكلبي، والفراء.

**الثاني**: استخفف واستجهل. قاله أبو عبيدة، وبه قال الطبري.

**الثالث**: استخف. ومنه يقال: استفزني فلان. قاله ابن قتيبة.

**الرابع**: استنزل من استطعت، قاله مجاهد.

وحكي الماردوي عن مجاهد، قال: استذل".

وقال مقاتل: "استزل من استطعت".

وفي قوله تعالى: {بِصَوْتِكَ} [الإسراء: ٦٤]، ثلاثة وجوه من التفسير:

**أحدها**: أنه صوت الغناء واللعب واللهو والباطل، قاله مجاهد.

**الثاني**: أنه صوت المزمار، قاله الضحاك.

**الثالث**: بدعائك إلى معصية الله تعالى وطاعتك، قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل،والفراء.

قال ابن عباس:" صوته: كلّ داع دعا إلى معصية الله".

قال يحيى بن سلام: يعني: بدعائك، أي: بوسوستك".

**قال الطبري**:" وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله تبارك وتعالى قال لإبليس: واستفزز من ذرّية آدم من استطعت أن تستفزّه بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتا دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافا للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته الذي قال الله تبارك وتعالى اسمه له {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِك} ".

قوله تعالى: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} [الإسراء: ٦٤]، أي:" واجمع

=

=

عليهم كل ما تقدر عليه مِن جنودك من كل راكب وراجل".

قال مقاتل:" يعني: واستعن عليهم بخيلك يعني كل راكب يسير في معصيته ورجلك يعني كل راجل يمشي في معصية الله- ﷻ - من الجن والإنس من يطيعك منهم".

**قال الطبري:**" يقول: وأجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من يجلب عليها بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي".

قال الفراء:" يعني: خيل المشركين ورجالهم".

قال ابن عباس:" خيله: كل راكب في معصية الله؛ ورجله: كل راجل في معصية الله".

قال مجاهد:" كلّ راكب وماش في معاصي الله تعالى".

وقال مجاهد:" ما كان من راكب يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس، وما كان من راجل في معصية الله فهو من رجال إبليس".

قال قتادة:" إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه".

وقال قتادة:" الرجال: المشاة".

قوله تعالى: {وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} [الإسراء: ٦٤]، أي:" واجعل لنفسك شِرْكة في أموالهم بأن يكسبوها من الحرام، وشِرْكة في الأولاد بتزيين الزنى والمعاصي، ومخالفة أوامر الله حتى يكثر الفجور والفساد".

وفي قوله تعالى: {وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} [الإسراء: ٦٤]، وجوه:

**أحدها:** أنها الأموال التي أصابوها من غير حلها، قاله مجاهد.

قال مجاهد:" ما أكل من مال بغير طاعة الله".

وقال مجاهد:" كلّ ما أنفقوا في غير حقه".

وقال عطاء بن أبي رَباح: "الشرك في أموال الربا".

=

=

**الثاني**: أنها الأموال التي أنفقوها في معاصي الله تعالى، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن قتيبة.

قال ابن عباس:" كل مال في معصيه الله".

قال الحسن:" قد والله شاركهم في أموالهم، وأعطاهم الله أموالا فأنفقوها في طاعة الشيطان في غير حقّ الله تبارك اسمه".

وقال الحسن:" مرهم أن يكسبوها من خبيث، وينفقوها في حرام".

وقال ابن زيد:" مشاركته إياهم في الأموال والأولاد، ما زَيَّن لهم فيها من معاصي الله حتى ركبوها".

وقال الفراء:" كل مال خالطه حرام فهو شركه".

**الثالث**: ما كانوا يحرّمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، قاله ابن عباس، وقتادة.

**الرابع**: ما كانوا يذبحون لآلهتهم، قاله الضحاك.

**قال الطبري**:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُنِي بذلك كلّ مال عصى الله فيه بإنفاق في حرام أو اكتساب من حرام، أو ذبح للآلهة، أو تسييب، أو بحر للشيطان، وغير ذلك مما كان معصيا به أو فيه، وذلك أن الله قال {وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ} فكلّ ما أطيع الشيطان فيه من مال وعصى الله فيه، فقد شارك فاعل ذلك فيه إبليس، فلا وجه لخصوص بعض ذلك دون بعض".

وأما مشاركتهم في الأولاد، ففيها أربعة ودوه:

**أحدها**: أنهم أولاد الزنى، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن قتيبة.

**الثاني**: أنه قتل الموؤودة من أولادهم، قاله ابن عباس أيضا.

**الثالث**: أنه صبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم، قاله الحسن، و قتادة.

=

=

قال الحسن:" قد والله شاركهم في أموالهم وأولادهم، فمجسوا وهوّدوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزءوا من أموالهم جزءا للشيطان".

**الرابع**: أنه تسمية أولادهم عبيد آلهتهم كعبد شمس وعبد العزَّى وعبد اللات، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

**قال الطبري**:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: كل ولد ولدته أنثى عصى الله بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو قتله ووأده، أو غير ذلك من الأمور التي يخصص بقوله {وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأولادِ} معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكلّ ما عصى الله فيه أو به، وأطيع به الشيطان أو فيه، فهو مشاركة من عصى الله فيه أو به إبليس فيه".

قوله تعالى: {وَعِدْهُمْ} [الإسراء: ٦٤]، أي:" وعِدْ أتباعك مِن ذرية آدم الوعود الكاذبة".

قال مقاتل:" يعنى: ومنيهم الغرور ألاّ بعث".

قال الفراء:" أي: قل لهم: لا جنة ولا نار".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره لإبليس: وعد أتباعك من ذرّية آدم، النصرة على من أرادهم بسوء".

قال السعدي: أي:" الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها".

قوله تعالى: {وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [الإسراء: ٦٤]، أي:" فكل وعود الشيطان باطلة وغرور".

قال مقاتل:" يعني: باطلا الذي ليس بشيء".

قال السعدي" أي: باطلا مضمحلا كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا} [البقرة: ٢٦٨] ".

=

=

**قال الطبري:**" لأنه لا يغني عنهم من عقاب الله إذا نزل بهم شيئا، فهم من عداته في باطل وخديعة".

ثم أضاف- سبحانه- إلى إهانته وتحقيره لإبليس أوامر أخرى، فقال- تعالى-: (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ، وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ، وَعِدْهُمْ، وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً).

قال ابن الجوزي: وفي المراد بصوته قولان: أحدهما: أنه كل داع دعا إلى معصية الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الغناء والمزامير، قاله مجاهد ا.هـ

**وقال الطبري**: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله تبارك وتعالى قال لإبليس: واستفزز من ذرية آدم من استطعت أن تستفزه بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتا دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافا للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته ا.هـ

* قال الجمل: أمر الله- تعالى- إبليس بأوامر خمسة، القصد بها: التهديد والاستدراج، لا التكليف، لأنها كلها معاص، والله لا يأمر بها .

وهذه الأوامر الخمسة هي: اذهب، واستفزز ... وأجلب ... وشاركهم ... وعدهم.

وقوله: واستفزز، من الاستفزاز، بمعنى الاستخفاف والإزعاج، يقال: استفز فلان فلانا إذا استخف به، وخدعه، وأوقعه فيما أراده منه. ويقال: فلان استفزه الخوف، إذا أزعجه.

وقوله: وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ أصل الإجلاب: الصياح بصوت مسموع. يقال: أجلب فلان على فرسه وجلب عليه، إذا صاح به ليستحثه على السرعة في المشي.

قال الآلوسى: قوله وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ أى: صح عليهم من الجلبة وهي الصياح. قاله

=

=

الفراء وأبو عبيدة. وقال الزجاج: أجلب على العدو: جمع عليه الخيل. وقال ابن السكيت:

جلب عليه: أعان عليه. وقال ابن الأعرابى: أجلب على الرجل، إذا توعده الشر، وجمع عليه الجمع.

والخيل: يطلق على الأفراس حقيقة ولا واحد له من لفظه، وعلى الفرسان مجازا، وهو المراد هنا.

ومنه قول الرسول ﷺ في بعض غزواته لأصحابه: «يا خيل الله اركبي».

والرجل- بكسر الجيم- بمعنى راجل- كحذر بمعنى حاذر- هو الذي يمشى رجلا، أى غير راكب ... ».

والمعنى. قال الله- تعالى- لإبليس: اذهب أيها اللعين مذءوما مدحورا. فإن جهنم هي الجزاء المعد لك ولأتباعك من ذرية آدم، وافعل ما شئت معهم من الاستفزاز والخداع والإزعاج ولهو الحديث وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكايد، وما تقدر عليه من وسائل، كأن تناديهم بصوتك ووسوستك إلى المعاصي، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم وإغوائهم وصدهم عن الطريق المستقيم.

قال: فإن قلت: ما معنى استفزاز إبليس بصوته، وإجلابه بخيله ورجله؟

قلت: هو كلام وارد مورد التمثيل شبهت حاله في تسلطه على من يغويه، بمغوار أوقع على قوم، فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده، من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، وقيل: بصوته، أى: بدعائه إلى الشر، وبخيله، ورجله: أى كل راكب وماش من أهل العبث. وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال» .

وعلى أية حال، فالجملة الكريمة تصوير بديع، لعداوة إبليس لآدم وذريته، وأنه

=

=

معهم في معركة دائمة، يستعمل فيها كل وسائل شروره، ليشغلهم عن طاعة ربهم، وليصرفهم عن الصراط المستقيم، ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى شيء من أغراضه الفاسدة، ماداموا معتصمين بدين ربهم - ﷻ.

وقوله - سبحانه -: وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ، معطوف على ما قبله.

أي: وشاركهم في الأموال، بأن تحضهم على جمعها من الطرق الحرام، وعلى إنفاقها في غير الوجوه التي شرعها الله، كأن يستعملوها في الربا والرشوة وغير ذلك من المعاملات المحرمة.

وشاركهم في الأولاد: بأن تحثهم على أن ينشئوهم تنشئة تخالف تعاليم دينهم الحنيف وبأن تيسر لهم الوقوع في الزنا الذي يترتب عليه ضياع الأنساب، وبأن تظاهرهم على أن يسموا أولادهم بأسماء يبغضها الله - ﷻ، إلى غير ذلك من وساوسك التي تغرى الآباء بأن يربوا أبناءهم تربية يألفون معها الشرور والآثام، والفسوق والعصيان.

قال ابن جرير بعد أن ساق عددا من الأقوال في ذلك: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى الله فيه، بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه، من ولد ذلك الولد له أو منه، لأن الله لم يخصص بقوله: وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ معنى الشركة فيه، بمعنى دون معنى، فكل ما عصى الله فيه أو به، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة ... » .

وقد علق الإمام ابن كثير على كلام ابن جرير بقوله: وهذا الذي قاله - ابن جرير - متجه، فقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله - ﷻ إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما

=

=

أحللت لهم».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا» .

وقوله: وَعِدْهُمْ أى: وعدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة. كأن تعدهم بأن الدنيا هي منتهى آمالهم. فعليهم أن يتمتعوا بها كيف شاءوا، بدون تقيد بشرع أو دين أو خلق. وكأن تعدهم بأنه ليس بعد الموت حساب أو ثواب أو عقاب، أو جنة أو نار ...

وقوله سبحانه وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً تحذير من الله تعالى لعباده من اتباع الشيطان، ومن السير وراء خطواته.

وأصل الغرور تزين الباطل بما يوهم أنه حق. يقال: غر فلان فلانا فهو يغره غرورا إذا خدعه، وأصله من الغرّ، وهو الأثر الظاهر من الشيء، ومنه غرة الفرس لأنها أبرز ما فيه.

ولفظ غُرُوراً صفة لموصوف محذوف.

والتقدير: وعدهم- أيها الشيطان- بما شئت من الوعود الكاذبة، وما يعد الشيطان بنى آدم إلا وعدا غرورا.

ويجوز أن يكون مفعولا لأجله فيكون المعنى: وما يعدهم الشيطان إلا من أجل الغرور والمخادعة.

وفي الجملة الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة، إهمالا لشأن الشيطان، وبيانا لحاله مع بنى آدم حتى يحترسوا منه ويحذروه.

قوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الإسراء: ٦٥]، أي:" إن عبادي المؤمنين المخلصين الذين أطاعوني ليس لك قدرة على إغوائهم".

=

=

قال قتادة:" وعباده: المؤمنون".

قال مجاهد:" عبادي الذين قضيت لهم الجنة ليس لك عليهم إن يذنبوا ذنبا إلا أغفره لهم".

قال الزجاج:" أي: من أخلص فلا حجة لك عليه ولاسلطان".

قال الزمخشري:" يريد الصالحين، لا تقدر أن تغويهم".

قال ابن رجب الحنبلي:" فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن، وهم الذين قال فيهم: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطانْ}، فهم الذين حققوا قول: «لا إله إلا الله» ".

قوله تعالى: {وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: ٦٥]، أي:" وكفى بربك -أيها النبي- عاصمًا وحافظًا للمؤمنين مِن كيد الشيطان وغروره".

قال مقاتل:" يعني: حرزا ومانعا فلا أحد أمنع من الله- ﷻ- فلا يخلص إليهم إبليس".

قال الزجاج:" أي: كفى بالله وكيلا لأوليائه، يعصمهم من القبول من إبليس".

قال الزمخشري: أي:" {وكيلا} لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك، ونحوه قوله: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر: ٤٠]، فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويا مضلا، داعيا

إلى الشر، صادا عن الخير؟ قلت: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية، كما قال للعصاة: اعملوا ما شئتم".

**قال الطبري:**" يقول جلّ ثناؤه لنبيّه محمد ﷺ: وكفاك يا محمد ربك حفيظا، وقيما بأمرك، فانقد لأمره، وبلغ رسالاته هؤلاء المشركين، ولا تخف أحدا، فإنه قد توكل بحفظك ونصرتك".

=

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦).

---

=

ثم ختم- سبحانه- الآيات بغرس الطمأنينة في قلوب المؤمنين الصادقين، فقال- تعالى-: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ، وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا.

أى: إن عبادي الصالحين الذين أخلصوا دينهم لي، ليس لك- يا إبليس- تسلط واقتدار على إغوائهم وإضلالهم، وصرفهم عن السبيل الحق إلى السبيل الباطل.

قال- تعالى-: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ.

وقال- سبحانه- إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ.

والإضافة في قوله إِنَّ عِبادِي ... للتشريف والتكريم حيث خصهم- سبحانه- بهذا اللون من الرعاية والحماية.

وقوله وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا أى: وكفى بربك وكيلا يتوكلون عليه، ويفوضون إليه أمورهم، ويعتصمون به لكي يقيهم وساوس الشيطان ونزغاته.

قال الإمام ابن كثير: قوله: وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا أى: حافظا ومؤيدا ونصيرا.

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول ﷺ قال: «إن المؤمن لينضى شيطانه- أى ليقهره- كما ينضى أحدكم بعيره في السفر».

وقال الجمل في حاشيته: وهذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله. وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلال، لأنه لو كان الإقدام على الحق، والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه، لوجب أن يقال: وكفى بالإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان. فلما لم يقل ذلك، بل قال: وكفى بربك وكيلا. علمنا أن الكل من الله. ولهذا قال المحققون: لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعته إلا بقوته.

{ربكم الذي يزجي} يجري {لكم الفلك} السفن {في البحر لِتَبْتَغُوا} تَطْلُبُوا {مِنْ فَضْله} تَعَالَى بِالتِّجَارَةِ {إِنَّهُ كان بكم رحيما} في تسخيرها لكم.

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧).

{وإذا مسكم الضُّرّ} الشِّدَّة {فِي الْبَحْر} خَوْف الْغَرَق {ضَلَّ} غَابَ عَنْكُمْ {مَنْ تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ مِنْ الْآلِهَة فَلَا تَدْعُونَهُ {إِلَّا إِيَّاهُ} تَعَالَى فَإِنَّكُمْ تَدْعُونَهُ وحده لأنكم في شدة لا يكفشها إِلَّا هُوَ {فَلَمَّا نَجَّاكُمْ} مِنْ الْغَرَق وَأَوْصَلَكُمْ {إلى البر أَعْرَضْتُمْ} عَنْ التَّوْحِيد {وَكَانَ الْإِنْسَان كَفُورًا} جَحُودًا للنعم.

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨).

{أفأمنتم أن يخسف بكم جَانِب الْبَرّ} أَيْ الْأَرْض كَقَارُونَ {أَوْ يُرْسِل عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} أَيْ يَرْمِيكُمْ بِالْحَصْبَاءِ كَقَوْمِ لُوط {ثم لا تجدوا لكم وكيلا} حافظا منه.

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩).

{أم أمنتم أن نعيدكم فيه} أي البحر {تارة} مرة {أخرى فنرسل عليكم قَاصِفًا مِنْ الرِّيح} أَيْ رِيحًا شَدِيدَة لَا تَمُرّ بِشَيْءٍ إِلَّا قَصَفَتْهُ فَتَكْسِر فُلْكَكُمْ {فَيُغْرِقكُمْ بما كفرتم} بكفركم {ثم لا تجدوا لكم علينا به تَبِيعًا} نَاصِرًا وَتَابِعًا يُطَالِبنَا بِمَا فَعَلْنَا بِكُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ} [الإسراء: ٦٦]، أي:" ربكم -أيها الناس- هو الذي يُسَيِّر لكم السفن في البحر".

=

=
قال يحيى بن سلام: {يُزْجِي}، أي:" يجريها".
قال ابن عباس:" يقول: يجري الفلك".
قال قتادة:" يسيرها في البحر".
قال الزجاج:" تفسير {يزجي}: يسير".
قال عطاء الخراساني:" «الفلك»: السفن".
قوله تعالى: {لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [الإسراء: ٦٦]، أي:" لتطلبوا رزق الله في أسفاركم وتجاراتكم".
قال يحيى بن سلام: "طلب التجارة في البحر".
قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم".
قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [الإسراء: ٦٦]، أي:" تعالى رحيم بالعباد ولهذا سهَّل لهم أسباب ذلك".
قال ابن كثير:" أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم".
قال يحيى بن سلام:" فبرأفته ورحمته سخر لكم ذلك. والرحمة على الكافر في هذا رحمة الدنيا.
روي ابن ابي حاتم عن الأوزاعي في قوله: " {إنه كان بكم رحيما}، قال: نزلت في المشركين".
* قوله- تعالى-: رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ...
بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله- تعالى- بعباده، وفضله عليهم.
ويُزْجِي من الإزجاء، وهو السوق شيئا فشيئا. يقال أزجى فلان الإبل، إذا ساقها برفق، وأزجت الريح السحاب، أى: ساقته سوقا رفيقا، ومنه قوله- تعالى-: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً....
=

=

والْفُلْكَ ما عظم من السفن. قال الجمل ما ملخصه: ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع، ويذكر ويؤنث. قال- تعالى-: وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فأفرد وذكر. وقال- سبحانه-: وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ، فأنث، ويحتمل الإفراد والجمع. قال- تعالى-: حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ... فجمع ....

والْبَحْرِ يطلق على الماء الكثير عذبا كان أو ملحا. وأكثر ما يكون إطلاقا على الماء الملح.

أى: اذكروا- أيها الناس- لتعتبروا وتشكروا ربكم الذي من مظاهر نعمته عليكم، أنه يسوق لكم- بلطفه وقدرته- السفن التي تركبونها في البحر لكي تطلبوا من وراء ركوبها الرزق الذي يصلح معاشكم، والذي هو لون من ألوان فضل الله عليكم.

وقوله: لتبتغوا من فضله، تعليل لإزجاء الفلك، وتصريح بوجوه النفع التي تفضل الله- تعالى- بها عليهم.

وقوله: إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً تعليل ثان لهذا الإزجاء.

أى: يزجى لكم الفلك في البحر، لتطلبوا من وراء ذلك ما ينفعكم، ولأنه- سبحانه- كان أزلا وأبدا، بكم دائم الرحمة والرأفة.

قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٦٧]، أي:" وإذا أصابتكم شدة في البحر حتى أشرفتم على الغرق والهلاك، غاب عن عقولكم الذين تعبدونهم من الآلهة، وتذكَّرتم الله القدير وحده؛ ليغيثكم وينقذكم، فأخلصتم له في طلب العون والإغاثة".

قال سهل بن عبد الله:" أي: ما تسألون كشفه إلا منه، وتتبرؤون من حولكم وقوتكم، وتعترفون بحوله وقوته، وهذه الآية رد على أهل القدر الذين يدعون الاستطاعة لأنفسهم دون الله تعالى".

=

=

قال يحيى بن سلام:" يعلمون أنه لا ينجيهم من الغرق إلا الله".

قال الثعلبي:" ولم تجدوا مغيثا سواه".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضرّ، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ}، أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فَأضعن يدي في يديه، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٦٧]، وجهان:

أحدهما: بطل من تدعون سواه، كما قال تعالى: {أضلَّ أعمالهم} [محمد: ١]، أي: أبطلها. قاله مقاتل.

**الثاني**: معناه: غاب من تدعون، كما قال تعالى: {أئِذا ضَلَلْنا في الأرض} [السجدة: ١٠]، أي: غِبْنَا. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ} [الإسراء: ٦٧]، أي:" فلمَّا نجاكم إلى البر أعرضتم عن الإيمان والإخلاص والعمل الصالح".

قال مقاتل:" {أَعْرَضْتُمْ}: عن الدعاء في الرخاء فلا تدعون الله- عَزَّوَجَلَّ- ".

قال الواحدي:" {أَعْرَضْتُمْ}: عن الإيمان والإخلاص".

قال ابن كثير:" أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه

=

=

وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء: ٦٧]، أي:" وكان الإنسان جحودًا لنعم الله ﷻ".

قال مقاتل:" {كَفُورًا} للنعم حين أنجاه الله- تعالى- من أهوال البحر إلى البر فلم يعبده".

قال ابن كثير:" أي: سَجِيَّتُه هذا، ينسى النعم ويجحدها، إلا من عصم الله ".

قال يحيى بن سلام:" يعني: المشرك".

قال الزجاج:" {الإنسان} -ههنا- يعنى به: الكفار خاصة".

قال ابن عباس: "يريد أهل مكة".

ثم انتقل- سبحانه- من الحديث عن مظاهر نعمه عليهم، في حال سوق السفن ودفعها بهم في البحر برفق وأناة، إلى بيان رعايته لهم في حال اضطرابها وتعرضها للغرق، بسبب هيجان البحر وارتفاع أمواجه، فقال- تعالى-: وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ....

والمس: اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة، والمراد به هنا: ما يعتريهم من خوف وفزع، وهم يرون سفينتهم توشك على الغرق.

والمراد بالضر هنا: اضطراب الفلك، وارتفاع الأمواج، واشتداد العواصف، وتعرضهم للموت من كل مكان.

المعنى: وإذا أحاطت بكم الأمواج من كل جانب وأنتم على ظهور سفنكم وأوشكتم على الغرق.. ذهب وغاب عن خواطركم وأذهانكم، كل معبود سوى الله- ﷻ لكي ينقذكم مما أنتم فيه من بلاء، بل إياه وحده- سبحانه- تدعون ليكشف عنكم ما نزل بكم من سوء.

فالجملة الكريمة تصوير مؤثر بديع لبيان أن الإنسان عند الشدائد والمحن لا يتجه

=

=

بدعائه وضراعته إلا إلى الله- تعالى- وحده.

قال القرطبي: ضَلَّ معناه تلف وفقد وهي عبارة عن تحقير لمن يدعى إلها من دون الله. والمعنى في هذه الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلا، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد، فوقّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل» .

وقوله- تعالى-: فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً بيان لطبيعة الإنسان إلا من عصم الله.

أى: فلما نجاكم الله- تعالى- بلطفه وإحسانه: من الغرق، وأوصلكم سالمين إلى البر، أعرضتم عن طاعته، وتركتم دعاءه والضراعة إليه، وكان الإنسان الفاسق عن أمر ربه، كَفُوراً أى: كثير الكفران والجحود لنعم ربه- ﷻ.

قال الآلوسي ما ملخصه: وقوله: وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً كالتعليل للإعراض، ويعلم منه حكم أولئك المخاطبين، وفيه لطافة حيث أعرض- سبحانه- عن خطابهم بخصوصهم، وذكر أن جنس الإنسان مجبول على الكفران، فلما أعرضوا أعرض الله- تعالى- عنهم» .

وفي معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة. منها قوله- تعالى- فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ.

وقوله- سبحانه-: وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

قوله تعالى: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ} [الإسراء: ٦٨]، أي:" أغَفَلْتم - أيها الناس- عن عذاب الله، فأمنتم أن تنهار بكم الأرض خسفًا".

وفي قوله تعالى: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ} [الإسراء: ٦٨]، وجهان:

أحدهما: يريد بعض البر وهو موضع حلولهم منه، فسماه جانبه لأنه يصير بعد

=

=

الخسف جانباً.

**الثاني**: أنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر.

قوله تعالى: {أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [الإسراء: ٦٨]، أي:" أو يُمْطركم الله بحجارة من السماء فتقتلكم".

قال النحاس:" أي: رجما من فوقكم".

وفي قوله تعالى: {أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [الإسراء: ٦٨]، وجهان:

أحدهما: يعني حجارة من السماء، قاله قتادة.

قال ابن جريج:" مطر الحجارة إذا خرجتم من البحر".

**الثاني**: إن «الحاصب»: الريح العاصف، سميت بذلك لأنها تحصب، أي: ترمي بالحصباء، و «القاصف» الريح التي تقصف الشجر فتكسره، قاله الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والسجستاني، قال الفرزدق:

**مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا بِحاصِبٍ كنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ**

أي: بصقيع.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا} [الإسراء: ٦٨]، أي:" ثم لا تجدوا أحدًا يحفظكم مِن عذابه؟ ".

قال الطبري" يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقوم بالمدافعة عنكم من عذابه وما يمنعكم منه".

قال قتادة:" أي: منعة ولا ناصرا". وفي رواية:" منيعا ولا نصيرا".

قال ابن كثير:" أي: ناصرًا يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه".

ثم بين- سبحانه- أن قدرته لا يعجزها شيء، لا في البحر ولا في البر ولا في غيرهما فقال: (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً، ثُمَّ لا

=

=
تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا) والهمزة في قوله أَفَأَمِنْتُمْ للاستفهام الإنكارى، والفاء عاطفة على محذوف، والتقدير: أنجوتم فأمنتم.

وقوله يَخْسِفَ من الخسف وهو انهيار الأرض بالشيء، وتغييبه في باطنها وجانِبَ الْبَرِّ ناحية أرض، وسماه- سبحانه- جانبا، لأن البحر يمثل جانبا من الأرض، والبر يمثل جانبا آخر.

قال ابن الجوزي: حاصبا فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الحاصب: حجارة من السماء، قاله قتادة. والثاني أنه الريح العاصف تحصب، قاله أبو عبيدة، وأنشد للفرزدق:

مستقبلين شمال الريح تضربهم ... بحاصب كنديف القطن منثور

وقال ابن قتيبة: الحاصب: الريح، سميت بذلك لأنها تحصب، أي: ترمي بالحصباء، وهي الحصى الصغار. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الحاصب الريح التي فيها الحصى. وإنما قال في الريح: حاصبا ولم يقل: «حاصبة» لأنه وصف لزم الريح ولم يكن لها مذكر تنتقل إليه في حال، فكان بمنزلة قولهم: «حائض» للمرأة، حين لم يقل: رجل حائض. قال: وفيه جواب آخر، وهو أن نعت الريح عري من علامة التأنيث، فأشبهت بذلك أسماء المذكر، كما قالوا: السماء أمطر، والأرض أنبت. والثالث: أن الحاصب: التراب الذي فيه حصباء، قاله الزجاج ا.هـ

والحاصب: الريح الشديدة، التي ترمى بالحصباء، وهي الحجارة الصغيرة. يقال. حصب فلان فلانا، إذا رماه بالحصباء.

والمعنى: أنجوتم من الغرق- أيها الناس- ففرحتم وأمنتم ونسيتم أن الله- تعالى- إذا كان قد أنجاكم من الغرق، فهو قادر على أن يخسف بكم جانب الأرض، وقادر كذلك على أن يرسل عليكم ريحا شديدة ترميكم بالحصباء التي تهلككم ثم
=

=

لا تجدوا لكم وكيلا تكلون إليه أموركم، ونصيرا ينصركم ويحفظكم من عذاب الله- تعالى-.

إن كنتم قد أمنتم عذاب الله بعد نجاتكم من الغرق، فأنتم جاهلون، لأن قدرة الله- تعالى- لا يعجزها أن تأخذكم أخذ عزيز مقتدر سواء كنتم في البحر أم في البر أم في غيرهما، إذ جميع جوانب هذا الكون في قبضة الله- تعالى- وتحت سيطرته.

قال الزمخشري: فإن قلت فما معنى ذكر الجانب؟ قلت: معناه، أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف، لأنه تغييب تحت التراب، كما أن الغرق تغييب تحت الماء فالبر والبحر عنده سيان، يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان».

قوله تعالى: {أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى} [الإسراء: ٦٩]، أي:" أم أمنتم -أيها الناس- ربكم، وقد كفرتم به أن يعيدكم في البحر مرة أخرى".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: {أَمْ أَمِنْتُمْ} أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر {أَنْ يُعِيدَكُمْ} في البحر مرة ثانية".

قال أبو عبيدة:" {تارَةً أُخْرى}: مرّة أخرى والجميع تارات وتير".

قوله تعالى: {فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ} [الإسراء: ٦٩]، أي:" فيرسل عليكم ريحًا شديدة، تكسِّر كل ما أتت عليه".

قال ابن كثير:" أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب ".

قال أبو عبيدة:" أي: تقصف كل شئ أي تحطم، يقال: بعث الله عليهم ريحا عاصفا قاصفا لم تبق لهم ثاغية ولا راغية".

=

=

قال يحيى بن سلام:" «القاصف»: الريح الشديدة".

قوله تعالى: {فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ} [الإسراء: ٦٩]، أي:" فيغرقكم بسبب كفركم".

قال ابن كثير:" أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} [الإسراء: ٦٩]، أي:" ثم لا تجدوا لكم علينا أي تبعة ومطالبة؛ فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة".

قال أبو عبيدة:" أي: من يتبعنا لكم تبيعة ولا طالبا لنا بها".

قال ابن قتيبة:" أي: من يتبعنا بدمائكم، أي يطالبنا".

قال يحيى بن سلام:" لا تجدوا أحدا يتبعنا بذلك لكم، فينتصر لكم، وهو كقوله: {فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} [الشمس: ١٤]، سوى عليها بالعذاب {ولا يخاف عقباها} [الشمس: ١٥] التبعة، فينتصر لهم".

عن ابن عباس، قوله:" {ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}، يقول نصيرا".

قال مجاهد:" ثائرا".

قال قتادة:" أي: لا نخاف أن نتبع بشيء من ذلك".

ثم ساق- سبحانه- مثالا آخر للدلالة على شمول قدرته، فقال- تعالى-: أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ، فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً.

وأَمْ هنا يجوز أن تكون متصلة بمعنى: أى الأمرين حاصل. ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى: بل.

والقاصف من الريح: هو الريح العاتية الشديدة التي تقصف وتحطم كل ما مرت به من أشجار وغيرها. يقال: قصف فلان الشيء، إذا كسره.

والتبيع: فعيل بمعنى فاعل، وهو المطالب غيره بحق سواء أكان هذا الحق دينا أم

=

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠).

=

ثأرا أم غيرهما، مع مداومته على هذا الطلب.

والمعنى: بل أأمنتم- أيها الناس- أَنْ يُعِيدَكُمْ الله- تعالى- فِيهِ أى: في البحر، لسبب من الأسباب التي تحملكم على العودة إليه مرة أخرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ- سبحانه- وأنتم في البحر قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ العاتية الشديدة التي تحطم سفنكم فَيُغْرِقَكُمْ بسبب كفركم وجحودكم لنعمه، ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً أى: إننا من السهل علينا أن نفعل معكم ذلك وأكثر منه، ثم لا تجدوا لكم أحدا ينصركم علينا، أو يطالبنا بحق لكم علينا، فنحن لا نسأل عما نفعل، وأنتم المسئولون.

فالاستفهام هنا- أيضا- للإنكار والتوبيخ.

وقال- سبحانه- أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ ولم يقل أن يعيدكم إليه، للإشعار باستقرارهم فيه، وأنه- تعالى- لا يعجزه أن يفعل ذلك.

والتعبير بقوله قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فيه من الترهيب والإنذار ما فيه لأن لفظ القصف يدل بمعناه اللغوي على التحطيم والتكسير.

وقال- سبحانه- بِما كَفَرْتُمْ لبيان أن الله- تعالى- ما ظلمهم بإهلاكهم، وإنما هم الذين عرضوا أنفسهم لذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن طاعته- سبحانه-.

والضمير في بِهِ يعود إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ أى: لا تجدون تبيعا يتبعنا بثأركم بسبب ذلك الإغراق الذي أوقعناه بكم.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من نعم الله- تعالى- على الناس، وحذرتهم من جحود هذه النعم، حتى لا يتعرضوا لعذاب الله، الذي قد ينزل بهم وهم في البحر أو في البر أو في غيرهما.

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا} فَضَّلْنَا {بَنِي آدَم} بِالْعِلْمِ وَالنُّطْق وَاعْتِدَال الْخَلْق وَغَيْر ذَلِكَ وَمِنْهُ طَهَارَتهمْ بَعْد الْمَوْت {وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرّ} عَلَى الدَّوَابّ {وَالْبَحْر} على السفن {ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كَثِير مِمَّنْ خَلَقْنَا} كَالْبَهَائِمِ وَالْوُحُوش {تَفْضِيلًا} فَمَنْ بِمَعْنَى مَا أَوْ عَلَى بَابهَا وَتَشْمَل الْمَلَائِكَة وَالْمُرَاد تَفْضِيل الْجِنْس وَلَا يَلْزَم تَفْضِيل أَفْرَاده إذْ هُمْ أَفْضَل مِنْ الْبَشَر غَيْر الْأَنْبِيَاء.

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١).

اذكر {يوم ندعوا كل أناس بِإِمَامِهِمْ} نَبِيّهمْ فَيُقَال يَا أُمَّة فُلَان أَوْ بِكِتَابِ أَعْمَالهمْ فَيُقَال يَا صَاحِب الشَّرّ وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة {فَمَنْ أُوتِيَ} مِنْهُمْ {كِتَابه بِيَمِينِهِ} وهم السعداء أولو البصائر في الدنيا {فأولئك يقرؤون كتابهم وَلَا يُظْلَمُونَ} يُنْقَصُونَ مِنْ أَعْمَالهمْ {فَتِيلًا} قَدْر قِشْرَة النواة.

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢).

{وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ} أَيْ الدُّنْيَا {أَعْمَى} عَنْ الْحَقّ {فَهُوَ فِي الْآخِرَة أَعْمَى} عَنْ طَرِيق النَّجَاة وَقِرَاءَة الْقُرْآن {وَأَضَلّ سَبِيلًا} أَبْعَد طَرِيقًا عَنْهُ وَنَزَلَ فِي ثَقِيف وَقَدْ سَأَلُوهُ ﷺ أَنْ يُحَرِّم وَادِيَهُمْ وألحوا عليه[1].

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء: ٧٠]، أي:" لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل، والعلم، والنطق، وتسخير جميع ما في الكون لهم".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم".

قال ابن أبي زمنين:" أي: فضلنا بني آدم على البهائم والسباع والهوام".

قال أبو عبيدة:" أي: أكرمنا، إلا أنها أشدّ مبالغة فى الكرامة".

=

=

قال الجصاص:" قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}، أطلق ذلك على الجنس وفيهم الكافر المهان على وجهين:

أحدهما: أنه كرمهم بالإنعام عليهم وعاملهم معاملة المكرم بالنعمة على وجه المبالغة في الصفة.

والوجه الآخر: أنه لما كان فيهم من على هذا المعنى أجرى الصفة على جماعتهم كقوله: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} [آل عمران: ١١٠] لما كان فيهم من هو كذلك أجرى الصفة على الجماعة".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء: ٧٠]، وجوه:

**أحدها**: يعني: كرمناهم بإنعامنا عليهم.

**الثاني**: كرمناهم بأن جعلنا لهم عقولاً وتمييزاً.

حكي الثعلبي عن ابن عباس، قال: بالعقل".

**الثالث**: بأن جعلنا منهم خير أمة أخرجت للناس.

**الرابع**: بأن جعلناهم يأكلون بأيديهم وسائر الخلق يأكلون بأفواههم. قاله ابن عباس، وابن جريج، والكلبي، ومقاتل.

قال ابن جريج:" في اليدين يأكل بهما، ويعمل بهما، وما سوى الإنس يأكل بغير ذلك".

الخامس: كرمناهم بالأمر والنهي.

السادس: كرمناهم بالكلام والخط.

السابع: كرمناهم بالنطق وثم التمييز. قاله الضحاك.

الثامن: كرمناهم بأن سخّرنا جميع الخلق لهم.

التاسع: بتعديل العامة وامتدادها. قاله عطاء.

العاشر: بحسن الصورة. قاله يمان.

=

=

الحادي عشر: بأن جعل محمد--ﷺ- منهم. قاله محمد بن كعب.
الثاني عشر: وقيل: الرجال باللحي والنساء بالذواب.
قال الزجاج:" فضلهم بالتمييز، وبأن سخر لهم ما في السماوات والأرض وبحملهم في البر والبحر".
**وقال الطبري:**" بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم".
قال ابن قتيبة:" أي: شرفناهم وفضلناهم، [و] «الكريم»: الشريف الفاضل، قال الله تعالى: إن أكرمكم عند الله أتقاكم [الحجرات: ١٣]، أي: أفضلكم".
والظاهر أن تكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كما قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤] أي: يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه - وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه - وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية.
قال ابن زيد:" قالت الملائكة: يا ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها، ويتنعَّمون، ولم تعطنا ذلك، فأعطناه في الآخرة، فقال: وعزّتي لا أجعل ذرّية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان".
وروي متصلا عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: "إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن، فكان".
قوله تعالى: {وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الإسراء: ٧٠]، أي:" وحملناهم على ظهور الدواب والسفن".

=

=

**قال الطبري:**" {فِي الْبَرِّ} على ظهور الدوابّ والمراكب {و} في {البَحْرِ} في الفلك التي سخرناها لهم".

قال ابن كثير:" أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي "البحر" أيضًا على السفن الكبار والصغار".

قوله تعالى: {وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [الإسراء: ٧٠]، أي:" ورزقناهم من طيبات المطاعم والمشارب".

**قال الطبري:**" يقول: من طيبات المطاعم والمشارب، وهي حلالها ولذيذاتها".

قال ابن أبي زمنين:" يعني: طيبات الطعام والشراب؛ فجعل رزقهم أطيب من رزق الدواب والطير والجن".

قال ابن كثير:" أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ".

قوله تعالى: {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠]، أي:" وفضَّلناهم على كثير من المخلوقات تفضيلا عظيمًا".

قال ابن كثير:" أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات".

قال مقاتل:" يعني: بالتفضيل أكلهم بأيديهم".

**قال الطبري:**" ذكر لنا أن ذلك تمكنهم من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير متيسر لغيرهم من الخلق".

عن ابن جريج، قوله:" {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} .... الآية، قال {وَفَضَّلْنَاهُمْ} في اليدين يأكل بهما، ويعمل بهما، وما سوى الإنس يأكل بغير ذلك".

* قوله (ولقد كرمنا) هذا إجمال لذكر النعمة التي أنعم الله على (بني آدم) أي

=

=

كرمناهم جميعـاً وهـذه الكرامـة يـدخل تحتهـا خلقهـم علـى هـذه الهيئـة الحسنة المعتدلـة والطهـارة بعـد المـوت وتخصيـصهم بمـا خـصهم بـه مـن المطـاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله.

وحكى ابـن جريـر عـن جماعـة أن هـذا التكـريم هـو أنهـم يـأكلون بأيـديهم وسـائر الحيوانات تأكل بالفم وكذا حكاه النحاس، وقيل ميَّزهم بـالنطق والعقـل والتمييـز وقيـل باعتـدال القامـة وامتـدادها، وقيـل بحـسن التقـويم والتـصوير، وقيـل أكـرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب.

وقال ابن جرير: أكرمهم بتسليطهم على سـائر الخلـق وتـسخير سـائر الخلـق لهـم وقيل بالكلام والخط والفهم وقيل بحسن تدبيرهم في أمر المعـاش والمعـاد وقيـل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس.

ولا مانع من حمل التكريم على جميع هذه الأشياء وأعظم خصال التكـريم العقـل فإنه به تـسلطوا علـى جميـع الحيوانـات وميـزوا بـين الحـسن والقبـيح وتوسـعوا في المطاعم والمشارب وكسبوا الأموال التـي تـسببوا بهـا إلـى تحـصيل أمـور لا يقـدر عليها سائر الحيوان، وبه قـدروا علـى تحـصيل الأبنيـة التـي تمـنعهم ممـا يخـافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحر والبرد.

(وحملناهـم) هذا تخصيص وتأكيد لبعض أنواع التكريم حملهم سبحانه (في الـبر) على الدواب كالإبل والخيل والبغال والحمير (و) في (البحر) علـى الـسفن، وقيـل حملناهم فيهما حيث لم تخسف بهم ولم نغرقهم والمعنى جعلنـاهم قـارين فيهمـا بواسـطة أو دونهـا كمـا في الـسباحة في المـاء (ورزقنـاهم مـن الطيبـات) أي لذيـذ المطاعم والشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به.

وقيل المراد الزبد والتمر والحلوى وجعـل رزق غيـرهم ممـا لا يخفـى، وقيـل إن جميع الأغذية إما نباتية كالثمار والحبـوب وإمـا حيوانيـة كـاللحم والـسمن واللـبن

=

=

ولا يتغذى الإنسان إلا بأطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الإنسان.

(وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) والأقرب في الفرق بين التكريم والتفضيل أن يقال إن الله كرم الإنسان على سائر الحيوان بأمور خلقية طبعية ذاتية مثل العقل ثم عرفه بواسطته اكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل.

أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك إن بني آدم فضلهم الله سبحانه على كثير من مخلوقاته لا على الكل، والتأكيد بقوله (تفضيلاً) يدل على عظم هذا التفضيل وأنه بمكان مكين فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه.

قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الإسراء: ٧١]، أي:" اذكر -أيها الرسول- يوم البعث مبشرًا ومخوفًا، حين يدعو الله ﷻ كل جماعة من الناس مع إمامهم الذي كانوا يقتدون به في الدنيا".

وفي قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الإسراء: ٧١]، أقوال:

**أحدها**: بنبيِّهم، قاله مجاهد، وقتادة، وأنس.

قال ابن كثير:" قال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ".

**الثاني**: بكتابهم الذي أنزل عليهم، فيه أوامر الله ونواهيه، قاله مجاهد، وابن زيد.

قال ابن زيد:" بكتابهم الذي أنزل عليهم فيه أمر الله ونهيه وفرائضه، والذي عليه يحاسبون، وقرأ: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}، قال: الشرعة: الدين، والمنهاج: السنة، وقرأ {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} قال: فنوح أوّلهم، وأنت آخرهم".

=

=

**الثالث**: بكتب أعمالهم التي عملوها في الدنيا من خير وشر، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك، وأبو العالية، واختاره ابن كثير.

قال ابن عباس:" «الإمام»: ما عمل وأملى، فكتب عليه، فمن بعث متقيا لله جَعَل كتابه بيمينه، فقرأه واستبشر، ولم يظلم فتيلا وهو مثل قوله (وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ) والإمام: ما أملى وعمل".

قال الحسن:" بكتابهم الذي فيه أعمالهم".

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ في قوله:" {يوم ندعوا كل أناس بإمامهم}، قال: يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعا ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاجا من نور يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول: أبشروا، لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستين ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا من نار فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا اللهم لا تأتنا بهذا قال: فيأتيهم فيقولون: ربنا أخره فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا» ".

قال ابن كثير: ويدل عليه:"قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس: ١٢]. وقال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهدا عليها بأعمالها، كما قال: {وَأَشْرَقَتِ الأرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ

=

=
وَالشُّهَدَاءِ} [الزمر: ٦٩]، وقال {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١].. ولكن المراد هاهنا بالإمام هو كتاب الأعمال".

**الرابع**: بدينهم الذي ائتموا به. قاله الزجاج. وهو اشبه بالقول السابق.

الخامس: المراد به الأمهات، أي: ندعو كل إنسان بأمه، فيقال: يا فلان ابن فلانة.

قال الزمخشري:" ومن بدع التفاسير: أن «الإمام» جمع «أم»، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الاباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته؟ ".

السادس: أي: بالذي اقتدوا به وجعلوه إماما. قاله أبو عبيدة.

وقال ابن عباس:" "إمام هدى وإمام ضلالة".

وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: "معنى ذلك: يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمُّون به في الدنيا، لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما ائتمّ واقتدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها".

قوله تعالى: {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ} [الإسراء: ٧١]، أي:" فمن كان منهم صالحًا، وأُعطي كتاب أعماله بيمينه، فهؤلاء يقرؤون كتاب حسناتهم فرحين مستبشرين".

قال ابن كثير:" أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ} إلى أن قال: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ} [الحاقة: ١٩ - ٢٦] ".

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم؟ كأن
=

=

أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم.

قلت: بلى، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته، والاعتراف بمساويه، أما التنكيل به والانتقام منه، من الحياء والخجل والانخزال، وحبسة اللسان، والتتعتع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكأن قراءتهم كلا قراءة. وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ١٩] ".

قوله تعالى: {وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [الإسراء: ٧١]، أي:" ولا يُنْقَصون من ثواب أعمالهم الصالحة شيئًا، وإن كان مقدارَ الخيط الذي يكون في شَقِّ النواة".

قال الزجاج:" ولا يظلمون مقدار فتيل".

قال الواحدي:" يريد لا ينقصون من ثواب أعمالهم مثل فتيل النواة".

قال ابن كثير:" «الفتيل» هو الخيط المستطيل في شق النواة ".

قال الزمخشري:" ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء، {وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا} [مريم: ٦٠]، {فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه: ١١٢] ".

وفي معنى «الفتيل»، قولان:

أحدهما: أي: الفتيل الذي شق النواة، وهو قول عطاء، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، وعطية العوفي، وخصيف، وأبو عبيدة، والحسن، ومقاتل، وابن قتيبة، والزجاج، وأحد قولي ابن عباس. ومنه قول نابغة الذبياني:

**يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثمّ لا يرزأ العدوّ فتيلا**

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله:" {فتيلا}، قال: الذي في بطن النواة".

عن عطاء، قال: "الفتيل، الذي في بطن النواة".

=

=

قال مجاهد:" الفتيل، الذي في شِقّ النواة".

قال مجاهد:" الفتيل، في النَّوى".

قال ابن زيد: "الفتيل، الذي في بطن النواة".

**الثاني**: أنه ما انفتل بين الأصابع من الوسخ، وهذا قول السدي، وأبي مالك، وأحد قولي ابن عباس.

قال أبن عباس:" والفتيل، هو أن تدلُك إصبعيك، فما خرج بينهما فهو ذلك".

عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: "الفتيل ما خرج من بين إصبعيك".

عن التيمي قال: سألت ابن عباس عن قوله:" {ولا يظلمون فتيلا}، قال: ما فتلت بين إصبعيك".

عن أبي العالية، عن ابن عباس:" {ولا يظلمون فتيلا}، قال: الفتيل، هو الذي يخرج من بين إصبعي الرجل".

عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله:" {ولا يظلمون فتيلا}، قال: ما تدلكه في يديك فيخرج بينهما".

عن أبي مالك في قوله:" {ولا يظلمون فتيلا}، قال: الفتيل: الوَسخ الذي يخرج من بين الكفين".

عن السدي، قال: "الفتيل، ما فتلت به يديك، فخرج وَسَخ".

* (يوم) أي أذكر يوم (ندعو كل أناس بإمامهم) قال الزجاج: يعني يوم القيامة وقرئ يدعو بالتحتية، ويدعى على المجهول، والأناس فعال بضم الفاء ويجوز حذف الهمزة تخففاً على غير قياس فيبقى ناس ووزنه عال والباء للإلصاق كما تقول أدعوك باسمك.

ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال والتقدير ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم أي يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب الأمير بجنوده والأول أولى، والإمام

=

=

في اللغة كل ما يؤتم به من نبي أو مقدم في الدين أو الكتاب.

وقد اختلف المفسرون كما تقدم في تعيين الإمام الذي يدعى كل أناس به فقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: أنه كتاب كل إنسان الذي فيه عمله أي يدعى كل إنسان بكتاب عمله، ويؤيد هذا قوله (فأما من أوتي كتابه) الآية.

وقال ابن زيد: الإمام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة وأهل الإنجيل بالإنجيل وأهل القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل يا أهل القرآن.

وقال مجاهد وقتادة: إمامهم نبيهم. وعن أنس مثله فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد ﷺ وعليهم وبه قال الزجاج، وروي عن أبي هريرة مرفوعاً أيضاً فلينظر في سنده.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بالإمام إمام عصرهم فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه. وقال الحسن وأبو هريرة وأبو العالية: المراد بإمامهم أعمالهم؛ فيقال مثلاً: أين المجاهدون أين الصابرون أين الصائمون أين المصلون ونحو ذلك.

وقال أبو عبيدة: المراد إمامهم صاحب مذهبهم، فيقال مثلاً: أين التابعون للعالم فلان بن فلان، وهذا من البعد بمكان، وأبعد منه ما قال محمد ابن كعب: بإمامهم بأمهاتهم، على أن إماماً جمع أم كخف وخفاف.

وأيضًا في هذا القول نظر فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة رفع لكل غادر لواء، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان " أخرجه البخاري ومسلم. وهذا دليل على أن الناس يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم، ويرد على من قال إنما يدعون بأسماء آبائهم وبأسماء أمهاتهم لأن في ذلك ستراً على آبائهم، ولذا قال الزمخشري: ومن بدع

=

=
التفاسير أن الإمام جمع أم وأنهم يدعون بأمهاتهم دون آبائهم، وأن الحكمة فيه رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا يفتضح أولاد الزنا.

قال القرطبي: قيل بمذاهبهم فيدعون بما كانوا يأتمون به في الدنيا ويقلدونه، فيقال يا حنفي، يا شافعي، يا معتزلي، يا قدري، ونحو ذلك. وهذا كالأول بل أبعد منه، وقيل كل خلق حسن يظهر من الإنسان كالعلم والكرم والشجاعة أو قبيح كأضدادها، فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام، ذكره الرازي في تفسيره. وعن ابن عباس قال: بإمامهم إمام هدى وإمام ضلالة، وعنه أيضاً بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وقيل بمعبودهم. وأخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية أنه قال " يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعاً ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستين ذراعاً على صورة آدم ويلبس تاجاً من نار فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا. قال فيأتيهم فيقولون اللهم أخره، فيقول أبعدكم الله فإن لكلا رجل منكم مثل هذا " قال البزار بعد إخراجه لا يروى إلا من هذا الوجه، قلت وهو حديث ضعيف لا يثبت.

(فمن أوتي كتابه بيمينه) من أولئك المدعوين وهم السعداء أولو البصائر وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير (فأولئك) إشارة إلى من باعتبار معناه. قيل وجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد (يقرأون كتابهم) الذي أوتوه (ولا يظلمون فتيلاً) أي لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل وهو
=

=

القشرة التي في شق النواة أو هو عبارة عن أقل شيء، وفي النواة أمور ثلاثة: فتيل وهو الخيط الذي في الحز الكائن فيها طولاً، والقطمير وهو قشرة النواة، والنقير وهو الخيط الذي في النقرة التي في ظهرها.

قوله تعالى: {وَمَنْ كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى} [الإسراء: ٧٢]، أي:" ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب عن دلائل قدرة الله فلم يؤمن بما جاء به الرسول محمد ﷺ، فهو في يوم القيامة أشدُّ عمى عن سلوك طريق الجنة".

قال الزجاج:" وهذا من عمى القلب، أي: هو في الآخرة أشد عمى. وتأويله: أنه إذا عمي في الدنيا، وقد عرفه - جل وعلا - وجعل له إلى التوبة وصلة، وفسح له في ذلك إلى وقت مماته، فعمي عن رشده ولم يتب ففي الآخرة لا يجد متابا ولا متخلصا مما هو فيه، فهو في الآخرة أشد عمى".

قال الزمخشري:" الأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدى إلى طريق النجاة: أما في الدنيا فلفقد النظر. وأما في الآخرة، فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه".

**قال الطبري**:" فإنما عُنِي به عمى، قلوب الكفار، عن حجج الله التي قد عاينتها أبصارهم، فلذلك جاز ذلك وحسُن".

عن مجاهد:" {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى} قال: أعمى عن حجته في الآخرة".

وفي المشار إليه في قوله تعالى: {هَذِهِ} [الإسراء: ٧٢]، قولان:

القول الأول: أنها «الدنيا»، قاله مجاهد. ثم في معنى الكلام خمسة وجوه:

**أحدها**: من كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خلق الأشياء، فهو عما وصف له في الآخرة أعمى. وهذا قول ابن عباس.

قال ابن عباس:" ومن كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا فهو عما وصفت له في

=

=

الآخرة ولم يره أعمى وأضل سبيلا يقول: أبعد حجة".

وعن السُّدِّيّ: " {أعمى}، يعني: أعمى القلب، فلا تعرف ربَّها فتوحده، فهو عن ما في الآخرة -يعني: فهو عن ما ذَكَرَ الله من أمر الآخرة- أعمى وأضلُّ سبيلًا".

**الثاني**: من كان في الدنيا أعمى بالكفر، فهو في الآخرة أعمى، لأنه في الدنيا تقبل توبته، وفي الآخرة لا تقبل، قاله الحسن.

قال الحسن:" مَن كان في هذه الدنيا ضالًّا كافرًا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا؛ لأنه في الدنيا تقبل توبته، وفي الآخرة لا تقبل توبته".

**الثالث**: عن الحسن-أيضا-، قال:" {من كان في هذه الدنيا أعمى}: الكافر عمي عن الهدى، {فهو في الآخرة أعمى} في الحجة، أي: ليست له حجة، كقوله: {قال رب لم حشرتني أعمى} [طه: ١٢٥] عن حجتي".

**الرابع**: من عمي عن آيات الله في الدنيا، فهو عن الذي غيب عنه من أمور الآخرة أشد عمى. وهذا معنى قول قتادة، وابن زيد. وحكاه ابن الجوزي.

عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- في الآيةِ، قال: "مَن عَمِيَ عمّا يراه من الشمسِ والقمرِ، والليلِ والنهارِ، وما يرى من الآيات، ولم يُصدِّقْ بها؛ فهو عمّا غاب عنه من آياتِ اللهِ أعمى وأضلُّ سبيلًا".

قال ابن زيد، وسئل عن قول الله تعالى " {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا}، فقرأ {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ} {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ} وقرأ {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} وقرأ حتى بلغ {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} قال: كلّ له

مطيعون، إلا ابن آدم. قال: فمن كانت في هذه الآيات التي يعرف أنها منا، ويشهد عليها وهو يرى قدرتنا ونعمتنا أعمى، فهو في الآخرة التي لم يرها أعمى وأضلّ

=

=

سبيلا".

الخامس: من كان فيها أعمى عن الحجة، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة، قاله أبو بكر الوراق.

القول الثاني: أنها «النعم». ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال:

**أحدها**: من كان أعمى عن النعم التي ترى وتشاهد، فهو في الآخرة التي لم تر أعمى، رواه عكرمة عن ابن عباس.

وقال قتادة:" من كان في هذه الدنيا أعمى عما عاين فيها من نعم الله وخلقه وعجائبه {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا} فيما يغيب عنه من أمر الآخرة وأعمى".

**والثاني**: من عمي عن نعم الله التي بينها في قوله تعالى: {ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر} إلى قوله: {تفضيلا}، فمن كان أعمى عن هذا النعيم الذي قد رأى وعاين، فهو في أمر الآخرة التي لم تر ولم تعاين أعمى وأضل سبيلا. قاله ابن عباس.

عن عكرمة، قال: "جاء نفر من اهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل: أرأيت قوله تعالى: {ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى}، فقال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: لم تصب المسألة اقرأ ما قبلها: {ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر} حتى بلغ: {وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا}، فقال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: فمن كان أعمى عن هذا النعيم الذي قد رأى وعاين فهو في أمر الآخرة التي لم تر ولم تعاين أعمى وأضل سبيلا".

وقال محمد بن أبي موسى:" من عمي عن شكر هذه النعم في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيل".

وقال ابن الانباري:" فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه".

=

=

الثالث-وهو قول السدي-:"من كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النعم المذكورة في قوله تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم} ولم يؤد شكرها، فهو فيما بينه وبين الله مما يتقرب به إليه أعمى وأضل سبيلا".

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: "معنى ذلك: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله على أنه المنفرد بخلقها وتدبيرها، وتصريف ما فيها، فهو في أمر الآخرة التي لم يرها ولم يعاينها، وفيما هو كائن فيها أعمى وأضلّ سبيلا يقول: وأضلّ طريقا منه في أمر الدنيا التي قد عاينها ورآها.

وإنما قلنا: ذلك أولى تأويلاته بالصواب، لأن الله تعالى ذكره لم يخصص في قوله (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ) الدنيا {أَعْمَى} عمى الكافر به عن بعض حججه عليه فيها دون بعض، فيوجه ذلك إلى عماه عن نعمه بما أنعم به عليه من تكريمه بني آدم، وحمله إياهم في البرّ والبحر، وما عدد في الآية التي ذكر فيها نعمه عليهم، بل عمّ بالخبر عن عماه في الدنيا، فهم كما عمّ تعالى ذكره".

قوله تعالى: {وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [الإسراء: ٧٢]، أي:" وأضل طريقًا عن الهداية والرشاد".

قال الزجاج:" أي: وأضل طريقا، لأنه لا يجد طريقا إلى الهداية فقد حصل على عمله".

قال السمعاني:" أي: أخطأ طريقا".

قوله (ومن كان في هذه أعمى).

قال ابن الجوزي: وفي المشار إليها ب هذه قولان: أحدهما: أنها الدنيا، قاله مجاهد. ثم في معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: من كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خلق الأشياء، فهو عما وصف له في الآخرة أعمى، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: من كان في الدنيا أعمى بالكفر، فهو في الآخرة

=

=

أعمى، لأنه في الدنيا تقبل توبته، وفي الآخرة لا تقبل، قاله الحسن. والثالث: من عمي عن آيات الله في الدنيا، فهو عن الذي غيب عنه من أمور الآخرة أشد عمى. والرابع: من عمي عن نعم الله التي بينها في قوله تعالى: ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر إلى قوله: تفضيلا فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه، ذكرهما ابن الأنباري. والخامس: من كان فيها أعمى عن الحجة، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة، قاله أبو بكر الوراق. والثاني: أنها النعم. ثم في الكلام قولان:

أحدهما: من كان أعمى عن النعم التي ترى وتشاهد، فهو في الآخرة التي لم تر أعمى، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: من كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النعم المذكورة في قوله تعالى: ولقد كرمنا بني آدم ولم يؤد شكرها، فهو فيما بينه وبين الله مما يتقرب به إليه أعمى وأضل سبيلا، قاله السدي. قال أبو علي الفارسي: ومعنى قوله: في الآخرة أعمى أي: أشد عمى، لأنه كان في الدنيا يمكنه الخروج عن عماه بالاستدلال، ولا سبيل له في الآخرة إلى الخروج من عماه ا.هـ

قال الطبري رحمه الله: وأولى الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله على أنه المنفرد بخلقها وتدبيرها، وتصريف ما فيها، فهو في أمر الآخرة التي لم يرها، ولم يعاينها، وفيما هو كائن فيها أعمى وأضل سبيلا. يقول: وأضل منه في أمر الدنيا التي عاينها ورآها ا.هـ

ولم يذكر أصحاب الشمالي تصريحاً ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال:

(ومن كان) من المدعوين (في هذه) الدنيا (أعمى) أي فاقد البصيرة وهو الذي يعطي كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق المقابل له، ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع أنه الذي يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع في سورة الحاقة وسورة الانشقاق للإيذان بالعلة الموجبة له كما في قوله تعالى (وأما

=

=

إن كان من المكذبين الضالين) الخ بعد قوله (وأما إن كان من أصحاب اليمين) وللرمز إلى علة حال الفريق الأول، وقد ذكر في أحد الجانبين المسبب وفي الآخر السبب، ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر تعويلاً على شهادة العقل كما في قوله (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) ذكره أبو السعود. قال النيسابوري: لا خلاف أن المراد بهذا العمى، عمى القلب لا عمى البصر.

وأما قوله (فهو في الآخرة) التي لم تعاين ولم تر (أعمى) فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) وفي هذه زيادة العقوبة، ويحتمل أن يراد عمى القلب، وقيل المراد بالآخرة عمل الآخرة فهو في عمل الآخرة أو في أمرها أعمى؛ وقيل المراد من عمى عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى.

وقيل من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى.

وقيل من كان في الدنيا عن حجج الله أعمى فهو في الآخرة أعمى، وقد قيل أن قوله فهو في الآخرة أعمى أفعل تفضيل أي أشد عمى، وهذا مبني على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك في عمى العين.

قال الخليلي وسيبويه: لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه.

وقال الأخفش: لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من ثلاثة أحرف، وقد حكى الفراء عن بعض العرب إنه سمعه يقول ما أسود شعره والبحث مستوفى في النجو (وأضل سبيلاً) من الأعمى لكونه لا يجد طريقاً إلى الهداية بخلاف الأعمى فإنه قد يهتدي في بعض الأحوال.

=

=

قال ابن عباس: من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه ذلك فهو عما وصفت له في الآخرة ولم يره أعمى وأبعد حجة.

(تنبيه) من جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء عليهم السلام على الملائكة قوله تعالى في هذه الآية (....وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)، وكذا تمسك بها بعض المعتزلة على تفضيل الملائكة على الأنبياء.

وهذه مسألة كثر الكلام فيها في كتب المتأخرين من أهل العلم أخذاً ورداً، وطال طولاً أخرجها عن فائدتها وحدها، وخلاصة ما قيل فيها أن الناس فيها على مذاهب ثلاثة:

الأول: تفضيل الملائكة على البشر مطلقـاً، وإليه ذهبت المعتزلة، وبعض الأشعرية، وابن حزم، ومال إليه بعض أهل السنة، وبعض الصوفية، واستدلوا بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لها وجهها في الدلالة على قولهم، كقوله سبحانه في بني آدم: (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [الإسراء: ٧٠]. فقال على كثير ولم يقل على كل، ومن عساه أن يكون الخارج من هذا الكثير إلا الملائكة، وبقوله سبحانه: (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) [النساء: ١٧٢]. ومثل هذا دال لغة على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، وبقوله سبحانه: (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) [الأنعام: ٥٠]. والمعنى عندهم أني لا أدعي فوق منزلتي، وبقوله ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وهو نص في الأفضلية، وهي أدلة على ما ترى من الدلالة، إلا أن المخالفين ردوا على

=

=

الاستدلال بها ورد هؤلاء على ردودهم.

**الثاني**: تفضيل الأنبياء وصالحي البشر على الملائكة: وهو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة وكذا جمهور أصحاب الأشعري واستدلوا بأدلة ظاهرة الدلالة على قولهم، كقوله سبحانه: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)، والفاضل لا يسجد للمفضول، وقوله سبحانه: (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [الدخان: ٣٢]. وقوله: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) [آل عمران: ٣٣]. هذه في الأنبياء، أما في صالح البشر فكقوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) [البينة: ٧]. وهي أدلة في القوة على ما ترى، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها وعلى الرد رد، ورأى قوم أن الأدلة متكافئة فكان قول ثالث وهو التوقف والسكوت عن التفضيل. وإنا إن ذهبنا نتتبع الأدلة والردود ورد الردود لخرج بنا الموضوع عن حده وطال طولاً لا نستطيع الوقوف عند حد له. وهي مسألة - كما ذكرت - كثر فيها الاختلاف، وتشعبت فيها الاستدلالات، وتشابكت وعظم فيها الجدال حتى خرج بها بعضهم مخرج المنافرة والمفاخرة فأخذ يقول: منا الأنبياء ومنا الأولياء، فرد عليه بأن للملائكة أن تقول: أليس منكم فرعون وهامان؟ أليس منكم من ادعى الربوبية؟ وأساء بعضهم الأدب فقال: كان الملك خادماً للنبي ﷺ، أو أن بعض الملائكة خدموا بني آدم. وهذه المسألة قد قال فيها ابن تيمية في الفتاوى (٤/ ٣٥٤): المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك، وبعضهم على تفضيل البشر، وربما اشتبهت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره ا. هـ

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٥٤): أكثر ما توجد هذه المسألة في كتب

=

=

المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم. قال: أقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم) وذكر بقية الواقعة وفيها معارضة أحدهم بتفضيل الملائكة واستدلال كل ا. هـ

ولقد نزع جماعة من أهل العلم إلى أن هذه من فضول المسائل

قال البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٨٢). في التفاضل بين الملائكة والبشر: والأمر فيه سهل، وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به ا. هـ

وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٢٧٨): وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

وقال: وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول ا. هـ

ونقل عن تاج الدين الفزاري من كتاب له في تفضيل البشر على الملك ما نصه: اعلم أن هذه المسألة من بدع الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبير المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع عن الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه من ضعف واضطراب ا. هـ

ولم تكن المسألة عند السلف موضع نظر وأخذ ورد، ولم تكن لهم بها عناية فائقة بحيث ينصبونها موضوعاً للنظر والاستدلال، ولم يقع بينهم فيها كلام وخلاف، وقد رويت عن الصحابة أحاديث موقوفة ومرفوعة فيها ذكر لهذه المسألة في

=

=

بعضها تفضيل المؤمن على الملائكة، وبعضها تفضيل المؤمن على بعض الملائكة، وبعضها تفضيل بني آدم على الملائكة، ولكنها أحاديث إما ضعيفة أو موضوعة مثل حديث: ((المؤمن أكرم على الله ﷻ من بعض الملائكة). وحديث: (أن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فأجعل لنا الآخرة فقال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان). وحديث: (ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من بني آدم، قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر) وكلها ضعيف وموضوع.

لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٤/ ٣٦٩) بعد ذكر بعض هذه الأحاديث: وأقل ما في هذه الآثار أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم أن صالحي البشر أفضل من الملائكة من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء بأهلها، وتفرق الآراء، فقد كان ذلك المستقر عندهم ا. هـ.

وقال في الفتاوى أيضا (٤/ ٣٧١): قد كان السلف يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالح البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس ولو كان هذا منكراً لأنكروه فدل على اعتقادهم ذلك ا. هـ

وقد جاء عن الإمام أحمد كما في طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٩ و ٣٠٦) أنه كان يفضل صالحي المؤمنين على الملائكة، ويخطئ من يفضل الملائكة على بني آدم.

وقد فصل ابن تيمية في هذه المسألة تفصيلاً طويلاً، قرر فيه مذهب أهل السنة تفضيل صالح البشر على الملائكة كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٢).

=

=

ونقل عنه ابن القيم كما في بدائع الفوائد (٣/ ١٦٣): أنه سئل عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟

فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة) قال: (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه) ا. هـ. مباحث المفاضلة في العقيدة لمحمد بن عبدالرحمن الشظيفي (ص٣٥٤).

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٧/ ٢/ ١٠٣٥ - ١٠٣٩): تحت حديث رسول صلى الله عليه وآله وسلم: (ذاك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. يعني: أنّه خير البريّة).

قلت: وظاهر الحديث يدل على أمرين:

أحدهما: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خير الخلق مطلقاً بما فيهم الملائكة.

والآخر: أنه أفضل من نبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -.

وأجاب العلماء عن هذا بأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال ذلك تواضعاً وهضماً لنفسه، أو أنه قال ذلك قبل أن يوحى إليه بأن الله تعالى اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وأنه سيد الناس يوم القيامة، آدم فمن دونه تحت لوائه - صلى الله عليه وآله وسلم -، كما جاء في الأحاديث الصحيحة، وبهذا أجاب الطحاوي، فراجعه فإنه هام مفيد.

وأما الأمر الأول؛ فلم يتعرض له الطحاوي، فأرى - والله أعلم - أن قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «خير البرية» من حيث إنه لا يشمل الملائكة، كقوله تعالى في سورة (البينة): {[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} بعد

=

=

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}، وأن المراد بـ (خير البرية) و (شر البرية)؛ إنما هم غير الملائكة - كما يشعر بذلك السياق -؛ فإن الملائكة {لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون}. وقد ذكر القرطبي أنه قد استدل بقوله تعالى: {خير البرية} من فضل بني آدم على الملائكة، ثم أحال في بيان الخلاف في ذلك على سورة البقرة (١/ ٢٨٩)، وهناك ذكر الخلاف في المسألة بشيء من التفصيل، وذكر دليل من قال بذلك، والقائل بأن الملائكة أفضل، ومن ذلك قوله:

"وفي البخاري: "يقول الله تعالى: من ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم "، وهذا نص".

ثم قال: "وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى، وخبر رسوله، أو إجماع الأمة، وليس ههنا شيء من ذلك ".

ثم رأيت العلامة ابن أبي العز الحنفي قد توسع جدا في ذكر أدلة الفريقين ومناقشتها، وبيان ما لها وما عليها في "شرح العقيدة الطحاوية" (٣٠١ - ٣١١) - وتبعه الحافظ ابن حجر في "فتح الباري " (١٣/ ٣٨٤ - ٣٨٨) -؛ وذكر عن أبي حنيفة رحمه الله أنه لم يقطع فيها بجواب، وقال: "وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل؛ فإن هذا لو كان من الواجب لبين لنا نصاً.. وحملني على بسط الكلام هنا: أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: كان الملك خادماً للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -! أو أن بعض الملائكة خدام بني آدم!! يعنون: الملائكة الموكلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع المجانبة للأدب.. ". ثم شرع في البسط المذكور، وختمه بقوله: "وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل،

=

=
ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة في الجواب عنها كما تقدم. والله أعلم بالصواب ". قلت: ولقد كان التوقف المذكور هو الذي يقتضيه النظر والتأمل في أدلة الفريقين، وجواب كل منهما عن أدلة الآخر، لولا حديث البخاري الذي قال فيه القرطبي: إنه نص في المسألة كما تقدم؛ وقد حكاه الحافظ العسقلاني عن ابن بطال أيضًا، وإن كان الحافظ تكلف في رد دلالته وتأويله: "بأن الخيرية إنما حصلت بالذاكر والملأ معًا؛ فالجانب الذي فيه رب العزة خير من الجانب الذي ليس هو فيه بلا ارتياب، فالخيرية حصلت بالنسبة للمجموع على المجموع ".

وفي "الترغيب والترهيب " حديث من رواية البزار وابن حبان في "صحيحه " هو نص في الموضوع وأقوى؛ لأنه يبطل التأويل المذكور، ونصه: "أول من يدخل الجنة من خلق الله: الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله لملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: ربنا! نحن سكان سماواتك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟! قال: إن هؤلاء كانوا عباداً لي يعبدوني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور..، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك؛ فيدخلون عليهم من كل باب: [سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار]. وقال المنذري (٤/ ٨٦)، والهيثمي (١٠/ ٢٥٩): "ورجاله ثقات ". وهو في "موارد الظمآن " (٢٥٦٥) - والسياق له-، ومخرج في المجلد السادس من "الصحيحة" برقم (٢٥٥٩). وإني لأستغرب جدًّا كيف فات على أولئك العلماء من الفريقين إيراده احتجاجًا ودفعًا؟! وبخاصة الحافظ ابن حجر العسقلاني، لنعلم رأيه في شهادة الملائكة أمام ربهم: أنهم خيرة خلقه، وما أظن أنه يجد له تأويلاً إلا التسليم لدلالته! ونحوه حديث الترجمة، فما تعرض أحد منهم لذكره،
=

=

ولعل ذلك لأنهم يرون أيضـًا أنه خاص بالناس دون الملائكة؛ كما تقدم بيانه في طليعة هذا التخريج، وهو الذي استظهره الإمام الآلوسي في تفسيره "روح المعاني " (٣/ ٢٦٤)! والله ولي التوفيق.

وأما حديث: "علي خير البرية"؛ فمن موضوعات الشيعة، وقد روي من حديث أبي سعيد الخدري، وهو مخرج في "الضعيفة " (٥٥٩٣)، ومن حديث جابر بن جابر برقم (٤٩٢٥)، وذكره الآلوسي من حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم، وحديث عائشة وعلي وابن عباس عند ابن مردويه، ولم أقف على أسانيدها. ومن الظاهر أنها من عمل الشيعة أو غيرهم من الضعفاء والكذابين، ولذلك عقب الآلوسي عليها بقوله: "وإن دون إثبات صحة تلك الأخبار خرط القتاد. والله تعالى أعلم ".

ولا بد من التنبيه أنه وقع فيه حديث أبي هريرة: "مرفوعـًا "، وأنا أظن أنه محرف: "موقوفـًا"؛ فإن من المعروف أن مرجع المتأخرين في تخريج أحاديث التفسير إنما هو "الدر المنثور"على الغالب، والحديث فيه (٦/ ٣٧٩) غير مرفوع!. ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٢٨١): أيهما أفضل الملائكة أم الصالحون من البشر؟

فأجاب: هذه المسألة وهي المفاضلة بين الملائكة وبين الصالحين من البشر محل خلاف بين أهل العلم وكل منهم أدلى بدلوه فيما يحتج به من النصوص، ولكن القول الراجح أن يقال: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية فإن الله - سبحانه وتعالى - يعد لهم من الثواب ما لا يحصل مثله للملائكة فيما نعلم، بل إن الملائكة في مقرهم أي في مقر الصالحين وهو الجنة يدخلون عليهم من كل باب {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار}.

أما باعتبار البداية فإن الملائكة أفضل لأنهم خلقوا من نور وجبلوا على طاعة الله

=

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣).

{وإن} مخففة {كادوا} قاربوا {ليفتنونك} ليستنزلونك {عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا} لو فعلت ذلك {لا تخذوك خليلا}.

وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤).

{وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاك} عَلَى الْحَقّ بِالْعِصْمَةِ {لَقَدْ كِدْت} قَارَبْت {تَرْكَن} تَمِيل {إلَيْهِمْ شَيْئًا} رُكُونًا {قَلِيلًا} لِشِدَّةِ احْتِيَالهمْ وَإِلْحَاحهمْ وَهُوَ صَرِيح فِي أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَرْكَن ولا قارب.

إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥).

{إذا} لو ركنت {لأذقناك ضعف} عذاب {الحياة وضعف} عذاب {الْمَمَات} أَيْ مِثْلَيْ مَا يُعَذَّب غَيْرك فِي الدنيا والآخرة {ثم لا تجد لك علينا نَصِيرًا} مَانِعًا مِنْهُ.

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦).

---

=

ﷻ والقوة عليها كما قال الله - تعالى - في ملائكة النار: {عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون}. وقال - ﷻ -: {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون} هذا هو القول الفصل في هذه المسألة.

وبعد فإن الخوض فيها وطلب المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة من فضول العلم الذي لا يضطر الإنسان إلى فهمه والعلم به والله المستعان.

وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ لَهُ الْيَهُود إنْ كُنْت نَبِيًّا فَالْحَقْ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا أَرْض الْأَنْبِيَاء {وَإِنْ} مُخَفَّفَة {كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَك مِنْ الْأَرْض} أَرْض الْمَدِينَة {ليخرجوك منها وَإِذًا} لَوْ أَخْرَجُوك {لَا يَلْبَثُونَ خِلَافك} فِيهَا {إلَّا قَلِيلًا} ثُمَّ يَهْلِكُونَ.

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧).

{سُنَّة مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلك مِنْ رُسُلنَا} أَيْ كَسُنَّتِنَا فِيهِمْ مِنْ إهْلَاك مَنْ أَخْرَجَهُمْ {ولا تجد لسنتنا تحويلا} تبديلا[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالًا من قريش، أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: تعال فاستلم آلهتنا وندخل معك في دينك، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم؛ فرق لهم؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ} إلى قوله: {نَصِيرًا}.

أخرجه ابن إسحاق -ومن طريقه ابن أبي حاتم وابن مردويه؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٣٨) -: ثنا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة محمد شيخ ابن إسحاق. قال السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٣٨): "هذا أصح ما ورد في سبب نزولها، وهو إسناد جيد!! وله شاهد".

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن باذام مولى أم هانئ عن جابر مثله؛ كما في "الدر المنثور" (٥/ ٣١٨). والكلبي كذاب، وشيخه متهم.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر الأسود، فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعه حتى يلم بآلهتنا، فحدث نفسه، وقال: "ما عليّ أن ألم بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر، والله يعلم أني لها كاره"؛ فأبى الله؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ} الآية.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٨٨): ثنا ابن حميد ثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. والثانية: جعفر؛ ليس بالقوي في سعيد؛ كما قال ابن منده. والثالثة: شيخ الطبري متهم.

وقد ذكر السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣١٨): أن ابن أبي حاتم أخرجه من طريقه، فإن رواه من غير طريق ابن حميد، فتبقى فيه العلتان الأولى والثانية.

وعن الزهري؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا طاف يقول له المشركون: استلم آلهتنا؛ كي لا تضرك؛ فكاد يفعل؛ فأنزل الله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣١٩) ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن جبير بن نفير: أن قريشًا أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا؛ فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم؛ لنكون نحن أصحابك؛ فركن إليهم؛ فأوحى الله إليه: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣١٩) ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن محمد بن كعب؛ قال: أنزل الله -تعالى-: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١)} [النجم: ١]، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩)} [النجم: ١٩]، فألقى عليه الشيطان كلمتين: تلك الغرانيق العلى، وأن شفاعتهن لترتجي، فقرأ النبي ﷺ ما بقي من السورة وسجد؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} الآية، فما زال مغمومًا مهمومًا حتى أنزل الله -تعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)}

=

=

[الحج: ٥٢] الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣١٩) ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن عبد الله بن عباس ﵄؛ قوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)}، وذلك أن ثقيفًا قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله! أجّلنا سنة حتى يُهدى لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يُهدى لآلهتنا؛ أخذناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة؛ فهم رسول الله ﷺ أن يعطيهم وأن يؤجلهم؛ فقال الله - تعالى-: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٨٨)، وابن مردويه؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٣٩) وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن قتادة: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)}، ذكر لنا: أن قريشًا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه، وكان في قولهم: أن قالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا وابن سيدنا، فما زالوا يكلمونه حتى كاد أن يقارفهم، ثم منعه الله وعصمه من ذلك؛ فقال: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٨٨): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة (ح) وثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا محمد بن ثور عن معمر كلاهما عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد. وأخرجه عبد الرزاق أخرجه في "تفسيره" (١/ ٢/ ٣٨٣): ثنا معمر عن قتادة به.

وعن عبد الرحمن بن غنم: أن اليهود أتوْا رسول الله ﷺ يومًا، فقالوا: يا أبا القاسم! إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك؛ أنزل

=

=

الله ﷻ آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)} إلى قوله: {تَحْوِيلًا}، فأمره الله ﷻ بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث، ثم قال: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} إلى قوله: {مَقَامًا مَحْمُودًا}، فرجع رسول الله ﷺ؛ فأمره جبريل عليه السلام، فقال: "سل ربك ﷻ؛ فإن لكل نبي مسألة"، وكان جبريل له ناصحًا، وكان رسول الله ﷺ له مطيعًا، فقال: "ما تأمرني أن أسأل؟ "؛ فقال: " {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠)} "؛ فهؤلاء الآيات نزلن عليه في رجعته من تبوك.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٢٥٤) من طريق يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: شهر؛ صدوق كثير الأوهام والإرسال. لذا قال السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٣٩): "هذا مرسل ضعيف الإسناد".

وعن قتادة في قوله: {لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ}؛ قال: هَمَّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة، وقد فعلوا بعد ذلك؛ فأهلكهم الله يوم بدر، ولم يلبثوا بعده إلا قليلًا حتى أهلكهم الله -تعالى- يوم بدر، وكذلك كانت سنة الله في الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٣٨٣، ٣٨٤)، والطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٩٠) من طريقين عن قتادة به. وهو مرسل صحيح الإسناد.

وعن سعيد بن جبير: قال المشركون للنبي ﷺ: كانت الأنبياء يسكنون الشام، فما لك والمدينة؟ فهمَّ أن يشخص؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ

=

=

الْأَرْضِ} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٢٠)، و"لباب النقول" (ص ١٣٩). وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن حضرمي: أنه بلغه أن بعض اليهود قال للنبي ﷺ: إن أرض الأنبياء أرض الشام، وإن هذه ليست بأرض الأنبياء؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٨٩، ٩٠): ثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه سليمان التيمي عن حضرمي به. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الإسراء: ٧٣]، أي:" ولقد قارب المشركون أن يصرفوك -أيها الرسول- عن القرآن الذي أنزله الله إليك".

قال السمعاني:" معناه: ليصرفونك عن الذي أوحينا إليك".

قال المراغي:" أي: وإن المشركين قاربوا بخداعهم أن يوقعوك فى الفتنة بصرفك عما أوحيناه إليك من الأحكام".

قوله تعالى: {لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ} [الإسراء: ٧٣]، أي:" لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك".

قال الواحدي:" أي: لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك، وهو قولهم: قل: الله أمرني بذلك".

قال السمعاني:" أي: تقول علينا غير ما أنزلناه عليك".

قال المراغي: أي: "لتتقوّل علينا غير الذي أوحيناه إليك مما اقترح عليك".

قوله تعالى: {وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا} [الإسراء: ٧٣]، أي:" ولو فعلت ما أرادوه

=

=

لاتخذوك حبيبًا خالصًا".

قال السمعاني:" أي: صاحبا ووديدا".

قال يحيى بن سلّام: " {وإذا لاتخذوك خليلا} لو فعلت".

قال الفراء:" معناه: لو فعلت لا تخذوك".

* يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا} .

قال الطبري رحمه الله: والصواب من القول أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن نبيه ﷺ، أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله. ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أي ذلك كان، والاختلاف فيه موجود فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره. حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عني بذلك منه ا.هـ

أي: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك.

وإِنْ في قوله(وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ...) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وكاد من أفعال المقاربة. ولَيَفْتِنُونَكَ من الفتنة، وأصلها الاختبار والامتحان. يقال: فتن الصائغ الذهب، أى: اختبره ليعرف جيده من خبيثة، ويقال:

فتنت الرجل عن رأيه، إذا أزلته عما كان عليه، وهو المراد هنا.

والمعنى وإن شأن هؤلاء المشركين، أنهم قاربوا في ظنهم الباطل، وزعمهم الكاذب، أن يخدعوك ويفتنوك- أيها الرسول الكريم- عما أوحينا إليك من هذا القرآن، لكي تفترى علينا غيره، وتتقول علينا أقوالا ما أنزل الله بها من سلطان.

وقوله: وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا بيان لحالهم مع الرسول ﷺ لو أنه أطاعهم فيما

=

=

اقترحوه عليه.

قال الجمل ما ملخصه: «وإذا حرف جواب وجزاء يقدر بلو الشرطية. وقوله: لَاتَّخَذُوكَ جواب قسم محذوف تقديره: والله لاتخذوك، وهو مستقبل في المعنى، لأن إذا تقتضي الاستقبال، إذ معناها المجازاة، وهذا كقوله- تعالى-: وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ أى: ليظلوا .

والمعنى: لو أنك- أيها الرسول الكريم- وافقتهم على مقترحاتهم الفاسدة لأحبوا ذلك منك، ولصاروا أصدقاء لك في مستقبل أيامك.

وقد بين القرآن الكريم في كثير من آياته، أن الرسول ﷺ أعرض عن مقترحاتهم ورفضها، ولم يلتفت إليها، ومن ذلك قوله- تعالى-: وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ، إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ .

قوله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ} [الإسراء: ٧٤]، أي:" ولولا أن ثبَّتناك على الحق، وعصمناك عن موافقتهم".

قال يحيى بن سلام:" بالنبوة، عصمناك بها".

قال الواحدي:" أي: على الحق بعصمتنا إياك".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: ولولا أن ثبَّتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة".

قوله تعالى: {لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء: ٧٤]، أي:" لَقاربْتَ أن تميل إليهم شيئا من الميل فيما اقترحوه عليك، لقوة خداعهم وشدة احتيالهم، ولرغبتك في هدايتهم".

=

=

قال ابن عباس: "وذلك حين سكت عن جوابهم، والله أعلم بنيته".

قال ابن الجوزي:" أي: هممت وقاربت أن تميل إلى مرادهم شيئا قليلا".

**قال الطبري:**" يقول: لقد كدت تميل إليهم وتطمئنّ شيئا قليلا وذلك ما كان ﷺ همّ به من أن يفعل بعض الذي كانوا سألوه فعله، فقال رسول الله ﷺ فيما ذكر حين نزلت هذه الآية... عن قتادة، في قوله {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا}، فقال رسول الله ﷺ: لا تكلني إلى نَفْسي طَرْفَةَ عَيْنٍ» ".

فإن قيل: النبي كان معصوما من الشرك والكبائر، فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه منه؛ والذي طلبوه منه كفر؟

الجواب من ثلاثة وجوه:

**أحدها:** أنا نعتقد أن الرسول معصوم من الشرك والكبائر، ونحمل على أن ما وجد منه كان هما من غير عزم، وقد قال النبي: " إن الله تعالى وضع عن أمتي ما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل " وفي الجملة الله أعلم برسوله من غيره.

وقد قال قتادة: "لما وقع هذا كان رسول الله يقول بعد ذلك: «اللهم، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» ".

**والثاني:** وهو أنه قال: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن} وقد ثبته ولم يركن، وهذا مثل قوله تعالى: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته} إلى أن قال: {إلا قليلا} وقد تفضل الله، ورحم، ولم يتبعوا الشيطان".

**الثالث:** أن الفعل في الظاهر للنبي -ﷺ-، وفي الباطن للمشركين، وتقديره: لقد كادوا يركنونك إليهم، وينسبون إليك ما يشتهونه مما تكرهه، فنسب الفعل إلى غير فاعله عند أمن اللبس، كما يقول الرجل للرجل: كدت تقتل نفسك اليوم، يريد: كدت تفعل فعلا يقتلك غيرك من أجله فهذا المجاز والاتساع وشبيه بهذا قوله تعالى: {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٢]، وقول القائل: لا

=

=

أرينك في هذا الموضع. وهذا قول ابن الأنباري.

ثم بين- سبحانه- بعض مظاهر فضله على نبيه ﷺ فقال: وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا.

أى: ولولا تثبيتنا إياك- أيها الرسول الكريم- على ما أنت عليه من الحق والصدق، بأن عصمناك من كيدهم لقاربت أن تميل ميلا قليلا، بسبب شدة احتيالهم وخداعهم.

قال بعض العلماء: وهذه الآية أوضحت غاية الإيضاح، براءة نبينا ﷺ من مقاربة الركون إلى الكفار، فضلا عن نفس الركون لأن لَوْلا حرف امتناع لوجود، فمقاربة الركون منعتها لَوْلا الامتناعية لوجود التثبيت من الله- تعالى- لأكرم خلقه ﷺ فاتضح يقينا انتفاء مقاربة الركون- أى الميل-، فضلا عن الركون نفسه.

وهذه الآية تبين ما قبلها، وأنه ﷺ لم يقارب الركون إليهم مطلقا. لأن قوله: لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا أى: قاربت تركن إليهم، هو عين الممنوع بلو لا الامتناعية .

ومما يشهد بأن الرسول ﷺ لم يقارب الركون من مقترحات الكافرين، قول ابن عباس- رضى الله عنهما- كان رسول الله ﷺ معصوما، ولكن هذا تعريف للأمة، لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله- تعالى- وشرائعه.

وعن قتادة أنه قال: لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

قوله تعالى: {إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ} [الإسراء: ٧٥]، أي:" ولو رَكَنت -أيها الرسول- إلى هؤلاء المشركين ركونًا قليلا فيما سألوك، إذًا لأذقناك مِثْلَي عذاب الحياة في الدنيا ومثْلَي عذاب الممات في الآخرة، وذلك لتمام نعمة الله عليك وكمال معرفتك بربك".

=

=

قال الفراء:" معناه: لو ركنت لأذقناك إذا".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: لو ركنت إلى هؤلاء المشركين يا محمد شيئا قليلا فيما سألوك إذن لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات".

عن ابن عباس، قوله:" {إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}، يعني: ضعف عذاب الدنيا والآخرة".

عن مجاهد:" {ضِعْفَ الْحَيَاةِ}، قال: عذابها، {وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}، قال: عذاب الآخرة".

قال قتادة والضحاك:" أي: عذاب الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} [الإسراء: ٧٥]، أي:" ثم لا تجد أحدًا ينصرك ويدفع عنك عذابنا".

قال يحيى بن سلام:" ينتصر لك بعد عقوبتنا إياك".

**قال الطبري:**" يقول: ثم لا تجد لك يا محمد إن نحن أذقناك لركونك إلى هؤلاء المشركين لو ركنت إليهم، عذاب الحياة وعذاب الممات علينا نصيرا ينصرك علينا، ويمنعك من عذابك، وينقذك مما نالك منا من عقوبة".

قال الزمخشري في هذه الآية:" وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها، فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله. وعن النبي ﷺ أنها لما نزلت كان يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» ".

ثم بين- سبحانه- ما كان سيترتب على الركون إليهم- على سبيل الفرض من عقاب فقال- تعالى-: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ، ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً. والضعف: عبارة عن أن يضم إلى شيء مثله.

=

=

أي: لو قاربت- أيها الرسول الكريم- أن تركن إليهم أقل ركون، أو تميل إليهم أدنى ميل، لأنزلنا بك عذابا مضاعفا في الدنيا وعذابا مضاعفا في الآخرة، ثم لا تجد لك بعد ذلك نصيرا ينصرك علينا، أو ظهيرا يدفع عنك عذابنا، أو يحميك منه، كما قال- تعالى-: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ. لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ.

والسبب في تضعيف العذاب، أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه، ويصغر بمقدار صغره، ورحم الله القائل:

وكبائر الرجل الصغير صغائر ... وصغائر الرجل الكبير كبائر والرسول ﷺ هو أعظم الخلق على الإطلاق، لذا توعده الله- تعالى- بمضاعفة العذاب، لو ركن إلى المشركين أدنى ركون.

وقريب من هذا المعنى قوله- تعالى- يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً.

قال الزمخشري: وفي ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين، دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، وفيه دليل على أن أدنى مداهنه للغواة، مضادة لله وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه ونكاله. فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآيات أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله.

وقال القاسمي: جاء في (حواشي جامع البيان) ما مثاله بالحرف: من الفوائد الجليلة في هذه الآية. أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك، بعد القدرة على هدمها وإبطالها، يوما.

فإنها شعائر الكفر والشرك. وهي أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع

=

=

القدرة البتة. وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا وطواغيت، تعبد من دون الله. والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض، مع القدرة على إزالته. وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وأعظم شرك عندها وبها. فإن اللات- على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد- رجل كان يلت لهم السويق فمات. فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه. ولم يقولوا إن اللات خلقت السموات والأرض، بل كان شركهم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه، من النذور لها ولشرك بها والتمسح بها وتقبيلها واستلامها. وما طلبوا من رسول الله ﷺ إلا مجرد مس آلهتهم. كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا.، وما التمسوا منه إلا التمتيع باللات سنة من غير عبادة، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم. فالرزية كل الرزية ما ابتلي به القبوريون من أهل هذا الزمان. فإنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام، إلا فعلوه بالقبور. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

بل كثير منهم، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه، حلف بالله فاجرا، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك. أو بمعتقدك الولي الفلاني تلكأ وأبى واعترف بالحق.

وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: (ثالث ثلاثة) فيا علماء الدين! ويا ملوك المسلمين! أي رزء للإسلام أشد من الكفر؟ وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله؟ وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه؟ وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبا؟ فاللهم! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل. انتهى.

قوله تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا} [الإسراء: ٧٦]،

=

=

أي:" ولقد قارب الكفار أن يخرجوك من «مكة» بإزعاجهم إيَّاك".

**قال الطبري:**" يقول ﷻ: وإن كاد هؤلاء القوم ليستخفونك من الأرض التي أنت بها ليخرجوك منها".

وفي قوله تعالى: {لَيَسْتَفِزُّونَكَ} [الإسراء: ٧٦]، وجوه:

**أحدها:** يقتلونك، قاله الحسن.

**الثاني:** يعنى: ليستزلونك من الأرض المدينة. قاله مقاتل.

**الثالث:** ليستخفونك. قاله الفراء، والطبري.

يزعجونك باتسخفافك، قاله ابن عيسى. قال الشاعر:

**يُطِيعُ سَفِيهَ القَوْمِ إذ يَسْتَفِزُّهُ ويعْصِي حَكِيماً شَيَّبَتْهُ الْهَزَاهِزُ**

وفي قوله تعالى: {لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا} [الإسراء: ٧٦]، أقوال:

**أحدها:** أنهم اليهود أرادوا أن يخرجوا رسول الله -ﷺ- من المدينة، فقالوا: إن أرض الأنبياء هي الشام وإن هذه ليست بأرض الأنبياء، قاله سليمان التيمي.

**الثاني:** أنهم قريش هموا بإخراج النبي -ﷺ- من مكة قبل الهجرة، قاله مجاهد، وقتادة، واختاره الطبري.

قال قتادة:" همّ أهل مكة بإخراج النبيّ ﷺ من مكة، ولو فعلوا ذلك لما توطنوا، ولكن الله كفهم عن إخراجه حتى أمره، ولقلما مع ذلك لبثوا بعد خروج نبيّ الله ﷺ من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر".

**الثالث:** أنهم أرادوا إخراجه من جزيرة العرب كلها لأنهم قد أخرجوه من مكة.

**الرابع:** أنهم أرادوا قتله ليخرجوه من الأرض كلها، قاله الحسن.

**قال الطبري:**" وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول قتادة ومجاهد، وذلك أن قوله {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ} في سياق خبر الله ﷻ عن قريش وذكره إياهم، ولم يجر لليهود قبل ذلك ذكر، فيوجه قوله {وَإِنْ كَادُوا} إلى

=

=

أنه خبر عنهم، فهو بأن يكون خبرا عمن جرى له ذكر أولى من غيره".

قولـه تعـالى: {وَإِذًا لَا يَلْبَثُـونَ خِلَافَـكَ إِلَّا قَلِـيلًا} [الإسـراء: ٧٦]، أي:" ولـو أخرجوك منها لم يمكثوا فيها بعدك إلا زمنًا قليلا حتى تحل بهم العقوبة العاجلة".

**قال الطبري:**" يقول: ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلا حتى أهلكهم بعذاب عاجل".

قال الفراء:" يقول: إنك لو خرجت ولم يؤمنوا لنزل بهم العذاب".

قال مقاتل:" لم ينظروا من بعدك إلا يسيرا حتى يعذبوا في الدنيا".

قال مجاهد:" لو أخرجت قريش محمدا لعذّبوا بذلك".

قال قتادة:" فأهلكهم الله يوم بدر، ولم يلبثوا بعده إلا قليلا حتى أهلكهم الله يوم بدر".

وفي قوله تعالى: {خِلَافَكَ} [الإسراء: ٧٦]، وجهان:

أحدهما: يعني: بعدك. قاله مقاتل، ويحيى بن سلام، والطبري، يقال: خلْفك وخلافك، وقد قرئا جميعـًا بمعنى «بعدك»، ومنه قول الشاعر:

**عَقَبَ الرذاذ خِلافَها فكأنَّمَا بسَط الشَّواطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا**

الثاني: بمعنى مخالفتك، ذكره ابن الأنباري.

وفي قوله تعالى: {إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٧٦]، وجهان:

أحدهما: أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر، قال ابن عباس، والضحاك، واختاره الطبري، وهو قول من ذكر أنهم قريش.

قال ابن عباس:" يعني بالقليل يوم أخذهم ببدر، فكان ذلك هو القليل الذي لبثوا بعد".

قال الضحاك:" كان القليل الذي لبثوا بعد خروج النبيّ من بين أظهرهم إلى بدر، فأخذهم بالعذاب يوم بدر".

=

=

**الثاني**: ما بين ذلك وقتل بني قريظة وجلاء بني النضير، وهذا قول من ذكر أنهم اليهود.

ثم ذكر- سبحانه- مكيدة أخرى من مكايد المشركين، وهي محاولتهم إخراج النبي ﷺ من بلده، لكي يعكفوا على عبادة آلهتهم الباطلة دون أن ينهاهم عن ذلك أحد، فقال- تعالى-: وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها....

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: قيل نزلت في اليهود إذ أشاروا على النبي ﷺ بسكنى الشام، بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة كان بعد ذلك ... ثم قال: وقيل نزلت في كفار قريش، حين هموا بإخراج الرسول ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله- تعالى- بهذه الآية: وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا زمنا يسيرا .... .

وما ذهب إليه ابن كثير- رحمه الله من أن الآية مكية، هو الذي تسكن إليه النفس.

فيكون المعنى: وَإِنْ كادُوا أى: كفار مكة لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ أى:

ليزعجونك ويحملونك على الخروج من الأرض التي على ترابها ولدت وفيها نشأت، وهي أرض مكة.

وقوله: وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا بيان لسوء مصيرهم إذا ما أخرجوه ﷺ من مكة.

أى: ولو أنهم استفزوك وأجبروك على الخروج إجبارا، لما لبثوا خِلافَكَ أى: بعد خروجك إلا زمنا قليلا، ثم يصيبهم ما يصيبهم من الهلاك والنقم.

ومع أن الرسول ﷺ قد خرج من مكة مهاجرا بأمر ربه إلا أنه- سبحانه- قد مكن نبيه ﷺ وأصحابه من مشركي مكة في غزوة بدر، فقتلوا منهم سبعين، وأسروا نحو ذلك، وكانت المدة بين هجرته ﷺ وبين غزوة بدر تقل عن سنتين.

وهكذا حقق الله- تعالى- وعده لنبيه ﷺ وأنزل وعيده بأعدائه.

=

=

قوله تعالى: {سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا} [الإسراء: ٧٧]، أي:" تلك سنة الله تعالى في إهلاك الأمة التي تُخرج رسولها من بينها".

قال مقاتل:" يقول الله- سبحانه- كذلك سنة الله- عَجَّلَ- في أهل المعاصي، يعني الأمم الخالية إن كذبوا رسلهم أن يعذبوا".

قال الفراء:" أي: يعذبون كسنة من قد أرسلنا".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره: لو أخرجوك لم يلبثوا خلافك إلا قليلا ولأهلكناهم بعذاب من عندنا، سنتنا فيمن قد أرسلنا قبلك من رسلنا، فإنا كذلك كنا نفعل بالأمم إذا أخرجت رسلها من بين أظهرهم".

قال الزجاج: معناه:" أنا سننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك من رسلنا. أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه لم يلبثهم العذاب أن ينزل بهم، وكان خروج النبي ﷺ من مكة مهاجرا بأمر الله".

قال ابن كثير:" أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم: ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه الصلاة و السلام رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به،؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣] ".

قال قتادة:" أي: سنة الأمم والرسل كانت قبلك كذلك إذا كذبوا رسلهم وأخرجوهم، لم يناظروا أن الله أنزل عليهم عذابه".

قال ابن عباس: "يريد هذه سنتي فيمن كذب أوليائي، وتَقَوَّل عليّ الباطل".

وقال سفيان بن عيينة: "لم نرسل قبلك رسولاً فأخرجه قومه إلا أُهلكوا".

قوله تعالى: {وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا} [الإسراء: ٧٧]، أي:" ولن تجد -أيها الرسول- لسنتنا تغييرًا، فلا خلف في وعدنا".

=

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨).

---

=

قال السمعاني:" أي: تبديلا، وقيل: لعادتنا، ومعناه: ما أجرى الله تعالى من العادة في خلقه".

**قال الطبري:**" ولا تجد لسنتنا تحويلا عما جرت به".

قال الواحدي:" أي: ما أجرى الله به العادة لم يتهيأ لأحد أن يقبلها".

قال ابن عباس: "لا خلف لسنتي ولا لقضائي ولا لموعدي".

قال مقاتل:" إن قوله حق في أمر العذاب، يقول: السنة واحدة فيما مضى وفيما بقي".

عن قرة بن خالد، أن عبد الله بن مسعود قال: "إن أشد الناس عذابا من قتل نبيا، أو قتله نبي، أو مصور".

* ثم بين- سبحانه- أن نصرة رسله سنة من سننه التي لا تتخلف فقال: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا، وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا.

ولفظ سُنَّةَ منصوب على أنه مصدر مؤكد، أى: سن الله ما قصه عليك سنة، وهذه السنة هي أننا لا نترك بدون عقاب أمة أخرجت رسولها من أرضه، وقد فعلنا ذلك مع الأقوام السابقين الذين أخرجوا أنبياءهم من ديارهم ولا تجد- أيها الرسول الكريم- لسنتنا وطريقتنا تحويلا أو تبديلا، ولولا أننا قد منعنا عن قومك عذاب الاستئصال لوجودك فيهم، لأهلكناهم بسبب إيذائهم لك، وتطاولهم عليك.

قال- تعالى-: وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ....

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من المسالك الخبيثة التي اتبعها المشركون مع النبي ﷺ كما حكت لنا ألوانا من فضل الله- تعالى- على نبيه ﷺ حيث عصمه من أى ركون إليهم ووعده بالنصر عليهم.

{أَقِمْ الصَّلَاة لِدُلُوكِ الشَّمْس} أَيْ مِنْ وَقْت زَوَالهَا {إلَى غَسَق اللَّيْل} إقْبَال ظُلْمَته أَيْ الظُّهْر وَالْعَصْر وَالْمَغْرِب وَالْعِشَاء {وَقُرْآن الْفَجْر} صَلَاة الصُّبْح {إنَّ قُرْآن الْفَجْر كَانَ مَشْهُودًا} تَشْهَدهُ ملائكة الليل وملائكة النهار.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩).

{ومن الليل فَتَهَجَّدْ} فَصَلِّ {بِهِ} بِالْقُرْآنِ {نَافِلَة لَك} فَرِيضَة زَائِدَة لَك دُون أُمَّتك أَوْ فَضِيلَة عَلَى الصَّلَوَات الْمَفْرُوضَة {عَسَى أَنْ يَبْعَثك} يُقِيمك {رَبّك} فِي الْآخِرَة {مَقَامًا مَحْمُودًا} يَحْمَدك فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ وَهُوَ مَقَام الشَّفَاعَة فِي فَصْل الْقَضَاء ونزل لما أمر بالهجرة.

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠).

{وقل رب أَدْخِلْنِي} الْمَدِينَة {مُدْخَل صِدْق} إدْخَالًا مَرْضِيًّا لَا أَرَى فِيهِ مَا أَكْرَه {وَأَخْرِجْنِي} مِنْ مَكَّة {مُخْرَج صِدْق} إخْرَاجًا لَا أَلْتَفِت بِقَلْبِي إلَيْهَا {وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْك سُلْطَانًا نَصِيرًا} قُوَّة تَنْصُرنِي بِهَا عَلَى أَعْدَائِك.

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١).

{وَقُلْ} عِنْد دُخُولك مَكَّة {جَاءَ الْحَقّ} الْإِسْلَام {وَزَهَقَ الْبَاطِل} بَطَلَ الْكُفْر {إنَّ الْبَاطِل كَانَ زَهُوقًا} مُضْمَحِلًّا زَائِلًا وَقَدْ دَخَلَهَا ﷺ وحول البيت ثلاثمائة وَسِتُّونَ صَنَمًا فَجَعَلَ يَطْعَنهَا بِعُودٍ فِي يَده وَيَقُول ذَلِكَ حَتَّى سَقَطَتْ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢).

{وننزل من} للبيان {القرآن ما هو شِفَاء} مِنْ الضَّلَالَة {وَرَحْمَة لِلْمُؤْمِنِينَ}

بِهِ {وَلَا يَزِيد الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ {إِلَّا خَسَارًا} لِكُفْرِهِمْ بِهِ.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣).

{وإذا أنعمنا على الْإِنْسَان} الْكَافِر {أَعْرَضَ} عَنْ الشُّكْر {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} ثَنَى عِطْفه مُتَبَخْتِرًا {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرّ} الْفَقْر وَالشِّدَّة {كَانَ يَئُوسًا} قَنُوطًا مِنْ رَحْمَة الله.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤).

{قُلْ كُلّ} مِنَّا وَمِنْكُمْ {يَعْمَل عَلَى شَاكِلَته} طريقته {فربكم أعلم بمن هو أَهْدَى سَبِيلًا} طَرِيقًا فَيُثِيبهُ.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥).

{وَيَسْأَلُونَك} أَيْ الْيَهُود {عَنْ الرُّوح} الَّذِي يَحْيَا بِهِ الْبَدَن {قُلْ} لَهُمْ {الرُّوح مِنْ أَمْر رَبِّي} أَيْ عِلْمه لَا تَعْلَمُونَهُ {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْم إِلَّا قَلِيلًا} بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمه تعالى[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أُمِر بالهجرة؛ فنزلت عليه: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠)}.

أخرجه أحمد (١/ ٢٢٣)، والترمذي (٣١٣٩)، والطبري في تفسيره (١٥/ ١٠٠)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٧٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٨٥)، والحاكم (٢/ ٢٤٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥١٦)، والضياء في المختارة (١/ =

=

٥٣٥) وإسناده ضعيف من أجل قابوس بن أبي ظبيان لذا ضعفه الشيخ ناصر في ضعيف الترمذي (٦١١)، وكذا ضعفه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وضعفه أيضا صاحبا الإستيعاب في بيان الإسباب (٢/ ٤٥٣)، وأما قول الترمذي: حسن صحيح، وتصحيح الحاكم لهذا الحديث وموافقة الذهبي له، وقول الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، كل ذلك متعقب بما تقدم.

وعن عبد الله بن مسعود؛ قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في بعض خِرَبِ المدينة (وفي رواية: حَرْث) -وهو يتوكأ على عسيب معه- فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سَلُوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه؟ وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيءُ فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم لبعض: لنسألَنَهُ، فقالوا: سلوه، فقام رجل منهم إليه، فقال: يا أبا القاسم! ما الروح؟ فسكت عنه النبي ﷺ فلم يرد عليه شيئًا، فقلت: إنه يُوحى إليه، فتأخرت عنه حتى صعد الوحي، فقمت مقامي، فلما انجلى عنه؛ قال: " {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)} "، قال الأعمش: هكذا في قراءتنا، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ١٢٥، ٤٧٢١، ٧٢٩٧، ٧٤٥٦، ٧٤٦٢)، ومسلم (رقم ٢٧٩٤).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل، فقال: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)}، قالوا: أوتينا علمًا كثيرا: التوراة، ومن أوتي التوراة؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا؛ فأُنزلت: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)} [الكهف: ١٠٩].

=

=

أخرجه أحمد (١/ ٢٥٥)، والترمذي (٣١٤٠)، والنسائي في الكبرى (١١٣١٤)، وأبو يعلى (٢٥٠١)، وابن حبان (٩٩)، والحاكم (٢/ ٥٣١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٤٠٣) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، وصححه الحاكم وأقره الذهبي وقال في تاريخ الإسلام: هذا إسناد صحيح، وصححه ابن دقيق العيد في الإقتراح (١٠٤)، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٤١٠): رجاله رجال الصحيح وصححه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٥٩٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وقال العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦١٥): صحيح على شرط البخاري، وقال صاحبا الإستيعاب في بيان الإسباب (٢/ ٤٥٤): هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا ما الروح؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد؟ وإنما الروح من الله، ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يحر إليهم شيئًا، فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ قال: "جبريل"، قالوا: والله ما قاله لك إلا عدوّ لنا؛ فأنزل الله -تعالى-: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)} [البقرة: ٩٧].

أخرجه في "جامع البيان" (١٥/ ١٠٥) من طريق العوفي عن ابن عباس. وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

و عن عكرمة؛ قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)}، فقالوا: أتزعم أنا لم نؤت من العلم إلّا قليلًا وقد أوتينا التوراة، وهي

=

=

الحكمة، ومن يؤت الحكمة؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا؛ قال: فنزلت: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ} [لقمان: ٢٧]، قال: ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار؛ فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٠٤): ثنا محمد بن المثنى ثنا ابن عبد الأعلى ثنا داود بن أبي هند عن عكرمة. وهو مرسل رجاله ثقات.

وعن عطاء بن يسار؛ قال: نزلت بمكة: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود، فقالوا: يا محمد! ألم يبلغنا أنك تقول: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}؟ أفعنيتنا أم قومك؟ قال: "كلًا قد عنيت"، قالوا: فإنك تتلوا أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: "هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما عملتم به انتفعتم"؛ فأنزل الله: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ} إلى قوله: {إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [لقمان: ٢٧ - ٢٩].

أخرجه ابن إسحاق - ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٠٥، ١٠٦) عن بعض أصحابه عن عطاء به. وإسناده ضعيف جدًا.

وعن قتادة؛ قال: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}: لقيت اليهود نبي الله ﷺ، فتغشوه وسألوه، وقالوا: إن كان نبيًا عُلّم؛ فسيعلم ذلك؛ فسألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين؛ فأنزل الله -تعالى- في كتابه ذلك كله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)}؛ يعني: اليهود.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٠٥) بسند جيد عنه لكنه مرسل.

و عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أم الحكم الثقفي؛ قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض سكك المدينة؛ إذ عرض له اليهود، فقالوا: يا محمد! ما الروح؟ وبيده عسيب نخل، فاعتمد عليه ورفع رأسه إلى السماء، ثم قال: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

=

=

الرُّوحِ ...} إلى قوله: {قَلِيلًا}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٣٢، ٣٣٣) ونسبه لابن عساكر.
* قوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} [الإسراء: ٧٨]، أي:" أقم الصلاة تامة من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل، ويدخل في هذا صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء".
وفي معنى «دلوك الشمس»، أقوال:
**أحدها**: أنه غروبها، وأن الصلاة المأمور بها صلاة «المغرب»، ومنه قول ذي الرمة:

**مَصَابيحُ لَيْسَتْ بالَّلوَاتي تَقُودُها نُجُومٌ ولا بالآفلاتِ الدَّوَالكِ**

قاله ابن مسعود، وابن زيد، ورواه مجاهد عن ابن عباس، وهو مذهب أبي حنيفة.
عن إبراهيم، قال: "قال عبد الله حين غربت الشمس: هذا والله الذي لا إله غيره وقت هذه الصلاة. وقال: دلوكها: غروبها".
قال ابن عباس:" دلوك الشمس. غروبها، يقول: دلكت براح".
قال ابن قتيبة:" {لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} غروبها، لأن العرب تقول: دَلَكَ النجم؛ إذا غاب".
**الثاني**: أن «دلوك الشمس»: زوالها، والصلاة المأمور بها صلاة «الظهر»، وهذا قول ابن عباس في رواية الشعبي عنه، وهو قول ابن عمر، وأبي برزة الأسلمي، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وهو مذهب الشافعي، ومالك.
قال أبو عبيدة:" «دلوك الشمس»: من عند زوالها إلى أن تغيب".
وقد روي عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، قال: "قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبرائيل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر».
قال أبو برزة: "كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا: {أقم الصلاة لدلوك الشمس} ".

=

=

عن ابن عمر قال: " دلوك الشمس: ميلها بعد نصف النهار ".

**الثالث**: عني بذلك: الظهر والعصر. حكاه مكي بن ابي طالب.

**قال الطبري**:" الصواب قول من قال: عنى بقوله {أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ}: صلاة الظهر، وذلك أن الدلوك في كلام العرب: الميل، يقال منه: دلك فلان إلى كذا: إذا مال إليه، ومنه الخبر الذي رُوي عن الحسن أن رجلا قال له: أيُدالك الرجل امرأته؟ يعني بذلك: أيميل بها إلى المماطلة بحقها. ومنه قول الراجز:

**هَذَا مَقامُ قَدَميْ رَباحِ    غُدْوَةَ حتى دَلَكَتْ بِرَاحِ**

ويروى: براح بفتح الباء، فمن روى ذلك: بِراح، بكسر الباء، فإنه يعني: أنه يضع الناظر كفه على حاجبه من شعاعها، لينظر ما لقي من غيارها، وهذا تفسير أهل الغريب أبي عُبيدة والأصمعي وأبي عمرو الشيبانيّ وغيرهم".

وقيل إن أصل «الدلوك» في اللغة هو: الميل، والشمس تميل عند زوالها وغروبها فلذلك انطلق على كل واحدٍ منهما.

وأما «غسق الليل»، ففيه وجهان من التفسير:

أحدهما: أنه ظلام الليل، قاله الضحاك، وابن زيد، الفراء، وابن عيسى.

وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس: «ما «الغسق»؟ قال الغاسق: الظلمة»، وأنشد بيت زهير:

**ظلَّتْ تَجُوب يَدَاهَا وهي لاهِيَةٌ    حتى إذا أصبح الإظلامُ والغَسَق**

قال الفراء:" أول ظلمته للمغرب والعشاء".

**الثاني**: أنه دنوّ الليل وإقباله، وهو قول ابن عباس، وقتادة، وعكرمة.

قال قتادة:" بدو الليل لصلاة المغرب".

وقال مجاهد:" غسق الليل: غروب الشمس".

وفي الصلاة المأمور بها قولان:

=

=

أحدهما: أنها صلاة المغرب، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وبه قال الطبري.

**الثاني**: انها صلاة العصر. قاله أبو جعفر.

**قال الطبري**:" الصواب قول من قال: الصلاة التي أمر النبي ﷺ بإقامتها عند غسق الليل، هي صلاة المغرب دون غيرها، لأن غسق الليل هو ما وصفنا من إقبال الليل وظلامه، وذلك لا يكون إلا بعد مغيب الشمس. فأما صلاة العصر، فإنها مما تقام بين ابتداء دلوك الشمس إلى غسق الليل، لا عند غسق الليل".

قوله تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} [الإسراء: ٧٨]، أي:" وأقم صلاة الفجر، وأَطِلِ القراءة فيها".

وفي قوله تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} [الإسراء: ٧٨]،، وجهان من التفسير:

أحدهما: أي: ما تقرأ به صلاة الفجر من القرآن، وهذا قول ابن جرير الطبري.

**الثاني**: معناه: صلاة الصبح، فسماها قرآنـًا لتأكيد القراءة في الصلاة، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وكعب، والفراء، وابو عبيدة، وابن قتيبة.

قال قتادة:" {وقرآن الفجر} : صلاة الصبح، كنا نحدث أن عندها يجتمع الحرسان من ملائكة الله حرس الليل وحرس النهار".

قال كعب:" والذي نفس كعب بيده، إن هذه الآية {وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا}، إنها لصلاة الفجر إنها لمشهودة".

قال الشاعر في عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-:

**ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبِيحًا وقُرْآنا**

قال ابن قتيبة:" أي: تسبيحًا وقراءة".

قوله تعالى: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨]، أي:" إن صلاة الفجر

=

=

تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار".

**قال الطبري:**" يقول: آن ما تقرأ به في صلاة الفجر من القرآن كان مشهودا، يشهده فيما ذكر ملائكة الليل وملائكة النهار".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨]، قولان:

أحدهما: إن من الحكمة أن تشهده بالحضور إليه في المساجد، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

**الثاني:** ان المراد به ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية:" {وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا}، قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» ".

قال مجاهد:" تجتمع في صلاة الفجر ملائكة الليل وملائكة النهار".

قال أبو عبيدة،"يشهده حرس الليل وحرس النهار من الملائكة في صلاة الفجر".

قال إبراهيم:" كانوا يقولون تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر فتشهد فيها جميعا، ثم يصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء".

قال الماوردي:"وفي هذا دليل على أنها ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار".

* لما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات، وهي الصلاة، فقال: (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها الصلوات المفروضة.

وقد اختلف العلماء كما تقدم في الدلوك المذكور في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبد السماء، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وأبو برزة وابن عباس والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو جعفر الباقر، واختاره الواحدي، والرازي، والخازن، وابن جزي الكلبي، والسمين الحلبي، والشنقيطي.

=

=

والقول الثاني: أنه غروب الشمس، قاله علي وابن مسعود وأبي بن كعب، وروي عن ابن عباس. قال الفراء: دلوك الشمس من لدن زوالها إلى غروبها.
قال الطبري رحمه الله: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: الصلاة التي أمر النبي ﷺ بإقامتها عند غسق الليل، هي صلاة المغرب دون غيرها. لأن غسق الليل هو إقبال الليل وظلامه وذلك لا يكون إلا بعد مغيب الشمس ا.هـ
وقال الأزهري: معنى الدلوك في كلام العرب الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وقيل لها إذا أفلت: دالكة لأنها في الحالتين زائلة. قال: والقول عندي أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، والمعنى: أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس إلى غسق الليل فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل، وهما العشاءان، ثم قال: وقرآن الفجر هذه خمس صلوات. وقال أبو عبيد: دلوكها غروبها، ودلكت براح: يعني الشمس، أي: غابت، وأنشد قطرب على هذا قول الشاعر:
هذا مقام قدمي رباح ... ذبب حتى دلكت براح
اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام، ومن ذلك قول ذي الرمة:
مصابيح ليست باللواتي تقودها ... نجوم ولا بالآفات الدوالك
أي: الغوارب، وغسق الليل: اجتماع الظلمة. قال الفراء والزجاج: يقال: غسق الليل وأغسق إذا أقبل بظلامه. قال أبو عبيد: الغسق سواد الليل. قال ابن قيس الرقيات:
إن هذا الليل قد غسقا ... واشتكيت الهم والأرقا
**وقيل**: غسق الليل: مغيب الشفق، ومنه قول زهير:
ظلت تجود يداها وهي لاهية ... حتى إذا جعجع الإظلام والغسق
وأصل الكلمة من السيلان، يقال: غسقت إذا سالت. وحكى الفراء غسق الليل
=

=

وأغسق، وظلم وأظلم، ودجا وأدجى، وغبش وأغبش، وقد استدل بهذه الغاية أعني قوله: إلى غسق الليل من قال إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب، روي ذلك عن الأوزاعي وأبي حنيفة، وجوزه مالك والشافعي في حال الضرورة، وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ في تعيين أوقات الصلوات، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة، فلا نطيل بذكر ذلك.

قوله: وقرآن الفجر انتصاب قرآن لكونه معطوفا على الصلاة أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفراء. وقال الزجاج والبصريون: انتصابه على الإغراء، أي: فعليك قرآن الفجر. قال المفسرون: المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح.

قال الزجاج: وفي هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، وفي بعض الأحاديث: الخارجة من مخرج حسن وقرآن معها، وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة، وقد حررته في مؤلفاتي تحريرا مجودا.

وقال ابن عقيل في الواضح ٣/ ٢١٣: ({وقرآن الفجر} [الإسراء:٧٨]، لما كنى عن الصلاة به، دل على وجوبه فيها).

وقال النحاس: (ثم قال جل وعز: {وقرآن الفجر} [الإسراء:٧٨]، فسمى الصلاة قرآنا؛ لأنها لا تكون إلا بالقرآن).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: {وقرآن الفجر} [الإسراء:٧٨] دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سمى الصلاة قرآنا).

وقال ابن كثير: (قوله: {أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا (٧٨)} [الإسراء:٧٨]، والمراد: صلاة الفجر كما جاء مصرحا به في الصحيحين، من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل ذلك

=

=

كله على أنه لابد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء).

وقال بعض العلماء: تسمية صلاة الفجر قرآنا؛ لمشروعية إطالة القراءة فيها.

ولا تعارض في هذا القول مع ما قبله، فلا تكون الإطالة إلا بالقراءة.

قال السمرقندي: ({وقرآن الفجر} [الإسراء:٧٨]، أي: صلاة الغداة، وإنما سميت صلاة الغداة قرآنا؛ لأن القراءة فيها أكثر وأطول).

وقال ابن جزي: (وإنما عبر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأن القرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها).

وقريبا منهم ذكر ابن عطية، والسعدي، وبهذا يتضح لي أن تسمية الصلاة قرآنا دليل على وجوبه فيها، كما سميت ركوعا أو سجودا أو قنوتا أو تسبيحا. والله أعلم.

ثم علل سبحانه ذلك بقوله: إن قرآن الفجر كان مشهودا أي: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك في الحديث الصحيح، وبذلك قال جمهور المفسرين.

قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ} [الإسراء: ٧٩]، أي:" وقم -أيها النبي- من نومك بعض الليل، فاقرأ القرآن في صلاة الليل؛ لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر ورفع الدرجات".

قال أبو عبيدة:" أي: اسهر بصلاة أو بذكر الله، وهجدت: نمت أيضا".

قال ابن قتيبة:" أي: اسهر به. يقال: تهجدت: إذا سهرت. وهجدت: إذا نمت".

قال الراغب:" أي: تيقظ بالقرآن، وذلك حث على إقامة الصلاة في الليل المذكور في قوله: قم الليل إلا قليلا نصفه [المزمل: ٢ - ٣]، و «المتهجد»: المصلي ليلا، وأهجد البعير: ألقى جرانه على الأرض متحريا للهجود".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ومن الليل فاسهر بعد نومة يا

=

=

محمد بالقرآن، نافلة لك خالصة دون أمتك. والتهجد: التيقظ والسهر بعد نومة من الليل. وأما الهجود نفسه: فالنوم، كما قال الشاعر:

**ألا طرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلات النوال تجود**

وقال الحطيئة:

**ألا طرقت هند الهنود وصحبتي بحوران حوران الجنود هجود**".

وفي «التهجد» وجهان:

أحدهما: السهر بالتيقظ لما ينفي النوم، سواء كان قبل النوم أو بعده. حكاه الماوردي.

**الثاني**: أنه السهر بعد النوم، قاله علقمة، والأسود، والحجاج بن عمرو.

وقال الحسن:" التهجد: ما كان بعد العشاء الآخرة".

عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، عن رجل من الأنصار:" أنه كان مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال: لأنظرن كيف يصلي رسول الله ﷺ، قال: فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ، فرفع رأسه إلى السماء، فتلا أربع آيات من آخر سورة آل عمران {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار} حتى مر بالأربع، ثم أهوى إلى القربة، فأخذ سواكا فاستن به، ثم توضأ، ثم صلى، ثم نام، ثم استيقظ فصنع كصنعه أول مرة، ويزعمون أنه التهجد الذي أمره الله".

وفي تخصيص النبي -ﷺ- بأنها نافلة له ثلاثة وجوه:

**أحدها**: تخصيصاً له بالترغيب فيها والسبق إلى حيازة فضلها، اختصاصها بكرامته، قاله علي بن عيسى.

**الثاني**: لأنها فضيلة له، ولغيره كفارة، قاله مجاهد.

قال مجاهد:" النافلة للنبي ﷺ خاصة من أجل أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما عمل من عمل سوى المكتوبة، فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل ذلك في

=

=

كفارة الذنوب، فهي نوافل وزيادة، والناس يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها، فليست للناس نوافل".

**الثالث**: لأنها عليه مكتوبة ولغيره مستحبة، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:" يعني بـ «النافلة» أنها للنبي ﷺ خاصة، أمر بقيام الليل وكتب عليه".

قال أبو أمامة: "إنما كانت النافلة للنبي ﷺ".

قال قتادة: " أي: نفلا وغنيمة لك".

قال أبو عبيدة:" أي: اسهر بصلاة أو بذكر الله، وهجدت: نمت أيضا".

**قال الطبري**:" الصواب في ذلك، القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وذلك أن رسول الله ﷺ كان الله تعالى قد خصه بما فرض عليه من قيام الليل، دون سائر أمته، فأما ما ذكر عن مجاهد في ذلك، فقول لا معنى له، لأن رسول الله فيما ذكر عنه أكثر ما كان استغفارا لذنوبه بعد نزول قول الله ﷻ عليه {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}، وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد منصرفه من الحديبية، وأنزل عليه {إذا جاء نصر الله والفتح} عام قبض. وقيل له فيها {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} فكان يعد له ﷺ في المجلس الواحد استغفار مائة مرة ومعلوم أن الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك، فبين إذن وجه فساد ما قاله مجاهد".

وذكر النحاس عن ابن زيد في قوله تعالى: {ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} [الإنسان: ٢٦]، قال: " كان هذا أول شيء فريضة، ثم خففها الله تعالى فقال جل وعز: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك} [الإسراء: ٧٩] ".

قوله تعالى: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩]، أي:" عسى أن يبعثك الله شافعًا للناس يوم القيامة؛ ليرحمهم الله مما يكونون فيه، وتقوم مقامًا

=

=

يحمدك فيه الأولون والآخرون".

**قال الطبري:**" لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاما تقوم فيه محمودا تحمده، وتغبط فيه.. و «عسى» من الله واجبة، وإنما وجه قول أهل العلم: عسى من الله واجبة، لعلم المؤمنين أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياه ليس من صفته الغرور، ولا شك أنه قد أطمع من قال ذلك له في نفعه، إذا هو تعاهده ولزمه، فإن لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سبب يحول بينه وبين نفعه إياه مع الأطماع الذي تقدم منه لصاحبه على تعاهده إياه ولزومه، فإنه لصاحبه غار بما كان من إخلافه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قال له. وإذ كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أن يكون جل ثناؤه من صفته الغرور لعباده صح ووجب أن كل ما أطمعهم فيه من طمع على طاعته، أو على فعل من الأفعال، أو أمر أو نهى أمرهم

به، أو نهاهم عنه، فإنه موف لهم به، وإنهم منه كالعدة التي لا يخلف الوفاء بها، قالوا: عسى ولعل من الله واجبة".

قال مقاتل:" والـ «عسى» من الله واجب".

قال ابن إسحاق:" {عسى}: من الله حق".

قال أبو مالك: " كل شيء في القران: {عسى}، فهو واجب الا حرفين، حرف في التحريم: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن}، وفي بني اسرائيل: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم} ". وروي عن الضحاك، والحسن، والسدي، وابن إسحاق، نحو ذلك.

وفي قوله تعالى: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩]، وجوه:

**أحدها**: أن المقام المحمود مقام الشفاعة للناس يوم القيامة، قاله حذيفة بن اليمان، وابن عباس، والحسن، ومجاهد -في أحد قوليه-، وقتادة، واختاره الطبري.

=

قال حذيفة:" يجمع الله الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي، فينفذهم البصر حفاة عراة، كما خلقوا سكوتا لا تكلم نفس إلا بإذنه، قال: فينادى محمد، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس

إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، ولك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت، قال: فذلك المقام المحمود الذي ذكر الله: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} ".

قال سلمان:" هو الشفاعة، يشفعه الله في أمته، فهو المقام المحمود".

قال قتادة:" وقد ذكر لنا أن نبي الله ﷺ خير بين أن يكون نبيا عبدا، أو ملكا نبيا، فأومأ إليه جبرائيل عليه السلام: أن تواضع، فاختار نبي الله أن يكون عبدا نبيا، فأعطي به نبي الله ثنتين: إنه أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع. وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تبارك وتعالى {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}، شفاعة يوم القيامة".

**الثاني**: أنه إجلاسه على عرشه يوم القيامة، رواه ليث عن مجاهد.

**الثالث**: أنه إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة.

**الرابع**: أن يكون المقام المحمود شهادته على أمته بما أجابوه من تصديق أو تكذيب، كما قال تعالى: {وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]. أفاده الماوردي.

والصواب-والله أعلم- هو القول الاول، وذلك لما صح من الاخبار الواردة عن رسول الله-ﷺ-:

عن أبي هريرة عن رسول الله -ﷺ-، في قوله: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}، قال: "هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي".

عن كعب بن مالك، أن النبي ﷺ قال: " يحشر الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي

=

على تل فيكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذاك المقام المحمود".

عن ابن عمر ان رسول الله -ﷺ- قال:" إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم عليه السلام، فيقول لست صاحب ذلك ثم بموسى عليه السلام، فيقول كذلك، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق حتى يأخذ بحلقة الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا".

عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "إني لأقوم المقام المحمود" فقال رجل: يا رسول الله، وما ذلك المقام المحمود؟ قال رسول الله ﷺ: "ذاك إذا جيء بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام، فيؤتى بريطتين بيضاوين، فيلبسهما، ثم يقعد مستقبل العرش، ثم أوتى بكسوتي فألبسها، فأقوم عن يمينه مقاما لا يقومه غيري يغبطني فيه الأولون والآخرون، ثم يفتح نهر من الكوثر إلى الحوض".

عن علي بن الحسين، أن النبي ﷺ قال: "إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه، قال النبي ﷺ: فأكون أول من يدعى وجبرائيل عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها، فأقول: أي رب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إلي، فيقول الله ﷻ: صدق، ثم أشفع، قال: فهو المقام المحمود".

(ومن الليل فتهجد به نافلة لك) من للتبعيض، وانتصابه على الظرفية بمضمر، أي: قم بعض الليل فتهجد به، والضمير المجرور راجع إلى القرآن، وما قيل من أنه منتصب على الإغراء، والتقدير: عليك بعض الليل فبعيد جدا، والتهجد مأخوذ من الهجود. قال أبو عبيدة وابن الأعرابي: هو من الأضداد لأنه يقال هجد الرجل: إذا نام، وهجد إذا سهر، فمن استعماله في السهر قول الشاعر:

=

=

ألا زارت وأهل منى هجود ... فليت خيالها بمنى يعود

يعني منتبهين، ومن استعماله في النوم قول الآخر:

ألا طرقتنا والرفاق هجود ... فباتت بعلات النوال تجود

يعني نياما. وقال الأزهري: الهجود في الأصل هو النوم بالليل، ولكن جاء التفعل فيه لأجل التجنب، ومنه تأثم تتحرج أي: تجنب الإثم والحرج، فالمتهجد من تجنب الهجود، فقام بالليل. وروي عن الأزهري أيضا أنه قال: المتهجد القائم إلى الصلاة من النوم، هكذا حكى عنه الواحدي، فقيد التهجد بالقيام من النوم، وهكذا قال مجاهد وعلقمة والأسود فقالوا: التهجد بعد النوم. قال الليث: تهجد إذا استيقظ للصلاة نافلة لك معنى النافلة في اللغة الزيادة على الأصل.

قال ابن الجوزي: وفي معنى هذه الزيادة في حقه قولان: أحدهما: أنها زائدة فيما فرض عليه، فيكون المعنى: فريضة عليك، وكان قد فرض عليه قيام الليل، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: أنها زائدة على الفرض، وليست فرضا فالمعنى: تطوعا وفضيلة. قال أبو أمامة، والحسن، ومجاهد: إنما النافلة للنبي ﷺ خاصة. قال مجاهد: وذلك أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما زاد على فرضه فهو نافلة له وفضيلة، وهو لغيره كفارة. وذكر بعض أهل العلم: أن صلاة الليل كانت فرضا عليه في الابتداء، ثم رخص له في تركها، فصارت نافلة. وذكر ابن الأنباري في هذا قولين: أحدهما: يقارب ما قاله مجاهد، فقال: كان رسول الله ﷺ إذا تنفل لا يقدر له أن يكون بذلك ماحيا للذنوب، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره إذا تنفل كان راجيا، ومقدرا محو السيئات عنه بالتنفل، فالنافلة لرسول الله ﷺ زيادة على الحاجة، وهي لغيره مفتقر إليها، ومأمول بها دفع المكروه. والثاني:

أن النافلة للنبي ﷺ وأمته، والمعنى: ومن الليل فتهجدوا به نافله لكم، فخوطب

=

=

النبي ﷺ بخطاب أمته ا.هـ

وقال الطبري رحمه الله: وأولى القولين بالصواب في ذلك، أن رسول الله ﷺ كان الله تعالى قد خصه بما فرض عليه من قيام الليل، دون سائر أمته وهو قول ابن عباس. وأما ما ذكر عن مجاهد في ذلك، فقول لا معنى له، وذلك لأن رسول الله ﷺ فيما ذكر عنه أكثر ما كان استغفارا لذنوبه بعد نزول قول الله ﷻ عليه ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ا.هـ

فالمعنى أنها للنبي ﷺ نافلة زائدة على الفرائض، والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر وقيل: المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه ﷺ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة وقيل: كانت صلاة الليل فريضة في حقه ﷺ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا، وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة، ولأمته تطوع. قال الواحدي: إن صلاة الليل كانت زيادة للنبي ﷺ خاصة لرفع الدرجات، لا للكفارات، لأنه غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها، قال: وهو قول جميع المفسرين. والحاصل أن الخطاب في هذه الآية وإن كان خاصا بالنبي ﷺ في قوله: أقم الصلاة: فالأمر له أمر لأمته، فهو شرع عام، ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل، فإنه يعم جميع الأمة، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب، فالتهجد من الليل مندوب إليه ومشروع لكل مكلف. ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال: عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قد ذكرنا في مواضع أن عسى من الكريم إطماع واجب الوقوع، وانتصاب مقاما على الظرفية بإضمار فعل، أو بتضمين البعث معنى الإقامة، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال أي: يبعثك ذا مقام محمود ومعنى كون المقام محمودا أنه يحمده كل من علم به.

=

=

وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال: الأول أنه المقام الذي يقومه النبي ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه، وهذا القول هو الذي دلت عليه الأدلة الصحيحة في تفسير الآية، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل. قال الواحدي: وإجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة.

القول الثاني: أن المقام المحمود إعطاء النبي ﷺ لواء الحمد يوم القيامة. ويمكن أن يقال إن هذا لا ينافي القول الأول، إذ لا منافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد. القول الثالث: أن المقام المحمود هو أن الله سبحانه يجلس محمدا ﷺ معه على كرسيه، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد، وقد ورد في ذلك حديث. وحكى النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث. قال ابن عبد البر: مجاهد وإن كان أحد الأئمة بالتأويل فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثاني في تأويل: وجوه يومئذ ناضرة- إلى ربها ناظرة قال: معناه تنتظر الثواب، وليس من النظر، انتهى.

وعلى كل حال فهذا القول غير مناف للقول الأول لإمكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة.

(تنبيه): قال العلامة الألباني في مختصر العلو (ص١٤ - ٢٠): إن رواية الأحاديث الضعيفة من بعض المحدثين هو مما يعاب عليهم من قِبل المخالفين لهم وإن كان هؤلاء يفعلون ما هو أسوأ من ذلك كما أوضحه شيخ الإسلام... ، ومن أشهر من أَخَذَ ذلك عليهم في هذا العصر ويتخذه حجة في تسخيفهم وتضليلهم الشيخ الكوثري المعروف بعدائه الشديد لأهل السنة والحديث، ونبزه إياهم بلقب الحشوية والمجسمة، وهو في ذلك ظالم لهم مفتر، ولكن - والحق يقال - قد

=

=

يجد أحياناً في ما يرويه بعضهم من الأحاديث والآثار ما يُدَعِّم به فريته مثل الحديث المروي في تفسير قوله تعالى: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} قال: «يجلسني على العرش».رواه المصنف -أي الذهبي في "العلو"- (ص ٧٤ - ٧٥) عن ابن مسعود مرفوعاً وضعفه جداً بقوله: "مرسله الأحمر متروك الحديث "، ورواه (ص ٩٩) عن ابن عباس مثله موقوفاً. وقال: "إسناده ساقط، وعمر بن مدرك الرازي متروك وهذا مشهور من قول مجاهد ويروى مرفوعاً، وهو باطل". وقد خرجت الحديثين في (الضعيفة) (٨٧١). وقال في ترجمة محمد بن مصعب العابد ما يأتي: " فأما قضية قعود نبينا على العرش فلم يثبت في ذلك نص بل في الباب حديث واه، وما فسر به مجاهد الآية كما ذكرناه ".

قلت: ولو أن المصنف رحمه الله تعالى وقف عند هذا البيان الواضح في أنه ليس في الباب نص ملزم للأخذ به لكان قد أحسن وسد بذلك الطريق على أهل الأهواء أن يتخذوا ذلك ذريعة للطعن في أهل السنة والحديث كما فعل الكوثري هنا بالذات في مقدمته لكتاب " تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري " (ص ٦٤) فقد قال فيهم بعد أن نبزهم بلقب الحشوية - أسوة بسلفه من الجهمية - وغيرهم: "ويقولون في الله مالا يُجوِّزه الشرع ولا العقل من إثبات الحركة له (تعالى) والنَقْلَة (ويعني بهما النزول) والحد والجهة (يعني العلو) (والقعود والإقعاد). فيعني هذا الذي نحن في صدد بيان عدم ثبوته.

أقول: لو أن المؤلف رحمه الله وقف عند ما ذكرنا لأحسن، ولكنه لم يقنع بذلك بل سَوَّد أكثر من صفحة كبيرة في نقل أقوال من أفتى بالتسليم بأثر مجاهد في تفسير قوله تعالى: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} قال: يجلسه أو يُقعِده على العرش. بل قال بعضهم: " أنا منكر على كل من رد هذا الحديث وهو عندي رجل سوء متهم " بل ذُكر عن الإمام أحمد أنه قال: هذا تلقته العلماء بقبول، إلى غير

=

=

ذلك من الأقوال التي تراها في الأصل ولا حاجة بنا إلى استيعابها في هذه المقدمة. وذكر في (مختصره) المسمى بـ (الذهبية) أسماء جمع آخرين من المحدثين سلَّموا بهذا الأثر ولم يتعقبهم بشيء هناك. وأما هنا فموقفه مضطرب أشد الاضطراب فبينما تراه؛ يقول في آخر ترجمة محمد بن مصعب العابد عقب قول من تلك الأقوال (ص ١٢٦): " فأبصِر - حفظك الله من الهوى - كيف آل الفكر بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر... " فأنت إذا أمعنت النظر في قوله هذا ظننت أنه ينكر هذا الأثر ولا يعتقده ويلزمه ذلك ولا يتردد فيه ولكنك ستفاجأ بقوله (ص ١٤٣) بعد أن أشار إلى هذا الأثر عقب ترجمة حرب الكرماني "وغضب العلماء لإنكار هذه المنقبة العظيمة التي انفرد بها سيد البشر ويبعد أن يقول مجاهد ذلك إلا بتوقيف... " ثم ذكر أشخاصا آخرين ممن سَلَّموا بهذا الأثر غير من تقدم فإذا أنت فرغت من قراءة هذا قلت: لقد رجع الشيخ من إنكاره إلى التسليم به لأنه قال: إنه لا يقال إلا بتوقيف ولكن سرعان ما تراه يستدرك على ذلك بقوله بعد سطور: " ولكن ثبت في " الصحاح " أن المقام المحمود هو الشفاعة العامة الخاصة بنبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - ". قلت: وهذا هو الحق في تفسير المقام المحمود دون شك ولا ريب للأحاديث التي أشار إليها المصنف رحمه الله تعالى وهو الذي صححه الإمام ابن جرير في " تفسيره " (١٥/ ٩٩) ثم القرطبي (١٠/ ٣٠٩) وهو الذي لم يذكر الحافظ ابن كثير غيره وساق الأحاديث المشار إليها، بل هو الثابت عند مجاهد نفسه من طريقين عنه عند ابن جرير. وذاك الأثر عنه ليس له طريق معتبر فقد ذكر المؤلف (ص ١٢٥) أنه "روي عن ليث بن أبي سليم وعطاء بن السائب وأبي يحيى القتات وجابر بن يزيد ".قلت: والأولان مختلطان والآخران ضعيفان بل الأخير متروك متهم. ولست أدري ما الذي منع المصنف - عفا الله عنه - من الاستقرار على هذا القول

=

=

وعلى جزمه بأن هذا الأثر منكر كما تقدم عنه فإنه يتضمن نسبة القعود على العرش لله ﷻ، وهذا يسلتزم نسبة الاستقرار عليه لله تعالى وهذا مما لم يرد فلا يجوز اعتقاده ونسبته إلى الله ﷻ، ولذلك ترى المؤلف رحمه الله أنكر على من قال ممن جاء بعد القرون الثلاثة: إن الله استوى استواءَ استقرارٍ " كما تراه في ترجمة (١٤٠ - أبو أحمد القصاب).وصرح في ترجمة (١٦١ - البغوي) أنه لا يعجبه تفسير " استوى " بـ " استقر ". إلى أن قال العلامة الألباني - رحمه الله -: فكنت أحب له [أي: للذهبي] رحمه الله أن لا يتردد في إنكار نسبة القعود إلى الله تعالى وإقعاده محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - على عرشه ما دام أنه لم يأت به نص ملزم عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ومعناه ليس له شاهد في السنة، ومعناه ولفظه لم يتوارد على ألسنة الأئمة وهذا هو الذي يدل عليه بعض كلماته المتقدمة حول هذا الأثر، ولكنه لما رأى كثيراً من علماء الحديث أقروه لم يجرؤ على التزام التصريح بالإنكار، وإنما تارة وتارة والله تعالى يغفر لنا وله، ومن العجيب حقّاً أن يعتمد هذا الأثر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى؛ فإنه نقل كلام القاضي أبي يعلى فيه وبعض أسماء القائلين به ثم قال ابن القيم رحمه الله: " قلت: وهو قول ابن جرير الطبري، وإمام هؤلاء كلهم مجاهد إمام التفسير، وهو قول أبي الحسن الدارقطني ومن شعره فيه ".

ثم ذكره المصنف فيما يأتي في ترجمة (١٣٤ - الدراقطني) وزاد بيتاً رابعاً لعل المصنف تعمد حذفه: " ولا تنكروا أنه قاعد ولا تنكروا أنه يقعده " قلت: وقد عرفت أن ذلك لم يثبت عن مجاهد بل صح عنه ما يخالفه كما تقدم. وما عزاه للدارقطني لا يصح إسناده كما بيناه في " الأحاديث الضعيفة " (٨٧٠) وأشرت إلى ذلك تحت ترجمة الدارقطني الآتية. وجعل ذلك قولاً لابن جرير فيه نظر؛ لأن كلامه في " التفسير " يدور على إمكان وقوع ذلك كما سبق لا أنه وقع وتحقق

=

=

ولذلك قال الإمام القرطبي في " تفسيره " (١٠/ ٣١١): "وعَضَّد الطبري جواز ذلك بشطط من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطف في المعنى وفيه بعد ولا ينكر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوله " ثم بين وجه تأويله بما لا حاجة بنا إلى ذكره والنظر فيه ما دام أنه أثر غير مرفوع، ولو افترض أنه في حكم المرفوع فهو في حكم المرسل الذي لا يحتج به في الفروع فضلاً عن الأصول كما ذكرت ذلك أو نحوه فيما يأتي -أي كتاب "مختصر العلو- من التعليق على قولة بعضهم: "ولا نتكلم في حديث فيه فضيلة للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بشيء " التعليق (٢٦٥).

ولعل المصنف رحمه الله تعالى يشير إلى ذلك بقوله في ترجمة (١٦٥ - القاضي العلامة أبو بكر بن العربي) وقد نقل عنه القول بهذا القعود معه على العرش: قال: "وما علمت للقاضي مستنداً في قوله هذا سوى قول مجاهد" وخلاصة القول: إن قول مجاهد هذا - وإن صح عنه - لا يجوز أن يتخذ ديناً وعقيدةً ما دام أنه ليس له شاهد من الكتاب والسنة، فيا ليت المصنف إذ ذكره عنده [أي في كتابه] جَزَمَ برده وعدم صلاحيته للاحتجاج به، ولم يتردد فيه فإنه هو اللائق به وبتورعه ا. هـ كلام العلامة الألباني رحمه الله وهو الراجح.

نعم قد اختلف أهل العلم في قبول هذا الأثر أعني أثر مجاهد رحمه الله تعالى والقول به، وبما دل عليه، فقبل فريق منهم أثر مجاهد رحمه الله تعالى وقالوا به، وممن ذهب إلى ذلك:

١ - أبو عبيد القاسم بن سلام.

٢ - أبو بكر عبدالله بن محمد ابن أبي شيبة.

٣ - عثمان بن محمد بن أبي شيبة.

٤ - هارون بن معروف (٢٣١هـ)

٥ - إسحاق بن إبراهيم الحنظلي التميمي المعروف بابن راهويه

=

=

٦ - إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل.

٧ - عبدالوهاب بن عبدالحكم بن نافع الوراق (٢٥١هـ).

٨ - محمد بن حماد بن بكر، أبو بكر المقرئ (٢٦٧هـ).

٩ - محمد بن إسحاق، أبو بكر الصاغاني (٢٧٠هـ).

١٠ - العباس بن محمد بن حاتم، أبو الفضل الدوري (٢٧١هـ).

١٠ - محمد بن علي بن عبدالله أبو جعفر الوراق الجرجاني، يعرف بـ "حمدان" (٢٧١هـ).

١١ - علي بن سهل بن المغيرة البغدادي البزار، أبو الحسن النسائي (٢٧١هـ).

١٢ - علي بن داود بن يزيد التميمي البغدادي أبو الحسن القنطري (٢٧٢هـ). ١٣ - أحمد بن محمد بن الحجاج أبو بكر المروذي (٢٧٥هـ).

١٤ - سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ) قال: قال: من أنكر هذا فهو عندنا متهم، ما زال الناس يحدثون بهذا، يريدون مغايظة الجهمية؛ وذلك أن الجهمية ينكرون أن على العرش شيء. قال: ما ظننت أن أحدا يذكر بالسنة يتكلم في هذا الحديث.

١٥ - أبو العباس هارون بن العباس الهاشمي (٢٧٦هـ).

١٦ - حرب بن إسماعيل الكرماني (٢٨٠هـ).

١٧ - أحمد بن أصرم بن خزيمة المزني (٢٨٥هـ).

١٨ - إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم أبو إسحاق الحربي (٢٨٥هـ) قال: قال: هذا حدث به عثمان بن أبي شيبة (٢٣٩هـ) في المجلس على رؤوس الناس، فكم ترى كان في المجلس عشرين ألفا؟ فترى لو أن إنسانا قام إلى عثمان فقال: لا تحدث بهذا الحديث، أو أظهر إنكاره تراه، كان يخرج من ثم إلا وقد قتل.

١٩ - زكريا بن يحيى بن عبدالملك بن مروان أبو يحيى الناقد (٢٨٥هـ).

=

=

٢٠ - ابن أبي عاصم (٢٨٧ هـ) (صاحب كتاب السنة).

٢١ - عبدالله بن أحمد بن محمد حنبل (٢٩٠هـ) (صاحب كتاب السنة) قال: قال: سمعت هذا الحديث من جماعة، وما رأيت أحدا من المحدثين ينكره، وكان عندنا في وقت ما سمعناه من المشائخ أن هذا الحديث إنما تنكره الجهمية.

٢٢ - محمد بن عثمان بن أبي شيبة (٢٩٧هـ) (صاحب كتاب العرش) قال: قال: وبلغني عن بعض الجهال دفع الحديث بقلة معرفته في رده مما أجازه العلماء ممن قبله ممن ذكرنا، ولا أعلم أحدا ممن ذكرت عنه هذا الحديث إلا وقد سلم الحديث على ما جاء به الخبر، وكانوا أعلم بتأويل القرآن وسنة الرسول ﷺ ممن رد هذا الحديث من الجهال، وزعم أن المقام المحمود هو الشفاعة لا مقام غيره.

٢٣ - محمد بن بشر بن شريك بن عبدالله القاضي (٢٩٧هـ).

٢٤ - أحمد بن عمر بن سريج أبو العباس بن السراج الشافعي (٣٠٦هـ).

٢٥ - أحمد بن الحسن بن عبدالجبار البغدادي (٣٠٦هـ).

٢٦ - حامد بن محمد بن شعيب البلخي (٣٠٩هـ).

٢٧ - محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ).

٢٨ - ابن خزيمة (٣١١هـ) (صاحب كتاب التوحيد).

٢٩ - أبو بكر الخلال (٣١١هـ) (صاحب كتاب السنة).

٣٠ - عبدالله بن سليمان بن الأشعث أبو بكر ابن أبي داود (٣١٦).

٣١ - عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز أبو القاسم البغوي (٣١٧هـ).

٣٢ - البربهاري (٣٢٩ هـ) (صاحب كتاب السنة).

٣٣ - أحمد بن سلمان بن الحسن أبو بكر النجاد (٣٤٨هـ).

٣٤ - محمد بن الحسن بن محمد الموصلي أبو بكر النقاش (٣٥١هـ).

٣٦ - الآجري (٣٦٠هـ) (صاحب كتاب الشريعة) وكلامه هو واضح في أصل

=

=

الكتاب.

٣٧ – الطبراني (٣٦٠هـ).

٣٨ – الدارقطني (٣٨٥هـ).

٣٩ – ابن بطة العكبري (٣٨٧هـ).

٤٠ – القاضي أبو يعلى الفراء (٤٥٨هـ).

٤١ – أبو محمد البغوي (٥١٦هـ) (صاحب كتاب شرح السنة).

٤٢ – أبو الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى الفراء (٥٢٦هـ).

٤٣ – شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) قال في مجموع الفتاوى" (٤/ ٣٧٤): إذا تبين هذا، فقد حدث العلماء المرضيون، وأولياؤه المقبولون: أن محمدا رسول الله يجلسه ربه على العرش معه. روى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد فى تفسير: (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا)، أو ذكر ذلك من وجوه أخرى مرفوعة، وغير مرفوعة. قال ابن جرير: وهذا ليس مناقضا لما استفاضت به الأحاديث من أن المقام المحمود هو الشفاعة باتفاق الأئمة من جميع من ينتحل الإسلام ويدعي، هـ لا يقول إن إجلاسه على العرش منكرا، وإنما أنكره بعض الجهمية، ولا ذكره في تفسير الآية منكر ا. هـ

وقال –رحمه الله– "في درء التعارض" (٣/ ٢٣٧) ما نصه: وقد صنف القاضي أبو يعلى كتابه في إبطال التأويل ردا لكتاب ابن فورك وهو وإن كان أسند الأحاديث التي ذكرها وذكر من رواها ففيها عدة أحاديث موضوعة كحديث الرؤية عيانا ليلة المعراج ونحوه وفيها اشياء عن بعض السلف رواها بعض الناس مرفوعة كحديث قعود الرسول ﷺ على العرش رواه بعض الناس من طرق كثيرة مرفوعة وهي كلها موضوعة وإنما الثابت أنه عن مجاهد وغيره من السلف وكان السلف والأئمة يروونه ولا ينكرونه ويتلقونه بالقبول وقد يقال إن مثل هذا لا يقال

=

=

إلا توقيفا لكن لا بد من الفرق بين ما ثبت من ألفاظ الرسول وما ثبت من كلام غيره سواء كان من المقبول أو المردود اهـ

٤٤ - ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ).

٤٥ - الشوكاني (١٢٥٠هـ).

٤٦ - الشيخ سليمان بن سحمان (١٣٤٩هـ).

٤٧ - الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - مفتي الديار السعودية سابقا - (١٣٨٩هـ).

٤٨ - الشيخ محمد خليل هراس (١٣٩٦هـ).

٤٩ - عبدالعزيز آل الشيخ مفتي المملكة العربية السعودية.

٥٠ - الشيخ صالح الفوزان.

٥١ - الشيخ الراجحي، قال في شرحه لكتاب الاعتقاد: كل هذه الآثار استدل بها بعض العلماء على أن المقام المحمود أنه يجلسه على العرش يوم القيامة، هذا مروي عن ابن عباس ومجاهد وعائشة وعمر بن الخطاب، وقال الإمام أحمد تلقاها العلماء بالقبول، وقال عبد الله: أنا منكر على كل من رد هذا الحديث.

القول الثاني: رد أثر مجاهد رحمه الله تعالى والطعن في متنه.

قال ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٥٧ - ١٥٨): ومجاهد وإن كان أحد المقدمين في العلم بتأويل القرآن فإن له قولين في تأويل اثنين هما مهجوران عند العلماء مرغوب عنهما أحدهما هذا والآخر قوله في قول الله ﷻ {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً} [الإسراء:٧٩] حدثنا أحمد بن عبد الله حدثنا أبو أمية الطرسوسي حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً} قال يوسع له على العرش فيجلسه معه وهذا قول مخالف للجماعة من الصحابة ومن بعدهم فالذي عليه العلماء في تأويل هذه الآية أن

=

=

المقام المحمود الشفاعة والكلام في هذه المسألة من جهة النظر يطول وله موضع غير كتابنا هذا وبالله التوفيق. ا. هـ

ورده أيضا العلامة الألباني وقد تقدم كلامه في أول التعليق.

وسئل العلامة العثيمين كما في شرح السفارينية (ص٤٦٣): هل المقام المحمود ما ذكره بعض العلماء من أن الله سبحانه وتعالى يُجلس الرسول ﷺ على العرش؟

فأجاب: هذا إنْ صح فهو من المقام المحمود لا شك، إذا صح فهو من المقام المحمود ا. هـ

وسئل في لقاءات الباب المفتوح: هل صحيح أن المقام المحمود الذي وعده الله ﷻ لرسوله ﷺ هو مكان العرش كما ورد في بعض الآثار؟

فأجاب: الصحيح أن المقام المحمود عام؛ كل مقام يحمده الناس فيه، ومن ذلك الشفاعة العظمى، حين يتدافع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الشفاعة، حتى تصل إليه ﷺ فيشفع فيشفعه الله ﷻ، هذا هو الصحيح.. أنه عام. ا. هـ

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الحموية: ٠٠ أثر مجاهد في قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) [الإسراء:٧٩] وأن يجلسه تعالى على عرشه هذا كان الناس يمتحنون به في زمن الفتنة في القرن الثاني والثالث لما حصلت فتنة خلق القرآن وقبل ذلك كان الناس يمتحنون بهذا الأثر أثر مجاهد، ومن لم يكن من أهل السنة نفاه وقال لا أقول به، ومن كان من أهل السنة أثبته؛ لأن المراد ليس هو الإجلاس المراد منه فيه التصريح بالاستواء الذي معناه الجلوس، فأوضح الاستواء أنه بمعنى الجلوس إجلاس النبي ﷺ مع الرب جل وعلا على العرش، وإلا فالإجلاس لم تثبت به السنة، ما نقول ابتداء أنه من عقيدتنا أنه يجلس عليه الصلاة والسلام نسكت عن ذلك لا نذكرها؛ لكن قالها مجاهد رحمه الله، وابتلي الناس بذلك لأنها تفسر معنى الاستواء، فمن رد هذا؛

=

=

لأن بعض الناس يقول أنا أقر بالاستواء ويعني بالاستواء معنى آخر، فهذا الأثر صار فارقا بين الاسم وغيره، فمن لم يقل به قيل أنه من المبتدعة في الزمن الأول، لهذا من أهل العلم طول عليه الكلام مثل الخلال في السنة أربعين صفحة أو خمسين صفحة على هذا، وكذلك الدارقطني والطبراني ومن الآثار التي ينبغي الانتباه لمعناها، وإلا فالقاعدة عندكم أنه لا يتجاوز القرآن والحديث. ا. هـ

وقال في شرح الواسطية: أولا ليس من كلام النبي ﷺ ثم هذا من اجتهاد مجاهد يكون هذا اجتهاد من مجاهد ذكره اجتهادا وهو ما يثبت صفة من الصفات، لكن أثر مجاهد هذا كان فاصلا بين أهل السنة وغيرهم في زمن من الأزمنة، في الأزمنة الأولى كان هو الفارق أثر مجاهد في إجلاس النبي ﷺ على العرش وقال به جماعة من أهل العلم لأجل أن الإجلاس فيه إثبات استواء الله على عرشه بذلك سبحانه، ولهذا يهتمون به، فمن أنكر خبر مجاهد فهو جهمي لماذا؟ لأنهم لا يريدون - من أنكره - لا يريد إنكار الفضيلة الخاصة بالنبي ﷺ وإنما يريد إنكار الاستواء على العرش وعلو الله جل وعلا بذلك •• فمن أنكر خبر مجاهد فهو جهمي لماذا؟

لأنهم لا يريدون - يعني من أنكره - لا يريد إنكار الفضيلة الخاصة بالنبي ﷺ وإنما يريد إنكار الاستواء على العرش وعلو الله جل وعلا بذلك.

ولهذا كان هذا الأثر عن مجاهد في إجلاس النبي ﷺ على عرش الله جل وعلا أنه فارق بين أهل السنة وأهل البدعة والتجهم، لأن أهل السنة يروونه ويقبلون ما جاء به مجاهد في هذا الحديث لكن ما تفرد به من جهة الإجلاس لا يأخذون به ويقولون هو من قول مجاهد وعلى عهدته لكن هو يشمل العلو والاستواء وهذا رواه أهل الحديث والأمة وتلقته - تلقت يعني مضمونه - بالقبول.

هذا مثل حديث الأوعال، له نظائر، في أحاديث تضعف أسانيدها وبعضها يكون

=

=

واهيا، لو رأيت مثلا كتاب العرش وما جاء فيه لابن أبي شيبة تجد فيه أخبارا ضعيفة وأخبارا ضعيفة جدا إلى آخره يريد الناقل يريد المؤلف بذلك أن هذه الأخبار قبلها أهل السنة يعني قبلوا بمضمونها بما دلت على استواء الله على عرشه ودلت على علو الذات لله تبارك وتعالى، فلا يدخل أثر مجاهد في ذلك لأن هذا الكلام يراد به ما جاء في حديث النبي عليه الصلاة والسلام.

القول الرابع: أنه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات، ذكره صاحب الكشاف والمقتدون به في التفسير، ويجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصير إليها متعين، وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعنى قوله وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد أنه عام في كل ما هو كذلك، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق، كما ذكره في ذبح البقرة، ولهذا قال هنا.

**وقيل**: المراد الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناوله يعني لفظ المقام، والفرق بين العموم البدلي والعموم الشمولي معروف، فلا نطيل بذكره.

قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} [الإسراء: ٨٠]، أي:" وقل: ربِّ أدخلني فيما هو خير لي مدخل صدق، وأخرجني مما هو شر لي مخرج صدق ".

قال الماوردي:" الصدق ها هنا عبارة عن الصلاح وحسن العاقبة".

وفي قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} [الإسراء: ٨٠]، وجوه:

**أحدها**: أن مدخل الصدق دخوله إلى المدينة حين هاجر إليها، ومخرج صدق بخروجه من مكة حين هاجر منها، قاله ابن عباس، والحسن، قتادة، وابن زيد.

قال الحسن:" كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، أو يطردوه، أو

=

=

يُوثِقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله: {أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ} ".

**الثاني**: أدخلني مدخل صدق إلى الجنة وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة، قاله الحسن.

**الثالث**: أدخلني مدخل صدق فيما أرسلتني به من النبوة، وأخرجني منه بتبليغ الرسالة مخرج صدق، وهذا قول مجاهد.

**الرابع**: أدخلني في الإسلام مدخل صدق، وأخرجني من الدنيا مخرج صدق، قاله أبو صالح.

الخامس: أدخلني مكة مدخل صدق وأخرجني منها مخرج صدق آمنـًا، قاله الضحاك.

السادس: أدخلني في قبري مدخل صدق (أمتني إماتة صِدْق)، وأخرجني منه مخرج صدق، قاله ابن عباس.

السابع: أدخلني فيما أمرتني به من طاعتك مدخل صدق، وأخرجني مما نهيتني عنه من معاصيك مخرج صدق، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

**قال الطبري**:" وأشبه هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: معنى ذلك: وأدخلني المدينة مُدْخل صدق، وأخرجني من مكة مُخْرج صدق، لأن ذلك عقيب قوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلا}، وقد دللنا فيما مضى، على أنه عَنَى بذلك أهل مكة؛ فإذ كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله ﷺ، ليخرجوه عن مكة، كان بيِّنا، إذ كان الله قد أخرجه منها، أن قوله {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} أمر منه له بالرغبة إليه في أن يخرجه من البلدة التي هم المشركون بإخراجه منها مُخْرج صدق، وأن يدخله

=

=

البلدة التي نقله الله إليها مُدْخل صدق".

قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء: ٨٠]، أي:" واجعل لي مِن لدنك حجة ثابتة، تنصرني بها على جميع مَن خالفني".

وفي قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء: ٨٠]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: أن يجمع له بين القلوب باللين وبين قهر الأبدان بالسيف. أفاده الماوردي.

**الثاني**: أن السلطة على الكافرين بالسيف، وعلى المنافقين بإقامة الحدود قاله الحسن.

**الثالث**: حجة بيّنة، قاله مجاهد.

**الرابع**: يعني: مُلكـًا عزيزاً أقهر به العصاة، قاله قتادة، وبه قال ابن كثير.

قال قتادة:" وإن نبيّ الله علم أن لا طاقةَ له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ﷻ، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، وإن السلطان رحمة من الله جعلها بين أظهر عباده، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم".

قال ابن كثير: وهو الأرجح: لأنه لا بد من الحق من قهر ممن عاداه، وناوأه... وفي الحديث: إن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن" أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع".

ولهذا قال الإمام الحسن بن علي البربهاري رحمه الله: "إذا رأيت الرجل يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحب هوى، وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله تعالى".

=

=

وقال الفضيل بن عياض: "لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا للسلطان، قيل له: يا أبا علي فَسِّر لنا هذا؟ قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعْدُني، وإذا جعلتها في السلطان صلح، فصلح بصلاحه العباد والبلاد، فأُمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم، وإن جاروا وظلموا؛ لأن جورهم وظلمهم على أنفسهم، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين".

وهكذا أيضـًا تكون النصيحة والدعاء للعلماء إذا حصل منهم قصور أو نسيان؛ لأنهم بشر وغير معصومين، وهم من أعظم ولاة أمر المسلمين، فلا يجوز سبهم، ولا التشهير بهم، ولا تتبع عثراتهم ونشرها بين الناس؛ لأن في ذلك فساداً كبيراً.

ولهذا قال ابن عساكر رحمه الله تعالى: "اعلم يا أخي - وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلني وإياك ممن يتقيه حق تقاته - أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أسرار منتقصهم معلومة، وأن من أطال لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب، {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور:٦٣]، والله المستعان، وعليه التكلان".

**قال الطبري:**" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك أمر من الله تعالى نبيّه بالرغبة إليه في أن يؤتيه سلطانا نصيرا له على من بغاه وكاده، وحاول منعه من إقامته فرائض الله في نفسه وعباده، وإنما قلت ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون هموا به من إخراجه من مكة، فأعلمه الله ﷻ أنهم لو فعلوا ذلك عوجلوا بالعذاب عن قريب، ثم أمره بالرغبة إليه في إخراجه من بين أظهرهم إخراج صدق يحاوله عليهم، ويدخله بلدة غيرها، بمدخل صدق يحاوله عليهم ولأهلها في دخولها إليها، وأن يجعل له سلطانا نصيرا على أهل البلدة التي أخرجه أهلها منها، وعلى كلّ من كان لهم شبيها، وإذا أوتي ذلك، فقد أوتي لا شكّ حجة بينة".

=

=

(وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) قرأ الجمهور مدخل صدق ومخرج صدق بضم الميمين. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم بفتحهما، وهما مصدران بمعنى الإدخال والإخراج، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود أي: إدخالا يستأهل أن يسمى إدخالا، ولا يرى فيه ما يكره. قال الواحدي: وإضافتهما إلى الصدق مدح لهما، وكل شيء أضفته إلى الصدق فهو مدح.

قال ابن الجوزي: وللمفسرين في المراد بهذا المدخل والمخرج أحد عشر قولا: أحدها: أدخلني المدينة مدخل صدق، وأخرجني من مكة مخرج صدق. روى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه هذه الآية. وإلى هذا المعنى ذهب الحسن في رواية سعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد. والثاني: أدخلني القبر مدخل صدق، وأخرجني منه مخرج صدق، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أدخلني المدينة، وأخرجني إلى مكة، يعني: لفتحها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أدخلني مكة مدخل صدق، وأخرجني منها مخرج صدق، فخرج منها آمنا من المشركين، ودخلها ظاهرا عليها يوم الفتح، قاله الضحاك. والخامس: أدخلني مدخل صدق الجنة، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة، رواه قتادة عن الحسن. والسادس: أدخلني في النبوة والرسالة، وأخرجني منها مخرج صدق، قاله مجاهد، يعني: أخرجني مما يجب علي فيها. والسابع: أدخلني في الإسلام، وأخرجني منه، قاله أبو صالح يعني: من أداء ما وجب علي فيه إذا جاء الموت. والثامن: أدخلني في طاعتك، وأخرجني منها، أي: سالما غير مقصر في أدائها، قاله عطاء. والتاسع: أدخلني الغار، وأخرجني منه، قاله محمد بن المنكدر. والعاشر: أدخلني في الدين، وأخرجني من الدنيا وأنا على الحق، ذكره الزجاج. والحادي عشر: أدخلني مكة،

=

=

وأخرجني إلى حنين، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وأما إضافة الصدق إلى المدخل والمخرج، فهو مدح لهما ا.هـ

**قال الطبري**: وأشبه هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: معنى ذلك: وأدخلني المدينة مدخل صدق، وأخرجني من مكة مخرج صدق. اه ووافقه ابن كثير في «تفسيره».

والآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء، ومعناها: رب أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري عنها.

قوله (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التسلط على الكافرين بالسيف، وعلى المنافقين باقامة الحدود، قاله الحسن. والثاني: أنه الحجة البينة، قاله مجاهد. والثالث: الملك العزيز الذي يقهر به العصاة، قاله قتادة.

**قال الطبري**: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك أمر من الله تعالى نبيه بالرغبة إليه في أن يؤتيه سلطانا نصيرا له على من بغاه وكاده، وحاول منعه من إقامته فرائض الله في نفسه وعباده.

قال ابن كثير: وهو الأرجح، لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب.

وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيرا من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع، انتهى.

قوله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء: ٨١]، أي:" وقل -أيها

=

=

الرسول- للمشركين: جاء الإسلام وذهب الشرك".

وفي قوله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء: ٨١]، ثلاثة وجوه:

**أحدها**: أن الحق هو القرآن، والباطل هو الشيطان، قاله قتادة، وبه قال يحيى بن سلام، والبغوي.

قال يحيى بن سلام:" «الباطل»، يعني: الشِّرك الذي ليس له أصل ثابت".

**الثاني**: أن الحق الإسلام والباطل عبادة الأصنام، قاله مقاتل.

**الثالث**: أن الحق الجهاد، والباطل الشرك، قاله ابن جريج.

**قال الطبري**:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين أن الحق قد جاء، وهو كل ما كان لله فيه رضا وطاعة، وأن الباطل قد زهق: يقول: وذهب كل ما كان لا رضا لله فيه ولا طاعة مما هو له معصية وللشيطان طاعة، وذلك أن الحق هو كل ما خالف طاعة إبليس، وأن الباطل: هو كل ما وافق طاعته، ولم يخصص الله عز ذكره بالخبر عن بعض طاعاته، ولا ذهاب بعض معاصيه، بل عم الخير عن مجيء جميع الحق، وذهاب جميع الباطل، وبذلك جاء القرآن والتنزيل، وعلى ذلك قاتل رسول الله ﷺ أهل الشرك بالله، أعني على إقامة جميع الحق، وإبطال جميع الباطل".

قوله تعالى: {إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١]، أي:"، إن الباطل لا بقاء له ولا ثبات، والحق هو الثابت الباقي الذي لا يزول".

عن ابن عباس:" {إن الباطل كان زهوقا}، يقول: ذاهبا".

قال يحيى بن سلام: " «الزهوق»: الداحض الذاهب".

عن ابن مسعود، قال: "دخل رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها ويقول: {جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا} ".

قوله (وقل جاء الحق وزهق الباطل) فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الحق: الإسلام،

=

=

والباطل: الشرك، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن الحق: القرآن، والباطل: الشيطان، قاله قتادة. والثالث: أن الحق: الجهاد، والباطل: الشرك، قاله ابن جريج. والرابع: الحق: عبادة الله، والباطل: عبادة الأصنام، قاله مقاتل.

ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائنا ما كان.

قال الطبري رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أمر الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يخبر المشركين أن الحق قد جاء وهو كل ما كان لله فيه رضا وطاعة، وأن الباطل قد زهق، يقول: وذهب كل ما كان لا رضا لله فيه ولا طاعة مما هو له معصية وللشيطان طاعة، وبذلك جاء القرآن والتنزيل، وعلى ذلك قاتل رسول الله ﷺ أهل الشرك بالله، أعني على إقامة جميع الحق، وإبطال جميع الباطل ا.هـ

ومعنى زهق: بطل واضمحل، ومنه زهوق النفس وهو بطلانها إن الباطل كان زهوقا أي: إن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت، والحق ثابت دائما

قوله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢]، أي:" وننزل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب مِنَ الأمراض، كالشك والنفاق والجهالة، وما يشفي الأبدان بِرُقْيتها به، وما يكون سببًا للفوز برحمة الله بما فيه من الإيمان".

قال قتادة:" إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه، {ولا يزيد الظالمين} به {إلا خسارا}، أنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، وإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء يستشفى به من الجهل من الضلالة، ويبصر به من العمى للمؤمنين ورحمة لهم دون الكافرين به، لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله، ويحلون حلاله،

=

=

ويحرمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة، وينجيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من الله، أنعم بها عليهم".

قال مكي بن ابي طالب:" أي: ما يستشفي به المؤمنون ورحمة لهم دون الكافرين".

قال السمعاني:" قيل: إن " من " ها هنا للتجنيس لا للتبعيض. ومعناه: وننزل القرآن الذي منه الشفاء، وقيل: وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة أي: ما كله شفاء فيكون المراد من البعض هو الكل، كما قال الشاعر:

أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمامُها... ".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ – وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد – إنه: {شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة".

وفي قوله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢]، ثلاثة وجوه:

**أحدها**: شفاء من الضلال، لما فيه من الهدى.

قال النحاس:" أي: شفاء في الدين لما فيه من الدلائل الظاهرة والحجج الباهرة فهو شفاء للمؤمنين أن لا يلحقهم في قلوبهم مرض ولا ريب".

وقال أبو الليث:" أي: بيان من العمى".

قال الثعلبي:" أي: بيان من الضلالة والجهالة بين للمؤمن ما يختلف فيه ويشكل عليه، فيشفي به من الشبهة ويهدي به من الحيرة وإذا فعل ذلك رحمه الله، فهو

=

=

شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها كما يشفي المريض إذا زالت العلل عنه".

**الثاني**: شفاء من السقم، لما فيه من البركة.

حكي الواحدي عن ابن عباس: "يريد شفاءً من كل داء".

قال أبو الليث:" يقال: شفاء للبدن، إذا قرئ على المريض يبرأ، أو يهون عليه".

روي أن النبيّ -ﷺ- قال: "من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله".

**الثالث**: شفاء من الفرائض والأحكام، لما فيه من البيان. وهذا معنى قول مقاتل.

وتفسير «الرحمة» -ها هنا- على الوجوه الأُوَلِ الثلاثة:

**أحدها**: أنها الهدى.

**الثاني**: أنها البركة.

**الثالث**: أنها البيان.

قوله تعالى: {وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢]، أي:" ولا يزيد هذا القرآن الكفار عند سماعه إلا كفرًا وضلالا؛ لتكذيبهم به وعدم إيمانهم".

قال النحاس:" أي: يكفرون فيزدادون خسارا. وهذا مجاز".

**قال الطبري**:" يقول: ولا يزيد هذا الذي ننزل عليك من القرآن الكافرين به إلا إهلاكا، لأنهم كلما نزل فيه أمر من الله بشيء أو نهى عن شيء كفروا به، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم ذلك خسارا إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار، ورجسا إلى رجسهم قبل".

**قال البغوي**:" لأن الظالم لا ينتفع به والمؤمن من ينتفع به فيكون رحمة له، وقيل: زيادة الخسارة للظالم من حيث أن كل آية تنزل يتجدد منهم تكذيب ويزداد لهم خسارة".

قال ابن كثير:" وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وتكذيبًا وكفرًا. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ

=

=

آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات في ذلك كثيرة".

قال الحسن: "والله ما جالس القرآن أحدٌ، إلا قام من عنده بزيادة، أو نقصان. دليله قوله: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً} [الإسراء: ٨٢]".

* وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين قرأ الجمهور ننزل بالنون. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف. وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف، ورواها المروزي عن حفص، ومن لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس، وقيل: للتبعيض، وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه، ورده ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله.

واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على القولين الأول: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه. القول الثاني: أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنييه. ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى.

=

=

ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم فقال: ولا يزيد الظالمين إلا خسارا أي: ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذي وضعوا التكذيب موضع التصديق، والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان إلا خسارا أي: هلاكا لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمردا وعنادا، فعند ذلك يهلكون وقيل: الخسار: النقص، كقوله: فزادتهم رجسا إلى رجسهم.

قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ} [الإسراء: ٨٣]، أي:" وإذا أنعمنا على الإنسان من حيث هو بمال وعافية ونحوهما".

قال مقاتل:" يعني الكافر بالخير، يعني: الرزق".

قال يحيى بن سلام:" يعني: المشرك، أعطيناه السعة والعافية".

قوله تعالى: {أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ} [الإسراء: ٨٣]، أي:"تولَّى وتباعد عن طاعة ربه".

قال مجاهد:" يقول: «تباعد منا»".

قال أبو عبيدة:" أي: تباعد عنى".

قال مقاتل:" يقول: وتباعد بجانبه".

قال يحيى بن سلام:" {أعرض} عن الله".

قال سهل بن عبد الله:" يعني: عن الدعاء والشكر على ما أنعم به عليه، واشتغل بالنعمة، وافتخر بغير مفتخر به".

قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} [الإسراء: ٨٣]، أي:" وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائسًا قانطًا من رحمة الله".

قال ابن عباس: يريد إذا أصابه مرض أو فقر يئس من رحمة الله".

قال مقاتل:" يعنى: وإذا أصابه الفقر كان آيسا من الخير".

=

قال يحيى بن سلام:" {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ} الأمراض والشدائد".
قال الصابوني:" الآية تمثيلٌ لطغيان الإنسان فإن أصابته النعم بطر وتكبَّر، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله: {إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعـًا إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعـًا وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعـًا} [المعارج: ١٩ - ٢١]".
* ثم نبه سبحانه على فتح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال: وإذا أنعمنا على الإنسان أي: على هذا الجنس بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والغنى أعرض عن الشكر لله والذكر له ونأى بجانبه النأي: البعد، والباء للتعدية أو للمصاحبة، وهو تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه، أي: ناحيته، والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره، ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا الإعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به، ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم. وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر «ناء» مثل باغ بتأخير الهمزة على القلب، وقرأ حمزة «نئي» بإمالة الفتحتين، ووافقه الكسائي، وأمال شعبة والسوسي الهمزة فقط. وقرأ الباقون بالفتح فيهما. وإذا مسه الشر من مرض أو فقر كان يؤسا شديد اليأس من رحمة الله والمعنى: أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي، وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة، ولا ينافي ما في هذه الآية قوله تعالى: وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونظائره، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية، ولا يبعد أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه.
قوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)} [الإسراء: ٨٤]

=

التفسير:

قل -أيها الرسول- للناس: كل واحد منكم يعمل على ما يليق به من الأحوال، فربكم أعلم بمن هو أهدى طريقًا إلى الحق.

قوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} [الإسراء: ٨٤]، أي:" قل -أيها الرسول- للناس: كل واحد منكم يعمل على ما يليق به من الأحوال".

وفي قوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} [الإسراء: ٨٤]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: على طبيعته على حِدَته. قاله مجاهد.

**الثاني**: على طبيعته، قاله ابن عباس.

**الثالث**: على دينه، و «الشاكلة»: الدين. قاله ابن زيد.

**الرابع**: على ناحيته. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وبه قال الفراء، والطبري.

قال قتادة:" على ناحيته وعلى ما ينوي".

قال الفراء:" وسمعت بعض العرب من قضاعة يقول: وعبد الملك إذا ذاك على جديلته وابن الزبير على جديلته". قال ابن الجوزي:" يريد: على ناحيته".

الخامس: على ناحيته وخليقته. ومنها قولهم: هذا من شكل هذا. قاله أبو عبيدة.

السادس: على نيته. قاله الحسن.

السابع: على طريقته وعلى مذهبه. قاله الزجاج.

قال الزجاج: "ويدل عليه: (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا}، أي: أهدى طريقا. ويقال: هذا طريق ذو شواكل، أي: يتشعب منه طرق جماعة".

الثامن: على عادته. حكاه الماوردي.

التاسع: على أخلاقه. حكاه الماوردي.

قلت: مؤدى هذه الأقوال واحد.

=

=

قال النحاس:" حقيقة المعنى -والله أعلم-:كل يعمل على النحو الذي جرت به عادته وطبعة والمعنى وليس ينبغي أن يكون كذلك إنما ينبغي أن يتبع الحق حيث كان وقد ظهرت البراهين وتبين الحق، وهذا يرجع الى قول الحسن".

قال الواحدي: معناه:" على مذهبه وطريقته فالكافر يعمل ما يشبه طريقته من الإعراض عند الإنعام واليأس عند الشدَّة والمؤمن يفعل ما يشبه طريقته من الشكر عند الرَّخاء والصَّبر والاحتساب عند البلاء ألا ترى أنَّه قال: {فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً} أَيْ: بالمؤمن الذي لا يُعرض عند النِّعمة ولا ييئس عند المحنة".

قوله تعالى: {فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا} [الإسراء: ٨٤]، أي:" فربكم أعلم بمن هو أهدى طريقًا إلى الحق".

**قال الطبري**:" يقول: ربكم أعلم بمن هو منكم أهدى طريقا إلى الحقّ من غيره".

قال يحيى بن سلام:" أي: فهو يعلم أن المؤمن أهدى سبيلا من الكافر".

قوله (قل كل يعمل على شاكلته الشاكلة) قال الفراء: الطريقة، وقيل: الناحية، وقيل: الطبيعة، وقيل: الدين، وقيل: النية، وقيل: الجبلة، وهي مأخوذة من الشكل، يقال: لست على شكلي ولا على شاكلتي، والشكل: هو المثل والنظير. والمعنى: أن كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التي ألفها، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق، فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة، وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم.

قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)} [الإسراء: ٨٥]

عن عبد الله، قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة، وهو يتوكأ على

=

=

عسيب معه، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنسألنه، فقام رجل منهم، فقال يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه، قال: «(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتوا من العلم إلا قليلا)» قال الأعمش: هكذا في قراءتنا.

قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [الإسراء: ٨٥]، أي:" ويسألك الكفار عن حقيقة الروح تعنتًا".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ويسألك الكفار بالله من أهل الكتاب عن الروح ما هي؟ ".

قال مجاهد:" يهود تسأله".

وفي قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [الإسراء: ٨٥]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: أنه جبريل عليه السلام، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة. كما قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: ١٩٣].

وقال قتادة: «وكان ابن عباس يكتمه».

**الثاني**: ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بجميع ذلك، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو مروي عن ابن عباس أيضا.

قال علي رضي الله عنه:"هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، لكل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها سبعون ألف لغة يسبح الله عز وجل بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كلّ تسبيحة مَلكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة".

وقال ابن عباس:" «هو ملك واحد له عشرة آلاف جناح جناحان منها ما بين المشرق والمغرب ، له ألف وجه في كل وجه ألف وجه ، ولكل وجه ألف لسان

=

=

وعينان وشفتان تسبحان الله إلى يوم القيامة».

وقال السدي:" الروح ملك من الملائكة في السماء السابعة، ووجهه على صورة الإنسان وجسده على صورة الملائكة، وذلك قوله في عم يتساءلون: {يوم يقوم الروح} [النبأ: ٣٨]، يعني ذلك الملك، وهو أعظم من كل مخلوق، وتحت العرش، وهو حافظ على الملائكة يقوم على يمين العرش صفا واحدا والملائكة صف، فذلك قوله: {ويسألونك عن الروح} [الإسراء: ٨٥]، يعني ذلك الملك".

**الثالث**: أنه القرآن، قاله الحسن، كما قال تعالى: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا} [الشورى: ٥٢]، فيكون معناه: أن القرآن من أمر الله تعالى ووحيه الذي أنزل عليّ وليس هو مني.

**الرابع**: أنه عيسى ابن مريم هو من أمر الله تعالى وليس كما ادعته النصارى أنه ابن الله، ولا كما افترته اليهود أنه لغير رشدة. حكاه الماوردي.

الخامس: أنه روح الحيوان، وهي مشتقة من «الريح».

السادس: أن الروح خلق من خلق الله لهم أيد وأرجل. حكاه يحيى بن سلام عن الأعمش عن بعض أصحابه التابعين.

قال قتادة:"سأله عنها قوم من اليهود وقيل في كتابهم أنه إن أجاب عن الروح فليس بنبيّ فقال الله تعالى: {قل الروح من أمر ربي}، فلم يجبهم عنها".

قوله تعالى: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء: ٨٥]، أي:" فأجبهم بأن حقيقة الروح وأحوالها من الأمور التي استأثر الله بعلمها".

قال الفراء:" يقول: من علم ربي، ليس من علمكم".

**قال الطبري:**" يعني: أنه من الأمر الذي يعلمه الله ﷻ دونكم، فلا تعلمونه ويعلم ما هو".

قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥]، أي:" وما أُعطيتم

=

=

أنتم وجميع الناس من العلم إلا شيئًا قليلا".

**قال الطبري:**" وما أوتيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا قليلا".

قال عطاء بن يسار:" نزلت بمكة {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود، فقالوا: يا محمد ألم يبلغنا أنك تقول {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} أفعنيتنا أم قومك؟ قال: كلا قد عنيت، قالوا: فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم، فأنزل الله {ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام} .... إلى قوله {إن الله سميع بصير} ".

وفيمن أريد بقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥]،، قولان:

أحدهما: أنهم اليهود خاصة، قاله قتادة.

**الثاني**: النبي -ﷺ- وسائر الخلق. قاله ابن جريج.

**قال الطبري:**" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: خرج الكلام خطابا لمن خوطب به، والمراد به جميع الخلق، لأن علم كل أحد سوى الله، وإن كثر في علم الله قليل، وإنما معنى الكلام: وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلا من كثير مما يعلم الله".

* ثم لما انجر الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل عليه، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال: ويسئلونك عن الروح قد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين. قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحدا من خلقه، ولم يعط علمه أحدا من عباده، فقال: قل الروح من أمر ربي أي: إنكم لا تعلمونه، وقيل: الروح المسؤول عنه جبريل، وقيل: عيسى، وقيل: القرآن،

=

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦).

=

وقيل: ملك من الملائكة عظيم الخلق، وقيل: خلق كخلق بني آدم، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة في إيراده، والظاهر القول الأول، وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح، لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله، ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال: قل الروح من أمر ربي من بيانية، والأمر الشأن، والإضافة للاختصاص، أي: هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده وقيل: معنى من أمر ربي من وحيه وكلامه لا من كلام البشر وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر، ويردعهم أعظم ردع، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا.

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه، ولم يطلع عليه أنبياءه، ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته، فضلا عن أممهم المقتدين بهم، فيا لله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه، ولم يستأثر بعلمه. ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا أي: أن علمكم الذي علمكم الله، ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإن أوتي حظا من العلم وافرا، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر، كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام.

{ولئن} لام قسم {شئنا لنذهبن بالذي أَوْحَيْنَا إلَيْك} أَيْ الْقُرْآن بِأَنْ نَمْحُوهُ مِنْ الصدور والمصاحف {ثم لا تجد لك به علينا وكيلا}.

إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧).

{إلَّا} لَكِنْ أَبْقَيْنَاهُ {رَحْمَة مِنْ رَبّك إنَّ فَضْله كَانَ عَلَيْك كَبِيرًا} عَظِيمًا حَيْثُ أَنْزَلَهُ عَلَيْك وَأَعْطَاك الْمَقَام الْمَحْمُود وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الفضائل.

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨).

{قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن} في الفصاحة والبلاغة {لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيرًا} مُعِينًا نَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِهِمْ وَلَوْ نَشَاء لقلنا مثل هذا.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩).

{ولقد صرفنا} بينا {لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآن مِنْ كُلّ مَثَل} صِفَة لِمَحْذُوفٍ أَيْ مَثَلًا مِنْ جِنْس كُلّ مَثَل لِيَتَّعِظُوا {فَأَبَى أَكْثَر النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {إلَّا كُفُورًا} جُحُودًا للحق[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: أتى رسول الله ﷺ محمود بن سيحان وعمر بن أصان وبحري بن عمرو وعزير بن أبي عزير وسلام بن مشكم، فقالوا: أخبرنا يا محمد بهذا الذي جئتنا به حق من عند الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنا لا نراه متناسقًا كما تناسق التوراة، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوبًا عندكم، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاؤوا به"، =

=

فقال عند ذلك -وهم جميعًا فنحاص وعبد الله بن صوريا وكنانة بن أبي الحقيق وأشيع وكعب بن أسد وسموأل بن زيد وجبل بن عمرو-: يا محمد! ما يعلمك هذا إنس ولا جان، فقال رسول الله ﷺ: "أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأني رسول الله تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل"، فقالوا: يا محمد! إن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما شاء، ويقدر منه على ما أراد؛ فأنزل علينا كتابًا نقرؤه ونعرفه، وإلا؛ جئناك بمثل ما تأتي به؛ فأنزل الله ﷻ فيهم وفيما قالوا: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٠٦، ١٠٧)، وابن أبي حاتم وابن المنذر؛ كما في "الدر المنثور" (٥/ ٣٣٦) جميعهم من طريق ابن إسحاق ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن عكرمة، عن ابن عباس به.

وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة محمد شيخ ابن إسحاق؛ فهو مجهول؛ كما قال الحافظان الذهبي والعسقلاني، وفي متنه نكارة.

قال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٦٦): "وفي هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به بالمدينة -والله أعلم-".

* قوله تعالى: {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الإسراء: ٨٦]، أي: ولئن شئنا" لمحونا هذا القرآن الذي هو مِنَّةُ الرحمن من صدرك يا محمد، فإن ذلك في قدرتنا".

قال يحيى بن سلام:" يعني: القرآن حتى لا يبقى منه شيء".

قال مقاتل:" وذلك حين دعى النبي- ﷺ- إلى دين آبائه".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي آتيناك من العلم الذي

=

=

أوحينا إليك من هذا القرآن لنذهبنّ به، فلا تعلمه".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا} [الإسراء: ٨٦]، أي:" ثم لا تجد لنفسك ناصرًا يمنعنا من فعل ذلك، أو يرد عليك القرآن".

قال يحيى بن سلام:" وليا يمنعك من ذلك".

قال مقاتل:" يعني: مانعا يمنعك منا".

**قال الطبري:**" ثم لا تجد لنفسك بما نفعل بك من ذلك وكيلا يعني: قيِّما يقوم لك، فيمنعنا من فعل ذلك بك، ولا ناصرا ينصرك، فيحول بيننا وبين ما نريد بك".

عن معقل، قال: "قلت لعبد الله، وذكر أنه يُسرى على القرآن، كيف وقد أثبتناه في صدورنا ومصاحفنا؟ قال: يُسرى عليه ليلا فلا يبقى منه في مصحف ولا في صدر رجل، ثم قرأ عبد الله: {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك} ".

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود قال: "إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة والمصلين قوم لا دين لهم، وإن هذا القرآن تصبحون يوما وما معكم منه شيء، فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة. قال: يسري به في ليلة فيذهب بما في المصاحف ما في القلوب فتصبح الناس كالبهائم، ثم قرأ عبد الله: {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك} الآية".

وروي أيضا عن عبد الله بن مسعود، قال: "تطرق الناسَ ريح حمراء من نحو الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا قلبه آية. قال رجل: يا أبا عبد الرحمن، إني قد جمعت القرآن، قال: لا يبقى في صدرك منه شيء. ثم قرأ ابن مسعود: {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك} ".

قوله تعالى: {إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [الإسراء: ٨٧]، أي:" لكنَّ الله رحمك، فأثبت ذلك في قلبك".

=

=

**قال الطبري:**" يقول ﷻ {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ} يا محمد {بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، ولكنه لا يشاء ذلك، رحمة من ربك وتفضلا منه عليك".

قال الزجاج:" استثناء ليس من الأول، والمعنى: ولكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين".

قال النحاس:" الرحمة من الله جل وعز: التفضل".

قوله تعالى: {إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا} [الإسراء: ٨٧]، أي:" إن فضله كان عليك عظيمًا؛ فقد أعطاك هذا القرآن العظيم، والمقام المحمود، وغير ذلك مما لم يؤته أحدًا من العالمين".

قال يحيى بن سلام:" يقول: أعطاك النبوة وأنزل عليك القرآن".

**قال الطبري:**" باصطفائه إياك لرسالته، وإنزاله عليك كتابه، وسائر نعمه عليك التي لا تحصى".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: بالنبوة والإسلام".

قال مكي بن أبي طالب:" باصطفائه إياك لرسالته ووحي كتابه وغير ذلك من نعمه".

قوله تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} [الإسراء: ٨٨].

قال ابن جريج:" يقول: لو برزت الجنّ وأعانهم الإنس، فتظاهروا لم يأتوا بمثل هذا القرآن".

قال الواحدي: أي:" في نظمه وبلاغته".

قال ابن كثير:" نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه".

=

قال مقاتل:" وذلك أن الله- ﷻ- أنزل في سورة هود: {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} [هود: ١٣]، فلم يطيقوا ذلك. فقال الله- تبارك وتعالى- لهم فى سورة يونس {فَأْتُوا بِسُورَةٍ} [يونس: ٣٨] واحدة مثله، فلم يطيقوا ذلك، وأخبر الله- تبارك وتعالى- النبي- ﷺ- فقال: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن فعان بعضهم بعضا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله}، يقول لا يقدرون على أن يأتوا بمثله".

قوله تعالى: {وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨]، أي:" ولو تعاونوا وتظاهروا على ذلك".

عن ابن جريج:" {ظَهِيرًا}، قال: معينا".

قال يحيى بن سلام:" " {ظهيرا}، أي: عوينا".

**قال البغوي**:" عونا ومظاهرا".

قال الواحدي: أي:" مُعيناً مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعرٍ فيقيمونه".

قال الزجاج:" «الظهير»: المعينُ".

قال الزمخشري:" أى: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله".

قال ابن كثير:"ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟! ".

قال القشيري:" سائر الأنبياء معجزاتهم باقية حكما، ونبينا- ﷺ- معجزته باقية عينا، وهى القرآن".

**قال البغوي**:" فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقا

=

لأتوا بمثله".

قال ابن المنير الإسكندري:" عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات الباري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضا على أدلتها وهي هذه الكلمات الفصيحة والآي الكريمة قرآن، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين:

أحدهما: أنه إطلاق موهم.

**والثاني**: أن السلف الصالح كفوا عنه فاقتفوا آثارهم واقتبسوا أنوارهم.

وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بالزامه، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل".

* أمر الله- تعالى- نبيه أن يتحدى المشركين بهذا القرآن فقال- تعالى-: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

أى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء المشركين الذين قالوا- كما حكى الله عنهم- لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا، قل لهم على سبيل التحدي والتعجيز: والله لئن اجتمعت الإنس والجن، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، الذي أنزله الله- تعالى- من عنده على قلبي.. لا يستطيعون ذلك. ولو كان بعضهم لبعض مظاهرا ومعينا ومناصرا، في تحقيق ما يتمنونه من الإتيان بمثله.

وخص- سبحانه- «الإنس والجن» بالذكر، لأن المنكر كون القرآن من عند الله، من جنسهما لا من جنس غيرهما كالملائكة- مثلا-، فإنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولأن التحدي إنما هو للإنس والجن الذين أرسل الرسول ﷺ إليهم، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

=

=

وقال- سبحانه-: لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ فأظهر في مقام الإضمار، ولم يكتف بأن يقول: لا يأتون به، لدفع توهم أن يتبادر إلى الذهن أن له مثلا معينا، وللإشعار بأن المقصود نفى المثل على أى صفة كانت هذه المثلية، سواء أكانت في بلاغته، أم في حسن نظمه، أم في إخباره عن المغيبات، أم في غير ذلك من وجوه إعجازه.

وقوله: وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً معطوف على مقدر، أى: لا يستطيعون الإتيان بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض، ولو كان بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض لما استطاعوا أيضا.

والمقصود أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله على أية حال من الأحوال وبأية صورة من الصور، لأنه متى انتفى إتيانهم بمثله مع المظاهرة والمعاونة، انتفى من باب الأولى الإتيان بمثله مع عدمهما. وقوله: لِبَعْضٍ متعلق بقوله ظَهِيراً.

ولقد بين- سبحانه- في آيات أخرى أنهم لن يستطيعوا الإتيان بعشر سور من مثله، بل بسورة واحدة من مثله.

قال- تعالى-: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

وقال- سبحانه-: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} [الإسراء: ٨٩]، أي:" ولقد بيَّنَّا ونَوَّعنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ينبغي الاعتبار به؛ احتجاجًا بذلك عليهم؛ ليتبعوه ويعملوا به".

**قال الطبري:**" يقول ذكره: ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل، احتجاجا بذلك كله عليهم، وتذكيرا لهم، وتنبيها على الحقّ ليتبعوه ويعملوا به".

**قال البغوي**: أي:" من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها".

=

=

قال الزمخشري: أي:" رددنا وكررنا من كل مثل من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه".

قال مقاتل:" يعنى: ضربنا في هذا القرآن من كل شبه في أمور شتى".

قوله تعالى: {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} [الإسراء: ٨٩]، أي:" فأبى أكثر الناس إلا جحودًا للحق وإنكارًا لحجج الله وأدلته".

قال مقاتل:" يعني: إلا كفرا بالقرآن".

**قال الطبري:**" يقول: فأبى أكثر الناس إلا جحودا للحقّ، وإنكارا لحجج الله وأدلته".

قال الزمخشري:" الكفور: الجحود".

ومع عجز المشركين عن الإتيان بسورة من مثل القرآن الكريم إلا أنهم استمروا في طغيانهم يعمهون، وأبوا التذكر والتدبر، ولقد صور- سبحانه- أحوالهم أكمل تصوير فقال:

وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً.

أي: ولقد صرفنا وكررنا ونوعنا للناس في هذا القرآن من كل مثل، أى: من كل معنى بديع، هو كالمثل في بلاغته، وإقناعه للنفوس، وشرحه للصدور، واشتماله على الفوائد الجملة ...

ومفعول: صَرَّفْنا محذوف، والتقدير: ولقد صرفنا الهدايات والعبر بوجوه متعددة..

وقوله- سبحانه-: فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً بيان لموقف الفاسقين عن أمر ربهم من هدايات القرآن الكريم وتوجيهاته، وأوامره ونواهيه.

أى: فأبى أكثر الناس الاستجابة لهديه، وامتنعوا عن الإيمان بأنه من عند الله- تعالى- وجحدوا آياته وإرشاداته، وعموا وصموا عن الحق الذي جاءهم به من

=

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠).

{وقالوا} عطف على أبي {لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا} عينا ينبع منها الماء.

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١).

{أو تكون لك جنة} بستان {من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها} وسطها {تفجيرا}.

أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢).

---

=

نزّل عليه القرآن، وهو رسول الله ﷺ.

وقال- سبحانه-: فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ بالإظهار في مقام الإضمار، للتأكيد والتوضيح.

والمراد بأكثر الناس: أولئك الذين بلغهم القرآن الكريم، واستمعوا إلى آياته وتوجيهاته وتشريعاته وآدابه، ولكنهم استحبوا الكفر على الإيمان، وآثروا الضلالة على الهداية.

وعبر- سبحانه- بالأكثر، إنصافا للقلة المؤمنة التي فتحت صدورها للقرآن، فآمنت به، وعملت بما فيه من أوامر ونواه..

قال الجمل: فإن قيل: كيف جاز قوله فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً حيث وقع الاستثناء المفرغ في الإثبات. مع أنه لا يصح، إذ لا يصح أن تقول: ضربت إلا زيدا.

فالجواب: أن لفظة فَأَبى تفيد النفي، فكأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورا.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت ما يدل على وحدانية الله- تعالى- وقدرته، وعلمه، وفضله على نبيه ﷺ وعلى الناس، وعلى أن هذا القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

{أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا} قطعا {أو تأتي بالله والملائكة قبيلا} مقابلة وعيانا فنراهم.

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣).

{أو يكون لك بيت من زُخْرُف} ذَهَب {أَوْ تَرْقَى} تَصْعَد {فِي السَّمَاء} بِسُلَّمٍ {وَلَنْ نُؤْمِن لِرُقِيِّك} لَوْ رَقِيت فِيهَا {حَتَّى تُنَزِّل عَلَيْنَا} مِنْهَا {كِتَابًا} فِيهِ تَصْدِيقك {نقرؤه قُلْ} لَهُمْ {سُبْحَان رَبِّي} تَعَجُّب {هَلْ} مَا {كُنْت إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا كَسَائِرِ الرُّسُل} وَلَمْ يكونوا يأتون بآية إلا بإذن الله[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلًا من بني عبد الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيهًا ومنبهًا ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا يظن أنه بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك؛ لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالًا؛
=

=

جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا؛ سوّدناك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا؛ ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك به رئيًا تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمون التابع من الجن الرئيّ- فربما كان ذلك؛ بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: "ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم؛ ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به؛ فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ؛ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"، أو كما قال رسول الله ﷺ. فقالوا: يا محمد! فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك؛ فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادًا ولا أقل مالًا ولا أشد عيشًا منا؛ فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخًا صدوقًا فنسألهم عما تقول: حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك؛ صدقناك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك بالحق رسولًا كما تقول، فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من الله بما بعثني به؛ فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه؛ فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ؛ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم"، قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا؛ فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل

=

=

ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا؛ ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به؛ فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ؛ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"، قالوا: فأسْقِطْ السماء علينا كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: "ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك"، فقالوا: يا محمد! فأعلم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك -أيضًا- إذا لم تقبل منا ما جئنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا والله ما نؤمن بالرحمن أبدًا، أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما بلغت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا، قال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهن بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا؛ فلما قالوا ذلك؛ قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وهو ابن عمته ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال له: يا محمد! عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب؛ فوالله لا أؤمن لك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلّمًا ترقى فيه وأنا أنظر، حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسيفًا؛ لما فاته مما كان يطمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه، فلما قام عنهم رسول الله ﷺ؛ قال أبو جهل: يا معشر قريش! إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون: من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلس له غدًا بحجر قدر ما أطيق حمله؛ فإذا سجد في صلاته؛ فضخت رأسه به.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١١٠، ١١١) من طريق ابن إسحاق ثني شيخ أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة هذا الشيخ، والذي هو محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت كما صرحت بذلك الرواية الأخرى عند الطبري (١٥/ ١١١) وهو مجهول.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٣٧) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن المنذر.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: نزلت في أخي أم سلمة عبد الله بن أبي أمية.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١١١): ثني يعقوب بن إبراهيم ثنا هشيم عن أبي بشر عن سعيد به. وهذا مرسل رجاله ثقات؛ لولا أن هشيمًا مدلس وقد عنعن.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٣٩) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم. وقال في "لباب النقول" (ص ١٤١) بعد عزوه لسعيد بن منصور: "مرسل صحيح،، شاهد لما قبله، يجبر المبهم في إسناده". هو شاهد قاصر ليس فيه التفصيل المذكور في حديث ابن عباس.

* قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠)} [الإسراء: ٩٠]

لما أعجز القرآن المشركين وغلبهم أخذوا يطلبون معجزات وَفْق أهوائهم فقالوا: لن نصدقك -أيها الرسول- ونعمل بما تقول حتى تفجر لنا من أرض «مكة» عينًا جارية.

قال قتادة:" أي: حتى تفْجُر لنا من الأرض عيونا: أي ببلدنا هذا".

عن مجاهد: {يَنْبُوعًا}، قال: عيونا".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وقال يا محمد، المشركون بالله من قومك لك:

=

=
لن نصدّقك، حتى تفجر لنا من أرضنا هذه عينا تنبع لنا بالماء".
قال مقاتل:" يعني: لن نصدقك حتى تخرج لنا نهرا فقد أعيينا من ميح الدلاء من زمزم ومن رءوس الجبال".
قال ابن كثير:" الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عينًا معينًا في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: ١١١] ".
قال الزمخشري:" لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات: فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة، فقالوا: {لن نؤمن لك حتى تفجر من الأرض}، يعنون أرض مكة، {ينبوعا}: عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع من نبع الماء".
قال ابن عطية:" طلبت قريش هذا من رسول الله ﷺ بمكة، وإياها عنوا ب الْأَرْضِ، وإنما يراد بإطلاق لفظة الْأَرْضِ هنا الأرض التي يكون فيها المعنى المتكلم فيه، كقوله: {أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [المائدة: ٣٣] فإنما يريد من أرض تصرفهم وقطعهم السبل ومعاشهم".
قرأ أهل الكوفة ويعقوب: «تَفْجُرَ» بفتح التاء وضم الجيم مخففا، لأن الينبوع واحد وقرأ الباقون بالتشديد من «التفجير» واتفقوا على تشديد قوله: {فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا} [الإسراء: ٩١]، لأن «الأنهار» جمع والتشديد يدل على
=

=

التكثير ولقوله {تفجيرا} من بعد.

والمعنى: وقال المشركون الذين لا يرجون لقاءنا لرسولنا ﷺ يا محمد: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ونتبعك فيما تدعونا إليه.

حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعـًا أى: حتى تخرج لنا من أرض مكة القليلة المياه، يَنْبُوعـًا أى: عينا لا ينضب ماؤها ولا يغور.

يقال: نبع الماء من العين ينبع- بتثليث الباء فيهما- إذا خرج وظهر وكثر.

وقرأ بعض السبعة تَفْجُرَ بالتخفيف- من باب نصر- وقرأ البعض الآخر تَفْجُرَ بتشديد الجيم، من فجر بالتشديد، والتضعيف للتكثير.

والتعريف في لفظ الْأَرْضِ للعهد، لأن المراد بها أرض مكة.

وعبر بكلمة يَنْبُوعـًا للإشعار بأنهم لا يريدون من الماء ما يكفيهم فحسب، وإنما هم يريدون ماء كثيرا لا ينقص في وقت من الأوقات، إذ الياء زائدة للمبالغة.

قوله تعالى: {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)} [الإسراء: ٩١]

أو تكون لك حديقة فيها أنواع النخيل والأعناب، وتجعل الأنهار تجري في وسطها بغزارة.

قوله تعالى: {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ} [الإسراء: ٩١]، أي:" أو تكون لك حديقة فيها أنواع النخيل والأعناب".

قال البيضاوي:" أو يكون لك بستان يشتمل على ذلك".

**قال الطبري:**" أو يكون لك بستان، وهو الجنة، من نخيل وعنب، فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيرا بأرضنا هذه التي نحن بها خلالها، يعني: خلال النخيل والكروم".

قال المراغي:" أي: أو يكون لك بستان فيه نخيل".

**قال البغوي:**" {جنة}: بستان".

=

=

قال السعدي:" {أو تكون لك جنة من نخيل وعنب} فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء".

قوله تعالى: {فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا} [الإسراء: ٩١]، أي:" وتجعل الأنهار تجري في وسطها بغزارة".

قال مقاتل:" يقول: تجري العيون في وسط النخيل والأعناب والشجر".

**قال البغوي:"** {تفجيرا}: تشقيقا".

قال ابن عطية:" اقتراحهم الجنة إنما هو بمكة لامتناع ذلك فيها، وإلا ففي سائر البلاد كان ذلك يمكنه وإنما طلبوه بأمر إلهي في ذلك الموضع الجدب".

قال القاسمي:" وإنما قدموا في عنتهم هذا المقترح، لأنهم كانوا يردون بلاد الشام والعراق، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار".

وقوله- سبحانه-: أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً بيان لاقتراح آخر من مقترحاتهم السخيفة.

والمعنى: أو تكون لك بصفة خاصة يا محمد، جَنَّةٌ أى: حديقة ملتفة الأغصان، مشتملة على الكثير من أشجار النخيل والأعناب: تجرى الأنهار في وسطها جريا عظيما هائلا..

وخصوا النخيل والأعناب بالذكر- كما حكى القرآن عنهم-، لأن هذين الصنفين يعتبران من أهم الثمار عندهم، ولأنهما على رأس الزروع المنتشرة في أراضيهم، والتي لها الكثير من الفوائد.

وقوله: خِلالَها منصوب على الظرفية، لأنه بمعنى وسطها وبين ثناياها.

والتنوين في قوله تَفْجِيراً للتكثير، أى: تفجيرا كثيرا زاخرا، بحيث تكون تلك الجنة الخاصة بك، غنية بالمياه التي تنفعها وترويها.

قوله تعالى: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا

=

=

(٩٢)} [الإسراء: ٩٢]

أو تسقط السماء علينا قطعًا كما زَعَمْتَ، أو تأتي لنا بالله وملائكته، فنشاهدهم مقابلة وعِيانًا.

قوله تعالى: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا} [الإسراء: ٩٢]، أي:" أو تسقط السماء علينا قطعًا كما زَعَمْتَ".

قال الزمخشري:" يعنون قول الله تعالى: {إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ} [سبأ: ٩] ".

قال ابن كثير:" أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهي، وتدلي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفًا [أي: قطعًا، كقولهم: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: {أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبيّ الرحمة، ونبيّ التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئًا. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى "عبد الله بن أبي أمية" الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلامًا تامًا، وأناب إلى الله ﷻ".

وفي قوله تعالى: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا} [الإسراء: ٩٢]، وجهان:

أحدهما: سترا وتغطية، من قولهم: قد انكسفت الشمس: إذا غطاها ما يحول بين الناظرين إليها وبين أنوارها. حكاه ابن الجوزي عن ابن الانباري.

وحكي الماوردي عن ابن الأنباري، قال: "حيّزا"، ثم قال:" ولعلهم أرادوا به

=

=

مشاهدة ما فوق السماء".

**الثاني**: يعني: قطعـًا، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال يحيى بن سلام:" الكسف: القطعة".

وقال مجاهد:"السماء جميعا".

**الثالث**: يعني: جانبا من السماء. وهذا قول مقاتل.

والعرب تقول. أعطني كسفة من هذا الثوب أي قطعة منه، ومن هذا «كسوف القمر» لانقطاع النور منه، وعلى الوجه الثاني لتغطيته بما يمنع من رؤيته.

قرأ نافع وعاصم وابن عامر {كسفا} بفتح السين والباقون باسكانها.

قال الزجاج:" فمن قرأ «كِسَفًا» جعلها جمع «كسفة»، وهي القطعة، ومن قرأ «كِسْفًا» فكأنه قال أو تسقطها طبقا علينا، واشتقاقه من: كسفت الشيء إذا غطيته".

قوله تعالى: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا} [الإسراء: ٩٢]، أي:" أو تأتي لنا بالله وملائكته، فنشاهدهم مقابلة وعِيانًا".

وفي قوله تعالى: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا} [الإسراء: ٩٢]، وجوه:

**أحدها**: يعني: كل قبيلة على حدتها، قاله الحسن، ومجاهد.

**الثاني**: يعني: مقابلة، نعاينهم ونراهم، وهو من قول العرب: لقيت فلانا قبلا وقبلا، أي: معاينة، قاله قتادة، وابن جريج، وأبو عبيدة، وأنشد قول الأعشى:

**"نصالحكم حتى تبوؤا بمثلها     كصرخة حبلى بشّرتها قبيلها**

أي: قابلتها فإذا وصفوا بتقدير فعيل من قولهم: قابلت ونحوها جعلوا لفظ صفة الاثنين والجميع من المذكر والمؤنث على لفظ واحد، نحو قولك: هى قبيلى وهما قبيلى وهم قبيلى وكذلك هن قبيلى".

**قال الطبري**:" ووجهه بعض أهل العربية إلى أنه بمعنى الكفيل من قولهم: هو قبيل فلان بما لفلان عليه وزعيمه".

=

=

**الثالث**: ضامنا، يقال: قبلت به أي: كفلت به، قاله الضحاك، وابن قتيبة.

**الرابع**: كفيلا. حكاه الثعلبي عن ابن عباس، وبه قال الفراء.

وقال مقاتل:" يعني: كفيلا يشهدون بأنك رسول الله- ﷺ-".

الخامس: مجتمعين، مأخوذ من قبائل الرأس لاجتماع بعضه إلى بعض ومنه سميت قبائل العرب لاجتماعها، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

**قال الطبري**:" وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قاله قتادة من أنه بمعنى المعاينة، من قولهم: قابلت فلانا مقابلة، وفلان قبيل فلان، بمعنى قبالته". وأنشد قول الأعشى السابق.

وقوله- ﷺ: أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً ... اقتراح ثالث من مقترحاتهم الفاسدة.

ولفظ كِسَفاً أى: قطعا جمع كسفة- بكسر الكاف وسكون السين، يقال: كسفت الثوب أى: قطعته وهو حال من السماء، والكاف في قوله: كَما صفة لموصوف محذوف.

والمعنى: أو تسقط أنت علينا السماء إسقاطا مماثلا لما هددتنا به، من أن في قدرة ربك- ﷺ أن ينزل علينا عذابا متقطعا من السماء.

ولعلهم يعنون بذلك قوله- تعالى-: أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ، أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ ....

**وقيل**: يعنون بذلك، أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء، فعجل لنا ذلك في الدنيا، وأسقطها علينا، كما حكى عنهم القرآن ذلك في قوله- تعالى- وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ ....

=

=

فهم يتعجلون العذاب، والرسول ﷺ، يرجو لهم من الله- تعالى- الرحمة والهداية وتأخير العذاب عنهم، لعله- سبحانه- أن يخرج من أصلابهم من يخلص له العبادة والطاعة.

وقوله- تعالى- أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا تسجيل لمطلب رابع من مطالبهم القبيحة.

قال الآلوسى: قَبِيلًا أى: مقابلا، كالعشير والمعاشر، وأرادوا- كما جاء عن ابن عباس- عيانا.

وهذا كقولهم: لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا، وفي رواية أخرى عنه وعن الضحاك تفسير القبيل بالكفيل، أى: كفيلا بما تدعيه. يعنون شاهدا يشهد لك بصحة ما قلته.

وهو على الوجهين حال من لفظ الجلالة.. وعن مجاهد: القبيل الجماعة كالقبيلة، فيكون حالا من الملائكة- أى: أو تأتى بالله وبالملائكة قبيلة قبيلة.

قوله تعالى: {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ} [الإسراء: ٩٣]، أي:" أو يكون لك بيت من ذهب".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره مخبرا عن المشركين الذين ذكرنا أمرهم في هذه الآيات: أو يكون لك يا محمد بيت من ذهب، وهو الزخرف".

وفي قوله تعالى: {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ} [الإسراء: ٩٣]، وجهان:

أحدهما: أن الزخرف النقوش، وهذا قول الحسن.

**الثاني**: أنه الذهب، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، ورواه الفراء عن الكلبي.

قال مجاهد: "كنا لا ندري ما «الزخرف»، حتى رأيناه في قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب» ".

=

=

وأصله من " «الزخرفة»: وهو تحسين الصورة، ومنه قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَت} [يونس: ٢٤] ".

قوله تعالى: {أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ} [الإسراء: ٩٣]، أي:" أو تصعد في درج إلى السماء".

**قال الطبري:**" يعني: أو تصعد في درج إلى السماء".

قوله تعالى: {وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ} [الإسراء: ٩٣]، أي:" ولن نصدِّقك في صعودك حتى تعود، ومعك كتاب من الله منشور نقرأ فيه أنك رسول الله حقا".

**قال الطبري:**" يقول: ولن نصدقك من أجل رقيك إلى السماء {حتى تنزل علينا كتابا} منشورا نقرؤه فيه أمرنا باتباعك والإيمان بك".

عن مجاهد: قوله " {كتابا نقرؤه}، قال: من رب العالمين إلى فلان، عند كل رجل صحيفة تصبح عند رأسه يقرؤها".

وفي رواية عن مجاهد، قوله:" {كتابا نقرؤه}، قال: من رب العالمين إلى فلان، عند كل رجل صحيفة تصبح عند رأسه يقرؤها".

قال قتادة:" أي: كتابا خاصا نؤمر فيه باتباعك".

قوله تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء: ٩٣]، أي:" قل -أيها الرسول- متعجبًا مِن تعنُّت هؤلاء الكفار: سبحان ربي!! هل أنا إلا عبد من عباده مبلِّغ رسالته؟ فكيف أقدر على فعل ما تطلبون؟ ".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، القائلين لك هذه الأقوال، تنزيها لله عما يصفونه به، وتعظيما له من أن يؤتى به وملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيء مما تسألونه {هل كنت إلا بشرا رسولا}، يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما

=

=

سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره".

قال ابن كثير:" سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله ﷻ".

قال السعدي:" ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات؛ وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات، أمره الله أن ينزهه فقال: {قل سبحان ربي} عما تقولون علوا كبيرا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة. {هل كنت إلا بشرا رسولا} ليس بيده شيء من الأمر، وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرا، وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة".

قرأ ابن كثير وابن عامر: «قال سبحان ربي»، بالف، والباقون {قل} بغير الف.

عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: "عرض ربي ﷻ ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا، وأجوع يومًا - أو نحو ذلك - فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك".

ثم حكى- سبحانه- بقية مطالبهم التي لا يقرها عقل سليم فقال: أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ.

أى: من ذهب، والزخرف يطلق في الأصل على الزينة، وأطلق هنا على الذهب لأن الذهب أثمن ما يتزين به في العادة.

=

=

أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ أى: تصعد إليها. يقال: رقى فلان في السلم يرقى رقيا ورقيا أى صعد، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ وصعودك إليها مع مشاهدتنا لذلك حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا منها كِتاباً نَقْرَؤُهُ ونفهم ما فيه، أى: يكون هذا الكتاب بلغتنا التي نفهمها وبأسلوب مخاطباتنا، وفيه ما يدل دلالة قاطعة على أنك رسول من عند الله- تعالى-، وما يدعونا إلى الإيمان بك.

ثم ختم- سبحانه- هذه الآيات، بأن أمر نبيه محمدا ﷺ بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم، فقال: قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا.

أى: قل- أيها الرسول الكريم- على سبيل التعجب من سوء تفكير هؤلاء الجاحدين:

يا سبحان الله هل أنا إلا بشر كسائر البشر، ورسول كسائر الرسل، وليس من شأن من كان كذلك أن يأتى بتلك المطالب المتعنتة التي طلبتموها، وإنما من شأنه أن يبلغ ما أمره الله بتبليغه من هدايات. تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهل. إلى نور الإيمان والعلم.

فالاستفهام في قوله هَلْ كُنْتُ ... للنفي، أى: ما كنت إلا رسولا كسائر الرسل، وبشرا مثلهم.

وقوله سُبْحانَ رَبِّي يفيد التعجيب من فرط حماقتهم، ومن بالغ جهلهم، حيث طلبوا تلك المطالب، التي تضمنت ما يعتبر من أعظم المستحيلات، كطلبهم إتيان الله- ﷻ والملائكة إليهم، ورؤيتهم لذاته- سبحانه-، على سبيل المعاينة والمقابلة.

وهذا التعنت والعناد الذي حكاه الله- تعالى- عن هؤلاء الجاحدين، قد جاء ما يشبهه في آيات أخرى. كما جاء ما يدل على أنهم حتى لو أعطاهم الله- تعالى- مطالبهم.

=

=

لما آمنوا، ومن ذلك قوله- تعالى-: وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى، وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا، ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ.

وقوله- سبحانه-: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ.

وقوله- ﷻ: وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ.

قال القاسمي: لا يخفى ما في اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله في خلقه، وبحكمته وجلاله. وبيان ذلك- كما في كتاب (لسان الصدق) - أن ما اقترحه قريش فيها (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض. وإرساء الجبال الشم في موضع دون آخر، لمصالح يعلمها هو جلت عظمته. ولا يعلمها الخلق. فليس مقترحهم هذا من العجز في شيء. مع أن مثله لا تثبت به النبوة. فإننا نعلم أن أناسا قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء (ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا فإن إنزال السماء قطعا مقتض لهلاك العالم بحذافيره. والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم (ومنه) ما هو مستحيل في نفسه غير ممكن وقوعه أصلا وهو قولهم: أو تأتي بالله والملائكة قبيلا فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم مما لا يمكن أن يكون. فلا يجوز طلبه، وليس من أنواع المعجز (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء، ولو حصل لم يكن معجزا وهو قولهم: أو يكون لك بيت من زخرف فإن هذا غير صالح للأنبياء. وليس بمعجز، لحصول مثله عند أشباه

=

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)

{وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلَّا أَنْ قَالُوا} أَيْ قَوْلهمْ مُنْكِرِينَ

=

فرعون (ومنه) ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل، وأردفوه بما لا يجوز وهو قولهم: أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه فيه- على ما ذكر في الرواية- من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان، لقوم من قريش بأسمائهم. أما بعد. فإن محمدا رسولي فآمنوا به.

والصعود في السماء لا مرية فيه، لأنهم قالوا: ولن نؤمن لرقيك فلو كان، لكان عبثا. وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء، لأن ذلك وحي مثل التوراة والإنجيل. والوحي مختص بالأنبياء، والكفار عنه معزولون. فلم يكن شيء مما اقترحوه في الآيات معجزا. وإنما هي أمور مستحيلة في نفسها، أو لأمر آخر. اقترحوها تكبرا وتعنتا وجهلا. على أنهم بعد تلك الأقوال كلها قال قائل منهم:

وأيم الله! لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. وقد قال تعالى: ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا [الأنعام: ١١١]، فكان الأولى في جوابهم عما اقترحوه، هو ما أجاب به ﷺ من قوله تعالى: قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا أي تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته. وما أنا إلا بشر رسول. علي أن أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم. وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إلي. وذلك ما تحديتكم بالإتيان بسورة مثله في الهداية والإصلاح. كما أمرني ربي. ولا أقترح عليه، سبحانه، ما لا يجوز أن يكون. أو ما يكون فعله عبثا، لخلوه عن الفائدة.

{أَبَعَثَ الله بَشَرًا رَسُولًا} وَلَمْ يَبْعَث مَلَكًا.

قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥).

{قل} لهم {لو كان في الأرض} بدل البشر {ملائكة يمشون مطمئنين لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاء مَلَكًا رَسُولًا} إذْ لَا يُرْسَل إلَى قَوْم رَسُول إلَّا مِنْ جنسهم ليمكنهم مخاطبته والفهم عنه.

قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) .

{قل كَفَى بِاَللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنكُمْ} عَلَى صِدْقِي {إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} عَالِمًا بِبَوَاطِنِهِمْ وظواهرهم[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى} [الإسراء: ٩٤].

قال مقاتل:" يعني: رءوس كفار مكة، {أن يؤمنوا}، يعني: أن يصدقوا بالقرآن {إذ جاءهم الهدى} يعني: البيان، وهو «القرآن»، لأن القرآن هدى من الضلالة".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وما منع يا محمد مشركي قومك الإيمان بالله، وبما جئتهم به من الحق إذ جاءهم البيان من عند الله بحقيقة ما تدعوهم وصحة ما جئتهم به".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ} أي: أكثرهم {أَنْ يُؤْمِنُوا} ويتابعوا الرسل".

قال يحيى بن سلام:"يعني: المشركين".

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء: ٩٤]، أي:" إلا قولهم جهلا وإنكارًا: أبعث الله رسولا من جنس البشر؟ ".

**قال الطبري:**" إلا قولهم جهلا منهم {أبعث الله بشرا رسولا} ".

=

=

قال يحيى بن سلام:" على الاستفهام، وهذا الاستفهام على إنكار منهم، أي: لم يبعث الله بشرا رسولا فلو كان من الملائكة لآمنا به".

قال ابن كثير:" إلا استعجابهم من بعثته البشر رسلا كما قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا} [يونس: ٢]، وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [التغابن: ٦]، وقال فرعون وملؤه: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك قالت الأمم لرسلهم: {إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرة".

قال الفخر الرازي: اعلم أنه- تعالى- لما حكى شبهة القوم في اقتراح المعجزات الزائدة، وأجاب عنها، حكى عنهم شبهة أخرى، وهي أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولا من البشر، بل اعتقدوا أن الله- تعالى- لو أرسل رسولا إلى الخلق، لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة، فأجاب الله- تعالى- عن هذه الشبهة فقال:

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا .... .

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)} [الإسراء/ ٩٤].

هذه الآية يظهر تعارضها مع قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥)} [الكهف/ ٥٥].

ووجه الجمع أن الحصر في آية الإسراء حصرٌ في المانع العادي.

والحصر في آية الكهف [حصرٌ] في المانع الحقيقي.

=

=

وإيضاحه: هو ما ذكره ابن عبد السلام من أن معنى آية الكهف: وما منع الناس من أن يؤمنوا إلا أن الله أراد أن تأتيهم سنة الأولين من أنواع الهلاك في الدنيا، أو يأتيهم العذاب قُبلًا في الآخرة، فأخبر أنه أراد أن يصيبهم أحد الأمرين، ولا شك أن إرادة الله مانعة من وقوع ما ينافي مراده. فهذا حصر في المانع الحقيقي؛ لأن الله هو المانع في الحقيقة.

ومعنى آية {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} أنه ما منع الناس من الإيمان إلا استغرابهم أن الله يبعث رسولًا من البشر، واستغرابهم لذلك ليس مانعًا حقيقيًا بل عاديًا يجوز تخلفه فيوجد الإيمان معه، بخلاف الأول فهو حقيقي لا يمكن تخلفه، ولا وجود الإيمان معه.

ذكر هذا الجمع صاحب "الإتقان". والعلم عند الله تعالى ا.هـ

والمراد بالناس هنا: المشركون منهم، الذين استبعدوا واعتقدوا أن الرسول لا يكون من البشر، ويدخل فيهم دخولا أوليا كفار مكة.

وجملة أَنْ يُؤْمِنُوا في محل نصب، لأنها مفعول ثان لمنع.

وقوله: إِلَّا أَنْ قالُوا هو الفاعل، و «إذ» ظرف للفعل منع، أو لقوله: أَنْ يُؤْمِنُوا.

والمعنى: وما صرف المشركين عن الإيمان بالدين الحق وقت أن جاءتهم به الرسل، إلا اعتقاد هؤلاء المشركين أن الله- تعالى- لا يبعث إليهم رجلا من البشر لكي يبلغهم وحيه، وإنما يبعث إليهم ملكا من الملائكة لكي يبلغهم ذلك.

وعبر عن اعتقادهم الباطل هذا بالقول فقال: إِلَّا أَنْ قالُوا.. للإشعار بأنه مجرد قول لاكته ألسنتهم، دون أن يكون معهم أى مستند يستندون إليه لإثبات قبوله عند العقلاء.

وجاء التعبير عن اعتقادهم الباطل هذا بصيغة الحصر، لبيان أنه مع بطلانه- هو من أهم الموانع والصوارف، التي منعتهم وصرفتهم عن الدخول في الدين الحق،

=

=

الذي جاءتهم به الرسل- عليهم الصلاة والسلام-، وهذا لا يمنع أن هناك صوارف أخرى حالت بينهم وبين الإيمان كالحسد والعناد.

قال صاحب الكشاف: والمعنى. وما منعهم من الإيمان بالقرآن، وبنبوة النبي ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر. والهمزة في أَبَعَثَ اللهُ للإنكار، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله- تعالى- لأن قضية حكمته، أن لا يرسل ملك الوحى إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء» .

والمتدبر في القرآن الكريم، يرى أن هذه الشبهة- وهي إنكار المشركين كون الرسول بشرا- قد حكاها في آيات كثيرة منها قوله- تعالى-: أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ . . . .

وقوله- تعالى-: ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا، فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا، وَاسْتَغْنَى اللهُ، وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

ومما لا شك فيه أن هذه الشبهة تدل، على أن هؤلاء الكافرين، لم يدركوا قيمة بشريتهم وكرامتها عند الله- تعالى-، وذلك بسبب انطماس بصائرهم، وكثرة جهلهم، وعكوفهم على موروثاتهم الفاسدة.

ولذا أمر الله- تعالى- بأن يرد عليهم بما يزهق هذه الشبهة فقال- سبحانه- قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ، لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا.

قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ} [الإسراء: ٩٥].

**قال الطبري:**" قل يا محمد لهؤلاء الذين أبوا الإيمان بك وتصديقك فيما جئتهم به من عندي، استنكارا لأن يبعث الله رسولا من البشر: لو كان أيها الناس في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين".

قال ابن كثير:" قال تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول

=

=

من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال هاهنا: {لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ} أي: كما أنتم فيها".

قال ابن ابي زمنين: " {مطمئنين} أي: قد اطمأنت بهم الدار فهي مسكنهم".

قال الزجاج:" أي: يمشون مستوطنين الأرض".

قال الكلبي:" مقيمين".

قال الحسن: "قانطين".

قال النحاس:" {مطمئنون}: نعت للملائكة. ومعنى هذا- والله أعلم-:لو كان في الأرض ملائكة يمشون لا يعبدون الله ولا يخافونه. وهذا معنى المطمئنين لأن المتعبد الخائف لا يكون مطمئنا".

قال الواحدي:" معنى: «الطمأنينة»: السكون، والمراد ههنا المقام والاستيطان، لأنه يقال: سكن فلان بلد كذا إذا استوطن، وإن كان ماشيا متقلبا في حاجاته، وليس يراد السكون الذي هو ضد الحركة".

قوله تعالى: {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} [الإسراء: ٩٥]، أي:" لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ولكنَّ أهل الأرض بشرٌ".

قال يحيى بن سلام:" ولكن فيها بشر، فأرسلنا إليهم بشرا مثلهم".

قال الزجاج:" لأنه لا يُرْسَلُ إلى خلق إلا ما كان مِن جِنْسِهِ".

=

=

قال ابن كثير:" أي: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشرًا، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة ".

قال الواحدي:" أعلمهم الله تعالى أن الأعدل والأبلغ في الأداء إليهم بشر مثلهم، ولو كان في الأرض بدل الآدميين ملائكة لنزلنا عليهم ملكا رسولا".

**قال الطبري**:" لأن الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة، ومن خصّه الله من بني آدم برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم وهم بهيئاتهم التي خلقهم الله بها، وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، ثم أرسلنا إليهم رسولا أرسلناه منهم ملكا مثلهم".

قال القشيري:" الجنس إلى الجنس أميل، والشكل بالشكل آنس، فقال سبحانه لو كان سكان الأرض ملائكة لجعلنا الرسول إليهم ملكا، فلما كانوا بشرا فلا ينبغى أن يستبعد إرسال البشر إلى البشر".

والمعنى: قل- يا محمد- لهؤلاء الجاهلين: لو ثبت ووجد ملائكة في الأرض، يمشون على أقدامهم كما يمشى الإنس، ويعيشون فوقها مُطْمَئِنِّينَ أى: مستقرين فيها مقيمين بها.

لو ثبت ذلك، لاقتضت حكمتنا أن نرسل إليهم من السماء ملكا رسولا، يكون من جنسهم، ويتكلم بلسانهم، وبذلك يتمكنون من مخاطبته، ومن الأخذ عنه، ومن التفاهم معه لأن الجنس إلى الجنس أميل، والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم، فلو كان المرسل إليهم ملائكة، لكان الرسول إليهم ملكا مثلهم، ولو كان المرسل إليهم من البشر، لكان الرسول إليهم بشرا مثلهم.

فكيف تطلبون أيها الجاهلون- أن يكون الرسول إليكم ملكا، وتستبعدون أن يكون بشرا مع أنكم من البشر؟!! قال الآلوسى: قوله: لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ

=

=
مَلَكـًا رَسُولًا أي: يعلمهم ما لا تستقل عقـولهم بعلمـه، وليسهل عليهم الاجتماع به، والتلقي منه، وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك، لبعد ما بين الملك وبينهم ... » .

وهذا المعنى الذي وضحته الآية الكريمة- وهو أن الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم- قد جاء ما يشبهه ويؤكده في آيات كثيرة منها قوله- تعالى-: وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ، وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكـًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكـًا لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ .

وقوله- سبحانه-: وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ .

وقوله- ﷻ: وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... .

وأيضا لأن بناء التكليف على الايمان بالغيب فلابد الإختبار ببعثة البشري، وإلا لو بعث الله ملكا لفاتت مصلحة الامتحان؛ لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعـًا؛ لكن إذا كان غائبـًا عنهم، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر: صار من باب الإيمان بالغيب.

قوله تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الإسراء: ٩٦].

قال مقاتل:" يقول: فلا أحد أفضل من الله شاهدا بأني رسول الله إليكم".

**قال البغوي**: أي: بـ" أني رسول الله إليكم".

**قال الطبري**:" فإنه نعم الكافي والحاكم".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء: ٩٦] أي:". إنه سبحانه خبير بأحوال عباده، بصير بأعمالهم، وسيجازيهم عليها".

عن قتادة: قوله: " {خبير} : خبير بخلقه".

**قال الطبري**:" يقول: إن الله بعباده ذو خبرة وعلم بأمورهم وأفعالهم، والمحقّ
=

وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧).

{ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء} يهدونهم {من دونه ونحشرهم يوم القيامة} ماشين {على وجوههم عميا وبكما وصما مَأْوَاهُمْ

---

=

منهم والمُبطل، والمُهديّ والضالّ {بَصِيرًا} بتدبيرهم وسياستهم وتصريفهم فيما شاء، وكيف شاء وأحبّ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، وهو مجازٍ جميعَهم بما قدّم عند ورودهم عليه".

ثم أمر الله- تعالى- نبيه ﷺ للمرة الثانية، أن يحسم الجدال معهم، بتفويض أمره وأمرهم إلى الله- ﷻ، فهو خير الحاكمين فقال: قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً.

أى: قل لهم في هذه المرة من جهتك، بعد أن قلت لهم في المرة السابقة من جهتنا: قل لهم- أيها الرسول الكريم- يكفيني ويرضيني ويسعدني، أن يكون الله- تعالى- هو الشهيد والحاكم بيني وبينكم يوم نلقاه جميعا فهو- سبحانه- يعلم أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، إنه- تعالى- كان وما زال خبيرا بصيرا. أى: محيطا إحاطة تامة بظواهرهم وبواطنهم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وفي هذه الآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم من أذى، وتهديد لهم بسوء المصير، حيث آذوا نبيهم الذي جاء لهدايتهم وسعادتهم.

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد حكت بعض الشبهات الفاسدة التي تذرع بها الكافرون في البقاء على كفرهم، كما حكت ما اقتضته حكمته- سبحانه- في إرسال الرسل، وهددت المصرين على كفرهم بسوء العاقبة.

جَهَنَّم كُلَّمَا خَبَتْ} سَكَنَ لَهَبهَا {زِدْنَاهُمْ سعيرا} تلهبا واشتعالا.

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨).

{ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا} منكرين للبعث {أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعثون خلقا جديدا.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩).

{أو لم يَرَوْا} يَعْلَمُوا {أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض} مَعَ عِظَمهمَا {قَادِر عَلَى أَنْ يَخْلُق مِثْلهمْ} أَيْ الْأَنَاسِيّ فِي الصِّغَر {وَجَعَلَ لَهُمْ أجلا} للموت والبعث {لا ريب فيه فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا} جُحُودًا لَهُ.

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠).

{قُلْ} لَهُمْ {لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِن رَحْمَة رَبِّي} مِنْ الرِّزْق وَالْمَطَر {إذًا لَأَمْسَكْتُمْ} لَبَخِلْتُمْ {خشية الإنفاق} خوف نفادها بالإنفاق فتقتروا {وكان الإنسان قتورا} بخيلا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} [الإسراء: ٩٧]، أي:" ومن يهده الله فهو المهتدي إلى الحق".

قال يحيى بن سلام:" ولا يستطيع أحد أن يضله".

قال مكي:" أي: من يهده الله للإيمان فهو المهتدي للرشد والحق".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: ومن يهد الله يا محمد للإيمان به، ولتصديقك وتصديق ما جئت به من عند ربك، فوفَّقه لذلك، فهو المهتد الرشيد المصيب =

=

الحقّ، لا من هداه غيره، فإن الهداية بيده".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ} [الإسراء: ٩٧]، أي:" ومن يضلله فيخذلْه ويَكِلْه إلى نفسه فلا هادي له من دون الله".

قال يحيى بن سلام:" أولياء من دونه، يمنعونهم من عذاب الله".

قال مكي:" ومن يضلله عن الإيمان ولا يوفقه فلن تجد له يا محمد أولياء من دون الله ﷻ ينصرونه من عذاب الله سبحانه".

**قال الطبري**:" يقول: ومن يضلله الله عن الحقّ، فيخذله عن إصابته، ولم يوفقه للإيمان بالله وتصديق رسوله، فلن تجد لهم يا محمد أولياء ينصرونهم من دون الله، إذا أراد الله عقوبتهم والاستنقاذ منهم".

قوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا} [الإسراء: ٩٧]، أي:" وهؤلاء الضُّلال يبعثهم الله يوم القيامة، ويحشرهم على وجوههم، وهم لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون".

**قال الطبري**:" يقول: ونجمعهم بموقف القيامة من بعد تفرقهم في القبور عند قيام الساعة {عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا} ".

عن قتادة، قوله:" {وبكما}، قال: الخرس: {وصما}، وهو جمع «أصم» ".

وفي قوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} [الإسراء: ٩٧]، وجهان:

أحدهما: أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، من قول العرب: قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا.

**الثاني**: أنه يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كمن يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه.

عن أنس بن مالك،:" عن أنس أن رجلا قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على

=

=

وجهه يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: "إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه"".

عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك أنّ رجلًا قال: "يا نبيَّ الله، يُحْشَر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة». قال قتادة: بلى، وعِزَّة ربنا".

عن الحسن البصري، قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: {الَّذين يُحشرونَ على وُجُوههم إلى جهنَّمَ} الآية [الفرقان: ٣٤]، فقالوا: يا نبي الله، كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «أرأيت الذي أمشاهم على أقدامهم، أليس قادرًا على أن يُمِشيَهم على وجوههم؟».

عن أبي هريرة -من طريق حميد بن مالك بن الخثيم- قال: "إذا بنيت الجبّانة فاخرج إلى أرض المحشر والمنشر، فإن الناس يحشرون ثلاث أمم: أمة على وجوههم، وأمة على أقدامهم، وأمة على الإبل".

عن ذكوان [أبي صالح السمان]-من طريق الأعمش- قال: "بلغني: أنّ الناس يحشرون يوم القيامة هكذا. ووضع رأسه، ووضع يده اليمني على كوع اليسرى، ونحى شيئًا".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ على ثلاثة أصنافٍ: صِنفٌ مشاةً، وصِنفٌ ركبانًا، وصِنف على وجوههم». قيل: يا رسول الله، وكيف يمشُون على وجوههم؟ قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامِهم قادرٌ أن يُمشِيَهم على وجوهِهم، أما إنهم يتَّقُون بوجوههم كلَّ حَدَبٍ وشَوكٍ».

عن أبي ذرٍّ، أنّه تلا هذه الآية: {ونحْشُرُهُم يَوْمَ القيامَةِ عَلى وُجُوههِمْ عُميًا وبُكمًا وصُمًّا} . فقال: حدَّثني الصادقُ المصدوقُ ﷺ: «إنّ الناسَ يُحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواجٍ: فوجٍ طاعِمِين كاسِين راكبين، وفوجٍ يمشُون ويَسْعَوْن، وفوجٍ

=

تسحبُهم الملائكةُ على وجوههم».

عن معاويةَ بن حيدةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّكم تُحشَرون رجالًا وركبانًا، وتُجَرُّون على وجوهِكم هاهنا». ونحا بيده نحو الشام.

عن الحسن قال: "لما سير عامر بن عبد قيس إلى الشام قال: الحمد لله الذي حشرني راكبا قال الحسن قد والله علم عامر أن قوما يحشرون على وجوههم".

وفي قوله تعالى: {عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا} [الإسراء: ٩٧]، ثلاثة وجوه:

**أحدها**: أنهم حشروا في النار عُمي الأبصار بُكم الألسن صُمّ الأسماع ليكون ذلك يزادة في عذابهم، ثم أبصروا لقوله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} [الكهف: ٥٣]، وتكلموا لقوله تعالى: {دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [الفرقان: ١٣]، وسمعوا، لقوله تعالى: {سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان: ١٢].

وقال مقاتل: "وذلك إذا قيل لهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون} [المؤمنون: ١٠٨]، فصاروا فيها عميا لا يبصرون أبدا، وصما لا يسمعون أبدا".

قال يحيى بن سلام:" إما عميا: فعموا في النار حين دخلوها فلم يبصروا فيها شيئا، وهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها، وبكما: خرسا، انقطع كلامهم حين قال: {اخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: ١٠٨]، وصما: ذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلا يسمعون معه شيئا".

**الثاني**: أن "هذا حين تتوفاهم الملائكة، وحين يُساقُون إلى الموقف عمي العيون وزرقها، مسودة الوجوه إلى أن يدخلوا النار". قاله الحسن.

**الثالث**: أن حواسهم على ما كانت عليه، ومعناه: عمي عما يسرّهم، بكم عن التكلم بما ينفعهم، صم عما يمتعهم، قاله ابن عباس، والحسن-أيضا-.

قوله تعالى: {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [الإسراء: ٩٧]، أي:" مصيرهم إلى نار جهنم الملتهبة".

=

=

قال مقاتل: " يعني: مصيرهم جهنم".

وقال ابن عباس:" يعني: إنهم وقودها".

قوله تعالى: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: ٩٧]، أي:" كلما سكن لهيبها، وخمدت نارها، زدناهم نارًا ملتهبة متأججة".

قال مجاهد:" يقول: كلَّما طُفِئت أُسْعِرَت وأُوقِدَتْ".

قال الأخفش:" يقول: "لا يخفف عنهم من العذاب الذي هو هكذا".

قال ابن عباس:" يقول: كلما أحرقتهم تسعر بهم حطبا، فإذا أحرقتهم فلم تبق منهم شيئا صارت جمرا تتوهج، فذلك خبوها، فإذا بدلوا خلقا جديدا عاودتهم".

وقال ابن عباس:" خبوها أنها تسعر بهم حطبا، فإذا أحرقتهم، فلم يبق منهم شيء صارت جمرا تتوهج، فإذا بدلوا خلقا جديدا عاودتهم".

قال قتادة:" يقول: كلما احترقت جلودهم بدلوا جلودا غيرها، ليذوقوا العذاب".

وقال قتادة:" كلما لان منها شيء".

قال يحيى بن سلام: وخبوها أنها تأكل كل شيء: الجلد، والعظم، والشعر، والبشر، والأحشاء، حتى تهجم على الفؤاد، فلا يريد الله أن تأكل أفئدتهم، فإذا انتهت إلى الفؤاد خبت، سكنت فلم تشعر بهم وتركت فؤاده تصيح، ثم يجدد خلقهم فيعود فتأكلهم، فلا يزالون كذلك، وهو قوله: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها} [النساء: ٥٦] ".

قال أبو عبيدة:" أي تأجّجا، وخبت سكنت، قال الكميت:

**ومنّا ضرار وابنماه وحاجب ... مؤجّج نيران المكارم لا المخبى**

قال: ولا تكون الزيادة إلّا على أقلّ منها قبل الزيادة. قال القطاميّ:

وتخبو ساعة وتشبّ ساعا

ولم يذكر هاهنا جلودهم فيكون الخبوّ لها".

=

=

عن الضحاك:" {كلما خبت}، قال: سكنت".

قال الماوردي:" وسكون التهابها من غير نقصان في الآمهم ولا تخفيف من عذابهم".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَغْبِطَنَّ فاجرًا بنعمةٍ؛ فإنَّ مِن ورائه طالبًا حثيثًا». وقرأ رسول الله ﷺ: {مَّأواهُم جهنَّم كلَّما خَبَتْ زدناهم سعيرًا} ".

عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا خَضِرةٌ حُلوةٌ، مَن اكتسب فيها مالًا من غير حِلِّه، وأنفَقه في غير حقِّه؛ أحلَّه دار الهوان، ورُبَّ متخوِّضٍ في مالِ الله ورسوله له النارُ يوم القيامة، يقول الله: {كلَّما خَبَتْ زدناهُم سعيرًا}».

* يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، فمن يهده، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضلله، فيخذله، ويكله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيًا عميًا وبكمًا، لا يبصرون ولا ينطقون.

فقوله- سبحانه-: وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ كلام مستأنف منه- تعالى- لبيان نفاذ قدرته ومشيئته.

أي: ومن يهده الله- تعالى- إلى طريق الحق، فهو الفائز بالسعادة، المهدى إلى كل مطلوب حسن، وَمَنْ يُضْلِلْ أى: ومن يرد الله- تعالى- إضلاله فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أيها الرسول الكريم أَوْلِياءَ أى: نصراء ينصرونهم ويهدونهم إلى طريق الحق مِنْ دُونِهِ ﷻ، إذ أن الله- تعالى- وحده هو الخالق للهداية والضلالة، على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته.

وجاء قوله- تعالى- فَهُوَ الْمُهْتَدِ بصيغة الإفراد حملا على لفظ مَنْ في قوله وَمَنْ يَهْدِ اللهُ وجاء قوله: فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ بصيغة الجمع حملا على معناها في قوله: وَمَنْ يُضْلِلْ.

=

=

قالوا: ووجه المناسبة في ذلك- والله أعلم- أنه لما كان الهدى شيئا واحدا غير متشعب السبل، ناسبه الإفراد، ولما كان الضلال له طرق متشعبة، كما في قوله- تعالى-:

وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ناسبه الجمع .

ثم بين- سبحانه- الصورة الشنيعة التي يحشر عليها الضالون يوم القيامة فقال: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ، عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا ...

والحشر: الجمع. يقال: حشرت الجند حشرا. أى جمعتهم. وقوله: عَلى وُجُوهِهِمْ حال من الضمير المنصوب في نحشرهم. وقوله: عُمْياً، وَبُكْماً وَصُمًّا أحوال من الضمير المستكن في قوله عَلى وُجُوهِهِمْ. أى: نجمع هؤلاء الضالين يوم القيامة، حين يقومون من قبورهم، ونجعلهم- بقدرتنا- يمشون على وجوههم، أو يسحبون عليها، إهانة لهم وتعذيبا، ويكونون في هذه الحالة عميا لا يبصرون، وبكما لا ينطقون، وصما لا يسمعون.

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله- تعالى-: نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ إما مشيا، بأن يزحفوا منكبين عليها. ويشهد له ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال: قيل لرسول الله ﷺ: كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «الذي أمشاهم على أرجلهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم»..

وإما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها، كقوله- تعالى-: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ويشهد له ما أخرجه أحمد والنسائي والحاكم- وصححه- عن أبى ذر، أنه تلا هذه الآية. وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ فقال: حدثني الصادق المصدوق ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج طاعمين كاسين راكبين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم.

=

وجائز أن يكون الأمران في حالين: الأول: عند جمعهم وقبل دخولهم النار، والثاني عند دخولهم فيها.

ثم قال: وزعم بعضهم أن الكلام على المجاز، وذلك كما يقال للمنصرف عن أمر وهو خائب مهموم: انصرف على وجهه.. وإياك أن تلتفت إلى- هذا الزعم- أو إلى تأويل نطقت السنة النبوية بخلافه، ولا تعبأ بقوم يفعلون ذلك» .

فإن قيل: كيف نوفق بين هذه الآية التي تثبت لهؤلاء الضالين يوم حشرهم العمى والبكم والصمم، وبين آيات أخرى تثبت لهم في هذا اليوم الرؤية والكلام والسمع، كما في قوله- تعالى-: وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ... وكما في قوله- سبحانه-: دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً وكما في قوله- ﷻ:

سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً؟

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا} الآية [الإسراء/ ٩٧].

هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن الكفار يبعثون يوم القيامة عميًا وبكمًا وصمًا.

وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك، كقوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مريم/ ٣٨]، وكقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} [الكهف/ ٥٣]، وكقوله: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا} الآية [السجدة/ ١٢].

والجواب عن هذا من أوجه:

الوجه الأول: هو ما استظهره أبو حيان، من كون المراد مما ذُكِرَ حقيقتُه، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم، فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

=

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئًا يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه.

وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وروي -أيضًا- عن الحسن، كما ذكره الألوسي في تفسيره.

فنُزِّلَ ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم، لعدم الانتفاع به، كما تقدم نظيره.

الوجه الثالث: أن الله إذا قال لهم: {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)} [المؤمنون/ ١٠٨] وقع بهم ذاك العمى والصم والبكم، من شدة الكرب واليأس من الفرج. قال تعالى: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥)} [النمل/ ٨٥].

وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدرة. ا.هـ

ثم بين- سبحانه- مآلهم بعد الحشر والحساب فقال: مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً.

ومعنى: خَبَتْ هدأت وسكن لهيبها. يقال: خبت النار تخبو إذا هدأ لهيبها.

أى: أن هؤلاء المجرمين مأواهم ومسكنهم ومقرهم جهنم، كلما سكن لهيب جهنم وهدأ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم، زدناهم توقدا، بأن تبدل جلودهم ولحومهم بجلود ولحوم أخرى، فتعود النار كحالتها الأولى ملتهبة مستعرة.

وخبو النار وسكونها لا ينقص شيئا من عذابهم، وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله- عَزَّ وَجَلَّ خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ .

وفي هذه الآية ما فيها من عذاب للكافرين تقشعر من هوله الأبدان، وترتجف من تصويره النفوس والقلوب، نسأل الله- تعالى- بفضله ورحمته أن يجنبنا هذا المصير المؤلم.

=

=

قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا} [الإسراء: ٩٨]، أي:" هذا الذي وُصِف من العذاب عقاب للمشركين؛ بسبب كفرهم بآيات الله وحججه وتكذيبهم رسله الذين دَعَوْهم إلى عبادته".

قال مقاتل: {بِآيَاتِنَا}:" يعنى: بآيات القرآن".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصفنا من فعلنا يوم القيامة بهؤلاء المشركين، ما ذكرت أنا نفعل بهم من حشرهم على وجوههم عميا وبكما وصما، وإصلائنا إياهم النار على ما بيَّنا من حالتهم فيها ثوابهم بكفرهم في الدنيا بآياتنا، يعني بأدلته وحججه، وهم رسله الذين دعوهم إلى عبادته، وإفرادهم إياه بالألوهة دون الأوثان والأصنام".

قال ابن عباس: "الرفات: الغبار".

وقال مجاهد: "التراب".

قال الزجاج:" الرُّفَاتُ: الترابُ، والرفات أيضـًا كل شيء حُطِمَ وكُسِرَ، وكل ما كان من هذا النحو فهو مبني على (فُعَال)، نحو: الفُتَاتُ والحطَامُ والرفَاتُ والترابُ".

قوله تعالى: {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} [الإسراء: ٩٨]، أي:" وبسبب قولهم استنكارًا - إذا أُمروا بالتصديق بالبعث -: أإذا متنا وصِرْنا عظامًا بالية وأجزاءً متفتتة نُبعث بعد ذلك خَلْقًا جديدًا؟ ".

**قال الطبري:**" وبقولهم إذا أُمروا بالإيمان بالميعاد، وبثواب الله وعقابه في الآخرة {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا} بالية {وَرُفَاتًا} قد صرنا ترابا {أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} يقولون: نُبعث بعد ذلك خلقا جديدا. كما ابتدأناه أوّل مرّة في الدنيا استنكارا منهم لذلك، واستعظاما وتعجبا من أن يكون ذلك".

قال يحيى بن سلام:" على الاستفهام، أي: إن هذا ليس بكائن، يكذبون بالبعث".

=

=

قال القرطبي:" {أإنا}: استفهام والمراد به الجحد والإنكار. و {خلقا}: نصب لأنه مصدر، أي: بعثا جديدا. وكان هذا غاية الإنكار منهم".

قال مقاتل:" يعنون: البعث سيرة الخلق الأول، منهم: أبي بن خلف، وأبو الأشدين".

وقوله- ﷻ: ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا: أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً بيان للأسباب التي أفضت بهم إلى تلك العاقبة السيئة.

أى: ذلك الذي نزل بهم من العذاب الشديد، المتمثل في حشرهم على وجوههم وفي اشتعال النار بهم، سببه أنهم كفروا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وقالوا بإنكار وجهالة:

أإذا كنا عظاما نخرة، ورفاتا أى وصارت أجسادنا تشبه التراب في تفتتها وتكسرها، أإنا بعد ذلك لمعادون إلى الحياة ومبعوثون على هيئة خلق جديد.

فالآية الكريمة تحكى تصميمهم على الكفر، وإنكارهم للبعث والحساب إنكارا لا مزيد عليه، لذا كانت عقوبتهم شنيعة، وعذابهم أليما. فقد سلط الله- تعالى- عليهم النار تأكل أجزاءهم، وكلما سكن لهيبها، أعادها الله- تعالى- ملتهبة مشتعلة على جلود أخرى لهم، كما قال- تعالى- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً، كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ ...

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} [الإسراء: ٩٩]، أي:" أَغَفَل هؤلاء المشركون، فلم يتبصروا ويعلموا أن الله الذي خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات على غير مثال سابق، قادر على أن يخلق أمثالهم بعد فنائهم؟ ".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} بعيون قلوبهم، =

=

فيعلمون أن الله الذي خلق السماوات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقُدرته، قادر بتلك القُدرة على أن يخلق مثلهم أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خلقا جديدا، بعد أن يصيروا عظاما ورُفاتا".

قال يحيى بن سلام:" وهم يقرون أنه خلق السموات، وهو قوله: {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله} [لقمان: ٢٥]، فخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، والله خلقهم فهو {قادر على أن يخلق مثلهم} [الإسراء: ٩٩]، يعني: البعث، وقال في آية أخرى: {أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم} [يس: ٨١] ".

قال الثعلبي:" فأجابهم الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} في عظمها وشدتها وكثرة أجزائها وقوتها {قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} في صغرهم وضعفهم نظيره قوله: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٥٧]، وقوله: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ} [النازعات: ٢٧] ".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ} [الإسراء: ٩٩]، أي:" وقد جعل الله لهؤلاء المشركين وقتًا محددًا لموتهم وعذابهم، لا شك أنه آتيهم".

قال يحيى بن سلام:" لا شك فيه، القيامة".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: وجعل الله لهؤلاء المشركين أجلا لهلاكهم، ووقتا لعذابهم لا ريب فيه. يقول: لا شكّ فيه أنه آتيهم ذلك الأجل".

قال الثعلبي:" أي وقتا لعذابهم وهلاكهم لا ريب فيه إنه إليهم، وقيل: إن هذا جواب لقولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا، وقيل: هو يوم القيامة، وقيل: هو الموت الذي يعاينونه".

قوله تعالى: {فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا} [الإسراء: ٩٩]، أي:" ومع وضوح الحق

=

=

ودلائله أبى الكافرون إلا جحودًا لدين الله ﷻ".

قال يحيى بن سلام:" المشركون، بالقيامة".

**قال الطبري:**" يقول: فأبى الكافرون إلا جحودا بحقيقة وعيده الذي أوعدهم وتكذيبا به".

قال الثعلبي:" فأبى الكافرون إلا جحودا".

ثم رد- سبحانه- على ما استنكروه من شأن البعث ردا يقنع كل ذي عقل سليم، فقال- تعالى- أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ....

والهمزة للاستفهام التوبيخي، وهي داخلة على محذوف، والمراد بمثلهم إياهم، فيكون المعنى: أعموا عن الحق، ولم يعلموا كما يعلم العقلاء، أن الله- تعالى- الذي خلق السموات والأرض بقدرته، وهما أعظم من خلق الناس، قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم، لكي يحاسبهم على أعمالهم في الدنيا.

إن عدم علمهم بذلك، وإنكارهم له، لمن أكبر الأدلة على جهلهم وانطماس بصيرتهم، لأن من قدر على خلق ما هو أعظم وأكبر- وهو السموات والأرض فهو على إعادة ما هو دونه- وهو الناس- أقدر.

قال الجمل ما ملخصه: قوله: أَوَلَمْ يَرَوْا.. هذا رد لإنكارهم البعث، ولما استبعدوه من شأنه، يعنى أن من خلق السموات والأرض، كيف يستبعد منه أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم.. وأراد- سبحانه-.. بمثلهم: إياهم، فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين: إن الإعادة مثل الابتداء، وذلك أن مثل الشيء مساو له في حاله، فجاز أن يعبر به عن الشيء نفسه يقال: مثلك لا يفعل كذا، أى: أنت لا تفعله.

ويجوز أن يكون المعنى أنه- سبحانه- قادر على أن يخلق عبيدا غيرهم يوحدونه

=

=

ويقرون بكمال حكمته، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة، كما في قوله- تعالى- وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ، ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ والأول أشبه بما قبله .

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى، بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وقوله- سبحانه-: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ... .

وبعد أن أقام- سبحانه- الدليل الواضح على أن البعث حق، وعلى أن إعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن، أتبع ذلك ببيان أن لهذه الإعادة وقتا معلوما يجريه حسب حكمته- تعالى- فقال: وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ.

أى: وجعل لهم ميقاتا محددا لا شك في حصوله، وعند حلول هذا الميقات يخرجون من قبورهم للحساب والجزاء، كما قال- تعالى-: وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ .

والجملة الكريمة وهي قوله: وَجَعَلَ لَهُمْ ... معطوفة على قوله أَوَلَمْ يَرَوْا.. لأنه في قوة قولك قد رأوا وعلموا.

قال الزمخشري: فإن قلت علام عطف قوله: وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا؟

قلت: على قوله: أَوَلَمْ يَرَوْا لأن المعنى: قد علموا بدليل العقل، أن من قدر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهن، كما قال: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ .

وقوله- سبحانه-: فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً بيان لإصرارهم على جحود الحق مع علمهم بأنه حق.

أى: فأبى هؤلاء الظالمون المنكرون للبعث، إلا جحودا له وعنادا لمن دعاهم إلى الإيمان به، شأن الجاهلين المغرورين الذين استحبوا العمى على الهدى.

=

=

قوله تعالى: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي} [الإسراء: ١٠٠]، أي: قل -أيها الرسول- "لهؤلاء المعاندين المكابرين، المقترحين للخوارق والمعجزات: لو كنتم تملكون خزائن رزق الله ونِعَمه التي أفاضها على العباد".

قال الثعلبي:" أي: أملاك ربي وأمواله، وأراد بالـ «رحمة» -هاهنا-: الرزق".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيّه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو أنتم أيها الناس تملكون خزائن أملاك ربي من الأموال، وعنى بالـ «رحمة» -في هذا الموضع-: المال".

قوله تعالى: {إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ} [الإسراء: ١٠٠]، أي:" إذاً لبخلتم به وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً من نفادها".

قال الثعلبي:" لبخلتم وحبستم خشية الفاقة".

**قال الطبري:**" يقول: إذن لَبَخِلْتُمْ بِهِ فَلم تجودوا بها على غيركم، خشية من الإنفاق والإقتار".

عن ابن عباس:" {إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنْفَاقِ}، قال: الفقر".

عن قتادة:" {خَشْيَةَ الإنْفَاقِ}، أي: خشية الفاقة".

قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا} [الإسراء: ١٠٠]، أي:" وكان الإنسان شحيحاً مبالغاً في البخل".

قال يحيى بن سلام: أي:" بخيلا، يقتر على نفسه وعلى غيره".

قال أبو عبيدة:" أي: مقترا".

قال ابن قتيبة:" أي: ضيقا بخيلا".

**قال الطبري:**" يقول: وكان الإنسان بخيلا ممسكا".

قال الثعلبي:" أي: بخيلا ممسكا ضيقا".

عن ابن عباس: {وَكَانَ الإنْسَانُ قَتُورًا}، يقول: بخيلا".

=

=

عن قتادة:" {وَكَانَ الإنْسَانُ قَتُورًا}، قال: بخيلا ممسكا".

ثم ختم- سبحانه- الآيات الكريمة بأمر النبي ﷺ بأن يجابه هؤلاء الظالمين بما جبلوا عليه من بخل وشح، بعد أن طلبوا منه ما طلبوا من مقترحات متعنتة، فقال- تعالى-: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ، وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً.

والمراد بخزائن رحمة ربي: أرزاقه التي وزعها على عباده، ونعمه التي أنعم بها عليهم.

وقَتُوراً من التقتير بمعنى البخل. يقال: قتر فلان يقتر- بضم التاء وكسرها- إذا بالغ في الإمساك والشح.

أى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الظالمين الذين أعرضوا عن دعوتك، وطالبوك بما ليس في وسعك من تفجير الأرض بالأنهار، ومن غير ذلك من مقترحاتهم الفاسدة، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت: لو أنكم تملكون- أيها الناس- التصرف في خزائن الأرزاق التي وزعها الله على خلقه، إذا لبخلتم وأمسكتم في توزيعها عليهم، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم في العطاء، مع أن خزائن الله لا تنفد أبدا، ولكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك.

قال بعضهم: وقوله: لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ فيه وجهان: أحدهما: أن المسألة من باب الاشتغال. فأنتم مرفوع بفعل مقدر يفسره هذا الظاهر، لأن لولا يليها إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا. فهي كإن في قوله- تعالى-: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ..

والأصل: لو تملكون، فحذف الفعل لدلالة ما بعده عليه- والثاني: أنه مرفوع بكان، وقد كثر حذفها بعد لو، والتقدير: لو كنتم تملكون .... .

والمقصود بالإمساك هنا: إمساكهم عن العطاء في الدنيا، وهذا لا ينافي قوله-

=

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا (١٠١).

---

=

تعالى-:

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ... لأن ذلك حكاية عن أحوالهم في الآخرة عند ما يرون العذاب، ويتمنون أن يفتدوا أنفسهم منه بأى شيء.

وقوله إِذاً ظرف لتملكون. وقوله لَأَمْسَكْتُمْ جواب لو، وقوله خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ علة للإمساك والبخل.

وقوله: وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً أى: مبالغا في البخل والإمساك.

قال ابن كثير: والله- تعالى- يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال- تعالى-: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً. إِلَّا الْمُصَلِّينَ.

ولهذا نظائر كثيرة في القرآن الكريم، وهذا يدل على كرمه- تعالى- وإحسانه. وقد جاء في الصحيحين: يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه .

وقال الآلوسى: وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى التي لا يبلغها الوهم، حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله- تعالى- التي لا تتناهى، وانفردوا بملكها من غير مزاحم، لأمسكوا عن النفقة من غير مقتض إلا خشية الفقر، وإن شئت فوازن بقول الشاعر:

ولو ان دارك أنبتت لك أرضها ... إبرا يضيق بها فناء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ... ليخيط قد قميصه لم تفعل

مع أن فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة، ترى التفاوت الذي لا يحصر ... ».

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْع آيَات بَيِّنَات} وَهِيَ الْيَد وَالْعَصَا وَالطُّوفَان وَالْجَرَاد وَالْقُمَّل وَالضَّفَادِع وَالدَّم أَوْ الطَّمْس وَنَقْص الثَّمَرَات {فَاسْأَلْ} يَا مُحَمَّد {بَنِي إِسْرَائِيل} عَنْهُ سُؤَال تَقْرِير لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى صِدْقك أَوْ فَقُلْنَا لَهُ اسْأَلْ وَفِي قِرَاءَة بلفظ الماضي {إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مَسْحُورًا} مَخْدُوعًا مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلك.

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢).

{قَالَ لَقَدْ عَلِمْت مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ} الْآيَات {إِلَّا رَبّ السَّمَاوَات وَالْأَرْض بَصَائِر} عِبَرًا وَلَكِنَّك تُعَانِد وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ التَّاء {وَإِنِّي لَأَظُنّك يَا فِرْعَوْن مَثْبُورًا} هَالِكًا أَوْ مَصْرُوفًا عَنْ الخير.

فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣).

{فَأَرَادَ} فِرْعَوْن {أَنْ يَسْتَفِزّهُمْ} يُخْرِج مُوسَى وَقَوْمه {من الأرض} أرض مصر {فآغرقناه ومن معه جميعا}.

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤).

{وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وَعْد الْآخِرَة} أَيْ السَّاعَة {جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} جَمِيعًا أَنْتُمْ وَهُمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الإسراء: ١٠١]، أي:" ولقد آتينا موسى تسع معجزات واضحات شاهدات على صِدْق نبوته وهي: العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم".

=

=

**قال الطبري:**" ولقد آتينا موسى بن عمران تسع آيات بينات تبين لمن رآها أنها حجج لموسى شاهدة على صدقه وحقيقة نبوته".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الإسراء: ١٠١]، وجوه:

**أحدها:** التسع الآيات البينات: يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، قاله ابن عباس.

وقال الضحاك:" إلقاء العصا مرتين عند فرعون، ونزع يده، والعقدة التي كانت بلسانه، وخمس آيات في الأعراف: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم".

**الثاني:** أنها نحو من ذلك إلا آيتين منهن إحداهما الطمس، والأخرى الحجر، قاله محمد بن كعب القرظي.

عن محمد بن كعب القرظي، قال: "سألني عمر بن عبد العزيز، عن قوله: {ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات}، فقلت له: هي الطوفان والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، وعصاه، والطمسة، والحجر، فقال: وما الطمسة؟ فقلت: دعا موسى وأمن هارون، فقال: قد أجيبت دعوتكما، وقال عمر: كيف يكون الفقه إلا

هكذا. فدعا عمر بن عبد العزيز بخريطة كانت لعبد العزيز بن مروان أصيبت بمصر، فإذا فيها الجوزة والبيضة والعدسة ما تنكر، مسخت حجارة كانت من أموال فرعون أصيبت بمصر".

**الثالث:** أنها نحو من ذلك، وزيادة السنين ونقص من الثمرات، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، عكرمة ومطر الوراق، والشعبي، وحكاه الماوردي عن الحسن.

قال ابن كثير:" وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي".

وقال ابن جريج:" ويقولون: التاسعتان: السنين، وذهاب عجمة لسان موسى".

=

=

وفي رواية عن ابن عباس:" قوله:" {تسع آيات بينات}، وهي متتابعات، وهي في سورة الأعراف {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات}، قال: السنين في أهل البوادي، ونقص من الثمرات لأهل القرى، فهاتان آيتان، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، هذه خمس، ويد موسى إذ أخرجها بيضاء للناظرين من غير سوء: البرص، وعصاه إذ ألقاها، فإذا هي ثعبان مبين".

**الرابع**: وقال آخرون نحوا من ذلك إلا أنهم جعلوا السنين، والنقص من الثمرات آية واحدة، وجعلوا التاسعة: تلقف العصا ما يأفكون. قاله الحسن.

عن الحسن، قوله:" {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات}، قال: هذه آية واحدة، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ويد موسى، وعصاه إذ ألقاها فإذا هي ثعبان مبين، وإذ ألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون".

الخامس: ما روى عن صفوان بن عسال، قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال صاحبه: لا تقل نبي، إنه لو سمعك كان له أربع أعين، قال: فأتيا رسول الله ﷺ، يسألانه عن تسع آيات

بينات، فقال: "هن: ولا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا يوم الزحف، وعليكم خاصة يهود: أن لا تعدوا في السبت، قال: فقبلوا يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالوا: إن داود دعا أن لا يزال من ذريته نبي، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود".

قوله تعالى: {فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ} [الإسراء: ١٠١]، أي:" فاسأل - أيها الرسول- اليهود سؤال تقرير حين جاء موسى أسلافهم بمعجزاته

=

=

الواضحات".

وفي أمره بسؤالهم وإن كان خبر الله أصدق من خبرهم ثلاثة أوجه:

**أحدها**: ليكون ألزم لهم وأبلغ في الحجة عليهم.

**الثاني**: فانظر ما في القرآن من أخبار بني إسرائيل فه سؤالهم، قاله الحسن.

قال الحسن:" سؤالك إياهم: نظرك في القرآن".

**الثالث**: إنه خطاب لموسى عليه أن يسأل فرعون في إطلاق بني إسرائيل قاله ابن عباس.

روي عن ابن عباس، أنه قرأ: «فَسأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جاءهم»، يعني أن موسى سأل فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم معه".

قوله تعالى: {فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} [الإسراء: ١٠١]، أي:" فقال فرعون لموسى: إني لأظنك -يا موسى- ساحرا، مخدوعًا مغلوبًا على عقلك بما تأتيه من غرائب الأفعال".

**قال الطبري**:" يقول: فقال لموسى فرعون: إني لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك، وقد يجوز أن يكون مرادا به إني لأظنك يا موسى ساحرا".

قال ابن كثير:" {مَسْحُورًا}، قيل: بمعنى ساحر".

وفي قوله تعالى: {فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} [الإسراء: ١٠١]، وجوه:

**أحدها**: قد سُحرت لما تحمل نفسك عليه من هذا القول والفعل المستعظمين.

**الثاني**: يعني: ساحراً لغرائب أفعالك.

**الثالث**: مخدوعـًا. قاله ابن عباس.

**الرابع**: أي: مطبوبًا، سحروك. قاله الكلبي.

=

=

الخامس: مغلوبـاً: قاله مقاتل.

أي: لست أيهـا الرسـول المؤيد بالآيـات، أول رسـول كذبه النـاس، فلقـد أرسـلنا قبلك موسى ابن عمران الكليم، إلى فرعـون وقومـه، وآتيناه {تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق.

والمراد بالآيات التسع في قوله- تعالى-: وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ ....: العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع والـدم. قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات في مواضع أخرى من القرآن الكريم، منها قوله- تعالى-: فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنّاظِرِينَ .

وقوله- تعالى-: وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ .... .

وقوله- سبحانه-: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ .

وقوله- ﷻ: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ، آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ .

والمعنى: لا تظن- أيها الرسول الكريم- أن إيمـان هـؤلاء المشركين مـن قومـك، متوقـف علـى إجابـة مـا طلبـوه منـك. ومـا اقترحـوه عليـك مـن أن تفجـر لهـم مـن الأرض ينبوعـا، أو تكـون لـك جنـة مـن نخيـل وعنـب.. إلـخ. لا تظـن ذلـك: فـإن الخوارق مهما عظمت لا تنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة الحاقدة، بـدليل أننا قد أعطينا أخاك موسى تسع معجزات، واضحات الدلالـة على صـدقه في نبوتـه، ولكن هذه المعجزات لم تزد المعانـدين مـن قومـه إلا كفـرا علـى كفـرهم ورجسا على رجسهم. فاصبر- أيها الرسول- على تعنت قومك وأذاهـم، كمـا صـبر أولـو العزم من الرسل قبلك.

=

=

وتحديد الآيات بالتسع، لا ينفى أن هناك معجزات أخرى أعطاها الله- تعالى- لموسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ من المعروف عند علماء الأصول، أن تحديد العدد بالذكر، لا يدل على نفى الزائد عنه.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: وهذا القول- المروي عن ابن عباس وغيره- ظاهر جلى حسن قوى.. فهذه الآيات التسع، التي ذكرها هؤلاء الأئمة، هي المرادة هنا ...

وقد أوتى موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ آيات أخرى كثيرة منها: ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه.. وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر، ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا.

ثم قال: وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة، قال: سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية: وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ ...

فسألاه: فقال النبي ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسخروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف».. فقبّلا يديه ورجليه ...

ثم قال: «أما هذا الحديث فهو حديث مشكل. وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وتكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات، بالعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة، لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون ... » .

والحق أن ما رجحه الإمام ابن كثير من أن المراد بالآيات التسع هنا: ما آتاه الله-

=

=

تعالى- لنبيه موسى- عليه السلام من العصا، واليد ... هو الذي تسكن إليه النفس، لأن قوله- تعالى- بعد ذلك قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ ... يؤيد أن المراد بها ما تقدم من العصا، واليد، والسنين.. ولأنها هي التي فيها الحجج، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق موسى- عليه السلام.

أما تلك الوصايا التي وردت في الحديث فلا علاقة لها بقيام الحجة على فرعون- كما قال الإمام ابن كثير.

هذا، والخطاب في قوله- تعالى-: فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ يرى بعضهم أنه للنبي صلى الله عليه وسلم والمسئولون هم المؤمنون من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه.

وعلى هذا التفسير يكون قوله إِذْ جاءَهُمْ ظرف لقوله آتَيْنا وجملة فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ معترضة بين العامل والمعمول.

والمعنى: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات، وقت أن أرسله الله- تعالى- إلى فرعون وقومه، فاسأل- أيها الرسول الكريم- المؤمنين من بنى إسرائيل عن ذلك، فستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ما طالعوه في التوراة.

والمقصود بسؤالهم: الاستشهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت، أن تكون أقوى وأثبت في تأييد المدعى.

قال الآلوسى: والمعنى: فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب عن ذلك، إما لأن تظاهر الأدلة أقوى- في التثبيت-، وإما من باب التهييج والإلهاب، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت في كتابهم. وليس المقصود حقيقة السؤال. بل كونهم- أعنى المسئولين- من أهل علمه، ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم» .

ويرى آخرون أن الخطاب لموسى- عليه السلام، وعليه يكون السؤال إما بمعناه

=

=

المشهور أو بمعنى الطلب، ويكون قوله إِذْ جاءَهُمْ ظرفا لفعل مقدر.
والمعنى: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات، فقلنا له حين مجيئه إلى بنى إسرائيل: اسألهم عن أحوالهم مع فرعون، أو اطلب منهم أن يؤمنوا بك ويصدقوك، ويخرجوا معك حين تطلب من فرعون ذلك.
والفاء في قوله: فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً هي الفصيحة. إذ المعنى: فامتثل موسى أمرنا، وسأل بنى إسرائيل عن أحوالهم، وطلب من فرعون أن يرسلهم معه، بعد أن أظهر له من المعجزات ما يدل على صدقه، فقال فرعون لموسى على سبيل التعالي والتهوين من شأنه- عليه السلام: يا موسى إنى لأظنك مسحورا.
أى: سحرت فخولط عقلك واختل، وصرت تتصرف تصرفا يتنافى مع العقل السليم، وتدعى دعاوى لا تدل على تفكير قويم.
فقوله مَسْحُوراً اسم مفعول. يقال: سحر فلان فلانا يسحره سحرا فهو مسحور، إذا اختلط عقله.
ويجوز أن يكون قوله مَسْحُوراً بمعنى ساحر، فيكون المعنى: إنى لأظنك يا موسى ساحرا، عليما بفنون السحر فقد أتيت بأشياء عجيبة يشير بذلك إلى انقلاب العصا حية بعد أن ألقاها- عليه السلام.
وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان، عند ما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم ... يرمون أهله- زورا وبهتانا- بكل نقيصة.
قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ} [الإسراء: ١٠٢]، أي:" فردَّ عليه موسى: لقد تيقَّنتَ -يا فرعون- أنه ما أنزل تلك المعجزات التسع الشاهدة على صدق نبوتي إلا رب السموات والأرض؛ لتكون دلالات يَستدِل بها أولو البصائر على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته".

=

قال يحيى بن سلام والزجاج:" يعني: الآيات".
قال ابن أبي زمنين:" يعني: الآيات؛ يقول هذا لفرعون".
قال الماتريدي:" لأنه قال: لقد علمت أنها آيات، ولم يكذبه فرعون، ولم يستقبله بشيء يكذبه في قوله، وهو ما قال: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا}، أخبر أنهم جحدوا بها بعدما استيقنوا أنها آيات، وحجج ظلما وعلوا".
قال النحاس:" {بصائر}، أي: حجبا تبصرها العقول، لأن فرعون مع توجيهه إلى السحرة ونظره إلى ما يصنعون قد علم أن ما أتى به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يكون إلا من عند الله جل وعز".
قرأ بعضهم: «لقد علمتُ» - بضم التاء -. يعني: "إن لم تصدقني، فأنا على يقين من ذلك".
روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:" لم يعلم الخبيث أن موسى على الحق ولو علم لآمن ولكن موسى هو الذي علم".
قال ابن عباس: "علمه فرعون ولكنه عاند، قال الله تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} ".
قال الزجاج:" والأجود في القراءة: «لقد علمتَ» - بفتح التاء - لأن علم فرعونَ بأنها آيات من عند الله أوكد في الحجة عليه".
**قال البغوي:**" وقراءة نصب التاء أصح في المعنى وعليه أكثر القراء، لأن موسى لا يحتج عليه بعلم نفسه ولا يثبت عن علي رفع التاء لأنه روي عن رجل من مراد عن علي وذلك أن الرجل مجهول ولم يتمسك بها أحد من القراء غير الكسائي".
قوله تعالى: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء: ١٠٢]، أي:" وإني لأعتقدك يا فرعون هالكًا خاسرا".
قال أبو الليث:"أي: لأعلمنك يا فرعون ملعونا هالكا".

=

وفي قوله تعالى: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء: ١٠٢]، وجوه:

**أحدها**: مغلوبـًا، قاله ابن عباس، والكلبي، وقال الكميت:

**وَرَأَت قُضَاعَةُ فِي الأَيَا مِنِ رَأْيَ مَثْبُورٍ وَثَابِر**

**الثاني**: هالكـا، وهـو قـول مجاهـد، و قتـادة، وابـن قتيبـة، والزجـاج، وأبـو عبيـدة"، وأنشد قول ابن الزّبعرى:

**إذْ أُجارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيّ وَمنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ**

**الثالث**: مبدِّلا مغيرا، قاله عطية.

**الرابع**: ممنوعا من الخير. والعرب تقول: ما ثبرك عن ذا أي ما منعك منه وصرفك عنه، قاله الفراء.

الخامس: ملعونـًا، قاله ابن عباس، ومقاتل، والكلبي، ومنه قول أبان بن تغلب:

**يا قَوْمَنَا لاَ تَرُومُوا حَرْبَنَا سَفَهـًا إِنّ السَّفَاهَ وإِنَّ البَغْيَ مَثْبُورُ**

**السادس**: «محسورا»، أي: يدعو بالحسرة والثبور في النـار. رواه يحيى بـن سـلام عن مجاهد.

السابع: مخبولا لا عقل له. قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:" الإنسان إذا لم يكن له عقـل فمـا ينفعـه؟ يعنـي: إذا لـم يكـن لـه عقـل ينتفع به في دينه ومعاشه دعته العرب مثبورا، قال: أظنك ليس لك عقل يـا فرعـون، قال: بينا هو يخافه ولا ينطق لساني أن أقـول هـذا لفرعـون، فلمـا شـرح الله صـدره، اجترأ أن يقول له فوق ما أمره الله".

يحكى القرآن الكريم ما رد به موسى على فرعون فيقول: قالَ لَقَدْ عَلِمْـتَ مـا أَنْـزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ.

أي: قال موسى لفرعون ردا على كذبه وافترائه: لقد علمت يا فرعون أنه مـا أوجـد

=

=

هـذه الآيـات التسع إلا الله- تعـالى- خـالق السموات والأرض، وقـد أوجـدها- سبحانه- بصورة واضحة جلية، حتى لكأنها البصائر في كشفها للحقائق وتجليتها.
فقوله بَصائِرَ حال من هؤُلاءِ أى: أنـزل هـذه الآيـات حـال كونهـا بينـات واضـحات تدلك على صدقى.
وفي هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق، حيث كان يعلـم علـم اليقـين أن موسى- عليه السلام ليس مسحورا ولا ساحرا، وأن الآيات التي جاء بها إنما هي من عند الله- تعالى-، كما قال- سبحانه-: مخاطبا موسى: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ. فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً، قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .
وقوله: وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً توبيخ آخر لفرعـون، وتهديـد لـه لأنـه وصـف نبيا من أنبياء الله- تعالى- بأنه مسحور.
ومثبورا بمعنى مهلك مدمر. يقال: ثبر الله- تعالى- الظالم يثبره ثبورا، إذا أهلكه.
أو بمعنى مصروفا عن الخير. مطبوعا على الشر من قـولهم: مـا ثـبرك يـا فـلان عـن هذا الأمر؟ أى: ما الذي صرفك ومنعك عنه.
والظن هنا بمعنى اليقين، والمعنى: وإنى لأعتقد يا فرعون أن مصيرك إلـى الهـلاك والتدمير، بسبب إصرارك على الكفر والطغيان، من بعد إتيانى بـالمعجزات الدالـة على صدقى فيما أبلغه عن ربي الذي خلقني وخلقك وخلق كل شيء.
قولـه تعـالى: {فَـأَرَادَ أَنْ يَـسْتَفِزَّهُمْ مِـنَ الْأَرْضِ} [الإسـراء: ١٠٣]، أي:" فـأراد فرعون أن يزعج موسى ويخرجه مع بني إسرائيل مِن أرض «مصر» ".
قال مقاتل:" يعني: أن يخرجهم من أرض مصر".
وفي قوله تعالى: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ} [الإسراء: ١٠٣]، وجوه:

=

=

أحدهما: يزعجهم منها بالنفي عنها، قاله الكلبي.

**الثاني**: يَسْتَخِفَّهُمْ حتى يخرجوا. قاله ابن قتيبة.

**الثالث**: يخرجهم فيها بالقتل. ذكره الزجاج، وبه قال ابن أبي زمنين.

قال الزجاج:" جائز أن يكون استفزارهم إخرَاجهم منها بالقتل أو بالتنحية".

قال الماوردي:" ويعني بـ «الأرض»: مصر وفلسطين والأردن".

قوله تعالى: {فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا} [الإسراء: ١٠٣]، أي:" فأغرقنا فرعون ومَن معه مِن جندٍ في البحر عقابًا لهم".

قال مقاتل:" من الجنود".

**قال البغوي**:" ونجينا موسى وقومه".

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما هم به فرعون، بعد أن أخرسه موسى- عليه السلام بقوة حجته، وثبات جنانه فقال: فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ..

والاستفزاز: الإزعاج والاستخفاف، والمراد- به هنا: الطرد والقتل.

والضمير المنصوب في يَسْتَفِزَّهُمْ يعود إلى موسى وقومه بنى إسرائيل.

أى: فأراد فرعون بعد أن وبخه موسى وهدده، أن يطرده وقومه من أرض مصر التي يسكنون معه فيها. وأن يقطع دابرهم، كما أشار إلى ذلك- سبحانه- في قوله: وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ.

ثم حكى- سبحانه- ما ترتب على ما أراده فرعون من استفزاز لموسى وقومه فقال: فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً. وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ....

أى: أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر، وأن يهلكهم.. فكانت النتيجة أن عكسنا عليه مكره وبغيه، حيث أهلكناه هو وجنده بالغرق، دون أن نستثنى منهم أحدا.

=

=

قوله تعالى: {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ} [الإسراء: ١٠٤]، أي:" وقلنا من بعد هلاك فرعون وجنده لبني إسرائيل: اسكنوا أرض «الشام» ".

**قال البغوي:**" أي: من بعد هلاك فرعون، {لبني إسرائيل اسكنوا الأرض}، يعني: أرض مصر والشام".

قال مقاتل:" يعني: من بعد فرعون لبني إسرائيل وهم سبعون ألفا من وراء نهر الصين معهم التوراة اسكنوا الأرض وذلك من بعد موسى ومن بعد يوشع ابن نون".

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} [الإسراء: ١٠٤]، أي:" فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم جميعًا مِن قبوركم إلى موقف الحساب".

**قال الطبري:**" يقول: فإذا جاءت الساعة، وهي وعد الآخرة، {جئنا بكم لفيفا}، يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفا: أي مختلطين قد التفّ بعضكم على بعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيِّه، من قولك: لففت الجيوش: إذا ضربت بعضها ببعض، فاختلط الجميع، وكذلك كلّ شيء خُلط بشيء فقد لُفّ به".

**قال البغوي:**" يعني يوم القيامة {جئنا بكم لفيفا} أي: جميعا إلى موقف القيامة واللفيف: الجمع الكثير إذا كانوا مختلطين من كل نوع. يقال: لفت الجيوش إذا اختلطوا وجمع القيامة كذلك فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر".

قال الزمخشري: أي:" جمعا مختلطين إياكم وإياهم، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم: واللفيف: الجماعات من قبائل شتى".

قال الصابوني:" أي: فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين فيكم المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، ثم نفصل بينكم ونميّز السعداء من الأشقياء".

=

=

قال يحيى بن سلام: {جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} : "يعني: بني إسرائيل، وفرعون، وقومه".
قال مقاتل:" يعني: جميعا، فهم وراء الصين فساروا من بيت المقدس في سنة ونصف سنة ستة آلاف فرسخ وبينهم وبين الناس نهر من رمل يجري اسمه أردف، يجمد كل سبت وذلك أن بني إسرائيل قتلوا الأنبياء وعبدوا الأوثان، فقال المؤمنون منهم: اللهم فرق بيننا وبينهم فضرب الله- ﷻ- سربا في الأرض من بيت المقدس إلى وراء الصين فجعلوا يسيرون فيه يفتح أمامهم ويسد خلفهم وجعل لهم عمودا من نار فأنزل الله- ﷻ- عليهم المن والسلوى كل ذلك في المسير وهم الذين ذكرهم الله- ﷻ- في الأعراف: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩]، فلما أسرى بالنبي- ﷺ- تلك الليلة أتاهم فعلمهم الأذان والصلاة وسورا من القرآن فأسلموا فهم القوم المؤمنون ليست لهم ذنوب وهم يجامعون نساءهم بالليل وأتاهم جبريل- عَلَيْهِ السَّلَامُ- مع النبي- ﷺ- فسلموا عليه قبل أن يسلم عليهم، فقالوا للنبي- ﷺ-: لولا الخطايا التي في أمتك لصافحتهم الملائكة".

وفي قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ} [الإسراء: ١٠٤]، قولان:

أحدهما: وعد الكرة الآخرة في تحويلهم إلى أرض الشام.

**الثاني**: نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء، قاله قتادة، والكلبي.

وفي قوله تعالى: {جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} [الإسراء: ١٠٤]، ثلاثة وجوه:

**أحدها**: مختلطين لا تتعارفون، قاله رزين.

**الثاني**: جئنا بكم جميعاً من جهات شتى، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وبه قال الفراء، وابن قتيبة، مأخوذ من: لفيف الناس.

قال قتادة:" أي: جميعا، أولكم وآخركم".

قال الفراء:" من هاهنا وهاهنا وكل جانب".

=

=

**الثالث**: أي: النزاع من كل قوم من هاهنا ومن هاهنا لفوا جميعا. قاله الكلبي.

وقلنا من بعد هلاكه لبنى إسرائيل على لسان نبينا موسى- عليه السلام: اسكنوا الأرض التي أراد أن يستفزكم منها فرعون وهي أرض مصر.

قال الآلوسى: وهذا ظاهر إن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها، وبعد أن أغرق الله فرعون وجنده. وإن لم يثبت فالمراد من بنى إسرائيل ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم، واختار غير واحد أن المراد من الأرض. الأرض المقدسة، وهي أرض الشام .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله- تعالى- في إهلاك الظالمين، وفي توريث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة. مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول ﷺ منها، كما قال- تعالى-: وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها ... ولهذا أورث الله- تعالى- رسوله مكة، فدخلها، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلما وكرما، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين من بنى إسرائيل، مشارق الأرض ومغاربها. وأورثهم بلاد فرعون ... » .

ثم ختم- سبحانه- الآيات الكريمة بقوله: فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً.

أى: فإذا جاء وعد الدار الآخرة، أى: الموعد الذي حدده الله- تعالى- لقيام الساعة، أحييناكم من قبوركم، وجئنا بكم جميعا أنتم وفرعون وقومه مختلطين أنتم وهم، ثم نحكم بينكم وبينهم بحكمنا العادل.

واللفيف: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومعناه الجماعة التي اجتمعت من قبائل شتى.

يقال: هذا طعام لفيف، إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا.

=

=

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا مما دار بين موسى- عليه السلام وبين فرعون من محاورات ومجادلات، وبينت لنا سنة من سنن الله- تعالى- التي لا تتخلف في نصرة المؤمنين، ودحر الكافرين.

(منبهة): قال الله تعالى: (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا) [الإسراء: ١٠١].

وفي الحديث عن صفوان بن عسال المرادي - رضي الله عنه - قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي. فقال صاحبه: لا تقل نبي، إنه لو سمعك كان له أربعة أعين. فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات؛ فقال لهم: «لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود: أن لا تعتدوا في السبت». قال: فقبلوا يده ورجله؛ فقالا: نشهد أنك نبي. قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالوا: إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخاف إن تبعناك أن تقتلنا اليهود» أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩)، والطيالسي (١١٦٤)، والترمذي (٢٧٣٣، ٣١٤٤)، وابن ماجة (٣٧٠٥)، والنسائي (٤٠٧٨)، والحاكم (١/ ٥٢)، والطبراني (٨/ ٦٩)، والبيهقي (١٦٤٥٠)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٥٦٦)، والطحاوي في المشكل (١/ ٤ - ٥)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٩٧) وغيرهم، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وكذا صححه والنووي في رياض الصالحين (١/ ٢٢٧)، وفي المجموع (٤/ ٤٧٨)، وحسنه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٢٦٢)، وفي الفروع (٦/ ٢٨٣)، وأشار إلى ضعفه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٦١)، وكذا الذهبي في الميزان (٢/ ٤٣١)، وقال ابن كثير في تفسيره: هو حديث مشكل، عبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا

=

=

فيه، ولعل اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم، وكذا ضعفه ابن حجر، في تخريجه لأحاديث الكشاف (٢/ ٦٧٠)، والشيخ ناصر في ضعيف الترمذي، وضعفه أيضا الحويني في النافلة (١٣٢)، وضعفه الشيخ مشهور في تحقيق الموافقات (٤/ ٤١٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٠/ ١٣): إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن سلمة- وهو المرادي الكوفي- فلم يرو عنه سوى عمرو بن مرة وأبي الزبير المكي، ولم يوثقه سوى العجلي ويعقوب بن شيبة، وقال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال أبو أحمد الحاكم: حديثه ليس بالقائم، وقال عمرو بن مرة: كان عبد الله بن سلمة يحدثنا، فتعرف وتنكر. قلنا: كذا قال أبو حاتم، ولم يتابع عليه، وليس هو عبد الله بن سلمة الهمداني أبا العالية، الذي لا يعرف له راو غير أبي إسحاق السبيعي، كما بين ذلك الحافظ في "التهذيب". وجعلهما واحدا الإمام أحمد، وقد رد عليه غير واحد من الأئمة. وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أن صحابيه من رجال أصحاب السنن سوى أبي داود. يزيد: هو ابن هارون.

* وجه الإشكال: أن الآيات المذكورة في الحديث، إنما هي من الوصايا التي ذكرت في التوراة، وليس فيها حجج على فرعون وقومه، بينما الآية صريحة بأن التسع إنما هي لإقامة الحجة والبرهان على فرعون؛ لوصفه تعالى إياها بقوله: (بينات).

* مسالك العلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث:

للعلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث مسلكان:

الأول: مسلك قبول الحديث:

ولأصحاب هذا المسلك مذاهب:

=

=
الأول: مذهب توجيه الحديث وتأويله:

وهذا مذهب الجمهور من المفسرين، حيث ذهبوا إلى أن الآيات التي أعطيت لموسى - عليه السلام - كانت عبارة عن معجزات ودلالات، وقد اتفقوا على تعداد سبع منها، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، واختلفوا في الباقي.

وأما الحديث فقد اختلفوا في توجيهه على أقوال:

الأول: أن ما ذكر في الحديث هو كلام مستأنف، ذكره النبي - صلى الله عليه وسلم - عقب الجواب، لكن الراوي لم يذكر الجواب استغناء بما في القرآن، أو لأن الجواب ظاهر جلي لا يخفى على السامع.

وهذا رأي: الطيبي، وتبعه القاري، والسندي، والمباركفوري.

القول الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم عدل عن الجواب وأجابه بما أجاب؛ لأن هذا هو الأصلح والأهم للسائل، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يخفى عليه معنى الآية.

وهذا رأي: أبي السعود.

القول الثالث: أن ما ذكر في الحديث هو من الآيات التي تعبد بها بنو إسرائيل، وهذا لا ينافي ما ذكر عن الجمهور في تفسير الآية؛ لأن ما ذكروه هو من الآيات التي أوعدوا وخوفوا وأنذروا بها، على أن ما ذكروه له حكم الرفع؛ لأنه من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، وهو مما لا مجال للرأي فيه؛ فيكون له حكم الرفع، وبهذا يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد قال كلا التفسيرين، إلا أن مراده في أحدهما غير مراده بما في الآخر.

وهذا رأي: الطحاوي.

القول الرابع: أنه لا منافاة بين القرآن والحديث؛ لأن القرآن قد تضمن ذكر الآيات التي أوتيها موسى، والحديث فيه آيات أخر من التكليف، وكل شاهد لنبوة موسى فهو آية، وكل أمر أمر به، أو نهي نهي عنه فهو آية، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد
=

=

بالآيات المذكورة في هذه الآية هن الآيات التي من جهة الأمر والنهي، لا من جهة الإعجاز والبرهان.

وهذا رأي ابن العربي.

المذهب الثاني: أن المعتمد في تفسير الآية هو الحديث دون غيره، ويرى أصحاب هذا المذهب: أن المراد بالآيات في الآية: هي الأحكام، لا الأدلة، وأطلق عليها آيات؛ لأنها علامات على السعادة لمن امتثلها، والشقاوة لمن تركها.

وهذا رأي: الفخر الرازي، والخفاجي، والآلوسي.

المسلك الثاني: مسلك تضعيف الحديث وعدم قبوله.

ويرى أصحاب هذا المسلك أن الآية لا يصح في تفسيرها إلا ما ذكر في القرآن في مواضع متفرقة من أن الآيات هي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وغيرها.

وهذا رأي: الزيلعي، وابن كثير، وابن القيم، وابن حجر.

قال الزيلعي: «والحديث فيه إشكالان: أحدهما: أنهم سألوا عن تسعة، وأجاب في الحديث بعشرة، وهذا لا يرد على رواية: أبي نعيم، والطبراني ؛ لأنهما لم يذكرا فيه السحر، ولا على رواية أحمد أيضا؛ لأنه لم يذكر القذف مرة، وشك في أخرى، فيبقى المعنى في رواية غيرهم، أي خذوا ما سألتموني عنه، وأزيدكم ما يختص بكم، لتعلموا وقوفي على ما يشتمل عليه كتابكم.

الإشكال الثاني: أن هذه وصايا في التوراة، ليس فيها حجج على فرعون وقومه، فأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون، وما جاء هذا إلا من عبد الله بن سلمة؛ فإن في حفظه شيئا، وتكلموا فيه، وأن له مناكير، ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر كلمات فاشتبه عليه بالتسع آيات فوهم في ذلك، والله أعلم». اهـ

=

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥).

{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ} أَيْ الْقُرْآن {وَبِالْحَقِّ} الْمُشْتَمِل عَلَيْهِ {نَزَلَ} كَمَا أُنْزِلَ لَمْ يَعْتَرِهِ تَبْدِيل {وَمَا أَرْسَلْنَاك} يَا مُحَمَّد {إِلَّا مُبَشِّرًا} مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ {وَنَذِيرًا} مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ.

وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦).

{وَقُرْآنًا} مَنْصُوب بِفِعْلٍ يُفَسِّرهُ {فَرَقْنَاهُ} نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقًا في عشرين سنة أو وثلاث {لتقرأه على الناس على مُكْث} مَهْل وَتُؤَدَة لِيَفْهَمُوهُ {وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} شَيْئًا بَعْد شَيْء عَلَى حَسَب الْمَصَالِح.

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ

---

=

وقال ابن كثير - بعد إيراده لحديث صفوان -: «وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات؛ فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم». اهـ

وقال: «المراد بالتسع الآيات: إنما هي ما تقدم ذكره، من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى، ووجود الفاعل المختار الذي أرسله، وليس المراد منها كما ورد في حديث صفوان؛ فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون، وما جاء هذا الوهم إلا من قبل عبد الله بن سلمة؛ فإن له بعض ما ينكر، والله أعلم، ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات؛ فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فحصل وهم في ذلك، والله أعلم».

لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧).

{قُلْ} لِكُفَّارِ مَكَّة {آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تؤمنوا} تهديد لهم {إن الذين أوتوا العلم من قبله} قبل نزوله وهم مؤمنوا أهل الكتاب {إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا}.

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨).

{وَيَقُولُونَ سُبْحَان رَبّنَا} تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ خُلْف الْوَعْد {إنْ} مُخَفَّفَة {كَانَ وَعْد رَبّنَا} بِنُزُولِهِ وبعث النبي ﷺ {لمفعولا}.

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩).

{وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ} عَطْف بِزِيَادَةِ صِفَة {وَيَزِيدهُمْ} الْقُرْآن {خُشُوعًا} تَوَاضُعًا لِلَّهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ} [الإسراء: ١٠٥]، أي:" وبالحق أنزلنا هذا القرآن على محمد ﷺ لأمْرِ العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره: وبالحق أنزلنا هذا القرآن: يقول: أنزلناه نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة، والأمور المستحسنة الحميدة، وننهى فيه عن الظلم والأمور القبيحة، والأخلاق الردية، والأفعال الذّميمة".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: أنزلنا عليك جبريل بالقرآن، ويقال: أنزلناه بالحق والحكمة والحجة".

قال الزمخشري: أي:" وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظا بالرصد من الملائكة".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي: متضمنًا للحق، كما قال تعالى: {لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزلَ إِلَيْكَ أَنزلَهُ =

=

بِعِلْمِهِ} [النساء: ١٦٦] أي: متضمنا علم الله الذي أراد أن يُطْلِعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه".

قال ابن عثيمين:" وقوله: {بالحق}: إما أن يكون وصفا للنازل أو للمنزول به، فإن كان وصفا للنازل؛ فمعناه: أن نزوله حق، وليس بكذب، وإن كان وصفا للمنزول به؛ فمعناه: أن ما جاء به فهو حق، وكلاهما مراد؛ فهو حق من عند الله، ونازل بالحق".

قوله تعالى: {وَبِالْحَقِّ نَزَلَ} [الإسراء: ١٠٥]، أي:" وبالصدق والعدل والحفظ من التغيير والتبديل نزل".

**قال الطبري:**" يقول: وبذلك نزل من عند الله على نبيّه محمد ﷺ".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: بالقرآن نزل جبريل".

قال الزمخشري: أي:" وما نزل إلا ملتبسا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو وما نزل على الرسول إلا محفوظا بهم من تخليط الشياطين".

قال ابن كثير:" أي: ووصل إليك - يا محمد - محفوظًا محروسًا، لم يُشَب بغيره، ولا زِيدَ فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القُوى، القَوِيّ الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى ".

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء: ١٠٥]، أي:" وما أرسلناك -أيها الرسول- إلا مبشرًا بالجنة لمن أطاع، ومخوفًا بالنار لمن عصى وكفر".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد إلى من أرسلناك إليه من عبادنا، إلا مبشرا بالجنَّة من أطاعنا، فانتهى إلى أمرنا وَنهْينا، ومنذرا لمن عصانا وخالف أمرنا ونهينَا".

قال أبو الليث السمرقندي:" وما أرسلناك إلا مبشرا بالجنة للمؤمنين ونذيرا بالنار

=

=

للكافرين".

قال الزمخشري: أي:" وما أرسلناك إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء، من إكراه على الدين أو نحو ذلك".

قال ابن كثير:" {إِلا مُبَشِّرًا} لمن أطاعك من المؤمنين {وَنَذِيرًا} لمن عصاك من الكافرين ".

قال النحاس:" لأن كل ما فيه حق".

قال الآلوسى: قوله- تعالى-: وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ.. عود إلى شرح حال القرآن الكريم، فهو مرتبط بقوله: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ.. وهكذا طريقة العرب في كلامها، تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى آخر، ثم إلى آخر، ثم إلى آخر، ثم تعود إلى ما ذكرته أولا، والحديث شجون ... » .

والمراد بالحق الأول: الحكمة الإلهية التي اقتضت إنزاله، والمراد بالحق الثاني: ما اشتمل عليه هذا القرآن من عقائد وعبادات وآداب وأحكام ومعاملات ...

والباء في الموضعين للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير القرآن الذي دل الكلام على أن الحديث عنه.

والمعنى: وإن هذا القرآن ما أنزلناه إلا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه حكمتنا، وما أنزلناه إلا وهو مشتمل على كل ما هو حق من العقائد والعبادات وغيرهما. فالحق سداه ولحمته، والحق مادته وغايته.

قال بعض العلماء: بين- جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أنه أنزل هذا القرآن بالحق، أى: ملتبسا به متضمنا له، فكل ما فيه حق، فأخباره صدق. وأحكامه عدل، كما قال- تعالى-: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ ... وكيف لا، وقد أنزله- سبحانه- بعلمه، كما قال- تعالى- لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ

=

=

أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً.

وقوله وَبِالْحَقِّ نَزَلَ يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله، لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوى لا يغلب عليه، حتى يغير فيه، أمين لا يغير ولا يبدل، كما أشار إلى هذا- سبحانه- بقوله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ.

وقوله- سبحانه-: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ثناء على الرسول ﷺ الذي نزل عليه القرآن، بعد الثناء على القرآن في ذاته.

أى: وما أرسلناك- أيها الرسول الكريم- إلا مبشرا لمن أطاعنا بالثواب، وإلا منذرا لمن عصانا بالعقاب. ولم نرسلك لتخلق الهداية في القلوب، فإن ذلك من شأن الله تعالى.

قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ} [الإسراء: ١٠٦]، أي:" وأنزلنا إليك -أيها الرسول- قرآنًا بيَّناه وأحكمناه وفَصَّلناه فارقًا بين الهدى والضلال والحق والباطل".

قال السعدي:" أي: وأنزلنا هذا القرآن مفرقا، فارقا بين الهدى والضلال، والحق والباطل".

وفي قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ} [الإسراء: ١٠٦]، ثلاثة وجوه:

**أحدها**: فرقنا فيه بين الحق والباطل، قاله الحسن.

**الثاني**: «فرّقناه» بالتشديد، وهي قراءة ابن عباس، أي: نزل مفرّقًا آية آية وهي كذلك في مصحف ابن مسعود وأُبيّ بن كعب: «فرقناه عليك».

قال قتادة:" لم ينزل جميعا، وكان بين أوّله وآخره نحو من عشرين سنة".

قال ابن زيد:" فرّقه: لم ينزله جميعه".

وقال مقاتل:" يعني: قطعناه بين أوله وآخره عشرون سنة تترى، لم ننزله جملة واحدة".

=

=

قال ابن عباس:" أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، {وَقُرآنا فَرَّقْنَاهُ لِتَقْرأَهُ عَلى النَّاسِ على مُكْثٍ، وَنزلْنَاهُ تَنزيلا} ".

**الثالث:** فصّلناه. قال ابن عباس أيضا.

**الرابع:** بيناه. وهذا مروي عن أبيّ بن كعب.

وحكي الماوردي عن ابن بحر، قال:"فصّلناه سُوراً وآيات متميزة.

وقال الفراء:" أحكمناه وفصلناه كما قال: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٤]، أي: يفصل".

قوله تعالى: {لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} [الإسراء: ١٠٦]، أي:" لتقرأه على الناس في تؤدة وتمهُّل".

**قال الطبري:**" يقول: لتقرأه على الناس على تُؤَدة، فترتله وتبينه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك".

قال السعدي:" أي: على مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه".

وفي قوله تعالى: {لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} [الإسراء: ١٠٦]، أربعة وجوه:

**أحدها:** يعني: على تثبت وترسّل، وهو قول مجاهد.

عن عبيد المكُتِب قال: "قلت لمجاهد: رجل قرأ البقرة وآل عمران، وآخر قرأ البقرة، وركوعهما وسجودهما واحد، أيهما أفضل؟ قال: الذي قرأ البقرة، وقرأ {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} ".

**الثاني:** على ترتيل. قاله ابن جريج، وابن زيد.

قال مقاتل:" يعني: على ترتيل للحفظة".

**الثالث:** على تأييد. قاله ابن عباس.

=

=

**الرابع**: أن يمكث في قراءته عليهم مفرقـًا شيئـًا بعد شيء، قاله أبو مسلم.

قوله تعالى: {وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء: ١٠٦]، أي:" ونَزَّلْناه مفرَّقًا، شيئًا بعد شيء، على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال".

**قال الطبري**:" وأنزلناه شيئا بعد شيء".

قال مجاهد:" بعضه على إثر بعض".

قال يحيى بن سلام:" أنزله الله في ثلاث وعشرين سنة".

قال قتادة:" لم ينزل في ليلة ولا ليلتين، ولا شهر ولا شهرين، ولا سنة ولا سنتين، ولكن كان بين أوّله وآخره عشرون سنة، وما شاء الله من ذلك".

وروي عن قتادة، قال:" عشرا بمكة، وعشرا بالمدينة".

قال الحسن:" أنزل على نبيّ الله القرآن ثماني سنين، وعشرا بعد ما هاجر".

عن أبي رجاء؛ قال: "تلا الحسن: {وَقُرآنا فَرَّقْناهُ لِتَقْرأَهُ عَلى النَّاسِ على مُكْثٍ وَنزلْنَاهُ تَنزيلا}، قال: كان الله تبارك وتعالى ينزل هذا القرآن بعضه قبل بعض لما علم أنه سيكون ويحدث في الناس، لقد ذكر لنا أنه كان بين أوّله وآخره ثماني عشرة سنة، قال: فسألته يوما على سخطة، فقلت: يا أبا سعيد "وقرآنا فرقناه" فثقلها أبو رجاء، فقال الحسن: ليس فرّقناه، ولكن فَرقناه، فقرأ الحسن مخففة، قلت: من يُحدثك هذا يا أبا سعيد أصحاب محمد، قال: فمن يحدّثنيه، قال: أنزل عليه بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ثماني سنين، وبالمدينة عشر سنين".

ثم بين- سبحانه- الحكم التي من أجلها أنزل القرآن مفصلا ومنجما، فقال: وَقُرْآنـًا فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا.

ولفظ: قُرْآنـًا منصوب بفعل مضمر أى: وآتيناك قرآنا.

وقوله: فَرَقْناهُ أى: فصلناه. أو فرقنا فيه بين الحق والباطل. أو أنزلناه منجما مفرقا.

قال الجمل: وقراءة العامة فَرَقْناهُ بالتخفيف. أى: بينا حلاله وحرامه ...

=

=

وقرأ على وجماعة من الصحابة وغيرهم بالتشديد وفيه وجهان: أحدهما: أن التضعيف للتكثير. أى: فرقنا آياته بين أمر ونهى وحكم وأحكام. ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار.

**والثاني**: أنه دال على التفريق والتنجيم» .

وقوله عَلى مُكْثٍ أى: على تؤدة وتمهل وحسن ترتيل، إذ المكث التلبث في المكان، والإقامة فيه انتظارا لأمر من الأمور.

والمعنى: «ولقد أنزلنا إليك- أيها الرسول- هذا القرآن، مفصلا في أوامره ونواهيه، وفي أحكامه وأمثاله ... ومنجما في نزوله لكي تقرأه على الناس على تؤدة وتأن وحسن ترتيل، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة، وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقا عمليا دقيقا.

وهكذا فعل الصحابة- رضى الله عنهم-: فإنهم لم يكن القرآن بالنسبة لهم متعة عقلية ونفسية فحسب، وإنما كان القرآن بجانب حبهم الصادق لقراءته وللاستماع إليه منهجا لحياتهم، يطبقون أحكامه وأوامره ونواهيه وآدابه ... في جميع أحوالهم الدينية والدنيوية.

قال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، أنهم كانوا يستقرئون عن النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها «فتعلمنا القرآن والعمل جميعا».

وقوله- سبحانه-: وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا أى: ونزلناه تنزيلا مفرقا منجما عليك يا محمد في مدة تصل إلى ثلاث وعشرين سنة، على حسب ما تقتضيه حكمتنا، وعلى حسب الحوادث والمصالح، وليس من أجل تيسير حفظه فحسب.

قوله تعالى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا} [الإسراء: ١٠٧]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المكذبين: آمِنوا بالقرآن أو لا تؤمنوا؛ فإن إيمانكم لا يزيده

=

=

كمالا وتكذيبكم لا يُلْحِق به نقصًا".

قال السعدي:" فإذا تبين أنه الحق، الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه فـ: {قل} لمن كذب به وأعرض عنه: {آمنوا به أو لا تؤمنوا}، فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئا، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عبادا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع".

قال الزمخشري:" أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ} [الإسراء: ١٠٧]، أي:" إن العلماء الذين أوتوا الكتب السابقة مِن قبل القرآن، وعرفوا حقيقة الوحي".

قال الزمخشري:" وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيرا منهم وأفضل- وهم العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع- قد آمنوا به وصدقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربى الموعود في كتبهم".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ} [الإسراء: ١٠٧]، وجهان:

أحدهما: أنهم أمة محمد -ﷺ-. قاله الحسن.

**الثاني**: أنهم أناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد قالوا: {سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا}. قاله مجاهد.

قال يحيى بن سلام:" يعني: المؤمنين من أهل الكتاب".

قوله تعالى: {إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} [الإسراء: ١٠٧]، أي:" إذا قرئ عليهم القرآن يخشعون، فيسجدون على وجوههم تعظيما لله تعالى، وشكرا له".

**قال الطبري**:" ويخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل

=

=

نزول الفرقان، إذا يُتْلَى عليهم القرآن لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعا، يعني خضوعا لأمر الله وطاعته، واستكانة له".

قال السعدي:" أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له".

قال المحاسبي:" يخبر تبارك وتعالى أن وجل الذين أوتوا العلم من قبلنا ومخافتهم كانت عن فهم آياته في كتابه وتدبر قوله".

قال الزمخشري:"فإذا تلى عليهم خروا سجدا".

وفي قوله تعالى: {يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} [الإسراء: ١٠٧]، ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أن الأذقان مجتمع اللحيين. قاله أبو عبيدة، والزجاج.

قال الزجاج:" لأن الذي يخر وهو قائم يخر لوجهه، والذَّقَنُ: مجتمع اللَّحْيَيْنِ، وهو عضو من أعضاء الوجه، وكما يبتدئ المبتدئ يخر فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذَّقن".

**الثاني**: أنها ها هنا الوجوه، قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل.

**الثالث**: أنها اللحى، قاله الحسن.

عن عبد الأعلى التيميّ، "أن من أوتي من العلم يبكه لخليق أن لا يكون أوتي علما ينفعه، لأن الله نعت العلماء فقال: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ} .... الآيتين".

قال سهل: "لا يؤثر شيء على السر مثل ما يؤثر عليه سماع القرآن، فإن العبد إذا سمع خشع سره، وأنار ذلك قلبه بالبراهين الصادقة، وزين جوارحه بالتذلل والانقياد، والله سبحانه وتعالى أعلم".

ثم أمر الله- تعالى- نبيه ﷺ أن يخاطب المشركين بما يدل على هوان شأنهم. وعلى عدم المبالاة بهم، فقال- تعالى-: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً....

=

=

وقد اختلف المفسرون في معنى الأذقان في الأية على أقوال، هي:

القول الأول: إن المراد بالأذقان الوجوه، وعليه فيكون عبر عن الوجوه بالأذقان كما يعبر عن كل شيء ببعض ما يلاقيه. قال به: ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، وقتادة، وابن خويزمنداد.

واستدلوا بالآتي: ما ذكره ابن خويزمنداد وهو:

١ - أنه يصح في اللغة أن يقال خر لوجهه ساجدا، وإن كان لم يسجد على خده ولا عينيه.

٢ - قول جابر التغلبي: فخر صريعا لليدين والفم

فإنما أراد: خر صريعا على وجهه ويديه، فعبر بالفم عن الوجه.

القول الثاني: إن المراد بالأذقان جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين، وهو من أعضاء الوجه، وخص بالذكر لأنه الذي يخر، فإن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذقن، ثم يكون سجوده على غير الذقن. قال به: الشافعي، والزجاج، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيمية.

القول الثالث: إن المراد بالأذقان اللحى، والآية على ظاهرها، وعليه فإنه ذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض من قوة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله، ولأنه غاية التواضع. قال به: الحسن، وابن عاشور.

ونوقش هذا القول بالآتي:

١ - أن الذقن ليس من أعضاء السجود فأعضاء السجود سبعة، وهي: الجبهة مع الأنف، واليدان، والركبتان، والقدمان، لما رواه ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال النبي ﷺ: (أمرت أن أسجد على سبعة أعظم، على الجبهة - وأشار بيده على أنفه -، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين).

=

=

قال الترمذي: "وعليه العمل عند أهل العلم".

٢- أن تمكين الوجه كله من الأرض متعذر فإما أن يسجد على جبهته فيرتفع الذقن أو العكس، قال ابن تيمية: "والجمع بينهما متعذر أو متعسر لأن الأنف بينهما، وهو ناتئ يمنع إلصاقهما معا بالأرض في حال واحدة، فالساجد يخر على ذقنه ويسجد على جبهته".

والراجح أن الآية يجوز فيها القول الأول والثاني، أي قول من قال إن المراد بالأذقان الوجوه لكن عبر بالبعض عن الكل، وقول من قال أن المراد بالأذقان اللحى، وخصت بالذكر لأنها أول ما يلي الأرض من الوجه عند السجود، والقولان محتملان في اللغة، أما القول الثالث وهو: أن المراد بالآية ظاهرها فإنه ضعيف، للحديث الوارد، ولما ورد عليه من مناقشة.

أى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الجاهلين. الذين طلبوا منك ما هو خارج عن رسالتك، والذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين: قل لهم: آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به، لأن إيمانكم به، لا يزيده كمالا، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئا، فإن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم الله العلم قبل نزول هذا القرآن، وميزوا بين الحق والباطل، كانوا إذا تلى عليهم هذا القرآن، - كأمثال عبد الله بن سلام وأصحابه «يخرون للأذقان سجدا» أى: يسقطون على وجوههم ساجدين لله- تعالى- شكرا له على إنجاز وعده، بإرسالك- أيها الرسول الكريم- وبإنزال القرآن عليك، كما وعد بذلك- سبحانه- في كتبه السابقة.

فالجملة الكريمة: إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ.. تعليل لعدم المبالاة بهؤلاء المشركين الجاهلين، والضمير في قوله: مِنْ قَبْلِهِ يعود إلى القرآن الكريم.

وقوله: يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً يدل على قوة إيمانهم، وعلى سرعة تأثرهم بهذا القرآن، فهم بمجرد تلاوته عليهم، يسقطون على وجوههم ساجدين لله- تعالى-.

=

=

وخصت الأذقان بالذكر، لأن الذقن أول جزء من الوجه يقرب من الأرض عند السجود، ولأن ذلك يدل على نهاية خضوعهم لله- تعالى- وتأثرهم بسماع القرآن الكريم.

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا} [الإسراء: ١٠٨]، أي:" ويقول هؤلاء الذين أوتوا العلم عند سماع القرآن: تنزيهًا لربنا وتبرئة له مما يصفه المشركون به".

**قال الطبري:**" يقول جلّ ثناؤه: ويقول هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزول هذا القرآن، إذ خروا للأذقان سجودا عند سماعهم القرآن يُتْلَى عليهم، تنزيها لربنا وتبرئة له مما يضيف إليه المشركون به".

قال الزمخشري:" وسبحوا الله تعظيما لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشربه من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: {إن كان وعد ربنا لمفعولا} ".

قال السعدي:" {ويقولون سبحان ربنا} عما لا يليق بجلاله، مما نسبه إليه المشركون".

قال ابن الجوزي:" نزهوا الله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

عن الحسن قال: " {سبحان الله}: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه".

قوله تعالى: {إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} [الإسراء: ١٠٨]، أي:" ما كان وعد الله تعالى من ثواب وعقاب إلا واقعًا حقًا".

قال يحيى بن سلام:" يعني: لقد كان وعد ربِّنا لمفعولا".

قال الزجاج:" معناه: ما كان وعد ربنا إلا مفعولًا. و «إن» و «اللام» دخلتا للتوكيد".

**قال الطبري:**" ما كان وعد ربنا من ثواب وعقاب، إلا مفعولا حقا يقينا، إيمان

=

=

بالقرآن وتصديق به، والأذقان في كلام العرب: جمع ذَقَن وهو مجمع اللَّحيين، وإذ كان ذلك كذلك، فالذي قال الحسن في ذلك أشبه بظاهر التنزيل".

قال مكي بن ابي طالب:" أي: ما كان وعد ربنا من ثواب وعذاب إلا مفعولاً. وقيل: معناه: إن كان وعد ربنا أن يبعث محمداً ﷺ لمفعولا".

قال الواحدي:" أَيْ: وعده بإنزال القرآن وبعث محمّد عليه السلام لمفعولاً".

قال الجصاص:" فمدحهم بهذا القول عند السجود، فدل على أن المسنون في السجود من الذكر هو التسبيح".

ثم حكى- سبحانه- ما يقولونه في سجودهم فقال: وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا.

أى: ويقولون في سجودهم، ننزه ربنا- عز وجل عن كل ما يقوله الجاهلون بشأنه، إنه- تعالى- كان وعده منجزا ومحققا لا شك في ذلك.

قوله تعالى: {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ} [الإسراء: ١٠٩]، أي:" ويقع هؤلاء ساجدين على وجوههم، يبكون تأثرًا بمواعظ القرآن".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: يقعون على الوجوه. يبكون".

قال مكي بن ابي طالب:" ويخر هؤلاء الذين أوتوا العلم، من مؤمنين أهل الكتاب من قبل نزول القرآن، إذا يتلى عليهم القرآن لأذقانهم يبكون".

**قال البغوي**:" أي: يقعون على الوجوه يبكون، البكاء مستحب عند قراءة القرآن".

قال الواحدي:" كرَّر القول لتكرُّر الفعل منهم".

قوله تعالى: {وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩]، أي:" ويزيدهم سماع القرآن ومواعظه خضوعًا لأمر الله وعظيم قدرته".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: تواضعا ومذلة".

قال ابن أبي زمنين والواحدي:" {ويزيدهم} يعني: القرآن {خشوعا} ".

=

=

قال مكي بن ابي طالب:" ويزيدهم وعظ القرآن خشوعـًا لله".

**قال البغوي:**" {ويزيدهم} نزول القرآن خضوعا لربهم".

قال الزمخشري:" أى: يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين".

قال يحيى بن سلام:" «الخشوع»: الخوف الثابت في القلب".

قال ابن عطية:" هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم وحض لكل من ترسم بالعلم وحصل منه شيئا أن يجري إلى هذه الرتبة".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مسلم أبدا".

ثم كرر- سبحانه- مدحه لهم فقال: وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ، وَيَزِيدُهُمْ أى سماع القرآن خُشُوعـًا وخضوعا لله- عز وجل.

وكرر- سبحانه- خرورهم على وجوههم ساجدين لله- تعالى- لاختلاف السبب، فهم أولا أسرعوا بالسجود لله تعظيما له- سبحانه- وشكرا له على إنجازه لوعده.

وهم ثانيا أسرعوا بالسجود، لفرط تأثرهم بمواعظ القرآن الكريم.

فأنت ترى هاتين الآيتين قد أمرتا النبي ﷺ بالإعراض عن المشركين، وباحتقارهم وبازدراء شأنهم، فإن الذين هم خير منهم وأفضل وأعلم قد آمنوا.

وفي ذلك ما فيه من التسلية لرسول الله ﷺ فكأن الله- تعالى- يقول له: يا محمد تسلّ عن إيمان هؤلاء الجهلاء، بإيمان العلماء.

هذا، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين أن البكاء من خشية الله، يدل على صدق الإيمان، وعلى نقاء النفس، ومن الأحاديث التي وردت في فضل ذلك، ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما

=

قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠).

وكان ﷺ يقول ياألله يَا رَحْمَن فَقَالُوا يَنْهَانَا أَنْ نَعْبُد إلَهَيْنِ وَهُوَ يَدْعُو إلَهًا آخَرَ مَعَهُ فَنَزَلَ {قُلْ} لَهُمْ {اُدْعُوا الله أَوْ اُدْعُوا الرَّحْمَن} أَيْ سَمُّوهُ بِأَيِّهِمَا أَوْ نَادُوهُ بِأَنْ تَقُولُوا يَا الله يَا رَحْمَن {أَيًّا} شَرْطِيَّة {مَا} زَائِدَة أَيْ أَيّ هَذَيْنِ {تَدْعُوا} فَهُوَ حَسَن دَلَّ عَلَى هَذَا {فَلَهُ} أَيْ لِمُسَمَّاهُمَا {الْأَسْمَاء الْحُسْنَى} وَهَذَانِ مِنْهَا فَإِنَّهَا كَمَا فِي الْحَدِيث الله الَّذِي لَا إلَه إلَّا هُوَ الرَّحْمَن الرَّحِيم الْمَلِك الْقُدُّوس السَّلَام الْمُؤْمِن الْمُهَيْمِن الْعَزِيز الْجَبَّار الْمُتَكَبِّر الْخَالِق الْبَارِئ الْمُصَوِّر الْغَفَّار الْقَهَّار الْوَهَّاب الرَّزَّاق الْفَتَّاح الْعَلِيم الْقَابِض الْبَاسِط الْخَافِض الرَّافِع الْمُعِزّ الْمُذِلّ السَّمِيع الْبَصِير الْحَكَم الْعَدْل اللَّطِيف الْخَبِير الْحَلِيم الْعَظِيم الْغَفُور الشَّكُور الْعَلِيّ الْكَبِير الْحَفِيظ الْمَقِيت الْحَسِيب الْجَلِيل الْكَرِيم الرَّقِيب الْمُجِيب الْوَاسِع الْحَكِيم الْوَدُود الْمَجِيد الْبَاعِث الشَّهِيد الْحَقّ الْوَكِيل الْقَوِيّ الْمَتِين الْوَلِيّ الْحَمِيد الْمُحْصِي الْمُبْدِئ الْمُعِيد الْمُحْيِي الْمُمِيت الْحَيّ الْقَيُّوم الْوَاجِد الْمَاجِد الْوَاحِد الْأَحَد الصَّمَد الْقَادِر الْمُقْتَدِر الْمُقَدِّم الْمُؤَخِّر الْأَوَّل الْآخِر الظَّاهِر الْبَاطِن الْوَالِي الْمُتَعَالِي الْبَرّ التَّوَّاب الْمُنْتَقِم الْعَفُوّ الرَّءُوف مَالِك الْمُلْك ذُو الْجَلَال وَالْإِكْرَام الْمُقْسِط الْجَامِع الْغَنِيّ الْمُغْنِي الْمَانِع الضَّارّ النَّافِع النُّور الْهَادِي الْبَدِيع الْبَاقِي الْوَارِث الرشيد الصبور رواه الترمذي[1] قال تعالى {وَلَا تَجْهَر بِصَلَاتِك}

=

النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

(١) أخرجه الترمذى (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٣٨٦١)، وابن حبان (٨٠٨)، والحاكم (١/ ٦٢)، والبيهقى فى الشعب (١/ ١١٥)، وفي الأسماء والصفات (١/ رقم ٦)،
=

بِقِرَاءَتِك بِهَا فَيَسْمَعك الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوك وَيَسُبُّوا الْقُرْآن وَمَنْ أَنْزَلَهُ {وَلَا تُخَافِت} تُسِرّ {بِهَا} لِيَنْتَفِع أَصْحَابك {وَابْتَغِ} اقْصِدْ {بَيْن ذَلِكَ} الْجَهْر

=

والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٢) وغيرهم، والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كبير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح ا. هـ وقال ابن حزم: جاء في إحصائها أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلا، وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٣٨٢): فتعيينها ليس من كلام النبى ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه ولكن روى فى ذلك عن السلف أنواع، من ذلك ما ذكره الترمذى ومنها غير ذلك، وقال ابن القيم: الصحيح أنه -أي العد- ليس من كلام النبي ﷺ، وقال الحافظ ابن كثير في تقسيره: (٣/ ٥١٥): والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي أنهم جمعوها من القرآن، كما روى جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبو زيد اللغوي والله أعلم، وقال الصنعاني في سبل السلام: اتفق الحفاظ من أئمة الحديث أن سردها إدراج من بعض الرواة، وضعفه الشيخ في ضعيف الترمذي، وضعيف ابن ماجة، وضعفه العلامة الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (٤٥٩)، وللمزيد انظر "جزء فيه طرق حديث إن لله تسعة وتسعين اسما" لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق الشيخ مشهور آل سلمان.

وَالْمُخَافَتَة {سَبِيلًا} طَرِيقًا وَسَطًا.

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١).

{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ولم يكن له شَرِيك فِي الْمُلْك} فِي الْأُلُوهِيَّة {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيّ} يَنْصُرهُ {مِنْ} أَجْل {الذُّلّ} أَيْ لَمْ يُذَلّ فَيَحْتَاج إِلَى نَاصِر {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} عَظِّمْهُ عَظَمَة تَامَّة عَنْ اتِّخَاذ الْوَلَد الشَّرِيك وَالذُّلّ وَكُلّ مَا لَا يَلِيق بِهِ وَتَرْتِيب الْحَمْد عَلَى ذَلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ الْمُسْتَحِقّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِد لِكَمَالِ ذَاته وَتَفَرُّده فِي صِفَاته وَرَوَى الْإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده عَنْ مُعَاذ الْجُهَنِيّ عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُول آيَة الْعِزّ {الْحَمْد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن لَهُ شَرِيك فِي الْمُلْك} إِلَى آخِر السُّورَة وَاَللَّه تَعَالَى أَعْلَم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله -تعالى-: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}؛ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون؛ سبُّوا القرآن ومن أنزَلَهُ ومن جاء به؛ فقال الله -تعالى- لنبيه ﷺ: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ}؛ أي: بقراءتك؛ فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، {وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} عن أصحابك فلا تسمعهم، {وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٤٠٤، ٤٠٥ رقم ٤٧٢٢، ١٣/ ٤٦٣ رقم ٧٤٩٠، ص ٥٠٠ رقم ٧٥٢٥، ص ٥١٨ رقم ٧٥٤٧)، ومسلم في "صحيحه" (١/ ٣٢٩ رقم ٤٤٦).

وأخرج ابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٠، ٤٤١) عن أبي خالد الأحمر عن الهجري عن =

=

أبي عياض قال: كان النبي ﷺ إذا صلى عند البيت جهر بقراءته، فكان المشركون يؤذونه؛ فنزلت: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال. والثانية: الهجري؛ ضعيف الحديث.

وعن عبد الله بن شداد؛ قال: كان أعراب لبني تميم إذا سلّم النبي ﷺ؛ قالوا: اللهم ارزقنا مالًا وولدًا -وفي رواية: إبلًا-؛ فنزلت: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢/ ٤٤١)، والطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٨٤) من طريق أبي أحمد الزبيري ومعاوية بن هشام ومحمد بن بشار ثلاثتهم عن الثوري عن عياش العامري عن عبد الله بن شداد به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

و عن سعيد بن جبير في قوله: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}؛ قال: كان النبي ﷺ يرفع صوته {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} وكان مسيلمة قد تسمى بالرحمن، فكان المشركون إذا سمعوا ذلك من النبي ﷺ؛ قالوا: قد ذكر مسيلمة إله اليمامة، ثم عارضوه بالمكاء والتصدية والصفير؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢/ ٤٤١)، وأبو داود في "المراسيل" (رقم ٣٤) من طريق أبي سعيد المؤدب وشريك القاضي كلاهما عن سالم الأفطس عن سعيد به. وهذا مرسل حسن الإسناد؛ لأجل سالم؛ فهو صدوق.

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: إنما نزلت هذه الآية في الدعاء.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٧٢٣، ٦٣٢٧، ٧٥٢٦)، ومسلم في "صحيحه" (ص ٤٤٧ رقم ١٤٦) وغيرهما من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه

=

=

عنها.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢٤)، والحاكم (١/ ٢٣٠) من طريق حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة؛ قالت: نزلت في التشهد.

وهذا إسناد صحيح على شرطهما في الظاهر، وإلا؛ فقد خالف حفص جمعًا ممن رووه عن هشام عن أبيه عن عائشة باللفظ الأول، وهذا اللفظ تفرد به حفص خاصة، وقد تكلم فيه؛ فإن حفظه تغيّر قليلًا في آخره، وعليه؛ يكون هذا اللفظ شاذ -والله أعلم-.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان النبي ﷺ ساجدًا يدعو: "يا رحمن، يا رحيم"، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعوا واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى؛ فأنزل الله -تعالى-: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢١): حدثنا القاسم ثنا الحسين ثنا محمد بن كثير عن عبد الله بن واقد عن أبي الجوزاء عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ محمد بن كثير المصيصي؛ صدوق كثير الغلط، والحسين هو سنيد صاحب "التفسير"؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: الدعاء، وفي رواية: كانوا يجهرون بالدعاء، فلما نزلت هذه الآية؛ أمروا أن لا يجهروا ولا يخافتوا، وفي رواية: كان الرجل إذا دعا في الصلاة رفع صوته.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢٢)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢/ ٤٤١)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٢١٨ رقم ١١٧١٠)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٢/ ١٨٤)، وأحمد بن منيع في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٨/ ٦٠٦ رقم ٤٠٣٤ - المسندة)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٠٦

=

=

رقم ٧٧٤١) من طريقين عن أشعث بن سوار عن عكرمة عنه به. وهذا إسناد ضعيف؛ أشعث ذا ضعيف. قال البيهقي عقبه: "كذا في هذه الرواية وليست بقوية".

وأخرج الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢٢) من طريق العوفي عن ابن عباس؛ قال: في الدعاء والمسألة. وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن مجاهد؛ قال: نزلت في الدعاء والمسألة.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٢/ ٤٤١، ١٠/ ٤٠٥ رقم ٩٨١٢)، والطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢٢). وهو مرسل صحيح الإسناد.

وأخرج الطبري (١٥/ ١٢٢) عن ابن حميد ثنا جرير بن عبد الحميد عن ليث عن مجاهد؛ قال: نزلت في الدعاء والمسألة. وسنده ضعيف جدًا؛ لثلاث علل فيه: الأولى: الإرسال. والثانية: ليث بن أبي سليم؛ ضعيف. والثالثة: ابن حميد متهم.

وعن دراج أبي السمح: أن شيخًا من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ حدثه: أن رسول الله؛ قال: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}، ذلك في الدعاء لا ترفع صوتك في الدعاء؛ فتذكر ذنوبك، فيسمع منك؛ فتعير بها".

أخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (٣/ ٢٥٦ رقم ٨٨٢)، قال أصبغ: عن ابن وهب ثنا عمرو عن دراج به. وهذا إسناد حسن -إن شاء الله- وقد يعل بأن البخاري علقه؛ لكنه هنا علّقه بصيغة الجزم، وهو عن شيوخه الثقات، فيستوي فيه التصريح بعن أو قال، على ما هو معروف.

ودراج؛ فيه كلام معروف، وضعفه بعض العلماء مطلقًا، والراجح فيه: قول أبي داود: "إن أحاديثه مستقيمة؛ إلا ما رواه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري"؛ ولذلك قال الحافظ: "صدوق، في حديثه عن أبي الهيثم ضعيف".

وعن أبي هريرة؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى عند البيت؛ رفع صوته بالدعاء،

=

=

وآذاه المشركون؛ فنزل: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٥١) ونسبه لابن نصر وابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي؛ تفرقوا وأبوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي؛ استرق السمع دونهم؛ فرقًا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع؛ ذهب خشية أذاهم، فلم يستمع، فإن خفض رسول الله ﷺ صوته؛ لم يستمع الذين يستمعون من قراءته شيئًا؛ فأنزل الله عليه: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ} فيتفرقوا عنك {وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}؛ فلا تسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم؛ لعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به {وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}.

أخرجه ابن إسحاق -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢٣)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ١٨٢ رقم ١١٥٧٤) -: ثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس.

وهذا إسناد ضعيف؛ رواية داود عن عكرمة خاصة منكرة وضعيفة.

وعن ابن سيرين؛ قال: نزلت هذه الآية في التشهد، وكان الأعرابي يجهر فيقول: التحيات لله والصلوات لله، يرفع فيها صوته؛ فنزلت: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢٤) من طريق حفص بن غياث عن أشعث بن سوار عنه به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: أشعث؛ ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالصلاة بالمسلمين بالقرآن؛ شق ذلك على المشركين إذا سمعوا، فيؤذون رسول الله ﷺ بالشتم والعيب، وذلك بمكة؛ فأنزل الله: يا

=

=

محمد! لا تجهر بصلاتك، يقول: لا تعلن بالقراءة بالقرآن إعلانًا شديدًا يسمعه المشركون؛ فيؤذونك، ولا تخافت بالقراءة بالقرآن، يقول: لا تخفض صوتك حتى لا تسمع أذنيك {وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}، يقول: اطلب بين الإعلان والجهر وبين التخافت والخفض طريقًا لا جهرًا شديدًا ولا خفضًا لا تسمع أذنيك، فذلك القدر. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة سقط هذا كله، يفعل الآن أي ذلك شاء.

أخرجه الطبري (١٥/ ١٢٣): ثنا أبو كريب ثنا عثمان بن سعيد ثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ الضحاك لم يلق ابن عباس، وبشر بن عمارة؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن مكحول: أن النبي ﷺ كان يتهجد بمكة ذات ليلة، يقول في سجوده: "يا رحمن، يا رحيم"؛ فسمعه رجل من المشركين، فلما أصبح قال لأصحابه: انظروا ما قال ابن أبي كبشة يدعو الليلة الرحمن الذي باليمامة، وكان باليمامة رجل يقال له: الرحمن؛ فنزلت: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢١) من طريق الحسين ثني عيسى عن الأوزاعي عن مكحول. وإسناده ضعيف؛ لإرساله، وضعف الحسين وهو المعروف بسنيد صاحب "التفسير".

وعن عائشة؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يجهر بالدعاء، فجعل يقول: "يا الله ... يا رحمن ... "؛ فسمعه أهل مكة، فأقبلوا عليه؛ فأنزل الله: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٤٧) ونسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان مسيلمة الكذاب قد تسمى الرحمن، فكان

=

=

النبي ﷺ إذا صلى فجهر بسم الله الرحمن الرحيم، قال المشركون: يذكر إله اليمامة؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٤٩) ونسبه للطبراني وابن مردويه.

وعنه -أيضًا-؛ قال: كان النبي ﷺ إذا جهر بالقرآن شق ذلك على المشركين، فيؤذون النبي ﷺ بالشتم وذلك بمكة؛ فأنزل الله: يا محمد: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} لا تخفض صوتك حتى لا تسمع أذنيك {وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} يقول: اطلب بين الإعلان والجهر، وبين التخافت والجهر طريقًا ... لا جهرًا شديدًا ولا خفضًا حتى لا تسمع أذنيك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ترك هذا كله.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٥٠) ونسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

وعن إبراهيم النخعي؛ قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم في حرث، في يده جريدة، فسأله اليهود عن الرحمن، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن؛ فأنزلت: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٤٨) ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان النبي ﷺ يجهر بالقرآن في مكة؛ فيؤذى؛ فأنزل الله: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٤٩) ونسبه لابن مردويه.

وعن الربيع بن أنس؛ قال: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا صلى من الليل خفض صوته جدًا، وكان عمر رضي الله عنه إذا صلى رفع صوته جدًا، فقال عمر رضي الله عنه: يا أبا بكر! لو رفعت من صوتك شيئًا، وقال أبو بكر رضي الله عنه: يا عمر! لو خفضت من صوتك شيئًا، فأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بأمرهما؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} الآية، فأرسل النبي ﷺ إليهما فقال: "يا أبا بكر! ارفع من صوتك

=

=

شيئًا"، وقال لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: "اخفض من صوتك شيئًا".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٥٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن محمد بن كعب القرظي: أنه كان يقول في هذه الآية: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}؛ قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولدًا، وقالت العرب: لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل الله؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)} أنت يا محمد على ما يقولون تكبيرًا.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٢٦) بسند صحيح عنه؛ لكنه ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [الإسراء: ١١٠]

عن ابن عباس، في قوله تعالى: " {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}، قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة: فكانوا إذا سمعوا القرآن سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به. فقال الله ﷻ لنبيه ﷺ: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ} ،أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، {وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} عن أصحابك فلا يسمعوا، {وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} "

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا في قوله تعالى: " {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}، قالت: إنها أنزلت في الدعاء".

قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} [الإسراء: ١١٠]، أي:" قل -أيها الرسول- لمشركي قومك الذين أنكروا عليك الدعاء بقولك: يا ألله يا رحمن،

=

=

ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لمشركي قومك المنكرين دعاء الرحمن {ادعوا الله} أيها القوم {أو ادعوا الرحمن} ".

قوله تعالى: {أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠]، أي:" بأي هذين الإسمين ناديتموه فهو حسن لأن أسماءه جميعها حسنى وهذان منها".

**قال الطبري**: يقول:" بأي أسمائه جل جلاله تدعون ربكم، فإنما تدعون واحدا، وله الأسماء الحسنى".

عن مجاهد، قوله: " {أيا ما تدعوا} : بشيء من أسمائه".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إن لله تسعة وتسعين اسما كلهن في القرآن، من أحصاهن دخل الجنة".

قوله تعالى: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [الإسراء: ١١٠]، أي:" ولا تجهر يا محمد بقراءتك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ولا تُسرَّ بقراءتك بحيث لا تسمع من خلفك، واقصد طريقًا وسطًا بين الجهر والمخافتة ".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} } [الإسراء: ١١٠]، قولان:

أحدهما: أنه عنى بـ «الصلاة»: الدعاء، ومعنى ذلك: ولا تجهر بدعائك ولا تخافت به، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، وعروة، وعبد الله بن شداد، وابن عباس- في أحد قوليه، ومكحول، وأبي عياض، وسعيد بن جبير-في احد قوليه-، ومجاهد، وعطاء.

قال ابن عباس:" كانوا يجهرون بالدعاء، فلما نزلت هذه الآية أُمروا أن لا يجهروا، ولا يخافتوا".

=

=

عـن مجاهـد، قولـه: " {ولا تجهـر بـصلاتك ولا تخافـت بهـا}، نزلـت في الـدعاء والمسألة".

قال عطاء:" نزلت في الدعاء". وروي عن سعيد بن جبير مثله.

قال مكحول:" ذلك في الدعاء".

قـال إبـراهيم: "لينتهـين أقـوام يشخـصون بأبـصارهم إلـى الـسماء في الـصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم".

**الثاني**: أنه عنى بذلك الـصلاة المـشروعة، واختلـف قـائلو ذلـك فيمـا نهـى عنـه مـن الجهر بها والمخافتة فيها على خمسة أقوال:

**أحدها:** أنه نهـى عـن الجهـر بـالقراءة فيهـا لأن رسـول الله -ﷺ- بمكـة كـان يجهـر بالقراءة جهراً شديداً، فكان إذا سمعه المشركون سبّوه، فنهـاه الله تعـالى عـن شـدة الجهر، وأن لا يخافت بها حتى لا يسمعه أصـحابه، ويبتغـي بـين ذلـك سـبيلاً، قالـه ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك.

قال سعيد:" كان النبيّ ﷺ يجهر بقراءة القرآن في المسجد الحرام، فقالـت قـريش: لا تجهر بالقراءة فتؤذي آلهتنا، فنهجو ربـك، فـأنزل الله: {وَلا تَجْهَـرْ بِـصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا} .... الآية".

**الثـاني**: أنـه نهـى عـن الجهـر بـالقراءة في جميعهـا وعـن الإسـرار بهـا في جميعهـا وأن يجهر في صلاة الليل ويسر في صلاة النهار. حكاه الماوردي.

**الثالث:** أنه نهي عن الجهر بالتشهد في الـصلاة، قالـه ابـن سيرين، وهـو مـروي عـن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-.

قالـت عائـشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: "نزلـت هـذه الآيـة في التـشهد: {وَلا تَجْهَـرْ بِـصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا} ".

**الرابـع**: أنـه نهـي عـن الجهـر بفعـل الـصلاة لأنـه كـان يجهـر بـصلاته، بمكـة فتؤذيـه

=

=

قريش، فخافت بها واستسر، فأمره الله ألاّ يجهر بها كما كان، ولا يخافت بها كما صار، ويبتغي بين ذلك سبيلاً، وهذا المعنى مروي عن عكرمة والحسن البصري.
عن عكرمة والحسن البصري قالا:" قال في بني إسرائيل {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا) وكان رسول الله ﷺ إذا صلى يجهر بصلاته، فآذى ذلك المشركين بمكة، حتى أخفى صلاته هو وأصحابه، فلذلك قال {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا} وقال في الأعراف {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} ".
الخامس: ولا تجهر بصلاتك تحسنها من إتيانها في العلانية، ولا تخافت بها: تسيئها في السريرة. وهذا القول مروي عن ابن عباس، والحسن.
قال ابن عباس:" لا تصلّ مراءاة الناس ولا تدعها مخافة".
قال الحسن:" تحسن علانيتها، وتسيء سريرتها".
وقال الحسن: "لا تراء بها في العلانية، ولا تخفها في السريرة".
قال الماوردي" "الأول أظهر ".
عن محمد بن سيرين، قال: "نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، قال: فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ فقال: أناجي ربي، وقد علم حاجتي، قيل: أحسنت، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان، وأوقظ الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا}، قيل لأبي بكر: ارفع شيئا، وقيل لعمر: اخفض شيئا".
* قوله تعالى: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) ومعناه أنهما مستويان في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما ولهذا قال (أيًا ما تدعوا) أصل الكلام أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله (فله الأسماء الحسنى) للمبالغة وللدلالة على أنه
=

=

إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان، ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والإكرام ذكر معنى هذا النيسابوري وتبعه أبو السعود.
قال الزجاج: أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد وسيأتي ذكر سبب نزول الآية وبه يتضح المراد منها، والحسنى مؤنث الأحسن الذي هو أفعل تفضيل لا مؤنث أحسن المقابل لامرأة حسناء كما في القاموس.
ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) أي بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت لا من نعوت أفعال الصلاة فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء يقال خفت صوته خفوتاً إذا انقطع كلامه وضعف وسكن وخفت الزرع إذا ذبل وخافت الرجل بقراءته إذا لم يرفع بها صوته.
وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها والأول أولى، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال: نزلت يعني هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله لنبيه ﷺ (ولا تجهر بصلاتك) أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوا عنك الحديث.
وعن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفض وكان عمر إذا قرأ جهر فقيل لأبي بكر لِمَ تصنع هذا فقال: أنا أناجي ربي وقد عرف حاجتي وقيل لعمر لِمَ تصنع هذا قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزل (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت) قيل لأبي بكر أرفع شيئاً، وقيل لعمر اخفض شيئاً، وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت: إنما نزلت هذه الآية في الدعاء وعنها أنها نزلت في التشهد.

=

=

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الرابعة: قوله تعالى: {ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها}.

روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نسخت هذه الآية بقوله: {واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول} وقال ابن السائب: نسخت بقوله: {فاصدع بما تؤمر} وهذا القول ليس بصحيح وليس بين الآيات تناف ولا وجه للنسخ.

وبيان هذا أن المفسرين اختلفوا في المراد بقوله: {ولا تجهر بصلاتك} فقال قوم: هي الصلاة الشرعية، لا تجهر بقراءتك فيها ولا تخافت بها.

وقال آخرون الصلاة: الدعاء، فأمر التوسط في رفع الصوت، وذلك لا ينافي التضرع. ا.هـ

وقد حكى دعوى النسخ هنا النحاس في ناسخه، وذكر النسخ مكي بن أبي طالب في الإيضاح، ولكنه قال بعد إيراد قول أبي هريرة، وأبي موسى، وعائشة، من أن معنى الصلاة الدعاء: (فتكون الآية محكمة غير منسوخة).

(وابتغ بين ذلك) أي الجهر والمخافتة المدلول عليهما بالفعلين (سبيلاً) أي طريقاً متوسطاً بين الأمرين فلا تكن مجاهراً ولا مخافتاً بها وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها والأمر بجعل بعض منها مجهوراً به وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية).

مسألة: حكم رفع الصلاة في مكبرات الصوت على المآذن.

لا ينبغي استعمال مكبرات الصوت الخارجية في الصلاة، وسواء في ذلك صلاة التراويح والتهجد أم غيرها من الصلوات كالفجر والمغرب والعشاء. وذلك لما

=

=

يترتب على هذا من مفاسد كثيرة وأذية لجيران المسجد.

قال النووي التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦٠): في بيان خوف السلف - رحمهم الله - من الرياء، وكراهتهم له: وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم فأكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وهذا كله فيمن لا يخاف رياء، ولا إعجابا، ولا نحوهما من القبائح، ولا يؤذي جماعة يلبس عليهم صلاتهم ويخلطها عليهم ا. هـ

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٧٥): وقد لبس إبليس على قوم من القراء فهم يقرأون القرآن في منارة المسجد بالليل بالأصوات المجتمعة المرتفعة الجزء والجزأين فيجمعون بين أذى الناس في منعهم من النوم وبين التعرض للرياء ا. هـ... وقال العلامة الألباني في سلسلة الهدي والنور رقم (١/ ٣٦١): في سياق كلامه عن المصالح المرسلة إلي إن قال... أنا أقول شيئا ربما ما سمعتموه لكني أدين الله به اعتقد أن إذاعة الآذان بمكبر الصوت مصلحة شرعية لكن إذاعة الإقامة بنفس الوسيلة ليست مصلحة شرعية لان الشارع الحكيم حينما شرع الآذان وشرع الإقامة فاوت بينهما جعل الآذان علي سطح المسجد وجعل الإقامة في داخل المسجد جعل الآذان علي سطح المسجد لإبلاغ صوت المؤذن إلي ابعد مكان ممكن ورغب في أن يكون هذا المؤذن صيتا أما الإقامة فجعلها بين جدران المسجد الأربعة كذلك يلحق بالإقامة فلا يشرع إذاعة قراءة الإمام يوم الجمعة بخاصة بل وفي الصلوات الخمس بعامة إلي خارج المسجد لأنها هذه القراءة ليس المقصود بها تسميع الناس كلهم وإنما تسميع الذين يصلون في المسجد وعلي هذا فانا أري. ما عليه العالم الإسلامي اليوم من عدم التفريق بين إذاعة الآذان وإذاعة الإقامة وإذاعة القراءة هذا خلط قبيح بينما هو مشروع وما ليس بمشروع كل ذلك مراعاة لي بدقة لتطبيق قاعدة المصالح المرسلة. هذا الذي نقوله ونُدين

=

=

الله به.. لكننا حينما نريد أن نعالج الأمر بالحكمة والمراعاة للشريعة وإحكامها نقول المسجد الكبير يستعمل فيه مكبر الصوت في حدود الحاجة وليس في حدود حاجة إذاعة الآذان فإذاعة الآذان ينبغي أن يشمل من كان أبعد ما يكون عن المسجد أما إذاعة الإقامة في المسجد الكبير فيكون في حاجي القائمة في هذا المسجد فهذا التفصيل لابد منه لكن ذلك لا يستلزم ابدآ أن نجعلها قاعدة مضطردة فكما نعلن الآذان نعلن الإقامة وكما نعلن الآذان والإقامة نعلن أيضا قراءة القرآن من الإمام...... في نفس الشريط قال: وصليت في الدار إماما وإذا بي أفاجأ بشئ لم يسبق لي مثل هذه المفاجأة أنا اقرأ والإمام يقرأ أيضًا الإمام يقرأ وصوته كالآذان مذاع فهو يشوش عليّ أن كان لا يشوش عليّ فيشو ش على غيري من النساء والحريم " الذي قال عنهم الرسول صلي الله عليه وسلم: (وبيوتهن خير لهن) إذا ساعتها انتبهت لهذا الموضوع فقلت هذا ينبغي أن نتنبه انه لا يجوز إذاعة الصلاة كما نذيع "ايش" الأذان وبدأت أيضا أُلاحظ وكلما فكرت أزدتُ إيمانا بصواب هذا التنبؤ والتنبيه.... إلي أن قال وسرعان ما أذيعت الصلاة بمكبر الصوت فتسمع من هنا قرأت أمام وتسمع من هنا قراءة إمام فيصير في "ايش" تشويش علي بعضهم البعض ثم نحن أيضا لما صلينا أصابنا ما أصاب غيرنا من التشويش فإذاً ينبغي أن نلاحظ القواعد الشرعية وان نحسن تطبيقها مع مراعاة دقة الأحكام الشرعية في الإسلام فالتفريق المعروف بين الآذان والإقامة لا يُجيز لنا التسوية في الاذاعة وهذا ماهو اليوم مع الأسف واقع وليس يلاحظ فيه هذا المعني الفقهي الدقيق ا. هـ

وقال العلامة الألباني أيضا في سلسلة الهدي والنور شريط رقم (٣٢١): عندما كان رحمه الله مريضا بالطائف فقال:.... فصليت في الدار فشعرت وأنا اصلي وأنا اقرأ والإمام يقرأ شوش"علي من ساعتها انتبهت عن شئ كنت غافلا عنه فطلع معي

=

=

التنبيه التالي: هو لا يجوز إذاعة الإقامة كما يذاع الآذان ولا يجوز إذاعة قراءة الإمام من المسجد إلي خارج المسجد. النقطتين دول" كنت أدندن حولهم وأنا علي يقين أن عمرهم ما سمعوها هذه كلمات بلاشك والسبب هنا التأمل في السنة، نحن نعلم أن المؤذن في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كان علي مكان مرتفع والإقامة في المسجد... كذلك الذي يعلن قراءة الإمام في الصلاة لخارج المسجد معناه يشوش... إلي أن قال فينبغي القضايا تكون محصورة تماما. آذان مسجد إعلانه إلي ابعد مكان بالآلات الموجودة اليوم هذه غاية شرعية أما إعلان الإقامة وإعلان القراءة فهذه بدعة عصرية ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١٣/ ٧٤ - ٩٦): كثر في الآونة الأخيرة استعمال أئمة المساجد لمكبرات الصوت الخارجية والتي غالبا ما تكون في المئذنة وبصوت مرتفع جدا وفي هذا العمل تشويش بعض المساجد على بعض في الصلاة الجهرية لاستعمالهم المكبرات في القراءة. فما حكم استعمال مكبرات الصوت في الصلاة الجهرية إذا كان مكبر الصوت في المئذنة ويشوش على المساجد الأخرى؟

فأجاب: "ما ذكرتم من استعمال مكبر الصوت في الصلاة الجهرية على المنارة فإنه منهي عنه؛ لأنه يحصل به كثير من التشويش على أهل البيوت والمساجد القريبة، وقد روى الإمام مالك رحمه الله في الموطأ عن البياضي فروة بن عمرو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: "إن المصلي يناجي ربه فلينظر بما يناجيه به ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن". وروى أبو داود تحت عنوان: (رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل) عن أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال: " ألا إن كلكم مناج ربه فلا يؤذين

=

=

بعضكم بعضا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة، أو قال في الصلاة ". قال ابن عبد البر: حديث البياضي وأبي سعيد ثابتان صحيحان.

ففي هذين الحديثين النهي عن الجهر بالقراءة في الصلاة حيث يكون فيه التشويش على الآخرين وأن في هذا أذية ينهى عنها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٢٣/ ٦١) من مجموع الفتاوى: ليس لأحد أن يجهر بالقراءة بحيث يؤذي غيره كالمصلين.

وفي جواب له (١/ ٣٥٠) من الفتاوى الكبرى: ومن فعل ما يشوش به على أهل المسجد، أو فعل ما يفضي إلى ذلك منع منه اهـ.

وأما ما يدعيه من يرفع الصوت من المبررات فجوابه من وجهين:

الأول: أن النبي ﷺ نهى أن يجهر بعض الناس على بعض في القرآن وبين أن ذلك أذية، ومن المعلوم أنه لا اختيار للمؤمن ولا خيار له في العدول عما قضى به النبي ﷺ، قال الله تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا).

ومن المعلوم أيضا أن المؤمن لا يرضى لنفسه أن تقع منه أذية لإخوانه.

الوجه الثاني: أن ما يدعيه من المبررات - إن صح وجودها - فهي معارضة بما يحصل برفع الصوت من المحذورات فمن ذلك:

١ - الوقوع فيما نهى عنه النبي ﷺ من جهر المصلين بعضهم على بعض.

٢ - أذية من يسمعه من المصلين وغيرهم ممن يدرس علما أو يتحفظه بالتشويش عليهم.

٣ - شغل المأمومين في المساجد المجاورة عن الاستماع لقراءة إمامهم التي أمروا بالاستماع إليها.

٤ - أن بعض المأمومين في المساجد المجاورة قد يتابعون في الركوع والسجود

=

=

الإمام الرافع صوته، لاسيما إذا كانوا في مسجد كبير كثير الجماعة حيث يلتبس عليهم الصوت الوافد بصوت إمامهم، وقد بلغنا أن ذلك يقع كثيرا.

٥ - أنه يفضي إلى تهاون بعض الناس في المبادرة إلى الحضور إلى المسجد؛ لأنه يسمع صلاة الإمام ركعة ركعة، وجزءا جزءا فيتباطأ اعتمادا على أن الإمام في أول الصلاة فيمضي به الوقت حتى يفوته أكثر الصلاة أو كلها.

٦ - أنه يفضي إلى إسراع المقبلين إلى المسجد إذا سمعوا الإمام في آخر قراءته كما هو مشاهد، فيقعون فيما نهى عنه النبي ﷺ من الإسراع بسبب سماعهم هذا الصوت المرفوع.

٧ - أنه قد يكون في البيوت من يسمع هذه القراءة وهم في سهو ولغو كأنما يتحدون القارئ وهذا على عكس ما ذكره رافع الصوت من أن كثيرا من النساء في البيوت يسمعن القراءة ويستفدن منها وهذه الفائدة تحصل بسماع الأشرطة التي سجل عليها قراءة القراء المجيدين للقراءة.

وأما قول رافع الصوت إنه قد يؤثر على بعض الناس فيحضر ويصلي لاسيما إذا كان صوت القارئ جميلا، فهذا قد يكون حقا، ولكنه فائدة فردية منغمرة في المحاذير السابقة.

والقاعدة العامة المتفق عليها: أنه إذا تعارضت المصالح والمفاسد، وجب مراعاة الأكثر منها والأعظم، فحكم بما تقتضيه فإن تساوت فدرء المفاسد أولى من جلب المصالح.

فنصيحتي لإخواني المسلمين أن يسلكوا طريق السلامة، وأن يرحموا إخوانهم المسلمين الذين تتشوش عليهم عباداتهم بما يسمعون من هذه الأصوات العالية حتى لا يدري المصلي ماذا قال ولا ماذا يقول في الصلاة من دعاء وذكر وقرآ.

ولقد علمت أن رجلا كان إماما وكان في التشهد وحوله مسجد يسمع قراءة إمامه

=

=

فجعل السامع يكرر التشهد لأنه عجز أن يضبط ما يقول فأطال على نفسه وعلى من خلفه.

ثم إنهم إذا سلكوا هذه الطريق وتركوا رفع الصوت من على المنارات حصل لهم مع الرحمة بإخوانهم امتثال قول النبي ﷺ: " لا يجهر بعضكم على بعض في القرآن ". وقوله: " فلا يؤذين بعضهم بعضا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة ". ولا يخفى ما يحصل للقلب من اللذة الإيمانية في امتثال أمر الله ورسوله وانشراح الصدر لذلك وسرور النفس به اهـ.

وقال أيضا: " ولا مانع أن يستثنى من ذلك المسجدان المكي والنبوي، وكذلك الجوامع في صلاة الجمعة؛ لأنه ربما يكون بعض المصلين خارج المسجد فيحتاجون إلى سماع صوت الإمام بشرط أن لا تكون الجوامع متقاربة يشوش بعضها على بعض، فإن كانت كذلك فإنه توضع سماعات على جدار المسجد تسمع منها الخطبة والصلاة وتلغى حينئذ سماعات المنارة لتحصل الفائدة بدون أذية للآخرين" اهـ.

وقال الدكتور الفوزان: " لا يجوز رفع الصوت بقراءة القرآن في المسجد إذا كان يؤثر على الآخرين على القارئين للقرآن في الصف، أو يؤثر على المصلين الذين يصلون الراتبة أو تحية المسجد، فإن كان يترتب على الجهر بقراءة القرآن إضرارا بالآخرين فإنه لا يجوز، خرج النبي ﷺ وأصحابه يصلون من الليل ويجهرون فقال: " كلكم يناجي ربه، فلا يجهر بعضكم على بعض ". نعم، وبالمناسبة هؤلاء الذين يرفعون أصوات مكبرات الصوت خارج المسجد ويشوشون على الجيران، ويشوشون على المساجد الأخرى، هؤلاء لا يجوز لهم هذا العمل، لأن فيه إيذاء وإضرار بالآخرين، وتشويشا عليهم في صلواتهم وعباداتهم ا. هـ وهو اختيار العلامة مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله.

=

=

قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} [الإسراء: ١١١]، أي:" وقل – أيها الرسول–:" الحمد لله الذي تنزَّه عن الولد".

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ {وَقُلْ} يا محمد {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} فيكون مربوبا لا ربا، لأن ربّ الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد".

قال الضحاك:" «الحمد لله»: رداء الرحمن".

قال كعب:" «الحمد لله»: ثناء على الله".

قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} [الإسراء: ١١١]، أي:"و ليس له شريك في ألوهيته".

**قال الطبري:**" فيكون عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفا، ولا يكون إلها من يكون محتاجا إلى معين على ما حاول، ولم يكن منفردا بالمُلك والسلطان".

قال السمعاني:" أي: كما قاله عبدة الأصنام وغيرهم".

قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ} [الإسراء: ١١١]، أي:" ليس بذليل فيحتاج إلى الوليّ والنصير".

**قال الطبري:**" يقول: ولم يكن له حليف حالفه من الذّل الذي به، لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره، فذليل مهين، ولا يكون من كان ذليلا مهينا يحتاج إلى ناصر إلها يطاع".

قال ابن كثير:" أي: ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى شأنه خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومقدرها ومدبرها بمشيئته وحده لا شريك له".

وفي قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ} [الإسراء: ١١١]، وجهان:

أحدهما: لم يحالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد. وهذا قول مجاهد.

=

=

قال يحيى بن سلام:" يعني: لم يكن له صاحب يتعزَّز به من ذل".

قال الزجاج:" أي: لم يحتج إلى أن ينتصر بغيره".

**الثاني**: لم يكن له وليٌّ من اليهود والنصارى لأنهم أذل الناس، قاله الكلبي.

قوله تعالى: {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: ١١١]، أي:" وعظِّمه تعظيمًا تامًا بالثناء عليه وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له".

**قال الطبري**:" يقول: وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل، وأطعه فيما أمرك ونهاك".

قال الزجاج:" أي: عظِّمه عظَمَة تامَّةً".

**قال البغوي**:" أي: وعظمه عن أن يكون له شريك أو ولي".

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء".

عن قتادة أن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "الحمد لله رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده".

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "إن أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله".

عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: "أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت".

قال قتادة: "ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يعلِّم أهله هذه الآية: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} الصغير من أهله والكبير".

قال ابن عباس:" إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل، ثم تلا: {لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} ".

=

=

ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادي إلا بالأسماء الحسنى نبه على كيفية الحمد فقال: (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) كما يقوله اليهود والنصارى ومن قال من المشركين أن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً (ولم يكن له شريك في الملك) أي مشارك له في ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة (ولم يكن له ولي من الذل) أي لم يحتج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير.

قال الزجاج: أي لم يحتج أن ينتصر بغيره وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بإن المستحق للحمد من له هذه الصفات لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم لكون الولد مجبنة مبخلة، ولأنه أيضًا يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه والمحدث غير قادر على كمال الأنعام.

والشركة في الملك إنما يتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلاً عن تمام ما هو فضلاً عن نظام ما هو عليه وأيضًا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين وقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه ويؤديه إلى الفساد كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) والمحتاج إلى ولي يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغنٍ بنفسه.

(وكبره تكبيراً) أي وعظمه تعظيمًا تامًا وصفه بأنه أعظم من كل شيء.

(تتمة): في ذكر توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بمعانيها وأحكامها.

* شرح مفردات التعريف

أولاً: (إفراد الله):

هذا معنى كلمة (التوحيد)، فأصل هذه الكلمة من (وحد) فيقال: وحد يوحد

=

=

توحيداً: أي جعله واحداً.

ومادة (وحد) في اللغة مصدرها على انفراد الشيء.

فإذا قلت: توحيد الله بأسمائه: فالمعنى إفراد الله بأسمائه.

ثانيا: (بأسمائه الحسنى):

(بأسمائه): الاسم في اللغة: هو اللفظ الموضوع لمعنى تعييناً أو تمييزاً. أو الاسم: ما دل على الذات وما قام بها من الصفات.

ومن أسماء الله تعالى: الله - الرحمن - الرحيم - الغفور - العزيز - القدير - السميع - البصير - البارئ...

(الحسنى): هذا وصف لأسماء الله، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم.

١ - المواضع التي ورد فيها:

ورد هذا الوصف لأسماء الله ﷻ في أربعة مواضع من كتاب الله ﷻ، وهذه المواضع هي:

أ- قال تعالى: وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأعراف: ١٨٠].

ب- قال تعالى: قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى [الإسراء: ١١٠]

ج- قال تعالى: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى [طه: ٨].

د- قال تعالى: هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى [الحشر: ٢٤].

٢ - تصريفها: حسنى على وزن (فعلى) تأنيث أفعل التفضيل، فحسنى تأنيث أحسن، ككبرى تأنيث أكبر، وصغرى تأنيث أصغر، ولذلك يخطئ من يقول إنها تأنيث حسن؛ لأن تأنيث (حسن) (حسنة)، ومن أجل ذلك لا يصح أن نقول: إن أسماء الله حسنة، والصواب هو أن نقول: إن أسماء الله حسنى ما وصفها الله

=

=

بذلك.

٣ – معناها: معنى حسنى: المفضلة على الحسنة، أي البالغة في الحسن غايته.

المعنى العام للآية: وَللهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى: لله أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

٥ – الحكم المستفاد: يجب الإيمان بهذا الوصف الذي أخبر الله به عن أسمائه وذلك بالاعتقاد الجازم أن أسماء الله هي أحسن الأسماء، وأتمها، وأكملها معنى، وفي هذا الوصف أحكام أخرى مستفادة...

ثالثًا: (وصفاته العلى):

(وصفاته): الصفة هي: ما قام بالذات مما يميزها عن غيرها من أمور ذاتية أو معنوية أو فعلية.

ومن صفات الله ﷻ:

الذاتية: اليدان – الوجه – العينان – الأصابع.

المعنوية: العلم – القدرة – الحياة – الإرادة.

الفعلية: النزول – الاستواء – الخلق – الرزق.

(العُلَى): قال تعالى: لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ [النحل: ٦٠].

وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ [الرُّوم: ٢٧]........

٢ – تصريفها: (الأعلى) صيغة أفعل التفضيل، أي أعلى من غيره.

٣ – معنى الآية: قال القرطبي: وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى: أي الوصف الأعلى.

وقال ابن كثير: وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى وهو كل صفة كمال؛ وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه.

=

=

٤ - الحكم المستفاد: يجب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه، وذلك بالاعتقاد الجازم بأن كل ما أخبر الله به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من الصفات هي صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، فهو سبحانه المستحق للكمال المُطلق من جميع الوجوه.

قال الإمام ابن القيم: (المثل الأعلى يتضمن ثبوت الصفات العليا لله سبحانه، ووجودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بها... ).

رابعـًا: الواردة في القرآن والسنة

أي يجب الوقوف في أسماء الله وصفاته على ما جاءت به نصوص القرآن والسنة لا نزيد على ذلك ولا ننقص منه.

فلا نسمي أو نصف الله بما لم يسم أو يصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

وذلك لأنه لا طريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته إلا من طريق واحد هو طريق الخبر - أي الكتاب والسنة.

فلو قال شخص: لله سمع بلا أذنين.

وقال آخر: لله سمع بأذنين.

لحكمنا بخطأ الاثنين؛ لأنه لم يأت ذكر الأذنين في النصوص لا نفيـًا ولا إثباتـًا، والحق هو أن يقال: لله سمع يليق بجلاله كما جاءت بذلك النصوص، وقد نهانا الله أن نتكلم بغير علم، فقال تعالى: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء: ٣٦] وبالتالي لا يجوز الإثبات أو النفي إلا بالنص.

قال الإمام أحمد (ت ٢٤١) رحمه الله: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو ووصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والسنة).

=

=

وقال ابن عبد البر (ت ٤٦٣) رحمه الله: (ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه).

خامساً: والإيمان بمعانيها وأحكامها

أي الإيمان بما تضمنته من المعاني، وبما ترتب عليها من مقتضيات وأحكام.

وهذا ما جاء الأمر به والحث عليه في القرآن والسنة.

فمن القرآن: قوله تعالى: وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا [الأعراف: ١٨٠]، والشاهد من الآية قوله: (فادعوه بها).

ووجه الاستشهاد: أن الله يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، فالدعاء بها يتناول:

دعاء المسألة: كقولك: ربي ارزقني.

ودعاء الثناء: كقولك: سبحان الله.

ودعاء التعبد: كالركوع والسجود.

ومن السنة: قوله ﷺ: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة)) متفق عليه.

الشاهد من الحديث: قوله ﷺ: ((من أحصاها)).

ووجه الاستشهاد: أن معنى أحصاها: أي حفظها ألفاظاً، وفهم معانيها ومدلولاتها، وعمل بمقتضياتها وأحكامها.

فالعلم بأسماء الله وصفاته، واعتقاد تسمي الله واتصافه بها هو من العبادة، وإدراك القلب لمعانيها، وما تضمنته من الأحكام والمقتضيات، واستشعاره وتجاوبه لذلك بالقدر الذي يؤدي إلى سلامة تفكيره واستقامة سلوكه، هو عبادة أيضاً.

فأهل السنة يؤمنون بما دلت عليه أسماء الله وصفاته من المعاني، وبما يترتب

=

=

عليها من مقتضيات وأحكام، بخلاف أهل الباطل الذين أنكروا ذلك وعطلوه.
فأهل السنة يؤمنون بأن كل اسم من أسماء الله يدل على معنى الذي نسميه (الصفة) ، فلذلك كان لزاماً على من يؤمن بأسماء الله تعالى أن يراعي الأمور التالية:
أولاً: الإيمان بثبوت ذلك الاسم لله ﷻ.
ثانياً: الإيمان بما دل عليه الاسم من المعنى أي (الصفة).
ثالثاً: الإيمان بما يتعلق به من الآثار والحكم والمقتضى.
مثال ذلك: (السميع).
اسم من أسماء الله الحسنى، فلابد من الإيمان به من:
١ - إثبات اسم (السميع) باعتباره اسماً من أسماء الله الحسنى.
٢ - إثبات (السمع) صفة له.
٣ - إثبات الحكم (أي الفعل) وهو أن الله يسمع السر والنجوى.
وإثبات المقتضى والأثر: وهو وجوب خشية الله، ومراقبته، وخوفه، والحياء منه ﷻ.
قال ابن القيم رحمه الله: (كل اسم من أسمائه ﷻ له تعبد مختص به علماً ومعرفة وحالاً:
علماً ومعرفة: أي إن من علم أن الله مسمى بهذا الاسم وعرف ما يتضمنه من الصفة ثم اعتقد ذلك فهذه عبادة.
وحالاً: أي إن لكل اسم من أسماء الله مدلولاً خاصاً وتأثيراً معيناً في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه).
وكذلك الشأن في صفات الله ﷻ، فلابد من الإيمان بمعانيها وأحكامها، فهذه
=

=

عقيدة أهل السنة، بخلاف عقيدة المعطلة الذين نفوا ما دلت عليه تلك الصفات من المعاني، وتلاعبوا بتلك المعاني فحرفوها وبدلوها.

فأهل السنة يرون أنه لزامـًا على من أراد إثبات الصفات والإيمان بأنها صفات كمال تثبت لله حقيقة - أن يراعي الأمور التالية:

١ - إثبات تلك الصفة فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

٢ - أن لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به، بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة، فلا يعطل الصفة ولا يغير اسمها ويعيرها اسمـًا آخر، كما تسمي المعطلة سمعه وبصره وكلامه (أعراضـًا).

ويسمون وجهه ويديه وقدمه (جوارح وأبعاضـًا).

ويسمون علوه على خلقه واستواءه على عرشه (تحيزاً).

٣ - عدم تشبيهها بما للمخلوق، فإن الله سبحانه (ليس كمثله شيء) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

٤ - اليأس من إدراك كنهها وكيفياتها، فالعقل قد يئس من تعرف كنه الصفة وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول أهل السنة: (بلا كيف): أي بلا كيف يعقله البشر، فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك.

٥ - تحقيق المقتضى والأثر لتلك الصفات، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها - أعني من موجبات العلم بها، والتحقق بمعرفتها - فعلم العبد بتفرد الرب بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، يثمر له عبودية (التوكل).

وعلم العبد بجلال الله وعظمته وعزه، يثمر له الخضوع، والاستكانة، والمحبة.

فأهل السنة والجماعة: يعرفون ربهم بصفاته الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا

=

=

يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله تبارك وتعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:١١] وقوله: وَلِلَّهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأعراف:١٨٠] وأهل السنة والجماعة: لا يحددون كيفية صفات الله - جل وعلا - لأنه تبارك وتعالى لم يخبر عن الكيفية، ولأنه لا أحد أعلم من الله سبحانه بنفسه، قال تعالى: قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللهُ [البقرة:١٤٠] وقال تعالى: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [النحل:٧٤] ولا أحد أعلم بالله من رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي قال الله تبارك وتعالى في حقه: وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى [النجم:٤] وأهل السنة والجماعة: يؤمنون أن الله - سبحانه وتعالى - هو الأول ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، كما قال سبحانه: هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الحديد:٣] وكما أن ذاته - سبحانه وتعالى - لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات؛ لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه؛ فيثبتون لله ما أثبته لنفسه إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل؛ فحين يثبتون لله ما أثبته لنفسه لا يمثلون، وإذا نزهوه لا يعطلون الصفات التي وصف نفسه بها، وأنه تعالى محيط بكل شيء، وخالق كل شيء، ورازق كل حي، قال الله تعالى: أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك:١٤] وقال: إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات:٥٨] ويؤمنون بأن الله تعالى استوى على العرش فوق سبع سموات بائن من خلقه، أحاط بكل شيء علماً، كما أخبر عن نفسه في كتابه العزيز في سبع آيات كريمات بلا تكييف قال تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى

=

=
الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] وقال: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف:٥٤] وقال: أَأَمِنتُم مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ [الملك:١٧] وقال: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر:١٠] وقال: يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ [النحل:٥٠] وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟))

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن الكرسي والعرش حق قال تعالى: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة:٢٥٥] والعرش لا يقدر قدره إلا الله، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في فلاة وسع السماوات والأرض، والله مستغن عن العرش والكرسي، ولم يستو على العرش لاحتياجه إليه؛ بل لحكمة يعلمها، وهو منزه عن أن يحتاج إلى العرش أو ما دونه، فشأن الله تبارك وتعالى أعظم من ذلك؛ بل العرش والكرسي محمولان بقدرته وسلطانه وأن الله تعالى خلق آدم - عليه السلام - بيديه، وأن كلتا يديه يمين ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء كما وصف نفسه سبحانه فقال: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء [المائدة:٦٤] وقال: مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص:٧٥] وأهل السنة والجماعة: يثبتون لله سمعًا، وبصراً، وعلمًا، وقدرة، وقوة، وعزاً، وكلامًا وحياة، وقدمًا وساقًا، ويداً، ومعية وغيرها من صفاته - عز وجل - التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بكيفية يعلمها الله ولا نعلمها؛ لأنه تعالى لم يخبرنا عن الكيفية، قال تعالى: إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [طه:٤٦] وقال: وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [التحريم:٢] وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء:١٦٤] وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ [الرحمن:٢٧] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
=

=

عَنْهُ [البينة:٨] يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [المائدة:٥٤] فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ [الزخرف:٥٥] يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ [القلم:٤٢] اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة:٢٥٥] غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ [المجادلة:١٤] وغيرها من آيات الصفات وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم، ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة:٢٣] وسوف يرونه كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته)) وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل نزولاً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته قال النبي ﷺ: ((ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟)).

ويؤمنون بأنه تعالى يجيء يوم الميعاد للفصل بين العباد، مجيئاً حقيقياً يليق بجلاله، قال سبحانه وتعالى: كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [الفجر:٢١ – ٢٢] وقوله: هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ [البقرة: ٢١٠] فمنهج أهل السنة والجماعة في كل ذلك الإيمان الكامل بما أخبر به الله تعالى، وأخبر به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتسليم به؛ كما قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى: من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم وكما قال الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: (كل ما وصف الله تعالى به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف، ولا مثل) وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله)

=

=

وقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية، فقالوا: (أمروها كما جاءت بلا كيف) وقال الإمام مالك بن أنس - إمام دار الهجرة - رحمه الله: إياكم والبدع قيل: وما البدع؟ قال: أهل البدع هم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسأله رجل عن قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً، وأمر به أن يخرج من المجلس وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء؛ بل يصفه بما وصف به نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئًا؛ تبارك الله تعالى رب العالمين ولما سئل - رحمه الله - عن صفة النزول، فقال: ينزل بلا كيف. وقال الحافظ الإمام نعيم بن حماد الخزاعي رحمه الله: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيها وقال بعض السلف: قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم لذا فإنه من سلك مسلك السلف في الحديث عن ذات الله تعالى وصفاته، يكون ملتزمًا بمنهج القرآن في أسماء الله وصفاته سواء كان السالك في عصر السلف، أو في العصور المتأخرة وكل من خالف السلف في منهجهم؛ فلا يكون ملتزمًا بمنهج القرآن، وإن كان موجوداً في عصر السلف، وبين أظهر الصحابة والتابعين.

فالذي درج عليه سلف الأمة ومن تابعهم بإحسان واتفقوا عليه هو: الإقرار والتصديق لآيات الأسماء الصفات وأحاديثها، وإمرارها كما جاءت وإثباتها، دون تشبيه، أو تعطيل، أو تحريف، أو تأويل.

وإليك بعض النقول عنهم التي تثبت ذلك:

=

=

١ - قال أحمد الدروقي: سمعت وكيعًا يقول: نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول كيف كذا، ولا لم كذا، يعني مثل حديث: (يحمل السماوات على إصبع) (وقلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن).

٢ - عن يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به فقال:

(لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه أمته لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها، لأن القرآن نزل بها، وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول.

فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها.

وتثبت هذه الصفات وينفى عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه فقال: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى: ١١]).

٣ - وقال في الرسالة: ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته الذي هو كما وصف نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه.

٤ - وعن محمد بن إسماعيل الترمذي: سمعت نعيم بن حماد يقول:

(من شبه الله بخلقه فقد كفر. ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهًا) اهـ.

وقال الترمذي بعد روايته لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهرة.. )) الحديث.

(وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من

=

=

الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، قالوا: قد ثبتت الروايات في هذا، ويؤمن بها، ولا يتوهم ولا يقال كيف.

هكذا روي عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك، أنهم قالوا في هذا الحديث: أمروها بلا (كيف)، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة).

وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا هذا تشبيه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه اليد، والسمع، والبصر، فتأولت الجهمية هذه الآيات، وفسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده. وقالوا: إنما معنى اليد القوة.

وقال إسحاق بن إبراهيم (هو ابن راهويه): إنما يكون التشبيه إذا قال: يد كيد، أو مثل يد، أو سمع كسمع، أو مثل سمع. فإذا قال: سمع كسمع، أو مثل سمع فهذا تشبيه، وأما إذا قال كما قال الله يد، وسمع، وبصر، ولا يقول: (كيف) ولا يقول: مثل سمع ولا كسمع، فهذا لا يكون تشبيهاً وهو كما قال الله تبارك في كتابه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى: ١١].

وهذا ما ذهب إليه أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري الذي رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وترك ما كان عليه من علم الكلام المبتدع المخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال رحمه الله في كتابه (اختلاف المصلين ومقالات المسلمين) بعد أن ذكر فرق الخوارج والروافض والجهمية وغيرهم:

(ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث).

جملة قولهم: الإقرار بالله، وملائكته، وكتبه. ورسله، وبما جاء عن الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا يردون من ذلك شيئاً.

=

=

وأن الله على عرشه كما قال: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، وأن له يدين بلا (كيف) كما قال: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ.

وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج.

وأقروا أن لله علماً كما قال: أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ.

وأثبتوا السمع، والبصر، ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة.

إلى آخر كلامه في إثبات الصفات.

وهذه العقيدة هي التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وهي التي تلقاها التابعون منهم، وتواصوا بها جيلاً بعد جيل، محذرين بعضهم البعض من مخالفتها والشطط عنها.

ودان بهذه العقيدة أئمة السلف الماضين من المحدثين، والفقهاء، والمفسرين، واللغويين، والمصنفين.

كيف لا، والله قد زكى اعتقاد نبيه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين بقوله جل ثناؤه: فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ [البقرة: ١٣٧ - ١٣٨].

فمذهب أهل الحق... إثبات الأسماء الحسنى والواردة بالكتاب العزيز، وبالسنة المطهرة، والإيمان بها، وبما دلت عليه من المعاني، والإيمان بما تعلقت بها من الآثار.

فمثلا نؤمن بأن الله سبحانه (رحيم) ومعناه: أنه ذو رحمة، ومن أثار هذا الاسم: أنه يرحم من يشاء.

مثال ثان: نؤمن بأن الله (قدير) ومعناه: أنه ذو قدرة، ومن آثار هذا الاسم: أنه على كل شيء قدير، وهذا القول في جميع الأسماء.

=

=

(فائدة) في ذكر طوائف المعطلة وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات.

* الفلاسفة وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات.

"الفلاسفة، اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها.

وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصا بمن خرج عن ديانات الأنبياء، ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل في زعمه.

وأخص من ذلك أنه في عرف المتأخرين اسم لأتباع أرسطو، وهم المشاؤون خاصة وهم الذين هذب ابن سينا طريقتهم وبسطها وقررها. وهي التي يعرفها بل لا يعرف سواها المتأخرون من المتكلمين".

والذي ينبغي معرفته أن الفلاسفة لا يؤمنون بوجود الله حقيقة، ولا يؤمنون بوحي ولا نبوة ولا رسالة، وينكرون كل غيب، فالمبادئ الفلسفية جميعها تقوم على أصلين هما:

الأول: أن الأصل في العلوم هو عقل الإنسان، فهو عندهم مصدر العلم.

الأصل الثاني: أن العلوم محصورة في الأمور المحسوسة المشاهدة فقط.

فتحت الأصل الأول أبطلوا الوحي، وتحت الأصل الثاني أبطلوا الأمور الغيبية بما فيها الإيمان بالله واليوم الآخر.

وقد تسلط الفلاسفة على المسائل الاعتقادية وزعموا أنها مجرد أوهام وخيالات لا حقيقة ولا وجود لها في الخارج، فلا الله موجود حقيقة، ولا نبوة ولا نبي على التحقيق، ولا ملائكة، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور.

فإيمانهم بالله تبارك وتعالى لا يكاد يتعدى الإيمان بوجوده المطلق - أي بوجوده في الذهن والخيال دون الحقيقة -، وأما ما عدا ذلك فلا يكادون يتفقون على شيء، فالمباحث العقدية عندهم من أسخف وأفسد ما قالوا به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أما الإلهيات فكلياتهم فيها أفسد من كليات الطبيعة،

=

=

وغالب كلامهم فيها ظنون كاذبة فضلا عن أن تكون قضايا صادقة".

* قولهم في توحيد الأسماء والصفات.

الفلاسفة يدأبون حتى يثبتوا واجب الوجود، ومع إثباتهم له فهو عندهم وجود مطلق، لا صفة له ولا نعتا، ولا فعل يقوم به، لم يخلق السموات والأرض بعد عدمها، ولا له قدرة على فعل، ولا يعلم شيئا. ولا شك أن الذي كان عند مشركي العرب من كفار قريش وغيرهم أهون من هذا، فعباد الأصنام كانوا يثبتون ربا خالقا عالما قادرا حيا، وإن كانوا يشركون معه في العبادة. وفساد أقوال الفلاسفة في الله لا يضاهيها فساد، فهم ينفون جميع الأسماء والصفات، سواء كانوا أصحاب فلسفة محضة كالفارابي، أو فلسفة باطنية رافضية إسماعيلية قرمطية كابن سينا، وإخوان الصفا، أو فلسفة صوفية اتحادية كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والتحقيق أن التجهم المحض وهو نفي الأسماء والصفات، كما يحكى عن جهم والغالية من الملاحدة ونحوهم من نفي أسماء الله الحسنى، كفر بين مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول".

فهؤلاء جميعا لا يثبتون الأسماء والصفات لله تعالى. ويمنعون الإثبات بأي حال من الأحوال ولهم في النفي درجات:

الدرجة الأولى: درجة المكذبة النفاة، وهي التي عليها طائفة من الفلاسفة كابن سينا وأمثاله.

فهم يصفون الله بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون له إلا وجودا مطلقا لا حقيقة له عند التحصيل وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان، يمتنع تحققه في الأعيان، فهؤلاء وصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في

=

=

الذهن، لا فيما خرج عنه من الموجودات.

الدرجة الثانية: المتجاهلة الواقفة

الذين يقولون لا نثبت ولا ننفي، وهذه الدرجة تنسب لغلاة المعطلة من القرامطة الباطنية المتفلسفة.

فهؤلاء هم غلاة الغلاة لأنهم يسلبون عنه النقيضين فيقولون: لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم، ولا جاهل، لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات فسلبوا النقيضين، وهذا ممتنع في بداهة العقول، وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب وما جاء به الرسول ﷺ، فوقعوا في شر مما فروا منه، فإنهم شبهوه بالممتنعات إذ سلب النقيضين كجمع النقيضين، كلاهما من الممتنعات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالقرامطة الذين قالوا لا يوصف بأنه حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، بل قالوا لا يوصف بالإيجاب ولا بالسلب، فلا يقال حي عالم ولا ليس بحي عالم، ولا يقال هو عليم قدير ولا يقال ليس بقدير عليم، ولا يقال هو متكلم مريد، ولا يقال ليس بمتكلم مريد، قالوا لأن في الإثبات تشبيها بما تثبت له هذه الصفات وفي النفي تشبيه له بما ينفي عنه هذه الصفات".

الدرجة الثالثة: المتجاهلة اللا أدرية، الذين يقولون: نحن لا نقول ليس بموجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت فلا ننفي النقيضين، بل نسكت عن هذا وهذا، فنمتنع عن كل من المتناقضين لا نحكم بهذا ولا بهذا، فلا نقول: ليس بموجود ولا معدوم ولكن لا نقول هو موجود ولا نقول هو معدوم.

ومن الناس من يحكي نحو هذا عن الحلاج، وحقيقة هذا القول هو الجهل البسيط والكفر البسيط، الذي مضمونه الإعراض عن الإقرار بالله ومعرفته وحبه

=

=

وذكره وعبادته ودعائه.

الدرجة الرابعة: أهل وحدة الوجود

الذين لا يميزون الخالق بصفات تميزه عن المخلوق، ويقولون بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق. فعلى سبيل المثال هم يقولون بأن الله هو المتكلم بكل ما يوجد من الكلام وفي ذلك يقول ابن عربي:

**ألا كل قول في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه**

**يعم به أسماع كل مكون فمنه إليه بدؤه وختامه**

فيزعمون أنه هو المتكلم على لسان كل قائل. ولا فرق عندهم بين قول فرعون: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: ]، و {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ]، وبين القول الذي يسمعه موسى: {إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي} [طه: ].

بل يقولون: إنه الناطق في كل شيء، فلا يتكلم إلا هو، ولا يسمع إلا هو حتى قول مسيلمة الكذاب، والدجال، وفرعون، يصرحون بأن أقوالهم هي قوله".

وهذا قول أصحاب وحدة الوجود كابن عربي، وابن سبعين وابن الفارض والعفيف التلمساني.

وأول مذهبهم: أن كل واحد من وجود الحق، وثبوت الخلق يساوى الآخر ويفتقر إليه وفي هذا يقول ابن عربي:

**فيعبدني وأعبده ويحمدني وأحمده**

**ويقول**: إن الحق يتصف بجميع صفات العبد المحدثات، وإن المحدث يتصف بجميع صفات الرب، وإنهما شيء واحد إذ لا فرق في الحقيقة بين الوجود والثبوت فهو الموصوف عندهم بجميع صفات النقص والذم والكفر والفواحش

=

=

والكذب والجهل، كما هو الموصوف عندهم بصفات المجد والكمال فهو العالم والجاهل، والبصير والأعمى، والمؤمن والكافر، والناكح والمنكوح، والصحيح والمريض، والداعي والمجيب، والمتكلم والمستمع، وهو عندهم هوية العالم ليس له حقيقة مباينة للعالم، وقد يقولون لا هو العالم ولا غيره، وقد يقولون: هو العالم أيضا وهو غيره، وأمثال هذه المقالات التي يجمع فيها في المعنى بين النفيضين مع سلب النقيضين.

وهؤلاء الاتحادية يجمعون بين النفي العام والإثبات العام فعندهم أن ذاته لا يمكن أن ترى بحال وليس له اسم ولا صفة ولا نعت، إذ هو الوجود المطلق الذي لا يتعين، وهو من هذه الجهة لا يرى ولا اسم له.

ويقولون: إنه يظهر في الصور كلها، وهذا عندهم هو الوجود الاسمي لا الذاتي، ومن هذه الجهة فهو يرى في كل شيء، ويتجلى في كل موجود لكنه لا يمكن أن ترى نفسه، بل تارة يقولون كما يقول ابن عربي: ترى الأشياء فيه، وتارة يقولون يرى هو في الأشياء وهو تجليه في الصور، وتارة يقولون كما يقول ابن سبعين:

**عين ما ترى ذات لا ترى وذات لا ترى عين ما ترى**

وهم مضطربون لأن ما جعلوه هو الذات عدم محض، إذ المطلق لا وجود له في الخارج مطلقا بلا ريب، لم يبق إلا ما سموه مظاهر ومجالي فيكون الخالق عين المخلوقات لا سواها، وهم معترفون بالحيرة والتناقض مع ما هم فيه من التعطيل والجحود.

وفي هذا يقول ابن عربي:

**فإن قلت بالتنزيه كنت مقيدا وإن قلت بالتشبيه كنت محددا**

**وإن قلت بالأمرين كنت مسددا وكنت إماما في المعارف سيدا**

=

=

| | |
|---|---|
| **فمن قال بالإشفاع كان مشركا** | **ومن قال بالإفراد كان موحدا** |
| **فإياك والتشبيه إن كنت ثانيا** | **وإياك والتنزيه إن كنت مفردا** |
| **فما أنت هو بل أنت هو وتراه** | **في عين الأمور مسرحا ومقيدا** |

خلاصة أقوال غلاة المعطلة:

كلام غلاة المعطلة المتقدم ذكره يدور على أحد أصلين:

أ- الأصل الأول: النفي والتعطيل الذي يقتضي عدمه، بأن جعلوا الحق لا وجود له، ولا حقيقة له في الخارج أصلا وإنما هو أمر مطلق في الأذهان. وهذا الذي عليه المكذبة النفاة، والمتجاهلة الواقفة، والمتجاهلة اللاأدرية.

ب- الأصل الثاني: أن يجعلوا الحق عين وجود المخلوقات، فلا يكون للمخلوقات خالق غيرها أصلا، ولا يكون رب كل شيء ولا مليكه. وهذا الذي عليه حال أهل وحدة الوجود الاتحادية فى أحد حاليهم فهذا حقيقة قول القوم وإن كان بعضهم لا يشعر بذلك.

ولذلك كان الغلاة من القرامطة والباطنية والفلاسفة والاتحادية نسخة للجهمية الذين تكلم فيهم السلف والأئمة، مع كون أولئك كانوا أقرب إلى الإسلام. فقد كان كلام الجهمية يدور أيضا على هذين الأصلين فهم يظهرون للناس والعامة أن الله بذاته موجود في كل مكان، أو يعتقدون ذلك.

وعند التحقيق يصفونه بالسلب الذي يستوجب عدمه كقولهم: ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولامباين له ومحايد، ولا متصل به ولا منفصل عنه، وأشباه هذه السلوب.

فكلام أولهم وآخرهم يدور على هذين الأصلين:

أ- إما النفي والتعطيل الذي يقتضي عدمه.

=

=

ب- وإما الإثبات الذي يقتضي أنه هو المخلوقات. أو جزء منها أو صفة لها. وكثير منهم يجمع بين هذا النفي وهذا الإثبات المتناقضين، وإذا حوقق في ذلك قال: ذاك السلب مقتضى نظري. وهذا الإثبات مقتضى شهودي وذوقي. ومعلوم أن العقل والذوق إذا تناقضا لزم بطلانهما أو بطلان أحدهما.

وهذا حالهم يترددون بين هذا النفي العام المطلق، وهذا الإثبات العام المطلق وهم في كليهما حائرون ضالون لا يعرفون الرب الذي أمروا بعبادته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "نفاة الصفات تارة يقولون بما يستلزم الحلول والاتحاد، أو يصرحون بذلك. وتارة بما يستلزم الجحود والتعطيل، فنفاتهم لا يعبدون شيئا، ومثبتتهم يعبدون كل شيء ".

ولذلك كان الغلاة من القرامطة والباطنية والفلاسفة والاتحادية نسخة للجهمية الذين تكلم فيهم السلف والأئمة، مع كون أولئك كانوا أقرب إلى الإسلام. فقد كان كلام الجهمية يدور أيضا على هذين الأصلين فهم يظهرون للناس والعامة أن الله بذاته موجود في كل مكان، أو يعتقدون ذلك.

وعند التحقيق يصفونه بالسلب الذي يستوجب عدمه كقولهم: ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولامباين له ومحايد، ولا متصل به ولا منفصل عنه، وأشباه هذه السلوب.

فكلام أولهم وآخرهم يدور على هذين الأصلين:

- إما النفي والتعطيل الذي يقتضي عدمه.

- وإما الإثبات الذي يقتضي أنه هو المخلوقات. أو جزء منها أو صفة لها. وكثير منهم يجمع بين هذا النفي وهذا الإثبات المتناقضين، وإذا حوقق في ذلك قال: ذاك السلب مقتضى نظري. وهذا الإثبات مقتضى شهودي وذوقي. ومعلوم أن العقل والذوق إذا تناقضا لزم بطلانهما أو بطلان أحدهما.

=

=

وهذا حالهم يترددون بين هذا النفي العام المطلق، وهذا الإثبات العام المطلق وهم في كليهما حائرون ضالون لا يعرفون الرب الذي أمروا بعبادته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "نفاة الصفات تارة يقولون بما يستلزم الحلول والاتحاد، أو يصرحون بذلك. وتارة بما يستلزم الجحود والتعطيل، فنفاتهم لا يعبدون شيئا، ومثبتتهم يعبدون كل شيء ".

ولا ريب أن هؤلاء المعطلة بصنيعهم هذا قد أعرضوا عن أسمائه وصفاته وآياته وصاروا جهال به، كافرين به، غافلين عن ذكره، موتى القلوب عن معرفته ومحبته وعبادته، وهذا هو غاية القرامطة الباطنية والمعطة الدهرية أنهم يبقون في ظلمة الجهل وضلال الكفر، لا يعرفون الله ولا يذكرونه.

* أهل الكلام وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات.

وأما أهل الكلام فقد شاركوا الفلاسفة في بعض أصولهم، وأخذوا عنهم القواعد المنطقية والمناهج الكلامية، وتأثروا بها إلى درجة كبيرة. وسلكوا في تقرير مسائل الاعتقاد المسلك العقلاني على حد زعمهم، وهم وإن كانوا يخالفون الفلاسفة في قولهم: إن هذه الحقائق مجرد وهم وخيال، إلا أنهم شاركوهم في تشويه كثير من الحقائق الغيبية، فلا تجد في كتب أهل الكلام على اختلاف طوائفهم تقريرا لمسائل الاعتقاد كما جاءت بها النصوص الصحيحة، فبدل أن تسمع أو تقرأ قال الله أو قال رسوله ﷺ أو قال الصحابة، فإنك لا تجد في كتبهم إلا قال الفضلاء، قال العقلاء، قال الحكماء، ويعنون بهم فلاسفة اليونان من الوثنيين، فكيف جاز لهم ترك كلام الله وكلام رسوله ﷺ والأخذ بكلام من لا يعرف الله ولا يؤمن برسوله. والمطلع على كتب أهل الكلام يدرك عظم الضرر الذي جنته على الأمة المسلمة، إذ تسببت تلك الكتب في حجب الناس عن المعرفة الصحيحة لله ورسوله ولدينه، وجعل بدل ذلك مقالات التعطيل والتجهيل والتخييل. وأهل

=

=

الكلام ليسوا صنفا واحدا بل هم عدة أصناف، وأشهرهم:
أ- الجهمية، ب- المعتزلة، ج- الكلابية، د- الأشاعرة، ف- الماتريدية.
وهذه الأصناف الخمسة كل له قوله ورأيه بحسب الشبه العقلية التي استند إليها.
أولا: الجهمية، وهم أتباع جهم بن صفوان الذي أخذ عن الجعد بن درهم مقالة التعطيل عندما التقى به بالكوفة، وقد نشر الجهم مقالة التعطيل وامتاز عن شيخه الجعد بمزية المغالاة في النفي وكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه نظرا لما كان عليه من سلاطة اللسان وكثرة الجدال والمراء.
من أشهر معتقداتهم:
- إنكارهم لجميع الأسماء والصفات كما سيأتي تفصيله.
- إنهم في باب الإيمان مرجئة، يقولون: إن الإيمان يكفي فيه مجرد المعرفة القلبية، وهذا شر أقوال المرجئة.
- إنهم في باب القدر جبرية، ينكرون قدرة العبد واختياره في فعله. - ينكرون رؤية الخلق لله يوم القيامة.
- يقولون: إن القرآن مخلوق.
- يقولون بفناء الجنة والنار.
إلى غير ذلك من المعتقدات الباطلة التي قال بها الجهمية.
ثانيا: المعتزلة، وهم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وهم فرق كثيرة يجمعها ما يسمونه بأصولهم الخمسة وهي:
أ- التوحيد، ب- العدل، ج- الوعد والوعيد، د- المنزلة بين المنزلتين، ك- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
والاعتزال في حقيقته يحمل خليطا من الآراء الباطلة التي كانت موجودة في ذلك العصر، فقد جمع المعتزلة يين أفكار الجهمية، والقدرية، والخوارج والرافضة.

=

=

فقد شاركوا الجهمية في بعض أصولهم، فوافقوهم في إنكار الصفات فزعموا أن ذات الله لا تقوم به صفة ولا فعل، كما سيأتي تفصيله. وقالوا بإنكار رؤية الله يوم القيامة وقالوا: إن القرآن مخلوق إلى غير ذلك.
كما شاركوا القدرية في إنكارهم لقدرة الله في أفعال العباد، وأخذوا عنهم القول بأن العباد يخلقون أفعالهم.
كما شاركوا الخوارج في مسألة الإيمان، وقالوا بقولهم إن الإيمان قول واعتقاد، وعمل، لا يزيد ولا ينقص، وانه إذا ذهب بعضه زال الإيمان. وبناء على ذلك شاركوهم في مسألة مرتكب الكبيرة، فالمعتزلة وإن قالوا بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، لكنهم وافقوا الخوارج في قولهم بأن مرتكب الكبيرة في الآخرة خالد مخلد في النار.
وأخذوا كذلك عن الخوارج رأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما أنهم شاركوا الروافض في الطعن في أصحاب النبي ﷺ، فقد كان من كلام واصل بن عطاء في أهل صفين قوله: " إن كليهما فاسق لا بعين" وقوله عن علي ومعاوية رضي الله عنهما: (لو أن كليهما جاء عندي يشهد على حزمة بقل ما قبلت شهادتهما"، وأواخر المعتزلة كانوا أقرب إلى التشيع. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وقدماء الشيعة كانوا مخالفين للمعتزلة بذلك (يعني مسائل الصفات والقدر)، فأما متأخروهم من عهد بني بويه ونحوهم من أوائل المائة الرابعة ونحو ذلك، فإنهم سار فيهم أن يوافق المعتزلة في توحيدهم وعدلهم، والمعتزلة شيوخ هؤلاء إلى ما يوجد في كلام ابن النعمان المفيد وصاحبيه أبي جعفر الطوسي، والملقب بالمرتضى ونحوهم هو من كلام المعتزلة، وصار حينئذ في المعتزلة من يميل إلى نوع من التشيع إما تسوية علي بالخليفتين، وإما تفضيله عليهما، وإما الطعن في عثمان، وإن كانا المعتزلة لم تختلف في إمامة أبي بكر وعمر. وقدماء المعتزلة
=

=

كعمرو بن عبيد وذويه كانوا منحرفين عن علي حتى كانوا يقولون: لو شهد هو وواحد من مقاتليه شهادة لم نقبلها، لأنه قد فسق أحدهما لا بعينه. فهذا الذي عليه متأخروا الشيعة والمعتزلة خلاف ما عليه أئمة الطائفتين وقدماؤهم "

كما أخذوا عن الشيعة الرافضة أكثر آرائهم الخاصة بالإمامة.

وعلى هذا فأفكار المعتزلة إنما هي خليط من آراء الفرق المخالفة في عصرهم.

وأفكار المعتزلة يحملها اليوم كل من: الرافضة الإمامية، والزيدية والإباضية، وكذلك من يسمون بالعقلانيين.

ثالثا: متكلمة الصفاتية (الكلابية- الأشاعرة- الماتريدية).

أولا- الكلابية، وهم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "كان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين: فأهل السنة والجماعة يثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها.

والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا.

فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها. ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري وغيرهما.

وأما الحارث المحاسبي فكان ينتسب إلى قول ابن كلاب، ولهذا أمر بهجره، وكان أحمد يحذر عن ابن كلاب وأتباعه ثم قيل عن الحارث: إنه راجع عن قوله.

فهذا النهج الذي أحدثه ابن كلاب هو ما صار يعرف فيما بعد بمنهج متكلمة الصفاتية لأن ابن كلاب كان في طريقته يميل إلى مذهب أهل الحديث والسنة، لكن كان في طريقته نوع فن البدعة، لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله، ولم يثبت قيام الأمور الاختيارية بذاته.

=

=

وقد كانا له جهود في الرد على الجهمية ولكنه ناظرهم بطريق قياسية سلم لهم فيها أصولا هم واضعوها من امتناع تكلمه تعالى بالحروف، وامتناع قيام الصفات الاختيارية بذاته مما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال والكلام وغير ذلك فأصبح بعد ذلك قدوة وإماما لمن جاء بعده من هذا الصنف الذين أثبتوا الصفات وناقضوا نفاتها، لكن شاركوهم في بعض أصولهم الفاسدة التي أوجبت فساد بعض ما قالوه من جهة المعقول ومخالفته لسنة الرسول"

فابن كلاب أحدث مذهبا جديدا، فيه ما يوافق السلف وفيه ما يوافق المعتزلة والجهمية. وبذلك يكون قد أسس مدرسة ثالثة وهي مدرسة " الصفاتية " التي اشتهرت بمذهب الإثبات، لكن في أقوالهم شيء من أصول الجهمية

وقد سار على هذا النهج القلانسي، والأشعري، والمحاسبي، وغيرهم وهؤلاء هم سلف الأشعري والأشاعرة القدماء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكان أبو محمد بن كلاب هو الأستاذ الذي اقتدى به الأشعري في طريقته هو وأئمة أصحابه، كالحارث المحاسبي، وأبي العباس القلانسي، وأبي سليمان الدمشقي، وأبي حاتم البستي"

فابن كلاب هو إمام الأشعرية الأول، وكان أكثر مخالفة للجهمية، وأقرب إلى السلف من الأشعري

ولكن هذا النهج الكلابي ابتعد شيئا فشيئا عن منهج السلف، وأصبح يقرب أكثر فاكثر إلى نهج المعتزلة وذلك على يد وارثيه من الأشاعرة.

فابن كلاب كما أسلفنا كان أقرب إلى السلف من أبي الحسن الأشعري وأبو الحسن الأشعري أقرب إلى السلف من القاضي أبي بكر الباقلاني والقاضي أبو بكر وأمثاله أقرب إلى السلف من أبي المعالي الجويني وأتباعه ولهذا يوجد في كلام الرازي والغزالي ونحوهما من الفلسفة ما لا يوجد في كلام أبي المعالي

=

=

الجويني وذويه، ويوجد في كلام الرازي والغزالي والجويني من مذهب النفاة المعتزلة ما لا يوجد في كلام أبي الحسن الأشعري وقدماء أصحابه، ويوجد في كلام أبي الحسن الأشعري من النفي الذي أخذه من المعتزلة ما لا يوجد في كلام أبي محمد بن كلاب الذي أخذ أبو الحسن طريقه. ويوجد في كلام ابن كلاب من النفي الذي قارب فيه المعتزلة ما لا يوجد في كلام أهل الحديث والسنة والسلف والأئمة. وإذا كان الغلط شبرا صار في الأتباع ذراعا ثم باعا حتى آل إلى هذا المآل والسعيد من لزم السنة

وقد تلاشت الكلابية كفرقة، لكن أفكارها حملت بواسطة الأشاعرة، فقد احتفظ الأشعري وقدماء أصحابه بأفكار الكلابية ونشروها، وبذلك اندرست المدرسة الكلابية الأقدم تاريخا والأسبق ظهورا في الأشعرية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والكلابية هم مشايخ الأشعرية، فإن أبا الحسن الأشعري إنما اقتدى بطريقة أبي محمد بن كلاب، وابن كلاب كان أقرب إلى السلف زمنا وطريقة. وقد جمع أبو بكر بن فورك كلام ابن كلاب والأشعري وبين اتفاقهما في الأصول "

فالكلابية أسبق في الظهور من الأشاعرة والماتريدية، فقد نشأت الكلابية في منتصف القرن الثالث، وهي أول الفرق الكلامية بعد الجهمية والمعتزلة، فقد توفي ابن كلاب سنة، وفي أول القرن الرابع الهجري نشأت بقية فرق أهل الكلام وهم الأشاعرة المنتسبون إلى أبي الحسن الأشعري والماتريدية: أتباع أبي منصور الماتريدي وهي الفرق القائمة حتى زماننا هذا.

ثانيا- الأشعرية: يعد أبو الحسن الأشعري امتدادا للمذهب الكلابي فأبو الحسن الأشعري كان معتزليا إلى سن الأربعين، حيث عاش في بيت أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في البصرة، ثم رجع عن مذهب المعتزلة وسلك طريقة ابن كلاب

=

=

وتأثر بها مدة طويلة، ولعل السبب في ذلك أنه وجد في كتب ابن كلاب وكلامه بغيته من الرد على المعتزلة وإظهار فضائحهم وهتك أستارهم، وكان ابن كلاب قد صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم. ولكن فات الأشعري أن ابن كلاب وإن رد على المعتزلة وكشف باطلهم وأثبت لله تعالى الصفات اللازمة لكنه وافقهم في إنكار الصفات الاختيارية التي تتعلق بمشيئته تعالى وقدرته فنفى كمالا المعتزلة أن الله يتكلم بمضيئته وقدرته. كما نفى أيضا الصفات الاختيارية مثل الرضى، والغضب، والبغض، والسخط وغيرها.

وقد مضى الأشعري في هذا الطور نشيطا يؤلف ويناظر ويلقي الدروس في الرد على المعتزلة سالكا هذه الطريقة.

ثم التقى بزكريا بن يحي الساجي فأخذ عنه ما أخذ من أصول أهل السنة والحديث، وكان الساجي شيخ البصرة وحافظها ثم لما قدم بغداد أخذ من حنبلية بغداد أمورا أخرى وذلك بآخر أمره.

ولكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، وخبرته بالسنة خبرة مجملة فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك الأصول، وبين الانتصار للسنة، كما فعل في مسألة الرؤية والكلام، والصفات الخبرية وغير ذلك

وقال عنه السجزي: " رجع في الفروع وثبت في الأصول" أي أصول المعتزلة التي بنوا عليها نفي الصفات، مثل دليل الأعراض وغيره.

وقال ابن تيمية: "أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري، وأبو الحسن الأشعري كانا يخالفان المعتزلة ويوافقان أهل السنة في جمل أصول السنة. ولكن لتقصيرهما في علم السنة وتسليمهما للمعتزلة أصولا فاسدة صار في مواضع من قوليهما مواضع فيها من قول المعتزلة ما خالفا به السنة وإن كانا لم يوافقا المعتزلة

=

=

مطلقا ".

وقال أيضا: " والذي كان أئمة السنة ينكرونه على ابن كلاب والأشعري بقايا من التجهم والاعتزال، مثل اعتقاد صحة طريقة الأعراض وتركيب الأجسام، وإنكار اتصاف الله بالأفعال القائمة التي يشأها ويختارها، وأمثال ذلك" وقد مرت الأشعرية بأطوار ومراحل كان أولها زيادة المادة الكلامية ثم الجنوح الكبير للمادة الاعتزالية، ثم خلط هذه العقيدة بالمادة الفلسفية. " فالأشعرية المتأخرة مالوا إلى نوع من التجهم بل الفلسفة وفارقوا قول الأشعري وأئمة الصحابة".

فقدماء الأشاعرة يثبتون الصفات الخبرية بالجملة، كأبي الحسن الأشعري وأبي عبد الله بن مجاهد وأبي الحسن الباهلي والقاضي أبي بكر الباقلاني وأبي إسحاق الاسفرائيني، وأبي بكر بن فورك، وأبي محمد بن اللبان، وأبي علي بن شاذان، وأبي القاسم القشيري، وأبي بكر البيهقي وغير هؤلاء. لكن المتأخرين من أتباع أبي الحسن الأشعري كأبي المعالي الجويني وغيره لا يثبتون إلا الصفات العقلية، وأما الخبرية فمنهم من ينفيها ومنهم من يتوقف فيها كالرازي والآمدي وغيرهما.

ونفاة الصفات الخبرية منهم من يتأول نصوصها ومنهم من يفوض معناها إلى الله تعالى.

وأما من أثبتها كالأشعري وأئمة أصحابه. فهؤلاء يقولون تأويلها بما يقتضي نفيها تأويل باطل، فلا يكتفون بالتفويض بل يطلون تأويلات النفاة. وهذا الاضطراب في العقيدة الأشعرية بين المتقدمين والمتأخرين سببه ما أسلفنا من ميل الأشاعرة بأشعريتهم إلى الاعتزال أكثر فأكثر بل إنهم خلطوا معها الفلسفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالأشعرية وافق بعضهم المعتزلة في الصفات الخبرية، وجمهورهم وافقهم في الصفات الحديثية، وأما الصفات القرآنية فلهم قولان:

=

=

فالأشعري والباقلاني وقدماؤهم يثبتونها، وبعضها يقر ببعضها، وفيهم تجهم من جهة أخرى.

فإن الأشعري شرب كلام الجبائي شيخ المعتزلة، ونسبته في الكلام إليه متفق عليها عند أصحابه وغيرهم.

وابن الباقلاني أكثر إثباتا بعد الأشعري، وبعد ابن الباقلاني ابن فورك، فإنه أثبت بعض ما في القرآن.

وأما الجويني ومن سلك طريقته فمالوا إلى مذهب المعتزلة فإن أبا المعالي كان كثير المطالعة لكتب أبي هاشم، قليل المعرفة بالآثار، فأثر فيه مجموع الأمرين

فما إن جاء أبو بكر الباقلاني، فتصدى للإمامة في تلك الطريقة وهذبها ووضع لها المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة، وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية من حيث وجوب الإيمان بها وأسهم إلى حد كبير في تنظير المذهب الأشعري الكلامي وتنظيمه مما أدى إلى تشابه منهجي يين المذهب الأشعري والمذهب المعتزلي فقد كان الأشعري يجعل النص هو الأساس والعقل عنده تابع، أما الباقلاني فالعقيدة كلها بجميع مسائلها تدخل في نطاق العقل ويعتبر الباقلاني المؤسس الثاني للمذهب الأشعري

ثم جاء بط بعده إمام الحرمين الجويني فاستخدم الأقيسة المنطقية في تأكد هذه العقيدة، وخالف الباقلاني في كثير من القواعد التي وضعها. وإن كان الجويني قد استفاد أكثر مادته الكلامية من كلام الباقلاني، لكنه مزج أشعريته بشيء من الاعتزال استمده من كلام أبي هاشم الجبائي المعتزلي على مختارات له، وبذلك خرج عن طريقة القاضي وذويه في مواضع إلى طريقة المعتزلة.

وأما كلام أبي الحسن الأشعري فلم يكن يستمد منه، وإنما ينقل كلامه مما يحكيه عنه الناس وعلى طريقة الجويني اعتمد المتأخرون من الأشاعرة، كالغزالي، وابن

=

=

الخطب الرازي، وخلطوا مع المادة الاعتزالية التي أدخلها الجويني مادة فلسفية، وبذلك ازدادت الأشعرية بعدا وانحرافا.

فالغزالي مادته الكلامية من كلام شيخه الجويني في "الإرشاد" و "الشامل" ونحوهما مضموما إلى ما تلقاه من القاضي أبي بكر الباقلاني. ومادته الفلسفية من كلام ابن سينا، ولهذا يقال أبو حامد أمرضه الشفا، ومن كلام أصحاب رسائل إخوان الصفا ورسائل أبي حيان التوحيدي ونحو ذلك. وأما الرازي فمادته الكلامية من كلام أبي المعالي والشهرستاني فإن الشهرستاني أخذه عن الأنصاري النيسابوري عن أبي المعالي، وله مادة اعتزالية قوية من كلام أبي الحسين البصري. وفي الفلسفة مادته من كلام ابن سينا والشهرستاني ونحوهما والأشعرية الأغلب عليهم أنهم مرجئة في باب الأسماء والأحكام وجبرية في باب القدر، وأما الصفات فليسوا جهمية محضة بل فيهم نوع من التجهم، ولا يرون الخروج على الأئمة بالسيف موافقة لأهل الحديث وهم في الجملة أقرب المتكلمين إلى أهل السنة والحديث.

والأشاعرة يخالفون أهل السنة في الكثير من مسائل الاعتقاد ومنها على سبيل المثال:

- أن مصدر التلقي عندهم في قضايا الإلهيات (أي التوحيد) والنبوات هو العقل وحده، فهم يقسمون أبواب العقيدة إلى ثلاثة أبواب: إلهيات نبوات، سمعيات، ويقصدون بالسمعيات ما يتعلق بمسائل اليوم الآخر من البعث والحشر والجنة والنار وغير ذلك وسموها سمعيات لأن مصدرها عندهم النصوص الشرعية وأما ما عداها أي الإلهيات والنبوات فمصدرهم فيها العقل. - زعمهم أن الإيمان هو مجرد التصديق، فأخرجوا العمل من مسمى الإيمان. - بناء على تعريفهم للإيمان فقد أخرجوا توحيد الألوهية من تقسيمهم للتوحيد، فالتوحيد عندهم هو أن الله

=

=

واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا نظر له. وهذا التعريف خلا من الإشارة إلى توحيد الألوهية، فلذلك فإن أي مجتمع أشعري تجد فيه توحيد الإلهية مختلا، وسوق الشرك والبدعة رائجة لأن الناس لم يعلموا أن الله واحد في عبادته لا شريك له.

- وبناء- كذلك- على تعريفهم للإيمان فقد أخرجوا الإتباع من تعريفهم للإيمان بالنبي ﷺ فحصروا الإيمان بالنبي في الأمور التصديقية فقط، ومن أجل ذلك انتشرت البدع في المجتمعات الأشعرية.

- خالفوا أهل السنة في أسماء الله وصفاته وهذا سيأتي بيانه.

- خالفوا أهل السنة في باب القدر، فقولهم موافق لقول الجبرية.

- خالفوا أهل السنة في مسألة رؤية الله من جهة كونهم يقولون يرى لا في مكان.

- خالفوا أهل السنة في مسألة الكلام، فهم لا يثبتون صفة الكلام على حقيقتها بل يقولون بالكلام النفسي.

إلى غير ذلك من أنواع المخالفات.

ثالثا- الماتريدية:

تعد الماتريدية شقيقة الأشعرية، وذلك لمابينهما من الائتلاف والاتفاق حتى لكأنهما فرقة واحدة، ويصعب التفريق منهما. ولذلك يصرح كل من الأشاعرة والماتريدية بأن كلا من أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي هما إماما أهل السنة على حد تعبيرهم

ولعل هذا التوافق مع كونه يرجع إلى سبب رئيس هو توافق أفكار الفرقتين وقلة المسائل الخلافية بينهما خاصة مع الأشعرية المتأخرة، هناك أسباب مهمة يرجع إليها يجب اعتبارها وأخذها في الحسبان ولعل أهمها التزامن في نشأة الفرقتين مع كون كل فرقة استقلت بأماكن نفوذ لم تنازعها فيها الفرقة الأخرى. فالماتريدية

=

=

انتصرت بين الأحناف الذين كانوا متواجدين في شرق العالم الإسلامي وشماله فقل أن تجد حنفيا على عقيدة الأشاعرة إلا ما ذكر من أن أبا جعفر السمناني- وهو حنفي- كان أشعريا.

بينما نجد الأشعرية قد انتصرت بين الشافعية والمالكية وهم اليوم يتواجدون في وسط وغرب وجنوب وجنوب شرق العالم الإسلامي، فجل الشافعية والمالكية على الأشعرية.

والماتريدية تنسب إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود بن محمد الماتريدي وكان معدودا في فقهاء الحنفية، وكان صاحب جدل وكلام ولم يكن له دراية بالسنن والآثار، وقد نهج منهجا كلاميا في تقرير العقيدة يشابه إلى حد كبير منهج متأخري الأشاعرة، وعداده في أهل الكلام من الصفاتية من أمثال ابن كلاب وأبي الحسن الأشعري وأمثالهما. وقد تابع الماتريدي ابن كلاب في مسائل متعددة من مسائل الصفات وما يتعلق بها.

ومن المعلوم أن الأحناف وأهل المشرق عموما كانوا من أسبق الناس تأثرا بعلم الكلام، فقد كانت بداية الجهم من تلك الجهات، وفي هذا يقول الإمام أحمد في معرض كلامه عن الجهم: "وتبعه على قوله رجال من أصحاب أبي حنيفة وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة"

فبشر بن غياث المريسي، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد، وغيرهما كانوا من الأحناف، فلا غرابة أن يكون الماتريدي الحنفي من أولئك الذين ناصروا علم الكلام وسعوا في تأسيسه وتقعيده، إلى أن أصبح علما من أعلامه وصاحب إحدى مدارس الكلام التي صارت فيما بعد تعرف باسمه. فالماتريدي لا يبعد كثيرا عن أبي الحسن الأشعري (في طوره الثاني) فهو خصم لدود للمعتزلة، إلا أنه كان متأثرا بالمنهج الكلامي على طريقة ابن كلاب من الاعتماد على المناهج الكلامية

=

=

في تقرير المسائل الاعتقادية شأنه في ذلك شأن أبي الحسن الأشعري، فكلاهما يعد امتدادا لمدرسة ابن كلاب التي عرفت كمدرسة ثالثة بعد أن كان الخلاف دائرا يين أهل السنة والجماعة من جهة، والجهمية والمعتزلة من جهة أخرى، فجاء ابن كلاب وأحدث منهجا ثالثا حاول فيه التلفيق بين النصوص الشرعية والمناهج الكلامية كما سبق الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن الكلابية.

فالمذهب الكلابي كان له وجوده في العراق والري وخراسان وكان له انتشار في بلاد ما وراء النهر التي كادت تغص بمختلف الطوائف والفرق.

ولم تتعرض الماتريدية للتطور الذي حصل على العقيدة الأشعرية والذي سبق بيانه في الحديث عن الأشعرية فالماتريدية بقيت على ما كانت عليه.

* مواقف أهل المتكلمين من توحيد الأسماء والصفات.

أ- الجهمية:

أتباع الجهم بن صفوان وهم ينفون جميع الأسماء والصفات.

أما في أسماء الله ﷻ فقد عرف عن الجهم بن صفوان أنه له مسلكان: الأول: نفيه جميع الأسماء الحسنى عن الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "جهم كان ينكر أسماء الله تعالى فلا يسميه شيئا لا حيا ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز"

**الثاني**: أن الله يسمى باسمين فقط هما "الخالق" و "القادر".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "كان الجهم وأمثاله يقولون: إن الله ليس بشيء، وروي عنه أنه قال: لا يسمى باسم يسمى به الخلق، فلم يسمه إلا "بالخالق" و "القادر" لأنه كان جبريا يرى أن العبد لا قدرة له" وقال رحمه الله: "ولهذا نقلوا عن جهم أنه لا يسمى الله بشيء، ونقلوا عنه أنه لا يسميه باسم من الأسماء التي يسمى بها الخلق: كالحي، والعالم والسميع، والبصير، بل يسميه قادرا خالقا، لأن

=

=

العبد عنده ليس بقادر، إذ كان هو رأس الجهمية الجبرية"

وأما في صفات الله ﷻ فالجهمية ينفون جميع الصفات ولا يصفون الله إلا بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون له إلا وجودا مطلقا لا حقيقة له عند التحصيل وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان، يمتنع تحققه في الأعيان فهؤلاء وصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن، لا فيما خرج عنه من الموجودات

ب- المعتزلة ومن وافقهم:

ومعهم النجارية والضرارية والرافضة الإمامية والزيدية والإباضية وابن حزم وغيرهم وهؤلاء مشتركون مع الجهمية والفلاسفة في نفي الصفات وإن كان بين الفلاسفة والمعتزلة نوع فرق فالمعتزلة تجمع على غاية واحدة وهي نفي إثبات الصفات حقيقة في الذات ومتميزة عنها. ولكنهم سلكوا طريقين في موقفهم من الصفات.

الطريق الأول: الذي عليه أغلبيتهم وهو نفيها صراحة فقالوا: إن الله عالم بذاته لا بعلم وهكذا في باقي الصفات.

والطريق الثاني: الذي عليه بعضهم وهو إثباتها اسما ونفيها فعلا فقالوا: إن الله عالم بعلم وعلمه ذاته وهكذا بقية الصفات، فكان مجتمعا مع الرأي الأول في الغاية وهي نفي الصفات.

والمقصود بنفي الصفات عندهم: هو نفي إثباتها حقيقة في الذات ومتميزة عنها، وذلك أنهم يجعلونها عين الذات فالله عالم بذاته بدون علم أو عالم بعلم وعلمه ذاته

وهناك آراء أخرى للمعتزلة لكنها تجتمع في الغاية مع الرأيين الأولين، وهو

=

=

التخلص من إثبات الصفات حقيقة في الذات ومتميزة عنها

وهذه الآراء للمعتزلة حملها عنهم الزيدية والرافضة الإمامية والإباضية. وابن تومرت وابن حزم

فالمعتزلة يرون امتناع قيام الصفات به، لاعتقادهم أن الصفات أعراض، وأن قيام العرض به يقتضي حدوثه فقالوا حينئذ إن القرآن مخلوق، وإنه ليس لله مشيئة قائمة به، ولا حب ولا بغض ونحو ذلك.

وردوا جميع ما يضاف إلى الله إلى إضافة خلق، أو إضافة وصف من غير قيام معنى به

ج- النجارية: وهم أتباع حسين بن محمد بن عبد الله النجار المتوفى سنة ( هجرية) تقريبا. وكان-يزعم أن الله سبحانه لم يزل جوادا بنفي البخل عنه، وأنه لم -يزل متكلما بمعنى أنه لم يزل غير عاجز عن الكلام، وأن كلام الله سبحانه محدث مخلوق، وكان يقول بقول المعتزلة في التوحيد، إلا في باب الإرادة والجود، وكان يخالفهم في القدر ويقول بالإرجاء

ح- الضرارية: وهم أتباع ضرار بن عمرو الغطفاني المتوفى سنة ( هجرية) تقريبا وكان يزعم أن معنى أن الله عالم قادر أنه ليس بجاهل ولا عاجز وكذلك كان يقول في سائر صفات الباري لنفسه"

فكل من النجارية والضرارية يحملون النصوص الثبوتية على المعاني السلبية كما قال البغدادي عنهم: "من غير إثبات معنى أو فائدة سوى نفي الوصف بنقيض تلك الأوصاف عنه"

وكان الجهمية والمعتزلة والنجارية والضرارية هم خصوم أهل السنة زمن فتنة القول بخلق القرآن.

خ- الكلابية وقدماء الأشاعرة ومن وافقهم (نفاة الصفات الاختيارية المتعلقة

=

=

بالمشيئة).

وهو قول الكلابية: أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب، وقول الحارث المحاسبي وأبي العباس القلانسي، وأبي الحسن الأشعري في طوره الثاني، وقدماء الأشاعرة كأبي الحسن الطبري والباقلاني وابن فورك، وأبي جعفر السمناني ومن تأثر بهم من الحنابلة كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وأبي الحسن بن الزاغوني والتميميين وغيرهم

وهؤلاء يسمون الصفاتية لأنهم يثبتون صفات الله تعالى خلافا للمعتزلة لكنهم لم يثبتوا لله أفعالا تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، بل ولا غير الأفعال مما يتعلق بمشيئته وقدرته وأصلهم الذي أصلوه في هذا أن الله لا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته لا فعل ولا غير فعل

والفرق بينهم وبين المعتزلة: أن المعتزلة تقول: "لا تحله الأعراض والحوادث" فالمعتزلة لا يريدون (بالأعراض) الأمراض والآفات فقط، بل يريدون بذلك الصفات. ولا يريدون (بالحوادث)، المخلوقات، ولا الأحداث المحيلة للمحل ونحو ذلك- مما يريده الناس بلفظ الحوادث- بل يريدون نفي ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها فلا يجيزون أن يقوم به خلق) ولا استواء، ولا إتيان، ولا مجيء، ولا تكليم، ولا مناداة، ولا مناجاة، ولا غير ذلك مما وصف بأنه مريد له قادر عليه. ولكن ابن كلاب ومن وافقه خالفوا المعتزلة في قولهم: (لا تقوم به الأعراض" وقالوا: "تقوم به الصفات ولكن لا تسمى أعراضا". ووافقوا المعتزلة على ما أرادوا بقولهم: لا تقوم به الحوادث من أنه لا يقوم به أمر من الأمور المتعلقة بمشيئته

ففرقوا بين الأعراض- أي الصفات- والحوادث- أي الأمور المتعلقة بالمشيئة فالكلابية ومن تبعهم ينفون صفات أفعاله، ويقولون: (لو قامت به لكان محلا

=

=

للحوادث. والحادث إن أوجب له كمالا فقد عدمه قبله وهو نقص وإن لم يوجب له كمالا لم يجز وصفه به

ولتوضيح قولهم نقول: إن المضافات إلى الله سبحانه في الكتاب والسنة لا تخلو من ثلاثة أقسام:

**أحدها**: إضافة الصفة إلى الموصوف.

كقوله تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ} البقرة:،، وقوله: {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} الذاريات:،، فهذا القسم يثبته الكلابية ولا يخالفون فيه أهل السنة، وينكره المعتزلة.

والقسم الثاني: إضافة المخلوق إلى الله.

كقوله تعالى: {نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا} الشمس:، وقوله تعالى: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} الحج:،، وهذا القسم لا خلاف بين المسلمين في أنه مخلوق

والقسم الثالث: وهو محل الكلام هنا- ما فيه معنى الصفة والفعل. كقوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً} النساء:، وقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} المائدة:، وقوله تعالى: {فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} البقرة:،.

فهذا القسم الثالث لا يثبته الكلابية ومن وافقهم على زعم أن الحوادث لا تحل بذاته. فهو على هذا يلحق عندهم بأحد القسمين قبله فيكون:

- إما قديما قائما به - وإما مخلوقا منفصلا عنه.

ويمتنع عندهم أن يقوم به نعت أو حال أو فعل ليس بقديم ويسمون هذه المسألة: (مسألة حلول الحوادث بذاته) وذلك مثل صفات الكلام والرضا، والغضب، والفرح، والمجيء، والنزول والإتيان، وغيرها. وبالتالي هم يؤولون النصوص الواردة في ذلك على أحد الوجوه التالية:

أولا- إرجاعها إلى الصفات الذاتية واعتبارها منها، فيجعلون جميع تلك الصفات

=

=

قديمة أزلية، ويقولون: نزوله، ومجيئه وإتيانه، وفرحه، وغضبه ورضاه، ونحو ذلك: قديم أزلي وهذه الصفات جميعها صفات ذاتية لله وإنها قديمة أزلية لا تتعلق بمشيئته واختياره

ثانيا- وإما أن يجعلوها من باب "النسب" و "الإضافة" المحضة بمعنى أن الله خلق العرش بصفة تحت فصار مستويا عليه، وأنه يكشف الحجب التي بينه وبين خلقه فيصير جائيا إليهم ونحو ذلك. وأن التكليم إسماع الخاطب فقط. فهذه الأمور من صفات الفعل منفصلة عن الله بائنة وهي مضافة إليه، لا أنها صفات قائمة به.

ولهذا يقول كثير منهم: "إن هذه آيات الإضافات وأحاديث الإضافات وينكرون على من يقول آيات الصفات وأحاديث الصفات.

ثالثا- أو يجعلوها "أفعالا محضة" في المخلوقات من غير إضافة ولا نسبة. مثل قولهم في الاستواء إنه فعل يفعله الرب في العرش بمعنى أنه يحدث في العرش قربا فيصير مستويا عليه من غير أن يقوم بالله فعل اختياري. وكقولهم في النزول إنه يخلق أعراضا في بعض المخلوقات يسميها نزولا. ونفاة الصفات الاختيارية يثبتون الصفات التي يسمونها عقلية وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. واختلفوا في صفة البقاء. ويثبتون في الجملة الصفات الخبرية كالوجه، واليدين، والعين ولكن إثباتهم لها مقتصر على بعض الصفات القرآنية، على أن بعضهم إثباته لها من باب التفويض. وأما الصفات الخبرية الواردة في السنة كاليمين، والقبضة، والقدم والأصابع فأغلب هؤلاء يتأولها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "بل أئمة المتكلمين يثبتون الصفات الخبرية في الجملة، وإن كان لهم فيها طرق كأبي سعيد بن كلاب وأبي الحسن الأشعري وأئمة الصحابة: كأبي عبد الله بن مجاهد وأبي الحسن الباهلي، والقاضي أبي بكر

=

=

بن الباقلاني، وأبي إسحاق الاسفرائيني، وأبي بمر بن فورك، وأبي محمد بن اللبان، وأبي علي بن شاذان، وأبي القاسم القشيري، وأبي بكر البيهقي، وغير هؤلاء. فما من هؤلاء إلا من لا من الصفات الخبرية ما شاء الله تعالى. وعماد المذهب عندهم: إثبات كل صفة في القرآن.

وأما الصفات التي في الحديث فمنهم من يثبتها ومنهم من لا يثبتها.

د- متأخرو الأشاعرة والماتريدية (من يقول بإثبات سبع صفات فقط أو ثمان ونفي ما عداها).

وهذا قول المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية الذين لم يثبتوا من الصفات إلا ما أثبته العقل فقط، وأما ما لا مجال للعقل فيه عندهم فتعرضوا له بالتأويل والتعطيل ولا يستدل هؤلاء بالسمع في إثبات الصفات، بل عارضوا مدلوله بما ادعوه من العقليات.

وهذه القول لمتأخري الأشاعرة إنما تلقوه عن المعتزلة، لما مالوا إلى نوع التجهم، بل الفلسفة، وفارقوا قول الأشعري وأئمة أصحابه، الذين لم يكونوا يقرون بمخالفة النقل للعقل، بل انتصبوا لإقامة أدلة عقلية توافق السمع، ولهذا أثبت الأشعري الصفات الخبرية بالسمع، وأثبت بالعقل الصفات العقلية التي تعلم بالعقل والسمع، فلم يثبت بالعقل ما جعله معارضا للسمع، بل ما جعله معارضا له، وأثبت بالسمع ما عجز عنه العقل.

وهؤلاء خالفوه وخالفوا أئمة أصحابه في هذا وهذا، فلم يستدلوا بالسمع في إثبات الصفات، وعارضوا مدلوله بما ادعوه من العقليات. فالصفات الثبوتية عند متأخري الأشاعرة هي: الحياة، والعلم، والقدرة والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، وزاد الباقلاني وإمام الحرمين الجويني صفة ثامنة هي الإدراك.

والصفات الثبوتية عند الماتريدية هي ثمان: الحياة، والعلم، والقدرة والإرادة،

=

قَالَ مُؤَلِّفه هَذَا آخِر مَا كَمَّلْت بِهِ تَفْسِير الْقُرْآن الْكَرِيم الَّذِي أَلَّفَهُ الشَّيْخ الْإِمَام الْعَالِم الْمُحَقِّق جَلَال الدِّين الْمُحَلَّى الشَّافِعِيّ رَضِيَ الله عَنْهُ وَقَدْ أَفْرَغْت لِمُكْمِلٍ وَعَلَيْهِ فِي الْآي الْمُتَشَابِهَة الِاعْتِمَاد وَالْمُعَوَّل فرحم الله امرءا نَظَرَ بِعَيْنِ الْإِنْصَاف إِلَيْهِ وَوَقَفَ فِيهِ عَلَى خَطَأ فَأَطْلَعَنِي عَلَيْهِ وَقَدْ قُلْت حَمِدْت الله رَبِّي إِذْ هَدَانِي لِمَا أَبْدَيْت مَعَ عَجْزِي وَضَعْفِي فَمَنْ لِي بِالْخَطَأ فَأَرُدّ عَنْهُ وَمَنْ لِي بِالْقَبُولِ وَلَوْ بِحَرْفِ هَذَا وَلَمْ يَكُنْ قَطّ فِي خَلَدِي أَنْ أَتَعَرَّض لِذَلِكَ لِعِلْمِي بِالْعَجْزِ عَنْ الْخَوْض فِي هَذِهِ الْمَسَالِك وَعَسَى الله أَنْ يَنْفَع بِهِ نَفْعًا جَمًّا وَيَفْتَح بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا وَأَعْيُنًا وَآذَانًا صُمًّا وَكَأَنِّي بِمَنْ اعْتَادَ الْمُطَوَّلَات وَقَدْ أَضْرَبَ عَنْ هَذِهِ التَّكْمِلَة وَأَصْلهَا حَسْمًا وَعَدَلَ إِلَى صَرِيح الْعِنَاد وَلَمْ يُوَجِّه إِلَى دَقَائِقهَا فَهْمًا {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَة أَعْمَى} رَزَقَنَا الله بِهِ هِدَايَة إِلَى سَبِيل الْحَقّ وَتَوْفِيقًا وَاطِّلَاعًا عَلَى

---

=

والسمع، والبصر، والكلام، والتكوين. وهم قد خصوا الإثبات بهذه الصفات دون غيرها، لأنها هي التي دل العقل عليها عندهم، وأما غيرها من الصفات فإنه لا دليل عليها من العقل عندهم، فلذا قالوا بنفيها. وهؤلاء لا يجعلون السمع طريقا إلى إثبات الصفات ولهم فيما لم يثبتوه طريقان أ- منهم من نفاه - ومنهم من توقف فيه فلم يحكم فيه بإثبات ولا نفي ويقولون بأن العقل دل على ما أثبتناه ولم يدل على ما توقفنا فيه وبهذا يعلم أنه ليس عند هؤلاء من الإثبات إلا الصفات السبع التي يسمونها صفات المعاني وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر والكلام وما عداها من الصفات الثبوتية لا يثبتونها ولهم في نصوصها أحد طريقين إما التأويل أو التفويض وفي هذا يقول قائلهم:

**وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها.**

دَقَـائِق كَلِمَاتـه وَتَحْقِيقًـا وَجَعَلَنَـا بِـهِ {مَـعَ الَّـذِينَ أَنْعَـمَ الله عَلَـيْهِمْ مِـنْ النَّبِيِّـينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالـصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًـا} وَفَـرَغَ مِـنْ تَأْلِيفـه يَـوْم الْأَحَد عَاشِر شَوَّال سَنَة سَبْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَكَانَ الِابْتِدَاء فِي يَـوْم الْأَرْبِعَـاء مُسْتَهَلّ رَمَضَان مِنْ الـسَّنَة الْمَـذْكُورَة وَفَـرَغَ مِـنْ تَبْيِيضه يَـوْم الْأَرْبِعَـاء سَـادِس صَـفَر سَـنَة إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَاَللهُ أَعْلَم قَالَ الشَّيْخ شَمْس الدِّين مُحَمَّد بْـن أَبِي بَكْـر الْخَطِيب الطُّـوخِيّ أَخْبَرَنِي صَـدِيقِي الـشَّيْخ الْعَلَّامَـة كَمَـال الـدِّين الْمُحَلَّـى أَخُـو شَيْخنَا الشَّيْخ جَلَال الدِّين الْمُحَلَّى رَحِمَهُمَا الله تَعَالَى أَنَّهُ رَأَى أَخَاهُ الشَّيْخ جَلَال الدِّين الْمَذْكُور فِي النَّوْم وَبَيْن يَدَيْهِ صَدِيقنَا الشَّيْخ الْعَلَّامَة الْمُحَقِّـق جَـلَال الـدِّين السُّيُوطِيّ مُصَنِّف هَذِهِ التَّكْمِلَة وَقَدْ أَخَذَ الشَّيْخ هَـذِهِ التَّكْمِلَـة فِي يَـده وَتَـصَفَّحَهَا وَيَقُول لِمُصَنِّفِهَا الْمَـذْكُور أَيّهمَـا أَحْسَن وَضْـعِي أَوْ وَضْـعك فَقَـالَ وَضْـعِي فَقَـالَ اُنْظُرْ وَعَرَضَ عَلَيْهِ مَوَاضِع فِيهَا وَكَأَنَّـهُ يُشِير إِلَـى اعْتِـرَاض فِيهَـا بِلُطْـفٍ وَمُـصَنِّف هَذِهِ التَّكْمِلَـة كُلَّمَـا أَوْرَدَ عَلَيْـهِ شَيْئًا يُجِيبهُ وَالـشَّيْخ يَبْتَسِم وَيَضْحَك قَـالَ شَـيْخنَا الْإِمَام الْعَلَّامَة جَلَال الدِّين عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي بَكْر السُّيُوطِيّ

مُصَنِّف هَذِهِ التَّكْمِلَة الَّذِي أَعْتَقِدهُ وَأَجْزِم بِـهِ أَنَّ الْوَضْـع الَّـذِي وَضَـعَهُ الـشَّيْخ جَلَال الدِّين الْمُحَلَّى رَحِمَهُ الله تَعَالَى فِي قِطْعَته أَحْسَن مِـنْ وَضْـعِي أَنَـا بِطَبَقَـاتٍ كَثِيرَة كَيْفَ وَغَالِب مَا وَضَعْته هُنَا مُقْتَبَس مِنْ وَضْعه وَمُسْتَفَاد مِنْـهُ لَا مِرْيَـة عِنْـدِي فِي ذَلِكَ وَأَمَّا الذي رؤي فِي الْمَنَام الْمَكْتُـوب أَعْـلَاهُ فَلَعَـلَّ الـشَّيْخ أَشَـارَ بِـهِ إِلَـى الْمَوَاضِع الْقَلِيلَة الَّتِي خَالَفْت وَضْعه فِيهَا لِنُكْتَـةٍ وَهِـيَ يَسِيرَةٌ جِدًّا مَـا أَظُنّهَـا تَبْلُـغ عَشَرَةَ مَوَاضِع مِنْهَا أَنَّ الـشَّيْخ قَـالَ فِي سُـورَة ص وَالـرُّوح جِسْم لَطِيف يَحْيَـا بِـهِ الْإِنْسَان بِنُفُـوذِهِ فِيـهِ وَكُنْـت تَبِعْتـه أَوَّلًا فَـذَكَرْت هَـذَا الْحَـدّ فِي سُـورَة الْحِجْـر ثُـمَّ ضَرَبْت عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَيَسْأَلُونَك عَنْ الرُّوح قُلْ الرُّوح مِنْ أَمْـر رَبِّـي} الْآيَـة

فَهِيَ صَرِيحَة أَوْ كَالصَّرِيحَةِ فِي أَنَّ الرُّوح مِنْ عِلْم الله تَعَالَى لَا نَعْلَمهُ فَالْإِمْسَاك عَنْ تَعْرِيفهَا أَوْلَى وَلِذَا قَالَ الشَّيْخ تَاج الدِّين بْن السُّبْكِيّ فِي جَمْع الْجَوَامِع وَالرُّوح لَمْ يَتَكَلَّم عَلَيْهَا مُحَمَّد ﷺ فَنُمْسِك عَنْهَا وَمِنْهَا أَنَّ الشَّيْخ قَالَ فِي سُورَة الْحَجّ الصَّابِئُونَ فِرْقَة مِنْ الْيَهُود فَذَكَرْت ذَلِكَ فِي سُورَة الْبَقَرَة وَزِدْت أَوْ النَّصَارَى بَيَانًا لِقَوْلٍ ثَانٍ فَإِنَّهُ الْمَعْرُوف خُصُوصًا عِنْد أَصْحَابنَا الْفُقَهَاء وَفِي الْمِنْهَاج وَإِنْ خَالَفَتْ السَّامِرَة الْيَهُود وَالصَّابِئَة النَّصَارَى فِي أَصْل دِينهمْ وَفِي شَرْحه أَنَّ الشَّافِعِيّ رَضِيَ الله عَنْهُ نَصَّ عَلَى أَنَّ الصَّابِئِينَ فِرْقَة مِنْ النَّصَارَى وَلَا أَسْتَحْضِر الْآن مَوْضِعًا ثَالِثًا فَكَأَنَّ الشَّيْخ رَحِمَهُ الله تَعَالَى يُشِير إِلَى مِثْل هَذَا وَالله أَعْلَم بِالصَّوَابِ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِع وَالْمَآب.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (الإسراء: ٤١)، وفيما بعد: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء: ٨٩)، وفي الكهف: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف: ٥٤)، ففي الأولى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ)، وفي الثانية: (لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ)، وفي الثالثة: بتأخير الناس، يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن الأولى وقع قبلها: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) (الإسراء: ٤٠)، وهذا خطاب مراد به كفار العرب، فلم يذكر فيه لفظ الناس العام لهم ولغيرهم، إذ الخطاب خاص بهم.

وأما الآية الثانية فقبلها: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ

هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ) (الإسراء: ٨٨)، ثم قال تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ) (الإسراء: ٨٩)، فخض الفريقين وعين ممن ذكر الناس اعتناء بهم، أعني بالجنس الإنساني، ليظهر شرفهم على الجن، وقدم الناس لما يعطيه تقديم المجرور، وقد مر هذا، وأيضاً فلثقل التكرر فيما تقارب، ولو قيل: ولقد صّرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل فأبي أكثر الناس إلا كفوراً لجاء لفظ الناس كأنه قد أعيد متصلاً، والعرب تستثقل مثل هذا، فقدم المجرور ليستحكم الفصل فلا يستثقل.

وأما آية الكهف فلم يتكرر فيها لفظ الناس فيقع استثقال، فقدم قوله: (فِي هَذَا الْقُرْآنِ) (الكهف: ٥٤)، لأن تقديمة أهم، إذ هو أبلغ في تنبيههم على الاعتبار. وقد مر قول سيبويه في مثل هذا (صفحة ٢٥٦و٢٨٧).

وأما آية الكهف فلم يقع قبلها ذكر الثقلين معاً فيحتاج إلى ذكر تقديم الناس كما احتيج في آية الإسراء، ألا ترى أن فصل آية الكهف: (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) (الككهف: ٥٢) الآية، فلم يرد فيها ما في الأخرى، وكان الأهم ذكر القرآن الشافي لمعتبر ما صُرف فيه من الأمثال. فقيل: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) (الكهف: ٥٤)، ولكون الخطاب عاماً في الإنسان لم يكن بد من ذكر الناس، بخلاف الآية الأولى من سورة الإسراء، إذ خطابها خاص بالقائلين من كفار العرب: إن الملائكة بنات الله، تعالى (الله) عن ذلك علواً كبيراً، فقد ورد كل من هذه الآيات على ما يناسب ويلائم ما اتصل به.

وأما ختام الأولى بقوله: (وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (الإسراء: ٤١) فالضمير للمذكورين ممن خص بمقصود الخطاب المكنى عنهم بقوله: (لِيَذَّكَّرُوا)، وأما أعقاب الثانية بقوله: (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء: ٨٩) فلتعطي إعادة

الظاهر من التعنيف والتقريع ما لا يعطيه المضمر، ولأن أول الخطاب وصدر الآية لما قدم فيه ذكر الناس لشرف الجنس الإنساني على الجن، ثم لم يكن ممن لم يؤمن إلا العناد، قيل: (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ) ليعطي بفحواه أن كأن قد قيل: فأبى أكثر الناس على تشريفهم وتفضيلنا إياهم إلا الكفر، فأحرز الظاهر مالم يكن ليحرزه إضمارهم، فتأمل ذلك.

وأما قوله عقب آية الكهف: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف: ٥٤) فمن المعلوم جدال كل فرد ومعاند عن دينه ومذهبه، قال تعالى: (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ) (الأنفال: ٦)، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ) (غافر: ٦٩)، وإذا كان الجدال من صفة كل مخالف في مذهب أو معتقد لم يبق السؤال هنا إلا عن وجه تخصيص هذه الآية بوصف الإنسان هنا بالجدل؟ والجواب أنه وصف هنا بذلك ليكون ختام هذه الآية هذه الآية تمهيداً لما سيأتي بعده من قوله تعالى: (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (الكهف: ٥٦)، فلما بني هذا على الآية، واتصل الكلام والتحم نوسب بينهما، وليس في الآيتين قبل، ولا فيما تقدم كل واحدة منهما، (وفيما بني عليهما، ما يستدعي ذكر الجدل ولا الوصف به، فلذلك أعقبت كل واحدة منهما بما تقدم، فأعقبت الأولى بقوله تعالى: (وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) لما بين من استدعاء الآية ذلك، وأعقبت الثانية بقوله: (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) لما بين أيضاً عند ذكر ذلك، وأعقبت هذه الأخرى بما يناسب ما ورد عليه بعده، وجاء كل على ما يجب.

الآية الثانية قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) (الإسراء: ٥٦)، وفي سورة سبأ: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ

زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) (سبأ: ٢٢)، للسائل أن يسأل عن الوجه في ورود اسم الجلالة مضمراً في قوله: (مِنْ دُونِهِ) في سورة الإسار، ومظهراً في قوله: (مِنْ دُونِ اللهِ) في السورة الأخرى وهل كان يجوز العكس؟

والجواب: أن آية سبأ تقدم قبلها تعالى مخبراً عن الكافرين: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ) (سبأ: ٢٠)، ثم قال بعد آية من تمام الآية التي قبلها: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ) (سبأ: ٢٢)، فجيء بالاسم الظاهر ليكون أبعد على إيهام عودة الضمير ورجوعه إلى المتبع لهم في الآية المتقدمة، وإنما المراد قل ادعوا كل من اتبعتم بعبادة أو صغو إلى ما يريده من إضلالكم، ولا شك أن إبليس رأس المضلين، وأولى من أمروا تعجيزاً لهم وقطعاً (بهم) بدعائه في قوله (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ) (سبأ: ٢٢)، فورد التحفيظ بإيراد الظاهر مما كان المضمر يوهمه، وجاءت الآية على ما يجب.

أما آية بني إسرائيل فإن قبلها قوله تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ) (الإسراء: ٥٤)، ثم قال: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الإسراء: ٥٥) الآية، ثم قال: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ) (الإسراء: ٥٦) بالضمير مناسبة، ولم يكن ليناسب الظاهر هنا، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

فإن قيل: فقد ورد قبل قوله: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) (الإسراء: ٥٤)، وقوله: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ) (الإسراء: ٥٣) كما ورد قبل آية سبأ، فلم خصت آية سبأ بعودة الاسم ظاهراً دون آية بني إسرائيل؟ قلت: ورد ذكره في بني إسرائيل (محذراً منه) موصوفاً بنزعه وعداوته، مع أن الآية خطاب بأمر المؤمنين بقوله:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (الإسراء: ٥٣)، والإضافة في قوله: (وَقُلْ لِعِبَادِي) إضافة تخصيص، والأمر أمر بما هو أولى، وليس يواجه ولا يخاطب بها إلا المؤمنون، ثم إنها أتبعت بما يلائم الآية المتكلم فيها أجل ملاءمة. وأما ورود ذكر إبليس في سورة سبأ فمتصل بالآية، وإبليس فيها موصوف بأنه أتبع، وأنه صدق ظنه على المذكورين، والآية إخبار عن الكفار، والكلام كله إعلام بحالهم إلى قوله: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) (سبأ: ٢٢)، فهذا الاعتراض غير لازم، وورود كل من الآيتين على أعلى تناسب وأجل ملاءمة، ولو قدر عكس الوارد لما صح على الجاري المطرد في نظم الكتاب العزيز، والله أعلم بما أراد.

الآية الثالثة قوله تعالى: (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) (الإسراء: ٦٨ - ٦٩)، ثم ورد بعد هذا بآيات: (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (الإسراء: ٧٥)، (ثم) قال بعد: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) (الإسراء: ٨٦)، للسائل أن يسأل عن وجه ختم الآية الأولى بقوله: (لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا)، والثانية بقوله: (ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)، والثالثة بقوله: (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)، والرابعة بقوله: (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا)؟

والجواب: أن معنى كل آية منها استدعى تعقيبها بما به أعقبت، فأما الأولى فلما تقدمها قوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) (الإسراء: ٦٧، أي اضمحل تعلقكم بشيء من أندادكم ومعبوداتكم سواه، وبطل ذلك، ولجأتم إليه سبحانه، كما قال في آية أخرى: (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ

فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) (النحل: ٥٣)، فلما دعوتموه ونجاكم إلى البر أعرضتم ورجعتم إلى ما كنتم قبل من شرككم (وظنكم) أن قد أمنتم عذابه، أفأمنتم عذابه (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) (الإسراء: ٦٨) أي يقلب بكم جانب البر، وهو الذي حملكم وأقلكم عند انفصالكم من البحر، ونجاتكم منه، وذلك جانب من البر إذ ليس البر كله هو المستقل بهم إذ ذاك، وإنما هم في قطعة من البر وجانب من الأرض، والأرض كلها لله سبحانه، أفأمنتم أخذه سبحانه لكم بالخسف وإرسال حاصب من الريح (وهي الرييح الشديدة)، ترميكم بالحصباء حتى تهلككم رجماً، ثم لا تجدوا إذ ذاك من يتوكل بصرف ذلك عنكم ودفعه عن إهلاككم، فيتداركم المتوكل لكم بدفع ذلك وصرفه عنكم، فتحصلون في حزب الناجين بعد مشاهدة الهلاك، هل تجدون براً، فهذا تقدير دافع قبل الإمضاء. ثم قال: (ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) (الإسراء: ٦٩)، أي مطالباً يطلبنا بثأركم بعد إهلاككم بغرقكم، فلما كان القدر تعلقهم به من بعد الموت والتلف بالإغراق ناسب ذلك ولاءنه تسمية هذا المقدر الطالب تبيعاً، ولأنه يتبع بعد الموت، كما يسمى طلب ذمة (من مات) تبعاً واتباعاً، ومنه (فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) (القرة: ١٧٨)، والتابع من يجيء بعد. ولما كان المقدر في الآية الأولى دافعاً قبل الفوت (ومانعاً) دون الاستئصال ناسبه العبارة: (بوكيل) لأنه الذي يدفع ويمنع الوصول أو الاستئصال، فجاء كل على ما يجب، ولم ين ليلائم ختام هذه الآية ختام تلك ولا ختام تلك ما ختمت به هذه وأما قوله: (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) (الإسراء: ٧٥) فالمراد تضعيف عذاب الآخرة وعذاب القبر، والتضعيف التكثير، فختم هذه الآية بقوله: (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (الإسراء: ٧٥) أبين شيء، لأن الامتحان عندنا في الشاهد،

وإذاقه العذاب إنما تكون من ذي استعلاء وقهر، فيلجأ فيه إلى الناصر إن وجد. وأما قوله في الآية بعد هذا: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) (الإسراء: ٨٦)، أي لنرفعن القرآن ونذهبه من الصدور ثم لا تجد وكيلاً يمنعنا عن ذلك، ولا من يقوم بدفعنا عنه، وليس هنا ما يستدعي الانتصار.

(فكل) من هاتين الآيتين على ما يجب ويناسب، ولا يلائم ختام هذه الآية ختام ما قبلها، ولا ما ختمت به الآية قبلها، وذلك بحول الله تعالى.

الآية الرابعة: غ - قوله تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا) (الإسراء: ٩٤)، وفي سورة الكهف: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) (الكهف: ٥٥)، فورد في الثانية: (وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ) ولم يرد في الأولى، فيسأل عن ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن الآية الأولى تقدمها قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء: ٨٩)، فقوله تعالى مخبراً عن عتاة قريش: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) (الإسراء: ٩٠) إلى الثامنة من مقترحاتهم، وهي تمنيهم تنزل كتاب يقرؤونه، فبالغوا في شنيع اقتراحاتهم، وتوغلوا في مطالبهم المفصحة باليأس (من) فلاحهم، فحصل من جملة حالهم بعدهم عن الإنابة إلى الإيمان، فلم يكن ذكر الاستغفار ليناسب هنا، لأنه إنما يكون مما (لا) يبلغ الكفر من المعاصي، هذا الغالب في وروده، أما حيث يفصح بالكفر فليس موضع ورود الاستغفار، ولما كان المتقدم قبل آية الكهف لا يبلغ مبلغ الآية المتقدمة في الإفصاح بتمردهم وعتوهم ناسبه ذكر الاستغفار، ألا ترى أن قوله تعالى قبل آية

الكهف: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُـرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُـلِّ مَثَلٍ وَكَـانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَـرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف: ٥٤)، وليس قوله فيها: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) في قوله في آية الإسراء: (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء: ٨٩)، لأن الجدال لا يلزم منه أن يكون مرتكبه كافراً، وإنما مظنة الجدال التناظر في الطرفين والاحتجاج بمتقابل المذهبين إلى ما يرجع إلى هذا، وقد قال لنبيه ﷺ: (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل: ١٢٥)، والمراد بذلك ملاطفتهم في الاحتجاج عليهم والصبر والتحمل لما عسى أن يكون منهم. فلما كان الوارد في آية الكهف من وصف حالهم لا يبلغ مبلغ الوارد في آية الإسراء ورد فيه ذكر الاستغفار موازنه للين ما بني عليه من الإخبار بكثرة جدالهم، إذ ليس كالوارد في الآية الأخرى من الإفصاح بكفرهم وسوء حالتهم، ولم يناسب آية سورة الإسراء أن يرد فيها ذكر الاستغفار، وإن كان حال المحكي عنهم في الآيتين غير مفارق للكفر ولا نازح عنه حال الإخبار، وقد تقدم هذا في أول آية من هذه السورة، ولكن تناسب النظم في الشدة واللين مراعى معتمد، فجاء كل على ما يجب، (والله سبحانه أعلم بما أراد).

الآية الخامسة: غ - قوله تعالى: (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا) (الإسراء: ٩٨)، وفي سورة الكهف: (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا) (الكهف: ١٠٦)، ففي هذه الآية (جهنم) ولم ترد في الأولى مع وحدة المعنى، فيسأل عن ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن قوله في الأولى: (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ) إلى ما اتصل به من قوله: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) (الإسراء: ٩٧)، ثم قال (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ). الإشارة إلى ضروب عقابهم

ومأواهم، واسم الإشارة متصل بما أشير بع إليه، لم يفصل بينهما إلا بوصف جهنم التي هي مأواهم، فجاء على ما يجب.

أما قوله في الثانية: (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ) فالإشارة إلأى جهنم المتقدم ذكرها في قوله (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ) (الكهف: ١٠٠) وقوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ) (الكهف: ١٠٢)، لما بعد ما بين اسم الإشارة والمشار إليه بما فصل به بينهما من قوله: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) (الكهف: ١٠٣) وقوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ .... ) (الكهف: ١٠٥) الآيتين، فلبعد اسم الإشارة عما أشير به إليه أعيد مظهراً فقيل: (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ)، وجاء كل على كا جيب، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٣١١-٣١٦).

## سُورَةَ الْكَهْفِ(١)

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على أقوال:

**أحدها**: أنها مكية كلها. قاله ابن عباس، وابن الزبير، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وبه قال يحيى بن سلام، والماتريدي، وأبو الليث السمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والواحدي، وعبدالقاهر الجرجاني، والبغوي، والسيوطي، وابن كثير.

قال ابن الجوزي:" وهذا إجماع المفسرين".

قال الفيروزآبادي:" السورة مكية بالاتفاق".

**الثاني**: أنها مكية، إلا قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ} [الكهف: ٢٨]، فإنها مدنية. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا، وقتادة أيضا.

**الثالث**: أنها مكية، إلا آيتين نزلتا في المدينة، وهما: قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ} =

=

[الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا} [الكهف: ٢٨]. وهذا مروي عن الحسن.

**الرابع**: أنها مكية جميعها. إلا سبع آيات: من أول السورة إلى غاية الآية السابعة. قاله مقاتل.

الخامس: أنها مكية إلا آية: (٣٨)، ومن آية (٨٣) إلى غاية آية (١٠١) فمدنية. قاله الزمخشري.

* عدد آياتها مائة وعشر عند الكوفيين، وست عند الشَّاميّين، وخمس عند الحجازيّين، وإِحدى عشرة عند البصريّين. وكلماتها أَلف وخمسمائة وتسع وسبعون. وحروفها ستَّة آلاف وثلثمائة وستّ.

المختلف فيها إِحدى عشرة آية {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} {إِلاَّ قَلِيلٌ} {ذلك غَداً} {زَرْعًا} {مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} {هاذه أَبَداً} {عِنْدَهَا قَوْمًا} {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} ذرّيّته (فى) موضع {الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً}.

فواصل آياتها على الأَلف.

* أسماء السورة:

تسمى: سورة «الكهف» و«الكهف»: كالمغارة في الجبل إلا أنه أوسع منها، فإذا صغر فهو غار، وجمعه: «كهوف». قال الشاعر:

**وكنتَ لهم كَهْفًا حصينًا وجُنَّةٌ      يؤول إليها كهلها ووليدها**

وقد وردت هذه التسمية في كلام النبي -ﷺ-، وذلك في أحاديث، منها:

- عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ، قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال».

- عن أبي سعيد، أن النبي -ﷺ-، قال: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين».

=

=

وقد وجدت تسميتها بسورة «الكهف» عند الصحابة الكرام-رضوان الله تعالى عليهم-، كابن مسعود والبراء بن عازب:

- قال ابن مسعود: «فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى».

- عن البراء بن عازب. قال: «كان رجل يقرأ في داره سورة الكهف، وإلى جانبه حصان له مربوط بشطنين، حتى غشيته سحابة، فجعلت [تدنو و] تدنو، حتى جعل فرسه ينفر منها. قال الرجل: فعجبت لذلك، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له [وقص عليه] فقال رسول الله ﷺ: "تلك السكينة تنزلت للقرآن"».

فدلّت تلك الاحاديث تدل على أن اسم سورة «الكهف» هو المشهور، وهو اسم توقيفي كما ثبت عن رسولنا الكريم-ﷺ- وعن صحابته-رضوان الله عليهم أجمعين.

وسميت سورة «الكهف»؛ لاشتمالها على قصة أصحاب أهل الكهف بتفصيلها، إذ وردت كلمة «الكهف» في هذه السورة حصرا، دون غيرها من السور، فجاءت بصيغة «الكهف» أربع مرات، ومرتين مضافة إلى ضمير الغائب «كهفهم».

وتسمى سورة «أصحاب الكهف» وسميت بسورة «أصحاب الكهف»، في مصحف نسخ في القرن الحادي عشر الهجري، كما وردت هذه التسمية في أحاديث رويت عن النبي-ﷺ-، كما وردت هذه التسمية في كلام بعض السلف، ومن المفسرين من ذكر هذه التسمية، السيوطي، والألوسي، والقاسمي.

قال المهايمي:"سميت بها لاشتمالها على قصة أصحابه الجامعة فوائد الإيمان بالله، من الأمن الكلي عن الاعداء، والإغناء الكلي عن الاشياء، والكرامات العجيبة، وهذا من أعظم مقاصد القرآن".

وهو اسم توقيفي ثبت من أحاديث الرسول-ﷺ-، وهو مستنبط من قصة

=

=

أصحاب الكهف التي عنت بها السورة، فسورة «الكهف» هي بمعنى سورة «أصحاب الكهف».

وتسمى سورة «الحائلة» و«الحائلة»: أي: الحاجزة، والحاجز: الحائل بين الشيئين، يقال: حال الشئ بينى وبينك، أى: حجز.

وقد وردت تسميتها بسورة «الحائلة» عند الألوسي، والسيوطي، واستدلوا بحديث ضعيف عن ابن عباس أن النبي -ﷺ-، قال: «سورة الكهف التي تدعى في التوراة الحائلة، تحول بين قارئها وبين النار» وروي ايضا: «قارئ الكهف تدعى فى التوراة الحائلة تحول بين قارئها وبين النار».

وجه تسميتها بسورة «الحائلة»، أنها تحجز بين قارئها وبين النار، بمعنى: أنها تحاجج وتخاصم عنه، وقيل: أنها فتمنعه من دخول النار وتخلصه من الزبانية.

* مقصود السّورة مجملاً: بيانُ نزول القرآن على سَنَن السّداد، وتسلية النَّبىّ ﷺ فى تأخّر الكفَّار عن الإيمان، وبيان عجائب حديث الكهف، وأَمر النَّبىّ ﷺ بالصّبر على الفقراءِ، وتهديد الكفَّار بالعذاب، والبلاءِ، ووعد المؤمنين بحسن الثَّواب، وتمثيل حال المؤمن والكافر بحال الأَخوين الإسرائيليّين، وتمثيل الدنيا بماء السّماءِ ونبات الأَرض، وبيان أَنَّ الباقى من الدّنيا طاعةُ الله فقط، وذكر أَحوال القيامة، وقراءَة الكُتُب، وعَرْض الخَلْق على الحقِّ، وإِباءُ إِبليس من السّجود، وذلّ الكافر ساعة دخولهم النار، وجدال أَهل الباطل مع المحقِّين الأَبرار، والتخويف بإِهلاك الأُمم الماضية وإِذلالهم، وحديث موسى ويوشَع وخَضِر، وعجائب أَحوالهم، وقصّة ذى القَرْنيْن، وإِتيانه إِلى المشرقين والمغربين، وبنيانه لسدّ يأجوج ومأجوج، وما يتَّفق لهم آخر الزمان من الخروج، وذكر رحمة أَهل القيامة، وضياع عمل الكفر، وثمرات مساعى المؤمنين الأَبرار، وبيان أَن كلمات القرآن بحور علم: لا نهاية لها، ولا غاية لأَمَدِهَا، والأَمر بالإِخلاص فى العمل الصّالح

=

=

أَبداً، فى قوله: {فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً} .

* المتشابهات: قوله: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ} بغير واو {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} بزيادة واو. وفى هذا الواو أَقوال أَحدها أَنَّ الأَول والثانى وصفان لما قبلهما، أَى هم ثلاثة رابعهم كلبهم. وكذلك الثانى أَى هم خمسة سادسهم كلبهم. والثالث عطف على ما قبله، أَىّ هم سبعة، ثمّ عطف عليهم {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} . وقيل: كلّ واحد من الثلاثة جملة، وقعت بعدها جملة فيها عائد يعود منها إِليها. فأَنت فى إِلحاق واو العطف وحذفها بالخِيار. وليس فى هذين القولين ما يوجب تخصيص الثالث بالواو. وقال بعض النَّحويّين: السّبعةُ نهاية العدد، ولهذا كَثُر ذكرها فى القرآن والأَخبار، والثَّمانية تَجْرى مَجْرى استئناف كلام. ومن هاهنا لقَّبه جماعة من المفسّرين بواو الثمانية. واستدلُّوا بقوله سبحانه: {التائبون} الآية وبقوله: {مُسْلِمَاتٍ} الآية وبقوله: {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} ولكلّ واحدة من هذه الآيات وجوه ذكرت فى مباسيط التفسير. وقيل: إِنَّ الله تعالى حكى القولين الأَوّلين، ولم يرتضهما، وحكى القول الثَّالث فارتضاه. وهو قوله: {وَيَقُوْلُوْنَ سَبْعَةٌ} ثمّ استأَنف فقال: {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} . ولهذا قال: عقيب الأَوّل والثَّانى {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} ولم يقل فى الثالث. فإِن قيل: وقد قال فى الثالث: {قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم} فالجواب تقديره: قل ربِّى أَعلم بعدتهم وقد أَخبركم أَنَّهم سبعة وثامنهم كلبهم؛ بدليل قوله تعالى: {مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ} . ولهذا قال ابن عباس: أَنا من ذلك القليل. فعدّ أَسماءَهم. وقال بعضهم الواو فى قوله: {وَيَقُوْلُوْنَ سَبْعَةٌ} يعود الى الله تعالى، فذكر بلفظ الجمع؛ كقوله إِنَّا وأَمثاله. هذا على سبيل الاختصار.

قوله: {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي} وفى حم: {وَلَئِن رَجِعْتُ إِلى رَبِّي} لأَن الرَّد عن شئ يتضمن كراهة المردود، ولما كان [ما فى الكهف تقديره: ولئن رددت عن

=

=

جنَّتى التى أَظنّ أَنها لا تبيد أَبدا إِلى ربى، كان لفظ الرد الذى يتضمن الكراهة أَولى، وليس فى حم ما يدل على كراهة، فذكر بلفظ الرَجْع ليأْتى لكل مكان ما يليق به.

قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا} [وفى السجدة {ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا} ] لأَن الفاء للتعقيب وثم للتراخى. وما فى هذه السورة فى الأَحياء من الكفار، أَى ذُكِّروا فأَعرضوا عقيب ما ذكِّروا، ونَسُوا ذنوبهم، و [هم] بعدُ متوقَّع منهم أَن يؤمنوا. وما فى السّجدة فى الأَموات من الكفار؛ بدليل قوله: {وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ} أَى ذُكّروا مرَّة بعد أُخرى، وزمانـًا بعد زمان [بآياتِ ربِّهم] ثم أعرضوا عنها بالموتِ، فلم يؤمنوا، وانقطع رجاءُ إِيمانهم.

قوله: {نَسِيَا حُوتَهُمَا فاتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر} والآية الثالثة {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البحر} لأَنَّ الفاءَ للتعقيب والعطف، فكان اتخاذ الحوت السّبيلَ عقيب النِّسيان، فذكِر بالفاءِ [و] فى الآية الأُخرى لمَّا حيل بينهما بقوله: {وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ} زال معنى التعقيب وبقى العطف المجرّد، وحرفه الواو.

قوله: {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْراً} وبعده {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} لأَنَّ الإِمْر: العَجَب، والعجب يستعمل فى الخير والشرِّ، بخلافِ النُّكر؛ لأَنَّ النُّكْر ما ينكِره العقلُ، فهو شرّ، وخَرْق السفينة لم يكن معه غَرق، فكان أَسهل من قتل الغلام وإِهلاكِه، فصار لكلِّ واحد معنى يخصّه.

قوله: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ} وبعده {أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ} لأَنَّ الإِنكار فى الثانية أَكثر. وقيل: أَكَّد التقرير الثَّانى بقوله (لك) كما تقول لمن توبّخه: لك أَقول، وإِيَّاك أَعنى: وقيل: بيّن فى الثّانى المقولَ له، لمّا لم يبيّن فى الأَوّل.

قوله فى الأَوّل: {فَأَرَدْتُّ}، وفى الثَّانى: {فَأَرَدْنَا} وفى الثالث: {فَأَرَادَ رَبُّكَ}؛ لأَنَّ الأَوّل فى الظاهر إِفساد، فأَسنده إِلى نفسه، والثَّالث إِنْعام محض، فأَسنده إِلى الله

=

مَكِّيَّة إلَّا {وَاصْبِرْ نَفْسك} الْآيَة وَهِيَ مِائَة وَعَشْر آيَات أَوْ خَمْس عَشْرَة آيَة نَزَلَتْ بَعْد سُورَة الْغَاشِيَة

## بسم الله الرحمن الرحيم(١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١)

{الْحَمْد} وَهُوَ الْوَصْف بِالْجَمِيلِ ثَابِت {لِلَّهِ} تَعَالَى وَهَلْ الْمُرَاد الْإِعْلَام بِذَلِك لِلْإِيمَانِ بِهِ أَوْ الثَّنَاء بِهِ أَوْ هُمَا احْتِمَالَات أَفْيَدهَا الثَّالِث {الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْده} مُحَمَّد {الْكِتَاب} الْقُرْآن {وَلَمْ يَجْعَل لَهُ} أَيْ فِيهِ {عِوَجًا} اخْتِلَافًا أَوْ تَنَاقُضًا وَالْجُمْلَة حَال مِنْ الْكِتَاب.

---

=

ﷻ. وقيل: لأَنَّ القتل كان منهُ، وإزهاق الرّوح كان من الله ﷻ.

قوله: {مَا لَمْ تَسْتَطِعْ} جاءَ فى الأَوّل على الأَصل، وفى الثانى {تَسْطِعْ} على التخفيف؛ لأَنَّه الفرع.

قوله: {فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا} اختار التخفيف فى الأَوّل؛ لأَنَّ مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول، فاختير فيه الحذف. والثَّانى مفعوله اسم واحد، وهو قوله (نَقْبًا) وقرأَ حمزة بالتَّشديد، وأَدغم التَّاءَ فى الطَّاءِ. وقرئ فى الشَّواذِّ: فما أَسطاعوا بفتح الهمزة. ووزنه أَسفعلوا ومثله أَهْراق ووزنه أَهْفَعل، ومثلها استخَذَ فلان أَرضًا، أَى أَخذ، ووزنه اسفعل وقيل: استعل، من وجهين. وقيل: السّين بدل من التَّاءِ، ووزنه افتعل. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٩٧ – ٣٠٣).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢).

{قَيِّمًا} مُسْتَقِيمًا حَال ثَانِيَة مُؤَكِّدَة {لِيُنْذِر} يُخَوِّف بِالْكِتَابِ الْكَافِرِينَ {بَأْسًا} عَذَابًا {شَدِيدًا مِنْ لَدُنْه} من قبل الله {ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا}.

مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣).

{مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا} هُوَ الْجَنَّة[1].

---

(١) قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [الكهف: ١]،:أي:" الثناء الكامل مع التعظيم والإجلال لله الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق".

**قال الطبري**:" يقول تعالى ذكره: الحمد لله الذي خص برسالته محمدا وانتخبه لبلاغها عنه، فابتعثه إلى خلقه نبيا مرسلا".

قال الزجاج:" الشكر للهِ الذي أنزل على محمد الكتابَ".

قال الزمخشري:" لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم".

قال الضحاك:" «الحمد لله»: رداء الرحمن".

قال كعب:" «الحمد لله»: ثناء على الله".

قوله تعالى: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف: ١]،:أي:" ولم يجعل فيه شيئًا من الميل عن الحق".

قال ابن كثير:" أي: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلا بل جعله معتدلا مستقيمًا".

=

قال الزمخشري:" ولم يجعل له شيئا من العوج قط، و «العوج» في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد: نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه".

وفي قوله تعالى: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف: ١]، وجوه:

**أحدها**: يعني: مختلفاً، قاله مقاتل، والزجاج،كما قال جل ثناؤه: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]. ومنه قول الشاعر:

**أدوم بودي للصديق تكرُّمًا ولا خير فيمن كان في الود أعوجا**

وروي عن مجاهد:" أنزله قيما لا عوج فيه ولا اختلاف".

**الثاني**: يعني: ولم يجعل له ملتبسا. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:" أنزل الكتاب عدلا قيما، ولم يجعل له عوجا ملتبسا ".

**الثالث**: يعني: لم يجعله مخلوقا، قاله ابن عباس.

روي عن ابن عباس في قوله: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ}، قال: غير مخلوق".

قال سفيان:" القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود".

سئل الإمام الشافعي:" فما الدليل على أنه غير مخلوق؟

فرفع الشافعي رأسه وقال: تقر بأن القرآن كلام الله؟

قال: نعم.

قال الشافعي: سبقت في هذه الكلمة، قال الله تعالى ذكره: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ} [التوبة: ٦]، وقال: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤].

قال الشافعي رحمه الله: فتقر بأن الله كان وكان كلامه؛ أو كان الله ولم يكن كلامه؟

فقال الرجل: بل كان الله، وكان كلامه.

=

قال: فتبسم الشافعي وقال: يا كوفيون، إنكم لتأتوني بعظيم من القول: إذا كنتم تقرون بأن الله كان قبل القبل وكان كلامه، فمن أين لكم الكلام: إن الكلام الله، أو سوى الله، أو غير الله، أو دون الله؟!

قال: فسكت الرجل وخرج".

**الرابع**: أنه العدول عن الحق إلى الباطل، وعن الاستقامة إلى الفساد، وهو قول علي بن عيسى.

قوله تعالى: (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما.. )

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد، صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بينا واضحا جليا.... (ابن كثير).

- قال الشنقيطي:... أخرجهم به من الظلمات إلى النور. وبين لهم فيه العقائد، والحلال والحرام، وأسباب دخول الجنة والنار، وحذرهم فيه من كل ما يضرهم، وحضهم فيه على كل ما ينفعهم، فهو النعمة العظمى على الخلق، ولذا علمهم ربهم كيف يحمدونه على هذه النعمة الكبرى بقوله: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب.

- أعظم النعم إنزال هذا القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ.

- قال الشنقيطي: وما أشار له هنا من عظيم الإنعام والامتنان على خلقه بإنزال هذا القرآن العظيم، منذرا من لم يعمل به، ومبشرا من عمل به، ذكره جل وعلا في مواضع كثيرة.

=

=

كقوله (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما).

وقوله (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون).

وقوله (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين).

وقوله (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين).

وقوله (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء الآية).

وقوله تعالى (إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

وقوله (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك.... ).

(ولم يجعل له عوجا) أي لم يجعل في القرآن عوجا: أي لا اعوجاج فيه ألبتة، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه ؛ لأن قوله: «عوجا» نكرة في سياق النفي، فهي تعم نفي جميع أنواع العوج.

وما ذكره جل وعلا هنا من أنه لا اعوجاج فيه، بينه في مواضع أخر كثيرة:

كقوله (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرءانا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون).

وقوله (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) فقوله «صدقا» أي في الأخبار، وقوله: «عدلا» أي في الأحكام.

وكقوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)، والآيات بمثل هذا كثيرة جدا.

=

=

قوله تعالى: {قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [الكهف: ٢]

**قال الطبري:**" يقول تعالى ذكره: أنزل على عبده القرآن معتدلا مستقيما لا عوج فيه".

قال القرطبي:" المعنى: مستقيم، أي: مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض".

قال ابن كثير:" أي: مستقيمًا".

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما فائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة، وفي أحدهما غنى عن الاخر؟ قلت: فائدته التأكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السير والتصفح".

وفي قوله تعالى: {قَيِّمًا} [الكهف: ٢]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: أنه المستقيم المعتدل، وهذ قول ابن عباس، والضحاك، وبه قال الطبري، والزجاج.

وقال ابن إسحاق:" أي: معتدلا لا اختلاف فيه".

**الثاني**: أنه قيم على سائر كتب الله تعالى يصدقها وينفي الباطل عنها. حكاه الفراء.

**الثالث**: أنه المعتمد عليه والمرجوع إليه كقيم الدار الذي يرجع إليه في أمرها. حكاه الماوردي.

**الرابع**: قيما بالحجج أبدا. حكاه القرطبي.

**قال الطبري:**" والصواب من القول في ذلك عندنا: ما قاله ابن عباس، ومن قال بقوله في ذلك، لدلالة قوله: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا}، فأخبر جل ثناؤه أنه أنزل الكتاب الذي أنزله إلى محمد ﷺ {قيمًا} مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت، بل بعضه يصدق بعضا، وبعضه يشهد لبعض، لا عوج فيه، ولا ميل عن الحق".

=

=

قال القرطبي:" «العِوج» -بكسر العين- في الدين والرأي والأمر والطريق. وبفتحها في الأجسام كالخشب والجدار، وليس في القرآن عوج، أي: عيب، أي: ليس متناقضا مختلفا".

قال الماوردي:" وفيه تقديم وتأخير في قول الجميع وتقديره: أنزل الكتاب على عبده قيماً ولم يجعل له عوجاً ولكن جعله قيماً".

قال يحيى بن سلام، والأخفش:" فيها تقديم، يقول: أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا".

قال الفراء:" المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما، ولم يجعل له عوجا".

عن قتادة، قوله: " {ولم يجعل له عوجا قيما} ، «أنزل الكتاب ، ولم يجعل له عوجا ، قيما».

قال مجاهد:" هذا من التقديم والتأخير، أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا".

قال ابن عباس:" يقول: أنزل الكتاب عدلا قيما، ولم يجعل له عوجا".

وفي بعض القراءات: «ولكن جعله قيما».

قوله تعالى: {لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ} [الكهف: ٢]، أي:" لينذر الكافرين من عذاب شديد من عنده".

**قال الطبري:**" لينذركم أيها الناس بأسا من الله شديدا، وعنى بـ «البأس»: العذاب العاجل، والنكال الحاضر والسطوة".

عن محمد بن إسحاق: " {لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا} ، عاجل عقوبة في الدنيا، وعذابا في الآخرة. {مِنْ لَدُنْه} : أي من عند ربك الذي بعثك رسولا".

عن السدي قوله: " {لينذر بأسا شديدا} ، قال: عذابا شديدا".

=

=

عن قتادة، قوله: " {مِنْ لَدُنْهُ} : أي: من عنده".

وقرئ: «من لدْنه»، بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون.

قوله تعالى: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} [الكهف: ٢]، أي:" ويبشر المصدقين بالله ورسوله الذين يعملون الأعمال الصالحات".

**قال الطبري:**" يقول: ويبشر المصدقين الله ورسوله {الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} وهو العمل بما أمر الله بالعمل به، والانتهاء عما نهى الله عنه".

قال ابن إسحاق:" الذين صدقوك بما جئت به عن الله، وعملوا بما أمرتهم".

قوله تعالى: {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [الكهف: ٢]، أي:" بأن لهم ثوابًا جزيلا هو الجنة".

قال السدي: "يعني: الجنة".

**قال الطبري:**" يقول: ثوابا جزيلا لهم من الله على إيمانهم بالله ورسوله، وعملهم في الدنيا الصالحات من الأعمال، وذلك الثواب: هو الجنة التي وعدها المتقون".

قال ابن كثير:" أي: مثوبة عند الله جميلة ".

* (قيما) أي: مستقيما لا ميل فيه ولا زيغ.

وما ذكره هنا من كونه قيما لا ميل فيه ولا زيغ، بينه أيضا في مواضع أخر:

كقوله تعالى (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم).

وقوله (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين).

وقوله (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين).

وقوله (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير).

وهذا الذي فسرنا به قوله تعالى: قيما هو قول الجمهور وهو الظاهر. وعليه فهو تأكيد في المعنى لقوله (ولم يجعل له عوجا) لأنه قد يكون الشيء مستقيما في

=

=

الظاهر وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر، ولذا جمع تعالى بين نفي العوج وإثبات الاستقامة. (أضواء).

(تنبيه): قال بعض العلماء: قيما أي قيما بمصالح الخلق الدينية والدنيوية.

وقال بعضهم: أي قيم على ما قبله من الكتب السماوية ومهيمن عليها.

(لينذر) الذين كفروا بالله تعالى.

والإنذار: الإعلام المقترن بتخويف وتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارا.

(بأسا شديدا من لدنه) أي: عذابا أليما في الدنيا والآخرة.

والبأس يطلق في القرآن على (٣) إطلاقات:

بمعنى العذاب: كقوله تعالى (لينذر بأسا شديدا من لدنه) وقوله (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا).

وبمعنى القتال والمعركة: كقوله تعالى (ولا يأتون البأس إلا قليلا).

وبمعنى: الفقر والضيق: كقوله تعالى (مستهم البأساء والضراء).

(ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) أي: ويبشر المصدقين بالقرآن الذين يعملون الأعمال الصالحة.

والتبشير: الإخبار بما يسر.

(أن لهم أجرا حسنا) أي: أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم.

- قال الشنقيطي: ووصف أجرهم هنا بأنه حسن، وبين أوجه حسنه في آيات كثيرة، كقوله (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين - إلى قوله - ثلة من الأولين وثلة من الآخرين).

وكقوله (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين الآية)، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدا معلومة.

=

=

وهذا الذي ذكره هنا من كونه إنذارا لهؤلاء وبشارة لهؤلاء بينه في مواضع أخر: كقوله (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا).

وقوله (المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين).

- قوله (يعملون الصالحات) ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته. (السعدي).

والعمل الصالح لا يكون صالحا إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصا لله.

قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين).

وقال تعالى (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه) إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعا للنبي ﷺ.

قال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه).

وقال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله).

وقال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).

وقال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) إلى غير ذلك من الآيات.

ولقوله ﷺ (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

=

=

- ودائما يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحا.
قال تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار... ).
وقال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة.... ).
وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا).
قوله تعالى: {مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا} [الكهف: ٣]
قال ابن إسحاق:" أي: في دار خلد لا يموتون فيها".
**قال الطبري:**" خالدين، لا ينتقلون عنه، ولا ينقلون".
**قال البغوي:**" أي: مقيمين فيه".
قال ابن كثير:" {مَاكِثِينَ فِيهِ} في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه {أَبَدًا} دائمًا لا زوال له ولا انقضاء ".
وفي قوله تعالى: {مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا} [الكهف: ٣]، وجهان:
أحدهما: أي: لا تأخذهم سآمة ولا ملالة فيه؛ فيريدون التحول منه إلى غير؛ على ما يكون في الشاهد: أنه يسأم المرء ويمل من طعام - وإن كان رفيعا - ويرغب فيما دونه، وهو ما قال: {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [الكهف: ١٠٨].
**والثاني:** {مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا}؛ لأن خوف الخروج والزوال عن النعمة ينغص النعمة على صاحبها، وهو ما قال {خالدين فيها أبدا}؛ وقال: {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون}.
* (ماكثين فيه أبدا) أي: في هذا الأجر وهو الجنة (أبدا) أي خالدين فيه بلا انقطاع.
وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كثيرة:
كقوله (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض

=

وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا (٤).

{وينذر} من جملة الكافرين {الذين قالوا اتخذ الله ولدا}.

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥).

{مَا لَهُمْ بِهِ} بِهَذَا الْقَوْل {مِنْ عِلْم وَلَا لِآبَائِهِمْ} مِنْ قَبْلهمْ الْقَائِلِينَ لَهُ {كَبُرَتْ} عَظُمَتْ {كَلِمَة تَخْرُج مِنْ أَفْوَاههمْ} كَلِمَة تَمْيِيزٌ مُفَسِّر لِلضَّمِيرِ الْمُبْهَم وَالْمَخْصُوص بِالذَّمِّ مَحْذُوف أَيْ مَقَالَتهمْ الْمَذْكُورَة {إنْ} ما {يقولون} في ذلك {إلا} مقولا {كذبا}[1].

---

=

إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) أي غير مقطوع، وقوله (إن هذا لرزقنا ما له من نفاد) أي ما له من انقطاع وانتهاء.

وقوله (ما عندكم ينفد وما عند الله باق).

وقوله (والآخرة خير وأبقى) إلى غير ذلك من الآيات.

(١) قوله تعالى: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا} [الكهف: ٤]

قال السدي: " هم اليهود والنصارى".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: يخوف بالقرآن الذين قالوا: اتخذ الله ولدا، وهم المشركون والنصارى".

قال القرطبي:" هم اليهود، قالوا عزير ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله، وقريش قالت الملائكة بنات الله. فالإنذار في أول السورة عام، وهذا خاص فيمن قال لله ولد".

قال البيضاوي:" خصهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقا بهم استعظاما لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بتقدم ذكره".

=

=

* قوله تعالى: (وينذر) أي: ويخوف ويحذر.
(الذين قالوا) كذبا وبهتانا.
(اتخذ الله ولدا) وهم اليهود والنصارى ومشركي العرب.
كما قال تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون) وقال تعالى (ويجعلون لله البنات).
- فادعاء لله الولد أمر خطير وكبير.
كما قال تعالى (إنكم لتقولون قولا عظيما).
وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا. إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا).
عن ابن عباس. عن النبي ﷺ قال (قال الله كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا) رواه البخاري.
وقال ﷺ (لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم) متفق عليه.
- والله منزه عن الولد لأمور متعددة:
أولا: لأنه مالك كل شيء، والمالك لا بد أن يكون المملوك مباينا له في كل الأحوال.
ثانيا: أنه ليس له زوجة، والابن إنما يكون غالبا ممن له زوجة، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة).
ثالثا: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء، أي: بقاء النوع باستمرار النسل،
=

=

والرب ﷻ ليس بحاجة إلى ذلك، لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعا: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني).... [قاله الشيخ ابن عثيمين].

- قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالا واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) وقال أيضا في آخر هذه السورة (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا).

قوله تعالى: {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ} [الكهف: ٥]، أي:" ليس عند هؤلاء المشركين شيء من العلم على ما يَدَّعونه لله من اتخاذ الولد، ولا لأسلافهم الذي قلَّدوهم فتاهوا جميعـًا في بيداء الجهالة والضلالة".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي ليس لهم بذلك القول بيان ولا حجة، {ولا لآبائهم}، أي: ولا حجة لآبائهم الذين مضوا، فأخبر أنهم أخذوا دينهم من آبائهم بالتقليد لا بالحجة والبيان، لأنهم قالوا كان آباؤنا على هذا".

قال القرطبي:" أي ما لهم بذلك القول علم، لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل. {ولا

=

=

لآبائهم} ، أي: أسلافهم".

قال ابن كثير:" أي: بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه من علم،: {وَلَا لِآبَائِهِمْ} أي: أسلافهم".

قال الزمخشري:" أى: بالولد أو باتخاذه، يعنى أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد اشتملته آباؤهم من الشيطان وتسويله.

قال الزمخشري: فإن قلت: اتخاذ الله ولدا في نفسه محال، فكيف قيل: ما لهم به من علم؟

قلت: معناه ما لهم به من علم، لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به

".

قوله تعالى: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} [الكهف: ٥]، أي:" عَظُمت هذه المقالة الشنيعة التي تخرج من أفواههم".

قال ابن إسحاق:" قولهم: إن الملائكة بنات الله".

قال ابن كثير:" كبرت كلمتهم هذه كلمة.. [و] هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم ".

قال الزمخشري:" تخرج من أفواههم صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشورا من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ ".

قراء مكة: {كَبُرَتْ كَلِمَةً} كما يقال: عَظُم قولُك، وكبر شأنُك.

قال الزمخشري:" والنصب أقوى وأبلغ. وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها

=

=

كلمة".

قوله تعالى: {إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} [الكهف: ٥]، أي:" ما يقولون إلا قولا كاذبًا".

**قال الطبري:**" ما يقول هؤلاء القائلون اتخذ الله ولدا بقيلهم ذلك إلا كذبا وفرية افتروها على الله".

قال ابن كثير:" أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ".

* (ما لهم به من علم ولا لآبائهم) أي: ما نسبوه إلى الله تعالى من الولد، ليس لهم بهذه النسبة علم، وكذلك ليس لآبائهم بهذه النسبة علم، لأن ذلك مستحيل له تعالى، كما قال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السماوات والأرض، أنى يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم).

- قوله (مالهم به.... ) اختلف العلماء في مرجع الضمير في قوله تعالى (به) على أقوال:

قيل: إن الضمير يعود على الله. واختاره الطبري.

**وقيل**: إن الضمير يعود على أقوالهم، أي: ما لهؤلاء القائلين بهذا القول من مقالهم من حجة ولا بيان.

ورجحه: الواحدي، والسمرقندي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن كثير، وابن عاشور.

**وقيل**: إن الضمير يعود على الولد الذي ادعوه باتخاذه.

ورجحه: أبو حيان، والزمخشري، والشوكاني.

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) أي: كبرت هي كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة الشنعاء التي تفوهوا بها، وهي قولهم: اتخذ الله ولدا

=

=
فإنهم ما يقولون إلا قولا كاذبا محالا على الله- تعالى- ومخالفا للواقع ومنافيا للحق والصواب.
وفي هذا التعبير ما فيه من استعظام قبح ما نطقوا به، حيث وصفه- سبحانه- بأنه مجرد كلام لاكته ألسنتهم، ولا دليل عليه سوى كذبهم وافترائهم.
وشبيه بهذه الآية في استعظام ما نطقوا به من قبح قوله- تعالى-: وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئا إدا، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا). (الوسيط).
- قال الشنقيطي: والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: كبرت هي كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة التي فاهوا بها، وهي قولهم: اتخذ الله ولدا.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة (كبرت كلمة) يعني بالكلمة: الكلام الذي هو قولهم (اتخذ الله ولدا).
وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله يطلق اسم الكلمة على الكلام، أوضحته آيات أخر:
كقوله (كلا إنها كلمة هو قائلها) والمراد بها قوله (قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت).
وقوله (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)، وما جاء لفظ الكلمة في القرآن إلا مرادا به الكلام المفيد.

# الفهرس

